تيسير التفسير
(١)

تيسير
تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي
مع الاحتفاظ بكل محتوياته

٧

أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنـــوار
للنشر والتوزيع

تيسير تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي مع الاحتفاظ بكل محتوياته

٧

أ. د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الأولى: ١٤٤٨ هـ - ٢٠٢٦ م

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات	٧
سورة التوبة	٧
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٧
مقاطع السورة ونظمها:	٧
١. براءة الله ورسوله من المشركين:	١١
٢. إعلان البراءة من المشركين إلا من وفى بعهده:	١٣
٣. قتال المشركين بعد انسلاخ الأشهر الحرم:	١٨
٤. إجارة المشرك حتى يسمع كلام الله ثم إبلاغه مأمنه:	٢١
٥. لا عهد للمشركين عند الله إلا من عوهدوا عند المسجد الحرام:	٢٤
٦. المشركون لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة:	٢٤
٧. التوبة والصلاة والزكاة والقتال:	٢٦
٨. قتال الذين نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول:	٣١
٩. الله يعذب الكفار بأيدي المؤمنين ويشفي صدورهم:	٣١
١٠. الله يمتحن المؤمنين بالولاء والبراء:	٣٣
١١. المشركون لا يعمرون مساجد الله وهم كافرون:	٣٤
١٢. عمارة مساجد الله تكون بالإيمان والتقوى:	٣٦
١٣. سقاية الحاج وعمارة المسجد لا تعدل الإيمان والجهاد:	٣٨
١٤. المهاجرون والمجاهدون أعظم درجة عند الله:	٤٦
١٥. الآباء والإخوة والولاية والإيمان:	٤٨
١٦. تقديم حب الله ورسوله والجهاد على كل ما سواه:	٤٩
١٧. حنين والنصر والكثرة والهزيمة:	٥٢
١٨. إنزال السكينة والجنود وتوبة الله على من يشاء:	٦٠
١٩. المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام:	٦٢
٢٠. قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية:	٦٣
٢١. اليهود والنصارى ادعوا بنوة عزير والمسيح لله:	٧٠
٢٢. اليهود والنصارى اتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله:	٧٢

٢٣. الكفار يريدون إطفاء نور الله ويأبى الله إلا إتمامه: ٧٥

٢٤. الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله: ٧٥

٢٥. الأحبار والرهبان وأصحاب الكنوز، وأكل المال بالباطل: ٧٧

٢٦. عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم: ٨٧

٢٧. قتال المشركين كافة: ٩٠

٢٨. النسيء زيادة في الكفر: ٩٢

٢٩. النفير في سبيل الله والتثاقل إلى الأرض: ٩٧

٣٠. التخلف عن النفير والعذاب والاستبدال: ٩٨

٣١. نصر الله للنبي في الغار وإنزال السكينة: ٩٨

٣٢. النفير خفافاً وثقالاً والجهاد بالأموال والأنفس: ١٠٩

٣٣. المنافقون يتعللون بالكذب ليتخلفوا عن الجهاد: ١٠٩

٣٤. عفو الله عن النبي في إذنه للمنافقين قبل تبيّن الصادقين: ١١٢

٣٥. المؤمنون لا يستأذنون في الجهاد بالمال والنفس: ١١٣

٣٦. المنافقون وكراهية الخروج للجهاد وتثبيط الله لهم: ١١٣

٣٧. المنافقون سبب للخبال والفتنة: ١١٦

٣٨. المنافقون يطلبون الإذن لئلا يفتنوا وهم في الفتنة سقطوا: ١١٧

٣٩. المنافقون يفرحون بالسيئة وتسوؤهم الحسنة: ١١٨

٤٠. المؤمنون يتوكلون على الله ولا يصيبهم إلا ما كتبه لهم: ١١٩

٤١. ترقب المؤمنين أحد الحسنيين وترقب الكافرين العذاب: ١٢٠

٤٢. نفقات المنافقين لا تقبل لكفرهم وإتيانهم الصلاة كسالى: ١٢١

٤٣. أموال المنافقين وأولادهم سبب للعذاب: ١٢٢

٤٤. المنافقون والحلف الكاذب والخوف: ١٢٣

٤٥. المنافقون يلمزون النبي في قسمة الصدقات: ١٢٣

٤٦. مصارف الصدقات: ١٢٦

٤٧. المنافقون وإذية النبي وادعاء أنه أذن: ١٣١

٤٨. المنافقون والحلف الكاذب: ١٣٤

٤٩. من يحاد الله ورسوله فله نار جهنم خالداً فيها: ١٣٥

٥٠. المنافقون يحذرون من سورة تنبئهم بما في قلوبهم: ١٣٥

٥١. الاعتذار والكفر والعذاب: ١٤٢
٥٢. من صفات المنافقين الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف: ١٤٦
٥٣. وعد الله المنافقين والكافرين بنار جهنم ولعنته: ١٤٧
٥٤. استمتاع المنافقين بخلاقهم: ١٤٨
٥٥. أنباء الأمم السابقة والرسل والظلم: ١٤٩
٥٦. من صفات المؤمنين: ١٥٠
٥٧. وعد المؤمنين بالجنة والمساكن الطيبة ورضوان الله: ١٥١
٥٨. جهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم: ١٥٣
٥٩. المنافقون وكلمة الكفر: ١٥٤
٦٠. المنافقون يعاهدون الله ثم ينكثون: ١٥٨
٦١. الساخرون من المتطوعين في الصدقات: ١٦١
٦٢. الاستغفار للمنافقين لا ينفعهم: ١٦١
٦٣. المخلّفون فرحوا بقعودهم وكرهوا الجهاد في الحر: ١٦٥
٦٤. المخلّفون يضحكون قليلاً ويبكون كثيراً: ١٦٦
٦٥. المنافقون يستأذنون للخروج فلا يؤذن لهم: ١٦٧
٦٦. النهي عن الصلاة على المنافقين أو القيام على قبورهم: ١٦٧
٦٧. أموال المنافقين وأولادهم سبب للعذاب: ١٧٠
٦٨. المنافقون يستأذنون ويتخلفون عن الجهاد: ١٧١
٦٩. الرسول والمؤمنون والجهاد بالمال والأنفس: ١٧١
٧٠. الأعراب المعذّرون والاستئذان: ١٧٢
٧١. رفع الحرج على الضعفاء والمرضى ومن لا يجدون نفقة: ١٧٢
٧٢. صدق الباكين الذين لا يجدون ما يحملهم: ١٧٣
٧٣. السبيل على الأغنياء الذين يستأذنون وهم أغنياء: ١٧٤
٧٤. اعتذار المنافقين وكذبهم: ١٧٥
٧٥. حلف المنافقين والإعراض عنهم: ١٧٦
٧٦. الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود الله: ١٧٦
٧٧. بعض الأعراب يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بالمؤمنين الدوائر: ١٧٧
٧٨. بعض الأعراب يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ النفقة قربة: ١٧٨

٧٩. السابقون من المهاجرين والأنصار والتابعون لهم بإحسان:	١٧٨
٨٠. من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون:	١٧٩
٨١. من المخلفين من اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً:	١٨٠
٨٢. الصدقة والتطهير والتزكية:	١٨١
٨٣. الله يقبل توبة عباده ويأخذ الصدقات:	١٨٣
٨٤. رؤية الله ورسوله والمؤمنين للأعمال:	١٨٤
٨٥. المرجون لأمر الله وما ينتظرهم من عذاب أو توبة:	١٨٧
٨٦. مسجد الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين:	١٨٨
٨٧. مسجد التقوى أحق بالقيام فيه:	١٩٠
٨٨. البنيان المؤسس على التقوى والبنيان المؤسس على شفا جرف هار:	١٩٢
٨٩. الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة:	١٩٢
٩٠. صفات المجاهدين:	١٩٣
٩١. لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أقرباء:	١٩٥
٩٢. استغفار إبراهيم لأبيه كان عن موعدة:	١٩٦
٩٣. الله لا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون:	١٩٧
٩٤. توبة الله على الواقفين مع الحق في ساعة العسرة:	١٩٨
٩٥. توبة الله على الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى ضاقت عليهم الأرض:	٢٠١
٩٦. الدعوة إلى تقوى الله والكينونة مع الصادقين:	٢٠٣
٩٧. فضل الجهاد والمشقة في سبيل الله وتكفير السيئات:	٢٠٤
٩٨. التفقه في الدين والإنذار بعد الرجوع من الجهاد:	٢٠٥
٩٩. قتال الكفار والغلظة عليهم:	٢٠٦
١٠٠. السورة القرآنية تزيد المؤمنين إيماناً وتزيد المنافقين رجساً:	٢٠٧
١٠١. الاختبار والفتنة والتوبة:	٢٠٩
١٠٢. المنافقون ينظر بعضهم إلى بعض ثم ينصرفون وقلوبهم منصرفة:	٢٠٩
١٠٣. صفات النبي العظيمة من الرأفة والرحمة بالمؤمنين:	٢١٠
١٠٤. التوكل على الله وحده رب العرش العظيم:	٢١١
سورة يونس	٢١٣
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٢١٣

مقاطع السورة ونظمها:	٢١٤
١. الوحي والبشارة للمؤمنين:	٢١٧
٢. خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش:	٢٢٠
٣. المرجع إلى الله والجزاء بالقسط للمؤمنين والكافرين:	٢٢٠
٤. الشمس والقمر والمنازل ومعرفة السنين والحساب:	٢٢٢
٥. اختلاف الليل والنهار آيات للمتقين:	٢٢٣
٦. الذين لا يرجون لقاء الله ورضوا بالدنيا مأواهم النار:	٢٢٤
٧. المؤمنون يهديهم ربهم بإيمانهم ومصيرهم إلى الجنة:	٢٢٦
٨. لو يعجل الله للناس الشر لانتهى أمرهم:	٢٣٠
٩. الإنسان يدعو عند الضر ثم يكفر بعد كشفه:	٢٣١
١٠. إهلاك القرون الظالمة واستخلاف الأمم:	٢٣٢
١١. الكفار يطلبون تبديل القرآن والنبي يتبع الوحي:	٢٣٣
١٢. المشركون يعبدون آلهة زاعمين أنها شفعاء عند الله:	٢٣٦
١٣. الناس كانوا أمة واحدة ثم اختلفوا:	٢٣٨
١٤. الكفار والآيات والغيب:	٢٤٠
١٥. الناس عند الرحمة يفرحون وعند الشدة يمكرون:	٢٤١
١٦. الكفار والإيمان والإخلاص عند الشدة:	٢٤٢
١٧. البغي على النفس:	٢٤٣
١٨. مثل الحياة الدنيا:	٢٤٥
١٩. الله يدعو إلى دار السلام:	٢٤٥
٢٠. للذين أحسنوا الحسنى وزيادة:	٢٤٧
٢١. جزاء السيئات بمثلها:	٢٤٩
٢٢. يوم الحشر يتبرأ المشركون من الذين عبدوهم:	٢٥٠
٢٣. الرزق والتدبير من الله:	٢٥٣
٢٤. الله يبدأ الخلق ثم يعيده والشركاء لا يفعلون ذلك:	٢٥٨
٢٥. القرآن ليس مفترى بل مصدق ومفصل لما قبله:	٢٦٣
٢٦. التحدي بأن يأتوا بسورة مثله وعاقبة المكذبين:	٢٦٤
٢٧. التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله:	٢٦٦

٢٨. من يؤمن ومن لا يؤمن والبراءة من أعمالهم:	٢٦٧
٢٩. لا يمكن إسماع الصم ولا هداية العمي إذا كانوا لا يعقلون:	٢٦٨
٣٠. الله لا يظلم الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون:	٢٦٨
٣١. الحشر ومعرفة الحقيقة والخسارة:	٢٦٨
٣٢. الوفاة والشهادة والمرجع:	٢٦٩
٣٣. لكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط:	٢٧٠
٣٤. الكفار يستعجلون الوعد والنبي لا يملك ضرا ولا نفعاً:	٢٧١
٣٥. العذاب يأتي بغتة والمجرمون يستعجلونه:	٢٧٣
٣٦. الحق من الله واليقين بوقوعه:	٢٧٤
٣٧. العذاب والندامة والقسط:	٢٧٥
٣٨. لله ملك السماوات والأرض ووعده حق:	٢٧٥
٣٩. الموعظة والشفاء والهدى والرحمة للمؤمنين:	٢٧٧
٤٠. الفرح بفضل الله ورحمته:	٢٧٩
٤١. الكفار يحرمون ويحلون من الرزق بغير إذن الله:	٢٨١
٤٢. الله شهيد على كل عمل ولا يعزب عنه شيء:	٢٨٤
٤٣. أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون:	٢٨٦
٤٤. الحزن والعزة:	٢٩٤
٤٥. آيات الله والتوحيد:	٢٩٥
٤٦. تنزيه الله عن الولد والغنى عنه:	٢٩٦
٤٧. الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون:	٢٩٧
٤٨. قصة نوح ودعوته وتكذيب قومه وإنجائه:	٢٩٧
٤٩. بعث الرسل من بعد نوح والطبع على قلوب المعتدين:	٢٩٩
٥٠. إرسال موسى وهارون إلى فرعون واتهامهما بالسحر:	٣٠١
٥١. فرعون يجمع السحرة وموسى يبطل سحرهم:	٣٠٢
٥٢. إيمان قليل من قوم موسى خوفاً من فرعون:	٣٠٤
٥٣. موسى يأمر قومه بالتوكل على الله:	٣٠٦
٥٤. الوحي إلى موسى وهارون باتخاذ البيوت قبلة وإقامة الصلاة:	٣٠٧
٥٥. دعاء موسى على فرعون وقومه واستجابة الله:	٣٠٨

٥٦. إيمان فرعون عند الغرق وتنجية بدنه آية: ٣١٠
٥٧. تمكين بني إسرائيل واختلافهم بعد العلم: ٣١٣
٥٨. الشك وسؤال أهل الكتاب: ٣١٤
٥٩. الذين حقت عليهم كلمة الله لا يؤمنون حتى يروا العذاب: ٣١٧
٦٠. إيمان قوم يونس نفعهم فكشف عنهم العذاب: ٣١٨
٦١. الإيمان لا يكون إلا بإذن الله والرجس على من لا يعقلون: ٣١٩
٦٢. الكفار ينتظرون مثل أيام الذين خلوا من قبلهم: ٣٢١
٦٣. النبي والدين والتوحيد: ٣٢٢
٦٤. الدين والتوحيد والحنيفية: ٣٢٣
٦٥. الحق والهداية والضلال والصبر: ٣٢٤
سورة هود ٣٢٥
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٣٢٥
مقاطع السورة ونظمها: ٣٢٦
١. الكتاب والإنذار والبشرى والتوحيد: ٣٣٠
٢. الاستغفار والتوبة سبب للمتاع الحسن والأجل المسمى: ٣٣٤
٣. الإخفاء والإسرار وعلم الصدور: ٣٣٨
٤. رزق كل دابة على الله: ٣٤٠
٥. خلق السماوات والأرض في ستة أيام وابتلاء الناس بالأعمال: ٣٤٣
٦. تأخير العذاب واستهزاء الكافرين به: ٣٤٩
٧. الرحمة والنعمة واليأس والفرح: ٣٥١
٨. النبي نذير وليس بمسيطر على الكفار: ٣٥٣
٩. التحدي بعشر سور مثل القرآن: ٣٥٦
١٠. الدنيا والآخرة والحبط والبطلان: ٣٦١
١١. البيّنة والشاهد وكتاب موسى: ٣٦٢
١٢. الكذب واللعنة والصدود: ٣٦٩
١٣. الظالمون لا يعجزون الله ولا أولياء لهم: ٣٧١
١٤. الخاسرون حقاً هم الذين خسروا أنفسهم: ٣٧٣
١٥. المؤمنون الصالحون المخبتون أصحاب الجنة: ٣٧٤

١٦. مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع: ٣٧٥
١٧. نوح يدعو قومه فيستهزئون به: ٣٧٥
١٨. نوح يردّ على قومه بأنه على بينة من ربه: ٣٨٥
١٩. نوح لا يسأل أجراً ولا يطرد المؤمنين: ٣٨٨
٢٠. نوح يردّ على قومه: ٣٨٩
٢١. قوم نوح يطلبون العذاب استهزاءً ورده عليهم: ٣٩٣
٢٢. النبي يبرأ من تهمة الافتراء على الله: ٣٩٦
٢٣. الوحي إلى نوح بصنع الفلك: ٣٩٨
٢٤. بداية الطوفان وحمل الأزواج والأهل في الفلك: ٤٠٤
٢٥. ركوب الفلك باسم الله: ٤٠٧
٢٦. نوح ينادي ابنه الذي كان في معزل: ٤٠٨
٢٧. الطوفان والجودي والظالمون: ٤١٠
٢٨. نوح يسأل ربه عن ابنه ويستغفره عن سؤال ما ليس له به علم: ٤١٣
٢٩. هبوط نوح ومن معه بسلام وبركات: ٤٢٠
٣٠. هود يدعو عاداً للاستغفار: ٤٢٢
٣١. قوم عاد يردون على هود بأنه لم يأتهم ببينة: ٤٢٥
٣٢. هود يتبرأ من شركهم ويتوكل على الله: ٤٢٦
٣٣. التولي والبلاغ والاستخلاف: ٤٢٩
٣٤. نجاة هود ومن آمن معه وهلاك عاد باللعنة: ٤٣٠
٣٥. صالح يدعو ثمود للاستغفار: ٤٣١
٣٦. صالح يحذّر قومه من إيذاء الناقة وعقرهم لها: ٤٣٧
٣٧. نجاة صالح والمؤمنين وهلاك المعاندين: ٤٣٩
٣٨. رسل الله يأتون إبراهيم بالبشرى فيستأنس بهم: ٤٣٩
٣٩. بشارة الملائكة لامرأة إبراهيم بإسحاق ويعقوب وتعجبها: ٤٤٣
٤٠. ذهاب الرعب عن إبراهيم ومجادلته في قوم لوط: ٤٤٧
٤١. لوط يضيق بالرسل ويأمر قومه بتقوى الله: ٤٥١
٤٢. إسراء لوط وإمطار قومه بحجارة من سجيل: ٤٦٣
٤٣. شعيب يدعو مدين إلى إيفاء الكيل والميزان والقسط: ٤٦٦

٤٤. شعيب يرد على قومه بأنه يريد الإصلاح والتوفيق من الله:	٤٧١
٤٥. قوم شعيب يستهينون به وبعشيرته ويهددونه بالرجم:	٤٧٨
٤٦. نجاة شعيب والمؤمنين وأخذ الذين ظلموا بالصيحة:	٤٨١
٤٧. إرسال موسى إلى فرعون وقومه:	٤٨١
٤٨. قصص القرى والعبر:	٤٨٤
٤٩. الآيات تنفع من خاف عذاب الآخرة:	٤٨٦
٥٠. يوم القيامة والشقاوة والسعادة والخلود:	٤٨٨
٥١. العبادة والكتاب والاختلاف:	٤٩٦
٥٢. الاستقامة والطغيان:	٤٩٩
٥٣. النهي عن الركون للذين ظلموا:	٥٠٣
٥٤. الصلاة طرفا النهار وزلفاً من الليل والحسنات والسيئات:	٥٠٤
٥٥. الصبر والإحسان والأجر:	٥٠٧
٥٦. القرون والفساد والإصلاح:	٥٠٨
٥٧. الإهلاك والإصلاح والاختلاف:	٥٠٩
٥٨. قصص الأنبياء تثبيت للفؤاد وموعظة للمؤمنين:	٥١٥
٥٩. الأعمال والانتظار والجزاء:	٥١٦
٦٠. لله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله:	٥١٧
سورة يوسف	٥١٨
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٥١٨
مقاطع السورة ونظمها:	٥١٩
١. القرآن والعربية والقصص:	٥٢١
٢. رؤيا يوسف:	٥٢٣
٣. يعقوب يحذّر يوسف من إخوته ويبشره بالاجتباء:	٥٢٥
٤. إخوة يوسف يتشاورون في قتله أو طرحه في الجب:	٥٣٢
٥. إخوة يوسف يطلبون من أبيهم أن يرسله معهم:	٥٤٤
٦. إلقاء يوسف في الجب والوحي إليه وكذب إخوته:	٥٤٦
٧. السيارة تلتقط يوسف وتبيعه بثمن بخس:	٥٥٤
٨. عزيز مصر يشتري يوسف ويوصي امرأته بإكرامه:	٥٥٥

٩. يوسف يبلغ أشده ويؤتى حكماً وعلماً: ٥٥٩
١٠. امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه ويعتصم بالله: ٥٦١
١١. فرار يوسف وتمزق قميصه وحكم الشاهد: ٥٧١
١٢. نسوة المدينة يتحدثن عن امرأة العزيز ومراودتها ليوسف: ٥٧٥
١٣. يوسف يختار السجن على معصية الله واستجابة الله له: ٥٨٢
١٤. فتيان السجن مع يوسف ورؤياهما: ٥٨٧
١٥. يوسف يدعو السجناء إلى التوحيد ويخبرهم بفضل الله: ٥٨٩
١٦. يوسف يحذّر السجناء من الشرك: ٥٩٢
١٧. تأويل رؤيا الفتيان: ٥٩٧
١٨. يوسف يطلب من الناجي أن يذكره عند ربه: ٥٩٨
١٩. رؤيا الملك: ٦٠٠
٢٠. الفتى الناجي يتذكر يوسف ويطلب تأويل الرؤيا: ٦٠٣
٢١. يوسف والملك والنسوة والبراءة: ٦٠٨
٢٢. يوسف يتولى خزائن الأرض ويمكّن له الملك: ٦١٧
٢٣. إخوة يوسف يأتونه فيكرمهم ويطلب منهم إحضار أخيهم: ٦٢١
٢٤. إخوة يوسف يرجعون إلى أبيهم ويطلبون إرسال أخيهم: ٦٢٣
٢٥. يعقوب يأخذ موثقاً من أبنائه قبل إرسال أخيهم: ٦٢٦
٢٦. يعقوب يأمرهم بدخول من أبواب متفرقة ويتوكل على الله: ٦٢٨
٢٧. يوسف يضم أخاه إليه ويعرفه بنفسه: ٦٣٢
٢٨. يوسف يجعل السقاية في رحل أخيه ويتهمهم بالسرقة: ٦٣٢
٢٩. إخوة يوسف يتهمونه بالسرقة: ٦٣٨
٣٠. إخوة يوسف يتوسلون إليه أن يأخذ أحدهم مكانه: ٦٤٠
٣١. إخوة يوسف يستيئسون من إرجاع أخيهم: ٦٤٠
٣٢. يعقوب يتوجع لفقد يوسف وثقته في إرجاع الله لهم: ٦٤٢
٣٣. إخوة يوسف يعودون إليه ويستعطفونه لشدة الضر: ٦٤٧
٣٤. يوسف يكشف عن نفسه لأخوته ويعفو عنهم: ٦٤٩
٣٥. عودة البصر ليعقوب واعتذار الأبناء: ٦٥٣
٣٦. يوسف يكرّم والديه ويدخلون مصر آمنين: ٦٥٦

٣٧. دعاء يوسف ربه بأن يتوفاه مسلماً ويلحقه بالصالحين: ٦٦٢

٣٨. قصص الغيب وحي إلهي: ٦٦٤

٣٩. الآيات والإعراض والشرك: ٦٦٥

٤٠. سبيل الله والدعوة على بصيرة: ٦٦٧

٤١. إرسال الأنبياء إلى القرى والسير في الأرض لمعرفة العاقبة: ٦٦٩

٤٢. استيئاس الرسل ونصر الله: ٦٧٠

٤٣. في قصص الأنبياء عبرة لأولي الألباب: ٦٧٢

سورة التوبة

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٠٤] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. اختلفوا في كونها سورة مستقلة أو جزءاً من سورة الأنفال، واختلاف المفسرين في ذلك ينتهي إلى اختلاف الصحابة ثم التابعين فيه، وقد اختلف في ذلك الحديث عن أئمة أهل البيت عليه السلام غير أن الأرجح بحسب الصناعة ما يدل من حديثهم على أنها ملحقة بسورة الأنفال.

ب. والبحث عن معاني آياتها وما اشتملت عليه من المضامين لا يهدي إلى غرض واحد متعين على حد سائر السور المشتملة على أغراض مشخصة تؤمها أوائلها وتنعطف إليها أواخرها، فأولها آيات تؤذن بالبراءة وفيها آيات القتال مع المشركين، والقتال مع أهل الكتاب، وشطر عظيم منها يتكلم في أمر المنافقين، وآيات في الاستنهاض على القتال وما يتعرض لحال المخلفين، وآيات ولاية الكفار، وآيات الزكاة وغير ذلك، ومعظمها ما يرجع إلى قتال الكفار وما يرجع إلى المنافقين.

ج. وعلى أي حال لا يترتب من جهة التفسير على هذا البحث فائدة مهمة وإن أمكن ذلك من جهة البحث الفقهي الخارج عن غرضنا.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٦] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر براءة الله ورسوله من المشركين الذين نقضوا عهودهم، وتأمر بقتالهم حتى يتوبوا أو يستسلموا، وتذكر أن من تولى منهم فإن الله يعاقبه، وتبين أن المسجد الحرام للمتقين، وتمدح المؤمنين الصادقين في جهادهم، وتذكر أن الله ينصر من ينصره.

٢. الآيات [١٧ ـ ٢٤]:

أ. آيات تبين أن الأعمال إنما تكون حية مرضية إذا صدرت عن حقيقة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وإلا فإنما هي حبط لا تهدي صاحبها إلى سعادة.

ب. وإن من لوازم الإيمان بحقيقته قصر الولاية والحب والوداد في الله ورسوله.

ج. وهي ظاهرة الاتصال والارتباط فيما بينها أنفسها، وأما اتصالها بما تقدمها من الآيات فليس

بذاك الوضوح، وما ذكره بعض المفسرين في وجه اتصالها بما قبلها لا يخلو من تكلف.

٣. الآيات [٢٥ ـ ٢٨]:

أ. تشير الآيات إلى قصة غزوة حنين وتمتن بها نصر الله فيه المؤمنين كسائر المواطن من الغزوات التي نصرهم الله بعجيب نصرته على ضعفهم وقلتهم، وأظهر أعاجيب آياته بتأييد نبيه ﷺ وإنزال جنود لم يروها وإنزال السكينة على رسوله والمؤمنين وتعذيب الكافرين بأيدي المؤمنين.

ب. وفيها الآية التي تحرم على المشركين أن يدخلوا المسجد الحرام بعد عام تسع من الهجرة، وهي العام الذي أذن فيه علي عليه السلام ببراءة، ومنع طواف البيت عرياناً، ودخول المشركين في المسجد الحرام.

٤. الآيات [٢٩ ـ ٣٥] الآيات تأمر بقتال أهل الكتاب ممن يمكن تبقيته بالجزية وتذكر أموراً من وجوه انحرافهم عن الحق في الاعتقاد والعمل.

٥. الآيات [٣٦ ـ ٣٧]:

أ. في الآيتين بيان حرمة الأشهر الحرم: ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب الفرد، وتثبيت حرمتها وإلغاء نسيء الجاهلية.

ب. وفيها الأمر بقتال المشركين كافة.

٦. الآيات [٣٨ ـ ٤٨]:

أ. تعرض للمنافقين وفيه بيان لجمل أوصافهم وعلاماتهم، وشرح ما لقي الإسلام والمسلمون من كيدهم ومكرهم وما قاسوه من المصائب من جهة نفاقهم.

ب. وفي مقدمها عتاب المؤمنين في تثاقلهم عن الجهاد، وحديث خروج النبي ﷺ من مكة وذكر الغار.

٧. الآيات [٤٩ ـ ٦٣] الآيات تعقب القول في المنافقين وبيان حالهم، وفيها ذكر أشياء من أقوالهم وأفعالهم، والبحث عما يكشف عنه من خبائث أوصافهم الباطنة واعتقاداتهم المبنية على الضلال.

٨. الآيات [٦٤ ـ ٧٤]

أ. تذكر الآيات شأناً آخر من شئون المنافقين، وتكشف عن سوأة أخرى من سوءاتهم ستروا عليها بالنفاق، وكانوا يحذرون أن تظهر عليهم وتنزل فيها سورة تقص ما هموا به منها.

ب. والآيات تنبئ عن أنهم كانوا جماعة ذوي عدد كما يدل عليه قوله: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً﴾ وأنه كان لهم بعض الاتصال والتوافق مع جماعة آخرين من المنافقين كما في قوله: ﴿الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ الآية.

ج. وأنهم كانوا على ظاهر الإسلام والإيمان حتى اليوم، وإنما نافقوا يومئذ أي تفوهوا بكلمة الكفر فيما بينهم وأسروا بها يومئذ كما في قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ﴾

د. وأنهم تواطئوا على أمر دبروه فيما بينهم، فأظهروا عند ذلك كلمة الكفر وهموا على أمر عظيم فحال الله بينهم وبينه فخاب سعيهم ولم يؤثر كيدهم كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا﴾

هـ. وأنه ظهر مما هموا به بعض ما يستدل عليه من الآثار والقرائن، فسألوا عن ذلك فاعتذروا بما هو مثله قبحاً وشناعة كما في قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾

و. والآيات التالية لهذه الآيات في سياق متصل منسجم تدل على أن هذه الوقعة أيّاً ما كانت وقعت بعد خروج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك ولما يرجع إلى المدينة كما يدل عليه قوله: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ الآية: [توبة: ٨٣] وقوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [الآية: ٩٥] من السورة.

ز. فيتلخص من الآيات أن جماعة ممن خرج مع النبي ﷺ تواطئوا على أن يمكروا بالنبي ﷺ، وأسروا عند ذلك فيما بينهم بكلمات كفروا بها بعد إسلامهم، ثم هموا أن يفعلوا ما اتفقوا عليه بفتك أو نحوه، فأبطل الله كيدهم وفضحهم وكشف عنهم، فلما سئلوا عن ذلك قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، فعاتبهم الله بلسان رسوله ﷺ بأنه استهزاء بالله وآياته ورسوله، وهددهم بالعذاب إن لم يتوبوا، وأمر نبيه ﷺ أن يجاهدهم ويجاهد الكافرين.

ح. فالآيات، كما ترى، أوضح انطباقاً على حديث العقبة منها على غيره من القصص التي تتضمنها الروايات الأخرى الواردة في بيان سبب نزول الآيات، وسنورد جلها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

٩. الآيات [٧٥ ـ ٨٠]:

أ. تذكر الآيات طائفة أخرى من المنافقين تخلفوا عن حكم الصدقات فامتنعوا عن إيتاء الزكاة،

وقد كانوا فقراء فعاهدوا الله إن أغناهم وآتاهم من فضله ليصدقن وليكونن من الصالحين، فلما آتاهم مالاً بخلوا به وامتنعوا.

ب. وتذكر آخرين من المنافقين يعيبون أهل السعة من المؤمنين بإيتاء الصدقات وكذلك يلمزون أهل العسرة منهم ويسخرون منهم، والله سبحانه يسمي هؤلاء جميعاً منافقين، ويقضي فيهم بعدم المغفرة البتة.

١٠. الآيات [٨١ ـ ٩٦] الآيات تقبل الاتصال بالآيات التي قبلها وهي تعقب غرضاً يعقبه ما تقدمها.

١١. الآيات [٩٧ ـ ١٠٦] الكلام جار على الغرض السابق يبين به حال الأعراب في كفرهم ونفاقهم وإيمانهم، وفي خلال الآيات آية الصدقة.

١٢. الآيات [١٠٧ ـ ١١٠] تذكر الآيات طائفة أخرى من المنافقين بنوا مسجد الضرار، وتقيس حالهم إلى حال جماعة من المؤمنين بنوا مسجداً لتقوى الله.

١٣. الآيات [١١١ ـ ١٢٣] آيات في أغراض متفرقة يجمعها غرض واحد مرتبط بغرض الآيات السابقة، فإنها تتكلم حول القتال:

أ. فمنها ما يمدح المؤمنين ويعدهم وعداً جميلاً على جهادهم في سبيل الله.

ب. ومنها ما ينهى عن التودد إلى المشركين والاستغفار لهم.

ج. ومنها ما يدل على توبته تعالى للثلاثة المخلفين عن غزوة تبوك.

د. ومنها ما يفرض على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يخرجوا مع النبي ﷺ إذا أراد الخروج إلى قتال ولا يتخلفوا عنه.

هـ. ومنها ما يفرض على الناس أن يلازم بعضهم البيضة للتفقه في الدين ثم تبليغه إلى قومهم إذا رجعوا إليهم.

و. ومنها ما يقضي بقتال الكفار ممن يلي بلاد الإسلام.

١٤. الآيات [١٢٤ ـ ١٢٩]

أ. هي آيات تختتم بها آيات براءة، وهي تذكر حال المؤمنين والمنافقين عند مشاهدة نزول السور

القرآنية، يتحصل بذلك أيضاً أمارة من أمارات النفاق يعرف بها المنافق من المؤمن، وهو قولهم عند نزول القرآن: أيكم زادته هذه إيماناً؟ ونظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد؟

ب. وفيها وصفه تعالى نبيه ﷺ وصفاً يحن به إليه قلوب المؤمنين، وأمره بالتوكل عليه إن أعرضوا عنه.

١. براءة الله ورسوله من المشركين:

المقطع [١] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ١-٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٤٦»:

١. ﴿بَراءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾:

أ. قال الراغب: (أصل البرء والبراء والتبري ـ: التفصي مما يكره مجاورته، ولذلك قيل: برأت من المرض وبرئت من فلان وتبرأت، وأبرأته من كذا وبرأته، ورجل بريء وقوم براء وبريئون قال تعالى: {براءة من الله ورسوله})

ب. والآية بالنسبة إلى الآيات التالية كالعنوان المصدر به الكلام المشير إلى خلاصة القول على نهج سائر السور المفصلة التي تشير الآية والآيتان من أولها على إجمال الغرض المسرود لأجل بيانه آياتها.

ج. والخطاب في الآية للمؤمنين أو للنبي ﷺ ولهم على ما يدل عليه قوله: ﴿عاهَدْتُمْ﴾ وقد أخذ الله تعالى ومنه الخطاب ورسوله ﷺ وهو الواسطة، والمشركون وهم الذين أريدت البراءة منهم، ووجه الخطاب ليبلغ إليهم جميعا في الغيبة، وهذه الطريقة في الأحكام والفرامين المراد إيصالها إلى الناس نوع تعظيم لصاحب الحكم والأمر.

د. والآية تتضمن إنشاء الحكم والقضاء بالبراءة من هؤلاء المشركين وليس بتشريع محض بدليل تشريكه النبي ﷺ في البراءة فإن دأب القرآن أن ينسب الحكم التشريعي المحض إلى الله سبحانه وحده، وقد قال تعالى: ﴿وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ٢٦] ولا ينسب إلى النبي ﷺ إلا الحكم بالمعنى الذي في الولاية والسياسة وقطع الخصومة.

هـ. فالمراد بالآية القضاء برفع الأمان عن الذين عاهدوهم من المشركين وليس رفعا جزافيا وإبطالا

للعهد من غير سبب يبيح ذلك فإن الله تعالى سيذكر بعد عدة آيات أنهم لا وثوق بعهدهم الذي عاهدوه وقد فسق أكثرهم ولم يراعوا حرمة العهد ونقضوا ميثاقهم، وقد أباح تعالى عند ذلك إبطال العهد بالمقابلة نقضا بنقض حيث قال: ﴿وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] فأباح إبطال العهد عند مخافة الخيانة ولم يرض مع ذلك إلا بإبلاغ النقض إليهم لئلا يؤخذوا على الغفلة فيكون ذلك من الخيانة المحظورة.

و. ولو كان إبطالا لعهدهم من غير سبب مبيح لذلك من قبل المشركين لم يفرق بين من دام على عهده منهم وبين من لم يدم عليه، وقد قال تعالى مستثنيا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

ز. ولم يرض تعالى بنقض عهد هؤلاء المعاهدين الناقضين لعهدهم دون أن ضرب لهم أجلا ليفكروا في أمرهم ويرتئوا رأيهم ولا يكونوا مأخوذين بالمباغتة والمفاجأة.

ح. فمحصل الآية الحكم ببطلان العهد ورفع الأمان عن جماعة من المشركين كانوا قد عاهدوا المسلمين ثم نقضه أكثرهم ولم يبق إلى من بقي منهم وثوق تطمئن به النفس إلى عهدهم وتعتمد على يمينهم وتأمن شرهم وأنواع مكرهم.

٢. ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ﴾:

أ. السياحة هي السير في الأرض والجري ولذلك يقال للماء الدائم الجرية في ساحة: السائح، وأمرهم بالسياحة أربعة أشهر كناية عن جعلهم في مأمن في هذه البرهة من الزمان وتركهم بحيث لا يتعرض لهم بشر حتى يختاروا ما يرونه أنفع بحالهم من البقاء أو الفناء مع ما في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ﴾ من إعلامهم أن الأصلح بحالهم رفض الشرك، والإقبال إلى دين التوحيد، وموعظتهم أن لا يهلكوا أنفسهم بالاستكبار والتعرض للخزي الإلهي.

ب. وقد وجه في الآية الخطاب إليهم بالالتفات من الغيبة إلى الخطاب لما في توجيه الخطاب القاطع والإرادة الجازمة إلى الخصم من الدلالة على بسط الاستيلاء والظهور عليه واستذلاله واستحقار ما عنده من قوة وشدة.

٣. وقد اختلفت أقوال المفسرين في المراد بقوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾:

أ. والذي يدل عليه السياق ويؤيده اعتبار إصدار الحكم وضرب الأجل ليكونوا في فسحة لاختيار ما وجدوه من الحياة أو الموت أنفع بحالهم: أن تبتدأ الأربعة الأشهر من يوم الحج الأكبر الذي يذكره الله تعالى في الآية التالية فإن يوم الحج الأكبر هو يوم الإبلاغ والإيذان والأنسب بضرب الأجل الذي فيه نوع من التوسعة للمحكوم عليهم وإتمام الحجة، أن تبتدأ من حين الاعلام والإيذان، وقد اتفقت كلمة أهل النقل أن الآيات نزلت سنة تسع من الهجرة فإذا فرض أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر العاشر من ذي الحجة كانت الأربعة الأشهر هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشرة أيام من ربيع الآخر.

ب. وعند قوم أن الأربعة الأشهر تبتدأ من يوم العشرين من ذي القعدة وهو يوم الحج الأكبر عندهم فالأربعة الأشهر هي عشرة أيام من ذي القعدة وذو الحجة والمحرم وصفر وعشرون من ربيع الأول، وسيأتي ما فيه.

ج. وذكر آخرون: أن الآيات نزلت أول شوال سنة تسع من الهجرة فتكون الأربعة الأشهر هي شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم فتنقضي بانقضاء الأشهر الحرم، وقد حدأهم إلى ذلك القول بأن المراد بقوله تعالى فيما سيأتي: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا﴾ الأشهر الحرم المعروفة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم فيوافي انسلاخ الأشهر الحرم انقضاء الأربعة الأشهر، وهذا قول بعيد عن الصواب لا يساعد عليه السياق وقرينة المقام كما عرفت.

٢. إعلان البراءة من المشركين إلا من وفى بعهده:

المقطع [٢] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٤٨»:

١. ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ الأذان هو الاعلام، وليست الآية تكرارا لقوله تعالى السابق ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإن الجملتين وإن رجعتا

إلى معنى واحد وهو البراءة من المشركين إلا أن الآية الأولى إعلام البراءة وإبلاغه إلى المشركين بدليل قوله في ذيل الآية: ﴿إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بخلاف الآية الثانية فإن وجه الخطاب فيه إلى الناس ليعلموا براءة الله ورسوله من المشركين، ويستعدوا ويتهيئوا لإنفاذ أمر الله فيهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم بدليل قوله: ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ وقوله تفريعا: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ إلى آخر الآية.

٢. وقد اختلفوا في تعيين المراد بيوم الحج الأكبر على أقوال:

أ. منها: أنه يوم النحر من سنة التسع من الهجرة لأنه كان يوما اجتمع فيه المسلمون والمشركون ولم يحج بعد ذلك العام مشرك، وهو المؤيد بالأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت عليه السلام والأنسب بأذان البراءة، والاعتبار يساعد عليه لأنه كان أكبر يوم اجتمع فيه المسلمون والمشركون من أهل الحج عامة بمنى وقد ورد من طرق أهل السنة روايات في هذا المعنى غير أن مدلول جلها أن الحج الأكبر اسم يوم النحر فيتكرر على هذا كل سنة ولم يثبت من طريق النقل تسمية على هذا النحو.

ب. ومنها: أنه يوم عرفة لأن فيه الوقوف، والحج الأصغر هو الذي ليس فيه وقوف وهو العمرة، وهو استحسان لا دليل عليه، ولا سبيل إلى تشخيص صحته.

ج. ومنها: أنه اليوم الثاني ليوم النحر لأن الإمام يخطب فيه وسقم هذا الوجه ظاهر.

د. ومنها: أنه جميع أيام الحج كما يقال: يوم الجمل، ويوم صفين، ويوم بغاث، ويراد به الحين والزمان، وهذا القول لا يقابل سائر الأقوال كل المقابلة فإنه إنما يبين أن المراد باليوم جميع أيام الحج، وأما وجه تسمية هذا الحج بالحج الأكبر فيمكن أن يوجه ببعض ما في الأقوال السابقة كما في القول الأول، وكيف كان فالاعتبار لا يساعد على هذا القول لأن وجود يوم بين أيام الحج يجتمع فيه عامة أهل الحج يتمكن فيه من أذان براءة كل التمكن كيوم النحر يصرف قوله: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ إلى نفسه، ويمنع شموله لسائر أيام الحج التي لا يجتمع فيها الناس ذاك الاجتماع.

٣. ثم التفت سبحانه إلى المشركين ثانيا وذكرهم أنهم غير معجزين لله ليكونوا على بصيرة من أمرهم كما ذكرهم بذلك في الآية السابقة بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ﴾ غير أنه زاد عليه في هذه الآية قوله: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ليكون تصريحا بما لوح إليه في الآية السابقة

فإن التذكير بأنهم غير معجزي الله إنما كان بمنزلة العظة وبذل النصح لهم لئلا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة باختيار البقاء على الشرك والتولي عن الدخول في دين التوحيد ففي الترديد تهديد ونصيحة وعظة.

٤. ثم التفت سبحانه إلى رسوله فخاطبه أن يبشر الذين كفروا بعذاب أليم فقال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والوجه في الالتفات الذي في قوله: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ الآية ما تقدم في قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، وفي الالتفات الذي في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية إنه رسالة لا تتم إلا من جهة مخاطبة النبي ﷺ.

٥. ﴿إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً﴾ الآية:

أ. استثناء من عموم البراءة من المشركين، والمستثنون هم المشركون الذين لهم عهد لم ينقضوه لا مستقيما ولا غير مستقيم فمن الواجب الوفاء بميثاقهم وإتمام عهدهم إلى مدتهم.

ب. وقد ظهر بذلك أن المراد من إضافة قوله: ﴿وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً﴾ إلى قوله: ﴿لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾ استيفاء قسمي النقض وهما النقض المستقيم كقتلهم بعض المسلمين، والنقض غير المستقيم نظير مظاهرتهم بعض أعداء المسلمين عليهم كإمداد مشركي مكة بني بكر على خزاعة بالسلاح، وكانت بنو بكر في عهد قريش وخزاعة في عهد النبي ﷺ فحاربوا فأعانت قريش بني بكر على خزاعة ونقضت بذلك عهد حديبية الذي عقدوه بينهم وبين النبي ﷺ، وكان ذلك من أسباب فتح مكة سنة ثمان.

٦. ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ في مقام التعليل لوجوب الوفاء بالعهد ما لم ينقضه المعاهد المشرك، وذلك يجعل احترام العهد وحفظ الميثاق أحد مصاديق التقوى المطلق الذي لا يزال يأمر به القرآن وقد صرح به في نظائر هذا المورد كقوله تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾ المائدة: ٨ وقوله: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا، وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [المائدة: ٢]، وبذلك يظهر ما في قول بعضهم: إن المراد بالمتقين الذين يتقون نقض العهد من غير سبب، وذلك أن التقوى بمعنى الورع عن محارم الله عامة كالحقيقة الثانية في القرآن فيحتاج إرادة خلافه إلى قرينة صارفة.

٧. وضع هنا مبحثاً حول [تحقيق قصة بعث علي عليه السلام ببراءة ودلالة قوله (لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني)]، خلاصته:

أ. بيان أن النبي ﷺ بعث أبا بكر ببراءة، ثم أوحى الله إليه أن لا يؤديها إلا هو أو رجل منه، فأرسل علياً ليتولى التبليغ.

ب. إثبات أن كلمة الوحي (لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك) مطلقة غير مقيدة ببراءة، وتشمل كل حكم إلهي يجب على النبي تبليغه ابتداءً.

ج. الرد على من زعم أن هذه الكلمة خاصة بنقض العهد مراعاة لسنة العرب، وبيان أن ذلك لا دليل عليه، وأن الإسلام ينسخ السنن الجاهلية.

د. توضيح أن علياً عليه السلام كان ينادي بأحكام متعددة: براءة، منع المشركين من الحج، منع الطواف عرياناً، تأجيل العهود، و(لا يدخل الجنة إلا مؤمن)

هـ. بيان أن ما ورد من روايات مشاركة أبي هريرة في النداء لا يصح، لأنها تخالف جوهر القصة وتناقض دلالة كلمة الوحي.

و. نقد توجيه ابن كثير ومن تابعه من أن تخصيص علي بالتبليغ كان لمراعاة السنة العربية، وبيان أنه توجيه لا دليل عليه ولا ينطبق على سياق الآيات.

ز. توضيح أن إمارة الحج لأبي بكر لا تنفي ولا تثبت فضلاً، وأنها مسألة ولاية عامة لا تتعلق بتبليغ الوحي.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن حكيم بن جبير عن علي بن الحسين عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: الأذان أمير المؤمنين عليه السلام.

ب. أقول: وروي هذا المعنى أيضا عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام، وعن جابر عن جعفر بن محمد وأبي جعفر عليه السلام، ورواه القمي عن أبيه عن فضالة عن أبان بن عثمان عن حكيم بن جبير عن علي بن الحسين عليه السلام قال: وفي حديث آخر قال: كنت أنا الأذان في الناس: ورواه الصدوق أيضا بإسناده عن حكيم عنه عليه السلام، ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم عن حكيم بن حميد عن علي بن الحسين عليه السلام، وقال في تفسير البرهان: قال السدي وأبو مالك وابن عباس وزين العابدين: الأذان هو علي بن أبي طالب فأدى به.

ج. وفي تفسير البرهان، عن الصدوق بإسناده عن الفضيل بن عياض عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الحج الأكبر، فقال: عندك فيه شيء؟ فقلت: نعم، كان ابن عباس يقول: الحج الأكبر يوم عرفة، يعني أنه من أدرك يوم عرفة، إلى طلوع الشمس من يوم النحر فقد أدرك الحج، ومن فاته ذلك فاته الحج، فجعل ليلة عرفة لما قبلها ولما بعدها، والدليل على ذلك، أنه من أدرك ليلة النحر إلى طلوع الفجر، فقد أدرك الحج وأجزي عنه من عرفة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام، الحج الأكبر يوم النحر واحتج بقول الله عز وجل: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ فهي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر، وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر، ولو كان الحج الأكبر يوم عرفة لكان السيح أربعة أشهر ويوما، واحتج بقوله عز وجل: ﴿وَأَذانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وكنت أنا الأذان في الناس، قلت: فما معنى هذه اللفظة: الحج الأكبر؟ فقال: إنما سمي الأكبر، لأنها كانت سنة حج فيها المسلمون والمشركون، ولم يحج المشركون بعد تلك السنة.

د. وفيه، عنه بإسناده عن معاوية بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن يوم الحج الأكبر، فقال: يوم النحر والأصغر العمرة.

• أقول: وفي الرواية مضافا إلى تفسير اليوم بيوم النحر إشارة إلى وجه تسمية الحج بالأكبر، وقد أطبقت الروايات عن أئمة أهل البيت عليه السلام إلا ما شذ على أن المراد بيوم الحج الأكبر في الآية هو يوم الأضحى عاشر ذي الحجة وهو يوم النحر، ورووا ذلك عن علي عليه السلام، وروى هذه الرواية الكليني في الكافي، عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام، وروى ذلك أيضا بإسناده عن ذريح عنه عليه السلام، وكذا الصدوق بإسناده إلى ذريح عنه عليه السلام، ورواه العياشي عن عبد الرحمن وابن أذينة والفضيل بن عياض عنه عليه السلام.

هـ. أخرج ابن مردويه عن ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ: أنه قال يوم الأضحى: هذا يوم الحج الأكبر.

و. وفيه، أيضا أخرج البخاري تعليقا وأبو داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات، في الحجة التي حج فقال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر، قال: هذا يوم الحج الأكبر.

• أقول: وروي ذلك بطرق مختلفة عن علي عليه السلام وابن عباس ومغيرة بن شعبة وأبي جحيفة

وعبد الله بن أبي أوفى، وقد روي بطرق مختلفة أخرى عن النبي ﷺ أنه يوم عرفة، وكذا روي ذلك عن علي وابن عباس وابن الزبير، وروي عن سعيد بن المسيب أنه اليوم التالي ليوم النحر، وروي أنه أيام الحج كلها، وروي أنه الحج في العام الذي حج فيها أبو بكر، وهذا الوجه الأخير لا يأبى الانطباق على ما تقدم من الحديث عن الصادق عليه السلام: أنه سمي الحج الأكبر، لما حج في تلك السنة المسلمون والمشركون جميعا.

٣. قتال المشركين بعد انسلاخ الأشهر الحرم:

المقطع [٣] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٥١»:

١. ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾:

أ. أصل الانسلاخ من سلخ الشاة وهو نزع جلدها عنها، وانسلاخ الشهر نوع كناية عن خروجه، والحصر هو المنع من الخروج عن محيط، والمرصد اسم مكان من الرصد بمعنى الاستعداد للرقوب.

ب. قال الراغب: (الرصد الاستعداد للترقب يقال: رصد له وترصد وأرصدته له، قال عز وجل: ﴿وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ﴾ تنبيها أنه لا ملجأ ولا مهرب، والرصد يقال للراصد الواحد والجماعة الراصدين وللمرصود واحدا كان أو جمعا، وقوله تعالى: ﴿يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ يحتمل كل ذلك، والمرصد موضع الرصد)

ج. والمراد بالأشهر الحرم هي الأربعة الأشهر: أشهر السياحة التي ذكرها الله سبحانه في قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وجعلها أجلا مضروبا للمشركين لا يتعرض فيها لحالهم وأما الأشهر الحرم المعروفة أعني ذا القعدة وذا الحجة والمحرم فإنها لا تنطبق على أذان براءة الواقع في يوم النحر عاشر ذي الحجة بوجه كما تقدمت الإشارة إليه.

د. وعلى هذا فاللام في الأشهر الحرم للعهد الذكري أي إذا انسلخ هذه الأشهر التي ذكرناها وحرمناها للمشركين لا يتعرض لحالهم فيها فاقتلوا المشركين إلخ.

هـ. ويظهر بذلك أن لا وجه لحمل قوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ على انسلاخ ذي القعدة

وذي الحجة والمحرم بأن يكون انسلاخ الأربعة الأشهر بانسلاخ الأشهر الثلاثة منطبقا عليه أو يكون انسلاخ الأشهر الحرم مأخوذا على نحو الإشارة إلى انقضاء الأربعة الأشهر وإن لم ينطبق الأشهر على الأشهر فإن ذلك كله مما لا سبيل إليه بحسب السياق وإن كان لفظ الأشهر الحرم في نفسه ظاهرا في شهور رجب وذي القعدة وذي الحجة والمحرم.

٢. ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾:

أ. محقق للبراءة منهم ورفع الاحترام عن نفوسهم بإهدار الدماء فلا مانع من أي نازلة نزلت بهم، وفي قوله: ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ تعميم للحكم فلا مانع حاجب عن وجوب قتلهم حيثما وجدوا في حل أو حرم بل ولو ظفر بهم في الشهر الحرام، بناء على تعميم ﴿حَيْثُ﴾ للزمان والمكان كليهما، فيجب على المسلمين كائنين من كانوا إذا ظفروا بهم أن يقتلوهم، كان ذلك في الحل أو الحرم في الشهر الحرام أو غيره.

ب. وإنما أمر بقتلهم حيث وجدوا للتوسل بذلك إلى إيرادهم مورد الفناء والانقراض، وتطييب الأرض منهم، وإنجاء الناس من مخالطتهم ومعاشرتهم بعد ما سمح وأبيح لهم ذلك في قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾

ج. ولازم ذلك أن يكون كل من قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ بيانا لنوع من الوسيلة إلى إفناء جمعهم وإنفاد عددهم، ليتفصى المجتمع من شرهم، فإن ظفر بهم وأمكن قتلهم قتلوا، وإن لم يمكن ذلك قبض عليهم وأخذوا، وإن لم يمكن أخذهم حصروا وحبسوا في كهفهم ومنعوا من الخروج إلى الناس ومخالطتهم وإن لم يعلم محلهم قعد لهم في كل مرصد ليظفر بهم فيقتلوا أو يؤخذوا.

د. ولعل هذا المعنى هو مراد من قال: إن المراد: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم أو خذوهم واحصروهم على وجه التخيير في اعتبار الأصلح من الأمرين، وإن كان لا يخلو عن تكلف من جهة اعتبار الأخذ والحصر والقعود في كل مرصد أمرا واحدا في قبال القتل، وكيف كان فالسياق إنما يلائم ما قدمناه من المعنى.

هـ. وأما قول من قال: إن في قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾، تقديما وتأخيرا، والتقدير: فخذوا المشركين حيث وجدتموهم واقتلوهم فهو من التصرف في معنى الآية من غير

دليل مجوز، والآية وخاصة ذيلها يدفع ذلك سياقا.

و. ومعنى الآية: فإذا انسلخ الأشهر الحرم وانقضى الأربعة الأشهر التي أمهلناهم بها بقولنا: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ فأفنوا المشركين بأي وسيلة ممكنة رأيتموها أقرب وأوصل إلى إفناء جمعهم وإمحاء رسمهم من قتلهم أينما وجدتموهم من حل أو حرم ومتى ما ظفرتم بهم في شهر حرام أو غيره ومن أخذهم أو حصرهم أو القعود لهم في كل مرصد حتى يفنوا عن آخرهم.

٣. ﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. اشتراط في معنى الغاية للحكم السابق، والمراد بالتوبة معناها اللغوي وهو الرجوع أي إن رجعوا من الشرك إلى التوحيد بالإيمان ونصبوا لذلك حجة من أعمالهم وهي الصلاة والزكاة والتزموا أحكام دينكم الراجعة إلى الخالق جميعا فخلوا سبيلهم.

ب. وتخلية السبيل كناية عن عدم التعرض لسالكيه وإن عادت مبتذلة بكثرة التداول كان سبيلهم مسدودة مشغولة بتعرض المتعرضين فإذا خلي عنها كان ذلك ملازما أو منطبقا على عدم التعرض لهم.

٤. ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ إما من جهة الأمر الذي يدل عليه بصورته أو من جهة المأمور به الذي يدل عليه بمادته أعني تخلية سبيلهم.

أ. والمعنى على الأول: وإنما أمر الله بتخلية سبيلهم لأنه غفور رحيم يغفر لمن تاب إليه ويرحمه.

ب. وعلى الثاني: خلوا سبيلهم لأن تخليتكم سبيلهم من المغفرة والرحمة، وهما من صفات الله العليا فتتصفون بذلك بصفة ربكم وأظهر الوجهين هو الأول.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ، فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ قال: هي يوم النحر إلى عشر مضين من شهر ربيع الآخر.

ب. وفي الدر المنثور: في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ﴾ أخرج الحاكم وصححه عن مصعب بن عبد الرحمن عن أبيه قال: افتتح رسول الله ﷺ مكة، ثم انصرف إلى الطائف فحاصرهم ثمانية أو سبعة، ثم ارتحل غدوة وروحة ثم نزل ثم هجر، ثم قال: أيها الناس إني لكم فرط، وإني أوصيكم بعترتي خيرا موعدكم الحوض، والذي نفسي بيده لتقيمن الصلاة، ولتؤتن الزكاة أو لأبعثن

عليكم رجلا مني أو كنفسي، فليضربن أعناق مقاتلهم وليسبين ذراريهم، فرأى الناس أنه يعني أبا بكر أو عمر فأخذ بيد علي فقال: هذا.

• أقول: يعني ﷺ به الكفر.

ج. وفي تفسير العياشي، في حديث جابر عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿فَإِنْ تابُوا﴾ يعني فإن آمنوا فإخوانكم في الدين.

٤. إجارة المشرك حتى يسمع كلام الله ثم إبلاغه مأمنه:

المقطع [٤] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٥٣»:

١. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الآية تتضمن حكم الإجارة لمن استجار من المشركين لأن يسمع كلام الله، وهي بما تشتمل عليه من الحكم وإن كانت معترضة أو كالمعترضة بين ما يدل على البراءة ورفع الأمان عن المشركين إلا أنها بمنزلة دفع الدخل الواجب الذي لا يجوز إهماله فإن أساس هذه الدعوة الحقة وما يصاحبها من الوعد والوعيد والتبشير والإنذار، وما يترتب عليه من عقد العقود وإبرام العهود أو النقض والبراءة وأحكام القتال كل ذلك إنما هو لصرف الناس عن سبيل الغي والضلال إلى صراط الرشد والهدى، وإنجائهم من شقاء الشرك إلى سعادة التوحيد.

ب. ولازم ذلك الاعتناء التام بكل طريق يرجى فيه الوصول إلى هداية ضال والفوز بإحياء حق وإن كان يسيرا قليلا فإن الحق حق وإن كان يسيرا، والمشرك غير المعاهد وإن أبرأ الله منه الذمة وأهدر دمه ورفع الحرمة عن كل ما يعود إليه من مال وعرض لكنه تعالى إنما فعل به ذلك ليحيي حق ويبطل باطل فإذا رجي منه الخير منع ذلك من أي قصد سيئ يقصد به حتى يحصل اليأس من هدايته وإنجائه.

ج. فإذا استجار المشرك لينظر فيما تندب إليه الدعوة الحقة ويتبعها إن اتضحت له كان من الواجب إجارته حتى يسمع كلام الله ويرتفع عنه غشاوة الجهل وتتم عليه الحجة فإذا تمادى بعد ذلك في ضلاله وأصر في استكباره صار ممن ارتفع عنه الأمان وبرئت منه الذمة ووجب تطييب الأرض من قذارة وجوده

بأية وسيلة أمكنت وأي طريق كان أقرب وأسهل وهذا هو الذي يفيده قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ الآية بما يكتنف به من الآيات.

د. فمعنى الآية: إن طلب منك بعض هؤلاء المشركين الذين رفع عنهم الأمان أن تأمنه في جوارك ليحضر عندك ويكلمك فيما تدعو إليه من الحق الذي يتضمنه كلام الله فأجره حتى يسمع كلام الله ويرتفع عنه غشاوة الجهل ثم أبلغه مأمنه حتى يملك منك أمنا تاما كاملا، وإنما شرع الله هذا الحكم وبذل لهم هذا الأمن التام لأنهم قوم جاهلون ولا بأس على جاهل إذا رجي منه الخير بقبول الحق لو وضح له.

هـ. وهذا غاية ما يمكن مراعاته من أصول الفضيلة وحفظ الكرامة ونشر الرحمة والرأفة وشرافة الإنسانية اعتبره القرآن الكريم، وندب إليه الدين القويم.

٢. وقد بان بما قدمناه:

أ. أولا: أن الآية مخصصة لعموم قوله في الآية السابقة: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾

ب. وثانيا: أن قوله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ﴾ غاية للاستجارة والإجارة فيتغيا به الحكم، فالاستئمان إنما كان لسمع كلام الله واستفسار ما عند الرسول من مواد الرسالة فيتقدر الأمان الذي يعطاه المستجير المستأمن بقدره فإذا سمع من كلام الله ما يتبين به الرشد من الغي ويتميز به الهدى من الضلال انتهت مدة الاستجارة وحان أن يرد المستجير إلى مأمنه والمكان الخاص به الذي هو في أمن فيه، لا يهدده فيه سيوف المسلمين ليرجع إلى حاله الذي فارقه، ويختار لنفسه ما يشاء على حرية من المشية والإرادة.

ج. وثالثا: أن المراد بكلام الله مطلق آيات القرآن الكريم، نعم يتقيد بما ينفع المستجير من الآيات التي توضح له أصول المعارف الإلهية ومعالم الدين والجواب عما يختلج في صدره من الشبهات كل ذلك بدلالة المقام والسياق، وبذلك يظهر فساد ما قيل: إن المراد بكلام الله آيات التوحيد من القرآن، وكذا ما قيل: إن المراد به سورة براءة أو خصوص ما بلغوه في الموسم من آيات صدر السورة فإن ذلك كله تخصيص من غير مخصص.

د. ورابعا: أن المراد بسمع كلام الله الوقوف على أصول الدين ومعالمه وإن أمكن أن يقال: إن لاستماع نفس كلام الله فيما إذا كان المستجير عربيا يفهم الكلام الإلهي دخلا في ذلك أما إذا كان غير عربي

ولا يفهم الكلام العربي فالمستفاد من السياق أن الغاية في حقه مجرد تفقه أصول الدين ومعالمه.

هـ. وخامسا: أن الآية محكمة غير منسوخة ولا قابلة له لأن من الضروري البين من مذاق الدين، وظواهر الكتاب والسنة أن لا مؤاخذة قبل تمام الحجة، ولا تشديد أي تشديد كان إلا بعد البيان فالجاهل السالك في سبيل الفحص أو المستعلم للحق المستفهم للحقيقة لا يرد خائبا ولا يؤخذ غافلا فعلى الإسلام والمسلمين أن يعطوا كل الأمان لمن استأمنهم ليستحضر معارف الدين ويستعلم أصول الدعوة حتى يتبعها إن لاحت له فيها لوائح الصدق، وهذا أصل لا يقبل بطلانا ولا تغييرا ما دام الإسلام إسلاما فالآية محكمة غير قابلة للنسخ إلى يوم القيامة، ومن هنا يظهر فساد قول من قال: إن قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ﴾ الآية منسوخة بالآية الآتية: ﴿وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ الآية.

و. وسادسا: أن الآية إنما توجب إجارة المستجير إذا استجار لأمر ديني يرجى فيه خير الدين، وأما مطلق الاستجارة لا لغرض ديني ولا نفع عائد إليه فلا دلالة لها عليه أصلا بل الآيات السابقة الآمرة بالتشديد عليهم في محلها.

ز. وسابعا: أن قوله في تتميم الأمر بالإجارة: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ مع تمام قوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ﴾ بدونه في الدلالة على المقصد يدل على كمال العناية بفتح باب الهداية على وجوه الناس، والتحفظ على حرية الناس في حياتهم وأعمالهم الحيوية، والإغماض في طريقه عن كل حكم حتمي وعزيمة قاطعة ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، ولا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ح. وثامنا: أن الآية، كما قيل، تدل على أن الاعتقاد بأصل الدين يجب أن يكون عن علم يقيني لا يداخله شك ولا يمازجه ريب ولا يكفي فيه غيره ولو كان الظن الراجح، وقد ذم الله تعالى اتباع الظن، وندب إلى اتباع العلم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ [النجم: ٢٨] وقوله: ﴿ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، ولو كفى في أصل الدين الاعتقاد التقليدي لم يستقم الحكم بإجارة من استجار لتفهم أصول الدين ومعارفه لجواز أن يكلف بالتقليد والكف عن البحث عن أنه حق أو باطل هذا، ولكن المقدار الواجب في ذلك أن يكون عن علم قطعي سواء كان حاصلا عن الاستدلال بطرق فنية

أو بغير ذلك من الوجوه المفيدة للعلم ولو على سبيل الاتفاق، وهذا غير القول بأن الاستدلال على أصول المعارف لا يصح إلا من طريق العقل فإن صحة الاستدلال أمر، وجواز الاعتماد على العلم بأي طريق حصل أمر آخر.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ الآية، قال: قال: اقرأ عليه وعرفه، ثم لا تتعرض له حتى يرجع إلى مأمنه.

ب. وفي تفسير البرهان، عن ابن شهرآشوب عن تفسير القشيري: أن رجلا قال لعلي يا ابن أبي طالب، فمن أراد منا أن يلقي رسول الله في بعض الأمر، من بعد انقضاء الأربعة فليس له عهد؟ قال علي: بلى لأن الله قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ الآية.

٥. لا عهد للمشركين عند الله إلا من عوهدوا عند المسجد الحرام:

المقطع [٥] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهَّ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٥٦»:

١. ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ الآية، تبيين وتوضيح لما مر إجمالا من الحكم بنقض عهد المشركين ممن لا وثوق بوفائه بعهده، وقتلهم إلى أن يؤمنوا بالله ويخضعوا لدين التوحيد، واستثناء من لم ينقض العهد وبقي على الميثاق حتى ينقضي مدة عهدهم، فالآية وما يتلوها إلى تمام ست آيات تبين ذلك وتوضح الحكم واستثناء ما استثني منه والغاية والمغيا جميعا.

٢. فقوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ استفهام في مقام الإنكار، وقد بادرت الآية إلى استثناء الذين عاهدوهم من المشركين عند المسجد الحرام لكونهم لم ينقضوا عهدا ولم يساهلوا فيها واثقوا به بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ وذلك أن الاستقامة لمن استقام والسلم لمن يسالم من لوازم التقوى الديني، ولذلك علل قوله ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ كما جاء مثله بعينه في الآية السابقة: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

٦. المشركون لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة:

المقطع [٦] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ٨ـ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٥٧»:

١. ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال الراغب في المفردات: (الإل كل حالة ظاهرة من عهد حلف، وقرابة تئل: تلمع فلا يمكن إنكاره، قال تعالى: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً﴾، وآل الفرس: أسرع، حقيقته لمع، وذلك استعارة في باب الإسراع نحو برق وطار) وقال أيضا: الذمام، بكسر الذال، ما يذم الرجل على إضاعته من عهد، وكذلك الذمة والمذمة، وقيل: لي مذمة فلا تهتكها، وأذهب مذمتهم بشيء: أي أعطهم شيئا لما لهم من الذمام) وهو ظاهر في أن الذمة مأخوذة من الذم بالمعنى الذي يقابل المدح.

ب. ولعل إلقاء المقابلة في الآية بين الإل والذمة للدلالة على أنهم لا يحفظون في المؤمنين شيئا من المواثيق التي يجب رقوبها وحفظها سواء كانت مبنية على أصول واقعية تكوينية كالقرابة التي توجب بوجه على القريب رعاية حال قريبه، أو على الجعل والاصطلاح كالعهود والمواثيق المعقودة بحلف ونحوه.

ج. وقد كررت لفظة (كيف) للتأكيد ولرفع الإبهام في البيان الناشئ من تخلل قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ﴾ الآية بطولها بين قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية وقوله: ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

د. فمعنى الآية: كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله والحال أنهم إن يظهروا عليكم ويغلبوكم على الأمر لا يحفظوا ولا يراعوا فيكم قرابة ولا عهدا من العهود يرضونكم بالكلام المدلس والقول المزوق، ويأبى ذلك قلوبهم، وأكثرهم فاسقون.

هـ. ومن هنا ظهر أن قوله: ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ﴾ من المجاز العقلي نسب فيه الإرضاء إلى الأفواه وهو في الحقيقة منسوب إلى القول والكلام الخارج من الأفواه المكون فيها.

٢. ﴿يُرْضُونَكُمْ﴾ الآية تعليل لإنكار وجود العهد للمشركين ولذلك جيء به بالفصل، والتقدير: كيف يكون لهم عهد وهم يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون.

٣. وأما قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ﴾ ففيه بيان أن أكثرهم ناقضون للعهد والميثاق بالفعل من غير

أن ينتظروا ظهورهم جميعا عليكم فالآية توضح حال آحادهم وجميعهم بأن أكثرهم فاسقون بنقض العهد من غير أن يرقبوا في مؤمن إلا ولا ذمة، ولو أنهم ظهروا عليكم جميعا لم يرقبوا فيكم الإل والذمة.

٤. ﴿اشْتَرَوْا بِآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ إلى آخر الآيتين، بيان وتفسير لقوله في الآية السابقة: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ﴾ وكان قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ إلى آخر الآية توطئة وتمهيد لقوله في الآية الثانية: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً﴾، وبذلك يظهر أن الأقرب أن المراد بالفسق الخروج عن العهد والذمة دون الفسق بمعنى الخروج عن زي عبودية الله سبحانه وإن كان الأمر كذلك.

٥. ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ كالتفسير لجميع ما مر من أحوالهم الروحية وأعمالهم الجسمية، وتفيد الجملة مع ذلك جوابا عن سؤال مقدر أو ما يجري مجراه والمعنى: إذا كان هذا حالهم وهذه أفعالهم فلا تحسبوا أن لو نقضتم عهدهم اعتديتم عليهم فأولئك هم المعتدون عليكم لما أضمروه من العداوة والبغضاء ولما أظهره أكثرهم في مقام العمل من الصد عن سبيل الله، وعدم رعاية قرابة ولا عهد في المؤمنين.

٧. التوبة والصلاة والزكاة والقتال:

المقطع [٧] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١١-١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٥٨»:

١. ﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. الآيتان بيان تفصيلي لقوله فيما تقدم: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾

ب. والمراد بالتوبة بدلالة السياق الرجوع إلى الإيمان بالله وآياته، ولذلك لم يقتصر على التوبة فقط بل عطف عليها إقامة الصلاة التي هي أظهر مظاهر عبادة الله، وإيتاء الزكاة الذي هو أقوى أركان المجتمع الديني، وقد أشير بهما إلى نوع الوظائف الدينية التي بإتيانها يتم الإيمان بآيات الله بعد الإيمان بالله عز اسمه فهذا معنى قوله: ﴿تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ﴾

٢. وأما قوله: ﴿فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾:

أ. فالمراد به بيان التساوي بينهم وبين سائر المؤمنين في الحقوق التي يعتبرها الإسلام في المجتمع الإسلامي: لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

ب. وقد عبر في الآية عن ذلك بالأخوة في الدين، وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] اعتبارا بما بينهم من التساوي في الحقوق الدينية فإن الأخوين شقيقان اشتقا من مادة واحدة وهما لذلك متساويان في الشئون الراجعة إلى ذلك في مجتمع المنزل عند والدهما الذي هو رب البيت، وفي مجتمع القرابة عند الأقرباء والعشيرة.

ج. وإذ كان لهذا المعنى المسمى بلسان الدين أخوة أحكام وآثار شرعية اعتنى بها قانون الإسلام فهو اعتبار حقيقة لنوع من الأخوة بين أفراد المجتمع الإسلامي لها آثار مترتبة كما أن الأخوة الطبيعية فيما اعتبرها الإسلام لها آثار مترتبة عقلائية ودينية وليست تسمية ذلك أخوة مجرد استعارة لفظية عن عناية مجازية، وفيما نقل عن النبي ﷺ: قوله: (المؤمنون إخوة يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد واحدة على من سواهم)

٣. ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ الآية:

أ. يدل السياق أنهم غير المشركين الذين أمر الله سبحانه في الآية السابقة بنقض عهدهم وذكر أنهم هم المعتدون لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة فإنهم ناكثون للأيمان ناقضون للعهد، فلا يستقيم فيهم الاشتراط الذي ذكره الله سبحانه بقوله: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الآية.

ب. فهؤلاء قوم آخرون لهم مع ولي الأمر من المسلمين عهود وأيمان ينكثون أيمانهم من بعد عهدهم، أي ينقضون عهودهم من بعد عقدها فأمر الله سبحانه بقتالهم وألغى أيمانهم وسماهم أئمة الكفر لأنهم السابقون في الكفر بآيات الله يتبعهم غيرهم ممن يليهم، يقاتلون جميعا لعلهم ينتهون عن نكث الأيمان ونقض العهود.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور: في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ الآية: أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة: أنهم ذكروا عنده هذه الآية، فقال: ما قوتل أهل هذه

الآية بعد.

ب. وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وابن مردويه عن زيد بن وهب: في قوله: ﴿فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ قال: كنا عند حذيفة فقال: ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة، فقال أعرابي: إنكم أصحاب محمد، تخبروننا بأمور لا ندري ما هي؟ فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا؟ قال: أولئك الفساق، أجل لم يبق منهم إلا أربعة، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده.

ج. وفي قرب الإسناد، للحميري: حدثني عبد الحميد وعبد الصمد بن محمد جميعا عن حنان بن سدير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: دخل علي أناس من أهل البصرة، فسألوني عن طلحة والزبير، فقلت لهم: كانوا من أئمة الكفر، أن عليا يوم البصرة لما صف الخيل، قال لأصحابه لا تعجلوا على القوم، حتى أعذر فيما بيني وبين الله وبينهم، فقام إليهم فقال: يا أهل البصرة، هل تجدون علي جورا في حكم؟ قالوا: لا، قال: فحيفا في قسم؟ قالوا: لا، قال: فرغبه في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي دونكم، فنقمتم علي فنكثتم بيعتي؟ قالوا: لا، قال فأقمت فيكم الحدود وعطلتها في غيركم؟ قالوا: لا، قال: فما بال بيعتي تنكث وبيعة غيري لا تنكث، إني ضربت الأمر أنفه وعينه، فلم أجد إلا الكفر أو السيف، ثم ثنى إلى أصحابه فقال، إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ، فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، واصطفى محمدا بالنبوة، إنهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا مذ نزلت، أقول: ورواه العياشي عن حنان بن سدير عنه عليه السلام.

د. وفي أمالي المفيد، بإسناده عن أبي عثمان مؤذن بني قصي قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام حين خرج طلحة والزبير على قتاله: عذرني الله من طلحة والزبير، بايعاني طائعين غير مكرهين، ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ، وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ، إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أقول: ورواه العياشي في تفسيره عن أبي عثمان المؤذن وأبي الطفيل والحسن البصري: مثله، ورواه الشيخ في أماليه، عن أبي عثمان المؤذن، وفي حديثه قال بكير: فسألت عنها أبا جعفر عليه السلام، فقال: صدق الشيخ هكذا قال علي، هكذا كان.

هـ. أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قال: كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية بينه وبين قريش، أن من شاء أن يدخل في عقد النبي ﷺ وعهده دخل فيه، ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: ندخل في عهد محمد وعقده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: ندخل في عقد قريش وعهدهم، فمكثوا في تلك الهدنة، نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهرا، ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم، وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده، ليلا بماء لهم يقال له: الوتير قريب من مكة، فقالت قريش ما يعلم بنا محمد وهذا الليل، وما يرانا أحد فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح، فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ، وركب عمرو بن سالم، عند ما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير، حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ بأبيات أنشده إياها:

يا رب إني ناشد محمدا...حلف أبينا وأبيه الأتلدا

قد كنتم ولدا وكنا والدا...ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصرا أعتدا...وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا...إن سيم خسفا وجهه تربدا

في فيلق كالبحر يجري مزبدا...إن قريشا أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا...وجعلوا لي في كداء رصدا

وزعموا أن لست أدعو أحدا...وهم أذل وأقل عددا

هم بيتونا بالوتير هجدا...وقتلونا ركعا وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم، فما برح حتى مرت غمامة في السماء، فقال رسول الله ﷺ: إن هذه السحابة لتشهد بنصر بني كعب، وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاد وكتمهم مخرجه، وسأل الله أن يعمي على قريش خبره، حتى يبغتهم في بلادهم.

• أقول: أورد الرواية في الدر المنثور، بعد ما روي بطرق عن مجاهد وعكرمة أن قصة نقض قريش عهد الحديبية وإعانتهم بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ كان هو السبب لنزول قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً﴾ إلى قوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ وهم خزاعة، ولو كان الأمر على ما ذكروا كانت

الآية: ﴿أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ﴾، إلى تمام ثلاث آيات بل أربع، على ما يعطيه السياق مما نزل قبل فتح مكة فتكون نازلة قبل آيات براءة لا محالة.

• لكن القصة التي رواها ابن إسحاق والبيهقي على اعتبارها لمكان المسور بن مخرمة لا تصرح بنزول الآيات في ذلك، وما رواها مجاهد وعكرمة لا اعتماد عليه لمكان الوقف والانقطاع، وسياق الآيات لا يأبى نزولها مع ما تقدم عليها واتصالها بها على ما لا يخفى.

• والذي ذكر فيها من قوله: ﴿نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وإن كان يشير إلى صفات قريش الخاصة بهم لكن من الجائز أن تكون الآية مشيرة إلى حلفاء قريش وجيرانهم ممن لم يؤمنوا بعد فتح مكة وهم لاتحادهم مع قريش واتصالهم بهم وصفوا بما يوصف به قريش بالأصالة.

و. واعلم أن هناك روايات متفرقة من طرق أهل البيت عليه السلام تطبق الآيات على ظهور المهدي عليه السلام، وهي من الجري.

٥. وضع هنا مبحثا حول [معنى العهد وأقسامه وأحكامه]، خلاصته:

أ. الإنسان في مسير حياته يصور أعماله وما يتعلق بها من المادة تصور الأمور الكونية، ويجري بينها أحكام الأمور الكونية وآثارها، كما يؤلف أصواتاً ويعمل لفظاً ﴿زَيْدٌ﴾ ثم يفترض أنه زيد الخارجي فيسميه به.

ب. الإنسان شديد الاهتمام بعقد العقود وتمثيل العهود، والعامل الأولي في ذلك هو حاجته إلى الأمن من ممانعة الناس ومزاحمتهم له في أعماله، فيأخذ ما يريده من العمل ويربطه بما يعينه عليه من عمل غيره، ويعقدهما ممثلاً به عقد الحبال.

ج. العهد الذي يعقده الإنسان لغيره من الإعانة أو عدم الممانعة، هو نوع إحكام وإبرام لا ينتقض إلا بنقض أحد الطرفين، وقد يزداد إحكاماً بالحلف (اليمين والقسم) أو بالبيعة (وضع اليد في يد المعاهد)

د. المجتمع كالإنسان الكبير يحتاج إلى الأمن والسلام من قبل أجزائه ومن قبل غيره من المجتمعات، فكانت المواثيق والعهود بين الأمم والمجتمعات ضرورية لحياتها.

هـ. الإسلام اعتبر العهد والوفاء به اعتباراً تاماً، وأمر بالوفاء بالعهود والعقود، وذم نقضها ذماً بالغاً في آيات كثيرة، ولم يبح نقضها إلا في حالات محددة كخيانة الطرف الآخر، مع وجوب الإعلام بذلك

وعدم الاغتيال.

و. المجتمعات غير الدينية لا قيمة للمعنويات فيها إلا بمقدار ما يوافق المصالح المادية، فالعهود تعقد وتنقض بحسب توازن القوى، وتُختلق الأعذار المصطنعة لنقضها، أما الإسلام فيبني قوانين الحياة على الفطرة والحق، ويراعي الفضائل الإنسانية ولو ضرت، لأن الحق لا يستعقب شراً إلا لمن انحرف عنه.

٨. قتال الذين نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول:

المقطع [٨] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٥٩»:

١. ﴿أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ﴾ الآية وما بعدها إلى تمام أربع آيات تحريض للمؤمنين وتهييج لهم على قتال المشركين ببيان ما أجرموا به في جنب الله وخانوا به الحق والحقيقة، وعد خطاياهم وطغياناتهم من نكث الأيمان والهم بإخراج الرسول والبدء بالقتال أول مرة، ثم بتعريف المؤمنين أن لازم إيمانهم بالله الذي يملك كل خير وشر ونفع وضر أن لا يخشوا إلا إياه إن كانوا مؤمنين به ففي ذلك تقوية لقلوبهم وتشجيعهم عليهم، وينتهي إلى بيان أنهم ممتحنون من عند الله بإخلاص الإيمان له والقطع من المشركين حتى يؤجروا بما يؤجر به المؤمن المتحقق في إيمانه.

٩. الله يعذب الكفار بأيدي المؤمنين ويشفي صدورهم:

المقطع [٩] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤ـ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٦٠»:

١. ﴿قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. أعاد الأمر بالقتال لأنه صار من جهة ما تقدم من التحريض والتحضيض أوقع في القبول فإن الأمر الأول كان ابتدائيا غير مسبوق بتمهيد وتوطئة بخلاف الأمر الثاني الوارد بعد اشتداد الاستعداد وكمال التهيؤ من المأمورين.

ب. على أن ما اتبع به الأمر من قوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ

﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يؤكد الأمر ويغري المأمورين على امتثاله وإجرائه على المشركين فإن تذكرهم إن قتل المشركين عذاب إلهي لهم بأيدي المؤمنين، وإن المؤمنين أياد مجرية لله سبحانه وإن في ذلك خزيا للمشركين ونصرة من الله للمؤمنين عليهم وشفاء لصدور قوم مؤمنين وإذهابا لغيظ قلوبهم، يجرئهم للعمل وينشطهم ويصفي إرادتهم.

٢. ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشاءُ﴾ الآية بمنزلة الاستثناء لئلا يجري حكم القتال على إطلاقه.

٣. وضع هنا مبحثا حول [نسبة الأعمال إلى الأسباب طولاً]، خلاصته:

أ. الحوادث لها نسبة إلى أسبابها القريبة المباشرة، ولها نسبة إلى أسبابها القصوى التي هي أسباب لهذه الأسباب، والفعل يتوقف على فاعله ويتوقف بعين هذا التوقف على فاعل فاعله، فالفاعل القريب يكون بمنزلة الآلة والواسطة المحضة لا استقلال لها في التأثير.

ب. الشعور والاختيار في الفاعل ليسا من إيجاد الفاعل لنفسه، بل من إيجاد فاعله الذي أوجد الفاعل وشعوره واختياره، فالفعل الشعوري والاختياري يتوقف على فاعله ويتوقف بعينه إلى فاعل فاعله.

ج. الناس بحسب فهمهم الغريزي ينسبون الفعل إلى السبب البعيد كما ينسبونه إلى السبب القريب المباشر، فيقال: بنى فلان داراً وإنما باشر ذلك البناء، ويقال: قتل الأمير فلاناً وإنما باشر القتل السياف.

د. الأعمال التي لا تعتبر فيها خصوصيات المباشرة والحركات المادية (كالقتل والأسر والإحياء والإماتة) تنسب إلى الفاعل القريب والبعيد على السوية، بل ربما كانت نسبتها إلى الفاعل البعيد أقوى.

هـ. القرآن يصدق هذا المعنى، فينسب التعذيب الذي تباشره أيدي المؤمنين إلى نفسه ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾، وينسب الخلق إلى الأعمال الصادرة عن الإنسان ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾

و. لا منافاة بين انتساب الأمر إلى الله وانتسابه إلى غيره من الأسباب، لأن النسبة طولية لا عرضية، والنسبتين لا تزاحمان بعضهما البعض.

ز. خطأ الأشاعرة في نفي العلية بين الأشياء وقصرها على الله، مما أوقعهم في الجبر، وخطأ المعتزلة في نفي نسبة أفعال العباد إلى الله، مما أوقعهم في إثبات خالق مع الله، والحق أن للأفعال نسبة إلى فواعلها بالمباشرة، ونسبة إلى الله بما يليق بساحته.

٤. وضع هنا مبحثا حول [استناد مصنوعات الإنسان إلى الله: الرد على الماديين والمتكلمين]، خلاصته:

أ. الماديون يزعمون أن القول بوجود الصانع هو فرضية ناشئة من الجهل بعلل الحوادث المجهولة، وأن التقدم العلمي سيحل جميع المشكلات ويبطل هذه الفرضية.

ب. الرد عليهم: أن الإلهيين أثبتوا الصانع لجميع العالم، لا للجهل بعلل بعض الحوادث، بل لأن العالم بأجمعه مفتقر إلى علة خارجة، وقانون العلية لا يبطل بوجود علل مادية.

ج. الماديون قائلون بالجبر المطلق، ومع ذلك يزعمون أن الإنسان لو خلق إنساناً آخر كان مستغنياً عن الله، وهذا تناقض.

د. البراهين العقلية أقامها الإلهيون على وجوب انتهاء العلل الممكنة إلى علة واجبة، منذ أقدم عهود الفلسفة.

هـ. القرآن يثبت التوحيد مع تقرير قانون العلية العام، ويسند الأفعال إلى فواعلها الطبيعية ثم ينسب الجميع إلى الله، كقوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾

و. طائفة من المتكلمين نفوا استناد مصنوعات الإنسان إلى الله، خاصة المعاصي كالخمر والقمار، زاعمين أنها من عمل الشيطان.

ز. الرد عليهم: أن للشيء جهات نسب متعددة، فطبيعة وجود الصنم منسوبة إلى الله، وكونه معبوداً من دون الله منسوب إلى غيره.

ح. الأمور الصناعية منتسبة إلى الخلقة كاستناد الأمور الطبيعية، والانتساب إلى الخلقة مداره حظ الشيء من الوجود.

١٠. الله يمتحن المؤمنين بالولاء والبراء:

المقطع [١٠] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٦٠»:

١. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. بمنزلة تعليل آخر لوجوب قتالهم لينتج تحريضهم على القتال وفيه بيان حقيقة الأمر، ومحصله أن الدار دار الامتحان والابتلاء فإن نفوس الآدميين تقبل الخير والشر والسعادة والشقاوة فهي في أول كينونتها ساذجة مبهمة، ومراتب القرب والزلفى إنما تبذل بإزاء الإيمان الخالص بالله وآياته، ولا يظهر صفاء الإيمان إلا بالامتحان الذي يورد المؤمن مقام العمل، ليميز الله بذلك الطيب من الخبيث، والصافي الإيمان ممن ليس عنده إلا مجرد الدعوى أو المزعمة، فمن الواجب أن يمتحن هؤلاء المدعون أنهم باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة، ويبتلوا بمثل القتال الذي يميز به الصادق من الكاذب ويفصل الذي قطع روابط المحبة والصلة من أعداء الله سبحانه ممن في قلبه بقايا من ولايتهم ومودتهم حتى يحيا هؤلاء ويهلك أولئك، فعلى المؤمنين أن يمتثلوا أمر القتال بل يتسارعوا إليه ويتسابقوا فيه ليظهروا بذلك صفاء جوهرهم وحقيقة إيمانهم ويحتجوا به على ربهم يوم لا نجاح فيه إلا بحجة الحق.

ب. فقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ أي بل أظننتم أن تتركوا على ما أنتم عليه من الحال ولما تظهر حقيقة صدقكم في دعوى الإيمان بالله وبآياته.

٢. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ﴾ الآية:

أ. أي ولما يظهر في الخارج جهادكم وعدم اتخاذكم من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة فإن تحقق الأشياء علم منه تعالى بها وقد مر نظير الكلام مع بسط ما في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ الآية: [آل عمران: ١٤٢]

ب. ومن الدليل على هذا الذي ذكرنا في معنى العلم قوله في ذيل الآية: ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾، والوليجة على ما في مفردات الراغب، كل ما يتخذه الإنسان معتمدا عليه وليس من أهله.

١١. المشركون لا يعمرون مساجد الله وهم كافرون:

المقطع [١١] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٩٩»:

١. ﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾:

أ. العمارة ضد الخراب يقال: عمر الأرض إذا بنى بها بناء، وعمر البيت إذا أصلح ما أشرف منها

على الفساد، والتعمير بمعناه ومنه العمر لأنه عمارة البدن بالروح، والعمرة بمعنى زيارة البيت الحرام لأن فيها تعميره.

ب. والمسجد اسم مكان بمعنى المحل الذي يتعلق به السجدة كالبيت الذي يبنى ليسجد فيه الله تعالى، وأعضاء السجدة التي تتعلق بها السجدة نوع تعلق وهي الجبهة والكفان والركبتان ورءوس إبهامي القدمين.

ج. ﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية لنفي الحق والملك فإن اللام للملك والحق، والنفي الحالي للكون السابق يفيد أنه لم يتحقق منهم سبب سابق يوجب لهم أن يملكوا هذا الحق وهو حق أن يعمروا مساجد الله ويرموا ما استرم منها أو يزوروها كقوله تعالى: ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى﴾ الأنفال: ٦٧ وقوله: ﴿وَما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]

د. والمراد بالعمارة في قوله: ﴿أَنْ يَعْمُرُوا﴾ إصلاح ما أشرف على الخراب من البناء ورم ما استرم منه دون عمارة المسجد بالزيارة فإن المراد بمساجد الله هي المسجد الحرام وكل مسجد لله ولا عمرة في غير المسجد الحرام، والدخول في المساجد للعبادة فيها وإن أمكن أن يسمى عمارة وزيارة لكن التعبير المعهود من القرآن فيه الدخول، على أن في قوله في الآية الآتية: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ تأييدا ما لكون المراد بالعمارة هو إصلاح البناء دون زيارة البيت الحرام.

هـ. والمراد بمساجد الله بيوت العبادة المبنية لله لكن السياق يدل على أن المراد نفي جواز عمارتهم للمسجد الحرام، ويؤيده قراءة من قرأ (أن يعمروا مسجد الله) بالإفراد، ولا ضير في التعبير بالجمع والمقصود الأصيل بيان حكم فرد خاص من أفراده لأن الملاك عام، والتعليل الوارد في الآية غير مقيد بخصوص المسجد الحرام فالكلام في معنى: ما كان لهم أن يعمروا المسجد الحرام لأنه مسجد والمساجد من شأنها ذلك.

٢. ﴿شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ المراد بالشهادة أداؤها وهو الاعتراف إما قولا كمن يعترف بالكفر لفظا، وإما فعلا كمن يعبد الأصنام ويتظاهر بكفره فكل ذلك من الشهادة والملاك واحد.

٣. فمعنى الآية: لا يحق ولا يجوز للمشركين أن يرموا ما استرم من المسجد الحرام كسائر مساجد الله والحال أنهم معترفون بالكفر بدلالة قولهم أو فعلهم.

٤. ﴿أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ﴾:

أ. في مقام التعليل لما أفيد من الحكم في قوله: ﴿ما كانَ﴾ الآية ولذلك جيء به بالفصل دون الوصل.

ب. والمراد بالجملة الأولى بيان بطلان الأثر وارتفاعه عن أعمالهم، والعمل إنما يؤتى به للتوسل به إلى أثر مطلوب، وإذ كانت أعمالهم حابطة لا أثر لها لم يكن ما يجوز لهم الإتيان بها، والأعمال العبادية كعمارة مساجد الله إنما تقصد لما يطمع فيه ويرجى من أثرها وهو السعادة والجنة، والعمل الحابط لا يتعقب سعادة ولا جنة البتة.

ج. والمراد بالجملة الثانية بيان ظرفهم الذي يستقرون فيه لولا السعادة والجنة وهو النار فكأنه قيل: أولئك لا يهديهم أعمالهم العبادية إلى الجنة بل هم في النار الخالدة، ولا تفيد لهم سعادة بل هم في الشقاوة المؤبدة.

٥. وفي الآية دلالة على أصلين لطيفين من أصول التشريع:

أ. أحدهما: أن تشريع الجواز بالمعنى الأعم الشامل للواجبات والمستحبات والمباحات يتوقف على أثر في الفعل ينتفع به فاعله فلا لغو مشروعا في الدين، وهذا أصل يؤيده العقل، وهو منطبق على الناموس الجاري في الكون: أن لا فعل إلا لنفع عائد إلى فاعله.

ب. وثانيهما: أن الجواز في جميع موارده مسبوق بحق مجعول من الله لفاعله في أن يأتي بالفعل من غير مانع.

١٢. عمارة مساجد الله تكون بالإيمان والتقوى:

المقطع [١٢] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهَّ مَنْ آمَنَ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَّ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٠١»:

١. ﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية:

أ. السياق كاشف عن أن الحصر من قبيل قصر الإفراد كان متوهما يتوهم أن للمشركين والمؤمنين جميعا أن يعمروا مساجد الله فأفرد وقصر ذلك في المؤمنين، ولازم ذلك أن يكون المراد بقوله: ﴿يَعْمُرُ﴾

إنشاء الحق والجواز في صورة الإخبار دون الإخبار، وهو ظاهر.

ب. وقد اشترط سبحانه في ثبوت حق العمارة وجوازها أن يتصف العامر بالإيمان بالله واليوم الآخر قبال ما نفى عن المشركين أن يكون لهم ذلك ولم يقنع بالإيمان بالله وحده لأن المشركين يذعنون به تعالى بل شفع ذلك بالإيمان باليوم الآخر لأن المشركين ما كانوا مؤمنين به، وبذلك يختص حق العمارة وجوازها بأهل الدين السماوي من المؤمنين.

ج. ولم يقنع بذلك أيضا بل ألحق به قوله: ﴿وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ﴾ لأن المقام مقام بيان من ينتفع بعمله فيحق له بذلك أن يقترفه، ومن كان تاركا للفروع المشروعة في الدين وخاصة الركنين: الصلاة والزكاة فهو كافر بآيات الله لا ينفعه مجرد الإيمان بالله واليوم الآخر وإن كان مسلما، إذا لم ينكرها بلسانه، ولو أنكرها بلسانه أيضا كان كافرا غير مسلم، وقد خص من بينها الصلاة والزكاة بالذكر لكونهما الركنين الذين لا غنى عنهما في حال من الأحوال.

د. وبما ذكرنا من اقتضاء المقام يظهر أن المراد بقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ﴾ الخشية الدينية وهي العبادة دون الخشية الغريزية التي لا يسلم منها إلا المقربون من أولياء الله كالأنبياء قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]

هـ. والوجه في التكنية عن العبادة بالخشية أن الأعرف عند الإنسان من علل اتخاذ الإله للعبادة الخوف من سخطه أو الرجاء لرحمته ورجاء الرحمة، أيضا يعود بوجه إلى الخوف من انقطاعها وهو السخط فمن عبد الله سبحانه أو عبد شيئا من الأصنام فقد دعاه إلى ذلك أما الخوف من شمول سخطه أو الخوف من انقطاع نعمته ورحمته فالعبادة ممثلة للخوف والخشية مصداق لها لتمثيلها إياها، وبينهما حالة الاستلزام، ولذلك كني بها عنها، فالمعنى، والله أعلم، ولم يعبد أحدا من دون الله من الآلهة.

٢. ﴿فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾:

أ. أي أولئك الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ولم يعبدوا أحدا غير الله سبحانه يرجى في حقهم أن يكونوا من المهتدين، وهذا الرجاء قائم بأنفسهم أو بأنفس المخاطبين بالآية، وأما هو تعالى فمن المستحيل أن يقوم به الرجاء الذي لا يتم إلا مع الجهل بتحقق الأمر المرجو الحصول.

ب. وإنما أخذ الاهتداء مرجو الحصول لا محقق الوقوع مع أن من آمن بالله واليوم الآخر حقيقة

وحققه أعماله العبادية فقد اهتدى حقيقة لأن حصول الاهتداء مرة أو مرات لا يستوجب كون العامل من المهتدين، واستقرار صفة الاهتداء ولزومها له، فالتلبس بالفعل الواقع مرة أو مرات غير التلبس بالصفة اللازمة فأولئك حصول الاهتداء لهم محقق، وأما حصول صفة المهتدين فهو مرجو التحقق لا محقق.

٣. وقد تحصل من الآية أن عمارة المساجد لا تحق ولا تجوز لغير المسلم أما المشركون فلعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، وأما أهل الكتاب فلأن القرآن لا يعد إيمانهم بالله إيمانا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١]، وقال أيضا في [آية ٢٩] من السورة: ﴿قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ الآية.

١٣. سقاية الحاج وعمارة المسجد لا تعدل الإيمان والجهاد:

المقطع [١٣] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٠٣»:

١. ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ الآية:

أ. السقاية كالحكاية والجناية والنكاية مصدر يقال: سقى يسقي سقاية.

ب. والسقاية أيضا الموضع الذي يسقى فيه الماء، والإناء الذي يسقى به قال تعالى: ﴿جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠]، وقد رووا في الآثار أن سقاية الحاج كانت إحدى الشئونات الفاخرة والمآثر التي يباهي بها في الجاهلية، وأن السقاية كانت حياضا من آدم على عهد قصي بن كلاب أحد أجداد النبي ﷺ توضع بفناء الكعبة، ويستقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل، ويسقي الحاج فجعل قصي أمر السقاية عند وفاته لابنه عبد مناف ولم يزل في ولده حتى ورثه العباس بن عبد المطلب، وسقاية العباس هو الموضع الذي كان يسقى فيه الماء في الجاهلية والإسلام وهو في جهة الجنوب من زمزم بينهما أربعون ذراعا، وقد بني عليه بناء هو المعروف اليوم بسقاية العباس.

ج. والمراد بالسقاية في الآية، على أي حال، معناها المصدري وهو السقي، ويؤيده مقابلتها في الآية عمارة المسجد الحرام والمراد بها المعنى المصدري قطعا بمعنى الشغل.

د. وقد قوبل في الآية سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، ولا معنى لدعوى المساواة بين الإنسان وبين عمل من الأعمال كالسقاية والعمارة أو نفيها فالمعادلة والمساواة إما بين عمل وعمل أو بين إنسان ذي عمل وإنسان ذي عمل، ولذلك اضطر المفسرون إلى القول بأن تقدير الكلام: أجعلتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر حتى يستقيم السياق.

هـ. وأوجب منه النظر في قيود الكلام المأخوذة في الآية الكريمة فقد أخذ في أحد الجانبين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحدهما من غير أي قيد زائد، وفي الجانب الآخر الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله وإن شئت فقل: الجهاد في سبيل الله مع اعتبار الإيمان معه، وهو يدل على أن المراد: السقاية والعمارة خاليتين من الإيمان، ويؤيده قوله تعالى في ذيل الآية: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ على تقدير كونه تعريضا لأهل السقاية والعمارة لا تعريضا لمن يسوى بينهما كما يتبادر من السياق.

٢. وهذا يكشف:

أ. أولا عن أن هؤلاء الذين كانوا يسوون بين كذا وكذا وبين كذا إنما كانوا يسوون بين عمل جاهلي خال عن الإيمان بالله واليوم الآخر كالسقاية والعمارة من غير أن يكون عن إيمان، وبين عمل ديني عن إيمان بالله واليوم الآخر كالجهاد في سبيل الله عن إيمان، أي كانوا يسوون بين جسد عمل لا حياة فيه وبين عمل حي طيب نفعه فأنكره الله عليهم.

ب. وثانيا: أن هؤلاء المسوين كانوا من المؤمنين يسوون بين عمل من غير إيمان، كان صدر عنهم قبل الإيمان أو صدر عن مشرك غيرهم، وبين عمل صدر عن مؤمن بالله عن محض الإيمان حال إيمانه كما يشهد به سياق الإنكار وبيان الدرجات في الآيات، بل يشعر بل يدل ذكر نفس السقاية والعمارة من غير ذكر صاحبهما على أن صاحبيهما كانا من أهل الإيمان عند التسوية فلم يذكرا حفظا لكرامتهما وهما مؤمنان حين الخطاب ووقاية لهما بالنظر إلى التعريض الظاهر الذي في آخر الآية من أن يسميا ظالمين.

٣. بل يدل قوله تعالى في الآية التالية في مقام بيان أجر هؤلاء المجاهدين في سبيل الله عن إيمان:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾:

أ. على أن طرفي التسوية في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ﴾ الآية كانا من أهل مكة، وأن أهل أحد الطرفين وهو الذي آمن وجاهد كان ممن أسلم وهاجر، وأهل الطرف الآخر أسلم ولم يهاجر فإن هذا هو الوجه في ذكره تعالى أولا الإيمان والجهاد في أحد الطرفين ثم إضافة الهجرة إلى ذلك عند ما أعيد ثانيا، وقد ذكر تعالى السقاية والعمارة في الجانب الآخر ولم يزد على ذلك شيئا لا أولا ولا ثانيا فلها هذه القيود بلاغية في قوله الفصل.

ب. وهذا كله يؤيد ما ورد في سبب نزول الآية أن الآيات نزلت في العباس وشيبة وعلي عليه السلام حين تفاخروا فذكر العباس سقاية الحاج، وشيبة عمارة المسجد الحرام، وعلى الإيمان والجهاد في سبيل الله فنزلت الآيات وستجيء الرواية في البحث الروائي المتعلق بالآيات.

ج. وكيف كان فالآية وما يتلوها من الآيات تبين أن الزنة والقيمة إنما هو للعمل إذا كان حيا بولوج روح الإيمان فيه وأما الجسد الخالي الذي لا روح فيه ولا حياة له فلا وزن له في ميزان الدين ولا قيمة له في سوق الحقائق فليس للمؤمنين أن يعتبروا مجرد هياكل الأعمال، ويجعلوها ملاكات للفضل وأسبابا للقرب منه تعالى إلا بعد اعتبار حياتها بالإيمان والخلوص.

د. ومن هذه الجهة ترتبط الآية: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ وما بعدها من الآيات بالآيتين اللتين قبلها: ﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ إلى آخر الآيتين.

٤. وبذلك كله يظهر:

أ. أولا أن قوله: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ جملة حالية تبين وجه الإنكار لحكمهم بالمساواة في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ﴾ الآية.

ب. وثانيا: أن المراد بالظلم هو ما كانوا عليه من الشرك في حال السقاية والعمارة لا حكمهم بالمساواة بين السقاية والعمارة وبين الجهاد عن إيمان.

ج. وثالثا: أن المراد نفي أن ينفعهم العمل ويهديهم إلى السعادة التي هي عظم الدرجة والفوز والرحمة والرضوان والجنة الخالدة.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان: في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِ﴾ الآية: عن أمالي الشيخ بإسناده عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد يرفعه إلى أبي ذر، في حديث الشورى ـ: فيما احتج به علي عليه السلام على القوم: وقال لهم في ذلك: فهل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ غيري؟ قالوا: لا.

ب. وفي تفسير القمي، قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب عليه السلام: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا﴾إلى قوله ﴿الْفائِزُونَ﴾ ثم وصف ما لعلي عليه السلام عنده فقال، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾

ج. وفي المجمع: روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن أبي بريدة عن أبيه قال: بينما شيبة والعباس يتفاخران، إذ مر عليهما علي بن أبي طالب قال: بما تفتخران؟ قال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد سقاية الحاج، وقال شيبة: أوتيت عمارة المسجد الحرام، وقال علي: وأنا أقول لكما لقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا، فقالا: وما أوتيت يا علي؟ قال: ضربت خراطيمكما بالسيف، حتى آمنتما بالله تبارك وتعالى ورسوله، فقام العباس مغضبا يجر ذيله، حتى دخل على رسول الله ﷺ فقال: أما ترى ما استقبلني به علي؟ فقال: ادعوا لي عليا، فدعي له فقال: ما حملك يا علي على ما استقبلت به عمك؟ فقال: يا رسول الله صلعم دقته الحق فإن شاء فليغضب، وإن شاء فليرض، فنزل جبرئيل عليه السلام وقال: يا محمد ربك يقرأ عليك السلام ويقول: اتل عليهم: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

د. وفي تفسير الطبري، بإسناده عن محمد بن كعب القرظي قال: افتخر طلحة بن شيبة والعباس وعلي بن أبي طالب، فقال طلحة: أنا صاحب البيت معي مفتاحه، وقال العباس: وأنا صاحب السقاية والقائم عليها، فقال علي: ما أدري ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِ﴾ الآية كلها.

هـ. أخرج الفاريابي عن ابن سيرين قال: قدم علي بن أبي طالب مكة فقال للعباس: أي عم ألا تهاجر؟ ألا تلحق برسول الله ﷺ؟ فقال: أعمر المسجد الحرام وأحجب البيت فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ

الْحَاجِ﴾ الآية، وقال لقوم قد سماهم: ألا تهاجرون؟ ألا تلحقون برسول الله ﷺ؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ﴾ الآية كلها.

و. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال العباس حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِ﴾ الآية، يعني أن ذلك كان في الشرك فلا أقبل ما كان في الشرك.

ز. وأخرج مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم، فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ، فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

• أقول: قال صاحب المنار في تفسيره بعد إيراد هذه الروايات الأربع الأخيرة: (والمعتمد من هذه الروايات حديث النعمان لصحة سنده وموافقة متنه لما دلت عليه الآيات من كون موضوعها في المفاضلة أو المساواة بين خدمة البيت وحجابته، من أعمال البر البدنية الهينة المستلذة، وبين الإيمان والجهاد بالمال والنفس والهجرة، وهي أشق العبادات النفسية البدنية المالية، والآيات تتضمن الرد عليها كلها)

• أما ما ذكره من رجحان رواية النعمان على غيرها بصحة السند ففيه:

● أولا أن رواية القرظي أيضا في مضمونها موافقة لرواية الحاكم في المستدرك وقد صححها.

● وثانيا: أن روايات التفسير إذا كانت آحادا لا حجية لها إلا ما وافق مضامين الآيات بقدر ما يوافقها على ما بين في فن الأصول فإن الحجية الشرعية تدور مدار الآثار الشرعية المترتبة فتنحصر في الأحكام الشرعية وأما ما وراءها كالروايات الواردة في القصص والتفسير الخالي عن الحكم الشرعي فلا حجية شرعية فيها، وأما الحجية العقلية أعني العقلائية فلا مسرح لها بعد توافر الدس والجعل في الأخبار سيما أخبار التفسير والقصص إلا ما تقوم قرائن قطعية يجوز التعويل عليها على صحة متنه، ومن ذلك موافقة متنه لظواهر الآيات الكريمة، فالذي يهم الباحث عن الروايات غير الفقهية أن يبحث عن موافقتها

للكتاب فإن وافقتها فهي الملاك لاعتبارها ولو كانت مع ذلك صحيحة السند فإنما هي زينة زينت بها وإن لم توافق فلا قيمة لها في سوق الاعتبار، وأما ترك البحث عن موافقة الكتاب، والتوغل في البحث عن حال السند، إلا ما كان للتوسل إلى تحصيل القرائن، ثم الحكم باعتبار الرواية بصحة سندها ثم تحميل ما يدل عليه متن الرواية على الكتاب، واتخاذه تبعا لذلك كما هو دأب كثير منهم فمما لا سبيل إليه من جهة الدليل.

• وأما ما ذكره من رجحان رواية النعمان على غيرها من جهة المتن مبينا ذلك بأن الآيات تدل على أن موضوع المساواة أو المفاضلة كان بين خدمة البيت أو حجابته وهي من أعمال البر البدنية الهينة المستلذة، وبين الإيمان والجهاد والهجرة وهي من أعمال البر النفسية والبدنية الشاقة، والآيات تتضمن الرد عليها كلها) ففيه:

● أولا: أن الذي ذكره من مدلول الآيات مشترك بين جميع ما أورده من الروايات:

● أما رواية ابن عباس التي مضمونها وقوع الكلام في المساواة أو المفاضلة حين أسر العباس يوم بدر بين العباس وبين المسلمين حيث عيروه فقد ذكر فيها صريحا المقايسة بين الإسلام والهجرة والجهاد وبين سقاية الحاج وعمارة المسجد وفك العاني، وهناك روايات أخر في معناه.

● وأما رواية ابن سيرين الدالة على وقوع النزاع بين علي والعباس بمكة حين دعاه إلى الهجرة واللحوق بالنبي ﷺ فأجابه بأن له عمارة المسجد الحرام وحجابة البيت وقد روى هذا المعنى ابن مردويه عن الشعبي وفيها: أن العباس قال لعلي: أنا عم النبي ﷺ، وأنت ابن عمه، وإلي سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية.

● ورواه أيضا ابن أبي شيبة وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن عبيدة وفيها: أن العباس قال لعلي: أولست في أفضل من الهجرة؟ ألست أسقي الحاج وأعمر المسجد الحرام فنزلت هذه الآية، وعلى أي حال فالواقع في هذه الرواية أيضا المقايسة بين السقاية والعمارة وبين الهجرة وما يترتب عليا مما يستلزمه اللحوق بالنبي ﷺ كالجهاد وغيره من الأعمال الشريفة الدينية.

● وأما رواية القرظي وما في معناها كالذي رواه الحاكم وصححه، وما رواه عبد الرزاق عن الحسن قال: نزلت في علي والعباس وعثمان وشيبة تكلموا في ذلك، وكذا رواية النعمان التي تقدمت فكون المنازعة فيها في السقاية والعمارة والإيمان والجهاد ظاهر فإذا كان الحال هذا الحال فأي مزية في رواية النعمان

بن بشير توجب اختصاصها بموافقة الكتاب من بين سائر الروايات.

● وثانيا: أن قوله: إن موضوع المفاضلة هي أعمال البر الهينة المستلذة كالسقاية والحجابة وأعمال البر الشاقة كالإيمان والهجرة والجهاد لا يوافق ما يدل عليه الآيات فإنها كما تقدم ظاهرة الدلالة على أن المقايسة كانت بينهم بين أجساد الأعمال الخالية عن روح الإيمان وليست من البر حينئذ وبين أعمال حية بولوج روح الإيمان فيها كالهجرة والجهاد عن إيمان بالله واليوم الآخر.

● فالآيات تدل على أنهم كانوا يسوون أو يفضلون غير أعمال البر كالسقاية والعمارة من غير إيمان على أعمال البر كالجهاد عن إيمان وهجرة والهجرة عن إيمان فأين ما ذكره من أعمال البر الهينة قبال أعمال البر الشاقة؟

● ودلالة الآيات، بما فيها من القيود المأخوذة، على ذلك بمكان من الظهور والجلاء فقد قيد الجهاد فيها بالإيمان بالله واليوم الآخر، وأطلق السقاية والعمارة من غير تقييد بالإيمان ثم قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ﴾ ثم زاد: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وحاشا أن يكون الآتي بأعمال البر عند الله من القوم الظالمين المحرومين عن نعمة الهداية الإلهية.

● حتى لو فرض أن المراد بالظالمين أولئك المسوون أو المفضلون من المؤمنين للسقاية والعمارة على الجهاد فإن المؤمن على إيمانه إذا حكم بمثل هذا الحكم فإنما هو خاط يهتدي إذا دل على الصواب لا ظالم محروم من الهداية فافهم ذلك.

● وثالثا: ما تقدم من أن قوله: ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ الآية وقوله: ﴿لا يَسْتَوُونَ﴾ الآية دليل على أن للشخص دخلا فيما تتضمن الآيات من الحكم.

● والتدبر في الآيات الكريمة والتأمل فيما ذكرناه هنا وهناك يوضح للباحث الناقد أن أضعف الروايات وأبعدها من الانطباق على مضمون الآيات هي رواية النعمان بن بشير فإنها لا تقبل الانطباق على الآيات الكريمة بما فيها من القيود المأخوذة.

● ويليها في الضعف رواية ابن سيرين وما في معناها من الروايات فإن ظاهرها أن العباس إنما دعي إلى الهجرة وهو مسلم فافتخر بالسقاية والحجابة والآيات لا تساعد على ذلك كما مر.

● على أن الواقع في رواية ابن سيرين ذكر العباس للسقاية وحجابة البيت ولم يكن له حجابة إنما

هي السقاية.

• ويليها في الضعف رواية ابن عباس فظاهرها أن المقايسة إنما كانت بين الأعمال فقط والآية لا تساعد على ذلك.

• على أن فيها أن العباس ذكر فيما ذكر سقاية الحاج وعمارة المسجد وفك العاني وهو الأسير، ولو كان لذكر في الآية، وقد وقع في رواية ابن جرير وأبي الشيخ عن الضحاك في هذا المعنى قال: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه، الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونفك العاني، ونحجب البيت ونسقي الحاج، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِ﴾ الآية، والكلام في فك العاني وحجابة البيت الواقعين فيها كالكلام في سابقها.

• فأسلم الروايات في الباب وأقربها إلى الانطباق على الآيات مضمونا رواية القرظي وما في معناها كرواية الحاكم في المستدرك ورواية عبد الرزاق عن الحسن ورواية أبي نعيم وابن عساكر عن أنس الآتية وقد تقدم توضيح ذلك.

ح. أخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة وابن عساكر عن أنس قال: قعد العباس وشيبة صاحب البيت يفتخران، فقال العباس: أنا أشرف منك أنا عم رسول الله ﷺ، ووصي أبيه، وساقي الحجيج، فقال شيبة: أنا أشرف منك أنا أمين الله على بيته وخازنه، أفلا ائتمنك كما ائتمنني؟، فاطلع عليهما علي فأخبراه بما قالا، فقال علي: أنا أشرف منكما أنا أول من آمن وهاجر، فانطلق ثلاثتهم إلى النبي ﷺ، فأخبروه فما أجابهم بشيء، فانصرفوا فنزل عليه الوحي بعد أيام، فأرسل إليهم فقرأ عليهم: (. ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى آخر العشر.

ط. وفي تفسير القمي، عن أبيه عن صفوان عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام: قال: نزلت في علي والعباس وشيبة، قال العباس: أنا أفضل لأن سقاية الحاج بيدي، وقال شيبة: أنا أفضل لأن حجابة البيت بيدي، وقال علي: أنا أفضل فإني آمنت قبلكما، ثم هاجرت وجاهدت فرضوا برسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

• أقول: ورواه العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام مثله، وفيه عثمان بن أبي شيبة مكان شيبة.

ي. وفي الكافي، عن أبي علي الأشعري عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما عليهما‌السلام: في قول الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ نزلت في حمزة وعلي وجعفر والعباس وشيبة، إنهم فخروا بالسقاية والحجابة، فأنزل الله عز ذكره: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وكان علي وحمزة وجعفر هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وجاهدوا في سبيل الله، لا يستوون عند الله:

• أقول: ورواه أيضا العياشي في تفسيره عن أبي بصير عن أحدهما عليهما‌السلام مثله، والرواية لا تلائم ما يثبته النقل القطعي فقد كان حمزة من المهاجرين الأولين لحق برسول ﷺ ثم استشهد في غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة، وقد كان جعفر هاجر إلى الحبشة قبل هجرة النبي ﷺ ثم رجع إلى المدينة أيام فتح خيبر وقد استشهد حمزة قبل ذلك بمدة فلو كان من الخمسة اجتماع على التفاخر فقد كان قبل الهجرة النبوية وحينئذ فما معنى ما وقع في الرواية: (وكان علي وحمزة وجعفر هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وجاهدوا في سبيل الله)؟، وإن كان المراد بالنزول فيهم انطباق الآية عليهم على سبيل الجري فقد كان العباس مثلهم فإنه آمن يوم أسر ببدر ثم حضر بعض غزوات النبي ﷺ.

ك. وفي تفسير البرهان، عن الجمع بين الصحاح الستة للعبدي في الجزء الثاني من صحيح النسائي بإسناده قال: افتخر طلحة بن شيبة من بني عبد الدار، والعباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب، فقال طلحة: بيدي مفتاح البيت ولو أشاء بت فيه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بت في المسجد، وقال علي: ما أدري ما تقولان؟ لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ الآية.

• أقول: المراد بالصلاة ستة أشهر قبل الناس التقدم في الإيمان بالله على ما تعرضت له الآية وإلا كان من الواجب أن تذكر في الآية، وقد ذكر ثالث القوم طلحة بن شيبة، وقد تقدم في بعضها أنه شيبة، وفي بعضها أنه عثمان بن أبي شيبة.

١٤. المهاجرون والمجاهدون أعظم درجة عند الله:

المقطع [١٤] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ

وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٠٥»:

١. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. بيان لحق الحكم الذي عند الله في المسألة بعد إنكار المساواة، وهو أن الذي آمن وهاجر وجاهد في سبيل الله ما استطاع ببذل ما عنده من مال ونفس، أعظم درجة عند الله وإنما عبر في صورة الجمع، الذين آمنوا إلخ، إشارة إلى أن ملاك الفصل هو الوصف دون الشخص.

ب. وما تقدم من دلالة الكلام على أن الأعمال من غير إيمان بالله لا فضل لها ولا درجة لصاحبها عند الله، قرينة على أن ليس المراد بالقياس الذي يدل عليه أفعل التفضيل في قوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ الآية هو أن بين الفريقين اشتراكا في الدرجات غير أن درجة من جاهد عن إيمان أعظم ممن سقى وعمر.

ج. بل المراد بيان أن النسبة بينهما نسبة الأفضل إلى من لا فضل له كالمقايسة المأخوذة بين الأكثر والأقل فإنها تستدعي وجود حد متوسط بينهما يقاسان إليه فهناك ثلاثة أمور أمر متوسط يؤخذ مقياسا معدلا وآخر يكون أكثر منه، وآخر يكون أقل منه فإذا قيس الأكثر من الأقل كان الأكثر مقيسا إلى ما لا كثرة فيه أصلا.

د. فقوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ﴾ أي بالقياس إلى هؤلاء الذين لا درجة لهم أصلا، وهذا نوع من الكناية عن أن لا نسبة حقيقة بين الفريقين لأن أحدهما ذو قدم رفيع فيما لا قدم للآخر فيه أصلا.

هـ. ويدل على ذلك أيضا قوله: ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ بما يدل على انحصار الفوز فيهم وثبوتها لهم على نهج الاستقرار.

٢. ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. ظاهر السياق أن ما يعده من الفضل في حقهم بيان وتفصيل لما ذكر في الآية السابقة من فوزهم جيء به بلسان التبشير.

ب. فالمعنى ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ أي هؤلاء المؤمنين ﴿رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ عظيمة لا يقدر قدرها ﴿وَرِضْوانٍ﴾ كذلك ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها﴾ في تلك الجنات ﴿نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ لا يزول ولا ينفد حالكونهم ﴿خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾ لا ينقطع خلودهم بأجل ولا أمد.

٣. ثم لما كان المقام مقام التعجب والاستبعاد لكونها بشارة بأمر عظيم لم يعهد في ما نشاهده من أنواع النعيم الذي في الدنيا، رفع الاستبعاد بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

٤. وسيوافيك الكلام في توضيح معنى رحمته تعالى ورضوانه فيما سيمر من موضع مناسب وقد تقدم بعض الكلام فيهما.

١٥. الآباء والإخوة والولاية والإيمان:

المقطع [١٥] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٠٦»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. نهى عن تولي الكفار ولو كانوا آباء وإخوانا فإن الملاك عام، والآية التالية تنهى عن تولي الجميع غير أن ظاهر لفظ الآية النهي عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء إن استحبوا الكفر ورجحوه على الإيمان.

ب. وإنما ذكر الآباء والإخوان دون الأبناء والأزواج مع كون القبيلين وخاصة الأبناء محبوبين عندهم كالآباء والإخوان لأن التولي يعطي للولي أن يداخل أمور وليه ويتصرف في بعض شئون حياته، وهذا هو المحذور الذي يستدعي النهي عن تولي الكفار حتى لا يداخلوا في أمورهم الداخلية ولا يأخذوا بمجامع قلوبهم، ولا يكف المؤمنون ولا يستنكفوا عن الإقدام فيما يسوؤهم ويضرهم، ومن المعلوم أن النساء والذراري لا يترقب منهم هذا الأثر السيئ إلا بواسطة، فلذلك خص النهي عن التولي بالآباء والإخوان فهم الذين يخاف نفوذهم في قلوب المؤمنين وتصرفهم في شئونهم.

ج. وقد ورد النهي عن اتخاذ الكفار أولياء في مواضع من كلامه تقدم بعضها في سورة المائدة وآل عمران والنساء والأعراف وفيها إنذار شديد وتهديدات بالغة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة: ٥١، وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨، وقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾ آل عمران: ٢٨، وقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً﴾ النساء: ١٤٤.

د. وأنذرهم في الآية التي نحن فيها بقوله: {ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون} ولم يقل: (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) إذ من الجائز أن يتوهم بعض هؤلاء أنه منهم لأنهم آباؤه وإخوانه فلا يؤثر

فيه التهديد أثرا جديدا يبعثه نحو رفض الولاية.

٢. وكيف كان فقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بما في الجملة من المؤكدات كاسمية الجملة، ودخول اللام على الخبر وضمير الفصل يفيد تحقق الظلم منهم واستقراره فيهم، وقد كرر الله في كلامه أن الله لا يهدي القوم الظالمين، وقال في نظير الآية من سورة المائدة: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فهؤلاء محرومون من الهداية الإلهية لا ينفعهم شيء من أعمالهم الحسنة في جلب السعادة إليهم، والسماحة بالفوز والفلاح عليهم.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير البرهان، عن ابن شهرآشوب عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ﴾ قال: الإيمان ولاية علي بن أبي طالب.

- أقول: هو من باطن القرآن مبني على تحليل معنى الإيمان إلى مراتب كماله.

١٦. تقديم حب الله ورسوله والجهاد على كل ما سواه:

المقطع [١٦] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٠٧»:

١. ﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. التفت من مخاطبتهم إلى مخاطبة النبي ﷺ إيماء إلى الإعراض عنهم لما يستشعر من حالهم أن قلوبهم مائلة إلى الاشتغال بما لا ينفع معه النهي عن تولي آبائهم وإخوانهم الكافرين، وإيجاد الداعي في نفوسهم إلى الصدور عن أمر الله ورسوله، وقتال الكافرين جهادا في سبيل الله وإن كانوا آباءهم وإخوانهم.

ب. والذي يمنعهم من ذلك هو الحب المتعلق بغير الله ورسوله والجهاد في سبيل الله، وقد عد الله سبحانه أصول ما يتعلق به الحب النفساني من زينة الحياة الدنيا، وهي الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة، وهؤلاء هم الذين يجمعهم المجتمع الطبيعي بقرابة نسبية قريبة أو بعيدة أو سببية، والأموال التي اكتسبوها وجمعوها، والتجارة التي يخشون كسادها والمساكن التي يرضونها، وهذه أصول ما يقوم به

المجتمع في المرتبة الثانية.

ج. وذكر تعالى أنهم إن تولوا أعداء الدين، وقدموا حكم هؤلاء الأمور على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله فليتربصوا ولينتظروا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين.

د. ومن المعلوم أن الشرط أعني قوله: ﴿إِنْ كانَ آباؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾ في معنى أن يقال: إن لم تنتهوا عما ينهاكم عنه من اتخاذ الآباء والإخوان الكافرين أولياء باتخاذكم سببا يؤدي إلى خلاف ما يدعوكم إليه، وإهمالكم في أمر غرض الدين وهو الجهاد في سبيل الله.

هـ. فقوله في الجزاء: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ لا محالة إما أمر يتدارك به ما عرض على الدين من ثلمة وسقوط غرض في ظرف مخالفتهم، وإما عذاب يأتيهم عن مخالفة أمر الله ورسوله والإعراض عن الجهاد في سبيله.

و. غير أن قوله تعالى في ذيل الآية: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ يعرض لهم أنهم خارجون حينئذ عن زي العبودية، فاسقون عن أمر الله ورسوله فهم بمعزل من أن يهديهم الله بأعمالهم ويوفقهم لنصرة الله ورسوله، وإعلاء كلمة الدين وإمحاء آثار الشرك.

٢. فذيل الآية يهدي إلى أن المراد بهذا الأمر الذي يأمرهم الله أن يتربصوا له حتى يأتي به أمر منه تعالى، متعلق بنصرة دينه وإعلاء كلمته فينطبق على مثل قوله تعالى في سورة المائدة بعد آيات ينهى فيها عن تولي الكافرين: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤] والآية بقيودها وخصوصياتها، كما ترى، تنطبق على ما تفيده الآية التي نحن فيها.

٣. فالمراد، والله أعلم، إن اتخذتم هؤلاء أولياء، واستنكفتم عن إطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيل الله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، ويبعث قوما لا يحبون إلا الله، ولا يوالون أعداءه ويقومون بنصرة الدين والجهاد في سبيل الله أفضل قيام فإنكم إذا فاسقون لا ينتفع بكم الدين، ولا يهدي الله شيئا من أعمالكم إلى غرض حق وسعادة مطلوبة.

٤. وربما قيل: إن المراد بقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ الإشارة إلى فتح مكة، وليس بسديد

فإن الخطاب في الآية للمؤمنين من المهاجرين والأنصار وخاصة المهاجرين، وهؤلاء هم الذين فتح الله مكة بأيديهم، ولا معنى لأن يخاطبوا ويقال لهم: إن كان آباؤكم وأبناؤكم (إلخ) أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فواليتموهم واستنكفتم عن إطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله فتربصوا حتى يفتح الله مكة بأيديكم والله لا يهدي القوم الفاسقين، أو فتربصوا حتى يفتح الله مكة والله لا يهديكم لمكان فسقكم فتأمل.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: لما أذن أمير المؤمنين، أن لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك، جزعت قريش جزعا شديدا، وقالوا: ذهبت تجارتنا وضاعت عيالنا، وخربت دورنا فأنزل الله في ذلك: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، ﴿إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾إلى قوله ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾

• أقول: وعلى هذا كان من الجري أن يفسر قوله في الآية: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ بتدارك ما ينزل بهم من الكساد وفتح باب الرزق عليهم من وجه آخر كما وقع مثله في قوله تعالى في ضمن الآيات التالية: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، بل اتحد حينئذ موردا الآيتين، ولسان الرفق وكرامة الخطاب بمثل قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يأبى أن يكون الخطاب بقوله: ﴿إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ﴾ الآية متوجها إليهم بأعيانهم على ما في آخرها من الخشونة في قوله: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾

• على أن الآية تذكر حب الآباء والإخوان والعشيرة والأموال التي اقترفوها، ولم يذكر شيء منها في الرواية، ولا حسبت قريش ضيعة بالنسبة إليها فما معنى ذكرها في الآية والتهديد على اختيار حبها على حب الله ورسوله؟ وما معنى ذكر الجهاد في سبيله في الآية؟ فافهم ذلك.

ب. أخرج أحمد والبخاري عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه.

١٧. حنين والنصر والكثرة والهزيمة:

المقطع [١٧] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢١٨»:

١. ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾إلى قوله ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾:

أ. المواطن جمع موطن وهو الموضع الذي يسكنه الإنسان ويتوطن فيه، وحنين اسم واد بين مكة والطائف وقع فيه غزوة حنين قاتل فيه النبي ﷺ هوازن وثقيف وكان يوما شديدا على المسلمين انهزموا أولا ثم أيدهم الله بنصره فغلبوا، والإعجاب الإسرار والعجب سرور النفس بما يشاهده نادرا، والرحب السعة في المكان وضده الضيق.

ب. ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ ذكر لنصرته تعالى لهم في مواطن كثيرة ومواضع متعددة يدل السياق على أنها مواطن الحروب كوقائع بدر وأحد والخندق وخيبر وغيرها، ويدل السياق أيضا أن الجملة كالمقدمة الممهدة لقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ الآية فإن الآيات الثلاث مسوقة لتذكير قصة وقعة حنين، وعجيب ما أفاض الله عليهم من نصرته وخصهم به من تأييده فيها.

ج. وقد استظهر بعض المفسرين كون الآية وما يتلوها إلى تمام الآيات الثلاث تتمة لقول النبي ﷺ فيما أمره ربه أن يواجه به المؤمنين في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ﴾ الآية وتكلف في توجيه الفصل الذي في قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، ولا دليل من جهة اللفظ على ذلك بل الدليل على خلافه فإن قصة حنين وما يشتمل عليه من الامتنان بنصر الله وإنزال السكينة وإنزال الجنود وتعذيب الكافرين والتوبة على من يشاء أمر مستقل في نفسه ذو أهمية في ذاته وهو أهم هدفا من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ﴾ الآية أو هو مثله لا يقصر عنه فلا معنى لاتباعه إياه وعطفه عليه في المعنى، وحينئذ لو كان مما يجب أن يخاطب به القوم لكان من الواجب أن يقال، وقل لهم لقد نصركم الله في مواطن كثيرة الآية، على ما جرى عليه القرآن في نظائره كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ إلى أن قال: ﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] وغيره من الموارد، على أن سياق الآيات وما يجب أن تشتمل عليه من الالتفات وغيره، لو كانت الآيات مقولة للقول، لا تلائم كونها مقولة

للقول السابق.

د. والخطاب في قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ﴾ وما يتلوه من قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ الآية، للمسلمين وهم الذين يؤلفون مجتمعا إسلاميا واحدا حضروا بوحدتهم هذه الوحدة أمثال وقائع بدر وأحد والخندق وخيبرا وحنينا وغيرها، وهؤلاء فيهم المنافقون والضعفاء في الإيمان والمؤمنون صدقا على اختلافهم في المنازل إلا أن الخطاب متوجه إلى الجميع باعتبار اشتماله على من يصح أن يخاطب بمثل قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إلى آخر الآية.

هـ. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي ويوما وقعت فيه القتال بينكم وبين أعدائكم بوادي حنين، وإضافة اليوم إلى أمكنة الوقائع العظيمة شائع في العرف كما يقال: يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق نظير إضافته إلى الجماعة المتلبسين بذلك كيوم الأحزاب ويوم تميم، وإضافته إلى نفس الحادثة كيوم فتح مكة.

٢. ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾:

أ. أي أسرتكم الكثرة التي شاهدتموها في أنفسكم فانقطعتم عن الاعتماد بالله والثقة بأيده وقوته واستندتم إلى الكثرة فرجوتم أن ستدفع عنكم كيد العدو وتهزم جمعهم، وإنما هو سبب من الأسباب الظاهرية لا أثر فيها إلا ما شاء الله الذي إليه تسبيب الأسباب.

ب. وبالنظر إلى هذا المعنى أردف قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ بقوله: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾ أي اتخذتموها سببا مستقلا دون الله فأنساكم الاعتماد بالله، وركنتم إليها فبان لكم ما في وسع هذا السبب الموهوم وهو أن لا غنى عنده حتى يغنيكم فلم يغن عنكم شيئا لا نصرا ولا شيئا آخر.

٣. ﴿وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ﴾:

أ. أي مع ما رحبت، وهو كناية عن إحاطة العدو بهم إحاطة لا يجدون مع ذلك مأمنا من الأرض يستقرون فيه ولا كهفا يأوون إليه فيقيهم من العدو، أي فررتم فرارا لا تلوون على شيء، فهو قريب المعنى من قوله تعالى في قصة الأحزاب: ﴿إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]، وقول بعضهم: أي ضاقت عليكم الأرض فلم تجدوا موضعا تفرون إليه غير سديد.

ب. ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ أي جعلتم العدو يلي أدباركم وهو كناية عن الانهزام وهذا هو الفرار

من الزحف ساقهم إليه اطمئنانهم بكثرتهم والانقطاع من ربهم، قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ إلى أن قال: ﴿فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦] وقال: ﴿وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً﴾ [الأحزاب: ١٥]

ج. فهذا كله أعني ضيق الأرض عليهم بما رحبت ثم انهزامهم وفرارهم من الزحف على ما فيه من كبير الإثم، ووقوفهم هذا الموقف الذي يستتبع العتاب من ربهم إنما ساقهم إليه اعتمادهم واطمئنانهم إلى هذه الأسباب السرابية التي لا تغني عنهم شيئا.

د. والله سبحانه بسعة رحمته وعظم منه امتن عليهم بنصره وإنزال سكينته وإنزال جنود لم يروها، وتعذيب الكافرين ووعد مجمل بمغفرته وعدا ليس بالمقطوع وجوده حتى تبطل به صفة الخوف من قلوبهم، ولا بالمقطوع عدمه حتى تزول صفة الرجاء من نفوسهم بل وعدا يحفظ فيهم الاعتدال والتوسط بين صفتي الخوف والرجاء، ويربيهم تربية حسنة تعدهم وتهيئهم للسعادة الواقعية.

٤. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ في غزوة حنين ودلالته على الفرار من الزحف]، خلاصته:

أ. بيان أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ نص صريح في وقوع الفرار من الزحف من المسلمين في غزوة حنين، وأن هذا الفعل داخل تحت عموم آية تحريم الفرار من الزحف.

ب. الرد على من زعم أن انكشاف المسلمين كان اضطراباً طبيعياً لا فراراً، وأن ذلك لا يندفع به صريح الآية، إذ لم يقيد النهي عن تولية الأدبار بكونه عن جبن أو خذلان.

ج. توضيح أن السكينة التي نزلت على النبي والمؤمنين ليست مجرد طمأنينة نفسانية، بل هي حالة إلهية خاصة لا تنزل إلا على من له أهلية سابقة وطهارة قلبية.

د. إثبات أن المراد بـ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين نزلت عليهم السكينة هم الذين ثبتوا مع النبي ﷺ، وليس من فر ثم رجع، لأن نزول السكينة يتوقف على طهارة قلبية سابقة.

هـ. بيان أن من فر من الزحف ثم رجع هم تحت شمول قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾

و. الرد على من استشهد بآيات المدح للصحابة كبيعة الرضوان، وبيان أن تلك المحامد مقيدة ببقاء الصفات الموجبة لها، وأن رضى الله صفة فعلية تتغير بتغير العمل.

ز. توضيح أن القرآن لم يخص الثابتين مع النبي بثناء في قصة حنين كما فعل في وقعة أحد والأحزاب، مما يؤيد أنهم هم الذين نزلت عليهم السكينة.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، عن علي بن إبراهيم عن بعض أصحابه ذكره قال: لما سم المتوكل نذر إن عوفي أن يتصدق بمال كثير، فلما عوفي سأل الفقهاء عن حد المال الكثير، فاختلفوا عليه فقال بعضهم: مائة ألف، وقال بعضهم: عشرة آلاف، فقالوا فيه أقاويل مختلفة فاشتبه عليه الأمر، فقال رجل من ندمائه يقال له صفوان: ألا تبعث إلى هذا الأسود فتسأله عنه؟ فقال له المتوكل: من تعني ويحك؟ فقال: ابن الرضا، فقال له: وهو يحسن من هذا شيئا؟ فقال: إن أخرجك من هذا فلي عليك كذا وكذا، وإلا فاضربني مائة مقرعة فقال المتوكل: رضيت، يا جعفر بن محمود اذهب إلى أبي الحسن علي بن محمد، فاسأله عن حد المال الكثير، فسأله فقال له: الكثير ثمانون، فقال له جعفر بن محمود: يا سيدي إنه يسألني عن العلة فيه، فقال له أبو الحسن عليه السلام: إن الله عز وجل يقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ فعددنا تلك المواطن فكان ثمانين.

• أقول: ورواه القمي أيضا في تفسيره وبعض أصحابه الذي ذكر في الرواية أنه سماه هو محمد بن عمرو على ما ذكره في التفسير، ومعنى الرواية أن الثمانين من مصاديق الكثير بدلالة من الكتاب لا أن الكثير معناه الثمانون وهو ظاهر.

ب. وفي المجمع: ذكر أهل التفسير وأصحاب السير: أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة خرج منها، متوجها إلى حنين لقتال هوازن وثقيف، في آخر شهر رمضان أو في شوال في سنة ثمان من الهجرة، وقد اجتمع رؤساء هوازن إلى مالك بن عوف النصري، وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وذراريهم ونزلوا بأوطاس، قال: وكان دريد بن الصمة في القوم، وكان رئيس جشم، وكان شيخا كبيرا، قد ذهب بصره من الكبر فقال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس، ما لي أسمع رغاء البعير ونهيق الحمير وخوار البقر، وثغاء الشاة وبكاء الصبيان؟ فقالوا: إن مالك بن عوف،

ساق مع الناس أبناءهم وأموالهم ونساءهم، ليقاتل كل منهم عن أهله وماله فقال دريد: راعي ضأن ورب الكعبة، ثم قال: ائتوني بمالك فلما جاءه قال: يا مالك، إنك أصبحت رئيس قومك، وهذا يوم له ما بعده، رد قومك إلى عليا بلادهم، وألق الرجال على متون الخيل، فإنه لا ينفعك إلا رجل بسيفه وفرسه، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك لا تكون قد فضحت في أهلك وعيالك؛ فقال له مالك: إنك قد كبرت وذهب علمك وعقلك، وعقد رسول الله ﷺ لواءه الأكبر، ودفعه إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، وكل من دخل مكة براية أمره أن يحملها، وخرج بعد أن أقام بمكة خمسة عشر يوما، وبعث إلى صفوان بن أمية فاستعار منه مائة درع، فقال صفوان: عارية أم غصب؟ فقال ﷺ: عارية مضمونة مؤداة، فأعاره صفوان مائة درع وخرج معه، وخرج من مسلمة الفتح ألفا رجل، وكان ﷺ دخل مكة في عشرة آلاف رجل، وخرج منها في اثني عشر ألفا، وبعث رسول الله ﷺ رجلا من أصحابه، فانتهى إلى مالك بن عوف وهو يقول لقومه: ليصير كل رجل منكم أهله وماله خلف ظهره، واكسروا جفون سيوفكم، وأكمنوا في شعاب هذا الوادي وفي السحر، فإذا كان في غبش الصبح، فاحملوا حملة رجل واحد فهدوا القوم، فإن محمدا لم يلق أحدا يحسن الحرب، ولما صلى رسول الله ﷺ بأصحابه الغداة، انحدر في وادي حنين، فخرجت عليهم كتائب هوازن من كل ناحية، وانهزمت بنو سليم وكانوا على المقدمة وانهزم ما وراءهم، وخلى الله تعالى بينهم وبين عدوهم لإعجابهم بكثرتهم، وبقي علي عليه السلام ومعه الراية يقاتلهم في نفر قليل، ومر المنهزمون برسول الله ﷺ لا يلوون على شيء، وكان العباس بن عبد المطلب أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ، والفضل عن يمينه، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عن يساره، ونوفل بن الحارث وربيعة بن الحارث في تسعة من بني هاشم، وعاشرهم أيمن بن أم أيمن، وفي ذلك يقول العباس:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة...وقد فر من قد فر عنه فأقشعوا

وقولي إذا ما الفضل كر بسيفه...على القوم أخرى يا بني ليرجعوا

وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه...لما ناله في الله لا يتوجع

ولما رأى رسول الله ﷺ هزيمة القوم عنه، قال للعباس، وكان جهوريا صيتا، اصعد هذا الظرب، فناد: يا معشر المهاجرين والأنصار، يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة إلى أين تفرون؟ هذا

رسول الله، فلما سمع المسلمون صوت العباس، تراجعوا وقالوا: لبيك لبيك، وتبادر الأنصار خاصة وقاتلوا المشركين، حتى قال رسول الله ﷺ: الآن حمي الوطيس، أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، ونزل النصر من عند الله، وانهزمت هوازن هزيمة قبيحة ففروا في كل وجه، ولم يزل المسلمون في آثارهم، وفر مالك بن عوف فدخل حصن الطائف، وقتل منهم زهاء مائة رجل، وأغنم الله المسلمين أموالهم ونساءهم، وأمر رسول الله بالذراري والأموال أن تحدر إلى الجعرانة، وولى على الغنائم بديل بن ورقاء الخزاعي، ومضى ﷺ في أثر القوم، فوافى الطائف في طلب مالك بن عوف، فحاصر أهل الطائف بقية الشهر، فلما دخل ذو القعدة انصرف وأتى الجعرانة، وقسم بها غنائم حنين وأوطاس، قال سعيد بن المسيب: حدثني رجل كان في المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ لم يقفوا لنا حلب شاة، فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم، حتى إذ انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء يعني رسول الله ﷺ، فتلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا، فركبوا أكتافنا فكانوا إياها يعني الملائكة، قال الزهري: وبلغني أن شيبة بن عثمان، قال: استدبرت رسول الله ﷺ، وأنا أريد أن أقتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة، وكانا قد قتلا يوم أحد فأطلع الله رسوله على ما في نفسي، فالتفت إلي وضرب في صدري، وقال: أعيذك بالله يا شيبة فأرعدت فرائصي، فنظرت إليه وهو أحب إلي من سمعي وبصري، فقلت: أشهد أنك رسول الله، وأن الله أطلعك على ما في نفسي، وقسم رسول الله ﷺ الغنائم بالجعرانة، وكان معه من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل والشاة ما لا يدرى عدته، قال أبو سعيد الخدري: قسم رسول الله ﷺ للمتألفين من قريش، ومن سائر العرب ما قسم، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير، فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار، وجدوا عليك في قسمك هذه الغنائم في قومك، وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء، فقال ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ فقال: ما أنا إلا امرؤ من قومي، فقال رسول الله ﷺ: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فجمعهم فخرج رسول الله ﷺ فقام فيهم خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر الأنصار أولم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ فقالوا: وما نقول؟ وبما ذا نجيبك؟ المن لله ولرسوله، فقال رسول الله ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم: جئتنا طريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك، وخائفا فآمناك، ومخذولا فنصرناك،

فقالوا: المن لله ولرسوله، فقال رسول الله ﷺ: وجدتم في أنفسكم، يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام، أفلا ترضون يا معشر الأنصار، أن تذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعبا، وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، ولو لا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسما ثم تفرقوا، وقال أنس بن مالك: وكان رسول الله ﷺ أمر مناديا فنادى يوم أوطاس: ألا لا توطأ الحبالى حتى يضعن، ولا غير الحبالى حتى يستبرأن بحيضة، ثم أقبلت وفود هوازن، وقدمت على رسول الله ﷺ بالجعرانة مسلمين، فقام خطيبهم وقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي، كن يكفلنك فلو أنا ملحنا ابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر، ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك، رجونا عائدتهما وعطفهما وأنت خير المكفولين، ثم أنشد أبياتا، فقال ﷺ: أي الأمرين أحب إليكم: السبي أو الأموال؟ قالوا: يا رسول الله خيرتنا بين الحسب وبين الأموال، والحسب أحب إلينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير، فقال رسول الله ﷺ: أما الذي لبني هاشم فهو لكم، وسأكلم لكم المسلمين وأشفع لكم فكلموهم وأظهروا إسلامكم، فلما صلى رسول الله ﷺ الهاجرة قاموا فتكلموا، فقال النبي ﷺ: قد رددت الذي لبني هاشم، والذي بيدي عليهم فمن أحب منكم أن يعطي غير مكره فليفعل، ومن كره أن يعطي فليأخذ الفداء وعلي فداؤهم، فأعطى الناس ما كان بأيديهم منهم، إلا قليلا من الناس سألوا الفداء، وأرسل رسول الله ﷺ إلى مالك بن عوف وقال: إن جئتني مسلما رددت إليك أهلك ومالك، ولك عندي مائة ناقة فخرج إليه من الطائف، فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، واستعمله على من أسلم من قومه)

• أقول: وروى القمي في تفسيره مثله ولم يرو ما نسب من الرجز إليه ﷺ وكذا ما أسنده إلى راو معين كالمسيب والزهري وأنس وأبي سعيد، وروي هذه المعاني بطرق كثيرة من طرق أهل السنة.

ج. وفي رواية علي بن إبراهيم القمي زيادة يسيرة هي ما يأتي: قال علي بن إبراهيم: فلما رأى رسول الله ﷺ الهزيمة، ركض يحوم على بغلته قد شهر سيفه فقال: يا عباس اصعد هذا الظرب، وناد: يا أصحاب [سورة] البقرة يا أصحاب الشجرة، إلى أين تفرون؟ هذا رسول الله، ثم رفع رسول الله ﷺ يده وقال: اللهم

لك الحمد ولك الشكر وإليك المشتكى، وأنت المستعان فنزل إليه جبرئيل، فقال: يا رسول الله دعوت بما دعا به موسى بن عمران، حين فلق الله له البحر ونجاه من فرعون، ثم قال رسول الله ﷺ لأبي سفيان بن الحارث: ناولني كفا من حصى فناوله فرماه في وجوه المشركين، ثم قال: شاهت الوجوه، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد، وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد، فلما سمعت الأنصار نداء العباس عطفوا، وكسروا جفون سيوفهم وهم ينادون: لبيك ومروا برسول الله ﷺ، واستحيوا أن يرجعوا إليه ولحقوا بالراية، فقال رسول الله ﷺ للعباس: من هؤلاء يا أبا الفضل؟ فقال: يا رسول الله، هؤلاء الأنصار فقال رسول الله ﷺ: الآن حمي الوطيس فنزل النصر من السماء وانهزمت هوازن.

د. أخرج أبو الشيخ عن محمد بن عبيد الله بن عمير الليثي قال: كان مع النبي ﷺ أربعة آلاف من الأنصار، وألف من جهينة، وألف من مزينة، وألف من أسلم وألف من غفار وألف من أشجع، وألف من المهاجرين وغيرهم فكان معه عشرة آلاف، وخرج باثني عشر ألفا وفيها قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً﴾

هـ. وفي سيرة ابن هشام، عن ابن إسحاق قال: فلما انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته وصرخ جبلة بن الحنبل، قال ابن هشام: كلدة بن الحنبل، وهو مع أخيه صفوان بن أمية مشرك في المدة، التي جعل له رسول الله ﷺ ـ: ألا بطل السحر اليوم، فقال له صفوان اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يربني رجل من قريش، أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن، قال ابن إسحاق: وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة أخو بني عبد الدار: قلت: اليوم أدرك ثاري، وكان أبوه قتل يوم أحد، اليوم أقتل محمدا قال: فأدرت برسول الله ﷺ لأقتله فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي، فلم أطق ذاك فعلمت أنه ممنوع مني.

و. فهرس أسماء شهداء حنين: في سيرة ابن هشام، قال ابن إسحاق: وهذه تسمية من استشهد يوم حنين من المسلمين: من قريش ثم من بني هاشم أيمن بن عبيد، ومن بني أسد بن عبد العزى، يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، جمح به فرس يقال له الجناح فقتل، ومن الأنصار سراقة بن الحارث بن عدي من بني العجلان، ومن الأشعريين أبو عامر الأشعري.

• أقول: وأما الثباة مع رسول الله ﷺ فقد عدوا في بعض الروايات ثلاثة وفي بعضها أربعة وفي بعضها تسعة عاشرهم أيمن بن عبيد، وهو ابن أم أيمن، وفي بعضها ثمانين وفي بعضها: دون المائة، والمتعمد من بينها ما روي عن العباس أنهم كانوا تسعة عاشرهم أيمن وله في ذلك شعر تقدم نقله وذلك أنه كان ممن ثبت مع النبي ﷺ طول الوقعة وشاهد ما كان من الأمر وهو الذي كان ينادي المنهزمين ويستلحقهم بأمر النبي ﷺ وقد باهى بما قاله من الشعر، ومن الممكن أن يثبت جمع بعد انهزام الناس هنيئة ثم يلحقوا بالمنهزمين أو يرجع جمع قبل رجوع غيرهم فيلحقوا بالراية فيعدوا ممن ثبت وقاتل فالحرب العوان لا يجري على ما يجري عليه السلم من النظم، ومن هنا يعلم ما في قول بعضهم: إن الأرجح رواية الثمانين كما عن عبد الله بن مسعود وإليها يرجع ما رواه ابن عمر أنهم كانوا دون المائة فإن الحجة لمن حفظ على من لم يحفظ، انتهى ملخصا، وذلك أن كون الحجة لمن حفظ على من لم يحفظ حق لكن الحفظ في حال الحرب على ما فيه من التحول السريع في الأوضاع الحاضرة غير الحفظ في غيره فلا يعتمد إلا على ما شهدت القرائن لصحته وأيد الاعتبار وثاقة حفظه وقد كان العباس مأمورا بها من شأنه حفظ هذا الشأن وما يرتبط به.

١٨. إنزال السكينة والجنود وتوبة الله على من يشاء:

المقطع [١٨] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٦ـ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٢٧»:

١. ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. السكينة، كما تقدم، حالة قلبية توجب سكون النفس وثبات القلب ملازمة لازدياد الإيمان مع الإيمان ولكلمة التقوى التي تهدي إلى الورع عن محارم الله على ما تفسرها الآيات، وهي غير العدالة التي هي ملكة نفسانية تردع عن ركوب الكبائر والإصرار على الصغائر فإن السكينة تردع عن الصغائر والكبائر جميعا.

ب. وقد نسب الله السكينة في كتابه إلى نفسه نسبة تشعر بنوع من الاختصاص كما نسب الروح إلى نفسه دون العدالة ووصفها بالإنزال فلها اختصاص عندي به تعالى بل ربما يشعر بعض الآيات بأنه عدها من جنوده كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَللهِ جُنُودُ

السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤]

ج. وفي غير واحد من الآيات المشتملة على ذكر السكينة ذكر الجنود كقوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها﴾ [التوبة: ٤٠]، وكما في الآية المبحوث عنها: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها﴾

د. والذي يفهم من السياق أن هذه الجنود هي الملائكة النازلة إلى المعركة، أو أن يقال من جملتها الملائكة النازلة والذي ينتسب إلى السكينة والملائكة أن يعذب بهم الكفار ويسدد ويسعد بهم المؤمنون كما اشتملت عليه آيات آل عمران القاصة قصة أحد، وآيات في أول سورة الفتح فراجعها حتى يتبين لك حقيقة الحال إن شاء الله تعالى.

هـ. وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] في الجزء الثاني من الكتاب بعض ما يتعلق بالسكينة الإلهية من الكلام مما لا يخلو من نفع في هذا المقام.

٢. ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. قد تقدم مرارا أن التوبة من الله سبحانه هي الرجوع إلى عبده بالعناية والتوفيق أولا ثم بالعفو والمغفرة ثانيا، ومن العبد الرجوع إلى ربه بالندامة والاستغفار، ولا يتوب الله على من لا يتوب إليه.

ب. والإشارة في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذلِكَ﴾ على ما يعطيه السياق إلى ما ذكره في الآيتين السابقتين من خطيئتهم بالركون إلى غير الله سبحانه ومعصيتهم بالفرار والتولي ثم إنزال السكينة وإنزال الجنود وتعذيب الذين كفروا.

ج. والملائم لذلك أن يكون الموصول في ﴿مَنْ يَشاءُ﴾ شاملا للمسلمين والكافرين جميعا فقد ذكر من الفريقين جميعا ما يصلح لأن يتوب الله عليهم فيه إن تابوا وهو من الكفار كفرهم ومن المسلمين خطيئتهم ومعصيتهم، ولا وجه لتخصيص التوبة على بعضهم مع ما في آيات التوبة من عموم الحكم وسعته ولم يقيد في هذه الآية المبحوث عنها بما يوجب اختصاصها بأحد الفريقين: المسلمين أو الكافرين مع وجود المقتضي فيهما جميعا.

د. ومما ذكرنا يظهر فساد ما فسر به بعضهم الآية مع قصر الإشارة على التعذيب إذ قال: (إن معناها ثم يتوب الله تعالى بعد هذا التعذيب الذي يكون في الدنيا على من يشاء من الكافرين فيهديهم إلى الإسلام

وهم الذين لم يحط بهم خطيئات جهالة الشرك وخرافاته من جميع جوانب أنفسهم، ولم يختم على نفوسهم بالإصرار على الجحود والتكذيب أو الجمود على ما ألفوا بمحض التقليد) وقد عرفت أن تخصيص الآية بما ذكر والتصرف في سائر قيوده كقصر الإشارة على التعذيب وغير ذلك مما لا دليل عليه البتة.

هـ. والوجه في التعبير بالاستقبال في قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ﴾ الإشارة إلى انفتاح باب التوبة دائما، وجريان العناية وفيضان العفو والمغفرة الإلهية مستمرا بخلاف ما يشير إليه قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ﴾ الآية، فإن ذلك أمور محدودة غير جارية.

١٩. المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام:

المقطع [١٩] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٢٩»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا﴾:

أ. قال في المجمع: (كل مستقذر نجس يقال: رجل نجس وامرأة نجس وقوم نجس لأنه مصدر، وإذا استعملت هذه اللفظة مع الرجس قيل: رجس نجس، بكسر النون، قال: والعيلة الفقر يقال عال يعيل إذا افتقر)

ب. والنهي عن دخول المشركين المسجد الحرام بحسب المتفاهم العرفي يفيد أمر المؤمنين بمنعهم عن دخول المسجد الحرام، وفي تعليله تعالى منع دخولهم المسجد بكونهم نجسا اعتبار نوع من القذارة لهم كاعتبار نوع من الطهارة والنزاهة للمسجد الحرام، وهي كيف كانت أمر آخر وراء الحكم باجتناب ملاقاتهم بالرطوبة وغير ذلك.

ج. والمراد بقوله: ﴿عامِهِمْ هذا﴾ سنة تسع من الهجرة، وهي السنة التي أذن فيها علي عليه السلام بالبراءة، ومنع طواف البيت عريانا، وحج المشركين البيت.

٢. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ الآية:

أ. أي وإن خفتم في إجراء هذا الحكم أن ينقطعوا عن الحج، ويتعطل أسواقكم، وتذهب تجارتكم فتفتقروا وتعيلوا فلا تخافوا فسوف يغنيكم الله من فضله، ويؤمنكم من الفقر الذي تخافونه.

ب. وهذا وعد حسن منه تعالى فيه تطييب نفوس أهل مكة ومن كان له تجارة هناك بالموسم، وكان حاضر العالم الإسلامي يبشرهم يومئذ بمضمون هذا الوعد فقد كان الإسلام تعلو كلمته، وينتشر صيته حالا بعد حال، وكانت عامة المشركين في عتبة الاستئصال بعد إيذان براءة لم يبق لهم إلا أربعة أشهر إلا شرذمة قليلة من العرب كان النبي ﷺ عاهدهم عند المسجد الحرام إلى أجل ما بعده من مهل فالجميع كانوا في معرض قبول الإسلام.

٢٠. قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية:

المقطع [٢٠] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٣٧»:

١. ﴿قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾:

أ. أهل الكتاب هم اليهود والنصارى على ما يستفاد من آيات كثيرة من القرآن الكريم وكذا المجوس على ما يشعر أو يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧] حيث عدوا في الآية مع سائر أرباب النحل السماوية في قبال الذين أشركوا، والصابئون كما تقدم طائفة من المجوس صبوا إلى دين اليهود فاتخذوا طريقا بين الطريقين.

ب. والسياق يدل على أن لفظة ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ بيانية لا تبعيضية فإن كلا من اليهود والنصارى والمجوس أمة واحدة كالمسلمين في إسلامهم وإن تشعبوا شعبا مختلفة وتفرقوا فرقا متشتتة اختلط بعضهم ببعض ولو كان المراد قتال البعض وإثبات الجزية على الجميع أو على ذلك البعض بعينه لاحتاج المقام في إفادة ذلك إلى بيان غير هذا البيان يحصل به الغرض.

٢. وحيث كان قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ بيانا لما قبله من قوله: ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية فالأوصاف المذكورة أوصاف عامة لجميعهم وهي ثلاثة أوصاف وصفهم الله سبحانه بها: عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، وعدم تحريم ما حرم الله ورسوله، وعدم التدين بدين الحق.

أ. فأول ما وصفهم به قوله: ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾:

• وهو تعالى ينسب إليهم في كلامه أنهم يثبتونه إلها وكيف لا؟ وهو يعدهم أهل الكتاب، وما هو إلا الكتاب السماوي النازل من عند الله على رسول من رسله ويحكي عنهم القول أو لازم القول بالألوهية في مئات من آيات كتابه، وكذا ينسب إليهم القول باليوم الآخر في أمثال قوله: ﴿وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وقوله: ﴿وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى﴾ [البقرة: ١١١]، غير أنه تعالى لم يفرق في كلامه بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر فالكفر بأحد الأمرين كفر بالله والكفر بالله كفر بالأمرين جميعا، وحكم فيمن فرق بين الله ورسله فآمن ببعض دون بعض أنه كافر كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً﴾ [النساء: ١٥١]

• فعد أهل الكتاب ممن لم يؤمن بنبوة محمد ﷺ كفارا حقا وإن كان عندهم إيمان بالله واليوم الآخر، لا بلسان أنهم كفروا بآية من آيات الله وهي آية النبوة بل بلسان أنهم كفروا بالإيمان بالله فلم يؤمنوا بالله واليوم الآخر كما أن المشركين أرباب الأصنام كافرون بالله إذ لم يوحدوه وإن أثبتوا إلها فوق الآلهة، على أنهم يقررون أمر المبدإ والمعاد تقريرا لا يوافق الحق بوجه كقولهم بأن المسيح ابن الله وعزيرا ابن الله يضاهئون في ذلك قول الذين كفروا من أرباب الأصنام والأوثان أن من الآلهة من هو إله أب إله ومن هو إله ابن إله، وقول اليهود في المعاد بالكرامة وقول النصارى بالتفدية.

• فالظاهر أن نفي الإيمان بالله واليوم الآخر عن أهل الكتاب إنما هو لكونهم لا يرون ما هو الحق من أمر التوحيد والمعاد وإن أثبتوا أصل القول بالألوهية لا لأن منهم من ينكر القول بألوهية الله سبحانه أو ينكر المعاد فإنهم قائلون بذلك على ما يحكيه عنهم القرآن وإن كانت التوراة الحاضرة اليوم لا خبر فيها عن المعاد أصلا.

ب. ثم وصفهم ثانيا بقوله: ﴿وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾:

• وذلك كقول اليهود بإباحة أشياء عدها وذكرها لهم القرآن في سورتي البقرة والنساء وغيرهما وقول النصارى بإباحة الخمر ولحم الخنزير، وقد ثبت تحريمهما في شرائع موسى وعيسى ومحمد عليه

السلام وأكلهم أموال الناس بالباطل كما سينسبه إليهم في الآية الآتية: ﴿إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ﴾

• والمراد بالرسول في قوله: ﴿ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ أما رسول أنفسهم الذي قالوا بنبوته كموسى عليه السلام بالنسبة إلى اليهود، وعيسى عليه السلام بالنسبة إلى النصارى فالمعنى لا يحرم كل أمة منهم ما حرمه عليهم رسولهم الذي قالوا بنبوته، واعترفوا بحقانيته وفي ذلك نهاية التجري على الله ورسوله واللعب بالحق والحقيقة.

• وأما النبي محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

• ويكون حينئذ توصيفهم بعدم تحريمهم ما حرم الله ورسوله بغرض تأنيبهم والطعن فيهم ولبعث المؤمنين وتهييجهم على قتالهم لعدم اعتنائهم بما حرمه الله ورسوله في شرعهم واسترسالهم في الوقوع في محارم الله وهتك حرماته.

• وربما أيد هذا الاحتمال أن لو كان المراد بقوله: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ رسول كل أمة بالنسبة إليها كموسى بالنسبة إلى اليهود وعيسى بالنسبة إلى النصارى كان من حق الكلام أن يقال: (ولا يحرمون ما حرم الله ورسله) على ما هو دأب القرآن في نظائره للدلالة على كثرة الرسل كقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٥٠]، وقوله: ﴿قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ [يونس: ١٣]

• على أن النصارى رفضوا محرمات التوراة والإنجيل فلم يحرموا ما حرم موسى وعيسى عليه السلام، وليس من حق الكلام في مورد هذا شأنه: أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

• على أن المتدبر في المقاصد العامة الإسلامية لا يشك في أن قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ليس لغرض تمتع أولياء الإسلام ولا المسلمين من متاع الحياة الدنيا واسترسالهم وانهماكهم في الشهوات على حد المترفين من الملوك والرؤساء المسرفين من أقوياء الأمم، وإنما غرض الدين في ذلك أن يظهر دين الحق وسنة العدل وكلمة التقوى على الباطل والظلم والفسق فلا يعترضها في مسيرها اللعب والهوى فتسلم التربية الصالحة المصلحة من مزاحمة التربية الفاسدة المفسدة حتى لا ينجر إلى أن تجذب هذه إلى

جانب، وتلك إلى جانب، فيتشوش أمر النظام الإنساني إلا أن لا يرتضي واحد أو جماعة التربية الإسلامية لنفسه أو لأنفسهم فيكونون أحرارا فيما يرتضونه لأنفسهم من تربية دينهم الخاصة على شرط أن يكونوا على شيء من دين التوحيد، وهو اليهودية أو النصرانية أو المجوسية، وأن لا يتظاهروا بالمزاحمة، وهذا غاية العدل والنصفة من دين الحق الظاهر على غيره.

• وأما الجزية فهي عطية مالية مأخوذة منهم مصروفة في حفظ ذمتهم وحسن إدارتهم ولا غنى عن مثلها لحكومة قائمة على ساقها حقة أو باطلة.

• ومن هذا البيان يظهر أن المراد بهذه المحرمات: المحرمات الإسلامية التي عزم الله أن لا تشيع في المجتمع الإسلامي العالمي كما أن المراد بدين الحق هو الذي يعزم أن يكون هو المتبع في المجتمع.

• ولازم ذلك أن يكون المراد بالمحرمات: المحرمات التي حرمها الله ورسوله محمد ﷺ الصادع بالدعوة الإسلامية، وأن يكون الأوصاف الثلاثة: ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية في معنى التعليل تفيد حكمة الأمر بقتال أهل الكتاب.

• وبذلك كله يظهر فساد ما أورد على هذا الوجه أنه لا يعقل أن يحرم أهل الكتاب على أنفسهم ما حرم الله ورسوله علينا إلا إذا أسلموا، وإنما الكلام في أهل الكتاب لا في المسلمين العاصين.

• وجه الفساد أنه ليس من الواجب أن يكون الغرض من قتالهم أن يحرموا ما حرم الإسلام وهم أهل الكتاب بل أن لا يظهر في الناس التبرز بالمحرمات من غير مانع يمنع شيوعها والاسترسال فيها كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير وأكل المال بالباطل على سبيل العلن بل يقاتلون ليدخلوا في الذمة فلا يتظاهروا بالفساد، ويحتبس الشر فيما بينهم أنفسهم، ولعله إلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَهُمْ صاغِرُونَ﴾ على ما سيجيء في الكلام على ذيل الآية.

ج. ثم وصفهم ثالثا بقوله: ﴿وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِ﴾:

أ. أي لا يأخذونه دينا وسنة حيوية لأنفسهم، وإضافة الدين إلى الحق ليست من إضافة الموصوف إلى صفته على أن يكون المراد الدين الذي هو حق بل من الإضافة الحقيقة، والمراد به الدين الذي هو منسوب إلى الحق لكون الحق هو الذي يقتضيه للإنسان ويبعثه إليه، وكون هذا الدين يهدي إلى الحق ويصل متبعيه إليه فهو من قبيل قولنا طريق الحق وطريق الضلال بمعنى الطريق الذي هو للحق والطريق الذي

هو للضلال أي إن غايته الحق أو غايته الضلال.

ب. وذلك أن المستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الروم: ٣٠، وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ﴾ آل عمران: ١٩، وسائر ما يجري هذا المجرى من الآيات أن لهذا الدين أصلا في الكون والخلقة والواقع الحق؛ يدعو إليه النبي ﷺ، ويندب الناس إلى الإسلام والخضوع له ويسمى اتخاذه سنة في الحياة إسلاما لله تعالى فهو يدعو إلى ما لا مناص للإنسان عن استجابته والتسليم له وهو الخضوع للسنة العملية الاعتبارية التي يهدي إليها السنة الكونية الحقيقية، وبعبارة أخرى التسليم لإرادة الله التشريعية المنبعثة عن إرادته التكوينية.

ج. وبالجملة للحق الذي هو الواقع الثابت دين وسنة ينبعث منه كما أن للضلال والغي دينا يدعو إليه، والأول اتباع للحق كما أن الثاني اتباع للهوى، قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ﴾

د. والإسلام دين الحق بمعنى أنه ستة التكوين والطريقة التي تنطبق عليها الخلقة وتدعو إليها الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم.

٣. فتلخص مما تقدم:

أ. أولا: أن المراد بعدم إيمان أهل الكتاب بالله واليوم الآخر عدم تلبسهم بالإيمان المقبول عند الله، وبعدم تحريمهم ما حرم الله ورسوله عدم مبالاتهم في التظاهر باقتراف المناهي التي يفسد التظاهر بها المجتمع البشري ويخيب بها سعي الحكومة الحقة الجارية فيه، وبعدم تدينهم بدين الحق عدم استنانهم بسنة الحق المنطبقة على الخلقة والمنطبقة عليها الخلقة والكون.

ب. وثانيا: أن قوله: ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ إلى آخر الأوصاف الثلاثة مسوق لبيان الحكمة في الأمر بقتالهم ويترتب عليه فائدة التحريض والتحضيض عليه.

ج. وثالثا: أن المراد قتال أهل الكتاب جميعا لا بعضهم بجعل ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ للتبعيض.

٤. ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (الجزية ما يؤخذ من أهل الذمة، وتسميتها بذلك للاجتزاء بها في حقن

دمهم) وفي المجمع: (الجزية فعلة من جزى يجزي مثل العقدة والجلسة وهي عطية مخصوصة جزاء لهم على تمسكهم بالكفر عقوبة لهم، عن علي بن عيسى) والاعتماد على ما ذكره الراغب فإنه المتأيد بما ذكرناه آنفا أن هذه عطية مالية مصروفة في جهة حفظ ذمتهم وحقن دمائهم وحسن إدارتهم.

ب. وقال الراغب أيضا: الصغر والكبر من الأسماء المتضادة التي تقال عند اعتبار بعضها ببعض فالشيء قد يكون صغيرا في جنب الشيء وكبيرا في جنب آخر إلى أن قال: يقال: صغر صغرا، بالكسر فالفتح، في ضد الكبير وصغر صغرا وصغارا، بالفتحتين فيهما، في الذلة، والصاغر الراضي بالمنزلة الدنية: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ﴾

ج. والاعتبار بما ذكر في صدر الآية من أوصافهم المقتضية لقتالهم ثم إعطاؤهم الجزية لحفظ ذمتهم يفيد أن يكون المراد بصغارهم خضوعهم للسنة الإسلامية والحكومة الدينية العادلة في المجتمع الإسلامي فلا يكافئوا المسلمين ولا يبارزوهم بشخصية مستقلة حرة في بث ما تهواه أنفسهم وإشاعة ما اختلقته هوساتهم من العقائد والأعمال المفسدة للمجتمع الإنساني مع ما في إعطاء المال بأيديهم من الهوان.

د. فظاهر الآية أن هذا هو المراد من صغارهم لا إهانتهم والسخرية بهم من جانب المسلمين أو أولياء الحكومة الدينية فإن هذا مما لا يحتمله السكينة والوقار الإسلامي وإن ذكر بعض المفسرين.

هـ. واليد: الجارحة من الإنسان وتطلق على القدرة والنعمة فإن كان المراد به في قوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾ هو المعنى الأول فالمعنى حتى يعطوا الجزية متجاوزة عن يدهم إلى يدكم، وإن كان المراد هو المعنى الثاني فالمعنى: حتى يعطوا الجزية عن قدرة وسلطة لكم عليهم وهم صاغرون غير مستعلين عليكم ولا مستكبرين.

و. فمعنى الآية، والله أعلم، قاتلوا أهل الكتاب لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانا مقبولا غير منحرف عن الصواب ولا يحرمون ما حرمه الإسلام مما يفسد اقترافه المجتمع الإنساني ولا يدينون دينا منطبقا على الخلقة الإلهية قاتلوهم ودوموا على قتالهم حتى يصغروا عندكم ويخضعوا لحكومتكم، ويعطوا في ذلك عطية مالية مضروبة عليهم يمثل صغارهم، ويصرف في حفظ ذمتهم وحقن دمائهم وحاجة إدارة أمورهم.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام: في حديث الأسياف الذي ذكره عن أبيه، قال: وأما السيوف الثلاثة المشهورة فسيف على مشركي العرب، قال الله عز وجل: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، قال: والسيف الثاني على أهل الذمة، قال الله عز وجل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ نزلت هذه الآية في أهل الذمة، ثم نسخها قوله عز وجل: ﴿قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ، حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ﴾ فمن كان منهم في دار الإسلام فلن يقبل منه إلا الجزية أو القتل، وماهم فيء وذراريهم سبي، وإذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرم علينا سبيهم، وحرمت أموالهم، وحلت لنا مناكحتهم، ومن كان منهم في دار الحرب حل لنا سبيهم، وأموالهم ولم يحل مناكحتهم، ولم يقبل إلا الدخول في دار الإسلام أو الجزية أو القتل.

ب. وفيه، بإسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جرت السنة أن لا تؤخذ الجزية من المعتوه، ولا من المغلوب على عقله.

ج. وفيه، بإسناده عن أبي يحيى الواسطي عن بعض أصحابنا قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن المجوس أكان لهم شيء؟ فقال: نعم، أما بلغك كتاب رسول الله ﷺ إلى أهل مكة: أن أسلموا وإلا نابذتكم بحرب فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: أن خذ منا الجزية ودعنا على عبادة الأوثان، فكتب إليهم النبي ﷺ: إني لست آخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، فكتبوا إليه، يريدون بذلك تكذيبه ـ: زعمت أنك لا تأخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، ثم أخذت الجزية من مجوس هجر، فكتب إليهم النبي ﷺ، أن المجوس كان لهم نبي فقتلوه وكتاب أحرقوه، أتاهم نبيهم بكتابهم في اثني عشر ألف جلد ثور.

• أقول: وفي هذه المعاني روايات أخرى مودعة في جوامع الحديث واستيفاء الكلام في مسائل الجزية والخراج وغيرهما في الفقه.

د. أخرج ابن عساكر عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: القتال قتالان: قتال المشركين، حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، فإذا فاءت أعطيت العدل.

هـ. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في سننه عن

مجاهد: في قوله: ﴿قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ الآية، قال: نزلت هذه حين أمر محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك.

• أقول: وقد تقدمت الروايات في ذيل آية المباهلة أن النبي ﷺ أقر الجزية على نصارى نجران، وكان ذلك على ما دل عليه أمثل الروايات سنة ست من الهجرة قبل غزوة تبوك بسنين، وكذا دعوته ﷺ ملوك الروم ومصر والعجم وهم من أهل الكتاب كانت سنة ست.

و. وأخرج ابن أبي شيبة عن الزهري قال: أخذ رسول الله ﷺ الجزية من مجوس أهل هجر، ومن يهود اليمن ونصاراهم من كل حالم دينار.

ز. وأخرج مالك والشافعي وأبو عبيد في كتاب الأموال وابن أبي شيبة عن جعفر عن أبيه أن عمر بن الخطاب استشار الناس في المجوس في الجزية فقال عبد الرحمن بن عوف سمعت رسول الله ﷺ يقول: سنوا بهم سنة أهل الكتاب.

ح. وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن علي بن أبي طالب: أنه سئل عن أخذ الجزية من المجوس فقال: والله ما على الأرض اليوم أحد أعلم بذلك مني، إن المجوس كانوا أهل كتاب يعرفونه، وعلم يدرسونه فشرب أميرهم الخمر فسكر، فوقع على أخته فرآه نفر من المسلمين، فلما أصبح قالت أخته: إنك قد صنعت بها كذا وكذا، وقد رآك نفر لا يسترون عليك فدعا أهل الطمع، ثم قال لهم قد علمتم أن آدم عليه السلام قد أنكح بنيه بناته، فجاء أولئك الذين رأوه فقالوا: ويل للأبعد إن في ظهرك حد الله، فقتلهم أولئك الذين كانوا عنده، ثم جاءت امرأة فقالت له: بلى، قد رأيتك فقال لها: ويحا لبغي بني فلان، قالت: أجل والله قد كانت بغية ثم تابت فقتلها، ثم أسري على ما في قلوبهم وعلى كتبهم فلم يصبح عندهم شيء.

٢١. اليهود والنصارى ادعوا بنوة عزير والمسيح لله:

المقطع [٢١] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٤٣»:

١. ﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. المضاهاة المشاكلة، والإفك على ما ذكره الراغب كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون

عليه فمعنى ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون في اعتقادهم عن الحق إلى الباطل.

ب. ﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ عزير هذا هو الذي يسميه اليهود عزرا غيرت اللفظة عند التعريب كما غير لفظ (يسوع) فصار بالتعريب (عيسى) ولفظ (يوحنا) فصار كما قيل (يحيى)

ج. وعزرا هذا هو الذي جدد دين اليهود وجمع أسفار التوراة وكتبها بعد ما افتقدت في غائلة بخت نصر ملك بابل الذي فتح بلادهم وخرب هيكلهم وأحرق كتبهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم وذراريهم والباقين من ضعفائهم وسيرهم معه إلى بابل فبقوا هنالك ما يقرب من قرن ثم لما فتح (كورش) ملك إيران بابل شفع لهم عنده عزرا وكان ذا وجه عنده فأجاز له أن يعيد اليهود إلى بلادهم وأن يكتب لهم التوراة ثانيا بعد ما افتقدوا نسخها وكان ذلك في حدود [سنة ٤٥٧] قبل المسيح على ما ذكروا فراجت بينهم ثانيا ما جمعه عزرا من التوراة وإن كانوا افتقدوا أيضا في زمن أنتيوكس صاحب سورية الذي فتح بلادهم حدود [سنة ١٦١] ق م وتتبع مساكنهم فأحرق ما وجده من نسخ التوراة وقتل من وجدت عنده أو أخذت عليه على ما في كتب التاريخ، ولما نالهم من خدمته عظموا قدره واحترموا أمره وسموه ابن الله ولا ندري أكان دعاؤه بالبنوة بالمعنى الذي يسمي به النصارى المسيح ابن الله، والمراد أن فيه شيئا من جوهر الربوبية أو هو مشتق منه أو هو هو، أو أنها تسمية تشريفية كما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه؟ وإن كان ظاهر سياق الآية التالية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ الآية يؤيد الثاني على ما سيأتي.

د. وقد ذكر بعض المفسرين: أن هذا القول منهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ كلمة تكلم بها بعض اليهود ممن في عصره ﷺ لا جميع اليهود فنسب إلى الجميع كما أن قولهم: ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ﴾ وكذا قولهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مما قاله بعض يهود المدينة ممن عاصر النبي ﷺ فنسب في كلامه تعالى إلى جميعهم لأن البعض منهم راضون بما عمله البعض الآخر، والجميع ذو رأي متوافق الأجزاء وروية متشابهة التأثير.

٢. ﴿وَقالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ كلمة قالتها النصارى، وقد تقدم الكلام فيها وفي ما يتعلق بها في قصة المسيح عليه السلام من سورة آل عمران في الجزء الثالث من الكتاب.

٣. ﴿يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ تنبئ الآية عن أن القول بالبنوة منهم مضاهاة ومشاكلة لقول من تقدمهم من الأمم الكافرة وهم الوثنيون عبدة الأصنام فإن من آلهتهم من هو إله أب إله ومن هو إله ابن إله و، من هي إلهة أم إله أو زوجة إله، وكذا القول بالثالوث مما كان دائرا بين الوثنيين من الهند

والصين ومصر القديم وغيرهم وقد مر نبذة من ذلك فيما تقدم من الكلام في قصة المسيح في ثالث أجزاء هذا الكتاب، وتقدم هناك أن تسرب العقائد الوثنية في دين النصارى ومثلهم اليهود من الحقائق التي كشف عنها القرآن الكريم في هذه الآية: ﴿يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾

٤. وقد اعتنى جمع من محققي هذا العصر بتطبيق ما تضمنته كتب القوم أعني العهدين: العتيق والجديد على ما حصل من مذاهب البوذيين والبرهمائيين فوجدوا معارف العهدين منطبقة على ذلك حذو النعل بالنعل حتى كثيرا من القصص والحكايات الموجودة في الأناجيل فلم يبق ذلك ريبا لأي باحث في أصالة قوله تعالى: ﴿يُضاهِؤُنَ﴾ الآية في هذا الباب.

٥. ثم دعا عليهم بقوله: ﴿قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ وختم به الآية.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي: في قوله تعالى: ﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ الآية: عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: اشتد غضب الله على اليهود حين قالوا: عزير ابن الله، واشتد غضب الله على النصارى حين قالوا: المسيح ابن الله، واشتد غضب الله على من أراق دمي وآذاني في عترتي.

ب. أخرج البخاري في تاريخه عن أبي سعيد الخدري قال: لما كان يوم أحد شج رسول الله ﷺ في وجهه وكسرت رباعيته، فقام رسول الله ﷺ يومئذ رافعا يديه يقول: إن الله عز وجل اشتد غضبه على اليهود، أن قالوا: عزير ابن الله، واشتد غضبه على النصارى أن قالوا المسيح ابن الله، وإن الله اشتد غضبه على من أراق دمي وآذاني في عترتي.

• أقول: وقد روي في الدر المنثور، وغيره عن ابن عباس وكعب الأحبار والسدي وغيرهم روايات في قصة عزير هي أشبه بالإسرائيليات، والظاهر أن الجميع تنتهي إلى كعب.

ج. وفي الإحتجاج، للطبرسي عن علي عليه السلام قال: ﴿قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي لعنهم الله، أنى يؤفكون فسمى اللعنة قتالا، وكذلك: ﴿قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ﴾ أي لعن الإنسان:

• أقول: ورو ي ذلك من طرق أهل السنة عن ابن عباس وهو على أي حال تفسير يلازم المعنى لا بالمراد اللفظي.

٢٢. اليهود والنصارى اتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله:

المقطع [٢٢] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٤٥»:

١. ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾:

أ. الأحبار جمع حبر بفتح الحاء وكسرها وهو العالم وغلب استعماله في علماء اليهود والرهبان جمع راهب وهو المتلبس بلباس الخشية وغلب على المتنسكين من النصارى.

ب. واتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا من دون الله هو إصغاؤهم لهم وإطاعتهم من غير قيد وشرط ولا يطاع كذلك إلا الله سبحانه.

ج. وأما اتخاذهم المسيح بن مريم ربا من دون الله فهو القول بألوهيته بنحو كما هو المعروف من مذاهب النصارى، وفي إضافة المسيح إلى مريم إشارة إلى عدم كونهم محقين في هذا الاتخاذ لكونه إنسانا ابن مرأة.

د. ولكون الاتخاذين مختلفين من حيث المعنى فصل بينهما فذكر اتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا من دون الله أولا، ثم عطف عليه قوله: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾

هـ. والكلام كما يدل على اختلاف الربوبيتين كذلك لا يخلو عن دلالة على أن قولهم ببنوة عزير وبنوة المسيح على معنيين مختلفين، وهو البنوة التشريفية في عزير والبنوة بنوع من الحقيقة في المسيح عليه السلام فإن الآية أهملت ذكر اتخاذهم عزيرا ربا من دون الله، ولم يذكر مكانه إلا اتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا من دون الله، فهو رب عندهم بهذا المعنى إما لاستلزام التشريف بالبنوة ذلك أو لأنه من أحبارهم وقد أحسن إليهم في تجديد مذهبهم ما لا يقاس به إحسان غيره، وأما المسيح فبنوته غير هذه البنوة.

٢. ﴿وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة حالية أي اتخذوا لهم أربابا والحال هذه.

٣. وفي الكلام دلالة:

أ. أولا: على أن الاتخاذ بالربوبية بواسطة الطاعة كالاتخاذ بها بواسطة العبادة فالطاعة إذا كانت بالاستقلال كانت عبادة، ولازم ذلك أن الرب الذي هو المطاع من غير قيد وشرط وعلى نحو الاستقلال إله، فإن الإله هو المعبود الذي من حقه أن يعبد، يدل على ذلك كله قوله تعالى: ﴿وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً

واحِداً﴾ حيث بدل الرب بالإله، وكان مقتضى الظاهر أن يقال وما أمروا إلا ليتخذوا ربا واحدا فالاتخاذ للربوبية بواسطة الطاعة المطلقة عبادة، واتخاذ الرب معبودا اتخاذ له إلها فافهم ذلك.

ب. وثانيا: على أن الدعوة إلى عبادة الله وحده فيما وقع من كلامه تعالى كقوله تعالى: ﴿لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقوله: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣] وأمثال ذلك كما أريد بها قصر العبادة بمعناها المتعارف فيه تعالى كذلك أريد قصر الطاعة فيه تعالى، وذلك أنه تعالى لم يؤاخذهم في طاعتهم لأحبارهم ورهبانهم إلا بقوله عز من قائل: ﴿وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾، وعلى هذا المعنى يدل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس، ٦١]، وهذا باب ينفتح منه ألف باب.

٤. وفي قوله: ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ تتميم لكلمة التوحيد التي يتضمنها قوله: ﴿وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً﴾ فإن كثيرا من عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بوجود آلهة كثيرة، وهم مع ذلك لا يخصون بالعبادة إلا واحدا منها فعبادة إله واحد لا يتم به التوحيد إلا مع القول بأنه لا إله إلا هو.

٥. وقد جمع تعالى بين العبادتين مع الإشارة إلى مغايرة ما بينهما وأن قصر العبادة بكلا معنييها عليه تعالى هو معنى الإسلام له سبحانه الذي لا مفر منه للإنسان؛ فيما أمر به نبيه ﷺ من دعوة أهل الكتاب بقوله: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]

٦. وقوله تعالى في ذيل الآية: ﴿سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له تعالى عما يتضمنه قولهم بربوبية الأحبار والرهبان، وقولهم بربوبية المسيح عليه السلام من الشرك.

٧. والآية بمنزلة البيان التعليلي لقوله تعالى في أول الآيات: ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن اتخاذ إله أو آلهة دون الله سبحانه لا يجامع الإيمان بالله، ولا الإيمان بيوم لا ملك فيه إلا لله.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فقال: أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم ما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حراما، وحرموا عليهم حلالا فعبدوهم من حيث لا يشعرون.

• أقول: وروى هذا المعنى البرقي في المحاسن، ورواه العياشي في تفسيره عن أبي بصير وعن جابر جميعا عن أبي عبد الله عليه السلام وعن حذيفة، ورواه في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الطرق عن حذيفة.

ب. وفي تفسير القمي، قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قال: أما المسيح فبعض عظموه في أنفسهم، حتى زعموا أنه إله وأنه ابن الله، وطائفة منهم قالوا: ثالث ثلاثة، وطائفة منهم قالوا: هو الله، وأما قوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾ فإنهم أطاعوا وأخذوا بقولهم، واتبعوا ما أمروهم به، ودانوا بها دعوهم إليه فاتخذوهم أربابا بطاعتهم لهم، وتركهم أمر الله وكتبه ورسله فنبذوه وراء ظهورهم، وما أمرهم به الأحبار والرهبان اتبعوهم، وأطاعوهم وعصوا الله، الحديث.

ج. وفي تفسير البرهان، عن المجمع قال: وروى الثعلبي بإسناده عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: يا عدي اطرح هذا الربق.

٢٣. الكفار يريدون إطفاء نور الله ويأبى الله إلا إتمامه:

المقطع [٢٣] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٤٦»:

١. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، الإطفاء إخماد النار أو النور، والباء في قوله: ﴿بِأَفْواهِهِمْ﴾ للآلة أو السببية، وإنها ذكر الأفواه لأن النفخ الذي يتوسل به إلى إخماد الأنوار والسرج يكون بالأفواه، قال في المجمع: (وهذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم لأن الفم يؤثر في الأنوار الضعيفة دون الأقباس العظيمة)

٢. وقال في الكشاف: مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله أن يزيده، ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق والإضاءة ليطفئه بنفخة ويطمسه)، والآية إشارة إلى حال الدعوة الإسلامية، وما يريده منه الكافرون، وفيها وعد جميل بأن الله سيتم نوره.

٢٤. الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله:

المقطع [٢٤] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٤٧»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾:

أ. الهدى الهداية الإلهية التي قارنها برسوله ليهدي بأمره، ودين الحق هو الإسلام بما يشتمل عليه من العقائد والأحكام المنطبقة على الواقع الحق.

ب. والمعنى أن الله هو الذي أرسل رسوله وهو محمد ﷺ مع الهداية، أو الآيات والبينات، ودين فطري ليظهر وينصر دينه الذي هو دين الحق على كل الأديان ولو كره المشركون ذلك.

ج. وبذلك ظهر أن الضمير في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ راجع إلى دين الحق كما هو المتبادر من السياق، وربما قيل: إن الضمير راجع إلى الرسول، والمعنى ليظهر رسوله ويعلمه معالم الدين كلها وهو بعيد.

٢. وفي الآيتين من تحريض المؤمنين على قتال أهل الكتاب والإشارة إلى وجوب ذلك عليهم ما لا يخفى فإنهما تدلان على أن الله أراد انتشار هذا الدين في العالم البشري فلا بد من السعي والمجاهدة في ذلك، وأن أهل الكتاب يريدون أن يطفئوا هذا النور بأفواههم فلا بد من قتالهم حتى يفنوا أو يستبقوا بالجزية والصغار، وأن الله سبحانه يأبى إلا أن يتم نوره، ويريد أن يظهر هذا الدين على غيره فالدائرة بمشية الله لهم على أعدائهم فلا ينبغي لهم أن يهنوا ويحزنوا وهم الأعلون إن كانوا مؤمنين.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن الصدوق بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: في قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الآية، والله ما نزل تأويلها بعد ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم، فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله ولا مشرك بالإمام، إلا كره خروجه حتى لو كان الكافر في بطن صخرة قالت: يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله.

• أقول: وروى ما في معناه العياشي عن أبي المقدام عن أبي جعفر عليه السلام وعن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام، وكذا الطبرسي مثله عن أبي جعفر عليه السلام، وفي تفسير القمي، أنها نزلت في القائم من آل محمد عليه السلام، ومعنى نزولها فيه كونه تأويلها كما يدل عليه رواية الصدوق.

ب. أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في سننه عن جابر: في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ قال: لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني صاحب ملة، إلا الإسلام حتى تأمن الشاة الذئب، والبقرة الأسد، والإنسان الحية، وحتى لا تقرض فأرة جرابا، وحتى يوضع الجزية ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، وذلك إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام.

• أقول: والمراد بوضع الجزية أن تصير متروكة لا حاجة إليها لعدم الموضوع بقرينة صدر الحديث، وما دلت عليه هذه الروايات من عدم بقاء كفر ولا شرك يومئذ يؤيدها روايات أخرى، وهناك روايات أخرى تدل على وضع المهدي عليه السلام الجزية على أهل الكتاب بعد ظهوره.

• وربما أيده قوله تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ [المائدة: ١٤]، وما في معناه من الآيات فإنها لا تخلو من ظهور ما في بقائهم إلى يوم القيامة إن لم تكن كناية عن ارتفاع المودة بينهم ارتفاعا أبديا، وقد تقدم في ذيل الآيات بعض الكلام في هذا المعنى.

٢٥. الأحبار والرهبان وأصحاب الكنوز، وأكل المال بالباطل:

المقطع [٢٥] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٤٧»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ الظاهر أن الآية إشارة إلى بعض التوضيح لقوله في أول الآيات: ﴿وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ كما أن الآية السابقة كالتوضيح لقوله فيها: ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

٢. أما إيضاح قوله تعالى: ﴿وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ بقوله: ﴿إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ﴾ فهو إيضاح بأوضح المصاديق وأهمها تأثيرا في إفساد المجتمع

الإنساني الصالح، وإبطال غرض الدين:

أ. فالقرآن الكريم يعد لأهل الكتاب وخاصة لليهود جرائم وآثاما كثيرة مفصلة في سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها لكن الجرائم والتعديات المالية شأنها غير شأن غيرها، وخاصة في هذا المقام الذي تعلق الغرض بإفساد أهل الكتاب المجتمع الإنساني الصالح لو كانوا مبسوطي اليد واستقلالهم الحيوي قائما على ساق، ولا مفسد للمجتمع مثل التعدي المالي.

ب. فإن أهم ما يقوم به المجتمع الإنساني على أساسه هو الجهة المالية التي جعل الله لهم قياما فجل المآثم والمساوي والجنايات والتعديات والمظالم تنتهي بالتحليل إما إلى فقر مفرط يدعو إلى اختلاس أموال الناس بالسرقة وقطع الطرق وقتل النفوس والبخس في الكيل والوزن والغصب وسائر التعديات المالية، وإما إلى غنى مفرط يدعو إلى الإتراف والإسراف في المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمسكن، والاسترسال في الشهوات وهتك الحرمات، وبسط التسلط على أموال الناس وأعراضهم ونفوسهم.

ج. وتنتهي جميع المفاسد الناشئة من الطريقين كليهما بالتحليل إلى ما يعرض من الاختلال على النظام الحاكم في حيازة الأموال واقتناء الثروة، والأحكام المشرعة لتعديل الجهات المملكة المميزة لأكل المال بالحق من أكله بالباطل، فإذا اختل ذلك وأذعنت النفوس بإمكان القبض على ما تحتها من المال، وتتوق إليه من الثروة بأي طريق أمكن لقن ذلك إياها أن يظفر بالمال ويقبض على الثروة بأي طريق ممكن حق أو باطل، وأن يسعى إلى كل مشتهى من مشتهيات النفس مشروع أو غير مشروع أدى إلى ما أدى، وعند ذلك يقوم البلوى بفشو الفساد وشيوع الانحطاط الأخلاقي في المجتمع، وانقلاب المحيط الإنساني إلى محيط حيواني ردي لا هم فيه إلا البطن وما دونه ولا يملك فيه إرادة أحد بسياسة أو تربية ولا تفقه فيه لحكمة ولا إصغاء إلى موعظة.

د. ولعل هذا هو السبب الموجب لاختصاص أكل المال بالباطل بالذكر، وخاصة من الأحبار والرهبان الذين إليهم تربية الأمة وإصلاح المجتمع.

هـ. هـ. وقد عد بعضهم من أكلهم أموال الناس بالباطل ما يقدمه الناس إليهم من المال حبا لهم لتظاهرهم بالزهد والتنسك، وأكل الربا والسحت، وضبطهم أموال مخالفيهم وأخذهم الرشا على الحكم، وإعطاء أوراق المغفرة وبيعها، ونحو ذلك.

و. والظاهر أن المراد بها أمثال أخذ الرشوة على الحكم كما تقدم من قصتهم في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية [المائدة: ٤١]، في الجزء الخامس من الكتاب، ولو لم يكن من ذلك إلا ما كانت تأتي به الكنيسة من بيع أوراق المغفرة لكفى به مقتا ولوما.

ز. وأما ما ذكره من تقديم الأموال إليهم لتزهدهم، وكذا تخصيصهم بأوقاف ووصايا ومبرات عامة فليس بمعدود من أكل المال بالباطل، وكذا ما ذكره من أكل الربا والسحت فقد نسبه تعالى في كلامه إلى عامة قومهم كقوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١]، وقوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، وإنما كلامه تعالى في الآية التي نحن فيها فيما يخص أحبارهم ورهبانهم من أكل المال بالباطل لا ما يعمهم وعامتهم، إلا أن الحق أن زعماء الأمة الدينية ومربيهم في سلوك طريق العبودية المعتنين بإصلاح قلوبهم وأعمالهم إذا انحرفوا عن طريق الحق إلى سبيل الباطل كان جميع ما أكلوه لهذا الشأن واستدروه من منافعه سحتا محرما لا يبيحه لهم شرع ولا عقل.

ح. وأما إيضاح قوله تعالى: ﴿وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ بقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ فهو أيضا مبني على ما قدمناه من النكتة في توصيفهم بالأوصاف الثلاثة التي ثالثها قوله: ﴿وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ وهو بيان ما يفسد من صفاتهم وأعمالهم المجتمع الإنساني ويسد طريق الحكومة الدينية العادلة دون البلوغ إلى غرضها من إصلاح الناس وتكوين مجتمع حي فعال بما يليق بالإنسان الفطري المتوجه إلى سعادته الفطرية.

ط. ولذا خص بالذكر من مفاسد عدم تدينهم بدين الحق ما هو العمدة في إفساد المجتمع الصالح، وهو صدهم عن سبيل الله ومنعهم الناس عن أن يسلكوه بما قدروا عليه من طرقه الظاهرة والخفية، ولا يزالون مصرين على هذه السليقة منذ عهد النبي ﷺ حتى اليوم.

٣. ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾:

أ. قال الراغب: (الكنز جعل المال بعضه على بعض وحفظه، وأصله من كنزت التمر في الوعاء، وزمن الكناز وقت ما يكنز فيه التمر، وناقة كناز مكتنزة اللحم، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي يدخرونها)

ب. ففي مفهوم الكنز حفظ المال المكنوز وادخاره ومنعه من أن يجري بين الناس في وجوه

المعاملات فينمو نماء حسنا، ويعم الانتفاع به في المجتمع فينتفع به هذا بالأخذ وذاك بالرد، وذلك بالعمل عليه وقد كان دأبهم قبل ظهور البنوك والمخازن العامة أن يدفنوا الكنوز في الأرض سترا عليها من أن تقصد بسوء.

ج. والآية وإن اتصلت في النظم اللفظي بما قبلها من الآيات الذامة لأهل الكتاب والموبخة لأحبارهم ورهبانهم في أكلهم أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله إلا أنه لا دليل من جهة اللفظ على نزولها فيهم واختصاصها بهم البتة، فلا سبيل إلى القول بأن الآية إنما نزلت في أهل الكتاب وحرمت الكنز عليهم، وأما المسلمون فهم وما يقتنون من ذهب وفضة يصنعون بأموالهم ما يشاءون من غير بأس عليهم.

د. والآية توعد الكانزين إيعادا شديدا، ويهددهم بعذاب شديد غير أنها تفسر الكنز المدلول عليه بقوله: ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ بقوله: ﴿وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ فتدل بذلك على أن الذي يبغضه الله من الكنز ما يلازم الكف عن إنفاقه في سبيل الله إذا كان هناك سبيل.

هـ. وسبيل الله على ما يستفاد من كلامه تعالى هو ما توقف عليه قيام دين الله على ساقه وأن يسلم من انهدام بنيانه كالجهاد وجميع مصالح الدين الواجب حفظها، وشئون مجتمع المسلمين التي ينفسخ عقد المجتمع لو انفسخت، والحقوق المالية الواجبة التي أقام الدين بها صلب المجتمع الديني، فمن كنز ذهبا أو فضة والحاجة قائمة والضرورة عاكفة فقد كنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله فليبشر بعذاب أليم فإنه آثر نفسه على ربه وقدم حاجة نفسه أو ولده الاحتمالية على حاجة المجتمع الديني القطعية.

و. ويستفاد هذا مما في الآية التالية من قوله: ﴿هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ فإنه يدل على أن توجه العتاب عليهم لكونهم خصوه بأنفسهم وآثروها فيما خافوا حاجتها إليه على سبيل الله الذي به حياة المجتمع الإنساني في الدنيا والآخرة، وقد خانوا الله ورسوله في ذلك من جهة أخرى وهي الستر والتغييب إذ لو كان ظاهرا جاريا على الأيدي كان من الممكن أن يأمره ولي الأمر بإنفاقه في حاجة دينية قائمة لكن إذا كنز كنزا وأخفى عن الأنظار لم يلتفت إليه، وبقيت الحاجة الضرورية قائمة في جانب والمال المكنوز الذي هو الوسيلة الوحيدة لرفع الحاجة في جانب مع عدم حاجة من كنزه إليه.

ز. فالآية إنما تنهى عن الكنز لهذه الخصيصة التي هي إيثار الكانز نفسه بالمال من غير حاجة إليه

على سبيل الله مع قيام الحاجة إليه، وناهيك أن الإسلام لا يحد أصل الملك من جهة الكمية بحد فلو كان لهذا الكانز أضعاف ما كنزه من الذهب والفضة ولم يدخرها كنزا بل وضعها في معرض الجريان يستفيد به لنفسه ألوفا وألوفا، ويفيد غيره ببيع أو شراء أو عمل وغير ذلك لم يتوجه إليه نهي ديني لأنه حيث نصبها على أعين الناس وأجراها في مجرى النماء الصالح النافع لم يخفها ولم يمنعها من أن يصرف في سبيل الله فهو وإن لم ينفقها في سبيل الله إلا أنه بحيث لو أراد ولي أمر المسلمين لأمره بالإنفاق فيما يرى لزوم الإنفاق فيه فليس هو إذا لم ينفق وهو بمرأى ومسمع من ولي الأمر بخائن ظلوم.

ح. فالآية ناظرة إلى الكنز الذي يصاحبه الامتناع عن الإنفاق في الحقوق المالية الواجبة لا بمعنى الزكاة الواجبة فقط بل بمعنى يعمها وغيرها من كل ما يقوم عليه ضرورة المجتمع الديني من الجهاد وحفظ النفوس من الهلكة ونحو ذلك.

ط. وأما الإنفاق المستحب كالتوسعة على العيال، وإعطاء المال وبذله على الفقراء في الزائد على ضرورة حياتهم فهو وإن أمكن أن يطلق عليه فيما عندنا الإنفاق في سبيل الله إلا أن نفس أدلته المبينة لاستحبابه تكشف عن أنه ليس من هذا الإنفاق في سبيل الله المذكور في هذه الآية فكنز المال وعدم إنفاقه إنفاقا مندوبا مع عدم سبيل ضروري ينفق فيه ليس من الكنز المنهي عنه في هذه الآية فهذا ما تدل عليه الآية الكريمة، وقد طال فيها، لما يتعلق بها من بعض الأبحاث الكلامية، المشاجرة بين المفسرين، وسنورد فيه كلاما بعد الفراغ عن البحث الروائي المتعلق بالآيات إن شاء الله تعالى.

٤. وقوله في ذيل الآية: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ إيعاد بالعذاب يدل على تحريمه الشديد.

٥. ﴿يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. إحماء الشيء جعله حارا في الإحساس، والإحماء عليه الإيقاد ليتسخن والإحماء فوق التسخين، والكي إلصاق الشيء الحار بالبدن، والمعنى: أن ذلك العذاب المبشر به في يوم يوقد على تلك الكنوز في نار جهنم فتكون محماة بالنار فتلصق بجباههم وجنوبهم وظهورهم ويقال لهم عند ذلك: ﴿هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [فقد عاد عذابا عليكم تعذبون به.

ب. ولعل تخصيص الجباه والجنوب والظهور لأنهم خضعوا لها وهو السجدة التي تكون بالجباه ولاذوا إليها واللواذ بالجنوب، واتكئوا عليها والاتكاء بالظهور، وقيل غير ذلك والله أعلم.

٦. وضع هنا مبحثا حول [معنى الكنز في القرآن]، خلاصته:

أ. المجتمع الإنساني يقوم على مبادلة المال والعمل، وتطورت المعاملات من المقايضة العينية إلى النقود ﴿الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ التي أصبحت أصلاً للقيمة ومقياساً للأشياء وملاكاً للثروة.

ب. الذهب والفضة يمثلان نسب الأشياء بعضها إلى بعض، فكنزهما ومنع جريانهما في المعاملات يؤدي إلى إبطال قيم الأشياء، وتعطيل الأسواق، واختلال أمر الناس في حياتهم.

ج. الكنز المحرم ليس هو حفظ الأموال وخزنها من الضيعة، بل هو عزلها عن الجريان في المعاملات وإصلاح شئون الحياة، مما يرفع موضوع الإنفاق الواجب والمندوب معاً.

د. الآية مطلقة تشمل الإنفاق الواجب والمندوب، لأن في كنز الأموال رفعاً لموضوع الإنفاق المندوب كالإنفاق الواجب، لا مجرد عدم الإنفاق مع صلاحية الموضوع لذلك.

هـ. الحكومة الإسلامية ليست مجرد حكومة استبدادية تكتفي بكف الأذى، بل هي حكومة دينية تسوق الناس إلى ما يصلح لهم، ولا يتم ذلك إلا بنشر المبرات وفتح باب الخيرات والعمل بالواجبات والمندوبات.

و. قول معاوية (المال مال الله) كان يستخدم لتبرير صرف مال المسلمين في غير وجهه، والصحيح أن المال لله ينفق في سبيله على موارد معينة في الدين، وليس لولي الأمر أن يخص نفسه بشيء يزيد على مئونته أو يكنز الكنوز.

ز. الآية تدل على حرمة كنز الذهب والفضة فيما كان هناك سبيل لله يجب الإنفاق فيه، أو ضرورة داعية إليه لمستحقي الزكاة، أو انقطاع سبيل البر والإحسان بين الناس، ولا فرق بين المال الظاهر والكنز المدفون، غير أن الكنز يختص بخيانة ولي الأمر في ستر المال.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور، أيضا أخرج ابن الضريس عن علباء بن أحمر: أن عثمان بن عفان لما أراد أن يكتب المصاحف، أرادوا أن يلقوا الواو التي في براءة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ قال أبي: لتلحقنها أو لأضعن سيفي على عاتقي فألحقوها.

ب. وفي أمالي الشيخ، قال: أخبرنا جماعة عن أبي المفضل وساق إسناده قال: قال رسول الله ﷺ: لما

نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ كل ما يؤدى زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مال لا يؤدى زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض.

• أقول: وروي ما في معناه في الدر المنثور، عن ابن عدي والخطيب عن جابر عن النبي ﷺ وكذا بطرق أخرى عن ابن عباس وغيره.

ج. وفيه، أيضا بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه أبي جعفر عليه السلام: أنه سئل عن الدنانير والدراهم وما على الناس، فقال أبو جعفر عليه السلام: هي خواتيم الله في أرضه، جعلها الله مصلحة لخلقه، وبها يستقيم شئونهم ومطالبهم، فمن أكثر له منها فقال بحق الله تعالى فيها، أدى زكاتها فذاك الذي طلبه، وخلص له، ومن أكثر له منها فبخل بها ولم يؤد حق الله فيها، واتخذ منها الأبنية فذاك الذي حق عليه وعيد الله عز وجل، في كتابه يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ، هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾

• أقول: والرواية تؤيد ما استفدناه سابقا من الآية.

د. وفي تفسير القمي، قال: كان أبو ذر الغفاري يغدو كل يوم، وهو في الشام فينادي بأعلى صوته: بشر أهل الكنوز بكي في الجباه، وكي في الجنوب، وكي في الظهور حتى يتردد الحر في أجوافهم.

• أقول: وقد استفاد الطبرسي في المجمع: (من الرواية الوجه في تخصيص الجباه والجنوب والظهور من بين أعضاء الإنسان بالذكر في الآية، وأن الغرض من تعذيبهم بهذا الوجه إيراد حر النار في أجوافهم وهي داخل الرءوس فتكوى جباههم وداخل الصدور والبطون فتكوى جنوبهم وظهورهم.

• ويمكن تتميم ما ذكره بأنهم يكبون على وجوههم ورءوسهم منكوسة على ما يشعر به الأخبار وبعض الآيات ثم تكوى أعضاؤهم من فوق فينتج ذلك كي الجباه والجنوب والظهور.

هـ. أخرج عبد الرزاق في المصنف عن أبي ذر قال: بشر أصحاب الكنوز بكي في الجباه وفي الجنوب وفي الظهور.

و. وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة والبخاري وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالربذة فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام فقرأت: ﴿وَالَّذِينَ

يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ فقال معاوية: ما هذه فينا هذه في أهل الكتاب، قلت أنا: إنها لفينا وفيهم.

ز. وأخرج مسلم وابن مردويه عن الأحنف بن قيس قال: جاء أبو ذر فقال: بشر الكانزين بكي من قبل ظهورهم يخرج من جنوبهم، وكي من جباههم يخرج من أقفائهم، فقلت: ماذا؟ قال: ما قلت إلا ما سمعت من نبيهم ﷺ.

ح. وأخرج أحمد في الزهد عن أبي بكر المنكدر قال: بعث حبيب بن سلمة إلى أبي ذر، وهو أمير الشام بثلاثمائة دينار، وقال: استعن بها على حاجتك؛ فقال أبو ذر: أرجع بها إليه، أما وجد أحدا أغر بالله منا ما لنا إلا الظل نتوارى به، وثلاثة من غنم تروح علينا،، ومولاة لنا تصدق علينا بخدمتها، ثم إني لأنا أتخوف الفضل.

ط. وأخرج البخاري ومسلم عن الأحنف بن قيس قال: جلست إلى ملإٍ من قريش، فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة حتى قام عليهم فسلم، ثم قال: بشر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم، ثم يوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه،، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه فيتدلدل، ثم ولى وجلس إلى سارية فتبعته، وجلست إليه وأنا لا أدري من هو؟ فقلت: لا أرى القوم إلا قد كرهوا ما قلت، قال: إنهم لا يعقلون شيئا قال لي خليلي، قلت: من خليلك؟ قال: النبي ﷺ، أتبصر أحدا؟ قلت: نعم، قال: ما أحب أن يكون لي مثل أحد ذهبا أنفقه كله، إلا ثلاثة دنانير وإن هؤلاء لا يعقلون، إنما يجمعون للدنيا والله لا أسألهم دنيا، ولا أستفتيهم عن دين حتى ألقى الله عز وجل.

ي. وفي تاريخ الطبري، عن شعيب عن سيف عن محمد بن عوف عن عكرمة عن ابن عباس: أن أبا ذر دخل على عثمان وعنده كعب الأحبار، فقال لعثمان: لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف، وقد ينبغي لمؤدي الزكاة أن لا يقتصر عليها، حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات، فقال: كعب من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه، فرفع أبو ذر محجنه فضربه فشجه فاستوهبه عثمان فوهبه له، وقال: يا أبا ذر اتق الله واكفف يدك ولسانك، وقد كان قال له: يا ابن اليهودية ما أنت وما هاهنا.

• أقول: وقصص أبي ذر واختلافه مع عثمان ومعاوية معروفة مضبوطة في كتب التاريخ والتدبر فيما مر من أحاديثه وما قاله لمعاوية إن الآية لا تختص بأهل الكتاب وما خاطب به عثمان وواجه به كعبا

يدل على أنه إنما فهم من الآية ما قدمناه أنها توعد على الكف عن الإنفاق في السبيل الواجب.

• ويؤيده تحليل الحال الحاضر يومئذ فقد كان الناس يومئذ انقسموا قسمين وتبعضوا شطرين عامة لا يقدرون على قوت اليوم، ولا يجدون ما يستر عوراتهم وما لهم إلى أوجب حوائجهم سبيل، وخاصة أسكرتهم الدنيا بجماع ما فيها من مال ومنال يكنزون مئات الألوف وألوف الألوف من عطايا الخلافة وغنائم الحروب ومال الخراج.

• ويكفيك في التبصر فيه أن تراجع ما ضبطته التواريخ من أموال الصحابة من نقد ورقيق وضيعة وشامخات القصور وناجمات الدور، وما أحدثه معاوية وسائر بني أمية بالشام وغيره من أزياء قيصرانية وكسروانية.

• والإسلام لا يرتضي شيئا من ذلك ولا ينفذ هذا الاختلاف الفاحش دون أن تتقارب الطبقات بالإنفاق، وتصلح عامة الأوضاع بانعطاف الأغنياء على الفقراء، والأقوياء على الضعفاء.

• وربما قيل: إن أبا ذر كان يرى باجتهاد منه أن الزائد على القدر الواجب من المال الذي ينفق لسد الجوع وستر العورة كنز يجب إنفاقه في سبيل الله أو أنه كان يدعو إلى الزهد في الدنيا.

• لكن الذي يوجد من بعض كلامه في الروايات يكذبه فإنه لا يستند في شيء مما قاله إلى اجتهاده ورأي نفسه بل بقوله: ما قلت لهم إلا ما سمعت من نبيهم، وقال خليلي كذا وكذا، وقد صحت الرواية واستفاضت من طرق الفريقين عن النبي ﷺ أنه قال: (ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء ذا لهجة أصدق من أبي ذر)

• وبذلك يظهر فساد ما ذكره شداد بن أوس فيما روى عنه أحمد والطبراني قال: (كان أبو ذر يسمع عن رسول الله ﷺ، ثم يخرج إلى باديته ثم يرخص فيه رسول الله ﷺ بعد ذلك، فيحفظ من رسول الله ﷺ الرخصة فلا يسمعها أبو ذر، فيأخذ أبو ذر بالأمر الأول الذي سمع قبل ذلك.

• وذلك أن الذي ذكر من أبي ذر أنما هو قوله: إن آية الكنز لا تختص بأهل الكتاب بل يعمهم والمسلمين، وليس هذا مصداقا لما ذكره في الرواية من العزيمة والرخصة، وكذا قوله: إن تأدية الزكاة فحسب لا يكفي في جواز الكنز وعدم إنفاقه في الواجب من سبيل الله، وكيف يتصور في حقه أن لا يكون يسمع أن الإنفاق منه مستحب كما أن منه واجبا وأن لا يعلم أن أدلة الإنفاق المندوب أحسن مبين لآية

الكنز.

• وأوهن من ذلك ما تعلق به الطبري في تاريخه فقد روي عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي قال: لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال: يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول: المال مال الله ألا إن كل شيء لله: كأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين، فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟ قال: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره؟ قال: فلا تقله، قال: فإني لا أقول: إنه ليس لله، ولكن سأقول: مال المسلمين، قال: وأتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له: من أنت؟ أظنك والله يهوديا؟ فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به فأتى به معاوية، فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر، وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء وأسوأ الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله بمكان من نار، تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، الحديث.

• ومحصله أن أبا ذر إنما بادر إلى ما بادر وألح عليه بتسويل من ابن السوداء وهذان اللذان روي عنهما الحديث وعنهما يروى جل قصص عثمان أعني شعيبا وسيفا هما من الكذابين الوضاعين المشهورين ذكرهما علماء الرجال وقدحوا فيهما.

• والذي اختلقاه من حديث ابن السوداء وهو الذي سموه عبد الله بن سبإ، وإليهما ينتهي حديثه، من الأحاديث الموضوعة، وقد قطع المحققون من أصحاب البحث أخيرا أن ابن السوداء هذا من الموضوعات الخرافية التي لا أصل لها.

ك. أخرج ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: ما من ذي كنز لا يؤدي حقه، إلا جيء به يوم القيامة تكوى به جبينه وجبهته، وقيل له: هذا كنزك الذي بخلت به.

ل. وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم، القدر الذي يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يمنع أغنياؤهم، ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا، أو يعذبهم عذابا أليما.

م. وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي عن أبي سعيد الخدري عن بلال قال: قال رسول الله ﷺ: يا بلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا، قلت: وكيف لي بذلك؟ قال: إذا رزقت فلا تخبأ، وإذا سئلت فلا

تمنع، قلت: وكيف لي بذلك؟ قال: هو ذاك وإلا فالنار.

٢٦. عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم:

المقطع [٢٦] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٦٦»:

١. ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾:

أ. الشهر كالسنة والأسبوع مما يعرفه عامة الناس منذ أقدم أعصار الإنسانية، وكان لبعضها تأثيرا في تنبههم للبعض فقد كان الإنسان يشاهد تحول السنين ومرورها بمضي الصيف والشتاء والربيع والخريف وتكررها بالعود ثم العود ثم تنبهوا لانقسامها إلى أقسام هي أقصر منها مدة حسب ما ساقهم إليه مشاهدة اختلاف أشكال القمر من الهلال إلى الهلال، وينطبق على ما يقرب من ثلاثين يوما وتنقسم بذلك السنة إلى اثني عشر شهرا.

ب. والسنة التي ينالها الحس شمسية تتألف من ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وبعض يوم لا تنطبق على اثني عشر شهرا قمريا هي ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما تقريبا إلا برعاية حساب الكبيسة غير أن ذلك هو الذي يناله الحس وينتفع به عامة الناس من الحاضر والبادي والصغير والكبير والعالم والجاهل.

ج. ثم قسموا الشهر إلى الأسابيع وإن كان هو أيضا لا ينطبق عليها تمام الانطباق لكن الحس غلب هناك أيضا الحساب الدقيق، وهو الذي أثبت اعتبار الأسبوع وأبقاه على حاله من غير تغيير مع ما طرأ على حساب السنة من الدقة من جهة الإرصاد، وعلى حساب الشهور من التغيير فبدلت الشهور القمرية شمسية تنطبق عليها السنة الشمسية تمام الانطباق.

د. وهذا بالنسبة إلى النقاط الاستوائية وما يليها من النقاط المعتدلة أو ما يتصل بها من الأرض إلى عرض سبع وستين الشمالي والجنوبي تقريبا، وفيها معظم المعمورة وأما ما وراء ذلك إلى القطبين الشمالي والجنوبي فيختل فيها حساب السنة والشهر والأسبوع، والسنة في القطبين يوم وليلة، وقد اضطر ارتباط بعض أجزاء المجتمع الإنساني ببعض سكان هذه النقاط، وهم شرذمة قليلون، أن يراعوا في حساب السنة والشهر والأسبوع واليوم ما يعتبره عامة سكان المعمورة فحساب الزمان الدائر بيننا إنما هو بالنسبة إلى جل

سكان المعمورة من الأرض.

هـ. على أن هذا إنما هو بالنسبة إلى أرضنا التي نحن عليها، وأما سائر الكواكب فالسنة، وهي زمان الحركة الانتقالية من الكوكب حول الشمس دورة واحدة كاملة، فيها تختلف وتتخلف عن سنتنا نحن، وكذلك الشهر القمري فيما كان له قمر أو أقمار منها على ما فصلوه في فن الهيئة.

و. فقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً﴾ الآية ناظر إلى الشهور القمرية التي تتألف منها السنون وهي التي لها أصل ثابت في الحس وهو التشكلات القمرية بالنسبة إلى أهل الأرض، والدليل على كون المراد بها الشهور القمرية:

• أولا، قوله بعد: ﴿مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ لقيام الضرورة على أن الإسلام لم يحرم إلا أربعة من الشهور القمرية التي هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، والأربعة من القمرية دون الشمسية.

• وثانيا: قوله: ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ وقوله: ﴿فِي كِتابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ فإن هذه القيود تدل على أن هذه العدة لا سبيل للتغير والاختلاف إليها لكونها عند الله كذلك ولا يتغير علمه، وكونها في كتاب الله كذلك يوم خلق السماوات والأرض فجعل الشمس تجري لمستقر لها، والقمر قدره منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون فهو الحكم المكتوب في كتاب التكوين، ولا معقب لحكمه تعالى، ومن المعلوم أن الشهور الشمسية وضعية اصطلاحية وإن كانت الفصول الأربعة والسنة الشمسية على غير هذا النعت فالشهور الاثنا عشر التي هي ثابتة ذات أصل ثابت هي الشهور القمرية.

ز. فمعنى الآية إن عدة الشهور اثنا عشر شهرا تتألف منها السنون، وهذه العدة هي التي في علم الله سبحانه، وهي التي أثبتها في كتاب التكوين يوم خلق السماوات والأرض وأجرى الحركات العامة التي منها حركة الشمس وحركة القمر حول الأرض وهي الأصل الثابت في الكون لهذه العدة.

ح. ومن هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بكتاب الله في الآية القرآن أو كتاب مكتوب فيه عدة الشهور على حد الكتب والدفاتر التي عندنا المؤلفة من قراطيس وأوراق يضبط فيها الألفاظ بخطوط خاصة وضعية.

٢. ﴿مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾:

أ. الحرم جمع حرام وهو الممنوع منه، والقيم هو القائم بمصلحة الناس المهيمن على إدارة أمور حياتهم وحفظ شئونها.

ب. ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هي الأشهر الأربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب بالنقل القطعي، والكلمة كلمة تشريع بدليل قوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الآية.

ج. وإنما جعل الله هذه الأشهر الأربعة حرما ليكف الناس فيها عن القتال وينبسط عليهم بساط الأمن، ويأخذوا فيها الأهبة للسعادة، ويرجعوا إلى ربهم بالطاعات والقربات، وكانت حرمتها من شريعة إبراهيم، وكانت العرب تحترمها حتى في الجاهلية حينما كانوا يعبدون الأوثان غير أنهم ربما كانوا يحولون الحرمة من شهر إلى شهر سنة أو أزيد منها بالنسيء الذي تتعرض له الآية التالية.

٣. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، الإشارة إلى حرمة الأربعة المذكورة، والدين كما تطلق على مجموع ما أنزله الله على أنبيائه تطلق على بعضها فالمعنى أن تحريم الأربعة من الشهور القمرية هو الدين الذي يقوم بمصالح العباد، كما يشير إليه في قوله: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ﴾ الآية: [المائدة: ٩٧] وقد تقدم الكلام فيه في الجزء السادس من الكتاب.

٤. ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾:

أ. الضمير إلى الأربعة إذ لو كان راجعا إلى ﴿اثْنا عَشَرَ﴾ المذكور سابقا لكان الظاهر أن يقال (فيها) كما نقل عن الفراء، وأيضا لو كان راجعا إلى ﴿اثْنا عَشَرَ﴾ وهي تمام السنة لكان قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ كما قيل في معنى قولنا: فلا تظلموا أبدا أنفسكم، وكان الكلام متفرعا على كون عدة الشهور عند الله اثني عشر شهرا، ولا تفرع له عليه ظاهرا فالمعنى لما كانت هذه الأربعة حرما تفرع على حرمتها عند الله أن تكفوا فيها عن ظلم أنفسكم رعاية لحرمتها وعظم منزلتها عند الله سبحانه.

ب. فالنهي عن الظلم فيها يدل على عظم الحرمة وتأكدها لتفرعها على حرمتها أولا ولأنها نهي خاص بعد النهي العام كما يفيده قولنا: لا تظلم أبدا ولا تظلم في زمان كذا.

ج. والجملة أعني قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ وإن كانت بحسب إطلاق لفظها نهيا عن كل ظلم ومعصية لكن السياق يدل على كون المقصود الأهم منها النهي عن القتال في الأشهر الحرم.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن أبي خالد الواسطي في حديث ثم قال، يعني أبا جعفر عليه السلام، حدثني أبي عن علي بن الحسين عن أمير المؤمنين عليه السلام: أن رسول الله ﷺ لما ثقل في مرضه، قال: أيها الناس إن السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثم قال بيده: رجب مفرد، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثلاث متواليات.

• أقول: وقد ورد في عدة روايات تأويل الشهور الاثني عشر، بالأئمة الاثني عشر، وتأويل الأربعة الحرم بعلي أمير المؤمنين وعلي بن الحسين وعلي بن موسى وعلي بن محمد عليه السلام، وتأويل السنة برسول الله ﷺ، وانطباقها على الآية بما لها من السياق لا يخلو عن خفاء.

ب. أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بكرة: أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: ألا إن الزمان قد استدار كهيئته، يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان.

• أقول: وهي من خطب النبي ﷺ المشهورة، وقد رويت بطرق أخرى عن أبي هريرة وابن عمر وابن عباس وعن أبي حمزة الرقاشي عن عمه وكانت له صحبة وغيرهم.

• والمراد باستدارة الزمان كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض استقرار الأحكام الدينية على ما تقتضيه الفطرة والخلقة وتمكن الدين القيم من الرقابة في أعمال الناس، ومن ذلك حرمة الأشهر الأربعة الحرم وإلغاء النسيء الذي هو زيادة في الكفر.

٢٧. قتال المشركين كافة:

المقطع [٢٧] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٦٩»:

١. ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (الكف كف الإنسان وهي ما بها يقبض ويبسط، وكففته أصبت كفه، وكففته أصبته بالكف ودفعته بها، وتعورف الكف بالدفع على أي وجه كان، بالكف كان أو غيرها حتى قيل: رجل مكفوف لمن قبض بصره، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ أي كافا لهم عن المعاصي،

والهاء فيه للمبالغة كقولهم: راوية وعلامة ونسابة، وقوله: ﴿وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ﴾ ﴿كَافَّةً﴾ قيل: معناه كافين لهم كما يقاتلونكم كافين وقيل معناه جماعة كما يقاتلونكم جماعة، وذلك أن الجماعة يقال لهم: الكافة كما يقال لهم: الوازعة لقوتهم باجتماعهم، وعلى هذا قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾)، وقال في المجمع: (كافة بمعنى الإحاطة مأخوذ من كفة الشيء وهي طرفه وإذا انتهى الشيء إلى ذلك كف عن الزيادة، وأصل الكف المنع)

ب. ﴿كَافَّةً﴾ في الموضعين حال عن الضمير الراجع إلى المسلمين أو المشركين أو في الأول عن الأول وفي الثاني عن الثاني أو بالعكس فهناك وجوه أربعة، والمتبادر إلى الذهن هو الوجه الرابع للقرب اللفظي الذي بين الحال وذي الحال حينئذ، ومعنى الآية على هذا: وقاتلوا المشركين جميعهم كما يقاتلونكم جميعكم.

ج. فالآية توجب قتال جميع المشركين فتصير نظيره قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ الآية ينسخ هذه ما ينسخ تلك وتتخصص أو تتقيد بما تخصص أو تقيد به هي.

د. والآية مع ذلك إنما تتعرض لحال القتال مع المشركين وهم عبدة الأوثان غير أهل الكتاب فإن القرآن وإن كان ربما نسب الشرك تصريحا أو تلويحا إلى أهل الكتاب لكنه لم يطلق المشركين على طريق التوصيف إلا على عبدة الأوثان، وأما الكفر فعلا أو وصفا فقد نسب إلى أهل الكتاب وأطلق عليهم كما نسب وأطلق إلى عبدة الأوثان.

هـ. فالآية أعني قوله: ﴿وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ الآية لا هي ناسخة لآية أخذ الجزية من أهل الكتاب، ولا هي مخصصة أو مقيدة بها، وقد قيل في الآية بعض وجوه أخر تركناه لعدم جدوى في التعرض له.

٢. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ تعليم وتذكير وفيه حث على الاتصاف بصفة التقوى يترتب عليه من الفائدة:

أ. أولا: الوعد الجميل بالنصر الإلهي والغلبة والظفر فإن حزب الله هم الغالبون.

ب. وثانيا: منعهم أن يتعدوا حدود الله في الحروب والمغازي بقتل النساء والصبيان ومن ألقى إليهم السلام كما قتل خالد في غزوة حنين مرأة فأرسل إليه النبي ﷺ ينهاه عن ذلك وقتل رجالا من بني

جذيمة وقد أسلموا فوداهم النبي ﷺ وتبرأ إلى الله من فعله ثلاثا، وقتل أسامة يهوديا أظهر له الإسلام فنزل قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤] وقد تقدم.

٢٨. النسيء زيادة في الكفر:

المقطع [٢٨] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٧١»:

١. ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. يقال: نسأ الشيء ينسؤه نسأ ومنسأة ونسيئا إذا أخره تأخيرا، وقد يطلق النسيء على الشهر الذي أخر تحريمه على ما كانت العرب تفعله في الجاهلية فإنهم ربما كانوا يؤخرون حرمة بعض الأشهر الحرم إلى غيره وأما أنه كيف كان ذلك فقد اختلف فيه كلام المفسرين كأهل التاريخ.

ب. والذي يظهر من خلال الكلام المسرود في الآية أنه كانت لهم فيما بينهم سنة جاهلية في أمر الأشهر الحرم وهي المساة بالنسيء، وهو يدل بلفظه على تأخير الحرمة من شهر حرام إلى بعض الشهور غير المحرمة الذي بعده، وأنهم إنما كانوا يؤخرون الحرمة ولا يبطلونها برفعها من أصلها لإرادتهم بذلك أن يتحفظوا على سنة قومية ورثوها عن أسلافهم عن إبراهيم عليه السلام، فكانوا لا يتركون أصل التحريم لغي وإنما يؤخرونه إلى غير الشهر سنة أو أزيد ليواطئوا عدة ما حرم الله، وهي الأربعة ثم يعودون ويعيدون الحرمة إلى مكانها الأول، وهذا نوع تصرف في الحكم الإلهي بعد كفرهم بالله باتخاذ الأوثان شركاء له تعالى وتقدس، ولذا عده الله سبحانه في كلامه زيادة في الكفر.

ج. وقد ذكر الله سبحانه من الحكم الخاص بحرمة الأشهر الحرم النهي عن ظلم الأنفس حيث قال: ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ وأظهر مصاديقه القتال كما أنه المصداق الوحيد الذي استفتوا فيه النبي ﷺ فحكاه الله سبحانه بقوله: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ﴾ الآية: [البقرة: ٢١٧] وكذا ما في معناه من قوله: ﴿لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرامَ﴾ [المائدة: ٢] وقوله: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ﴾ [المائدة: ٩٧]، وكذلك الأثر الظاهر من حرمة البيت

أو الحرم هو جعل الأمن فيه كما قال: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾ [القصص: ٥٧]، فالظاهر أن النسيء الذي تذكره الآية عنهم إنما هو تأخير حرمة الشهر الحرام للتوسل بذلك إلى قتال فيه لا لتأخير الحج الذي هو عبادة دينية مختصة ببعضها.

د. وهذا كله يؤيد ما ذكروه أن العرب كانت تحرم هذه الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم وإسماعيل عليه السلام، وهم كانوا أصحاب غارات وحروب فربما كان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيحرمونه ويستحلون المحرم فيمكثون بذلك زمانا ثم يعود التحريم إلى المحرم، ولا يفعلون ذلك أي إنساء حرمة المحرم إلى صفر إلا في ذي الحجة.

هـ. وأما ما ذكره بعضهم أن النسيء هو ما كانوا يؤخرون الحج من شهر إلى شهر فمما لا ينطبق على لفظ الآية البتة، وسيجيء تفصيل الكلام فيه في البحث الروائي الآتي إن شاء الله، ولنرجع إلى ما كنا فيه.

و. فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ أي تأخير الحرمة التي شرعها الله لهذه الأشهر الحرم من شهر منها إلى شهر غير حرام زيادة في الكفر لأنه تصرف في حكم الله المشروع وكفر بآياته بعد الكفر بالله من جهة الشرك فهو زيادة في الكفر.

٢. ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ضلوا فيه بإضلال غيرهم إياهم بذلك، وفي الكلام إشعار أو دلالة على أن هناك من يحكم بالنسيء، وقد ذكروا أن المتصدي لذلك كان بعض بني كنانة، وسيجيء تفصيله في البحث الروائي إن شاء الله.

٣. ﴿يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ﴾:

أ. في موضع التفسير للإنساء، والضمير للشهر الحرام المعلوم من سياق الكلام أي وهو أنهم يحلون الشهر الحرام الذي نسئوه بتأخير حرمته عاما ويحرمونه عاما، أي يحلونه عاما بتأخير حرمته إلى غيره، ويحرمونه عاما بإعادة حرمته إليه.

ب. وإنما يعملون على هذه الشاكلة بالتأخير سنة والإثبات أخرى ليواطئوا ويوافقوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله في حال حفظهم أصل العدد أي إنهم يريدون التحفظ على حرمة الأشهر الأربعة

بعددها مع التغيير في محل الحرمة ليتمكنوا مما يريدونه من الحروب والغارات مع الاستنان بالحرمة.

٤. ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾:

أ. المزين هو الشيطان كما وقع في آيات من الكتاب، وربما نسب إلى الله سبحانه كما في آيات أخر، ولا ينسب الشر إليه سبحانه إلا ما قصد به الجزاء على الشر كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

ب. وذلك بأن يفسق العبد فيمنعه الله الهداية فيكون ذلك إذنا لداعي الضلال وهو الشيطان أن يزين له سوء عمله فيغويه ويضله، ولذلك قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ﴾ ثم عقبه بقوله: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾ كأنه لما قيل: زين لهم سوء أعمالهم قيل: كيف أذن الله فيه ولم يمنع ذلك قيل: إن هؤلاء كافرون والله لا يهدي القوم الكافرين.

٥. أحاديث وآثار:

أ. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة، فقال: إن النسيء من الشيطان زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا يحلونه عاما، ويحرمونه عاما فكانوا يحرمون المحرم عاما، ويحرمون صفر عاما ويستحلون وهو النسيء.

ب. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان جنادة بن عوف الكناني يوفي الموسم كل عام، وكان يكنى أبا ثمادة فينادي: ألا إن أبا ثمادة لا يخاف ولا يعاب، ألا إن صفر الأول حلال، وكان طوائف من العرب، إذا أرادوا أن يغيروا على بعض عدوهم أتوه، فقالوا: أحل لنا هذا الشهر يعنون صفر، وكانت العرب لا تقاتل في الأشهر الحرم فيحله لهم عاما، ويحرمه عليهم في العام الآخر، ويحرم المحرم في قابل ليواطئوا عدة ما حرم الله يقول: ليجعلوا الحرم أربعة، غير أنهم جعلوا صفر عاما حلالا وعاما حراما.

ج. وأخرج ابن المنذر عن قتادة: في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية، قال: عمد أناس من أهل الضلالة فزادوا صفر في الأشهر الحرم، وكان يقوم قائمهم في الموسم فيقول: إن آلهتكم قد حرمت صفر فيحرمونه ذلك العام، وكان يقال لهما الصفران، وكان أول من نسأ النسيء بنو مالك من كنانة، وكانوا ثلاثة أبو ثمامة صفوان بن أمية، وأحد بني فقيم بن الحارث، ثم أحد بني كنانة.

د. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي: في الآية قال: كان رجل من بني كنانة، يقال له جنادة بن عوف يكنى أبا أمامة ينسئ الشهور، وكانت العرب يشتد عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر، لا يغير بعضهم على بعض، فإذا أراد أن يغير على أحد قام يوما بمنى، فخطب فقال: إني قد أحللت المحرم، وحرمت صفر مكانه فيقاتل الناس في المحرم، فإذا كان صفر عمدوا ووضعوا الأسنة، ثم يقوم في قابل فيقول: إني قد أحللت صفر وحرمت المحرم، فيواطئوا أربعة أشهر فيحلوا المحرم.

هـ. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: في قوله: ﴿يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً﴾ قال: هو صفر كانت هوازن وغطفان يحلونه سنة ويحرمونه سنة.

• أقول: محصل الروايات، كما ترى، أن العرب كانت تدين بحرمة الأشهر الحرم الأربعة رجب وذي القعدة وذي الحجة والمحرم ثم إنهم ربما كانوا يتحرجون من القعود عن الحروب والغارات ثلاثة أشهر متواليات فسألوا بعض بني كنانة أن يحل لهم ثالث الشهور الثلاثة فقام فيهم بعض أيام الحج بمنى وأحل لهم المحرم ونسأ حرمته إلى صفر فذهبوا لوجههم عامهم ذلك يقاتلون العدو ثم رد الحرمة إلى مكانه في قابل وهذا هو النسيء.

• وكان يسمى المحرم صفر الأول وصفر الثاني وهما صفران كالربيعين والجماديين والنسيء إنما ينال صفر الأول ولا يتعدى صفر الثاني فلما أقر الإسلام الحرمة لصفر الأول عبروا عنه بشهر الله المحرم ثم لما كثر الاستعمال خففت وقيل: المحرم، واختص اسم صفر بصفر الثاني فالمحرم من الألفاظ الإسلامية كما ذكره السيوطي في المزهر.

و. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد: في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قال: فرض الله الحج في ذي الحجة، وكان المشركون يسمون الأشهر ذا الحجة والمحرم، وصفر وربيع وربيع وجمادى وجمادى، ورجب وشعبان ورمضان وشوال، وذا القعدة وذا الحجة ثم يحجون فيه، ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه، ثم يعودون فيسمون صفر صفر، ثم يسمون رجب جمادى الآخرة، ثم يسمون شعبان رمضان ورمضان شوال، ويسمون ذا القعدة شوال ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة، ثم يحجون فيه واسمه عندهم ذو الحجة، ثم عادوا إلى مثل هذه القصة فكانوا يحجون في كل شهر عاما، حتى وافق حجة أبي بكر الآخرة من العام في ذي القعدة، ثم حج

النبي ﷺ حجته التي حج فيها فوافق ذو الحجة، فذلك حين يقول ﷺ في خطبته: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض.

• أقول: ومحصله على ما فيه من التشويش والاضطراب أن العرب كانت قبل الإسلام يحج البيت في ذي الحجة غير أنهم أرادوا أن يحجوا كل عام في شهر فكانوا يدورون بالحج الشهور شهرا بعد شهر وكل شهر وصلت إليه النوبة عامهم ذلك سموه ذا الحجة وسكتوا عن اسمه الأصلي.

• ولازم ذلك أن يتألف كل سنة فيها حجة من ثلاثة عشر شهرا وأن يتكرر اسم بعض الشهور مرتين أو أزيد كما يشعر به الرواية، ولذا ذكر الطبري أن العرب كانت تجعل السنة ثلاثة عشر شهرا، وفي رواية اثني عشر شهرا وخمسة وعشرين يوما.

• ولازم ذلك أيضا أن تتغير أسماء الشهور كلها، وأن لا يواطئ اسم الشهر نفس الشهر إلا في كل اثنتي عشرة سنة مرة إن كان التأخير على نظام محفوظ، وذلك على نحو الدوران.

• ومثل هذا لا يقال له الإنساء والتأخير فإن أخذ السنة ثلاثة عشر وتسمية آخرها ذا الحجة تغيير لأصل التركيب لا تأخير لبعض الشهور بحسب الحقيقة.

• على أنه مخالف لسائر الأخبار والآثار المنقولة ولا مأخذ لذلك إلا هذه الرواية وما ضاهاها كرواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كانت العرب يحلون عاما شهرا وعاما شهرين، ولا يصيبون الحج إلا في كل ستة وعشرين سنة مرة، وهو النسيء الذي ذكر الله تعالى في كتابه، فلما كان عام الحج الأكبر، ثم حج رسول الله ﷺ من العام المقبل، فاستقبل الناس الأهلة فقال رسول الله ﷺ، إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وهو في الاضطراب كخبر مجاهد.

• على أن الذي ذكره من حجة أبي بكر في ذي القعدة هو الذي ورد من طرق أهل السنة أن النبي ﷺ جعل أبا بكر أميرا للحج عام تسع فحج بالناس، وقد ورد في بعض روايات أخر أيضا أن الحجة عامئذ كانت في ذي القعدة.

• وهذه الحجة على أي نعت فرضت كانت بأمر من النبي ﷺ وإمضائه، ولا يأمر بشيء ولا يمضي أمرا إلا ما أمر به ربه تعالى، وحاشا أن يأمر الله سبحانه بحجة في شهر نسيء ثم يسميها زيادة في الكفر.

• فالحق أن النسيء هو ما تقدم أنهم كانوا يتحرجون من توالي شهور ثلاثة محرمة فينسئون حرمة

المحرم إلى صفر ثم يعيدونها مكانها في العام المقبل.

• وأما حجهم في كل شهر سنة أو في كل شهر سنتين أو في شهر سنة وفي شهر سنتين فلم يثبت عن مأخذ واضح يوثق به، وليس من البعيد أن تكون عرب الجاهلية مختلفين في ذلك لكونهم قبائل شتى وعشائر متفرقة كل متبع لهوى نفسه غير أن الحج كان عبادة ذات موسم لا يتخلفون عنه لحاجتها إلى أمن لنفوسهم وحرمة لدمائهم، وما كانوا يتمكنون من ذلك لو كان أحل الشهر بعضهم وحرمه آخرون على اختلاف في شاكلة التحريم، وهو ظاهر.

٢٩. النفير في سبيل الله والتثاقل إلى الأرض:

المقطع [٢٩] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٧٨»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ الآية ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ أصله تثاقلتم على وزان اداركوا وغيره، وكأنه أشرب معنى الميل ونحوه فعدي بإلى وقيل: اثاقلتم إلى الأرض أي ملتم إلى الأرض متثاقلين أو تثاقلتم مائلين إلى الأرض والمراد بالنفر في سبيل الله الخروج إلى الجهاد.

٢. ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ كان الرضا أشرب معنى القناعة فعدي بمن كما يقال: رضيت من المال بطيبه، ورضيت من القوم بخلة فلان، وعلى هذا ففي الكلام نوع من العناية المجازية كأن الحياة الدنيا نوع حقير من الحياة الآخرة قنعوا بها منها، ويشعر بذلك قوله بعده: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

٣. فمعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قال لكم النبي ﷺ، لم يصرح باسمه صونا وتعظيما، اخرجوا إلى الجهاد أبطأتم كأنكم لا تريدون الخروج أقنعتم بالحياة الدنيا راضين بها من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا بالنسبة إلى الحياة الآخرة إلا قليل.

٤. وفي الآية وما يتلوها عتاب شديد للمؤمنين وتهديد عنيف وهي تقبل الانطباق على غزوة تبوك كما ورد ذلك في أسباب النزول.

٣٠. التخلف عن النفير والعذاب والاستبدال:

المقطع [٣٠] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٧٩»:

١. ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ إلى آخر الآية العذاب الذي أنذروا به مطلق غير مقيد فلا وجه لتخصيصه بعذاب الآخرة بل هو على إبهامه، وربما أيد السياق كون المراد به عذاب الدنيا أو عذاب الدنيا والآخرة جميعا.

٢. ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ أي يستبدل بكم قوما غيركم لا يتثاقلون في امتثال أوامر الله والنفر في سبيل الله إذا قيل لهم: انفروا، والدليل على هذا المعنى قرينة المقام.

٣. ﴿وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾ إشارة إلى هوان أمرهم على الله سبحانه لو أراد أن يذهب بهم ويأتي بآخرين فإن الله لا ينتفع بهم بل نفعهم لأنفسهم فضررهم على أنفسهم، وقوله: ﴿وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾

٣١. نصر الله للنبي في الغار وإنزال السكينة:

المقطع [٣١] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٧٩»:

١. ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ﴾ ثاني اثنين أي أحدهما، والغار الثقبة العظيمة في الجبل، والمراد به غار جبل ثور قرب مني وهو غير غار حراء الذي ربما كان النبي ﷺ يأوي إليه قبل البعثة للأخبار المستفيضة، والمراد بصاحبه هو أبو بكر للنقل القطعي.

٢. ﴿إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾ أي لا تحزن خوفا مما تشاهده من الوحدة والغربة وفقد الناصر وتظاهر الأعداء وتعقيبهم إياي فإن الله سبحانه معنا ينصرني عليهم.

٣. ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها﴾:

أ. أي أنزل الله سكينته على رسوله وأيد رسوله بجنود لم تروها يصرفون القوم عنهم بوجوه من الصرف بجميع العوامل التي عملت في انصراف القوم عن دخول الغار والظفر به ﷺ، وقد روي في ذلك أشياء ستأتي في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.

ب. والدليل على رجوع الضمير في قوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ إلى النبي ﷺ:

• أولا: رجوع الضمائر التي قبله وبعده إليه ﷺ كقوله: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ و﴿نَصَرَهُ﴾ و﴿أَخْرَجَهُ﴾ و﴿يَقُولُ﴾ و﴿لِصاحِبِهِ﴾ و﴿أَيَّدَهُ﴾ فلا سبيل إلى رجوع ضمير ﴿عَلَيْهِ﴾ من بينها وحده إلى غيره من غير قرينة قاطعة تدل عليه.

• وثانيا: أن الكلام في الآية مسوق لبيان نصر الله تعالى نبيه ﷺ حيث لم يكن معه أحد ممن يتمكن من نصرته إذ يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ﴾ الآية وإنزال السكينة والتقوية بالجنود من النصر فذاك له ﷺ خاصة، ويدل على ذلك تكرار ﴿إِذْ﴾ وذكرها في الآية ثلاث مرات كل منها بيان لما قبله بوجه فقوله ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بيان لوقت قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ وقوله: ﴿إِذْ هُما فِي الْغارِ﴾ بيان لتشخيص الحال الذي هو قوله: ﴿ثانِيَ اثْنَيْنِ﴾ وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ﴾ بيان لتشخيص الوقت الذي يدل عليه قوله: ﴿إِذْ هُما فِي الْغارِ﴾

• وثالثا: أن الآية تجري في سياق واحد حتى يقول: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيا﴾ ولا ريب أنه بيان لما قبله، وأن المراد بكلمة الذين كفروا هي ما قضوا به في دار الندوة وعزموا عليه من قتله ﷺ وإطفاء نور الله، وبكلمة الله هي ما وعده من نصره وإتمام نوره، وكيف يجوز أن يفرق بين البيان والمبين وجعل البيان راجعا إلى نصره تعالى إياه ﷺ، والمبين راجعا إلى نصره غيره.

ج. فمعنى الآية: إن لم تنصروه أنتم أيها المؤمنون فقد أظهر الله نصره إياه في وقت لم يكن له أحد ينصره ويدفع عنه وقد تظاهرت عليه الأعداء وأحاطوا به من كل جهة وذلك إذ هم المشركون به وعزموا على قتله فاضطر إلى الخروج من مكة في حال لم يكن إلا أحد رجلين اثنين، وذلك إذ هما في الغار إذ يقول النبي ﷺ لصاحبه وهو أبو بكر: لا تحزن مما تشاهده من الحال إن الله معنا بيده النصر فنصره الله، حيث أنزل سكينته عليه وأيده بجنود غائبة عن أبصاركم، وجعل كلمة الذين كفروا، وهي قضاؤهم بوجوب قتله وعزيمتهم عليه، كلمة مغلوبة غير نافذة ولا مؤثرة، وكلمة الله، وهي الوعد بالنصر وإظهار الدين وإتمام

النور، هي العليا العالية القاهرة والله عزيز لا يغلب حكيم لا يجهل ولا يغلط في ما شاءه وفعله.

٤. وقد تبين مما تقدم:

أ. أولا أن قوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ متفرع على قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ في عين أنه متفرع على قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ﴾ فإن الظرف ظرف للنصرة على ما تقدم، والكلام مسوق لبيان نصره تعالى إياه ﷺ لا غيره فالتفريع تفريع على الظرف بمظروفه الذي هو قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ لا على قوله: ﴿يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ﴾، وربما استدل لذلك بأن النبي ﷺ لم يزل على سكينة من ربه فإنزال السكينة في هذا الظرف خاصة يكشف عن نزوله على صاحبه، ويدفعه:

• أولا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ في قصة حنين، والقول بأن نفسه الشريفة اضطربت بعض الاضطراب في وقعة حنين فناسب نزول السكينة بخلاف الحال في الغار، يدفعه أنه من الافتعال بغير علم فالآية لا تذكر منه ﷺ حزنا ولا اضطرابا ولا غير ذلك إلا ما تذكر من فرار المؤمنين، على أنه يبطل أصل الاستدلال أن النبي ﷺ لم يزل على سكينة من ربه لا يتجدد له شيء منها فكيف جاز له أن يضطرب في حنين فتنزل عليه سكينة جديدة اللهم إلا أن يريدوا به أنه لم يزل في الغار كذلك، ونظيرتها الآية الناطقة بنزول السكينة عليه ﷺ وعلى المؤمنين في سورة الفتح: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦]

• ويدفعه ثانيا: لزوم تفرع قوله: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها﴾ على أثر تفرع قوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ لأنهما في سياق واحد، ولازمه عدم رجوع التأييد بالجنود إليه ﷺ أو التفكيك في السياق الواحد من غير مجوز يجوزه، وربما التزم بعضهم، فرارا من شناعة لزوم التفكيك، أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ أيضا راجع إلى صاحبه، ولازمه كون إنزال السكينة والتأييد بالجنود عائدين إلى أبي بكر دون النبي ﷺ، وربما أيده بعض آخر بأن الوقائع التي تذكر الآيات فيها نزول جنود لم يروها كوقعة حنين والأحزاب وكذا نزول الملائكة لوقعة بدر وإن لم تذكر نزولهم على المؤمنين ولم تصرح بتأييدهم بهم لكنهم حيث كانوا إنما نزلوا للنصر وفيه نصر المؤمنين وإمدادهم فلا مانع من القول بأن الجنود التي لم يروها إنما أيدت أبا بكر، وتأييدهم المؤمنين جميعا أو أبا بكر خاصة تأييد منهم في الحقيقة للنبي ﷺ، والأولى على هذا البيان أن يجعل الفرع الثالث الذي هو قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى﴾ الآية مترتبا على ما تقدمه من الفرعين

لئلا يلزم التفكيك في السياق، ولا يخفى عليك أن هذا الذي التزموا به يخرج الآية عن مستقر معناها الوحداني إلى معنى متهافت الأطراف يدفع آخره أوله، وينقض ذيله صدره فقد بدئت الآية بأن النبي ﷺ أكرم على الله وأعز من أن يستذله ويحوجه إلى نصرة هؤلاء بل هو تعالى وليه القائم بنصره حيث لم يكن أحد من هؤلاء الحافين حوله المتبعين أثره ثم إذا شرعت في بيان نصره تعالى إياه بين نصره غيره بإنزال السكينة عليه وتأييده بجنود لم يروها إلى آخر الآية، هب أن نصره تعالى بعض المؤمنين به ﷺ أو جميعهم نصر منه له بالحقيقة لكن الآية في مساق يدفعه البتة فإن الآية السابقة يجمع المؤمنين في خطاب واحد، ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ويعاتبهم ويهددهم على التثاقل عن إجابة النبي ﷺ إلى ما أمرهم به من النفر في سبيل الله والخروج إلى الجهاد ثم الآية الثانية تهددهم بالعذاب والاستبدال إن لم ينفروا وتبين لهم أن الله ورسوله في غنى عنهم ولا يضرونه شيئا، ثم الآية الثالثة توضح أن النبي ﷺ في غنى عن نصرهم لأن ربه هو وليه الناصر له، وقد نصره حيث لم يكن لأحد منهم صنع فيه وهو نصره إياه إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، ومن البين الذي لا مرية فيه أن مقتضى هذا المقام بيان نصره ﷺ الخاص به المتعلق بشخصه من الله سبحانه خاصة من دون صنع لأحد من المؤمنين في ذلك لا بيان نصره إياه بالمؤمنين أو ببعضهم وقد جمعهم في خطاب المعاتبة، ولا بيان نصره بعض المؤمنين به ممن كان معه، ولا أن المقام مقام يصلح لأن يشار بقوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ﴾ إشارة إجمالية إلى نصره العزيز لنبيه ﷺ ثم يؤخذ في تفصيل ما خص به صاحبه من الخصيصة بإنزال السكينة والتأييد بالجنود فإن المقام على ما تبين لك يأبى ذلك.

• ويدفعه ثالثا: أن فيه غفلة عن حقيقة معنى السكينة وقد تقدم الكلام فيها في ذيل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [توبة: ٢٦]

ب. والأمر الثاني: أن المراد بتأييده ﷺ بجنود لم يروها تأييده بذلك يومئذ على ما يفيده السياق، وأما قول بعضهم: إن المراد به ما أيده بالجنود يوم الأحزاب ويوم حنين على ما نطقت به الآيات فمما لا دليل عليه من اللفظ البتة.

ج. والأمر الثالث: أن المراد بالكلمة في قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى﴾، هو ما قضوا به في دار الندوة وعزموا عليه من قتله ﷺ وإبطال دعوته الحقة بذلك، وبقوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيا﴾ هو

ما وعد الله نبيه ﷺ من النصر وإظهار دينه على الدين كله.

٥. وذلك أن هذه الآية بما تتضمنه من قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تشير إلى ما يقصه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، والذي في ذيل الآية من إبطال كلمتهم وإحقاق الكلمة الإلهية مرتبط بما في صدر الآية من حديث الإخراج أي الاضطرار إلى الخروج لا محالة، والذي اضطره ﷺ إلى الخروج هو عزمهم على قتله حسب ما اتفقوا عليه من القضاء بقتله فهذه هي الكلمة التي أبطلها الله سبحانه وجعلها السفلى وتقابلها كلمة الله وليست إلا النصر والإظهار.

٦. ومن هنا يظهر أن قول بعضهم إن المراد بكلمة الذين كفروا الشرك والكفر، وبكلمة الله تعالى التوحيد والإيمان غير سديد فإن الشرك وإن كان كلمة لهم، والتوحيد كلمة لله لكنه لا يستلزم كونهما المرادين كلما ذكرت الكلمتان حتى مع وجود القرينة على الخلاف.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور: في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ الآية: أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من الليل لحق بغار ثور، قال: وتبعه أبو بكر، فلما سمع رسول الله ﷺ حسه خلفه، خاف أن يكون الطلب فلما رأى ذلك أبو بكر تنحنح، فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ عرفه، فقام له حتى تبعه فأتيا الغار، فأصبحت قريش في طلبه فبعثوا إلى رجل من قافة بني مدلج، فتبع الأثر حتى انتهى إلى الغار، وعلى بابه شجرة فبال في أصلها القائف، ثم قال: ما جاز صاحبكم الذي تطلبون هذا المكان، قال فعند ذلك حزن أبو بكر، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾، قال: فمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام، يختلف إليهم بالطعام عامر بن فهيرة وعلي يجهزهم، فاشتروا ثلاثة أباعر من إبل البحرين، واستأجر لهم دليلا فلما كان بعض الليل من الليلة الثالثة، أتاهم علي بالإبل والدليل فركب رسول الله ﷺ راحلته، وركب أبو بكر أخرى فتوجهوا نحو المدينة، وقد بعثت قريش في طلبه.

ب. وأخرج ابن سعد عن ابن عباس وعلي وعائشة بنت أبي بكر وعائشة بنت قدامة وسراقة بن جعشم، دخل حديث بعضهم في بعض، قالوا: خرج رسول الله ﷺ والقوم جلوس على بابه، فأخذ حفنة

من البطحاء فجعل يذرها على رءوسهم، ويتلو: ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ الآيات ومضى، فقال لهم قائل ما تنتظرون؟ قالوا: محمدا، قال: قد والله مر بكم قالوا: والله ما أبصرناه وقاموا ينفضون التراب من رءوسهم، وخرج رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى غار ثور، فدخلاه وضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضها على بعض، وطلبته قريش أشد الطلب، حتى انتهوا إلى باب الغار فقال بعضهم: إن عليه لعنكبوتا قبل ميلاد محمد.

ج. وفي إعلام الورى: في حديث سراقة بن جعشم مع النبي ﷺ، قال: الذي اشتهر في العرب يتقاولون فيه الأشعار، ويتفاوضونه في الديار أنه تبعه، وهو متوجه إلى المدينة طالبا لغرته ﷺ ليحظى بذلك عند قريش، حتى إذا أمكنته الفرصة في نفسه، وأيقن أن قد ظفر ببغيته ساخت قوائم فرسه، حتى تغيبت بأجمعها في الأرض وهو بموضع جدب، وقاع صفصف فعلم أن الذي أصابه أمر سماوي، فنادى يا محمد: ادع ربك يطلق لي فرسي، وذمة الله أن لا أدل عليك أحدا، فدعا له فوثب جواده كأنه أفلت من أنشوطة وكان رجلا داهية، وعلم بما رأى أنه سيكون له نبأ فقال: اكتب لي أمانا فكتب له وانصرف.

د. قال محمد بن إسحاق: إن أبا جهل قال في أمر سراقة أبياتا فأجابه سراقة نظما:

أبا حكم واللات لو كنت شاهدا...لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمه

عجبت ولم تشكك بأن محمدا...نبي ببرهان فمن ذا يكاتمه؟

عليك بكف الناس عنه فإنني...أرى أمره يوما ستبدو معالمه

• أقول: ورواه في الكافي، بإسناده عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام، وفي الدر المنثور، بعدة طرق، وأورده الزمخشري في ربيع الأبرار.

د. أخرج ابن سعد وابن مردويه عن ابن مصعب قال: أدركت أنس بن مالك وزيد بن أرقم، والمغيرة بن شعبة فسمعتهم يتحدثون: أن النبي ﷺ ليلة الغار أمر الله شجرة، فنبتت في وجه النبي ﷺ فسترته، وأمر الله العنكبوت فنسجت في وجه النبي ﷺ فسترته، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار، وأقبل فتيان قريش من كل بطن رجل، بعصيهم وأسيافهم وهراويهم، حتى إذا كانوا من النبي ﷺ قدر أربعين ذراعا، فعجل بعضهم فنظر في الغار فرجع إلى أصحابه، فقالوا: ما لك لم تنظر في الغار؟ فقال: رأيت حمامتين بفم الغار، فعرفت أن ليس فيه أحد، الحديث.

هـ. أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهري: في قوله: ﴿إِذْ هُما فِي الْغارِ﴾ قال: الغار الذي في الجبل الذي يسمى ثورا.

• أقول: وقد استفاضت الروايات بكون الغار المذكور في القرآن الكريم هو غار جبل ثور، وهو على أربعة فراسخ من مكة تقريبا.

و. وفي إعلام الورى، وقصص الأنبياء: وبقي رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام، ثم أذن الله تعالى له بالهجرة، وقال: اخرج من مكة يا محمد، فليس لك بها ناصر بعد أبي طالب فخرج رسول الله ﷺ، وأقبل راع لبعض قريش يقال له: ابن أريقط، فدعاه رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أريقط آتمنك على دمي؟ فقال: إذن والله أحرسك وأحفظك ولا أدل عليك، فأين تريد يا محمد؟ قال: يثرب، قال: لأسلكن بك مسلكا لا يهتدي فيها أحد، فقال له رسول الله ﷺ: ائت عليا، وبشره بأن الله قد أذن لي في الهجرة فهيئ لي زادا وراحلة، وقال له أبو بكر: ائت أسماء ابنتي، وقل لها: تهيئي لي زادا وراحلتين، وأعلم عامر بن فهيرة أمرنا، وكان من موالي أبي بكر وكان قد أسلم،، وقل له: ائتنا بالزاد والراحلتين، فجاء ابن أريقط إلى علي عليه السلام فأخبره بذلك، فبعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ بزاد وراحلة، وبعث ابن فهيرة بزاد وراحلتين، وخرج رسول الله ﷺ من الغار، وأخذ به ابن أريقط على طريق نخلة بين الجبال، فلم يرجعوا إلى الطريق إلا بقديد فنزلوا على أم معبد هناك، قال: وقد كانت الأنصار بلغهم خروج رسول الله ﷺ إليهم، وكانوا يتوقعون قدومه إلى أن وافى مسجد قبا، ونزل فخرج الرجال والنساء يستبشرون بقدومه.

• أقول: والأخبار في تفاصيل قصص الهجرة بالغة في الكثرة رواها أصحاب النقل وأرباب السير من الشيعة وأهل السنة، وهي على كثرتها متدافعة مضطربة لا يسع نقدها واستخراج الصافي منها مجال هذا الكتاب، وللدلالة على إجمال القصة فيما أوردناه كفاية وهو كالمتفق عليه بين أخبار الفريقين.

ز. أخرج خيثمة بن سليمان الطرابلسي في فضائل الصحابة وابن عساكر عن علي بن أبي طالب قال: إن الله ذم الناس كلهم ومدح أبا بكر فقال: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ، إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾

• أقول: نقد البحث في مضامين الآيات الحافة بالقصة وما ينضم إليها من النقل الصحيح يوجب سوء الظن بهذه الرواية فإن الآيات التي تذم المؤمنين، أو الناس كلهم كما في الرواية، وإليها تشير آية الغار

بما فيها من قوله: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ هي قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ الآية، والنقل القطعي يدل على أن التثاقل المذكور لم يكن من عامة المؤمنين وجميعهم، وإن كثيرا منهم سارع إلى إجابة الرسول ﷺ فيما أمر به من النفر، وإنما تثاقل جماعة من الناس من مؤمن ومنافق.

• فخطاب ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الشامل لجميع المؤمنين، والذم المتعقب له إنما هو من خطاب الجماعة بشأن بعضهم كخطاب اليهود بقوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللهِ﴾ [البقرة: ٩١] وغيره، وهو كثير في القرآن غير أن ديدن القرآن في مثل هذه الموارد أن لا يضيع حق الصالحين ولا أجر المحسنين أعني الأقلين الذين تعمهم أمثال هذه الخطابات العامة بالذم والتوبيخ فيتدارك أمرهم ويستثنيهم ويذكرهم بالجميل كما فعل ذلك فيما سيأتي في هذه السورة من الآيات المادحة للمؤمنين الشاكرة لجميل مساعيهم بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ الآية، وغيره.

• وإذا كانت الآيات، وقد نزلت في غزوة تبوك، تعم المؤمنين جميعا المسارعين في الخروج والمتثاقلين فيه من غير استثناء فهي تشمل عامة الصحابة والمؤمنين وفيهم أبو بكر نفسه غير أنه تعالى تدارك ما لحق بالمسارعين في الطاعة والإجابة منهم في آيات تالية وشكر سعيهم.

• فلو كان قوله في الآية: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ وهو يشير إلى ما تقدم من حديث التثاقل ويومئ إليه ذما للناس كلهم كان ذما لأبي بكر كما هو ذم لغيره بعدم نصرتهم للنبي ﷺ أو تثاقلهم في نصره، ومع ذلك لا تسمح الآية بالدلالة على نصر أبي بكر له ﷺ بما فيها من قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾ بل لو دل لدل على نصر النبي ﷺ لأبي بكر حيث طيب قلبه وسلاه بقوله: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾

• على أنك قد عرفت في البيان السابق أن الآية بمقتضى المقام لا تتعرض إلا لنصر الله سبحانه وحده نبيه ﷺ بعينه وشخصه، قبال ما يفرض من عدم نصر كافة المؤمنين له وخذلانهم إياه فدلالة الآية على أن النبي ﷺ يوم الغار لم ينصره إلا الله سبحانه وحده دلالة قطعية.

• وهذا المعنى في نفسه أدل شاهد على أن الضمائر في تتمة جمل الآية: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيا﴾ للنبي ﷺ، والجمل مسوقة لبيان

قيامه تعالى وحده بنصره نصرا عزيزا غيبيا لا صنع فيه لأحد من الناس، وهو إنزال السكينة عليه وتأييده بجنود غائبة عن الأبصار، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وإعلاء كلمة الحق والله عزيز حكيم.

• وأما غير نصره النبي ﷺ من المناقب التي يمدح الإنسان عليها فلو كان هناك شيء من ذلك لكان هو ما في قوله: ﴿ثانِيَ اثْنَيْنِ﴾ وما في قوله: ﴿لِصاحِبِهِ﴾ فلنسلم أن كون الإنسان ثانيا لاثنين أحدهما النبي ﷺ، وكونه صاحبا للنبي ﷺ مذكورا في القرآن بالصحبة من المفاخر التي يتنفس لها لكنها من المناقب الاجتماعية التي تقدر لها في المجتمعات قيمة ونفاسة، وأما القرآن الكريم فللقيمة فيه ملاك آخر، وللفضل والشرف في منطقه معنى آخر متكئ على حقيقة هي أعلى من المقاصد الوضعية الاجتماعية، وهي كرامة العبودية ودرجات القرب والزلفى.

• ومجرد الصحابة الجسمانية والدخول في العدد لا يدل على شيء من ذلك، وقد تكرر في كلامه تعالى أن التسمي بمختلف الأسماء والتلبس بما يتنفس فيه عامة الناس ويستعظمه النظر الاجتماعي لا قيمة له عند الله سبحانه، وأن الحساب على ما في القلوب دون ما يتراءى من ظواهر الأعمال وتقدمة الأحساب والأنساب.

• وقد أفصح عنه في مورد أصحاب النبي ﷺ وملازميه خاصة بأبلغ الإفصاح قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ إلى أن قال: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح: ٢٩] فانظر إلى ما في صدر الآية من المدح وما في ذيله من القيد وتدبر.

• هذه نبذة مما يتعلق بالآية والرواية من البحث، والزائد على هذا المقدار يخرجنا من البحث التفسيري إلى البحث الكلامي الذي هو خارج عن غرضنا.

ح. أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس: في قوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ قال: على أبي بكر لأن النبي ﷺ لم يزل السكينة معه.

ط. وأخرج الخطيب في تاريخه عن حبيب بن أبي ثابت: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ قال: على أبي بكر فأما النبي ﷺ فقد كانت عليه السكينة.

• أقول: قد حقق فيما تقدم أن الضمير راجع إلى النبي ﷺ على ما يهدي إليه السياق، والروايتان على

ما بهما من الوقف ضعيفتان، ولا حجية لقول ابن عباس ولا حبيب لغيرهما.

• وأما الحجة التي أورداهما فيهما وهي أن النبي ﷺ لم تزل السكينة معه فمدخولة يدفعها قوله تعالى في قصة حنين: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية: [التوبة: ٢٦] ونظيرته آية سورة الفتح المشيرة إلى قصة الحديبية وهما تصرحان بنزول السكينة عليه ﷺ في خصوص المورد فليكن الأمر على تلك الوتيرة في الغار.

• وكان بعضهم أحس بالإشكال فحمل قولهما في الروايتين: أن السكينة لم تزل مع النبي ﷺ على معنى آخر وهو كون السكينة ملازمة للنبي ﷺ في الغار فيكون قرينة على كون التي نزلت فيه إنما نزلت على صاحبه دونه، ولعل رواية حبيب أقرب دلالة على ما ذكره.

• قال بعد إيراد رواية ابن عباس ثم رواية حبيب: وقد أخذ بهذه الرواية بعض مفسري اللغة والمعقول ووضحوا ما فيها من التعليل بأنه ﷺ لم يحدث له وقتئذ اضطراب ولا خوف ولا حزن، وقواها بعضهم بأن الأصل في الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور، وليس هذا بشيء.

• وذهب آخرون إلى أن الضمير يعود إلى النبي ﷺ وأن إنزال السكينة عليه لا يقتضي أن يكون خائفا أو مضطربا أو منزعجا، وهذا ضعيف لعطف إنزال السكينة على ما قبلها الدال على وقوعه بعده وترتبه عليه، وأن نزولها وقع بعد قوله لصاحبه: لا تحزن.

• أما ما ذكروه من عدم طرو خوف واضطراب عليه ﷺ وقتئذ فإن كانوا استفادوه من عدم ذكر شيء من ذلك في الآية أو في رواية معتمد عليها فكلامه تعالى في قصة حنين والحديبية أيضا خال عن ذكر النبي ﷺ بخوف أو حزن أو اضطراب، ولم ترد رواية معتمد عليها تدل على ذلك فكيف استقام ذكر نزول السكينة عليه ﷺ فيهما؟

• وإن قالوا باستلزام إنزال السكينة الاضطراب والخوف والحزن فهو ممنوع كما تقدم كيف؟ ونزول نعمة من النعم الإلهية لا يتوقف على سبق الاتصاف بحالة مضادة لها ونقمة مقابلة لها كنزول الرحمة بعد الرحمة والنعمة بعد النعمة والإيمان والهداية بعد الإيمان والهداية وغير ذلك، وقد نص القرآن الكريم بأمور كثيرة من هذا القبيل.

• وأما قوله: إن رجوع الضمير إلى النبي ﷺ ضعيف لعطف إنزال السكينة على ما قبلها الدال على

وقوعه بعده وترتبه عليه وأن نزولها وقع بعد قوله لصاحبه: (لا تحزن) ففيه: أنه لا ريب أن فاء التفريع تدل على ترتب ما بعدها على ما قبلها ووقوعه بعده لكن بعدية رتبية لا بعدية زمانية ولم يقل أحد بوجوب كونها زمانية دائما.

• فمن الواجب فيما نحن فيه أن يترتب قوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ﴾ على ما تقدم عليه من الكلام لا على ما هو أقرب إليه من غيره إلا على القول بأن الأصل في الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور، وقد ضعفه في سابق كلامه.

• والذي يصلح من سابق ليتعلق به التفريع المذكور هو قوله: فقد نصره الله في كذا وكذا وقتا وتفرع هذه الفروع عليه من قبيل تفرع التفصيل على الإجمال والسياق على استقامته: (فقد نصره الله في وقت كذا فأنزل سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى.

• فظهر أن ما أجاب به أخيرا هو عين ما ضعفه أولا من حديث أصل قرب المرجع من الضمير، ذاك الأصل الذي لا أصل له، كرره ثانيا بتغيير ما في اللفظ.

ي. ومن هنا يظهر جهة المناقشة في رواية أخرى رواها في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: دخل النبي ﷺ وأبو بكر غار حراء، فقال أبو بكر للنبي ﷺ لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرني وإياك، فقال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما، إن الله أنزل سكينته عليك وأيدني بجنود لم تروها.

• على أن الرواية تذكر غار حراء وقد ثبت بالمستفيض المتكاثر من الأخبار أن الغار كان غار ثور لا غار حراء.

• على أن الرواية مشتملة على تفكيك السياق صريحا بما فيها من قوله: أنزل سكينته عليك وأيدني بجنود، إلخ.

• وقد أورد الآلوسي في روح المعاني، الرواية هكذا: (إن الله أنزل سكينته عليك وأيدك بجنود لم تروها، فأرجع الضميرين إلى أبي بكر دون النبي ﷺ، ولا ندري أي اللفظين هو الأصل وأيهما المحرف غير أنه يضاف على رواية (وأيدك بجنود لم تروها) إلى ما ذكر من الإشكال آنفا إشكالات أخرى تقدمت في البيان السابق مضافا إلى إشكال آخر جديد من جهة قوله: (لم تروها) بخطاب الجمع ولا مخاطب يومئذ جمعا.

٣٢. النفير خفافاً وثقالاً والجهاد بالأموال والأنفس:

المقطع [٣٢] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٨٣»:

١. ﴿انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخفاف والثقال جمعا خفيف وثقيل، والثقل بقرينة المقام كناية عن وجود الموانع الشاغلة الصارفة للإنسان عن الخروج إلى الجهاد نظير كثرة المشاغل المالية وحب الأهل والولد والأقرباء والأصدقاء الذي يوجب كراهة مفارقتهم، وفقد الزاد والراحلة والسلاح ونحو ذلك، والخفة كناية عن خلاف ذلك.

٢. فالأمر بالنفر خفافا وثقالا وهما حالان متقابلان في معنى الأمر بالخروج على أي حال، وعدم اتخاذ شيء من ذلك عذرا يعتذر به لترك الخروج كما أن الجمع بين الأموال والأنفس في الذكر في معنى الأمر بالجهاد بأي وسيلة أمكنت.

٣. وقد ظهر بذلك أن الأمر في الآية مطلق لا يأبى التقييد بالأعذار التي يسقط معها وجوب الجهاد كالمرض والعمى والعرج ونحو ذلك فإن المراد بالخفة والثقل أمر وراء ذلك.

٣٣. المنافقون يتعللون بالكذب ليتخلفوا عن الجهاد:

المقطع [٣٣] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٨٤»:

١. ﴿لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. العرض ما يسرع إليه الزوال ويطلق على المال الدنيوي وهو المراد في الآية بقرينة السياق، والمراد بقربه كونه قريبا من التناول، والقاصد من القصد وهو التوسط في الأمر، والمراد بكون السفر قاصدا كونه غير بعيد المقصد سهلا على المسافر، والشقة: المسافة لما في قطعها من المشقة.

ب. والآية كما يلوح من سياقها تعيير وذم للمنافقين المتخلفين عن الخروج مع النبي ﷺ إلى الجهاد

في غزوة تبوك إذ الغزوة التي خرج فيها النبي ﷺ وتخلف عنه المنافقون وهي على بعد من المسافة هي غزوة تبوك لا غيرها.

٢. ومعنى الآية: لو كان ما أمرتهم به ودعوتهم إليه عرضا قريب التناول وغنيمة حاضرة وسفرا قاصدا قريبا هينا لاتبعوك يا محمد وخرجوا معك طمعا في الغنيمة ولكن بعدت عليهم الشقة والمسافة فاستصعبوا السير وتثاقلوا فيه، وسيحلفون بالله إذا رجعتم إليهم ولمتموهم على تخلفهم: لو استطعنا الخروج لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم بما أخذوه من الطريقة: من الخروج إلى القتال طمعا في عرض الدنيا إذا استيسروا القبض عليه، والتخلف عنه إذا شق عليهم ثم الاعتذار بالعذر الكاذب على نبيهم والحلف في ذلك بالله كاذبين، أو يهلكون أنفسهم بهذا الحلف الكاذب، والله يعلم إنهم لكاذبون.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً﴾ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً﴾ يقول: غنيمة قريبة ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾

ب. وفي تفسير العياشي، عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام: في قول الله: ﴿لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ﴾ الآية، إنهم يستطيعون وقد كان في علم الله، أنه لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لفعلوا.

• أقول: ورواه الصدوق في المعاني، بإسناده عن عبد الأعلى بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام مثله.

ج. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ يعني إلى تبوك وسبب ذلك، أن رسول الله ﷺ لم يسافر سفرا أبعد منه ولا أشد منه، وكان سبب ذلك أن الصيافة كانوا يقدمون المدينة من الشام، ومعهم الدرموك والطعام، وهم الأنباط فأشاعوا بالمدينة أن الروم قد اجتمعوا، يريدون غزو رسول الله ﷺ في عسكر عظيم، وأن هرقل قد سار في جمع جنوده، وجلب معهم غسان وجذام وبهراء وعاملة، وقد قدم عساكره البلقاء ونزل هو حمص، فأرسل رسول الله ﷺ أصحابه إلى تبوك وهي من بلاد البلقاء، وبعث إلى القبائل حوله، وإلى مكة، وإلى من أسلم من خزاعة ومزينة وجهينة فحثهم على الجهاد، وأمر رسول الله ﷺ بعسكره فضرب في ثنية الوداع، وأمر أهل الجدة أن يعينوا من لا قوة به، ومن كان عنده

شيء أخرجه، وحملوا وقووا وحثوا على ذلك، وخطب رسول الله ﷺ وقال بعد حمد الله والثناء عليه: أيها الناس إن أصدق الحديث كتاب الله، وأولى القول كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عزائمها وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء، وأشرف القتلى الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتبع، وشر العمى عمى القلب واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة محضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا نزرا، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، وخير ما ألقي في القلب اليقين، والارتياب من الكفر، والتباعد من عمل الجاهلية، والغلول من قيح جهنم، والسكر جمر النار، والشعر من إبليس، والخمر جماع الإثم، والنساء حبائل إبليس، والشباب شعبة من الجنون، وشر المكاسب كسب الربا، وشر الأكل أكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر إلى آخره وملاك الأمر خواتيمه، وأربى الربا الكذب، وكلما هو آت قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتال المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن توكل على الله كفاه، ومن صبر ظفر، ومن يعف يعف الله عنه، ومن كظم الغيظ آجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله، ومن تبع السمعة يسمع الله به، ومن يصم يضاعف الله له، ومن يعص الله يعذبه، اللهم اغفر لي ولأمتي، اللهم اغفر لي ولأمتي أستغفر الله لي ولكم، قال: فرغب الناس في الجهاد لما سمعوا هذا من رسول الله، وقدمت القبائل من العرب ممن استنفرهم، وقعد عنه قوم من المنافقين وغيرهم، ولقي رسول الله ﷺ الجد بن قيس فقال له: يا أبا وهب ألا تنفر معنا في هذه الغزاة؟ لعلك إن تحتفد من بنات الأصفر فقال يا رسول الله: والله إن قومي ليعلمون أن ليس فيهم أشد عجبا بالنساء مني، وأخاف إن خرجت معك أن لا أصبر إذا رأيت بنات الأصفر، فلا تفتني وائذن لي أن أقيم، وقال للجماعة من قومه: لا تخرجوا في الحر، فقال ابنه: ترد على رسول الله وتقول له ما تقول، ثم تقول لقومك: لا تنفروا في الحر، والله لينزلن الله في هذا قرآنا يقرؤه الناس إلى يوم القيامة، فأنزل الله على رسوله ﷺ في ذلك: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي، أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ﴾، ثم قال الجد بن قيس: أيطمع محمد أن حرب

الروم مثل حرب غيرهم، لا يرجع من هؤلاء أحد أبدا.

• أقول: وقد روي هذه المعاني في روايات أخرى كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة.

٣٤. عفو الله عن النبي في إذنه للمنافقين قبل تبيّن الصادقين:

المقطع [٣٤] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٨٤»:

١. لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ ودلالته على عتاب النبي ﷺ]، خلاصته:

أ. بيان أن الآية مسوقة لإظهار ظهور نفاق المتخلفين وكذبهم، وأن العتاب فيها عتاب غير جدي، وهو من باب (إياك أعني واسمعي يا جارة) لبيان فضيحتهم.

ب. الرد على من زعم أن الآية تدل على صدور ذنب من النبي ﷺ، وبيان أن العفو لا يستلزم الذنب، وأن المباح قد يُسأل عنه إذا كان تركه أولى.

ج. إثبات أن إذن النبي ﷺ للمتخلفين كان هو الأصلح، لأنه سد باب الفتنة واختلاف الكلمة، وأن عدم الإذن كان سيفتح باب الفتنة.

د. توضيح أن النبي ﷺ كان يعرف المنافقين ويعلم بحالهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، فكيف يقال إنه احتاج إلى تبين حالهم.

هـ. الرد على من زعم أن العتاب في آية الأنفال كان للنبي في أخذ الفدية، وبيان أن العتاب كان للمؤمنين، وأن الآية تعاتب على أخذ الأسرى لا على الفدية.

و. بيان أن التهديد بالعذاب العظيم في آية الأنفال لا يتأتى إلا مع كون المهدد عليه من المعاصي المصطلحة، مما يؤيد أن الخطاب كان للمؤمنين لا للنبي.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في العيون، بإسناده عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى عليه السلام، فقال له: يا ابن رسول الله أليس من قولك: إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، فقال

له المأمون، فيما سأله، يا أبا الحسن فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾، قال الرضا عليه السلام: (ـ هذا مما نزل: إياك أعني واسمعي يا جارة، خاطب الله تعالى بذلك نبيه وأراد به أمته، وكذلك قوله عز وجل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾، قال: صدقت يا ابن رسول الله.

• أقول: ومضمون الرواية ينطبق على ما قدمناه في بيان الآية، دون ما ذكروه من كون إذنه ﷺ لهم في القعود من قبيل ترك الأولى فإنه لا يستقيم معه كون الآية من قبيل (إياك أعني واسمعي يا جارة)

ب. أخرج عبد الرزاق في المصنف؛ وابن جرير، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين، وأخذه من الأسارى، فأنزل الله: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ الآية.

• أقول: وقد تقدم الكلام على مضمون الرواية.

٣٥. المؤمنون لا يستأذنون في الجهاد بالمال والنفس:

المقطع [٣٥] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤ـ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٨٩»:

١. ﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى آخر الآيتين تذكر الآيتان أحد ما يعرف به المنافق ويتميز به من المؤمن وهو الاستيذان في التخلف عن الجهاد في سبيل الله.

٢. وقد بين الله سبحانه ذلك بأن الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر بحقيقة الإيمان لما يورثه هذا الإيمان من صفة التقوى، والمؤمن لما كان على تقوى من قبل الإيمان بالله واليوم الآخر كان على بصيرة من وجوب الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه، ولا يدعه ذلك أن يتثاقل عنه فيستأذن في القعود لكن المنافق لعدم الإيمان بالله واليوم الآخر فقد صفة التقوى فارتاب قلبه ولا يزال يتردد في ريبة فيحب التطرف، ويستأذن في التخلف والقعود عن الجهاد.

٣٦. المنافقون وكراهية الخروج للجهاد وتثبيط الله لهم:

المقطع [٣٦] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٨٩»:

١. ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ إلى آخر الآية:

أ. العدة الأهبة، والانبعاث، على ما في المجمع،، الانطلاق بسرعة في الأمر، والتثبيط التوقيف عن الأمر بالتزهيد فيه.

ب. والآية معطوفة على ما تقدم من قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ بحسب المعنى أي هم كاذبون في دعواهم عدم استطاعتهم الخروج بل ما كانوا يريدونه ولو أرادوه لأعدوا له عدة لأن من آثار من يريد أمرا من الأمور أن يتأهب له بما يناسبه من العدة والأهبة ولم يظهر منهم شيء من ذلك.

٢. ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي جزاء بنفاقهم وامتنانا عليك وعلى المؤمنين لئلا يفسدوا جمعكم، ويفرقوا كلمتكم بالتفتين وإلقاء الخلاف.

٣. ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أمر غير تشريعي لا ينافي الأمر التشريعي بالنفر والخروج، فقد أمرهم الله بلسان نبيه ﷺ بالنفر والخروج، وهو أمر تشريعي، وأمرهم من ناحية سريرتهم الفاسدة والريب المتردد في قلوبهم وسجاياهم الباطنية الخبيثة بالقعود، وهو أمر غير تشريعي، ولا تنافي بينهما.

٤. ولم ينسب قول: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ إلى نفسه تنزيها لنفسه عن الأمر بما لا يرتضيه وهناك أسباب متخللة آمرة بذلك كالشيطان والنفس، وإنما ينسب إليه تعالى بالواسطة لانطباق معنى الجزاء والامتنان على المؤمنين عليه، وليتوافق الأمران المتخالفان صورة في السياق أعني قوله: ﴿قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ الآية، وما بعدها قال: وتخلف عن رسول الله ﷺ أهل نيات، وبصائر لم يكن يلحقهم شك ولا ارتياب، ولكنهم قالوا: نلحق برسول الله ﷺ، منهم أبو خيثمة وكان قويا وكان له زوجتان وعريشان، وكانتا زوجتاه قد رشتا عريشتيه، وبردتا له الماء، وهيأتا له طعاما فأشرف على عريشتيه، فلما نظر إليهما قال: لا والله ما هذا بإنصاف، رسول

الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قد خرج في الفيح والريح، وقد حمل السلاح يجاهد في سبيل الله، وأبو خيثمة قوي قاعد في عريشه وامرأتين حسناوين، لا والله ما هذا بإنصاف، ثم أخذ ناقته فشد عليها رحله ولحق برسول الله ﷺ، فنظر الناس إلى راكب على الطريق، فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة فأقبل، وأخبر النبي بما كان منه فجزاه خيرا ودعا له، وكان أبو ذر تخلف عن رسول الله ثلاثة أيام، وذلك أن جمله كان أعجف، فلحق بعد ثلاثة أيام به ووقف عليه جمله في بعض الطريق، فتركه وحمل ثيابه على ظهره فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذر فقالوا: هو أبو ذر فقال رسول الله ﷺ: أدركوه فإنه عطشان فأدركوه بالماء، ووافى أبو ذر رسول الله ﷺ ومعه إداوة فيها ماء، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر معك ماء وعطشت؟ قال: نعم يا رسول الله، بأبي أنت وأمي انتهيت إلى صخرة عليها ماء السماء فذقته، فإذا هو عذب بارد فقلت: لا أشربه حتى يشرب رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر رحمك الله، تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، وتدخل الجنة وحدك، يسعد بك قوم من أهل العراق، يتولون غسلك وتجهيزك والصلاة عليك ودفنك، ثم قال: وقد كان تخلف عن رسول الله ﷺ قوم من المنافقين، وقوم من المؤمنين مستبصرين لم يعثر عليهم في نفاق: منهم كعب بن مالك الشاعر، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية الرافعي، فلما تاب الله عليهم قال كعب، ما كنت قط أقوى مني في ذلك الوقت الذي خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وما اجتمعت لي راحلتان قط إلا في ذلك اليوم، وكنت أقول: أخرج غدا بعد غد فإني مقوى، وتوانيت وثقلت بعد خروج النبي ﷺ أياما أدخل السوق، ولا أقضي حاجة فلقيت هلال بن أمية ومرارة بن الربيع، وقد كانا تخلفا أيضا فتوافقنا أن نبكر إلى السوق؛ فلم نقض حاجة فما زلنا نقول: نخرج غدا وبعد غد حتى بلغنا إقبال رسول الله ﷺ فندمنا، فلما وافى رسول الله ﷺ استقبلناه نهنئه السلامة، فسلمنا عليه فلم يرد علينا السلام وأعرض عنا، وسلمنا على إخواننا فلم يردوا علينا السلام، فبلغ ذلك أهلونا فقطعوا كلامنا؛ وكنا نحضر المسجد فلا يسلم علينا أحد ولا يكلمنا، فجاءت نساؤنا إلى رسول الله ﷺ فقلن: قد بلغنا سخطك على أزواجنا أفنعتزلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: لا تعتزلنهم ولكن لا يقربوكن، فلما رأى كعب بن مالك وصاحباه ما قد حل بهم قالوا: ما يقعدنا بالمدينة ولا يكلمنا رسول الله ﷺ ولا إخواننا ولا أهلونا؟ فهلموا نخرج إلى هذا الجبل، فلا نزال فيه حتى يتوب الله علينا أو نموت، فخرجوا إلى ذباب، جبل بالمدينة، فكانوا يصومون

وكان أهلوهم يأتونهم بالطعام، فيضعونه ناحية ثم يولون عنهم ولا يكلمونهم، فبقوا على هذا أياما كثيرة يبكون بالليل والنهار، ويدعون الله أن يغفر لهم فلما طال عليهم الأمر، قال لهم كعب: يا قوم قد سخط الله علينا ورسوله، وقد سخط علينا أهلونا، وإخواننا، قد سخطوا علينا فلا يكلمنا أحد، فلم لا يسخط بعضنا على بعض؟ فتفرقوا في الجبل، وحلفوا أن لا يكلم أحد منهم صاحبه حتى يموت، أو يتوب الله عليه فبقوا على ذلك ثلاثة أيام، وكل واحد منهم في ناحية من الجبل، لا يرى أحد منهم صاحبه ولا يكلمه، فلما كان في الليلة الثالثة، ورسول الله ﷺ في بيت أم سلمة، نزلت توبتهم على رسول الله ﷺ قوله: (لقد تاب الله بالنبي على المهاجرين والأنصار، الذين اتبعوه في ساعة العسرة) قال الصادق عليه السلام: هكذا نزلت وهو أبو ذر وأبو خيثمة وعمير بن وهب، الذين تخلفوا ثم لحقوا برسول الله ﷺ، ثم قال في هؤلاء الثلاثة: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ فقال العالم عليه السلام: إنما أنزل: على الثلاثة، الذين خالفوا ولو خلفوا لم يكن عليهم عيب ﴿حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ﴾ حيث لا يكلمهم رسول الله ﷺ، ولا إخوانهم ولا أهلوهم فضاقت عليهم المدينة، حتى خرجوا منها ﴿وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ حيث حلفوا أن لا يكلم بعضهم بعضا، فتفرقوا وتاب الله عليهم لما عرف من صدق نياتهم.

- أقول: وسيأتي الكلام في الآيتين وما ورد فيهما من الروايات.

ب. وفي تفسير العياشي، عن المغيرة قال: سمعته يقول: في قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ قال: يعني بالعدة النية يقول: (لو كان لهم نية لخرجوا)

- أقول: الرواية على ضعفها وإرسالها وإضمارها لا تنطبق على لفظ الآية والله أعلم.

٣٧. المنافقون سبب للخبال والفتنة:

المقطع [٣٧] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٧ـ٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٩٠»:

١. ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾:

أ. الآية الخبال هو الفساد واضطراب الرأي، والإيضاح: الإسراع في الشر، والخلال: البين!

والبغي هو الطلب فمعنى يبغونكم الفتنة أي يطلبون لكم أو فيكم الفتنة على ما قيل، والفتنة هي المحنة كالفرقة واختلاف الكلمة على ما يناسب الآية من معانيها، والسماع السريع الإجابة والقبول.

ب. والآية في مقام التعليل لقوله: ﴿وَلكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ امتنانا، ولذا جيء بالفصل من غير عطف، والمعنى ظاهر.

٢. ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كارِهُونَ﴾ أي أقسم لقد طلبوا المحنة واختلاف الكلمة وتفرق الجماعة من قبل هذه الغزوة، وهي غزوة تبوك، كما في غزوة أحد حين رجع عبد الله بن أبي بن سلول بثلث القوم وخذل النبي ﷺ، وقلبوا لك الأمور بدعوة الناس إلى الخلاف وتحريضهم على المعصية وخذلانهم عن الجهاد وبعث اليهود والمشركين على قتال المؤمنين والتجسس وغير ذلك حتى جاء الحق، وهو الحق الذي يجب أن يتبع، وظهر أمر الله، وهو الذي يريده من الدين، وهم كارهون لجميع ذلك.

٣. والآية تستشهد على الآية السابقة بذكر الأمثال كما يستدل على الأمر بمثله، وتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ خاصة بعد عمومه في الآية السابقة لاختصاص الأمر فيه بالنبي ﷺ أعني تقليب الأمور عليه بخلاف ما في الآية السابقة من خروجهم في الناس.

٣٨. المنافقون يطلبون الإذن لئلا يفتنوا وهم في الفتنة سقطوا:

المقطع [٣٨] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٠٥»:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ الآية الفتنة هاهنا، على ما يهدي إليه السياق، إما الإلقاء إلى ما يفتتن ويغر به، وإما الإلقاء في الفتنة والبلية الشاملة.

أ. والمراد على الأول: ائذن لي في القعود وعدم الخروج إلى الجهاد، ولا تلقني في الفتنة بتوصيف ما في هذه الغزوة من نفائس الغنائم ومشتهيات الأنفس فافتتن بها واضطر إلى الخروج.

ب. وعلى الثاني ائذن لي ولا تلقني إلى ما في هذه الغزوة من المحنة والمصيبة والبلية.

٢. فأجاب الله عن قولهم بقولهم: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ ومعناه أنهم يحترزون بحسب زعمهم عن فتنة مترقبة من قبل الخروج، وقد أخطئوا فإن الذي هم عليه من الكفر والنفاق وسوء السريرة، ومن

آثاره هذا القول الذي تفوهوا به هو بعينه فتنة سقطوا فيها فقد فتنهم الشيطان بالغرور، ووقعوا في مهلكة الكفر والضلال وفتنته.

٣. هذا حالهم في هذه النشأة الدنيوية وأما في الآخرة فإن جهنم لمحيطة بالكافرين على حذو إحاطة الفتنة بهم في الدنيا وسقوطهم فيها فقوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ كأنهما معا يفيدان معنى واحدا وهو أن هؤلاء واقعون في الفتنة والتهلكة أبدا في الدنيا والآخرة.

٤. ويمكن أن يفهم من قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ الإحاطة بالفعل دون الإحاطة الاستقبالية كما تهدي إليه الآيات الدالة على تجسم الأعمال.

٣٩. المنافقون يفرحون بالسيئة وتسوؤهم الحسنة:

المقطع [٣٩] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٠٦»:

١. ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ المراد بالحسنة والسيئة بقرينة السياق ما تتعقبه الحروب والمغازي لأهلها من حسنة الفتح والظفر والغنيمة والسبي، ومن سيئة القتل والجرح والهزيمة.

٢. ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ كناية عن الاحتراز عن الشر قبل وقوعه كأن أمرهم كان خارجا من أيديهم فأخذوه وقبضوا وتسلطوا عليه فلم يدعوه يفسد ويضيع.

٣. فمعنى الآية إن هؤلاء المنافقين هواهم عليك: إن غنمت وظفرت في وجهك هذا ساءهم ذلك، وإن قتلت أو جرحت أو أصبت بأي مصيبة أخرى قالوا قد احترزنا عن الشر من قبل وتولوا وهم فرحون.

٤. وقد أجاب الله سبحانه عن ذلك بجوابين اثنين في آيتين: قوله: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا﴾ الآية وقوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ الآية.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ الآية، أما الحسنة فهي الغنيمة والعافية، وأما المصيبة فالبلاء والشدة.

ب. أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة، يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء، ويقولون: إن محمدا وأصحابه قد جهدوا في سفرهم، وهلكوا فبلغهم تكذيب حديثهم، وعافية النبي ﷺ وأصحابه، فساءهم ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ الآية.

٤٠. المؤمنون يتوكلون على الله ولا يصيبهم إلا ما كتبه لهم:

المقطع [٤٠] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٠٦»:

١. ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾:

أ. محصله أن ولاية أمرنا إنما هي لله سبحانه فحسب، على ما يدل عليه قوله: ﴿هُوَ مَوْلانا﴾ من الحصر، لا إلى أنفسنا ولا إلى شيء من هذه الأسباب الظاهرة، بل حقيقة الأمر لله وحده وقد كتب كتابة حتم ما سيصيبنا من خير أو شر أو حسنة أو سيئة، وإذا كان كذلك فعلينا امتثال أمره والسعي لإحياء أمره والجهاد في سبيله ولله المشية فيما يصيبنا في ذلك من حسنة أو سيئة فما على العبيد إلا ترك التدبير وامتثال الأمر وهو التوكل.

ب. وبذلك يظهر: أن المراد بقوله: ﴿وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ليس كلاما مستأنفا بل معطوف على ما قبله متمم له، والمعنى أن ولاية أمرنا لله ونحن مؤمنون به، ولازمه أن نتوكل عليه ونرجع الأمر إليه من غير أن نختار لأنفسنا شيئا من الحسنة والسيئة فلو أصابتنا حسنة كان المن له وإن أصابتنا سيئة كانت المشية والخيرة له، ولا لوم علينا ولا شماتة تتعلق بنا، ولا حزن ولا مساءة يطرأ على قلوبنا.

ج. وقد قال تعالى: ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وقال: ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله وَمَنْ يُؤْمِنْ بِالله يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] وقال: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سورة [محمد: ١١]، وقال: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال: ﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩]

٢. والآيات، كما ترى، تتضمن أصول هذه الحقيقة التي تنبئ عنه الآية التي نتكلم فيها جوابا عن وهم المنافقين، وهي أن حقيقة الولاية لله سبحانه ليس إلى أحد من دونه من الأمر شيء فإذا آمن الإنسان

به وعرف مقام ربه علم ذلك وكان عليه أن يتوكل على ربه ويرجع إليه حقيقة المشية والخيرة فلا يفرح بحسنة أصابته، ولا يحزن لسيئة أصابته.

٣. ومن الجهل أن يسوء الإنسان ما أصابت عدوه من حسنة أو يسره ما أصابته من سيئة فليس له من الأمر شيء، وهذا هو الجواب الأول عن مساءتهم بما أصاب المؤمنين من الحسنة وفرحهم بما أصابتهم من السيئة.

٤. وظاهر كلام بعض المفسرين أن المولى في الآية بمعنى الناصر، وكذا ظاهر كلام بعضهم: أن قوله: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ جملة مستأنفة أمر الله فيها المؤمنين بالتوكل عليه، والسياق المشهود من الآيتين لا يساعد عليه.

٤١. ترقب المؤمنين أحد الحسنيين وترقب الكافرين العذاب:

المقطع [٤١] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢] لل ببب، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٠٧»:

١. ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ الآية:

أ. الحسنيان هما الحسنة والسيئة على ما يدل عليه الآية الأولى الحاكية أنهم يسوؤهم ما أصاب النبي ﷺ من حسنة، وتسرهم ما أصابه من سيئة فيقولون قد أخذنا أمرنا من قبل فهم على حال تربص ينتظرون ما يقع به وبالمؤمنين من الحسنة أو السيئة.

ب. والحسنة والسيئة كلتاهما حسنيان بحسب النظر الديني فإن في الحسنة حسنة الدنيا وعظيم الأجر عند الله، وفي السيئة التي هي الشهادة أو أي تعب وعناء أصابهم مرضاة الله وثواب خالد دائم.

ج. ومعنى الآية أنا نحن وأنتم كل يتربص بصاحبه غير أنكم تتربصون بنا إحدى خصلتين كل واحدة منهما خصلة حسنى وهما: الغلبة على العدو مع الغنيمة، والشهادة في سبيل الله، ونحن نتربص بكم أن يعذبكم الله بعذاب من عنده كالعذاب السماوي أو بعذاب يجري بأيدينا كأن يأمرنا بقتالكم وتطهير الأرض من قذارة وجودكم فنحن فائزون على أي حال، إن وقع شيء مما تربصتم سعدنا، وإن وقع ما تربصنا سعدنا فتربصوا إنا معكم متربصون، وهذا جواب ثان عن المنافقين.

د. وقد ذكر في الآية الأولى إصابة الحسنة والسيئة النبي ﷺ، وفي مقام الجواب في الآيتين الثانية والثالثة إصابتهما النبي والمؤمنين جميعا لملازمتهم إياه ومشاركتهم إياه فيما أصابه من حسنة أو سيئة.

٢. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: قول الله عز وجل ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ قال: إما موت في طاعة الإمام أو إدراك ظهور إمام ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ مع ما نحن فيه من المشقة ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قال: هو المسخ ﴿أَوْ بِأَيْدِينا﴾ وهو القتل، قال الله عز وجل لنبيه: ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾

• أقول: وهو من الجري دون التفسير.

٤٢. نفقات المنافقين لا تقبل لكفرهم وإتيانهم الصلاة كسالى:

المقطع [٤٢] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٣-٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٠٨»:

١. ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ﴾:

أ. لفظ أمر في معنى الشرط، والترديد للتعميم ولفظ الأمر في هذه الموارد كناية عن عدم النهي وسد السبيل إيماء إلى أن الفعل لغو لا يترتب عليه أثر، وقوله: ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ تعليل للأمر كما أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ﴾ تعليل لعدم القبول.

ب. ومعنى الآية: لا نمنعكم عن الإنفاق في حال من طوع أو كره فإنه لغو غير مقبول لأنكم فاسقون، ولا يقبل عمل الفاسقين، قال تعالى: ﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] والتقبل أبلغ من القبول.

٢. ﴿وما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ الآية الآية تعليل تفصيلي لعدم تقبل نفقاتهم، وبعبارة أخرى بمنزلة الشرح لفسقهم، وقد عدت الكفر بالله تعالى ورسوله والكسل في إقامة الصلاة والكره في الإنفاق أركانا لنفاقهم.

٣. أحاديث وآثار: في المحاسن، بإسناده عن يوسف بن ثابت عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا

يضر مع الإيمان عمل، ولا ينفع مع الكفر عمل، ثم قال: ألا ترى أن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ﴾

• أقول: ورواه العياشي والقمي عنه وكذا الكليني في الكافي، عنه في حديث مفصل والرواية تبينها آيات وروايات أخرى فالإيمان ما دام باقيا لا يضره معصية بإيجاب خلود النار، والكفر ما دام كفرا لا ينفع معه حسنة.

٤٣. أموال المنافقين وأولادهم سبب للعذاب:

المقطع [٤٣] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٠٨»:

١. ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها﴾ إلى آخر الآية:

أ. الإعجاب بالشيء السرور بما يشاهد فيه من جمال أو كمال أو نحوهما، والزهوق خروج الشيء بصعوبة وأصله الهلاك على ما قيل.

ب. وقد نهى الله سبحانه نبيه ﷺ عن الإعجاب بأموال المنافقين وأولادهم أي بكثرتها على ما يعطيه السياق، وعلل ذلك بأن هذه الأموال والأولاد، وهي شاغلة للإنسان لا محالة، ليست من النعمة التي تهتف لهم بالسعادة بل من النقمة التي تجرهم إلى الشقاء فإن الله وهو الذي خولهم إياها إنما أراد بها تعذيبهم في الحياة الدنيا، وتوفيهم وهم كافرون، فإن الحياة التي يعدها الموجود الحي سعادة لنفسه وراحة لذاته إنما تكون سعادة فيها الراحة والبهجة إذا جرت على حقيقة مجراها وهو أن يتلبس الإنسان بواقع آثارها من العلم النافع والعمل الصالح من غير أن يشتغل بغير ما فيه خيره ونفعه، فهذه هي الحياة التي لا موت فيها، والراحة التي لا تعب معها، واللذة التي لا ألم دونها، وهي الحياة في ولاية الله، قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]

٢. وأما من اشتغل بالدنيا وجذبته زيناتها من مال وبنين إلى نفسها وغرته الآمال والأماني الكاذبة التي تتراءى له منها واستهوته الشياطين فقد وقع في تناقضات القوى البدنية وتزاحمات اللذائذ المادية، وعذب أشد العذاب بنفس ما يرى فيه سعادته ولذته فمن المشاهد المعاين أن الدنيا كلما زادت إقبالا على

الإنسان، ومتعته بكثرة الأموال والأولاد أبعدته عن موقف العبودية وقربته إلى الهلاكة وعذاب الروح فلا يزال يتقلب بين هذه الأسباب الموافقة والمخالفة، والأوضاع والأحوال الملائمة والمزاحمة، فالذي يسميه هؤلاء المغفلون سعة العيش هو بالحقيقة ضنك كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى، قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً، قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى﴾ [طه: ١٢٦]

٣. فغاية إعراض الإنسان عن ذكر ربه، وانكبابه على الدنيا يبتغي به سعادة الحياة وراحة النفس ولذة الروح أن يعذب بين أطباق هذه الفتن التي يراها نعما، ويكفر بربه بالخروج عن زي العبودية كما قال: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ﴾ وهو الإملاء والاستدراج الذين يذكرهما في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]

٤٤. المنافقون والحلف الكاذب والخوف:

المقطع [٤٤] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦ـ٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٠٩»:

١. ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ﴾ إلى آخر الآيتين، الفرق انزعاج النفس من ضرر متوقع، والملجأ الموضع الذي يلتجأ إليه ويتحصن فيه، والمغار المحل الذي يغور فيه الإنسان فيستره عن الأنظار، ويطلق على الغار وهو الثقب الذي يكون في الجبال، والمدخل من الافتعال الطريق الذي يتدسس بالدخول فيه، والجماح مضي المار مسرعا على وجهه لا يصرفه عنه شيء، والمعنى ظاهر.

٤٥. المنافقون يلمزون النبي في قسمة الصدقات:

المقطع [٤٥] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ راغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٨ـ٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٠٩»:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ﴾ ﴿يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ

﴿يَسْخَطُونَ﴾ اللمز العيب، وإنما كانوا يعيبونه فيها إذا لم يعطهم منها لعدم استحقاقهم ذلك أو لأسباب أخر كما يدل عليه ذيل الآية.

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ إلى آخر الآية، ﴿لَوْ﴾ للتمني وقوله: ﴿رَضُوا ما آتاهُمُ اللهُ﴾ كأن الرضى ضمن معنى الأخذ ولذا عدي بنفسه أي أخذوا ذلك راضين به أو رضوا آخذين ذلك، والإيتاء الإعطاء، وحسبنا الله أي كفانا فيما نرغب إليه ونأمله.

٣. ﴿سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾:

أ. بيان لما يرغب إليه ويطمع فيه وليس إخبارا عما سيكون، وقوله: ﴿إِنَّا إِلَى اللهِ راغِبُونَ﴾ كالتعليل لقوله: ﴿سَيُؤْتِينَا اللهُ﴾ إلى آخر الآية.

ب. والمعنى وكان مما يتمنى لهم أن يكونوا أخذوا ما أعطاهم الله ورسوله بأمر منه من مال الصدقات أو غيره، وقالوا كفانا الله سبحانه من سائر الأسباب ونحن راغبون في فضله ونطمع أن يؤتينا من فضله ويؤتينا رسوله.

ج. وفي الآية ما لا يخفى من لطيف البيان حيث نسب الإيتاء إلى الله وإلى رسوله وخص الكفاية والفضل والرغبة بالله على ما هو لازم دين التوحيد.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن إسحاق بن غالب قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا إسحاق كم ترى أهل هذه الآية: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾) قال: هم أكثر من ثلثي الناس.

• أقول: ورواه العياشي في تفسيره والحسين بن سعيد في كتاب الزهد عن إسحاق عنه عليه السلام.

ب. أخرج البخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: بينما النبي ﷺ يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي، فقال: اعدل، يا رسول الله فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ دعه، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه، مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نضيه فلا يرى فيه شيء،

ثم ينظر في رصافه فلا يرى فيه شيء، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود إحدى ثديه، أو قال: ثدييه، مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدر در يخرجون على حين فرقة من الناس، قال: فنزلت فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ﴾ الآية، قال أبو سعيد: أشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن عليا حين قتلهم، وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ.

ج. وفي تفسير القمي: في الآية: أنها نزلت لما جاءت الصدقات، وجاء الأغنياء وظنوا أن الرسول يقسمها بينهم، فلما وضعها رسول الله ﷺ في الفقراء، تغامزوا رسول الله ﷺ ولمزوه، وقالوا: نحن الذين نقوم في الحرب ونغزو معه ونقوي أمره، ثم يدفع الصدقات إلى هؤلاء الذين لا يعينونه ولا يغنون عنه شيئا، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَقالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ، إِنَّا إِلَى اللهِ راغِبُونَ﴾، ثم فسر الله عز وجل الصدقات لمن هي وعلى من يجب؟ فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ، وَالْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقابِ وَالْغارِمِينَ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فأخرج الله من الصدقات جميع الناس، إلا هذه الثمانية الأصناف الذين سماهم، وبين الصادق عليه السلام من هم؟ فقال: الفقراء هم الذين لا يسألون وعليهم مئونات من عيالهم، والدليل على أنهم لا يسألون قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً﴾، والمساكين هم أهل الزمانة من العميان والعرجان والمجذومين، وجميع أصناف الزمنى من الرجال والنساء والصبيان، والعاملين عليها هم السعاة والجباة في أخذها وجمعها وحفظها، حتى يؤديها إلى من يقسمها، والمؤلفة قلوبهم قوم وحدوا الله ولم يدخل المعرفة قلوبهم، أن محمدا رسول الله فكان رسول الله ﷺ يتألفهم ويعلمهم، كيما يعرفوا فجعل الله لهم نصيبا في الصدقات كي يعرفوا ويرغبوا.

• أقول: وقد وردت في تأييد هذا الذي أرسله من الرواية روايات كثيرة مسندة من طرق أهل البيت عليه السلام، وفي بعض الروايات تعارض ما، وليرجع في تفصيل الروايات على كثرتها وتنقيح المطلب إلى جوامع الحديث وكتب الفقه.

د. أخرج البخاري وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: بعث علي بن أبي طالب

من اليمن إلى النبي ﷺ، بذهبية فيها تربتها فقسمها بين أربعة من المؤلفة: الأقرع بن حابس الحنظلي وعلقمة بن علاثة العامري، وعيينة بن بدر الفزاري وزيد الخيل الطائي، فقالت قريش والأنصار: أتقسم بين صناديد أهل نجد وتدعنا؟ فقال النبي ﷺ: إنما أتألفهم.

هـ. أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن يحيى بن أبي كثير قال: المؤلفة قلوبهم من بني هاشم، أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب، ومن بني مخزوم الحارث بن هشام وعبد الرحمن بن يربوع، ومن بني أسد حكيم بن حزام، ومن بني عامر سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى، ومن بني جمح صفوان بن أمية، ومن بني سهم عدي بن قيس، ومن ثقيف العلاء بن جارية أو حارثة، ومن بني فزارة عيينة بن حصن، ومن بني تميم الأقرع بن حابس، ومن بني نصر مالك بن عوف، ومن بني سليم العباس بن مرداس، أعطى النبي ﷺ كل رجل منهم مائة ناقة، إلا عبد الرحمن بن يربوع وحويطب بن عبد العزى، فإنه أعطى كل واحد منهما خمسين.

و. وفي تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: المؤلفة قلوبهم: أبو سفيان بن حرب بن أمية، وسهيل بن عمرو وهو من بني عامر بن لؤي، وهشام ابن عمرو أخوه: أخو بني عامر بن لؤي، وصفوان بن أمية بن خلف القرشي، ثم الجمحي، والأقرع بن حابس التميمي أحد بني حازم، وعيينة بن حصن الفزاري ومالك بن عوف وعلقمة بن علاثة، بلغني أن رسول الله ﷺ كان يعطي الرجل منهم مائة من الإبل، ورعاتها وأكثر من ذلك وأقل.

• أقول: وهؤلاء هم المؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم النبي ﷺ تأليفا لقلوبهم، وليس المراد حصر المؤلفة قلوبهم وهم صنف من الأصناف الثمانية المذكور في الآية في هؤلاء الأشخاص بأعيانهم.

٤٦. مصارف الصدقات:

المقطع [٤٦] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣١٠»:

١. ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الآية:

أ. بيان لموارد تصرف إليها الصدقات الواجبة وهي الزكوات بدليل قوله في آخر الآية: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللهِ﴾ وهي ثمانية، وارد على ظاهر ما يعطيه سياق الآية ولازمه أن يكون الفقير والمسكين موردين أحدهما غير الآخر.

ب. وقد اختلفوا في الفقير والمسكين أنهما صنف واحد أو صنفان، ثم على الثاني في معناهما على أقوال كثيرة لا ينتهي أكثرها إلى حجة بينة، والذي يعطيه ظاهر لفظهما أن الفقير هو الذي اتصف بالعدم وفقدان ما يرفع حوائجه الحيوية من المال قبال الغني الذي اتصف بالغنى وهو الجدة واليسار، وأما المسكين فهو الذي حلت به المسكنة والذلة مضافة إلى فقدان المال وذلك إنما يكون بأن يصل فقره إلى حد يستذله بذلك كمن لا يجد بدا من أن يبذل ماء وجهه ويسأل كل كريم ولئيم من شدة الفقر وكالأعمى والأعرج فالمسكين أسوأ حالا من الفقير.

ج. والفقير والمسكين وإن كانا بحسب النسبة أعم وأخص فكل مسكين من جهة الحاجة المالية فقير ولا عكس غير أن العرف يراهما صنفين متقابلين لمكان مغايرة الوصفين في نفسهما فلا يرد أن ذكر الفقير على هذا المعنى مغن عن ذكر المسكين لمكان أعميته وذلك أن المسكنة هي وصف الذلة كالزمانة والعرج والعمى وإن كان بعض مصاديقه نهاية الذلة من جهة فقد المال.

د. وأما العاملون عليها أي على الصدقات فهم الساعون لجمع الزكوات وجباتها.

هـ. وأما المؤلفة قلوبهم فهم الذين يؤلف قلوبهم بإعطاء سهم من الزكاة ليسلموا أو يدفع بهم العدو أو يستعان بهم على حوائج الدين.

و. وأما قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فهو متعلق بمقدر والتقدير: والمصرف في الرقاب أي في فكها كما في المكاتب الذي لا يقدر على تأدية ما شرطه لمولاه على نفسه لعتقه أو الرق الذي كان في شدة.

ز. ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ أي وللصرف في الغارمين الذين ركبتهم الديون فيقضى ديونهم بسهم من الزكاة.

ح. ﴿وَفِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي وللصرف في سبيل الله، وهو كل عمل عام يعود عائدته إلى الإسلام والمسلمين وتحفظ به مصلحة الدين ومن أظهر مصاديقه الجهاد في سبيل الله، ويلحق به سائر الأعمال التي تعم نفعه وتشمل فائدته كإصلاح الطرق وبناء القناطر ونظائر ذلك.

ط. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي وللصرف في ابن السبيل وهو المنقطع عن وطنه الفاقد لما يعيش به وإن كان غنيا ذا يسار في بلده فيرفع حاجته بسهم من الزكاة.

٢. وقد اختلف سياق العد فيما ذكر في الآية من الأصناف الثمانية:

أ. فذكرت الأربعة الأول باللام: ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَساكِينِ وَالْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ثم غير السياق في الأربعة الباقية فقيل: ﴿وَفِي الرِّقابِ وَالْغارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فإن ظاهر السياق الخاص بهذه الأربعة أن التقدير: وفي الرقاب وفي الغارمين وفي سبيل الله وفي ابن السبيل.

ب. أما الأربعة الأول: ﴿لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ وَالْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ فاللام فيها للملك بمعنى الاختصاص في التصرف فإن الآية بحسب السياق كالجواب عن المنافقين الذين كانوا يطمعون في الصدقات وهم غير مستحقين لها وكانوا يلمزون النبي ﷺ في حرمانهم منها فأجيبوا بالآية أن للصدقات مواضع خاصة تصرف فيها ولا تتعداها، والآية ليست بظاهرة في أزيد من هذا المقدار من الاختصاص، وأما كون ملكهم للصدقات هو الملك بمعناه المعروف فقها؟ وكذا حقيقة هذا الملك مع كون المالكين أصنافا بعناوينهم الصنفية لا ذوات شخصية؟ ونسبة سهم كل صنف إلى بقية السهام؟ فإنما هي مسائل فقهية خارجة عن غرضنا، وقد اختلفت أقوال الفقهاء فيها اختلافا شديدا فليرجع إلى الفقه.

ج. وأما الأربعة الباقية: ﴿وَفِي الرِّقابِ وَالْغارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فقد قيل في تغيير السياق فيها وفي تأخيرها عن الأربعة الأول وجوه:

• منها: أن الترتيب لبيان الأحق فالأحق من الأصناف، فأحق الأصناف بها الفقراء ثم المساكين وهكذا على الترتيب، ولكون الأربعة الأخيرة بحسب ترتيب الأحقية واقعة في المراتب الأربع الأخيرة وضع كل في موضعه الخاص، ولو لا هذا الترتيب لكان الأنسب أن يذكر الأصناف ثم تذكر موارد المصالح فيقال: للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وابن السبيل ثم يقال: وفي الرقاب وسبيل الله، والحق أن دلالة الترتيب بما فيه من التقديم والتأخير على أهمية الملاك وقوة المصلحة في أجزاء الترتيب لا ريب فيه فإن كان مراده بالأحق فالأحق الأهم ملاكا فالأهم فهو، ولو كان المراد التقدم والتأخر من حيث الإعطاء والصرف وما يشبه ذلك فلا دلالة من جهة اللفظ عليه البتة كما لا يخفى والذي أيده به من الوجه لا جدوى فيه.

• ومنها: أن العدول عن اللام في الأربعة الأخيرة إلى ﴿فِي﴾ للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره لأن ﴿فِي﴾ للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصبا، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق والأسر، وفي فك الغارمين من الغرم والتخليص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارميكذا ذكره في الكشاف، وفيه: أنه معارض بكون الأربعة الأول مدخولة للام الملك فإن المملوك أشد لزوما واتصالا بالنسبة إلى مالكه من المظروف بالنسبة إلى ظرفه، وهو ظاهر.

• ومنها: أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم، وإنما يأخذونه ملكا فكان دخول اللام لائقا بهم، وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم بل ولا يصرف إليهم ولكن في مصالح تتعلق بهم، فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون فليس نصيبهم مصروفا إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم، وإنما هم محال لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به، وكذلك الغارمون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصا لذممهم لا لهم، وأما سبيل الله فواضح ذلك فيه، وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجا في سبيل الله، وإنما أفرد بالذكر تنبيها على خصوصيته مع أنه مجرد من الحرفين جميعا وعطفه على المجرور باللام ممكن ولكنه على القريب منه أقرب، وهذا الوجه لا يخلو عن وجه غير أن إجراءه في ابن السبيل لا يخلو عن تكلف، وما ذكر من دخوله في سبيل الله هو وجه مشترك بينه وبين غيره، ولو قال قائل بكون الغارمين وابن السبيل معطوفين على المجرور باللام ثم ذكر الوجه الأول بالمعنى الذي ذكرناه وجها للترتيب والوجه الأخير وجها لاختصاص الرقاب وسبيل الله بدخول ﴿فِي﴾ لم يكن بعيدا عن الصواب.

د. وقوله في ذيل الآية: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إشارة إلى كون الزكاة فريضة واجبة مشرعة على العلم والحكمة لا تقبل تغيير المغير، ولا يبعد أن يتعلق الفرض بتقسمها إلى الأصناف الثمانية كما ربما يؤيده السياق فإن الغرض في الآية إنما تعلق ببيان مصارف الصدقات لا بفرض أصلها فالأنسب أن يكون قوله: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللهِ﴾ إشارة إلى أن تقسمها إلى الأصناف الثمانية أمر مفروض من الله لا يتعدى عنه على خلاف ما كان يطمع فيه المنافقون في لمزهم النبي ﷺ.

هـ. ومن هنا يظهر أن الآية لا تخلو عن إشعار بكون الأصناف الثمانية على سهمها من غير اختصاص بزمان دون زمان خلافا لما ذكره بعضهم: أن المؤلفة قلوبهم كانوا جماعة من الأشراف في زمن النبي ﷺ ألف قلوبهم بإعطاء سهم من الصدقات إياهم، وأما بعده ﷺ فقد ظهر الإسلام على غيره، وارتفعت الحاجة إلى هذا النوع من التأليفات، وهو وجه فاسد وارتفاع الحاجة ممنوع.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن ابن إسحاق عن بعض أصحابنا عن الصادق عليه السلام قال: سئل عن مكاتب عجز عن مكاتبته وقد أدى بعضها، قال: يؤدى من مال الصدقة إن الله يقول في كتابه: ﴿وَفِي الرِّقابِ﴾

ب. وفيه، عن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: عبد زنى؟ قال: يجلد نصف الحد، قال: قلت: فإن هو عاد؟ قال: يضرب مثل ذلك، قال: قلت: فإن هو عاد؟ قال: لا يزاد على نصف الحد، قال: قلت: فهل يجب عليه الرجم في شيء من فعله؟ قال: نعم يقتل في الثامنة إن فعل ذلك ثمان مرات، قال: قلت: فما الفرق بينه وبين الحر وإنما فعلهما واحد؟ فقال له: إن الله رحمه أن يجمع عليه ربق الرق وحد الحر، قال: ثم قال: وعلى إمام المسلمين أن يدفع ثمنه إلى مولاه من سهم الرقاب.

ج. وفيه، عن الصباح بن سيابة قال: أيما مسلم مات وترك دينا لم يكن في فساد وعلى إسراف، فعلى الإمام أن يقضيه فإن لم يقض فعليه إثم ذلك، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ وَالْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقابِ وَالْغارِمِينَ﴾ فهو من الغارمين وله سهم عند الإمام فإن حبسه فإثمه عليه.

د. وفيه، عن محمد بن القسري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الصدقة فقال: اقسمها فيمن قال الله، ولا يعطي من سهم الغارمين، الذين يغرمون في مهور النساء، ولا الذين ينادون نداء الجاهلية قال: قلت: وما نداء الجاهلية؟ قال: الرجل يقول: يا آل بني فلان فيقع بينهم القتل، ولا يؤدى ذلك من سهم الغارمين، ولا الذين لا يبالون ما صنعوا بأموال الناس.

هـ. وفيه، عن الحسن بن محمد قال: قلت: لأبي عبد الله عليه السلام، إن رجلا أوصى لي في السبيل قال: فقال لي: اصرف في الحج قال: قلت: إنه أوصى في السبيل! قال: اصرفه في الحج فإني لا أعلم سبيلا

من سبله أفضل من الحج.

• أقول: والروايات في الباب أكثر من أن تحصى، وإنما أوردنا منها ما يجري مجرى الأنموذج.

٤٧. المنافقون وإذية النبي وادعاء أنه أذن:

المقطع [٤٧] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣١٤»:

١. ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾:

أ. الأذن جارحة السمع المعروفة، وقد أطلقوا عليه ﷺ الأذن وسموه بها إشارة إلى أنه يصغي لكل ما قيل له ويستمع إلى كل ما يذكر له فهو أذن.

ب. ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ من الإضافة الحقيقية أي سماع يسمع ما فيه خيركم حيث يسمع من الله سبحانه الوحي وفيه خير لكم، ويسمع من المؤمنين النصيحة وفيها خير لكم ويمكن أن يكون من إضافة الموصوف إلى الصفة أي أذن هي خير لكم لأنه لا يسمع إلا ما ينفعكم ولا يضركم.

ج. والفرق بين الوجهين أن اللازم على الأول أن يكون مسموعه خيرا لهم كالوحي من الله والنصيحة من المؤمنين، واللازم على الثاني أن يكون استماعه استماع خير وإن لم يكن مسموعه خيرا كأن يستمع إلى بعض ما ليس خيرا لهم لكنه يستمع إليه فيحترم بذلك قائله ثم يحمل ذلك القول منه على الصحة فلا يهتك حرمته ولا يسيء الظن به ثم لا يرتب أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه فلا يؤاخذ من قيل فيه بما قيل فيه فيكون قد احترم إيمانه كما احترم إيمان القائل الذي جاءه بالخبر.

د. ومن هنا يظهر أن الأنسب بسياق الآية هو الوجه الثاني لما عقبه بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، وذلك أن الإيمان هو التصديق، وقد ذكر متعلق الإيمان في قوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ وأما قوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يذكر متعلقه وإنما ذكر أن هذا التصديق لنفع المؤمنين لمكان اللام، والتصديق الذي يكون فيه نفع المؤمنين حتى في الخبر الذي يتضمن ما يضرهم إنما هو التصديق بمعنى إعطاء الصدق المخبري دون الخبري أي فرض أن المخبر صادق بمعنى أنه معتقد بصدق خبره وإن كان

كاذبا لا يطابق الواقع.

هـ. وهذا كما في قوله تعالى: ﴿إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] فالله سبحانه يكذب المنافقين لا من حيث خبرهم برسالة النبي ﷺ بل من حيث إخبارهم بخلاف ما يعتقدونه وهذا بخلاف قول المؤمنين فيما حكى الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢] فهم يصدقون الله ورسوله في الخبر لا في الاعتقاد.

و. وبالجملة ظاهر قوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إنه يصدق الله فيما أخبره به من الوحي، ويصدق لنفع المؤمنين كل من ألقى إليه منهم خبرا بحمل فعله على الصحة وعدم رميه بالكذب وسوء النية من غير أن يرتب أثرا على كل ما يسمعه ويستمع إليه وإلا لم يكن تصديقه لنفع المؤمنين واختل الأمر، وهذا المعنى كما ترى يؤيد الوجه الثاني المذكور، وكأن المراد بالمؤمنين المجتمع المنسوب إليهم وإن اشتمل على أفراد من غيرهم كالمنافقين وعلى هذا كان المراد بالذين آمنوا منهم المؤمنون من قومهم حقا فمعنى الكلام أنه يصدق ربه ويصدق كل فرد من أفراد مجتمعكم احتراما لظاهر حاله من الانتساب إلى المؤمنين وهو رحمة للذين آمنوا منكم حقا لأنه يهديهم إلى مستقيم الصراط.

ز. وإن كان المراد من الذين آمنوا هم الذين آمنوا في أول البعثة قبل الفتح، كما تقدم سابقا أن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اسم تشريفي في القرآن للمؤمنين الأولين في الإسلام، كان المراد بالمؤمنين في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المؤمنون منهم حقا كما أطلق بهذا المعنى في قوله: ﴿وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢]

ح. وربما قيل: إن اللام في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتعدية كما في قوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ فالإيمان يتعدى بالحرفين جميعا كما في قوله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦] وقوله: ﴿فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ [يونس: ٨٣] وقوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]

ط. وربما قيل: إن اللفظ جار على طريقة التضمين بتضمين الإيمان معنى الجنوح المتعدي باللام والمعنى يجنح للمؤمنين مؤمنا بهم أو يؤمن جانحا لهم.

ي. والوجهان وإن كانا لا بأس بهما في نفسهما لكن يبعد ذلك لزوم التفكيك في قوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ

﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بين ﴿يُؤْمِنُ﴾ الأول والثاني من غير نكتة ظاهرة إلا أن يحمل على التفنن في التعبير ومع ذلك فالنتيجة هي النتيجة السابقة فإن إيمانه بالمؤمنين لا يختص بالمخبرين خاصة حتى يصدق خبرهم ويؤاخذ آخرين إذا أخبر بما يضرهم بل إيمان يعم جميع المؤمنين فيصدق المخبر في خبره بمعنى إعطاء الصدق المخبري ويصدق المخبر عنه بحمل فعله على الصحة فافهم ذلك.

ك. وعده تعالى نبيه في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ رحمة لقوم خاص في هذه الآية مع عده رحمة للناس كلهم في قوله عز وجل: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] إنما هو لاختلاف المراد بالرحمة في الآيتين فالمراد بها هاهنا الرحمة الفعلية وهناك الرحمة الشأنية.

ل. وبعبارة أخرى هو ﷺ رحمة لمن آمن به حقا بمعنى أن الله سبحانه أنقذه به من الضلالة وختم له بالسعادة والكرامة، ورحمة للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم، من معاصريه وممن يأتي بعده بمعنى أن الله بعثه ﷺ بملة بيضاء وسنة طيبة فحول المجتمع البشري وصرفه عن مسيره المنحرف عن الاستقامة إلى طريق الشقاوة والهلاك، وأنار بمشعلته صراط الفطرة الإلهية فمن راكب على السبيل فائز بالغاية المطلوبة، ومن خارج عن مسير الردى والهلكة ولما يركب متن الصراط الفطري، ومن قاصد للخروج والورود ولما يخرج وهذا حال المجتمع العام البشري بعد طلوع الإسلام وبسطة معارفه بين الناس وإيصاله إلى سمع كل سامع وتأثيره في كل من السنن الاجتماعية بما في وسعه أن يتأثر به، وهذا مما لا يرتاب فيه باحث عن طبيعة المجتمع الإنساني، وهذا الوجه قريب المأخذ من الوجه السابق أو راجع إليه بالحقيقة.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور: في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَ﴾ الآية: أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيسمع، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو الذي قال لهم: إنما محمد أذن من حدثه شيئا صدقه، فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الآية.

ب. وفي تفسير القمي: في الآية قال: سبب نزولها، أن عبد الله بن نبتل كان منافقا وكان يقعد إلى رسول الله ﷺ، فيسمع كلامه وينقله إلى المنافقين فينم عليه، فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إن رجلا من المنافقين ينم وينقل حديثك إلى المنافقين، فقال رسول الله ﷺ: من هو؟ قال: الرجل الأسود

الوجه الكثير شعر الرأس، ينظر بعينين كأنهما قدران، وينطق بلسان شيطان، فدعاه رسول الله ﷺ فأخبره فحلف أنه لم يفعل، فقال رسول الله ﷺ: قد قبلت منك فلا تفعل فرجع إلى أصحابه، فقال: إن محمدا أذن، أخبره الله أني أنم عليه وأنقل أخباره فقبله، وأخبرته أني لم أقل ولم أفعل فقبله!، فأنزل الله على نبيه: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدق الله فيما يقول له، ويصدقكم فيما تعتذرون إليه ولا يصدقكم في الباطن، ويؤمن للمؤمنين يعني المقرين بالإيمان من غير اعتقاد.

• أقول: وروي ما يقرب منه في نهج البيان، عن الصادق عليه السلام.

ج. أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن صامت، وجحش بن حمير ووديعة بن ثابت، فأرادوا أن يقعوا في النبي ﷺ فنهى بعضهم بعضا، وقالوا: إنا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم، وقال بعضهم: إن محمدا أذن نحلف له فيصدقنا، فنزل: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الآية.

د. وفي تفسير العياشي، عن حماد بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إني أردت أن أستبضع فلانا بضاعة إلى اليمن، فأتيت إلى أبي جعفر عليه السلام فقلت: إني أريد أن أستبضع فلانا فقال لي، أما علمت أنه يشرب الخمر؟ فقلت: قد بلغني من المؤمنين إنهم يقولون ذلك، فقال: صدقهم إن الله عز وجل يقول: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال: يعني يصدق الله ويصدق للمؤمنين، لأنه كان رءوفا رحيما بالمؤمنين.

٤٨. المنافقون والحلف الكاذب:

المقطع [٤٨] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣١٦»:

١. ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قال في المجمع: (الفرق بين الأحق والأصلح أن الأحق قد يكون من غير صفات الفعل كقولك: زيد أحق بالمال، والأصلح لا يقع هذا الموقع لأنه من صفات الفعل وتقول: (الله أحق بأن يطاع ولا تقول أصلح) والسبب الأصلي فيه أن الصلاحية والصلوح يحمل معنى الاستعداد والتهيؤ، والحق يحمل معنى الثبوت واللزوم،

والله سبحانه لا يتصف بشيء من معنى الاستعداد والقبول المستلزم لتأثير الغير فيه وتأثره عنه.

٢. وقد حول الله الخطاب في الآية عن نبيه ﷺ إلى المؤمنين التفاتا وكأن الوجه فيه التلويح لهم بما يشتمل عليه قوله: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ من الحكم وهو أن من الواجب على كل مؤمن أن يرضي الله ورسوله، ولا يحاد الله ورسوله فإن فيه خزيا عظيما نار جهنم خالدا فيها.

٣. ومن أدب التوحيد في الآية ما في قوله: ﴿أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ من إفراد الضمير ولم يقل: أحق أن يرضوهما صونا لمقامه تعالى من أن يعدل به أحد فإن أمثال هذه الحقوق وكذا الأوصاف التي يشاركه تعالى غيره من حيث الإطلاق والإجراء، له تعالى بالذات ولنفسه ولغيره بالتبع أو بالعرض ومن جهته كوجوب الإرضاء والتعظيم والطاعة وغيرها، وكالاتصاف بالعلم والحياة والإحياء والإماتة وغيرها.

٤. وقد روعي نظير هذا الأدب في القرآن في موارد كثيرة فيما يشارك النبي ﷺ غيره من الأمة من الشئون فأخرج النبي ﷺ من بينهم وأفرد بالذكر كما في قوله: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التحريم: ٨] وقوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦] وقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وغير ذلك.

٤٩. من يحاد الله ورسوله فله نار جهنم خالداً فيها:

المقطع [٤٩] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدًا فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣١٧»:

١. ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ﴾ إلى آخر الآية قال في المجمع: (المحادة مجاوزة الحد بالمشاقة، وهي والمخالفة والمجانبة والمعاداة نظائر، وأصله المنع والمحادة ما يلحق الإنسان من النزق لأنه يمنعه من الواجب وقال: (والخزي الهوان وما يستحيي منه)

٢. والاستفهام في الآية للتعجيب، والكلام مسوق لبيان كونه تعالى وكون رسوله أحق بالإرضاء ومحصله أنهم يعلمون أن محادة الله ورسوله والمشاقة والمعاداة مع الله ورسوله والإسخاط يوجب خلود النار، وإذا حرم إسخاط الله ورسوله وجب إرضاؤه وإرضاء رسوله على من كان مؤمنا بالله ورسوله.

٥٠. المنافقون يحذرون من سورة تنبئهم بما في قلوبهم:

المقطع [٥٠] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ

سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَّ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهَّ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٤-٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٢٥»:

١. ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. كان المنافقون يشاهدون أن جل ما يستسرون به من شئون النفاق؛ ويناجي به بعضهم بعضا من كلمة الكفر ووجوه الهمز واللمز والاستهزاء أو جميع ذلك لا يخفى على الرسول، ويتلى على الناس في آيات من القرآن يذكر النبي ﷺ أنه من وحي الله، ولا محالة كانوا لا يؤمنون بأنه وحي نزل به الروح الأمين على رسول الله ﷺ، ويقدرون أن ذلك مما يتجسسه المؤمنون فيخبرون به النبي ﷺ فيخرجه لهم في صورة كتاب سماوي نازل عليهم وهم مع ذلك كانوا يخافون ظهور نفاقهم وخروج ما خبوه في سرائرهم الخبيثة لأن السلطنة والظهور كانت للنبي ﷺ عليهم يجري فيهم ما يأمر به ويحكم عليه.

ب. فهم كانوا يحذرون نزول سورة يظهر بها ما أضمروه من الكفر وهموا به من تقليب الأمور على النبي ﷺ وقصده بما يبطل به نجاح دعوته وتمام كلمته فأمر الله نبيه ﷺ أن يبلغهم أن الله عالم بما في صدورهم مخرج ما يحذرون خروجه وظهوره بنزول سورة من عنده أي يخبرهم بأن الله منزل سورة هذا نعتها.

ج. وبهذا يستنير معنى الآية فقوله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ الآية خطاب للنبي ﷺ ووجه الكلام إليه، وهو يعلم بتعليم الله أن هذا الكلام الذي يتلوه على الناس كلام إلهي وقرآن منزل من عنده فيصف سبحانه الكلام الذي يخاف منه المنافقون بما له من الوصف عند النبي ﷺ وهو أنه سورة منزلة من الله على الناس ومنهم المنافقون لا على ما يراه المنافقون أنه كلام بشري يدعى كونه كلام الله، فهم كانوا يحذرون أن يتلو النبي ﷺ عليهم وعلى الناس كلاما هذا نعته الواقعي وهو أنه سورة منزلة عليهم بما أنها متوجهة بمضمونها إليهم قاصدة نحوهم ينبئهم هذه السورة النازلة بما في قلوبهم فيظهر على الناس ويفشو بينهم ما كانوا يسرونه من كفرهم وسوء نياتهم، وهذا الظهور في الحقيقة هو الذي كانوا يحذرونه من نزول السورة.

٢. ﴿قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ﴾:

أ. كأن المراد بالاستهزاء هو نفاقهم وما يلحق به من الآثار فإن الله سمى نفاقهم استهزاء حاكيا في

ذلك قولهم حيث قال: ﴿وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾ [البقرة: ١٤] فالمراد بالاستهزاء هو ستر ما يحذرون ظهوره، والأمر تعجيزي أي دوموا على نفاقكم وستركم ما تحذرون خروجه من عندكم إلى مرأى الناس ومسمعهم فإن الله مخرج ذلك وكاشف عن وجهه الغطاء، ومظهر ما أخفيتموه في صدوركم.

ب. فصدر الآية وإن كان يذكر أنهم يحذرون تنزيل سورة كذا وكذا لكنهم إنما كانوا يحذرونها لما فيها من الأنباء التي يحذرون أن يطلع عليها النبي ﷺ وتنجلي للناس، وهذا هو الذي يذكر ذيلها أنهم يحذرونه فالكلام بمنزلة أن يقال: يحذر المنافقون تنزيل سورة قل إن الله منزلها، أو يقال: يحذر المنافقون انكشاف باطن أمرهم وما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله سيكشف ذلك وينبئ عما في قلوبكم.

٣. وبما تقدم يظهر سقوط ما أشكل على الآية:

أ. أولا: بأن المنافقين لكفرهم في الحقيقة لم يكونوا يرون أن القرآن كلام منزل من عند الله فكيف يصح القول أيحذرون أن تنزل عليهم سورة؟

ب. وثانيا: أنهم لما لم يكونوا مؤمنين في الواقع فكيف يصح أن يطلق أن سورة قرآنية نزلت عليهم ولا تنزل السورة إلا على النبي ﷺ أو على المؤمنين؟

ج. وثالثا: أن حذرهم نزول السورة وهو حال داخلي جدي فيهم لا يجامع كونه استهزاء.

د. ورابعا: أن صدر الآية يذكر أنهم يحذرون أن تنزل سورة وذيلها يقول: إن الله مخرج ما تحذرون فهو في معنى أن يقال: إن الله مخرج سورة أو مخرج تنزيل سورة.

٤. وقد يجاب عن الإشكال الأول:

أ. بأن قوله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ﴾ (إلخ) إنشاء في صورة خبر أي ليحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة (إلخ)، وهو ضعيف إذ لا دليل عليه أصلا على أن ذيل الآية لا يلائم ذلك إذ لا معنى لقولنا: ليحذر المنافقون كذا قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون أي ما يجب عليكم حذره، وهو ظاهر.

ب. وقد يجاب عنه بأنهم إنما كانوا يظهرون الحذر استهزاء لا جدا وحقيقة، وفيه أن لازمه أنهم كانوا على ثقة بأن ما في قلوبهم من الأنباء وما أبطنوه من الكفر والفسوق لا سبيل للظهور والانجلاء إليه، ولا طريق لأحد إلى الاطلاع عليه، ويكذبه آيات كثيرة في القرآن الكريم تقص ما عقدوا عليه القلوب من

الكفر والفسوق وهموا به من الخدعة والمكيدة كالآيات من سورة البقرة وسورة المنافقين وغيرهما، وإذ كانوا شاهدوا ظهور أنبائهم ومطويات قلوبهم عيانا مرة بعد مرة فلا معنى لثقتهم بأنها لا تنكشف أصلا وإظهارهم الحذر استهزاء لا جدا، وقد قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]

ج. وقد يجاب عنه بأن أكثر المنافقين كانوا على شك من صدق الدعوة النبوية من غير أن يستيقنوا كذبه، وهؤلاء كانوا يجوزون تنزيل سورة تنبئهم بما في قلوبهم احتمالا عقليا، وهذا الحذر والإشفاق كما ذكروه أثر طبيعي للشك والارتياب فلو كانوا موقنين بكذب الرسول ﷺ لما خطر لهم هذا الخوف على بال، ولو كانوا موقنين بصدقه لما كان هناك محل لهذا الخوف والحذر لأن قلوبهم مطمئنة بالإيمان، وهذا الجواب، وهو الذي اعتمد عليه جمهور المفسرين، وإن كان بظاهره لا يخلو عن وجه غير أن فيه أنه إنما يحسم مادة الإشكال لو كان الواقع من التعبير في الآية نحوا من قولنا: يخاف المنافقون أن تنزل عليهم سورة، ولذا قرروا الجواب بأن الخوف يناسب الشك دون اليقين، لكن الآية تعبر عن شأنهم بالحذر، ويخبر أنهم يحذرون أن تنزل عليهم سورة (إلخ) والحذر فيه شيء من معنى الاحتراز والاتقاء، ولا يتم ذلك إلا بالتوسل إلى أسباب ووسائل تحفظ الحاذر مما يحذره ويحترز منه، وتصونه من شر مقبل إليه من ناحية ما يخافه، ولو كان مجرد شك من غير مشاهدة أثر من الآثار وإصابة شيء مما يتقونه إياهم لما صح الاحتراز والاتقاء، فحذرهم يشهد أنهم كانوا يخافون أن يقع بهم هذه المرة نظير ما وقع بهم قبل ذلك من جهة آيات البقرة وغيرها، فهذا هو الوجه لحذرهم دون الشك والارتياب فالمعتمد في الجواب ما قدمناه.

٥. وقد يجاب عن الإشكال الثاني بأن:

أ. (على) في قوله: ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ بمعنى: في كما في قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والمعنى: يحذر المنافقون أن تنزل فيهم أي في شأنهم وبيان حالهم سورة تكشف عما في ضمائرهم، وفيه أنه لا بأس به لولا قوله بعده: ﴿تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ﴾ على ما سنوضحه.

ب. وقد يجاب عنه بأن الضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ راجع إلى المؤمنين دون المنافقين والمعنى: يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تنبئ المنافقين بما في قلوب المنافقين أو تنبئ المؤمنين بما في قلوب المنافقين، ورد عليه بأنه يستلزم تفكيك الضمائر، ودفع بأن تفكيك الضمائر غير ممنوع ولا أنه مناف للبلاغة إلا إذا كان المعنى معه غير مفهوم، وربما أيد بعضهم هذا الجواب بأنه ليس هاهنا تفكيك للضمائر فإنه قد

سبق أن المنافقين يحلفون للمؤمنين ليرضوهم ثم وبخهم الله بأن الله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين فقد بين هاهنا بطريقة الاستئناف أنهم يحذرون أن تنزل على المؤمنين سورة تنبئهم بما في قلوبهم فتبطل ثقتهم بهم فأعيد الضمير إلى المؤمنين لأن سياق الكلام فيهم فلا أثر من التفكيك، وفيه أن من الواضح الذي لا يرتاب فيه أن موضوع الكلام في هذه الآيات وآيات كثيرة مما يتصل بها من قبل ومن بعد، هم المنافقون، والسياق سياق الخطاب للنبي ﷺ لا غيره، وإنما كان خطاب المؤمنين في قوله: (﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ﴾ لكم ليرضوكم خطابا التفاتيا للتنبيه على غرض خاص أومأنا إليه ثم عاد الكلام إلى سياقها الأصلي من خطاب النبي ﷺ بتبدل خطابهم إلى خطابه فلا معنى لقوله: إن سياق الكلام في المؤمنين، ولو كان السياق هو الذي ذكره لكان من حق الكلام أن يقال: أن تنزل عليكم سورة تنبئكم بما في قلوبهم، فما معنى العدول إلى ضمير الغيبة، ولم يتقدم في سابق الكلام ذكر لهم على هذا النعت؟، على أن قوله: إن الآية، ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ﴾، بيان من طريق الاستئناف لسبب حلفهم للمؤمنين ليرضوهم، إخراج لهذه الطائفة من الآيات من استقلال غرضها الأصلي الذي بحثنا عنه في أول الكلام، ويختل بذلك ما يتراءى من فقرات الآيات من الاتصال والارتباط، فالآية، ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ﴾ الآية، ليست بيانا لسبب حلفهم المذكور سابقا بل استئناف مسوق لغرض آخر يهدي إليه مجموع الآيات الإحدى عشرة، وبالجملة الآيات السابقة على هذه الآية خالية عن ذكر المؤمنين ذكرا يوجب انعطاف الذهن إليه حينما يلقي ضميرا يمكن عوده إليهم وهذا هو التفكيك المذكور، وهو مع ذلك تفكيك ممنوع لإيجابه إبهاما في البيان ينافي بلاغته، والحق أن الضمير في قوله: ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ للمنافقين، كما تقدمت الإشارة إليه، ولا بأس بأن يسمى تنزيل سورة لبيان حالهم وذكر مثالبهم وتوبيخهم على نفاقهم تنزيلا للسورة عليهم وهم في جماعة المؤمنين غير متميزين منهم كما عبر بنظير التعبير في مورد المؤمنين حيث قال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقد أتى سبحانه بنظير هذا التعبير في أهل الكتاب حيث قال: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ﴾ [النساء: ١٥٣]، وفي المشركين حيث حكى عنهم قولهم: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣]، وليست نسبة المنافقين وهم في المؤمنين إلى نزول القرآن عليهم بأبعد من نسبة المشركين وأهل الكتاب إلى نزوله عليهم، والنزول والإنزال والتنزيل يقبل التعدي بإلى بعناية الانتهاء وبعلى بعناية الاستعلاء والإتيان من العلو،

والتعدية بكل واحد منهما كثير في تعبيرات القرآن، والمراد بنزول الكتاب إلى قوم وعلى قوم تعرضه لشئونهم وبيانه لما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.

ج. وقد يجاب عن الإشكال الثالث بأن قوله تعالى: ﴿قُلِ اسْتَهْزِؤُا﴾ دليل على أنهم كانوا يستهزءون بالحذر ولم يكن من جد الحذر في شيء، وفيه أن الآيات الكثيرة النازلة في سورة البقرة والنساء وغيرها، وكل ذلك قبل هذه الآيات نزولا، المخرجة لكثير من خبايا قلوبهم الكاشفة عن أسرارهم تدل على أن هذا الحذر كان منهم على حقيقته من غير استهزاء وسخرية، على أنه تعالى وصفهم في سورة المنافقون بمثل قوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال في مثل ضربه لهم وفيهم: ﴿يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩] وقد ذكر في الآية التالية، والحق أن استهزاءهم إنما هو نفاقهم وقولهم في الظاهر خلاف ما في باطنهم كما يؤيده قوله تعالى: ﴿وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾ [البقرة: ١٤]

د. والجواب عن الإشكال الرابع أن الشيء الذي كانوا يحذرونه في الحقيقة هو ظهور نفاقهم وانكشاف ما في قلوبهم، وإنما كانوا يحذرون نزول السورة لأجل ذلك فالمحذور الذي ذكر في صدر الآية والذي في ذيل الآية أمر واحد، ومعنى قوله ﴿إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ﴾ إنه مظهر لما أخفيتموه من النفاق ومنبئ لما في قلوبكم.

٦. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ﴾:

أ. نخوض، على ما في المجمع،، دخول القدم فيما كان مائعا من الماء والطين ثم كثر حتى استعمل في غيره، وقال الراغب في المفردات: (الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه، ويستعار في الأمور، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه)

ب. ولم يذكر الله سبحانه متعلق السؤال وأن المسئول عنه الذي إن سأل النبي ﷺ سأل عنه ما هو؟ غير أن قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بما له من السياق المصدر بإنما يدل على أنه كان فعلا صادرا منهم له نوع تعلق بالنبي ﷺ، وكان أمرا مرئيا يسيء الظن بهم، ولم يكن في وسعهم أن يعتذروا منه بعد ما تبين وانكشف للنبي ﷺ إلا بأنه إنما كان منهم خوضا ولعبا لم يريدوا به غير ذلك.

ج. والخوض واللعب الذين اعتذروا بهما من الأعمال السيئة التي لا يعترف بهما الناس في حالهم

العادي وخاصة المؤمنون وسائر المتظاهرين بالإيمان وخاصة إذا كان ذلك في أمر يرجع إلى الله ورسوله غير أنهم لم يجدوا وصفا يصفون به فعلهم لإخراجه عن ظاهر ما يدل عليه، دون أن يعنونوه بأنه كان خوضا ولعبا.

د. ولذا أمر نبيه ﷺ أن يوبخهم على ما اعتذروا به فقال: ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ﴾ ثم فسر عملهم في آخر الآيات بقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا﴾ الآية.

هـ. ويتحصل من مجموع هذه القرائن أن المنافقين كانوا أرادوا النبي ﷺ بسوء كالفتك به ومفاجأته بما يهلكه وأقدموا على ما قصدوه وتكلموا عند ذلك بشيء من الكلام الردي لكنهم أخطئوا في ما أوقعوه عليه واندفع الشر عنه، ولم يصب السهم هدفه فلما خاب سعيهم وبان أمرهم سألهم النبي ﷺ عن ذلك وما تصدوه به اعتذروا بأنهم كانوا يخوضون ويلعبون فوبخهم النبي ﷺ بقوله: ﴿أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ﴾ ورد الله سبحانه إليهم عذرهم الذي اعتذروا به وبين حقيقة ما قصدوا بذلك.

و. وبالجملة معنى الآية: وأقسم لئن سألتهم عن فعلهم الذي شوهد منهم: ما الذي أرادوا به؟ وكان ظاهره أنهم هموا بأمر فيك ليقولن: لم يكن قصد سوء ولا بالذي ظننت فأسأت الظن بنا، وإنما كنا نخوض ونلعب خوض الركب في الطريق لا على سبيل الجد ولكن لعبا، وهذا اعتذار منهم بالاستهزاء بالله وآياته ورسوله فإنهم يعترفون بأنهم فعلوا فيك ما فعلوه خوضا ولعبا فقد استهزءوا بالله ورسوله فقل: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون أي أتعتذرون عن سيئ فعلكم بسيئة أخرى هي الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، وهو كفر؟ وليس من البعيد أن يكون الغرض الأصيل بيان كونه استهزاء بالرسول، وإنما ذكر الله وآياته للدلالة على معنى الاستهزاء بالرسول، وأنه لما كان من آيات الله كان الاستهزاء به استهزاء بآيات الله، والاستهزاء بآيات الله استهزاء بالله العظيم فالاستهزاء برسول الله استهزاء بالله وآياته ورسوله.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (في قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ الآية، قيل: نزلت في اثني عشر رجلا وقفوا على العقبة، ليفتكوا برسول الله ﷺ عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبرئيل رسول الله ﷺ بذلك، وأمره أن يرسل إليهم ويضرب وجوه رواحلهم، وعمار كان يقود دابة رسول الله ﷺ وحذيفة

يسوقها، فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم، فضربها حتى نحاهم، فلما نزل قال لحذيفة: من عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحدا فقال رسول الله ﷺ: إنه فلان وفلان حتى عدهم كلهم، فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: أكره أن تقول العرب: لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم: عن ابن كيسان.

ب. وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: مثله إلا أنه قال: ائتمروا بينهم ليقتلوه وقال بعضهم لبعض: إن فطن نقول: إنما كنا نخوض ونلعب، وإن لم يفطن نقتله.

ج. وقيل: إن جماعة من المنافقين قالوا في غزوة تبوك: يظن هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فقال: احبسوا على الركب، فدعاهم فقال لهم: قلتم كذا وكذا، فقالوا: يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب وحلفوا على ذلك فنزلت الآية: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾ الآية، عن الحسن وقتادة.

د. وقيل: كان ذلك عند منصرفه من غزوة تبوك إلى المدينة وكان بين يديه أربعة نفر أو ثلاثة يستهزءون ويضحكون، وأحدهم يضحك ولا يتكلم فنزل جبرئيل وأخبر رسول الله ﷺ بذلك فدعا عمار بن ياسر وقال: إن هؤلاء يستهزءون بي وبالقرآن أخبرني جبرئيل بذلك، ولئن سألتهم ليقولن: كنا نتحدث بحديث الركب فأتبعهم عمار وقال: مم تضحكون؟ قالوا: نتحدث بحديث الركب فقال عمار: صدق الله ورسوله احترقتم أحرقكم الله، فأقبلوا إلى النبي ﷺ يعتذرون فأنزل الله تعالى الآيات، عن الكلبي وعلي بن إبراهيم وأبي حمزة.

هـ. وقيل: إن رجلا قال في غزوة تبوك: ما رأيت أكذب لسانا ولا أجبن عند اللقاء من هؤلاء يعني رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق، وأراد أن يخبر رسول الله بذلك فجاء وقد سبقه الوحي فجاء الرجل معتذرا، وقال: إنما كنا نخوض ونلعب ففيه نزلت الآية، عن ابن عمر وزيد بن أسلم ومحمد بن كعب.

و. وقيل: إن رجلا من المنافقين قال: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا وما يدريه ما الغيب؟ فنزلت الآية، عن مجاهد.

ز. وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي ورهطه، عن الضحاك.

٥١. الاعتذار والكفر والعذاب:

المقطع [٥١] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٣٣»:

١. ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً﴾ الآية:

أ. قال الراغب في المفردات: (الطوف المشي حول الشيء ومنه الطائف لمن يدور حول البيوت حافظا إلى أن قال: والطائفة من الناس جماعة منهم ومن الشيء القطعة منه، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ قال بعضهم: قد يقع ذلك على الواحد فصاعدا، وعلى ذلك قوله: ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ﴾، والطائفة إذا أريد بها الجمع فجمع طائف، (وإذا أريد بها الواحد فيصح أن يكون جمعا ويكنى به عن الواحد، ويصح أن يجعل كراوية وعلامة ونحو ذلك)

ب. وقد خطأ بعضهم القول بجواز صدق الطائفة على الواحد والاثنين من الناس كما تصدق على الثلاثة فصاعدا، وبالغ في ذلك حتى عده غلطا ولا دليل له على ما ذكره، ومادة اللفظ لا يستوجب شيئا معينا من العدد، وإطلاقها على القطعة من الشيء يؤيد استعمالها في الواحد.

٢. ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ﴾:

أ. نهي عن الاعتذار بدعوى أنه لغو كما يدل عليه قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ﴾ فإن الاعتذار لا فائدة تترتب عليه بعد الحكم بكفرهم بعد إيمانهم.

ب. والمراد بإيمانهم هو ظاهر الإيمان الذي كانوا يتظاهرون به لا حقيقة الإيمان الذي هو من الهداية الإلهية التي لا يعقبها ضلال، ويؤيده قوله تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ فبدل الإيمان إسلاما وهو ظاهر الشهادتين.

ج. ويمكن أن يقال: إن من مراتب الإيمان ما هو اعتقاد وإذعان ضعيف غير آب عن الزوال كإيمان الذين في قلوبهم مرض وقد عدهم الله من المؤمنين وذكرهم مع المنافقين لأمنهم، ولا مانع من أن ينسلخوا هذا الإيمان، وكيف لا؟ وقد سلخ الله الإيمان ممن هو أرسخ إيمانا منهم كالذي يقصه في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال أيضا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ

ازْدادُوا كُفْراً﴾ وقد أكثر القرآن الكريم من ذكر الكفر بعد الإيمان فلا مانع من زوال الاعتقاد القلبي قبل رسوخه وهو اعتقاد.

د. نعم الإيمان المستقر والاعتقاد الراسخ لا سبيل إلى عروض الزوال له قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ [الأعراف: ١٧٨] وقال: ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]

٣. ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً﴾:

أ. يدل على أن هؤلاء المنافقين المذكورين في الآيات كانوا ذوي عدد وكثرة، وأن كلمة العذاب وقعت عليهم لا بد لهم من العذاب فلو شمل بعضهم عفو إلهي لمصلحة في ذلك وقع العذاب على الباقين فهذا معنى الجملة: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً﴾ بحسب ما يفهم من نظمه وسياقه.

ب. وبعبارة أخرى رابطة اللزوم بين الشرط والجزاء بترتب الجزاء وتفرعه على الشرط إنما هي بالتبع وأصله ترتب الجزاء هاهنا على أمر يتعلق به الشرط وهو أن العذاب وجب على جماعتهم فإن عفي عن بعضهم تعين الباقون من غير تخلف.

٤. وقد ظهر بما قدمناه:

أ. أولا: وجه ترتب قوله: ﴿نُعَذِّبْ طائِفَةً﴾ على قوله: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ﴾ واندفع ما استشكله بعضهم على الآية أنه لا ملازمة بين العفو عن البعض وعذاب البعض فما معنى الاشتراط؟ والجواب: أن اللزوم بحسب الأصل بين وجوب نزول العذاب على الجماعة وبين نزوله على بعضهم ثم انتقل إلى ما بين العفو عن البعض وبين نزوله على بعضهم كما قررناه.

ب. وثانيا: أن المراد بالعفو هو ترك العذاب لمصلحة من مصالح الدين دون العفو بمعنى المغفرة المستندة إلى التوبة إذ لا وجه ظاهرا لمثل قولنا: إن غفرنا لطائفة منكم لتوبتهم نعذب طائفة لجرمهم مع أنهم لو تابوا جميعا لم يعذبوا قطعا، وقد ندب الله إليهم جميعا أن يتوبوا حيث قال في آخر الآيات: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾

ج. وثالثا: أن العفو في الآية بل والعذاب المذكور فيها هو العفو عن العذاب الدنيوي وتركها وكذا القول في العذاب فإن العفو من العذاب الأخروي على ما تنص عليه الآيات القرآنية إنما يكون لتوبة أو شفاعة، ولا تحقق لواحد منهما فيما نحن فيه أما التوبة فلما تبين أنها غير مرادة في الآية، وأما الشفاعة فلما

ثبت بآيات الشفاعة أن الشفاعة لا ينالها في الآخرة إلا مؤمن مرضي الإيمان، وقد استوفينا البحث عنها في الجزء الأول من الكتاب.

د. ورابعا: أنه لا مانع من كون الآية أعني قوله: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ﴾ الآية من تتمة كلام النبي ﷺ فإن المراد بالعفو والعذاب هو العذاب الدنيوي بالسياسة وتركه، ولا مانع من نسبتهما إلى النبي ﷺ، لكن ظاهر الآيات التالية هو كونه من قول الله سبحانه خطابا للمنافقين فيكون التفاتا من خطاب النبي ﷺ إلى خطابهم والنكتة فيه إظهار كمال الغضب واشتداد السخط من صنعهم حتى كأنه لا يفي بإيذانه وإعلامه الرسالة فواجههم بنفسه وخاطبهم بشخصه فهددهم بعذاب واقع لا مرد له ولا مفر منه.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الكلبي: أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة رهط، استهزءوا بالله ورسوله وبالقرآن، قال: كان رجل منهم لم يمالئهم في الحديث، يسير مجانبا لهم يقال له: يزيد بن وديعة، فنزلت: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً﴾ فسمى طائفة وهو واحد.

• أقول: وهذا هو منشأ قول بعضهم: إن الطائفة تطلق على الواحد كما تطلق على الكثير مع أن الآية جارية مجرى الكناية دون التسمية ونظير ذلك كثير في الآيات القرآنية كما تقدمت الإشارة إليه.

ب. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في رهط من المنافقين من بني عمرو بن عوف، فيهم وديعة بن ثابت، ورجل من أشجع حليف لهم يقال له: مخشي بن حمير كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم، والله لكأنا بكم غدا تقادون في الحبال، قال مخشي بن حمير، لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منكم مائة، على أن ينجو من أن ينزل فينا قرآن، فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا، فإن هم أنكروا وكتموا فقل: بلى قد قلتم كذا وكذا، فأدركهم فقال لهم فجاءوا يعتذرون فأنزل الله: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ الآية، فكان الذي عفا الله عنه مخشي بن حمير، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمقتله، فقتل باليمامة لا يعلم مقتله

ولا من قتله، ولا يرى له أثر ولا عين.

• أقول: وقصة مخشي بن حمير وردت في عدة روايات غير أنها على تقدير صحتها لا تستلزم نزول الآيات فيها على ما بينها وبين مضامين الآيات من البون البعيد.

• وليس من الواجب علينا إذا عثرنا على شيء من القصص الواقعة في زمن النبي ﷺ أي قصة كانت أن نلجم بها آية من آيات القرآن الكريم ثم نعود فنفسر الآية بالقصة ونحكمها عليها.

٥٢. من صفات المنافقين الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف:

المقطع [٥٢] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٣٥»:

١. ﴿الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. ذكروا أنه استئناف يتعرض لحال عامة المنافقين بذكر أوصافهم العامة الجامعة وتعريفهم بها وما يجازيهم الله في عاقبة أمرهم ثم يتعرض لحال عامة المؤمنين ويعرفهم بصفاتهم الجامعة ويذكر ما ينبئهم الله به على سبيل المقابلة استتماما للقسمة، ومن الدليل على هذا الاستيفاء ذكر جزاء الكفار مع المنافقين في قوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ﴾ الآية.

ب. والظاهر أن الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً﴾ وسياق مخاطبة المنافقين جار لم ينقطع بعد، فالآية السابقة لما دلت على أنه تعالى لا يترك المنافقين حتى يعذبهم بأجرامهم فإن ترك بعضا منهم لحكمة ومصلحة أخذ آخرين منهم بالعذاب كان هناك مظنة أن يسأل فيقال: ما وجه أخذ البعض إذا ترك غيره؟ وهل هو إلا كأخذ الجار بجرم الجار فأجيب ببيان السبب وهو أن المنافقين جميعا بعضهم من بعض لاشتراكهم في خبائث الصفات والأعمال، واشتراكهم في جزاء أعمالهم وعاقبة حالهم.

ج. ولعله ذكر المنافقات مع المنافقين مع عدم سبق لذكرهن للدلالة على كمال الاتحاد والاتفاق بينهم في نفسيتهم، وليكون تلويحا على أن من النساء أيضا أجزاء مؤثرة في هذا المجتمع النفاقي الفاسد المفسد.

٢. فمعنى الآية لا ينبغي أن يستغرب أخذ بعض المنافقين إذا ترك البعض الآخر لأن المنافقين والمنافقات يحكم عليهم نوع من الوحدة النفسية يوحد كثرتهم فيرجع بعضهم إلى بعض، فيشركهم في الأوصاف والأعمال وما يجازون به بوعد من الله تعالى، فهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويمسكون عن الإنفاق في سبيل الله وبعبارة أخرى نسوا الله تعالى بالإعراض عن ذكره لأنهم فاسقون خارجون عن زي العبودية فنسيهم الله فلم يثبهم بما أثاب عباده الذاكرين مقام ربهم.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في العيون، بإسناده عن القاسم بن مسلم عن أخيه عبد العزيز بن مسلم قال: سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فقال: إن الله تبارك وتعالى لا ينسى ولا يسهو، وإنما ينسى ويسهو المخلوق المحدث، ألا تسمعه عز وجل يقول: ﴿وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، وإنما يجازي من نسيه ونسي لقاء يومه أن ينسيهم أنفسهم، كما قال عز وجل: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ، فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ وقوله عز وجل ﴿فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا﴾ أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا.

ب. وفي تفسير العياشي، عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿نَسُوا اللهَ﴾ قال: تركوا طاعة الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ قال: فتركهم.

ج. وفيه، عن أبي معمر السعداني قال: قال علي عليه السلام: في قوله: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فإنما يعني أنهم نسوا الله في دار الدنيا فلم يعملوا له بالطاعة، ولم يؤمنوا به وبرسوله فنسيهم في الآخرة، أي لم يجعل لهم في ثوابه نصيبا فصاروا منسيين من الخير:

- أقول: ورواه الصدوق في المعاني، بإسناده عن أبي معمر عنه عليه السلام.

٥٣. وعد الله المنافقين والكافرين بنار جهنم ولعنته:

المقطع [٥٣] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٣٦»:

١. ثم ذكر ما وعدهم على ذلك فقال: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ﴾، وعطف عليهم

الكفار لأنهم جميعا سواء، ﴿نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ من الجزاء لا يتعدى فيهم إلى غيرها ﴿وَلَعَنَهُمُ اللهُ﴾ وأبعدهم ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾ ثابت لا يزول عنهم البتة.

٢. وقد ظهر بذلك أن قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ إلخ بيان لما تقدمه من قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، ويتفرع على ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإنفاق في سبيل الله من الذكر.

٥٤. استمتاع المنافقين بخلاقهم:

المقطع [٥٤] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٣٦»:

١. ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ﴾ الآية:

أ. قال الراغب: (الخلاق ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه قال تعالى: ﴿وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ انتهى وفسره غيره بمطلق النصيب.

ب. والآية من تتمة مخاطبة المنافقين التي في قوله: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ﴾ الآية في سياق واحد متصل وفي الآية تشبيه حال المنافقين بحال من كان قبلهم من الكفار والمنافقين وقياسهم إليهم ليستشهد بذلك على ما قيل: إن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض وأنهم جميعا والكفار ذوو طبيعة واحدة في الإعراض عن ذكر الله والإقبال على الاستمتاع بما أوتوا من أعراض الدنيا من أموال وأولاد والخوض في آيات الله ثم في حبط أعمالهم في الدنيا والآخرة والخسران.

٢. ومعنى الآية، والله أعلم، أنتم كالذين من قبلكم كانت لهم قوة وأموال وأولاد بل أشد وأكثر في ذلك منكم، فاستمتعوا بنصيبهم وقد تفرع على هذه المماثلة أنكم استمتعتم كما استمتعوا وخضتم كما خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون وأنتم أيضا أمثالهم في الحبط والخسران ولذا وعدكم النار الخالدة ولعنكم.

٣. وذكر كون قوة من قبلهم أشد وأموالهم وأولادهم أكثر للإيماء إلى أنهم لم يعجزوا الله بذلك،

ولم يدفع ذلك عنهم غائلة الحبط والخسران فكيف بكم وأنتم أضعف قوة وأقل أموالا وأولادا؟

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: ما أشبه الليلة بالبارحة: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾إلى قوله ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا﴾ هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم، والذي نفسي بيده لتتبعنهم، حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه:

• أقول: ورواه في المجمع أيضا عنه.

ب. وفي المجمع: عن تفسير الثعلبي عن أبي هريرة عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم ذراعا بذراع، وشبرا بشبر وباعا بباع، حتى لو أن أحدا من أولئك دخل جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب؟ قال: فهل الناس إلا هم؟

ج. وفيه، أيضا عن تفسير الثعلبي عن حذيفة قال: المنافقون الذين فيكم اليوم، شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، قلنا: وكيف؟ قال: أولئك كانوا يخفون نفاقهم وهؤلاء أعلنوه.

٥٥. أنباء الأمم السابقة والرسل والظلم:

المقطع [٥٥] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٣٧»:

١. ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ﴾ الآية رجوع إلى السياق الأول وهو سياق مخاطبة النبي ﷺ مع افتراض الغيبة في المنافقين، وتذكير لهم بما قص عليهم القرآن من قصص الأمم الماضين، فذاك قوم نوح عمهم الله سبحانه بالغرق، وعاد وهم قوم هود أهلكهم بريح صرصر عاتية، وثمود وهم قوم صالح عذبهم بالرجفة، وقوم إبراهيم أهلك ملكهم نمرود وسلب عنهم النعمة، والمؤتفكات وهي القرى المنقلبات على وجهها، من ائتفكت الأرض إذا انقلبت، قرى قوم لوط جعل عاليها سافلها.

٢. ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ أي بالواضحات من الآيات والحجج والبراهين وهو بيان إجمالي لنبئهم أي كان نبؤهم أن أتتهم رسلهم بالآيات البينة فكذبوها فانتهى أمرهم إلى الهلاك، ولم يكن من شأن

السنة الإلهية أن يظلمهم لأنه بين لهم الحق والباطل، وميز الرشد من الغي، والهدى من الضلال، ولكن كان أولئك الأقوام والأمم أنفسهم يظلمون بالاستمتاع من نصيب الدنيا والخوض في آيات الله وتكذيب رسله.

٣. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: في حديث، قلت: ﴿وَالْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ قال: أولئك قوم لوط ائتفكت عليهم، أي انقلبت وصارت عاليها سافلها.

٥٦. من صفات المؤمنين:

المقطع [٥٦] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٣٨»:

١. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ إلى آخر الآية، ثم وصف الله سبحانه حال المؤمنين عامة محاذاة لما وصف به المنافقين فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ ليدل بذلك على أنهم مع كثرتهم وتفرقهم من حيث العدد ومن الذكورة والأنوثة ذوو كينونة واحدة متفقة لا تشعب فيها ولذلك يتولى بعضهم أمر بعض ويدبره، ولذلك كان يأمر بعضهم بعضا بالمعروف وينهى بعضهم بعضا عن المنكر فلولاية بعض المجتمع على بعض ولاية سارية في جميع الأبعاض دخل في تصديهم الأمر بالمعروفة والنهي عن المنكر فيما بينهم أنفسهم.

٢. ثم وصفهم بقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ وهما الركنان الوثيقان في الشريعة فالصلاة ركن العبادات التي هن الرابطة بين الله وبين خلقه، والزكاة في المعاملات التي هي رابطة بين الناس أنفسهم.

٣. ثم وصفهم بقوله: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فجمع في إطاعة الله جميع الأحكام الشرعية الإلهية وجمع في إطاعة رسوله جميع الأحكام الولائية التي يصدرها رسوله في إدارة أمور الأمة وإصلاح شئونهم كفرامينه في الغزوات، وأحكامه في القضايا وإجراء الحدود وغير ذلك، على أن إطاعة شرائع الله النازلة من السماء من جهة أخرى منطوية في إطاعة الرسول فإن الرسول هو الصادع بالحق القائم بالدعوة

إلى أصول الدين وفروعه.

٤. وقوله: ﴿أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ﴾ إخبار عما في القضاء الإلهي من شمول الرحمة الإلهية لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر، وكان في هذه الجملة محاذاة لما سرد في المنافقين من قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ والظاهر أيضا أن قوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تعليل لما ذكر من الرحمة فلا مانع من رحمته لعزته، ولا اختلال أو وهنا وجزافا في حكمته.

٥. أحاديث وآثار: في التهذيب، بإسناده عن صفوان بن مهران قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام، تأتيني المرأة المسلمة قد عرفتني بعملي، وأعرفها بإسلامها ليس لها محرم فأحملها، قال: فاحملها فإن المؤمن محرم للمؤمنة، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾]

• أقول: ورواه العياشي في تفسيره عن صفوان الجمال عنه عليه السلام.

٥٧. وعد المؤمنين بالجنة والمساكن الطيبة ورضوان الله:

المقطع [٥٧] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٣٨»:

١. ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ إلى آخر الآية، العدن مصدر بمعنى الإقامة والاستقرار يقال: عدن بالمكان أي أقام فيه واستقر ومنه المعدن للأرض التي تستقر فيه الجواهر والفلزات المعدنية، وعلى هذا فمعنى جنات عدن جنات إقامة واستقرار وخلود.

٢. ﴿وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾:

أ. أي رضى الله سبحانه عنهم أكبر من ذلك كله، على ما يفيده السياق، وقد نكر ﴿رِضْوانٌ﴾ إيماء إلى أنه لا يقدر بقدر ولا يحيط به وهم بشر أو لأن رضوانا ما منه ولو كان يسيرا أكبر من ذلك كله لا لأن ذلك كله مما يتفرع على رضاه تعالى ويترشح منه وإن كان كذلك في نفسه، بل لأن حقيقة العبودية التي يندب إليها كتاب الله هي عبوديته تعالى حبا له: لا طمعا في جنة، أو خوفا من نار، وأعظم السعادة والفوز عند المحب أن يستجلب رضى محبوبه دون أن يسعى لإرضاء نفسه.

ب. وكأنه للإشارة إلى ذلك ختم الآية بقوله: ﴿ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وتكون في الجملة دلالة

على معنى الحصر أي إن هذا الرضوان هو حقيقة كل فوز عظيم حتى الفوز العظيم بالجنة الخالدة إذ لولا شيء من حقيقة الرضى الإلهي في نعيم الجنة كان نقمة لا نعمة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن ثوير عن علي بن الحسين عليه السلام قال: إذا صار أهل الجنة في الجنة، ودخل ولي الله إلى جناته ومساكنه، واتكأ، كل مؤمن على أريكته حفته خدامه، وتهدلت عليه الأثمار، وتفجرت حوله العيون، وجرت من تحته الأنهار، وبسطت له الزرابي، ووضعت له النمارق، وأتته الخدام بما شاءت هواه من قبل أن يسألهم ذلك، قال: وتخرج عليه الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء الله، ثم إن الجبار يشرف عليهم فيقول لهم: أوليائي وأهل طاعتي وسكان جنتي في جواري الأهل أنبئكم بخير مما أنتم فيه؟ فيقولون: ربنا وأي شيء خير مما نحن فيه: فيما اشتهت أنفسنا ولذت أعيننا من النعم في جوار الكريم؟، قال: فيعود عليهم القول فيقولون ربنا نعم، فأتنا بخير مما نحن فيه فيقول تبارك وتعالى لهم: رضاي عنكم ومحبتي لكم خير وأعظم مما أنتم فيه، قال: فيقولون: نعم يا ربنا رضاك عنا، ومحبتك لنا خير وأطيب لأنفسنا، ثم قرأ علي بن الحسين عليه السلام هذه الآية: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ، خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

ب. أخرج ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله: هل تشتهون شيئا فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا وهل بقي شيء؟ إلا قد أنلتناه؟ فيقول: نعم رضائي فلا أسخط عليكم أبدا.

- أقول: وهذا المعنى وارد في روايات كثيرة من طرق الفريقين.

ج. وفي جامع الجوامع، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: عدن دار الله التي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون والصديقون والشهداء يقول الله: طوبى لمن دخلك.

- أقول: ولا ينافي خصوص سكنة الجنة في الرواية عمومهم في الآية لدلالة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد: ١٩] على أن الله سبحانه سيلحق عامة المؤمنين بالصديقين والشهداء.

٥٨. جهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم:

المقطع [٥٨] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٣٩»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾:

أ. جهاد القوم ومجاهدتهم بذل غاية الجهد في مقاومتهم وهو يكون باللسان وباليد حتى ينتهي إلى القتال، وشاع استعماله في الكتاب في القتال وإن كان ربما استعمل في غيره كما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ الآية.

ب. واستعماله في قتال الكفار على رسله لكونهم متجاهرين بالخلاف والشقاق، وأما المنافقون فهم الذين لا يتظاهرون بكفر ولا يتجاهرون بخلاف، وإنما يبطنون الكفر ويقلبون الأمور كيدا ومكرا ولا معنى للجهاد معهم بمعنى قتالهم ومحاربتهم؟ ولذلك ربما يسبق إلى الذهن أن المراد بجهادهم مطلق ما تقتضيه المصلحة من بذل غاية الجهد في مقاومتهم فإن اقتضت المصلحة هجروا ولم يخالطوا ولم يعاشروا، وإن اقتضت وعظوا باللسان، وإن اقتضت أخرجوا وشردوا إلى غير الأرض أو قتلوا إذا أخذ عليهم الردة، أو غير ذلك.

ج. وربما شهد لهذا المعنى أعني كون المراد بالجهاد في الآية مطلق بذل الجهد تعقيب قوله: ﴿جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ بقوله: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي شدد عليهم وعاملهم بالخشونة.

٢. وأما قوله: ﴿وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فهو عطف على ما قبله من الأمر، ولعل الذي هون الأمر في عطف الإخبار على الإنشاء هو كون الجملة السابقة في معنى قولنا: (إن هؤلاء الكفار والمنافقين مستوجبون للجهاد)، والله أعلم.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ الآية: قال حدثني أبي عن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: جاهد الكفار والمنافقين بإلزام الفرائض.

ب. أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: لما نزلت: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ أمر رسول الله ﷺ أن يجاهد بيده فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فليلقه

بوجه مكفهر.

• أقول: وفي الرواية تشويش من حيث ترتب أجزائها فالجهاد بالقلب بعد الجميع وقد تخلل بينها.

٥٩. المنافقون وكلمة الكفر:

المقطع [٥٩] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٣٩»:

١. ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ ﴿وَهَمُّوا بِما لَمْ ينالُوا﴾ الآية:

أ. سياق الآية يشعر بأنهم أتوا بعمل سيئ وشفعوه بقول تفوهوا به عند ذلك، وأن النبي ﷺ عاتبهم على قولهم مؤاخذا لهم فحلفوا بالله ما قالوا كما تقدم في قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ إلى آخر الآية إنهم كانوا يعتذرون بذلك عن عملهم أنه كان خوضا ولعبا لا غير ذلك.

ب. والله سبحانه يكذبهم في الأمرين جميعا: أما في إنكارهم القول فبقوله: ﴿وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ وفسره ثانيا بقوله: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ للدلالة على جد القول فيتفرع عليه الكفر بعد الإسلام.

ج. ولعله قال هاهنا: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ وقد قيل سابقا: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ﴾ لأن القول السابق للنبي ﷺ الجاري على ظاهر حالهم وهو الإيمان الذي كانوا يدعونه ويتظاهرون به، والقول الثاني لله العالم بالغيب والشهادة فيشهد بأنهم لم يكونوا مؤمنين ولم يتعدوا الشهادتين بلسانهم فهم كانوا مسلمين لا مؤمنين، وقد كفروا بقولهم وخرجوا عن الإسلام إلى الكفر، وفي هذا إيماء إلى أن قولهم كان كلمة فيه الرد على الشهادتين أو إحداهما، أو لأن القول الأول في قبال عملهم الذي أرادوا إيقاع الشر بالنبي ﷺ، والعمل الخالي من القول وهو لم يصب الغرض لا يضر بالإسلام الذي هو نصيب اللفظ والشهادة، وإنما يضر بالإيمان الذي هو نصيب الاعتقاد، والقول الثاني في قبال قولهم الذي تفوهوا به، وهو ينافي الإسلام الذي يكتسب باللفظ دون الإيمان الذي هو نوع من الاعتقاد القلبي، وأما في إنكارهم العمل

السيئ الذي أتوا به وتأويلهم إياه إلى الخوض واللعب فبقوله: ﴿وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا﴾

٢. ثم قال في مقام ذمهم وتعييرهم: ﴿وَما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾:

أ. أي بسبب أن أغناهم الله ورسوله، أي كان سبب نقمتهم هذه أن الله أغناهم من فضله بما رزقهم من الغنائم وبسط عليهم الأمن والرفاهية فمكنهم من توليد الثروة وإنماء المال من كل جهة، وكذا رسوله حيث هداهم إلى عيشة صالحة تفتح عليهم أبواب بركات السماء والأرض، وقسم بينهم الغنائم وبسط عليهم العدل.

ب. فهو من قبيل وضع الشيء موضع ضده: وضع فيه الإغناء وهو بحسب الطبع سبب للرضى والشكر موضع سبب النقمة والسخطة كالظلم والغضب وإن شئت قلت: وضع فيه الإحسان موضع الإساءة، ففيه نوع من التهكم المشوب بالذم نظير ما في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي تجعلون رزقكم سببا للتكذيب بآيات الله وهو سبب بحسب الطبع لشكر النعمة والرضا بالموهبة على ما قيل: إن المعنى: وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون.

ج. والضمير في قوله: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ راجع إلى الله سبحانه، قال في المجمع: (وإنما لم يقل: من فضلهما لأنه لا يجمع بين اسم الله واسم غيره في الكناية تعظيما لله، ولذلك قال النبي ﷺ لمن سمعه يقول: (من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى): بئس خطيب القوم أنت فقال: كيف أقول يا رسول الله؟ قال: قل: ومن يعص الله ورسوله، وهكذا القول في قوله سبحانه: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ وقيل: إنما لم يقل من فضلهما لأن فضل الله منه وفضل رسوله من فضله، انتهى كلامه.

د. وهناك وراء التعظيم أمر آخر قدمنا القول فيه في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] في الجزء السادس من الكتاب، وهو أن وحدته تعالى ليست من سنخ الوحدة العددية حتى يصح بذلك تأليفها مع وحدة غيره واستنتاج عدد من الأعداد منه.

٣. ثم بين الله سبحانه لهؤلاء المنافقين أن لهم مع هذه الذنوب المهلكة وصريح كفرهم بالله وهمهم بما لم ينالوا أن يرجعوا إلى ربهم، وبين عاقبة أمر هذه التوبة وعاقبة التولي والإعراض عنها فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ﴾ لأدائه إلى المغفرة والجنة ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ ويعرضوا عن التوبة ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا﴾ بالسياسة والنكال أو بإغراء النبي ﷺ عليهم أو بالمكر والاستدراج، ولو لم يكن من عذابهم إلا

أنهم مخالفون بنفاقهم نظام الأسباب المبني على الصدق والإيمان فتقادمهم سلسلة الأسباب وتحطمهم وتفضحهم لكان فيه كفاية، وقد قال الله: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بعذاب النار.

٤. ﴿وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ معناه أن هؤلاء لا ولي لهم في الأرض يتولى أمرهم ويصرف العذاب عنهم، ولا نصير ينصرهم ويمدهم بما يدفعون به العذاب الموعود عن أنفسهم لأن سائر المنافقين أيضا منهم وكلمة الفساد يجمعهم وأصلهم الفاسد منقطع عن سائر الأسباب الكونية فلا ولي لهم يتولى أمرهم ولا ناصر لهم ينصرهم ولعل هذه الجملة من الآية إشارة إلى ما أومأنا إليه في معنى عذاب الدنيا.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا﴾ الآية، اختلف في من نزلت فيه هذه الآية، فقيل: إن رسول الله ﷺ كان جالسا في ظل شجرة، فقال: إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني الشيطان، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله: ما قالوا فأنزل الله هذه الآية: عن ابن عباس.

ب. وقيل: خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه وطعنوا في الدين فنقل ذلك حذيفة إلى رسول الله ﷺ فقال لهم: ما هذا الذي بلغني عنكم فحلفوا بالله: ما قالوا شيئا من ذلك، عن الضحاك.

ج. وقيل: نزلت في جلاس بن سويد بن الصامت، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين فسماهم رجسا وعابهم، فقال الجلاس: والله لئن كان محمد صادقا فيما يقول فنحن شر من الحمير فسمعه عامر بن قيس فقال: أجل والله إن محمدا لصادق وأنتم شر من الحمير، فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: كذب يا رسول الله، فأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف بالله ما قال ثم قام عامر فحلف بالله: لقد قال، ثم قال: اللهم أنزل على نبيك الصادق منا الصدق، فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون: آمين، فنزل جبرئيل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ﴾، فقام الجلاس فقال: يا رسول

الله أسمع الله قد عرض علي التوبة صدق عامر بن قيس فيما قال لك لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه، عن الكلبي ومحمد بن إسحاق ومجاهد.

د. وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول حين قال: ﴿لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ﴾ عن قتادة.

هـ. وقيل: نزلت في أهل العقبة فإنهم ائتمروا في أن يغتالوا رسول الله ﷺ في عقبة عند مرجعهم من تبوك، وأرادوا أن يقطعوا أنساع راحلته ثم ينخسوا به فأطلعه الله على ذلك، وكان من جملة معجزاته لأنه لا يمكن معرفة مثل ذلك إلا بوحي من الله تعالى، فسار رسول الله ﷺ في العقبة، وعمار وحذيفة معه، أحدهما يقود ناقته والآخر يسوقها وأمر الناس كلهم بسلوك بطن الوادي، وكان الذين هموا بقتله اثني عشر رجلا أو خمسة عشر رجلا على الخلاف فيه عرفهم رسول الله ﷺ وسماهم واحدا واحدا، عن الزجاج والواقدي والكلبي، والقصة مشروحة في كتاب الواقدي.

و. وقال الباقر عليه السلام: كانت ثمانية منهم من قريش وأربعة من العرب.

• أقول: والذي ذكره رحمه الله مما جمعه واختاره من الروايات مروية في كتب التفسير بالمأثور وجوامع الحديث من كتب الفريقين وهناك روايات أخرى تركها وأحرى بها أن تترك فتركنا أكثرها كما ترك.

• وأما الذي أورده من الروايات فشيء منها لا ينطبق على الآيات غير حديث العقبة الذي أورده تارة في تفسير الآية الأولى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ الآية، وتارة في تفسير الآية: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا﴾ الآية.

• وأما سائر الروايات الواردة فإنما هي روايات تتضمن من متفرقات القصص والوقائع ما لو صحت وثبتت كانت من قصص المنافقين من غير أن ترتبط بهذه الآيات وهي كما عرفت في البيان السابق إحدى عشرة آية متصل بعضها ببعض مسرودة لغرض واحد، وهو الإشارة إلى قصة من قصص المنافقين هموا فيها باغتيال رسول الله ﷺ، وتكلموا عند ذلك بكلمة الكفر فحال الله سبحانه بينهم وبين أن ينالوا ما هموا به فسألهم رسول الله ﷺ عن أمرهم وما تفوهوا به فأولوا فعلهم وأنكروا قولهم وحلفوا على ذلك فكذبهم الله تعالى فيه.

• فهذا إجمال ما يلوح من خلال الآيات، ولا ينطبق من بين الروايات إلا على الروايات المشتملة على قصة العقبة في الجملة دون سائرها.

• ولا مسوغ للاستناد إليها في تفسير الآيات إلا على مسلك القوم من تحكيم الروايات بحسب مضمونها على الآيات سواء ساعدت على ذلك ألفاظ الآيات أو لم تساعد على ما فيها، أعني الروايات، من الاختلاف الفاحش الذي يوجب سوء الظن بها كما يظهر لمن راجعها.

• على أن في الروايات مغمزا آخر وهو ظهورها في تقطع الآيات وتشتت بعضها وانفصاله عن بعض بنزول كل لسبب آخر وتعقيبه غرضا آخر، وقد عرفت أن الآيات ذات سياق واحد متصل ليس من شأنه إلا أن يعقب غرضا واحدا.

٦٠. المنافقون يعاهدون الله ثم ينكثون:

المقطع [٦٠] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٥ـ٧٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٤٩»:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. الإيتاء الإعطاء، وقد كثر إطلاق الإيتاء من الفضل على إعطاء المال، ومن القرائن عليه في الآية قوله ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ أي لنتصدقن مما آتانا من المال وكذلك ما في الآية التالية من ذكر البخل به.

ب. والسياق يفيد أن الكلام متعرض لأمر واقع، والروايات تدل على أن الآيات نزلت في ثعلبة في قصة سيأتي نقلها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى، ومعنى الآيتين ظاهر.

٢. ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ الآية:

أ. الأعقاب الإيراث قال في المجمع: (وأعقبه وأورثه وأداه نظائر وقد يكون أعقبه بمعنى جازاه) وهو مأخوذ من العقب، ومعناه الإتيان بشيء عقيب شيء.

ب. والضمير في قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ راجع إلى البخل أو إلى فعلهم الذي منه البخل، وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ يوم لقاء البخل أي جزاء البخل بنحو من العناية، ويمكن أن يرجع الضمير

إليه تعالى والمراد بيوم يلقونه يوم يلقون الله وهو يوم القيامة على ما هو المعروف من كلامه تعالى من تسمية يوم القيامة بيوم لقاء الله أو يوم الموت كما هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، وهذا الثاني هو الظاهر على الثاني لأن الأنسب عند الذهن أن يقال: فهم على نفاقهم إلى أن يموتوا، دون أن يقال: فهم على نفاقهم إلى أن يبعثوا إذ لا تغير لحالهم فيما بعد الموت على أي حال.

٣. ﴿بِما أَخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ﴾ الباء في الموضعين منه للسببية أي إن هذا البخل أورثهم نفاقا بما كان فيه من الخلف في الوعد والاستمرار على الكذب الموجبين لمخالفة باطنهم لظاهرهم وهو النفاق.

٤. ومعنى الآية: فأورثهم البخل والامتناع عن إيتاء الصدقات نفاقا في قلوبهم يدوم لهم ذلك ولا يفارقهم إلى يوم موتهم وإنما صار هذا البخل والامتناع سببا لذلك لما فيه من خلف الوعد لله والملازمة والاستمرار على الكذب، أو المعنى: جازاهم الله نفاقا في قلوبهم إلى يوم لقائه وهو يوم الموت لأنهم أخلفوه ما وعدوه وكانوا يكذبون.

٥. وفي الآية دلالة:

أ. أولا: على أن خلف الوعد وكذب الحديث من أسباب النفاق وأماراته.

ب. وثانيا: أن من النفاق ما يعرض الإنسان بعد الإيمان كما أن من الكفر ما هو كذلك وهو الردة، وقد قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ [الروم: ١٠] فذكر أن الإساءة ربما أدى بالإنسان إلى تكذيب آيات الله، والتكذيب ربما كان ظاهرا وباطنا معا وهو الكفر، أو باطنا فحسب وهو النفاق.

٦. ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ﴾ الآية النجوى الكلام الخفي والاستفهام للتوبيخ والتأنيب.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: قيل: نزلت في ثعلبة بن حاطب، وكان من الأنصار فقال للنبي ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالا فقال: يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، أما لك في رسول الله أسوة حسنة؟ والذي

نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالا والذي بعثك بالحق، لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه، فقال ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة مالا فاتخذ غنما، فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها، ثم كثرت نموا حتى تباعد من المدينة، فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، وبعث رسول الله ﷺ إليه المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل، وقال: ما هذه إلا أخت الجزية فقال رسول الله ﷺ: يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة، وأنزل الله الآيات:، عن أبي أمامة الباهلي وروي ذلك مرفوعا، وقيل: إن ثعلبة أتى مجلسا من الأنصار فأشهدهم فقال: لئن آتاني الله من فضله تصدقت منه وآتيت كل ذي حق حقه ووصلت منه القرابة فابتلاه الله فمات ابن عم له فورثه مالا فلم يف بما قال فنزلت، عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة، وقيل: نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف قالا: لئن رزقنا الله مالا لنصدقن فلما رزقهما الله المال بخلا به، عن الحسن ومجاهد.

• أقول: ما ذكروه من الروايات لا يدفع بعضها البعض فمن الجائز أن يكون ثعلبة عاهد النبي ﷺ بذلك ثم أشهد عليه جماعة من الأنصار، وأن يكون معه في ذلك غيره فتتأيد الروايات بعضها ببعض.

• وتتأيد أيضا بما روي عن الضحاك أن الآيات نزلت في رجال من المنافقين: نبتل بن الحارث، وجد بن قيس، وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير.

ب. وأما ما رواه في المجمع عن الكلبي: أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة كان له مال بالشام، فأبطأ عنه وجهد لذلك جهدا شديدا، فحلف لئن آتاه الله ذلك المال ليصدقن، فأتاه الله تعالى ذلك فلم يفعل؛ فهو بعيد الانطباق على الآيات، لأن إيصال المال إلى صاحبه لا يسمى إيتاء من الفضل، وإنما هو الإعطاء والرزق.

ج. وفي تفسير القمي، قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في الآية، قال: هو ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عوف، كان محتاجا فعاهد الله فلما آتاه بخل به.

د. أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان.

• أقول: وهو مروي بغير واحد من الطرق عن أئمة أهل البيت عليه السلام، وقد تقدم بعضها.

٦١. الساخرون من المتطوعين في الصدقات:

المقطع [٦١] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٥١»:

١. ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية:

أ. التطوع الإتيان بها لا تكرهه النفس ولا تحسبه شاقا ولذلك يستعمل غالبا في المندوبات لما في الواجبات من شائبة التحميل على النفس بعدم الرضى بالترك.

ب. ومقابلة المطوعين من المؤمنين في الصدقات بالذين لا يجدون إلا جهدهم قرينة على أن المراد بالمطوعين فيها الذين يؤتون الزكاة على السعة والجدة كأنهم لسعتهم وكثرة مالهم يؤتونها على طوع ورغبة من غير أن يشق ذلك عليهم بخلاف الذين لا يجدون إلا جهدهم أي مبلغ جهدهم وطاقتهم أو ما يشق عليهم القنوع بذلك.

ج. ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ الآية كلام مستأنف أو هو وصف للذين ذكروا بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ﴾ الآية كما قالوا، والمعنى: الذين يعيبون الذين يتطوعون بالصدقات من المؤمنين الموسرين والذين لا يجدون من المال إلا جهد أنفسهم من الفقراء المعسرين فيعيبون المتصدقين موسرهم ومعسرهم وغنيهم وفقيرهم ويسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم، وفيه جواب لاستهزائهم وإيعاد بعذاب شديد.

٢. أحاديث وآثار: أخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن ابن مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مراء، وجاء أبو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ، وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية.

• أقول: والروايات في سبب نزول الآية كثيرة وأمثلها ما أوردناه، وفي قريب من معناه روايات أخرى، وظاهرها أن الآية مستقلة عما قبلها مستأنفة في نفسها.

٦٢. الاستغفار للمنافقين لا ينفعهم:

المقطع [٦٢] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٥١»:

١. ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ الترديد بين الأمر والنهي كناية عن تساوي الفعل والترك أي لغوية الفعل كما مر نظيره في قوله: ﴿أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٥٣]، فالمعنى أن هؤلاء المنافقين لا تناهلم مغفرة من الله ويستوي فيهم طلب المغفرة وعدمها لأن طلبها لهم لغو لا أثر له.

٢. ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾:

أ. تأكيدا لما ذكر قبله من لغوية الاستغفار لهم، وبيان أن طبيعة المغفرة لا تنالهم البتة سواء سألت المغفرة في حقهم أو لم تسأل، وسواء كان الاستغفار مرة أو مرات قليلا أو كثيرا.

ب. فذكر السبعين كناية عن الكثرة من غير أن يكون هناك خصوصية للعدد حتى يكون الواحد والاثنان من الاستغفار حتى يبلغ السبعين غير مؤثر في حقهم فإذا جاوز السبعين أثر أثره، ولذلك علله بقوله: ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي إن المانع من شمول المغفرة هو كفرهم بالله ورسوله، ولا يختلف هذا المانع بعدم الاستغفار، ولا وجوده واحدا أو كثيرا فهم على كفرهم.

ج. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ متمم لسابقه والكلام مسوق سوق الاستدلال القياسي والتقدير: أنهم كافرون بالله ورسوله فهم فاسقون خارجون عن عبودية الله، والله لا يهدي القوم الفاسقين، لكن المغفرة هداية إلى سعادة القرب والجنة فلا تشملهم المغفرة ولا تنالهم البتة.

د. واستعمال السبعين في الكثرة المجردة عن الخصوصية كاستعمال المائة والألف فيها كثير في اللغة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة: أن عبد الله بن أبي قال لأصحابه: لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله، وهو القائل: ليخرجن الأعز منها الأذل، فأنزل الله عز وجل: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً، فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ قال النبي ﷺ: لأزيدن على السبعين فأنزل الله: ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾

ب. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال: لما نزلت: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ قال النبي ﷺ: سأزيد على سبعين، فأنزل الله في السورة التي يذكر فيها المنافقون ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾

ج. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية، أسمع ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾

• أقول: مما لا ريب فيه أن هذه الآيات مما نزلت في أواخر عهد النبي عليه السلام وقد سبقتها في النزول السور المكية عامة وأكثر السور والآيات المدنية قطعا، ومما لا ريب فيه لمن يتدبر كتاب الله أنه لا رجاء في نجاة الكفار والمنافقين وهم أشد منهم إذا ماتوا على كفرهم ونفاقهم، ولا مطمع في شمول المغفرة الإلهية لهم فهناك آيات كثيرة مكية ومدنية صريحة قاطعة في ذلك، والنبي ﷺ أجل من أن يخفى عليه ما أنزله الله إليه أو أن لا يثق بها وعدهم الله من العذاب المخلد وعدا حتميا فيطمع في نقض القضاء المحتوم بالإصرار عليه تعالى والإلحاح في طلب الغفران لهم، أو أن يخفى عليه أن الترديد في الآية لبيان اللغوية وأن لا خصوصية لعدد السبعين حتى يطمع في مغفرتهم لو زاد على السبعين.

• وليت شعري ماذا يزيد قوله تعالى في سورة المنافقون: ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ على قوله تعالى في هذه الآية ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ وقد علل الله سبحانه نفي المغفرة نفيا مؤبدا فيهما بأنهم فاسقون والله لا يهدي القوم الفاسقين.

• فقد تلخص أن هذه الروايات وما في معناها موضوعة يجب طرحها.

د. أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم والنحاس وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: سمعت عمر يقول: لما توفي عبد الله بن أبي دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه فلما وقف قلت: أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا؟ أعدد أيامه ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا أكثرت، قال: يا عمر أخر عني إني قد خيرت قد قيل لي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها،

ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره، حتى فرغ منه فعجبت لي وجرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده، حتى قبضه الله عز وجل.

• أقول: قوله ﷺ في الرواية: (فلو أعلم أني إن زدت على السبعين) إلخ صريح في أنه كان آئسا من شمول المغفرة له، وهو يشهد بأن المراد من قوله: (إني قد خيرت قد قيل لي ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾) إن الله قد ردد الأمر ولم ينهه عن الاستغفار لا أنه خيره بين الاستغفار وعدمه تخييرا حقيقيا حتى ينتج تأثير الاستغفار في حصول المغفرة أو رجاء ذلك.

• ومن ذلك يعلم أن استغفاره ﷺ لعبد الله وصلاته عليه وقيامه على قبره إن ثبت شيء من ذلك لم يكن شيء من ذلك لطلب المغفرة والدعاء له جدا كما سيأتي في رواية القمي، وفي الروايات كلام سيأتي.

هـ. عن ابن أبي حاتم عن الشعبي أن عمر بن الخطاب قال: لقد أصبت في الإسلام هفوة ما أصبت مثلها قط، أراد رسول الله ﷺ أن يصلي على عبد الله بن أبي، فأخذت بثوبه فقلت: والله ما أمرك الله بهذا، لقد قال الله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ فقال رسول الله ﷺ: قد خيرني ربي فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم فقعد رسول الله على شفير القبر، فجعل الناس يقولون لابنه: يا حباب افعل كذا يا حباب افعل كذا، فقال رسول الله ﷺ: الحباب اسم شيطان أنت عبد الله.

و. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية، أنها نزلت لما رجع رسول الله ﷺ المدينة، ومرض عبد الله بن أبي وكان ابنه عبد الله بن عبد الله مؤمنا، فجاء إلى رسول الله ﷺ وأبوه يجود بنفسه، فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، إنك إن لم تأت أبي كان ذلك عارا علينا، فدخل إليه رسول الله ﷺ والمنافقون عنده، فقال ابنه عبد الله بن عبد الله استغفر له فاستغفر له، فقال عمر: ألم ينهك الله يا رسول الله أن تصلي على أحد أو تستغفر له؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأعاد عليه فقال له: ويلك إني قد خيرت فاخترت إن الله يقول: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾، فلما مات عبد الله جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إن رأيت أن تحضر جنازته فحضر رسول الله ﷺ فقام على قبره، فقال له عمر: يا رسول الله، ألم ينهك الله أن تصلي على

أحد منهم مات أبدا، وأن تقيم على قبره؟ فقال رسول الله ﷺ: ويلك وهل تدري ما قلت؟ إنما قلت: اللهم احش قبره نارا وجوفه نارا وأصله النار، فبدا من رسول الله ﷺ ما لم يكن يحب.

• أقول: وفي الروايات تتمة كلام سيوافيك في ذيل الآيات التالية.

٦٣. المخلّفون فرحوا بقعودهم وكرهوا الجهاد في الحر:

المقطع [٦٣] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٥٨»:

١. ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ﴾ الآية:

أ. الفرح والسرور خلاف الغم وهما حالتان نفسيتان وجدانيتان ملذة ومؤلمة، والمخلفون اسم مفعول من قولهم خلفه إذا تركه بعده والمقعد كالقعود مصدر قعد يقعد وهو كناية عن عدم الخروج إلى الجهاد.

ب. والخلاف كالمخالفة مصدر خالف يخالف، وربما جاء بمعنى بعد كما قيل ولعل منه قوله: ﴿وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ وكان قياس الكلام أن يقال: ﴿خِلافَكَ﴾ لأن الخطاب فيه للنبي ﷺ وإنما قيل: ﴿خِلافَ رَسُولِ اللهِ﴾ للدلالة على أنهم إنما يفرحون على مخالفة الله العظيم فما على الرسول إلا البلاغ.

ج. والمعنى فرح المنافقون الذين تركتهم بعدك بعدم خروجهم معك خلافا لك، أو بعدك، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

٢. ﴿وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ خاطبوا بذلك غيرهم ليخذلوا النبي ﷺ ويبطلوا مسعاه في تنفير الناس إلى الغزوة، ولذلك أمره الله تعالى أن يجيب عن قولهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ أي إن الفرار عن الحر بالقعود إن أنجاكم منه لم ينجكم مما هو أشد منه وهو نار جهنم التي هي أشد حرا فإن الفرار عن هذا الهين يوقعكم في ذاك الشديد، ثم أفاد بقوله: ﴿لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ﴾ المصدر بلو التمني اليأس من فقههم وفهمهم.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه، عليه السلام، قال: كانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وهي غزوة الحر ﴿قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وهي غزوة العسرة.

ب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف فقال رجال، يا رسول الله إن الحر شديد ولا نستطيع الخروج، فلا تنفروا في الحر فقال الله ﴿قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ﴾ فأمره بالخروج.

• أقول: ظاهر الآية أنهم إنما قالوه ليخذلوا الناس عن الخروج، وظاهر الحديث أنهم إنما قالوه إشارة فلا يتطابقان.

ج. وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: خرج رسول الله ﷺ في حر شديد إلى تبوك، فقال رجل من بني سلمة: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله: ﴿قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ الآية.

• أقول: تقدمت أخبار في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي﴾ الآية أن القائل لقوله: ﴿لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ هو جد بن قيس.

٦٤. المخلّفون يضحكون قليلاً ويبكون كثيراً:

المقطع [٦٤] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٥٩»:

١. ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾:

أ. تفريع على تخلفهم عن الجهاد بالأموال والأنفس وفرحهم بالقعود عن هذه الفريضة الإلهية الفطرية التي لا سعادة للإنسان في حياته دونها.

ب. ﴿جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ والباء للمقابلة أو السببية دليل على أن المراد بالضحك القليل هو الذي في الدنيا فرحا بالتخلف والقعود ونحو ذلك، وبالبكاء الكثير ما كان في الآخرة في نار جهنم التي هي أشد حرا فإن الذي فرع عليه الضحك والبكاء هو ما في الآية السابقة، وهو فرحهم بالتخلف وخروجهم من حر الهواء إلى حر نار جهنم.

ج. فالمعنى: فمن الواجب بالنظر إلى ما عملوه واكتسبوه أن يضحكوا ويفرحوا قليلا في الدنيا وأن يبكوا ويحزنوا كثيرا في الآخرة فالأمر بالضحك والبكاء للدلالة على إيجاب السبب وهو ما كسبوه من

الأعمال لذلك.

٢. وأما حمل الأمر في قوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ وقوله: ﴿وَلْيَبْكُوا﴾ على الأمر المولوي لينتج تكليفا من التكاليف الشرعية فلا يناسبه قوله: ﴿جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾

٣. ويمكن أن يكون المراد الأمر بالضحك القليل والبكاء الكثير معا ما هو في الدنيا جزاء لسابق أعمالهم فإنها هدتهم إلى راحة وهمية في أيام قلائل وهي أيام قعودهم خلاف رسول الله ﷺ ثم إلى هوان وذلة عند الله ورسوله والمؤمنين ما داموا أحياء في الدنيا ثم إلى شديد حر النار في الآخرة بعد موتهم.

٦٥. المنافقون يستأذنون للخروج فلا يؤذن لهم:

المقطع [٦٥] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٥٩»:

١. ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. المراد بالقعود أول مرة التخلف عن الخروج في أول مرة كان عليهم أن يخرجوا فيها فلم يخرجوا، ولعلها غزوة تبوك كما يهدي إليه السياق.

ب. والمراد بالخالفين المتخلفون بحسب الطبع كالنساء والصبيان والمرضى والزمنى وقيل: المتخلفون من غير عذر، وقيل: الخالفون هم أهل الفساد، والباقي واضح.

٢. وفي قوله: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ الآية دلالة على أن هذه الآية وما في سياقها المتصل من الآيات السابقة واللاحقة نزلت ورسول الله ﷺ في سفره ولما يرجع إلى المدينة، وهو سفره إلى تبوك.

٦٦. النهي عن الصلاة على المنافقين أو القيام على قبورهم:

المقطع [٦٦] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٦٠»:

١. ﴿وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ﴾:

أ. نهي عن الصلاة لمن مات من المنافقين والقيام على قبره وقد علل النهي بأنهم كفروا وفسقوا وماتوا على فسقهم، وقد علل لغوية الاستغفار لهم في قوله تعالى: السابق: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آية: ٨٠] من السورة، وكذا في قوله ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦] بالكفر والفسق أيضا.

ب. ويتحصل من الجميع أن من فقد الإيمان بالله باستيلاء الكفر على قلبه وإحاطته به فلا سبيل له إلى النجاة يهتدي به، وأن الآيات الثلاث جميعا تكشف عن لغوية الاستغفار للمنافقين والصلاة على موتاهم والقيام على قبورهم للدعاء لهم.

٢. وفي الآية إشارة إلى أن النبي ﷺ كان يصلي على موتى المسلمين ويقوم على قبورهم للدعاء.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج البخاري ومسلم وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول، أتى ابنه عبد الله رسول الله ﷺ، يسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ، فقام عمر بن الخطاب فأخذ ثوبه فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين؟ فقال: إن ربي خيرني وقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾، وسأزيد على السبعين فقال: إنه منافق فصلى عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ﴾ فترك الصلاة عليهم.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخرى رواها أصحاب الجوامع ورواة الحديث عن عمر بن الخطاب وجابر وقتادة، وفي بعضها أنه كفنه في قميصه ونفث في جلده ونزل في قبره.

ب. وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم والنحاس وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: سمعت عمر يقول: لما توفي عبد الله بن أبي دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه فلما وقف قلت: أتصلي على عدو الله عبد الله بن أبي، القائل كذا وكذا والقائل كذا وكذا، أعدد أيامه، ورسول الله يتبسم حتى إذا أكثرت، قال: يا عمر أخر عني إني قد خيرت، قد قيل لي، ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾، فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها، ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه، حتى قام على قبره حتى فرغ منه، فعجبت لي

وجرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ﴾ فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل.

ج. وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي أن عمر بن الخطاب قال: لقد أصبت في الإسلام هفوة ما أصبت مثلها قط، أراد رسول الله ﷺ أن يصلي على عبد الله بن أبي، فأخذت بثوبه فقلت: والله ما أمرك الله بهذا، لقد قال الله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ فقال رسول الله ﷺ: قد خيرني ربي فقال ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، فقعد رسول الله ﷺ على شفير القبر فجعل الناس يقولون لابنه، يا حباب افعل كذا يا حباب افعل كذا، فقال رسول الله ﷺ: الحباب اسم شيطان أنت عبد الله.

د. وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس: أن ابن عبد الله بن أبي قال له أبوه، اطلب لي ثوبا من ثياب النبي ﷺ، فكفني فيه ومره أن يصلي علي قال: فأتاه، فقال: يا رسول الله قد عرفت شرف عبد الله، وهو يطلب إليك ثوبا من ثيابك نكفنه فيه وتصلي عليه، فقال عمر: يا رسول الله قد عرفت عبد الله ونفاقه أتصلي عليه، وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟ فقال: وأين؟ فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ قال: فإني سأزيد على سبعين فأنزل الله: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ﴾ الآية، قال: فأرسل إلى عمر فأخبره بذلك، وأنزل الله: ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾

• أقول: وقد ورد استغفار النبي ﷺ لعبد الله بن أبي وصلاته عليه في بعض المراسيل من روايات الشيعة أيضا أوردها العياشي والقمي في تفسيريهما، وقد تقدم خبر القمي، وهذه الروايات على ما فيها من بعض التناقض والتدافع واشتمالها على التعارض فيما بينها يدفعها الآيات الكريمة دفعا بينا لا مرية فيه:

● أما أولا فلظهور قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ ظهورا بينا في أن المراد بالآية بيان لغوية الاستغفار للمنافقين دون التخيير، وأن العدد جيء به لمبالغة الكثرة لا لخصوصية في السبعين بحيث ترجى المغفرة مع الزائد على السبعين، والنبي ﷺ أجل من أن يجهل هذه الدلالة فيحمل الآية على التخيير ثم يقول سأزيد على سبعين ثم يذكره غيره بمعنى الآية

فيصر على جهله حتى ينهاه الله عن الصلاة وغيرها بآية أخرى ينزلها عليه، على أن جميع هذه الآيات المتعرضة للاستغفار للمنافقين والصلاة عليهم كقوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وقوله: ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً﴾ تعلل النهي واللغوية بكفرهم وفسقهم، حتى قوله تعالى في النهي عن الاستغفار للمشركين: ﴿ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾ [آية: ١١٣] من السورة ينهى عن الاستغفار معللا ذلك بالكفر وخلود النار، وكيف يتصور مع ذلك جواز الاستغفار لهم والصلاة عليهم؟

- وثانيا: أن سياق الآيات التي منها قوله: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً﴾ الآية صريح في أن هذه الآية إنما نزلت والنبي ﷺ في سفره إلى تبوك ولما يرجع إلى المدينة، وذاك في سنة ثمان، وقد وقع موت عبد الله بن أبي بالمدينة سنة تسع من الهجرة كل ذلك مسلم من طريق النقل، فما معنى قوله في هذه الروايات: أن النبي ﷺ صلى على عبد الله وقام على قبره ثم أنزل الله عليه: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً﴾ الآية؟

- وأعجب منه ما وقع في بعض الروايات السابقة أن عمر قال للنبي ﷺ: أتصلي عليه وقد نهاك عن الصلاة للمنافقين فقال: إن ربي خيرني ثم أنزل الله: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ الآية.

- وأعجب منه ما في الرواية الأخيرة من نزول قوله: ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية، والآية من سورة المنافقون وقد نزلت بعد غزاة بني المصطلق وكانت في سنة خمس وعبد الله بن أبي حي عندئذ وقد حكي في السورة قوله: ﴿لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾

- وقد اشتمل بعض هذه الروايات وتعلق به بعض من انتصر لها على أن النبي ﷺ إنما استغفر وصلى على عبد الله ليستميل قلوب رجال منافقين من الخزرج إلى الإسلام، وكيف يستقيم ذلك؟ وكيف يصح أن يخالف النبي ﷺ النص الصريح من الآيات استمالة لقلوب المنافقين ومداهنة معهم؟ وقد هدده الله على ذلك بأبلغ التهديد في مثل قوله: ﴿إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ﴾ الآية: [الإسراء: ٧٥]، فالوجه أن هذه الروايات موضوعة يجب طرحها بمخالفة الكتاب.

٦٧. أموال المنافقين وأولادهم سبب للعذاب:

المقطع [٦٧] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٦٠»:

١. ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ﴾ الآية تقدم بعض ما يتعلق بالآية من الكلام في [الآية: ٥٥] من السورة.

٦٨. المنافقون يستأذنون ويتخلفون عن الجهاد:

المقطع [٦٨] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٦-٨٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٦٠»:

١. ﴿وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ إلى آخر الآيتين، الطول القدرة والنعمة، والخوالف هم الخالفون والكلام فيه كالكلام فيه، والباقي ظاهر.

٦٩. الرسول والمؤمنون والجهاد بالمال والأنفس:

المقطع [٦٩] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٦١»:

١. ﴿لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لما ذم المنافقين في الآيتين السابقتين بالرضا بالقعود مع الخوالف والطبع على قلوبهم استدرك بالنبي ﷺ والذين آمنوا معه، والمراد بهم المؤمنون حقا الذين خلصت قلوبهم من رين النفاق بدليل المقابلة مع المنافقين، ليمدحهم بالجهاد بأموالهم وأنفسهم أي إنهم لم يرضوا بالقعود ولم يطبع على قلوبهم بل نالوا سعادة الحياة والنور الإلهي الذي يهتدون به في مشيهم كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

٢. ولذلك عقب الكلام بقوله: ﴿وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فلهم جميع الخيرات، على ما يقتضيه الجمع المحلى باللام، من الحياة الطيبة ونور الهدى والشهادة وسائر ما يتقرب به

إلى الله سبحانه، وهم المفلحون الفائزون بالسعادة.

٣. ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي﴾ الآية الإعداد هو التهيئة وقد عبر بالإعداد دون الوعد لأن الأمور بخواتيمها وعواقبها فلو كان وعدا وهو وعد لجميع من آمن معه لكان قضاء حتميا واجب الوفاء سواء بقي الموعودون على صفاء إيمانهم وصلاح أعمالهم أو غيروا والله لا يخلف الميعاد، والأصول القرآنية لا تساعد على ذلك، ولا الفطرة السليمة ترضى أن ينسب إلى الله سبحانه أن يطبع بطابع المغفرة والجنة الحتمية على أحد لعمل عمله من الصالحات ثم يخلي بينه وبين ما شاء وأراد.

٤. ولذلك نجده سبحانه إذا وعد وعدا علقه على عنوان من العناوين العامة كالإيمان والعمل الصالح يدور معه الوعد الجميل من غير أن يخص به أشخاصا بأعيانهم فيفيد التناقض بالجمع بين التكليف والتأمين كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ﴾ [الآية: ٧٢] من السورة، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح: ٢٩]

٧٠. الأعراب المعذّرون والاستئذان:

المقطع [٧٠] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَّ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٦١»:

١. ﴿وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ الآية، الظاهر أن المراد بالمعذرين هم أهل العذر كالذي لا يجد نفقة ولا سلاحا بدليل قوله: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ الآية.

٢. والسياق يدل على أن في الكلام قياسا لإحدى الطائفتين إلى الأخرى ليظهر به لؤم المنافقين وخستهم وفساد قلوبهم وشقاء نفوسهم، حيث إن فريضة الجهاد الدينية والنصرة لله ورسوله هيج لذلك المعذرين من الأعراب وجاءوا إلى النبي ﷺ يستأذنونه، ولم يؤثر في هؤلاء الكاذبين شيئا.

٧١. رفع الحرج على الضعفاء والمرضى ومن لا يجدون نفقة:

المقطع [٧١] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِّ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُّ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٦٢»:

١. ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ المراد بالضعفاء بدلالة سياق الآية: الذين لا قوة لهم على الجهاد بحسب الطبع كالزمنى كما أن المرضى لا قوة لهم عليه بحسب عارض مزاجي، والذين لا يجدون ما ينفقون لا قوة لهم عليه من جهة فقد المال ونحوه، فهؤلاء مرفوع عنهم الحرج والمشقة أي الحكم بالوجوب الذي لو وضع كان حكما حرجيا، وكذا ما يستتبعه الحكم من الذم والعقاب على تقرير المخالفة.

٢. وقد قيد الله تعالى رفع الحرج عنهم بقوله: ﴿إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهو ناظر إلى الذم والعقاب على المخالفة والقعود فإنما يرفع الذم والعقاب عن هؤلاء المعذورين إذا نصحوا لله ورسوله، وأخلصوا من الغش والخيانة ولم يجروا في قعودهم على ما يجري عليه المنافقون المتخلفون من تقليب الأمور وإفساد القلوب في مجتمع المؤمنين، وإلا فيجري عليهم ما يجري على المنافقين من الذم والعقاب.

٣. ﴿ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ في مقام التعليل لنفي الحرج عن الطوائف المذكورين بشرط أن ينصحوا لله ورسوله أي لأنهم يكونون حينئذ محسنين وما على المحسنين من سبيل فلا سبيل يتسلط عليهم يؤتون منه فيصابون بما يكرهونه، ففي السبيل كناية عن كونهم في مأمن مما يصيبهم من مكروه كأنهم في حصن حصين لا طريق إلى داخله يسلكه الشر إليهم فيصيبهم، والجملة عامة بحسب المعنى وإن كان مورد التطبيق خاصا.

٧٢. صدق الباكين الذين لا يجدون ما يحملهم:

المقطع [٧٢] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٦٢»:

١. ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ﴾ الآية قال في المجمع: (الحمل إعطاء المركوب من فرس أو بعير أو غير ذلك تقول: حمله يحمله حملا إذا أعطاه ما يحمل عليه قال:

ألا فتى عنده خفان يحملني... عليهما إنني شيخ على سفر

قال: والفيض الجري عن امتلاء من قولهم: فاض الإناء بما فيه، والحزن ألم في القلب لفوت أمر

مأخوذ من حزن الأرض وهي الأرض الغليظة المسلك)

٢. ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ﴾ الآية، موصول صلته قوله: ﴿تَوَلَّوْا﴾ الآية، وقوله: ﴿إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ كالشرك والجزاء والمجموع ظرف لقوله: ﴿تَوَلَّوْا﴾) وحزنا مفعول له، و﴿أَلَّا يَجِدُوا﴾ منصوب بنزع الخافض.

٣. والمعنى: ولا حرج على الفقراء الذين إذا ما أتوك لتعطيهم مركوبا يركبونه وتصلح سائر ما يحتاجون إليه من السلاح وغيره قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا والحال أن أعينهم تمتلئ وتسكب دموعا للحزن من أن لا يجدوا، أو لأن لا يجدوا، ما ينفقونه في سبيل الله للجهاد مع أعدائه، وعطف هذا الصنف على ما تقدمه من عطف الخاص على العام عناية بهم لأنهم في أعلى درجة من النصح وإحسانهم ظاهر.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: نزلت في البكاءين وهم سبعة نفر: منهم عبد الرحمن بن كعب وعلبة بن زيد، وعمرو بن ثعلبة بن غنمة وهؤلاء من بني النجار، وسالم بن عمير وهرمي بن عبد الله وعبد الله بن عمرو بن عوف [أو] وعبد الله بن مغفل من مزينة، جاءوا إلى رسول الله فقالوا يا رسول الله، احملنا فإنه ليس لنا ما نخرج عليه فقال، لا أجد ما أحملكم عليه عن أبي حمزة الثمالي، وقيل: نزلت في سبعة من قبائل شتى أتوا النبي ﷺ فقالوا له: احملنا على الخفاف والنعال، عن محمد بن كعب وابن إسحاق، وقيل: كانوا جماعة من مزينة، عن مجاهد، وقيل: كانوا سبعة من فقراء الأنصار، فلما بكوا حمل عثمان منهم رجلين، والعباس بن عبد المطلب رجلين، ويامين بن كعب النضري ثلاثة عن الواقدي قال: وكان الناس بتبوك، مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفا منهم عشرة آلاف فارس.

• أقول: والروايات في أسماء البكاءين مختلفة اختلافا شديدا.

ب. وفي تفسير القمي، قال: قال: وإنما سأل هؤلاء البكاءون نعلا يلبسونها.

٧٣. السبيل على الأغنياء الذين يستأذنون وهم أغنياء:

المقطع [٧٣] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٦٣»:

١. ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية، القصر للإفراد والمعنى ظاهر.

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص: أن علي بن أبي طالب خرج مع النبي ﷺ، حتى جاء ثنية الوداع يريد تبوك، وعلي يبكي، ويقول: تخلفني مع الخوالف؟ فقال رسول الله ﷺ: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة.

• أقول: والرواية مروية بطرق كثيرة من طرق الفريقين.

ب. وفي تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ قال: مع النساء.

ج. أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس: أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة تبوك، فأشرف على المدينة قال: لقد تركتم بالمدينة رجالا، ما سرتم في مسير ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم فيه، قالوا: يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: حبسهم العذر.

٧٤. اعتذار المنافقين وكذبهم:

المقطع [٧٤] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٦٣»:

١. ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى آخر الآية، خطاب الجمع للنبي ﷺ والمؤمنين جميعا.

٢. ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لن نصدقكم على ما تعتذرون به بناء على تعدية الإيمان باللام كالباء، أو لن نصدق تصديقا ينفعكم، بناء على كون اللام للنفع، والجملة تعليل لقوله: ﴿لا تَعْتَذِرُوا﴾ كما أن قوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ تعليل لهذه الجملة.

٣. والمعنى يعتذر المنافقون إليكم عند رجوعكم من الغزوة إليهم قل يا محمد لهم: لا تعتذروا إلينا لأنا لن نصدقكم فيما تعتذرون به لأن الله قد أخبرنا ببعض أخباركم مما يظهر به نفاقكم وكذبكم فيما تعتذرون به، وسيظهر عملكم ظهور شهود لله ورسوله ثم تردون إلى الله الذي يعلم الغيب والشهادة يوم

القيامة فيخبركم بحقائق أعمالكم.

٤. وفي قوله: ﴿وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ الآية في إيضاحه كلام سيمر بك عن قريب.

٥. أحاديث وآثار: في المعاني، بإسناده عن ثعلبة عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ فقال: الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان.

• أقول: وهو من باب إراءة بعض المصاديق واللفظ أعم.

٧٥. حلف المنافقين والإعراض عنهم:

المقطع [٧٥] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٦٣»:

١. ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ الآية أي لتعرضوا عنهم فلا تتعرضوا لهم بالعتاب والتقريع وما يتعقب ذلك فأعرضوا عنهم لا تصديقا لهم فيما يحلفون له من الأعذار بل لأنهم رجس ينبغي أن لا يقترب منهم ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

٢. ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ﴾ أي هذا الحلف منهم كما كان للتوسل إلى صرفكم عنهم ليأمنوا الذم والتقريع كذلك هو للتوسل إلى رضاكم عنهم أما الإعراض فافعلوه لأنهم رجس لا ينبغي لنزاهة الإيمان وطهارته أن تتعرض لرجس النفاق والكذب وقذارة الكفر والفسق، وأما الرضى فاعلموا أنكم إن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عنهم لفسقهم والله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

٣. فالمراد أنكم إن رضيتم عنهم فقد رضيتم عمن لم يرض الله عنه أي رضيتم بخلاف رضى الله، ولا ينبغي لمؤمن أن يرضى عما يسخط ربه فهو أبلغ كناية عن النهي عن الرضا عن المنافقين.

٧٦. الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود الله:

المقطع [٧٦] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان:

٩/ ٣٧٠»:

١. ﴿الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ﴾ الآية، قال الراغب في المفردات: العرب ولد إسماعيل، والأعراب جمعه في الأصل، وصار ذلك اسما لسكان البادية: ﴿قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا﴾ و﴿الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً﴾ ﴿،﴾ ﴿وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وقيل في جمع الأعراب: أعاريب، قال الشاعر:

أعاريب ذوو فخر بإفك...وألسنة لطاف في المقال

والأعرابي في التعارف صار اسما للمنسوب إلى سكان البادية، والعربي المفصح والإعراب البيان)،

٢. يبين تعالى حال سكان البادية وأنهم أشد كفرا ونفاقا لأنهم لبعدهم عن المدنية والحضارة، وحرمانهم من بركات الإنسانية من العلم والأدب أقسى وأجفى، فهم أجدر وأحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من المعارف الأصلية والأحكام الشرعية من فرائض وسنن وحلال وحرام.

٧٧. بعض الأعراب يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بالمؤمنين الدوائر:

المقطع [٧٧] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٧١»:

١. ﴿وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ﴾ الآية:

أ. قال في المجمع: (المغرم الغرم وهو نزول نائبة بالمال من غير خيانة، وأصله لزوم الأمر، ومنه قوله: إن عذابها كان غراما، وحب غرام أي لازم والغريم يقال لكل واحد من المتداينين للزوم أحدهما الآخر وغرمته كذا أي ألزمته إياه في ماله)

ب. والدائرة الحادثة وتغلب في الحوادث السوء كأن الحوادث السوء تدور بين الناس فتنزل كل يوم بقوم فتربص الدوائر بالمؤمنين انتظار نزول الحوادث السوء عليهم للتخلص من سلطتهم والرجوع إلى رسوم الشرك والضلال.

٢. ﴿يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً﴾ أي يفرض الإنفاق غرما أو المال الذي ينفقه مغرما، على أن يكون ما مصدرية أو موصولة، والمراد الإنفاق في الجهاد أو أي سبيل من سبل الخير على ما قيل، ويمكن أن يكون

المراد الإنفاق في خصوص الصدقات ليكون الكلام كالتوطئة لما سيجيء بعد عدة آيات من حكم أخذ الصدقة من أموالهم، ويؤيده ما في الآية التالية من قوله: ﴿وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ﴾ فإنه كالتوطئة لقوله في آية الصدقة: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾

٣. فمعنى الآية: ومن سكان البادية من يفرض الإنفاق في سبيل الخير أو في خصوص الصدقات غرما وخسارة وينتظر نزول الحوادث السيئة بكم، عليهم دائرة السوء، قضاء منه تعالى أو دعاء عليهم، والله سميع للأقوال عليم بالقلوب.

٧٨. بعض الأعراب يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ النفقة قربة:

المقطع [٧٨] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٧١»:

١. ﴿وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ﴾ الآية، الظاهر أن قوله: ﴿صَلَواتِ الرَّسُولِ﴾ عطف على قوله: ﴿ما يُنْفِقُ﴾ وأن الضمير في قوله: ﴿أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ﴾ عائد إلى ما ينفق وصلوات الرسول.

٢. ومعنى الآية: ومن الأعراب من يؤمن بالله فيوحده من غير شرك ويؤمن باليوم الآخر فيصدق الحساب والجزاء ويتخذ إنفاق المال لله وما يتبعه من صلوات الرسول ودعواته بالخير والبركة، كل ذلك قربات عند الله وتقربات منه إليه إلا أن هذا الإنفاق وصلوات الرسول قربة لهم، والله يعدهم بأنه سيدخلهم في رحمته لأنه غفور للذنوب رحيم بالمؤمنين به والمطيعين له.

٧٩. السابقون من المهاجرين والأنصار والتابعون لهم بإحسان:

المقطع [٧٩] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٧٢»:

١. لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ ودلالته على فضل السابقين والتابعين]، وخلاصته:

أ. بيان أن الآية تقسم المؤمنين إلى ثلاثة أصناف: السابقون الأولون من المهاجرين، والسابقون الأولون من الأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان.

ب. إثبات أن المراد بالسابقين الأولين هم الذين أسسوا الدين وصبروا على الفتنة، وهاجروا ونصروا النبي ﷺ قبل وقعة بدر، وليس مجرد من صلى إلى القبلتين أو بايع بيعة الرضوان.

ج. توضيح أن قوله: ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ يعني أن يكون الاتباع للحق لا للهوى، وأن يكون مطابقاً لعمل المتبوع، لا أنه مجرد عمل حسن.

د. بيان أن الآية تمدح السابقين وتفضلهم على غيرهم، ولكن هذا الفضل مقيد بالإيمان والعمل الصالح، ولا يشمل من فسق أو ظلم.

هـ. الرد على من زعم أن الآية تدل على رضى الله عن جميع الصحابة محسنهم ومسيئهم، وبيان أن ذلك ينافي آيات القرآن التي تذم الفاسقين والظالمين.

و. توضيح أن رضى الله صفة فعلية تتغير بتغير العمل، وليس صفة ذاتية لازمة، بدليل قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَّ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

ز. عرض الروايات الواردة في تفسير الآية، وبيان أن بعضها يدل على تخصيص الفضل ببعض الصحابة دون جميعهم.

٨٠. من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون:

المقطع [٨٠] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٧٦»:

١. ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الآية:

أ. حول الشيء ما يجاوره من المكان من أطرافه وهو ظرف، والمرد العتو والخروج عن الطاعة، والممارسة والتمرين على الشر وهو المعنى المناسب لقوله في الآية: ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي مرنوا عليه ومارسوا حتى اعتادوه.

ب. ومعنى الآية: وممن في حولكم أو حول المدينة من الأعراب الساكنين في البوادي منافقون مرنوا على النفاق ومن أهل المدينة أيضا منافقون معتادون على النفاق لا تعلمهم أنت يا محمد نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم.

٢. وقد اختلفت كلماتهم في المراد من تعذيبهم مرتين ما هما المرتان؟ فقيل: يعني مرة في الدنيا بالسبي والقتل ونحوهما ومرة بعذاب القبر، وقيل: في الدنيا بأخذ الزكاة وفي الآخرة بعذاب القبر، وقيل بالجوع مرتين وقيل مرة عند الاحتضار ومرة في القبر وقيل: بإقامة الحدود وعذاب القبر، وقيل: مرة بالفضيحة في الدنيا ومرة بالعذاب في القبر، وقيل غير ذلك، ولا دليل على شيء من هذه الأقوال، وإن كان ولا بد فأولها أولاها.

٨١. من المخلفين من اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً:

المقطع [٨١] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٧٦»:

١. ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ الآية، أي ومن الأعراب جماعة آخرون مذنبون لا ينافقون مثل غيرهم بل اعترفوا بذنوبهم لهم عمل صالح وعمل آخر سيئ خلطوا هذا بذلك من المرجو أن يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم.

٢. وفي قوله: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إيجاد الرجاء في نفوسهم لتكون نفوسهم واقعة بين الخوف والرجاء من غير أن يحيط بها اليأس والقنوط، وفي قوله: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ترجيح جانب الرجاء.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن موسى بن بكر عن رجل قال: قال أبو جعفر عليه السلام: (الذين ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾) فأولئك قوم مؤمنون يحدثون في إيمانهم من الذنوب، التي يعيبها المؤمنون ويكرهونها، فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم.

- أقول: ورواه العياشي عن زرارة عنه عليه السلام إلا أن فيه (مذنبون) (مكان مؤمنون)

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية، قال: أبو حمزة الثمالي: بلغنا أنهم ثلاثة نفر من الأنصار: أبو كنانة بن عبد المنذر وثعلبة بن وديعة، وأوس بن حذام تخلفوا عن رسول الله ﷺ، عند مخرجه إلى تبوك، فلما بلغهم ما أنزل الله فيمن تخلف عن نبيه ﷺ أيقنوا بالهلاك، وأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد فلم يزالوا كذلك، حتى قدم رسول الله ﷺ فسأل عنهم، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلون أنفسهم، حتى يكون رسول الله يحلهم، وقال رسول الله ﷺ: وأنا أقسم لا أكون أول من حلهم، إلا أن أومر فيهم بأمر، فلما نزل: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عمد رسول الله ﷺ إليهم فحلهم فانطلقوا، فجاءوا بأموالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فخذها وتصدق بها عنا، قال: ما أمرت فيها، فنزل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآيات.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخرى رواها في الدر المنثور بينها اختلاف في أسامي الرجال، وفيها نزول آية الصدقة في خصوص أموالهم، ويضعفها تظافر الروايات في نزول الآية في الزكاة الواجبة.

ج. وفيه، وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: أنها نزلت في أبي لبابة ولم يذكر غيره معه، وسبب نزولها فيه ما جرى منه في بني قريظة، حين قال: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح.

٨٢. الصدقة والتطهير والتزكية:

المقطع [٨٢] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٧٧»:

١. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

أ. التطهير إزالة الأوساخ والقذارات من الشيء ليصفى وجوده ويستعد للنشوء والنماء وظهور آثاره وبركاته، والتزكية إنماؤه وإعطاء الرشد له بلحوق الخيرات وظهور البركات كالشجر يقطع الزوائد من فروعها فتزيد في حسن نموها وجودة ثمرتها فالجمع بين التطهير والتزكية في الآية من لطيف التعبير.

ب. فقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً﴾ أمر للنبي ﷺ بأخذ الصدقة من أموال الناس ولم يقل: من مالهم ليكون إشارة إلى أنها مأخوذة من أصناف المال، وهي النقدان: الذهب والفضة، والأنعام الثلاثة:

الإبل والبقر والغنم، والغلات الأربع: الحنطة والشعير والتمر والزبيب.

ج. ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ خطاب للنبي ﷺ، وليس وصفا لحال الصدقة، والدليل عليه ضمير بها الراجع إلى الصدقة أي خذ يا محمد من أصناف أموالهم صدقة تطهرهم أنت وتزكيهم بتلك الصدقة أي أخذها.

٢. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ الصلاة عليهم هي الدعاء لهم والسياق يفيد أنه دعاء لهم ولأموالهم بالخير والبركة وهو المحفوظ من سنة النبي ﷺ فكان يدعو لمعطي الزكاة ولماله بالخير والبركة.

٣. ﴿إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ السكن ما يسكن إليه الشيء والمراد به أن نفوسهم تسكن إلى دعائك وتثق به وهو نوع شكر لسعيهم في الله كما أن قوله تعالى في ذيل الآية: ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سكن يسكن إليه نفوس المكلفين ممن يسمع الآية أو يتلوها.

٤. والآية تتضمن حكم الزكاة المالية التي هي من أركان الشريعة والملة على ما هو ظاهر الآية في نفسها، وقد فسرتها بذلك أخبار متكاثرة من طرق أئمة أهل البيت عليه السلام وغيرهم.

٥. وضع هنا مبحثا حول [الزكاة وسائر الصدقة]، خلاصته:

أ. حاجة المجتمع إلى مال يختص به ويصرف لرفع حوائجه العامة أصبحت من البديهيات اليوم، والإسلام له اليد العليا في ذلك، فقد بين أن الاجتماع يصيغ من الأفراد هوية جديدة حية هي المجتمع، وله من الوجود والعمر والحياة والشعور والإرادة ما للإنسان الفرد.

ب. الشريعة الإسلامية عزلت سهماً من منافع الأموال للمجتمع (كالزكاة والخمس)، لكنها تمتاز عن سائر السنن بأمور: أنها اقتصرت على كينونة الملك وحدوثه، فشركت المجتمع مع الفرد من رأس، فالمالك الفرد مالك في طول مالك وهو المجتمع.

ج. الإسلام لا يرى وجوهاً مالية متعلقة بالنفوس أو الضياع أو الأموال التجارية عند حصول شرائط (كالعشر في الثغور)، بل يعده نوعاً من الغصب والظلم يوجب تحديداً في حرية المالك.

د. الإسلام يعتبر حال الأفراد في الأموال الخاصة بالمجتمع كما يعتبر حال المجتمع، بل الغلبة لحالهم، فجعل سهام الزكاة ثمانية لا يختص بسبيل الله منها إلا سهم واحد، والباقي للأفراد، وكذلك الخمس.

هـ. رفع اختلاف الطبقات وإلقاء التعادل بين قوى المجتمع لا يتم إلا بإصلاح حال الأفراد وتقريب أحوالهم، وقصر مال المجتمع على التزيينات المشتركة لا يدفع غائلاً.

و. للفرد أن يصرف ما عليه من الحق المالي الواجب (كالزكاة) في بعض أرباب السهام من دون أن يؤديه إلى ولي الأمر، وهذا نوع من الاحترام الاستقلالي، لكن لولي الأمر أن ينهى عن ذلك إذا رأى مصلحة الإسلام في خلافه.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لما نزلت هذه الآية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها﴾ وأنزلت في شهر رمضان، فأمر رسول الله ﷺ مناديه فنادى في الناس: أن الله فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة، ففرض الله عز وجل عليهم من الذهب والفضة، وفرض الصدقة من الإبل والبقر والغنم، ومن الحنطة والشعير والتمر والزبيب، فنادى بهم بذلك في شهر رمضان، وعفا لهم عما سوى ذلك، قال: ثم لم يفرض لشيء من أموالهم، حتى حال عليه الحول من قابل، فصاموا وأفطروا فأمر مناديه فنادى في المسلمين: أيها المسلمون زكوا أموالكم تقبل صلاتكم، قال: ثم وجه عمال الصدقة وعمال الطسوق.

ب. أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتي بصدقة قال: اللهم صل على آل فلان فأتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى.

٨٣. الله يقبل توبة عباده ويأخذ الصدقات:

المقطع [٨٣] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٧٧»:

١. ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ استفهام إنكاري بداعي تشويق الناس إلى إيتاء الزكاة، وذلك أنهم إنما يؤتون الصدقة لله وإنما يسلمونها إلى الرسول أو إلى عامله وجابيه بما أنه مأمور من قبل الله في أخذها فإيتاؤه إيتاء لله، وأخذه أخذ من الله فالله

سبحانه هو الأخذ لها بالحقيقة، وقد قال تعالى في أمثاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وقال: ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾ [الأنفال: ١٣] وقال قولا عاما: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فإذا ذكر الناس بمثل قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ﴾ الآية، انبعثت رغباتهم واشتاقوا أن يعاملوا ربهم فيصافحوه ويمسوا بأيديهم يده تنزه عن عوارض الأجسام وتعالى عن ملابسة الحدثان.

٢. ومقارنته الصدقة بالتوبة لما أن التوبة تطهر وإيتاء الصدقة تطهر فالتصدق بصدقة توبة مالية كما أن التوبة بمنزلة الصدقة في الأعمال والحركات، ولذلك عطف على صدر الآية قوله ذيلا: ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فذكر عباده باسميه التواب والرحيم، وجمع فيهما التوبة والتصدق.

٣. وقد بان من الآية أن التصدق وإيتاء الزكاة نوع من التوبة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن الصدوق بإسناده عن سليمان بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ﴾ قال: يقبلها من أهلها ويثيب عليها.

ب. وفي تفسير العياشي، عن مالك بن عطية عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال علي بن الحسين عليه السلام: ضمنت على ربي أن الصدقة لا تقع في يد العبد، حتى تقع في يد الرب، وهو قوله: ﴿هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ﴾

• أقول: وفي معناه روايات أخرى مروية عن النبي ﷺ وعلي وأبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

٨٤. رؤية الله ورسوله والمؤمنين للأعمال:

المقطع [٨٤] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٧٨»:

١. ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية:

أ. الآية على ظاهر اتصالها بما قبلها كأنها تخاطب المؤمنين وتسوقهم وتحرضهم إلى إيتاء الصدقات، غير أن لفظها مطلق لا دليل على تخصيص خطابها بالمتصدقين من المؤمنين ولا بعامة المؤمنين بل هي تشمل

كل ذي عمل من الناس من الكفار والمنافقين والمؤمنين ولا أقل من شمولها للمنافقين والمؤمنين جميعا.

ب. إلا أن نظير الآية الذي مر أعني قوله في سياق الكلام على المنافقين: ﴿وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤] حيث ذكر الله ورسوله في رؤية عملهم ولم يذكر المؤمنين لا يخلو من إيماء إلى أن الخطاب في الآية التي نحن فيها للمؤمنين خاصة فإن ضم إحدى الآيتين إلى الأخرى يخطر بالبال أن حقيقة أعمال المنافقين أعني مقاصدهم من أعمالهم لما كانت خفية على ملإ الناس فإنما يعلم بها الله ورسوله بوحي من الله تعالى، وأما المؤمنون فحقائق أعمالهم أعني مقاصدهم منها وآثارها وفوائدها التي تتفرع عليها وهي شيوع التقوى وإصلاح شئون المجتمع الإسلامي وإمداد الفقراء في معايشهم وزكاة الأموال ونماؤها يعلمها الله تعالى ورسوله ويشاهدها المؤمنون فيما بينهم، لكن ظهور الأعمال بحقائق آثارها وعامة فوائدها أو مضراتها في محيط كينونتها وتبدلها بأمثالها وتصورها في أطوارها زمانا بعد زمان وعصرا بعد عصر مما لا يختص بعمل قوم دون عمل قوم، ولا مشاهدتها والتأثر بها بقوم دون قوم، فلو كان المراد من رؤية المؤمنين أعمالا لعاملين ظهور آثارها ونتائجها وبعبارة أخرى ظهور أنفسها في ألبسة نتائجها لهم لم يختص المشاهدة بقوم دون قوم ولا بعمل قوم دون عمل قوم فما بال الأعمال يراها المؤمنون ولا يراها المنافقون وهم أهل مجتمع واحد؟ وما بال أعمال المنافقين لا يشاهدها المؤمنون وقد كونت في مجتمعهم وداخلت أعمالهم؟

٢. وهذا مع ما في الآية من خصوص السياق مما يقرب الذهن أن يفهم من الآية معنى آخر فإنه قوله: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يدل:

أ. أولا على أن قوله: ﴿فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ﴾ الآية ناظر إلى ما قبل البعث وهي الدنيا لمكان قوله: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ فإنه يشير إلى يوم البعث وما قبله هو الدنيا.

ب. وثانيا: أنهم إنما يوقفون على حقيقة أعمالهم يوم البعث وأما قبل ذلك فإنما يرون ظاهرها، وقد نبهنا على هذا المعنى كرارا في أبحاثنا السابقة، وإذ قصر علمهم بحقائق أعمالهم على إنبائه تعالى إياهم بها يوم القيامة وذكر رؤية الله ورسوله والمؤمنين أعمالهم قبل يوم البعث في الدنيا وقد ذكر الله مع رسوله وغيره وهو عالم بحقائقها وله أن يوحي إلى نبيه بها كان المراد بها مشاهدة الله سبحانه ورسوله والمؤمنون حقيقة أعمالهم، وكان المراد بالمؤمنين شهداء الأعمال منهم لا عامة المؤمنين كما يدل عليه أمثال قوله تعالى ﴿وَكَذلِكَ

جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣] وقد مر الكلام فيه في الجزء الأول من الكتاب.

٣. وعلى هذا فمعنى الآية:

أ. وقل يا محمد اعملوا ما شئتم من عمل خيرا أو شرا فسيشاهد الله سبحانه حقيقة عملكم ويشاهدها رسوله والمؤمنون، وهم شهداء الأعمال، ثم تردون إلى الله عالم الغيب والشهادة يوم القيامة فيريكم حقيقة عملكم.

ب. وبعبارة أخرى: ما عملتم من عمل خير أو شر فإن حقيقته مرئية مشهودة لله عالم الغيب والشهادة ثم لرسوله والمؤمنين في الدنيا ثم لكم أنفسكم معاشر العاملين يوم القيامة.

٤. فالآية مسوقة لندب الناس إلى مراقبة أعمالهم بتذكيرهم أن لأعمالهم من خير أو شر حقائق غير مستورة بستر، وإن لها رقباء شهداء سيطلعون عليها ويرون حقائقها وهم رسول الله وشهداء الأعمال من المؤمنين والله من ورائهم محيط فهو تعالى يراها وهم يرونها، ثم إن الله سبحانه سيكشف عنها الغطاء يوم القيامة للعاملين أنفسهم كما قال: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] ففرق عظيم بين أن يأتي الإنسان بعمل في الخلوة لا يطلع عليه أحد، وبين أن يعمل ذلك العمل بعينه بين ملإ من الناظرين جلوة وهو يرى أنه كذلك.

٥. هذا في الآية التي نحن فيها، وأما الآية السابقة: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإن وجه الكلام فيها إلى أشخاص من المنافقين بأعيانهم يأمر الله فيها نبيه ﷺ أن يرد إليهم اعتذارهم، ويذكر لهم أولا أن الله قد نبأهم أي النبي والذين معه من المؤمنين في جيش الإسلام أخبارهم بنزول هذه الآيات التي تقص أخبار المنافقين وتكشف عن مساوي أعمالهم، ثم يذكر لهم أن حقيقة أعمالهم غير مستورة عن الله سبحانه ولا خفية عليه وكذلك رسوله وحده ولم يكن معه أحد من شهداء الأعمال ثم الله يكشف لهم أنفسهم عن حقيقة أعمالهم يوم القيامة.

٦. فهذا هو الفرق بين الآيتين مع اتحادهما في ظاهر السياق حيث ذكر في الآية التي نحن فيها: الله ورسوله والمؤمنون، وفي الآية السابقة: الله ورسوله، واقتصر على ذلك، فهذا ما يعطيه التدبر في معنى الآية

ومن لم يقنع بذلك ولم يرض دون أن يصور للآية معنى ظاهريا فليقل إن ذكره تعالى (الله ورسوله) في خطاب المنافقين إنما هو لأجل أنهم إنما يريدون أن يكيدوا الله ورسوله ولا هم لهم في المؤمنون، وأما ذكره تعالى: (الله ورسوله والمؤمنين) في الخطاب العام فإنما الغرض فيه تحريضهم على العمل الصالح في مشهد من الملإ الصالح ولم يعبأ بحال غيرهم من الكفار والمنافقين، فتدبر.

٧. أحاديث وآثار: في بصائر الدرجات، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألت عن الأعمال هل تعرض على رسول الله ﷺ؟ قال: ما فيه شك، قال: أرأيت قول الله ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فقال: لله شهداء في خلقه.

• أقول: وفي معناه روايات متظافرة متكاثرة مروية في جوامع الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام، وفي أكثرها: أن ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ في الآية هم الأئمة، وانطباقها على ما قدمناه من التفسير ظاهر.

٨٥. المرجون لأمر الله وما ينتظرهم من عذاب أو توبة:

المقطع [٨٥] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٨٠»:

١. ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

أ. الإرجاء التأخير، والآية معطوفة على قوله: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ ومعنى إرجائهم إلى أمر الله أنهم لا سبب عندهم يرجح لهم جانب العذاب أو جانب المغفرة فأمرهم يئول إلى أمر الله ما شاء وأراد فيهم فهو النافذ في حقهم.

ب. وهذه الآية تنطبق بحسب نفسها على المستضعفين الذين هم كالبرزخ بين المحسنين والمسيئين، وإن ورد في أسباب النزول أن الآية نازلة في الثلاثة الذين خلفوا ثم تابوا فأنزل الله توبتهم على رسوله ﷺ وسيجيء إن شاء الله تعالى.

ج. وكيف كان فالآية تخفي ما يئول إليه عاقبة أمرهم وتبقيها على إبهامها حتى فيما ذيلت به من الاسمين الكريمين: العليم والحكيم الدالين على أن الله سبحانه يحكم فيهم بما يقتضيه علمه وحكمته، وهذا بخلاف ما ذيل قوله: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ حيث قال: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

٢. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ﴾ قال: قوم كانوا مشركين فقتلوا مثل حمزة وجعفرا، وأشباههما من المسلمين، ثم إنهم دخلوا في الإسلام فوحدوا الله وتركوا الشرك، ولم يعرفوا الإيمان بقلوبهم، فيكونوا من المؤمنين فيجب لهم الجنة، ولم يكونوا على جحودهم فيكفروا، فيجب لهم النار فهم على تلك الحال مرجون لأمر الله، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم:

أقول: ورواه العياشي في تفسيره عن زرارة عنه عليه السلام وفي معناه روايات أخر.

ب. وفي تفسير العياشي، عن حمران قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المستضعفين قال: هم ليسوا بالمؤمنين ولا بالكفار فهم المرجون لأمر الله.

ج. أخرج ابن المنذر عن عكرمة: في قوله: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ﴾ قال: هم الثلاثة الذين خلفوا:

• أقول: وروي مثله عن مجاهد وقتادة وأن أسماءهم هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك من الأوس والخزرج، ولا تنطبق قصتهم على هذه الآية وسيجيء إن شاء الله تعالى.

٨٦. مسجد الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين:

المقطع [٨٦] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٨٩»:

١. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً﴾ إلى آخر الآية:

أ. الضرار والمضارة إيصال الضرر، والإرصاد اتخاذ الرصد والانتظار والترقب.

ب. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً﴾ إن كانت الآيات نازلة مع ما تقدمها من الآيات النازلة في المنافقين فالعطف على من تقدم ذكرهم من طوائف المنافقين المذكورين بقوله: ومنهم، ومنهم أي ومنهم الذين اتخذوا مسجدا ضرارا، وإن كانت مستقلة بالنزول فالوجه كون الواو استئنافية وقوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ ويمكن إجراء هذا الوجه على التقدير السابق أيضا، وقد ذكر

المفسرون في إعراب الآية وجوها أخرى لا تخلو عن تكلف تركناها.

ج. وقد بين الله غرض هذه الطائفة من المنافقين في اتخاذ هذا المسجد وهو الضرار بغيرهم والكفر والتفريق بين المؤمنين والإرصاد لمن حارب الله ورسوله، والأغراض المذكورة خاصة ترتبط إلى قصة خاصة بعينها، وهي على ما اتفق عليه أهل النقل أن جماعة من بني عمرو بن عوف بنوا مسجد قبا وسألوا النبي أن يصلي فيه فصلى فيه فحسدهم جماعة من بني غنم بن عوف وهم منافقون فبنوا مسجدا إلى جنب مسجد قبا ليضروا به ويفرقوا المؤمنين منه وينتظروا لأبي عامر الراهب الذي وعدهم أن يأتيهم بجيش من الروم ليخرجوا النبي ﷺ من المدينة، وأمرهم أن يستعدوا للقتال معهم، ولما بنوا المسجد أتوا النبي ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك وسألوه أن يأتيه ويصلي فيه ويدعو لهم بالبركة فوعدهم إلى الفراغ من أمر تبوك والرجوع إلى المدينة فنزلت الآيات.

د. فكان مسجدهم لمضارة مسجد قبا، وللكفر بالله ورسوله، ولتفريق المؤمنين المجتمعين في قبا، ولإرصاد أبي عامر الراهب المحارب لله ورسوله من قبل، وقد أخبر الله سبحانه عنهم إنهم ليحلفن إن أردنا من بناء هذا المسجد إلا الفعلة الحسنى وهو التسهيل للمؤمنين بتكثير معابد يعبد فيها الله، وشهد تعالى بكذبهم بقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: قال المفسرون: إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قبا، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فأتاهم وصلى فيه، فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف، فقالوا: نبني مسجدا فنصلي فيه ولا نحضر جماعة محمد، وكانوا اثني عشر رجلا، وقيل: خمسة عشر رجلا، منهم: ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير، ونبتل بن الحارث فبنوا مسجدا إلى جنب مسجد قبا، فلما بنوه أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا، لذي العلة والحاجة والليلة المطرة والليلة الشاتية،، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي فيه لنا، وتدعو بالبركة فقال ﷺ: إني على جناح سفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه، فلما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك، نزلت عليه الآية في شأن المسجد، قال: فوجه رسول الله ﷺ عند قدومه من تبوك، عاصم بن عوف العجلاني ومالك بن الدخشم، وكان مالك من بني عمرو بن عوف فقال لهما: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فأهدماه وحرقاه، وروي أنه بعث عمار بن

ياسر ووحشيا فحرقاه، وأمر بأن يتخذ كناسة يلقى فيها الجيف.

• أقول: وفي رواية القمي: أنه ﷺ بعث لذلك مالك بن دخشم الخزاعي، وعامر بن عدي أخا بني عمرو بن عوف، فجاء مالك وقال لعامر: انتظرني حتى أخرج نارا من منزلي، فدخل وجاء بنار وأشعل في سعف النخل، ثم أشعله في المسجد فتفرقوا، وقعد زيد بن حارثة حتى احترقت البنية، ثم أمر بهدم حائطه.

• والقصة مروية بطرق كثيرة من طرق أهل السنة، والروايات متقاربة إلا أن في أسامي من بعثه النبي ﷺ اختلافا.

ب. أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن إسحاق قال: كان الذين بنوا مسجد الضرار اثني عشر رجلا: خذام بن خالد بن عبيد بن زيد، وثعلبة بن حاطب وهلال بن أمية، ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن الأزعر، وعباد بن حنيف، وجارية بن عامر وابناه مجمع وزيد، ونبتل بن الحارث، وبخدج بن عثمان ووديعة بن ثابت.

ج. وفي المجمع في قوله: ﴿وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ قال: هو أبو عامر الراهب، قال وكان من قصته أنه كان قد ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح فلما قدم النبي ﷺ المدينة حسده، وحزب عليه الأحزاب، ثم هرب بعد فتح مكة إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام، وخرج إلى الروم وتنصر وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، الذي قتل مع النبي ﷺ يوم أحد، وكان جنبا فغسلته الملائكة، وسمى رسول الله ﷺ أبا عامر الفاسق، وكان قد أرسل إلى المنافق أن استعدوا وابنوا مسجدا، فإني أذهب إلى قيصر وآتي من عنده بجنود، وأخرج محمدا من المدينة، فكان هؤلاء المنافقون يتوقعون أن يجيئهم أبو عامر، فمات قبل أن يبلغ ملك الروم.

• أقول: وفي معناه عدة من الروايات.

٨٧. مسجد التقوى أحق بالقيام فيه:

المقطع [٨٧] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٩٠»:

١. ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ إلى آخر الآية:

أ. بدأ بنهي النبي ﷺ عن أن يقوم فيه ثم ذكر مسجد قبا ورجح القيام فيه بعد ما مدحه بقوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ فمدحه بحسن نية مؤسسيه من أول يوم وبنى عليه رجحان القيام فيه على القيام في مسجد الضرار.

ب. والجملة وإن لم تفد تعين القيام في مسجد قبا حيث عبر بقوله: (أحق)، غير أن سبق النهي عن القيام في مسجد الضرار يوجب ذلك، وقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ تعليل للرجحان السابق، وقوله: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ متمم للتعليل المذكور، وهذا هو الدليل على أن المراد بقوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ الآية هو مسجد قبا لا مسجد النبي أو غيره.

٢. ومعنى الآية: لا تقم أي للصلاة في مسجد الضرار أبدا، أقسم، لمسجد قبا الذي هو مسجد أسس على تقوى الله من أول يوم أحق وأحرى أن تقوم فيه للصلاة وذلك أن فيه رجالا يحبون التطهر من الذنوب أو من الأرجاس والأحداث والله يحب المطهرين وعليك أن تقوم فيهم.

٣. وقد ظهر بذلك أن قوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ الآية، بمنزلة التعليل لرجحان المسجد على المسجد وقوله: ﴿فِيهِ رِجالٌ﴾ الآية، لإفادة رجحان أهله على أهله، وقوله الآتي: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ﴾ الآية، لبيان الرجحان الثاني.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن المسجد الذي أسس على التقوى، فقال: مسجد قبا.

• أقول: ورواه العياشي في تفسيره، وروي هذا المعنى أيضا في الكافي، بإسناده عن معاوية بن عمار عنه عليه السلام.

ب. وقد روي في الدر المنثور، بغير واحد من الطرق عن النبي ﷺ أنه قال: هو مسجدي هذا، وهو مخالف لظاهر الآية وخاصة، قوله: ﴿فِيهِ رِجالٌ﴾ الآية، فإن الكلام موضوع في القياس بين المسجدين: مسجد قبا ومسجد الضرار والقياس بين أهليهما، ولا غرض يتعلق بمسجد النبي ﷺ.

ج. وفي تفسير العياشي، عن الحلبي عن الصادق عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ قال: الذين يحبون أن يتطهروا نظف الوضوء، وهو الاستنجاء بالماء وقال: قال نزلت

هذه في أهل قبا.

د. وفي المجمع في الآية قال: يحبون أن يتطهروا بالماء عن الغائط والبول: وهو المروي عن السيدين: الباقر والصادق عليه السلام، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: لأهل قبا: ماذا تفعلون في طهركم، فإن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء؟ قالوا: نغسل أثر الغائط، فقال: أنزل الله فيكم: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾

٨٨. البنيان المؤسس على التقوى والبنيان المؤسس على شفا جرف هار:

المقطع [٨٨] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِّ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُّ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُّ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٩-١١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٩١»:

١. ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ﴾ إلى آخر الآية شفا البئر طرفه، وجرف الوادي جانبه الذي انحفر بالماء أصله وهار الشيء يهار فهو هائر وربما يقال: هار بالقلب وأنهار ينهار انهيارا أي سقط عن لين فقوله: ﴿عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ﴾ استعارة تخييلية شبه فيها حالهم بحال من بنى بنيانا على نهاية شفير واد لا ثقة بثباتها وقوامها فتساقطت بما بني عليه من البنيان وكان في أصله جهنم فوقع في ناره، وهذا بخلاف من بنى بنيانه على تقوى من الله ورضوان منه أي جرى في حياته على اتقاء عذاب الله وابتغاء رضاه.

٢. وظاهر السياق أن قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى﴾ الآية، وقوله: ﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ﴾ الآية، مثلان يمثل بهما بنيان حياة المؤمنين والمنافقين وهو الدين والطريق الذي يجريان عليه فيها فدين المؤمن هو تقوى الله وابتغاء رضوانه عن يقين به، ودين المنافق مبني على التزلزل والشك.

٣. ولذلك أعقبه الله تعالى وزاد في بيانه بقوله: ﴿لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ﴾ يعني المنافقين ﴿الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً﴾ وشكا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لا يتعدى إلى مرحلة اليقين ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ فتتلاشى الريبة بتلاشيها ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ولذلك يضع هؤلاء ويرفع أولئك.

٨٩. الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة:

المقطع [٨٩] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهَّ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهَّ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٩٦»:

١. ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ إلى آخر الآية، الاشتراء هو قبول العين المبيعة بنقل الثمن في المبايعة.

٢. والله سبحانه يذكر في الآية وعده القطعي للذين يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم بالجنة، ويذكر أنه ذكر ذلك في التوراة والإنجيل كما يذكره في القرآن، وقد قلبه سبحانه في قالب التمثيل فصور ذلك بيعا، وجعل نفسه مشتريا والمؤمنين بائعين، وأنفسهم وأموالهم سلعة ومبيعا، والجنة ثمنا، والتوراة والإنجيل والقرآن سندا للمبايعة، وهو من لطيف التمثيل ثم يبشر المؤمنين ببيعهم ذلك، ويهنئهم بالفوز العظيم.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية، فكبر الناس في المسجد، فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفي ردائه على عاتقه، فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية؟ قال: نعم، فقال الأنصاري: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لقي عباد البصري علي بن الحسين عليه السلام في طريق مكة فقال له: يا علي بن الحسين تركت الجهاد وصعوبته، وأقبلت على الحج ولينته إن الله يقول: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى﴾ الآية، فقال علي بن الحسين عليه السلام، إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج.

• أقول: يريد عليه السلام ما في الآية الثانية: ﴿التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ﴾ الآية من الأوصاف.

٩٠. صفات المجاهدين:

المقطع [٩٠] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهَّ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٩٦»:

١. ﴿التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. يصف سبحانه المؤمنين بأجمل صفاتهم، والصفات مرفوعة بالقطع أي المؤمنون هم التائبون العابدون إلخ، فهم التائبون لرجوعهم من غير الله إلى الله سبحانه العابدون له ويعبدونه بألسنتهم فيحمدونه بجميل الثناء، وبأقدامهم فيسيحون ويجولون من معهد من المعاهد الدينية ومسجد من مساجد الله إلى غيره، وبأبدانهم فيركعون له ويسجدون له.

ب. هذا شأنهم بالنسبة إلى حال الانفراد وأما بالنسبة إلى حال الاجتماع فهم آمرون بالمعروف في السنة الدينية وناهون عن المنكر فيها ثم هم حافظون لحدود الله لا يتعدونه في حالتي انفرادهم واجتماعهم خلوتهم وجلوتهم، ثم يأمر النبي ﷺ بأن يبشرهم وقد بشرهم تعالى نفسه في الآية السابقة، وفيه من كمال التأكيد ما لا يقدر قدره.

٢. وقد ظهر بما قررنا:

أ. أولا: وجه الترتيب بين الأوصاف التي عدها لهم فقد بدأ بأوصافهم منفردين وهي التوبة والعبادة والسياحة والركوع والسجود ثم ذكر ما لهم من الوصف الخاص بهم المنبعث عن إيمانهم مجتمعين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وختم بما لهم من جميل الوصف في حالتي انفرادهم واجتماعهم وهو حفظهم لحدود الله، وفي التعبير بالحفظ مضافا إلى الدلالة على عدم التعدي دلالة على الرقوب والاهتمام.

ب. وثانيا: أن المراد بالسياحة، ومعناه السير في الأرض، على ما هو الأنسب بسياق الترتيب هو السير إلى مساكن ذكر الله وعبادته كالمساجد، وأما القول بأن المراد بالسياحة الصيام أو السياحة في الأرض للاعتبار بعجائب قدرة الله وما جرى على الأمم الماضية مما تحكيه ديارهم وآثارهم أو المسافرة لطلب العلم أو المسافرة لطلب الحديث خاصة فهي وجوه غير سديدة:

• أما الأول: فلا دليل عليه من جهة اللفظ البتة، وأما الوجوه الأخر فإنها وإن كانت ربما استفيد الندب من مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٨٢]، وقوله: ﴿فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [الآية: ١٢٢] من السورة إلا أن إرادتها من قوله: ﴿السَّائِحُونَ﴾ تبطل جودة الترتيب بين الصفات المنضودة.

• وثالثا: أن هذه الصفات الشريفة هي التي يتم بها إيمان المؤمن المستوجب للوعد القطعي بالجنة المستتبع للبشارة الإلهية والنبوية وهي الملازمة للقيام بحق الله المستلزمة لقيام الله سبحانه بما جعله من الحق على نفسه.

٩١. لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أقرباء:

المقطع [٩١] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٩٧»:

١. ﴿ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. معنى الآية ظاهر غير أنه تعالى لما ذكر في الآية الثانية التي تبين سبب استغفار إبراهيم لأبيه مع كونه كافرا أنه تبرأ منه بعد ذلك لما تبين له أنه عدو لله، فدل ذلك على أن تبين كون المشركين أصحاب الجحيم إنما يرشد إلى عدم جواز الاستغفار لكونه ملازما لكونهم أعداء لله فإذا تبين للنبي والذين آمنوا أن المشركين أعداء الله كشف ذلك لهم عن حكم ضروري وهو عدم جواز الاستغفار لكونه لغوا لا يترتب عليه أثر وخضوع الإيمان مانع أن يلغو العبد مع ساحة الكبرياء، وذلك أنه تارة يفرض الله تعالى عدوا للعبد مبغضا له لتقصير من ناحيته وسوء من عمله فمن الجائز بالنظر إلى سعة رحمة الله أن يستغفر له ويسترحم إذا كان العبد متذللا غير مستكبر، وتارة يفرض العبد عدوا لله محاربا له مستكبرا مستعليا كأرباب الجحود والعناد من المشركين، والعقل الصريح حاكم بأنه لا ينفعه حينئذ شفاعة بمسألة أو استغفار إلا أن يتوب ويرجع إلى الله وينسلخ عن الاستكبار والعناد ويتلبس بلباس الذلة والمسكنة فلا معنى لسؤال الرحمة والمغفرة لمن يأبى عن القبول، ولا للاستعطاء لمن لا يخضع للأخذ والتناول إلا الهزء بمقام الربوبية واللعب بمقام العبودية وهو غير جائز بضرورة من حكم الفطرة.

ب. وفي الآية نفي الجواز بنفي الحق بدليل قوله: ﴿ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ما كانوا يملكون الاستغفار بعد ما تبين لهم كذا وكذا، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى: ﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ﴾ [الآية: ١٧] من السورة أن حكم الجواز مسبوق في الشرع بجعل الحق.

ج. والمعنى أن النبي والذين آمنوا بعد ما ظهر وتبين بتبيين الله لهم أن المشركين أعداء لله مخلدون

في النار لم يكن لهم حق يملكون به أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى منهم.

٢. أحاديث وآثار: أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي ﷺ: أي عم قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ وجعل النبي ﷺ يعرضها عليه، وأبو جهل وعبد الله يعانوانه بتلك المقالة، فقال أبو طالب آخر ما كلمهم هو: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فنزلت: ﴿ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾

• أقول: وفي معناه روايات أخرى من طرق أهل السنة، وفي بعضها أن المسلمين لما رأوا النبي ﷺ يستغفر لعمه وهو مشرك استغفروا لآبائهم المشركين فنزلت الآية، وقد اتفقت الرواية عن أئمة أهل البيت عليه السلام أنه كان مسلما غير متظاهر بإسلامه ليتمكن بذلك من حماية النبي ﷺ، وفيما روي بالنقل الصحيح من أشعاره شيء كثير يدل على توحيده وتصديقه النبوة، وقد قدمنا نبذة منها، وفي الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر قال: الأواه الدعاء.

٩٢. استغفار إبراهيم لأبيه كان عن موعدة:

المقطع [٩٢] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٩٨»:

١. وأما استغفار إبراهيم لأبيه المشرك فإنه ظن أنه ليس بعدو معاند لله وإن كان مشركا فاستعطفه بوعد وعدها إياه فاستغفر له فلما تبين له أنه عدو لله معاند على شركه وضلاله تبرأ منه.

٢. قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ تعليل لوعد إبراهيم واستغفاره لأبيه بأنه تحمل جفوة أبيه ووعده وعدا حسنا لكونه حليما واستغفر له لكونه أواها، والأواه هو الكثير التأوه خوفا من ربه وطمعا فيه.

٩٣. الله لا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون:

المقطع [٩٣] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ١١٥ـ١١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٩٨»:

١. ﴿وما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ﴾ إلى آخر الآيتين الآيتان متصلتان بالآيتين قبلهما المسوقتين للنهي عن الاستغفار للمشركين.

٢. أما الآية الأولى أعني قوله: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضِلَ﴾ الآية ففيه تهديد للمؤمنين بالإضلال بعد الهداية إن لم يتقوا ما بين الله لهم أن يتقوه ويجتنبوا منه، وهو بحسب ما ينطبق على المورد أن المشركين أعداء لله لا يجوز الاستغفار لهم والتودد إليهم فعلى المؤمنين أن يتقوا ذلك وإلا فهو الضلال بعد الهدى، وعليك أن تذكر ما قدمناه في تفسير قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣] في الجزء الخامس من الكتاب وفي تفسير آيات ولاية المشركين وأهل الكتاب الواقعة في السور المتقدمة.

٣. والآية بوجه في معنى قوله تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] وما في معناه من الآيات، وهي جميعا تهتف بأن من السنة الإلهية أن تستمر على العبد نعمته وهدايته حتى يغير هو ما عنده بالكفران والتعدي فيسلب الله منه النعمة والهداية.

٤. وأما الآية الثانية أعني قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ فذيلها بيان لعلة الحكم السابق المدلول عليه بالآية السابقة وهو النهي عن تولي أعداء الله أو وجوب التبري منهم إذ لا ولي ولا نصير حقيقة إلا الله سبحانه وقد بينه للمؤمنين فعليهم بدلالة من إيمانهم أن يقصروا التولي عليه تعالى أو من أذن في توليهم له من أوليائه وليس لهم أن تعتدوا ذلك إلى تولي أعدائه كائنين من كانوا.

٥. وصدر الآية بيان لسبب هذا السبب وهو أن الله سبحانه هو الذي يملك كل شيء وبيده الموت والحياة فإليه تدبير كل أمر فهو الولي لا ولي غيره.

٦. وقد ظهر من عموم البيان والعلة في الآيات الأربع أن الحكم عام وهو وجوب التبري أو حرمة

التولي لأعداء الله سواء كان التولي بالاستغفار أو بغير ذلك وسواء كان العدو مشركا أو كافرا أو منافقا أو غيرهم من أهل البدع الكافرين بآيات الله أو المصرين على بعض الكبائر كالمرابي المحارب لله ورسوله.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً﴾ الآية، قيل: مات قوم من المسلمين على الإسلام، قبل أن تنزل الفرائض فقال المسلمون: يا رسول الله إخواننا المسلمون ماتوا قبل الفرائض ما منزلتهم؟ فنزل: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً﴾ الآية: عن الحسن.

ب. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: في الآية قال: نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم، ولكن ما كان الله ليعذب قوما بذنب أذنبوه، حتى يبين لهم ما يتقون، قال: حتى ينهاهم قبل ذلك.

• أقول: ظاهر الروايتين أنهما من التطبيق دون النزول بمعناه المصطلح عليه، واتصال الآية بالآيتين قبلها ودخولها في سياقهما ظاهر، وقد تقدم توضيحه.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن حمزة بن محمد الطيار عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ﴾ قال: يعرفهم ما يرضيه وما يسخطه، الحديث:

• أقول: ورواه أيضا عن عبد الأعلى عنه عليه السلام، ورواه البرقي أيضا في المحاسن.

٩٤. توبة الله على الواقفين مع الحق في ساعة العسرة:

المقطع [٩٤] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٩٩»:

١. ﴿لَقَدْ تابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. الساعة مقدار من الزمان فساعة العسرة الزمان الذي تعسر فيه الحياة لابتلاء الإنسان بما تشق معه العيشة عليه كعطش أو جوع أو حر شديد أو غير ذلك، والزيغ هو الخروج من الطريق والميل عن الحق، وإضافة الزيغ إلى القلوب وذكر ساعة العسرة وسائر ما يلوح من سياق الكلام دليل على أن المراد بالزيغ الاستنكاف عن امتثال أمر النبي ﷺ والخروج عن طاعته بالتثاقل عن الخروج إلى الجهاد أو الرجوع

إلى الأوطان بقطع السير تحرجا من العسرة والمشقة التي واجهتهم في مسيرهم.

ب. والتخليف، على ما في المجمع،، تأخير الشيء عمن مضى فأما تأخير الشيء عنك في المكان فليس بتخليف، وهو من الخلف الذي هو مقابل لجهة الوجه يقال خلفه أي جعله خلفه فهو مخلف) والرحب هو السعة التي تقابل الضيق، وبما رحبت أي برحبها فما مصدرية.

ج. والآيتان وإن كانت كل واحدة منهما ناظرة إلى جهة دون جهة الأخرى فالأولى تبين التوبة على النبي والمهاجرين والأنصار والثانية تبين توبة الثلاثة المخلفين مضافا إلى أن نوع التوبة على أهل الآيتين مختلف فأهل الآية الأولى أو بعضهم تاب الله عليهم من غير معصية منهم وأهل الآية الثانية تيب عليهم وهم عاصون مذنبون.

د. وبالجملة الآيتان مختلفتان غرضا ومدلولا غير أن السياق يدل على أنهما مسوقتان لغرض واحد ومتصلتان كلاما واحدا تبين فيه توبته تعالى للنبي والمهاجرين والأنصار والثلاثة الذين خلفوا، ومن الدليل عليه قوله: ﴿لَقَدْ تابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ﴾ الآية فالآية الثانية غير مستقلة عن الأولى بحسب اللفظ وإن استقلت عنها في المعنى، وذلك يستدعي نزولهما معا وتعلق غرض خاص بهذا الاتصال والامتزاج.

هـ. ولعل الغرض الأصلي بيان توبة الله سبحانه لأولئك الثلاثة المخلفين وقد ضم إليها ذكر توبته تعالى للمهاجرين والأنصار حتى للنبي ﷺ لتطيب قلوبهم بخلطهم بغيرهم وزوال تميزهم من سائر الناس وعفو أثر ذلك عنهم حتى يعود الجميع على نعت واحد وهو أن الله تاب عليهم برحمته فهم فيه سواء من غير أن يرتفع بعضهم عن بعض أو ينخفض بعضهم عن بعض.

و. وبهذا تظهر النكتة في تكرار ذكر التوبة في الآيتين فإن الله سبحانه يبدأ بذكر توبته على النبي والمهاجرين والأنصار ثم يقول: ﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ثم يقول: ﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ فليس إلا أن الكلام مسوق على منهج الإجمال والتفصيل ذكر فيه توبته تعالى على الجميع إجمالا ثم أشير إلى حال كل من الفريقين على حدته فذكرت عند ذلك توبته الخاصة به.

ز. ولو كانت كل واحدة من الآيتين ذات غرض مستقل من غير أن يجمعها غرض جامع لكان ذلك تكرارا من غير نكتة ظاهرة.

ح. على أن في الآية الأولى دلالة واضحة على أن النبي ﷺ لم يكن له في ذلك ذنب ولا زيغ ولا كاد أن يزيغ قلبه فإن في الكلام مدحا للمهاجرين والأنصار باتباع النبي ﷺ فلم يزغ قلبه ولا كاد أن يزيغ حتى صار متبعا يقتدى به ولو لا ما ذكرناه من الغرض لم يكن لذكره ﷺ مع سائر المذكورين وجه ظاهر.

ط. فيئول معنى الآية إلى أن الله، أقسم لذلك، تاب ورجع برحمته رجوعا إلى النبي والمهاجرين والأنصار والثلاثة الذين خلفوا فأما توبته ورجوعه بالرحمة على المهاجرين والأنصار فإنهم اتبعوا النبي في ساعة العسرة وزمانها وهو أيام مسيرهم إلى تبوك، اتبعوه من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ويميل عن الحق بترك الخروج أو ترك السير فبعد ما اتبعوه تاب الله عليهم إنه بهم لرءوف رحيم.

ي. وأما الثلاثة الذين خلفوا فإنهم آل أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ووسعت، وكان ذلك بسبب أن الناس لم يعاشروهم ولا كلموهم حتى أهلهم فلم يجدوا أنيسا يأنسون به، وضاقت عليهم أنفسهم، من دوام الغم عليهم، وأيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه بالتوبة والإنابة فلما كان ذلك كله تاب الله عليهم وانعطف ورجع برحمته إليهم ليتوبوا إليه فيقبل توبتهم أنه هو التواب، كثير الرجوع إلى عباده يرجع إليهم بالهداية والتوفيق للتوبة إليه ثم بقبول تلك التوبة، والرحيم بالمؤمنين.

٢. وقد تبين بذلك كله:

أ. أولا: أن المراد بالتوبة على النبي ﷺ محض الرجوع إليه بالرحمة، ومن الرجوع إليه بالرحمة، الرجوع إلى أمته بالرحمة فالتوبة عليهم توبة عليه فهو ﷺ الواسطة في نزول الخيرات والبركات إلى أمته، وأيضا فإن من فضله تعالى على نبيه ﷺ أن: كلما ذكر أمته أو الذين معه بخير أفرده من بينهم وصدر الكلام بذكره تشريفا له كما في قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]، وقوله: ﴿لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا﴾ [التوبة: ٨٨] إلى غير ذلك من الموارد.

ب. وثانيا: أن المراد بما ذكر ثانيا وثالثا من التوبة بقوله: ﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ﴾ في الموضعين هو تفصيل ما ذكره إجمالا بقوله: ﴿لَقَدْ تابَ اللهُ﴾

ج. وثالثا: أن المراد بالتوبة في قوله: ﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ﴾ في الموضعين رجوعه تعالى إليهم بالهداية إلى الخير والتوفيق فقد ذكرنا مرارا في الأبحاث السابقة أن توبة العبد محفوفة بتوبتين من الرب تعالى، وأنه

يرجع إليه بالتوفيق وإفاضة رحمة الهداية وهو التوبة الأولى منه فيهتدي العبد إلى الاستغفار وهو توبته فيرجع تعالى إليه بقبول توبته وغفران ذنوبه وهو التوبة الثانية منه تعالى، والدليل على أن المراد بها في الموضعين ذلك أما في الآية الأولى فلأنه لم يذكر منهم فيها ذنبا يستغفرون له حتى تكون توبته عليهم توبة قبول، وإنما ذكر أنه كان من المتوقع زيغ قلوب بعضهم وهو يناسب التوبة الأولى منه تعالى دون الثانية، وأما في الآية الثانية فلأنه ذكر بعدها قوله: ﴿لِيَتُوبُوا﴾ وهو الاستغفار، أخذ غاية لتوبته تعالى فتوبته تعالى قبل توبتهم ليست إلا التوبة الأولى منه، وربما أيد ذلك قوله تعالى في مقام تعليل توبته عليهم: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث لم يذكر من أسمائه ما يدل بلفظه على قبول توبتهم كما لم يذكر منهم توبة بمعنى الاستغفار.

د. ورابعا: أن المراد بقوله في الآية الثانية: ﴿لِيَتُوبُوا﴾ توبة الثلاثة الذين خلفوا المترتب على توبته تعالى الأولى عليهم، فالمعنى ثم تاب الله على الثلاثة ليتوب الثلاثة فيتوب عليهم ويغفر لهم إنه هو التواب الرحيم.

٩٥. توبة الله على الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى ضاقت عليهم الأرض:

المقطع [٩٥] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤٠٢»:

١. وأما الثلاثة الذين خلفوا<نقلت هنا بعض ما ذكرته في المقطع السابق للضرورة» فإنهم آل أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ووسعت، وكان ذلك بسبب أن الناس لم يعاشروهم ولا كلموهم حتى أهلهم فلم يجدوا أنيسا يأنسون به، وضاقت عليهم أنفسهم، من دوام الغم عليهم، وأيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه بالتوبة والإنابة فلما كان ذلك كله تاب الله عليهم وانعطف ورجع برحمته إليهم ليتوبوا إليه فيقبل توبتهم أنه هو التواب، كثير الرجوع إلى عباده يرجع إليهم بالهداية والتوفيق للتوبة إليه ثم بقبول تلك التوبة، والرحيم بالمؤمنين.

٢. وقد تبين بذلك:

أ. أن المراد بالتوبة في قوله: ﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ﴾ في الموضعين رجوعه تعالى إليهم بالهداية إلى الخير

والتوفيق فقد ذكرنا مرارا في الأبحاث السابقة أن توبة العبد محفوفة بتوبتين من الرب تعالى، وأنه يرجع إليه بالتوفيق وإفاضة رحمة الهداية وهو التوبة الأولى منه فيهتدي العبد إلى الاستغفار وهو توبته فيرجع تعالى إليه بقبول توبته وغفران ذنوبه وهو التوبة الثانية منه تعالى، والدليل على أن المراد بها في الموضعين ذلك أما في الآية الأولى فلأنه لم يذكر منهم فيها ذنبا يستغفرون له حتى تكون توبته عليهم توبة قبول، وإنما ذكر أنه كان من المتوقع زيغ قلوب بعضهم وهو يناسب التوبة الأولى منه تعالى دون الثانية، وأما في الآية الثانية فلأنه ذكر بعدها قوله: ﴿لِيَتُوبُوا﴾ وهو الاستغفار، أخذ غاية لتوبته تعالى فتوبته تعالى قبل توبتهم ليست إلا التوبة الأولى منه، وربما أيد ذلك قوله تعالى في مقام تعليل توبته عليهم: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث لم يذكر من أسمائه ما يدل بلفظه على قبول توبتهم كما لم يذكر منهم توبة بمعنى الاستغفار.

ب. أن المراد بقوله في الآية الثانية: ﴿لِيَتُوبُوا﴾ توبة الثلاثة الذين خلفوا المترتب على توبته تعالى الأولى عليهم، فالمعنى ثم تاب الله على الثلاثة ليتوب الثلاثة فيتوب عليهم ويغفر لهم إنه هو التواب الرحيم.

ج. أن الظن يفيد في الآية مفاد العلم لا لدلالة لفظية بل لخصوص المورد.

٣. سؤال وإشكال: فإن قلت: فالآية لم تدل على قبول توبتهم وهذا مخالف للضرورة الثابتة من جهة النقل أن الآية نزلت في توبتهم، والجواب: القصة ثابتة نقلا غير أنه لا توجد دلالة في لفظ الآية إلا أن الآية تدل بسياقها على ذلك فقد قال تعالى في مقام الإجمال: ﴿لَقَدْ تابَ اللهُ﴾ وهو أعم بإطلاقه من التوبة بمعنى التوفيق وبمعنى القبول، وكذا قوله بعد: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ﴾ وخاصة بالنظر إلى ما في الجملة من سياق الحصر الناظر إلى قوله: ﴿وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلّا إِلَيْهِ﴾ فإذا كانوا أقدموا على التوبة ليأخذوا ملجأ من الله يأمنون فيه وقد هداهم الله إليه بالتوبة فتابوا فمن المحال أن يردهم الله من بابه خائبين وهو التواب الرحيم، وكيف يستقيم ذلك؟ وهو القائل عز من قائل: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧]

٤. وربما قيل: إن معنى ﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ ثم سهل الله عليهم التوبة ليتوبوا، وهو سخيف، وأسخف منه قول من قال: إن المراد بالتوبة في ﴿لِيَتُوبُوا﴾ الرجوع إلى حالتهم الأولى قبل المعصية، وأسخف منه قول آخرين: (إن الضمير في ﴿لِيَتُوبُوا﴾ راجع إلى المؤمنين والمعنى ثم تاب على الثلاثة وأنزل

توبتهم على نبيه ﷺ ليتوب المؤمنون من ذنوبهم لعلمهم بأن الله قابل التوب.

٥. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ الآية ـ نزلت في شأن كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وذلك أنهم تخلفوا عن رسول الله ﷺ ـ ولم يخرجوا معه لا عن نفاق ولكن عن توان ـ ثم ندموا فلما قدم النبي ﷺ المدينة جاءوا إليه واعتذروا ـ فلم يكلمهم النبي ﷺ وتقدم إلى المسلمين ـ بأن لا يكلمهم أحد منهم فهجرهم الناس حتى الصبيان، وجاءت نساؤهم إلى رسول الله ﷺ فقلن له: يا رسول الله نعتزلهم؟ فقال: ولكن لا يقربوكن، فضاقت عليهم المدينة فخرجوا إلى رءوس الجبال، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ولا يكلمونهم ـ فقال بعضهم لبعض: قد هجرنا الناس ـ ولا يكلمنا أحد منهم فهلا نتهاجر نحن أيضا؟ فتفرقوا ولم يجتمع منهم اثنان، وبقوا على ذلك خمسين يوما يتضرعون إلى الله تعالى ويتوبون إليه، فقبل الله تعالى توبتهم وأنزل فيهم هذه الآية.

• أقول: وقد تقدمت القصة في حديث طويل نقلناه من تفسير القمي في [الآية: ٤٦] من السورة، ورويت القصة بطرق كثيرة.

٩٦. الدعوة إلى تقوى الله والكينونة مع الصادقين:

المقطع [٩٦] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤٠٢»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾:

أ. الصدق بحسب الأصل مطابقة القول والخبر للخارج، ويوصف به الإنسان إذا طابق خبره الخارج ثم لما عد كل من الاعتقاد والعزم، الإرادة، قولا توسع في معنى الصدق فعد الإنسان صادقا إذا طابق خبره الخارج وصادقا إذا عمل بما اعتقده وصادقا إذا أتى بما يريده ويعزم عليه على الجد.

ب. وما في الآية من إطلاق الأمر بالتقوى وإطلاق الصادقين وإطلاق الأمر بالكون معهم، والمعية هي المصاحبة في العمل وهو الاتباع، يدل على أن المراد بالصدق هو معناه الوسيع العام دون الخاص.

ج. فالآية تأمر المؤمنين بالتقوى واتباع الصادقين في أقوالهم وأفعالهم وهو غير الأمر بالاتصاف بصفتهم فإنه الكون منهم لا الكون معهم وهو ظاهر.

٢. أحاديث وآثار: في تفسير البرهان، عن ابن شهرآشوب من تفسير أبي يوسف بن يعقوب بن

سفيان حدثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾ قال: أمر الله الصحابة أن يخافوا الله، ثم قال: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ يعني مع محمد وأهل بيته عليه السلام.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت عليه السلام وقد روي في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن ابن عباس، وأيضا عن ابن عساكر عن أبي جعفر: في قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قالا: مع علي بن أبي طالب.

٩٧. فضل الجهاد والمشقة في سبيل الله وتكفير السيئات:

المقطع [٩٧] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠ـ١٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤٠٣»:

١. ﴿ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. الرغبة ميل خاص نفساني والرغبة في الشيء الميل إليه لطلب منفعة فيه، والرغبة عن الشيء الميل عنه بتركه والباء للسببية فقوله: ﴿وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ معناه وليس لهم أن يشتغلوا بأنفسهم عن نفسه فيتركوه عند مخاطر المغازي وفي تعب الأسفار ودعثائها ويقعدوا للتمتع من لذائذ الحياة، والظمأ العطش، والنصب التعب والمخمصة المجاعة، والغيظ أشد الغضب، والموطأ الأرض التي توطأ بالأقدام.

ب. والآية تسلب حق التخلف عن النبي ﷺ من أهل المدينة والأعراب الذين حولها ثم تذكر أن الله قابل هذا السلب منهم بأنه يكتب لهم في كل مصيبة تصيبهم في الجهاد من جوع وعطش وتعب وفي كل أرض يطئونها فيغيظون به الكفار أو نيل نالوه منهم عملا صالحا فإنهم محسنون والله لا يضيع أجر المحسنين، وهذا معنى قوله: ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ الآية.

ج. ثم ذكر أن نفقاتهم صغيرة يسيرة كانت أو كبيرة خطيرة وكذا كل واد قطعوه فإنه مكتوب لهم محفوظ لأجلهم ليجزوا به أحسن الجزاء.

٢. ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. غاية متعلقه بقوله: ﴿كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي غاية هذه الكتابة هي أن يجزيهم بأحسن أعمالهم، وإنما خص جزاء أحسن الأعمال بالذكر لأن رغبة العامل عاكفة عليه، أو لأن الجزاء بأحسنها يستلزم الجزاء بغيره، أو لأن المراد بأحسن الأعمال الجهاد في سبيل الله لكونه أشقها وقيام الدعوة الدينية به.

ب. وهاهنا معنى آخر وهو أن جزاء العمل في الحقيقة إنما هو نفس العمل عائدا إلى الله فأحسن الجزاء هو أحسن العمل فالجزاء بأحسن الأعمال في معنى الجزاء بأحسن الجزاء ومعنى آخر وهو أن يغفر الله سبحانه سيئاتهم المشوبة بأعمالهم الحسنة ويستر جهات نقصها فيكون العمل أحسن بعد ما كان حسنا ثم يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون فافهم ذلك وربما رجع المعنيان إلى معنى واحد.

٩٨. التفقه في الدين والإنذار بعد الرجوع من الجهاد:

المقطع [٩٨] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤٠٣»:

١. ﴿وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾:

أ. السياق يدل على أن المراد بقوله: ﴿لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ لينفروا وليخرجوا إلى الجهاد جميعا، وقوله: ﴿فِرْقَةٍ مِنْهُمْ﴾ الضمير للمؤمنين الذين ليس لهم أن ينفروا كافة، ولازمه أن يكون النفر إلى النبي ﷺ منهم.

ب. فالآية تنهى مؤمني سائر البلاد غير مدينة الرسول أن ينفروا إلى الجهاد كافة بل يحضضهم أن ينفر طائفة منهم إلى النبي ﷺ للتفقه في الدين وينفر إلى الجهاد غيرهم.

ج. والأنسب بهذا المعنى أن يكون الضمير في قوله ﴿رَجَعُوا﴾ للطائفة المتفقهين، وفي قوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ لقومهم والمراد إذا رجع هؤلاء المتفقهون إلى قومهم، ويمكن العكس بأن يكون المعنى: إذا رجع قومهم من الجهاد إلى هؤلاء الطائفة بعد تفقههم ورجوعهم إلى أوطانهم.

٢. ومعنى الآية لا يجوز لمؤمني البلاد أن يخرجوا إلى الجهاد جميعا فهلا نفر وخرج إلى النبي ﷺ طائفة من كل فرقة من فرق المؤمنين ليتحققوا الفقه والفهم في الدين فيعملوا به لأنفسهم ولينذروا بنشر معارف الدين وذكر آثار المخالفة لأصوله وفروعه قومهم إذا رجعت هذه الطائفة إليهم لعلهم يحذرون ويتقون.

٣. ومن هنا يظهر:

أ. أولا: أن المراد بالتفقه تفهم جميع المعارف الدينية من أصول وفروع لا خصوص الأحكام العملية وهو الفقه المصطلح عليه عند المتشرعة، والدليل عليه قوله: ﴿لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ فإن ذلك أمر إنما يتم بالتفقه في جميع الدين وهو ظاهر.

ب. وثانيا: أن النفر إلى الجهاد موضوع عن طلبة العلم الديني بدلالة من الآية.

ج. وثالثا: أن سائر المعاني المحتملة التي ذكروها في الآية بعيدة عن السياق كقول بعضهم: إن المراد بقوله: ﴿لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ نفرهم إلى النبي ﷺ للتفقه، وقول بعضهم في ﴿فَلَوْ لا نَفَرَ﴾ أي إلى الجهاد، والمراد بقوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ أي الباقون المتخلفون فينذروا قومهم النافرين إلى الجهاد إذا رجعوا إلى أولئك المتخلفين، فهذه ونظائرها معان بعيدة لا جدوى في التعرض لها والإطناب في البحث عنها.

٤. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن يعقوب بن شعيب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام، إذا حدث على الإمام حدث كيف يصنع الناس؟ قال: أين قول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ قال: هم في عذر ما داموا في الطلب، وهؤلاء الذين ينتظرونهم في عذر حتى يرجع إليهم أصحابهم.

- أقول: وفي هذا المعنى روايات كثيرة عن الأئمة عليهمالسلام، وهو مما يدل على أن المراد بالتفقه في الآية أعم من تعلم الفقه بالمعنى المصطلح عليه اليوم.
- واعلم أن هناك أقوالا أخرى في أسباب نزول بعض الآيات السابقة تركناها لظهور ضعفها ووهنها.

٩٩. قتال الكفار والغلظة عليهم:

المقطع [٩٩] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤٠٤»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أمر بالجهاد العام الذي فيه توسع الإسلام حتى يشيع في الدنيا فإن قتال كل طائفة من المؤمنين من

يليهم من الكفار لا ينتهي إلا باتساع الإسلام اتساعا باستقرار سلطنته على الدنيا وإحاطته بالناس جميعا.

٢. والمراد بقوله: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي الشدة في ذات الله وليس يعني بها الخشونة والفظاظة وسوء الخلق والقساوة والجفاء فجميع الأصول الدينية تذم ذلك وتستقبحه، ولحن آيات الجهاد ينهى عن كل تعد واعتداء وجفاء كما مر في سورة البقرة.

٣. وفي قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وعد إلهي بالنصر بشرط التقوى، ويئول معناه إلى إرشادهم إلى أن يكونوا دائما مراقبين لأنفسهم ذاكرين مقام ربهم منهم، وهو أنه معهم ومولاهم فهم الأعلون إن كانوا يتقون.

١٠٠. السورة القرآنية تزيد المؤمنين إيماناً وتزيد المنافقين رجساً:

المقطع [١٠٠] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤٠٩»:

١. ﴿وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً﴾ إلى آخر الآيتين:

نحو السؤال في قولهم: هل يراكم من أحد؟! يدل على أن سائله لا يخلو من شيء في قلبه فإن هذا السؤال بالطبع سؤال من لا يجد في قلبه أثرا من نزول القرآن وكأنه يذعن أن قلوب غيره كقلبه فيما يتلقاه فيتفحص عمن أثر في قلبه نزول القرآن كأنه يرى أن النبي ﷺ يدعي أن القرآن يصلح كل قلب سواء كان مستعدا مهيئا للصلاح أم لا وهو لا يذعن بذلك وكلما تليت عليه سورة جديدة ولم يجد في قلبه خشوعا لله ولا ميلا وحنانا إلى الحق زاد شكا فبعثه ذلك إلى أن يسأل سائر من حضر عند النزول عن ذلك حتى يستقر في شكه ويزيد ثباتا في نفاقه، وبالجملة السؤال سؤال من لا يخلو قلبه من نفاق.

٢. وقد فصل الله سبحانه أمر القلوب وفرق بين قلوب المؤمنين والذين في قلوبهم مرض فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم الذين قلوبهم خالية عن النفاق بريئة من المرض وهم على يقين من دينهم بقرينة المقابلة ﴿فَزادَتْهُمْ﴾ السورة النازلة ﴿إِيماناً﴾ فإنها بإنارتها أرض القلب بنور هدايتها توجب اشتداد نور الإيمان فيه، وهذه زيادة في الكيف، وباشتمالها على معارف وحقائق جديدة من المعارف القرآنية والحقائق

الإلهية، وبسطها على القلب نور الإيمان بها توجب زيادة إيمان جديد على سابق الإيمان وهذه زيادة في الكمية ونسبة زيادة الإيمان إلى السورة من قبيل النسبة إلى الأسباب الظاهرة وكيف كان فالسورة تزيد المؤمنين إيمانا فتنشرح بذلك صدورهم وتتهلل وجوههم فرحا ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

٣. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وهم أهل الشك والنفاق ﴿فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي ضلالا جديدا إلى ضلالهم القديم وقد سمى الله سبحانه الضلال رجسا في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] والمقابلة الواقعة بين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يفيد أن هؤلاء ليس في قلوبهم إيمان صحيح وإنما هو الشك أو الجحد وكيف كان فهو الكفر ولذلك قال ﴿وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ﴾

٤. والآية تدل على أن السورة من القرآن لا تخلو عن تأثير في قلب من استمعه فإن كان قلبا سليما زادته إيمانا واستبشارا وسرورا، وإن كان قلبا مريضا زادته رجسا وضلالا نظير ما يفيده قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾ [الإسراء: ٨٢]

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام: في حديث طويل يذكر فيه تمام الإيمان ونقصه، قال: قلت: قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه، فمن أين جاءت زيادته؟ فقال: قول الله عز وجل: ﴿وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً﴾، ولو كان كله واحدا لا زيادة فيه ولا نقصان، لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر، ولاستوت النعم فيه، ولاستوى الناس وبطل التفضيل ـ، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله، وبالنقصان دخل المفرطون النار.

ب. وفي تفسير العياشي، عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ يقول شكا إلى شكهم.

٦. وقد كنا نرجو أن نفرد كلاما في آخر براءة نبحث فيه عن شأن المنافقين في الإسلام ونستخرج

ما يشرحه القرآن في أمرهم مع تحليل في تاريخهم وتبيين لما أودعوه من الفساد والبلوى بين المسلمين لكن طول الكلام في تفسير الآيات عاقنا عن ذلك فأخرناه إلى موضع آخر يناسبه والله نسأل التوفيق فهو وليه.

١٠١. الاختبار والفتنة والتوبة:

المقطع [١٠١] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤١٠»:

١. ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ الآية الاستفهام للتقرير أي ما لهم لا يتفكرون ولا يعتبرون وهم يرون أنهم يبتلون ويمتحنون كل عام مرة أو مرتين فيعصون الله ولا يخرجون من عهدة المحنة الإلهية وهم لا يتوبون ولا يتذكرون ولو تفكروا في ذلك انتبهوا لواجب أمرهم وأيقنوا أن الاستمرار على هذا الشأن ينتهي بهم إلى تراكم الرجس على الرجس والهلاك الدائم والخسران المؤبد.

١٠٢. المنافقون ينظر بعضهم إلى بعض ثم ينصرفون وقلوبهم منصرفة:

المقطع [١٠٢] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤١١»:

١. ﴿وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ الآية وهذه خصيصة أخرى من خصائصهم وهي أنهم عند نزول سورة قرآنية، ولا محالة هم حاضرون، ينظر بعضهم إلى بعض نظر من يقول: هل يراكم من أحد، وهذا قول من يسمع حديثا لا يطيقه ويضيق بذلك صدره فيتغير لونه ويظهر القلق والاضطراب في وجهه فيخاف أن يلتفت إليه ويظهر السر الذي طواه في قلبه فينظر إلى بعض من كان قد أودعه سره وأوقفه على باطن أمره كأنه يستفسره هل يطلع على ما بنا من القلق والاضطراب أحد.

٢. فقوله: ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ﴾ أي بعض المنافقين، وهذا من الدليل على أن الضمير في قوله في الآية السابقة: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ﴾ أيضا للمنافقين، وقوله: ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ﴾ أي نظر قلق مضطرب يحذر ظهور أمره وانهتاك ستره، وقوله: ﴿هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ في مقام التفسير للنظر أي نظر بعضهم إلى بعض نظر من يقول: هل يراكم من أحد؟ ومن للتأكيد وأحد فاعل يراكم.

٣. ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ ظاهر السياق أن المعنى ثم انصرفوا من

عند النبي ﷺ في حال صرف الله قلوبهم عن وعي الآيات الإلهية والإيمان بها بسبب أنهم قوم لا يفقهون الكلام الحق فالجملة حالية على ما يجوزه بعضهم، وربما احتمل كون قوله: ﴿صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ دعاء منه تعالى على المنافقين، وله نظائر في القرآن، والدعاء منه تعالى على أحد إيعاد له بالشر.

١٠٣. صفات النبي العظيمة من الرأفة والرحمة بالمؤمنين:

المقطع [١٠٣] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤١١»:

١. ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ العنت هو الضرر والهلاك، وما في قوله: ﴿ما عَنِتُّمْ﴾ مصدرية التأويل عنتكم، والمراد بالرسول على ما يشهد سياق الآيتين محمد ﷺ، وقد وصفه بأنه من أنفسهم والظاهر أن المراد به أنه بشر مثلكم ومن نوعكم إذ لا دليل يدل على تخصيص الخطاب بالعرب أو بقريش خاصة، وخاصة بالنظر إلى وجود رجال من الروم وفارس والحبشة بين المسلمين في حال الخطاب.

٢. والمعنى لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم، من أوصافه أنه يشق عليه ضركم أو هلاككم وأنه حريص عليكم جميعا من مؤمن أو غير مؤمن، وأنه رءوف رحيم بالمؤمنين منكم خاصة فيحق عليكم أن تطيعوا أمره لأنه رسول لا يصدع إلا عن أمر الله، وطاعته طاعة الله، وأن تأنسوا به وتحنوا إليه لأنه من أنفسكم، وأن تجيبوا دعوته وتصغوا إليه كما ينصح لكم.

٣. ومن هنا يظهر أن القيود المأخوذة في الكلام من الأوصاف أعني قوله ﴿رَسُولٌ﴾ و﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ و﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ﴾ الآية، جميعها مسوقة لتأكيد الندب إلى إجابته وقبول دعوته، ويدل عليه قوله في الآية التالية: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور: في قوله: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لم يلتق أبواي قط على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذبا لا تنشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما.

• أقول: وقد أورد فيه روايات كثيرة في هذا المعنى عن رجال من الصحابة وغيرهم كالعباس وأنس وأبي هريرة وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وابن عمر وابن عباس وعلي ومحمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق عليه السلام وغيرهم عن النبي ﷺ.

ب. وأخرج ابن الضريس في فضائل القرآن وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه عن الحسن أن أبي بن كعب كان يقول: إن أحدث القرآن عهدا بالله، وفي لفظ بالسماء، هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآية:

• أقول: والرواية مروية من طريق آخر عن أبي بن كعب وهي لا تخلو عن تعارض مع ما سيأتي من الرواية وكذا مع ما تقدم من الروايات في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ الآية: [البقرة: ٢٨١] أنها آخر آية نزلت من القرآن، على أن لفظ الآيتين لا يلائم كونهما آخر ما نزلت من القرآن إلا أن يكون إشارة إلى بعض الحوادث الواقعة في مرض النبي ﷺ كحديث الدواة والقرطاس.

ج. وأخرج ابن إسحاق وأحمد بن حنبل وابن أبي داود عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾إلى قوله ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ إلى عمر، فقال: من معك على هذا؟ فقال: لا أدري، والله إلا أني أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ، ووعيتها وحفظتها، فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ، لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها فألحقت في آخر براءة.

• أقول: وفي رواية أخرى: أن عمر قال للحارث: لا أسألك عليها بينة أبدا، كذلك كان رسول الله ﷺ، وفي هذا المعنى أحاديث أخرى، وسنستوفي الكلام في تأليف القرآن وما يتعلق به من الأبحاث في تفسير سورة الحجر إن شاء الله تعالى.

١٠٤. التوكل على الله وحده رب العرش العظيم:

المقطع [١٠٤] من سورة التوبة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤١٢»:

١. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾:

أ. أي وإن تولوا عنك وأعرضوا عن قبول دعوتك فقل حسبي الله لا إله إلا هو أي هو كافي لا إله

إلا هو.

ب. فقوله: ﴿لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ في مقام التعليل لانقطاعه من الأسباب واعتصامه بربه فهو كاف لا كافي سواه لأنه الله لا إله غيره، ومن المحتمل أن تكون كلمة التوحيد جيء بها للتعظيم نظير قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة: ١١٦]

ج. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وفيه معنى الحصر تفسير يفسر به قوله: ﴿حَسْبِيَ اللهُ﴾ الدال على معنى التوكل بالالتزام، وقد تقدم في بعض الأبحاث السابقة أن معنى التوكل هو اتخاذ العبد ربه وكيلا يحل محل نفسه ويتولى تدبير أموره أي انصرافه عن التسبب بذيل ما يعرفه من الأسباب، ولا محالة هو بعض الأسباب الذي هو علة ناقصة والاعتصام بالسبب الحقيقي الذي إليه ينتهي جميع الأسباب.

د. ومن هنا يظهر وجه تذليل الكلام بقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي الملك والسلطان الذي يحكم به على كل شيء ويدبر به كل أمر.

هـ. وإنما قال تعالى: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ﴾ الآية ولم يقل: فتوكل على الله لإرشاده إلى أن يتوكل على ربه وهو ذاكر هذه الحقائق التي تنور حقيقة معنى التوكل، وأن النظر المصيب هو أن لا يثق الإنسان بما يدركه من الأسباب الظاهرة التي هي لا محالة بعض الأسباب بل يأخذ بما يعلمه منها على ما طبعه الله عليه ويثق بربه ويتوكل عليه في حصول بغيته وغرضه.

٢. وفي الآية من الدلالة على عجيب اهتمامه ﷺ باهتداء الناس ما ليس يخفى فإنه تعالى يأمره بالتوكل على ربه فيما يهتم به من الأمر وهو ما تبينه الآية السابقة من شدة رغبته وحرصه في اهتداء الناس وفوزهم بالسعادة فافهم ذلك.

سورة يونس

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٦٥] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة، كما يلوح من آياتها، مكية من السور النازلة في أوائل البعثة، وقد نزلت دفعة للاتصال الظاهر بين كرائم آياتها، وقد استثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلى تمام ثلاث آيات فذكر أنها مدنية، وبعضهم قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فذكر أنها نزلت في اليهود بالمدينة، ولا دليل من جهة اللفظ على شيء من القولين.

ب. وغرض السورة وهو الذي أنزلت لأجل بيانه هو تأكيد القول في التوحيد من طريق الإنذار والتبشير، كأنها نزلت عقيب إنكار المشركين الوحي النازل على النبي ﷺ وتسميتهم القرآن بالسحر، فرد الله سبحانه ذلك عليهم ببيان أن القرآن كتاب سماوي نازل بعلمه تعالى، وأن الذي يتضمنه من معارف التوحيد كوحدانيته تعالى وعلمه وقدرته وانتهاء الخلقة إليه وعجائب سننه في خلقه ورجوعهم جميعاً إليه بأعمالهم التي سيجزون بها خيراً أو شراً، كل ذلك مما تدل عليه آيات السماء والأرض ويهتدي إليه العقل السليم، فهي معان حقّة، ولا يدل على مثلها إلا كلام حكيم لا سحر مزوّق باطل.

ج. والدليل على ما ذكرنا افتتاح السورة بالكلام على تكذيبهم القرآن: ﴿أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا﴾ إلى قوله ﴿قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ﴾ واختتامها بمثل قوله: ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ الآية، ثم عوده تعالى إلى مسألة الإيحاء بالقرآن وتكذيبهم له في تضاعيف الآيات مرة بعد مرة كقوله: ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ﴾ الآية، وقوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ﴾ الآية.

د. فتكرر هذه الآيات والافتتاح والاختتام بها يدل على أن الكلام مبني على تعقيب إنكارهم لكلام الله وتكذيبهم الوحي، ولذلك كان من عمدة الكلام في هذه السورة الوعيد على مكذبي آيات الله من هذه الأمة بعذاب يقضي بين النبي ﷺ وبينهم، وأن ذلك من سنة الله في خلقه، وعلى تعقيبه تختتم السورة حتى

كاد يكون بيان هذه الحقيقة من مختصات هذه السورة، فمن الحري أن تعرف السورة بأنها سورة الإنذار بالقضاء العدل بين النبي وبين أمته، وقد اختتمت بقوله: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٠] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن القرآن كتاب حكيم، وتمجد الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وتذكر أن إليه المرجع، وتشير إلى قدرته في خلق الليل والنهار، وتبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم حسنى وزيادة، وتذكر دعاءهم في الدنيا والآخرة.

٢. الآيات [١١ ـ ١٤]:

أ. لما ذكر سبحانه الأصلين من أصول الدعوة الحقة وهما التوحيد والمعاد واحتج عليهما من طريق العقل الفطري، ثم أخبر عن عاقبة الإيمان والكفر بهما، بحث عن سبب إمهال الناس وعدم تعجيل نزول العذاب بساحتهم مع تماديهم في غيهم وضلالتهم وعمههم في طغيانهم، وما هو السبب الذي يوجب لهم ذلك.

ب. فبين أن الأمر بين لا ستر عليه، وقد بينه لهم رسل الله بالبينات، لكن الشيطان زين لهؤلاء المسرفين أعمالهم فأغفلهم عن ذكر المعاد فذهلوا ونسوا بعد ما ذكروا، ثم لم يعجل الله لهم العذاب بل أمهلهم في الدنيا إلى حين ليبتليهم ويمتحنهم، فإنها الدار دار ابتلاء وامتحان.

٣. الآيات [١٥ ـ ٢٥] احتجاجات يلقنها الله سبحانه نبيه ﷺ ليرد بها ما قالوه في كتاب الله أو في آلهتهم أو اقترحوه في نزول الآية.

٤. الآيات [٢٦ ـ ٣٠] استئناف يعود فيه إلى ذكر جزاء الأعمال وعود الجميع إلى الله الحق، وقد تقدم إيماء إلى ذلك، وفيه إثبات توحيد الربوبية.

٥. الآيات [٣١ ـ ٣٦] حجج ساطعة على توحيده تعالى في الربوبية يأمر نبيه ﷺ بإقامتها على المشركين، وهي ثلاث حجج مرتبة بحسب الدقة والمتانة:

أ. فالحجة الأولى تسلك من الطريق الذي يعتبره الوثنيون وعبدة الأصنام، فإنهم إنما يعبدون أرباب الأصنام بأصنامهم من جهة تدبيرهم للكون، فيعبدون كلاً منهم لأجل ما يخص به من الشأن، وما يرجع إليه من التدبير ليرضى بذلك عمن يعبده فيفيض عليه بركاته أو ليؤمنه فلا يرسل إليه سخطه

وعقابه، كما كان يعبد سكان السواحل رب البحر، وأهل الجبال وأهل البر وأهل العلوم والصنائع وأهل الحروب والغارات وغيرهم، كل يعبد من يناسب تدبيره الشأن الذي يهمه ليرضى عنه ربه فيبارك عليه برضاه أو يكف عنه غضبه، ومحصل الحجة أن تدبير العالم الإنساني وسائر الموجودات جميعاً يقوم به الله سبحانه لا غير على ما يعترفون به، فمن الواجب أن يوحدوه بالربوبية ولا يعبدوا إلا إياه.

ب. والحجة الثانية ما يعتبره عامة المؤمنين، وذلك أنهم لا يلتفتون كثيراً إلى زخارف هذه النشأة من لذائذ المادة، وإنما جل اعتنائهم بالحياة الدائمة الأخروية التي تتعين سعادتها وشقاوتها بالجزاء الإلهي بأعمالهم، فإذا قامت البينة العقلية على الإعادة كالبدء، كان من الواجب أن لا يعبد إلا الله سبحانه، ولا يتخذ أرباب من دونه طمعاً في ثوابه وخوفاً من عقابه.

ج. والحجة الثالثة وهي التي تحن إليها قلوب الخاصة من المؤمنين، وهي أن المتبع عند العقل هو الحق، ولما كان الحق سبحانه هو الهادي إلى الحق دون ما يدعونه من الأرباب من دون الله، فليكن هو المتبع دون ما يدعونه من الأرباب.

د. وسيأتي في تفسير الآيات توضيح هذه الحجج الثلاث بما تنجلي به مزيد انجلاء إن شاء الله، ولو لا اعتبار هذه النكتة كان الظاهر أن تذكر أولاً الحجة الثانية ثم الثالثة ثم الأولى، أو تذكر الثانية ثم يجمع بين الأولى والثالثة فيذكر بعدها.

٦. الآيات [٣٧ ـ ٤٥]:

أ. رجوع إلى أمر القرآن وأنه كتاب منزل من عند الله لا ريب فيه وتلقين الحجة في ذلك.

ب. وللآيات اتصال بما تقدمها من قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِ﴾ الآية، فقد تقدم أن من هدايته تعالى إلى الحق هدايته الناس إلى دينه الذي يرتضيه من طريق الوحي إلى أنبيائه والكتب التي أنزلها إليهم ككتب نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه السلام.

ج. وهذه الآيات تذكرها وتقيم الحجة على أن القرآن منها هاد إلى الحق، ولذلك أشير إليها معه حيث قيل: ﴿وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾

د. وفي آخر الآيات الرجوع إلى ذكر الحشر وهو من مقاصد السورة كما تقدم.

٧. الآيات [٤٦ ـ ٥٦]:

أ. رجوع إلى أمر القرآن وأنه كتاب منزل من عند الله لا ريب فيه وتلقين الحجة في ذلك.

ب. وللآيات اتصال بما تقدمها من قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِ﴾ الآية، فقد تقدم أن من هدايته تعالى إلى الحق هدايته الناس إلى دينه الذي يرتضيه من طريق الوحي إلى أنبيائه والكتب التي أنزلها إليهم ككتب نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه السلام.

ج. وهذه الآيات تذكرها وتقيم الحجة على أن القرآن منها هاد إلى الحق، ولذلك أشير إليها معه حيث قيل: ﴿وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾

د. وفي آخر الآيات الرجوع إلى ذكر الحشر وهو من مقاصد السورة كما تقدم.

٨. الآيات [٥٧ ـ ٧٠] عاد الكلام في الآيات إلى وصف القرآن الكريم بما له من كرائم الأوصاف، ويتلوه متفرقات ترتبط بسابق القول في غرض السورة، وفيها موعظة وحكمة وحجة على مقاصد شتى، وفيها وصف أولياء الله وبشارتهم.

٩. الآيات [٧١ ـ ٧٤] تذكر الآيات إجمال قصة نوح عليه السلام ومن بعده من الرسل إلى زمن موسى وهارون عليه السلام، وما عامل به الله سبحانه أممهم المكذبين لرسلهم حيث أهلكهم ونجّى رسله والمؤمنين بهم، ليعتبر بها أهل التكذيب من هذه الأمة.

١٠. الآيات [٧٥ ـ ٩٣]:

أ. ساق الله سبحانه نبأ موسى وأخيه ووزيره هارون مع فرعون وملئه، وقد أوجز في القصة غير أنه ساقها سوقاً ينطبق بفصولها على المحصل من حديث بعثة النبي ﷺ ودعوته عتاة قومه والطواغيت من قريش وغيرهم، وعدم إيمانهم به إلا ضعفاؤهم الذين كانوا يفتنونهم حتى التجئوا إلى الهجرة، فهاجر هو ﷺ وجمع من المؤمنين به إلى المدينة، فعقبه فراعنة هذه الأمة وملؤهم، فأهلكهم الله بذنوبهم، وبوأ الله المؤمنين ببركة الإسلام مبوأ صدق ورزقهم من الطيبات، ثم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وسيقضي الله بينهم.

ب. فكان ذلك كله تصديقاً لما أسر الله سبحانه إلى نبيه ﷺ في هذه الآيات فيما سيستقبله وقومه من الحوادث، ولقوله ﷺ يخاطب أصحابه وأمته: لتتبعن سنة بني إسرائيل حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه.

١١. الآيات [٩٤ ـ ١٠٣]:

أ. تتضمن الآيات الاستشهاد على أحقية ما أنزله الله في السورة من المعارف الراجعة إلى المبدإ والمعاد، وما قصة من قصص الأنبياء وأممهم، ومنهم نوح وموسى ومن بينهما من الأنبياء عليهم السلام وأممهم، إجمالاً بما قرأه أهل الكتب السماوية فيها قبل نزول القرآن على النبي ﷺ.

ب. ثم تذكر ما هو كالفذلكة والمعنى المحصل من البيانات السابقة، وهو أن الناس لن يملكوا من أنفسهم أن يؤمنوا بالله وآياته إلا بإذن الله، وإنما يأذن الله في إيمان من لم يطبع على قلبه ولم يجعل الرجس عليه، وإلا فمن حقت عليه كلمة الله لن يؤمن بالله وآياته حتى يرى العذاب.

ج. فالسنة الجارية أن الناس منذ خلقوا واختلفوا بين مكذب بآيات الله ومصدق لها، وقد جرت سنة الله على أن يقضي فيهم بالحق بعد مجيء رسلهم إليهم، فينجي الرسل والمؤمنين بهم، ويأخذ غيرهم بالهلاك.

١٢. الآيات [١٠٤ ـ ١٠٩] الآيات ختام السورة تفرغ المحصل من بياناتها، فتشير إجمالاً إلى التوحيد والمعاد والنبوة، وتأمر باتباع القرآن والصبر في انتظار حكم الله بينه وبين أمته.

١. الوحي والبشارة للمؤمنين:

المقطع [١] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ١ـ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٦»:

١. ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾:

أ. الإشارة باللفظ الدال على البعد للدلالة على ارتفاع مكانة القرآن وعلو مقامه فإنه كلام الله النازل من عنده وهو العلي الأعلى رفيع الدرجات ذو العرش.

ب. والآية، ومعناها العلامة، وإن كان من الجائز أن يسمى بها ما هو من قبيل المعاني أو الأعيان الخارجية كما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] وفي قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] وكذا ما هو من قبيل القول كما في قوله ظاهرا: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ [النحل: ١٠١] ونحو ذلك لكن المراد بالآيات هاهنا هي أجزاء الكلام الإلهي قطعا فإن

الكلام في الوحي النازل على النبي ﷺ وهو كلام متلو مقرو بأي معنى من المعاني صورنا نزول الوحي.

ج. فالمراد بالآيات أجزاء الكتاب الإلهي وتتعين في الجملة من جهة المقاطع التي تفصل الآيات بعضها من بعض مع إعانة ما من ذوق التفاهم ولذلك ربما وقع الخلاف في عدد آيات بعض السور بين علماء الإحصاء كالكوفيين والبصريين وغيرهم.

د. والمراد بالكتاب الحكيم هو الكتاب الذي استقرت فيه الحكمة، وربما قيل: إن الحكيم من الفعيل بمعنى المفعول والمراد به المحكم غير القابل للانثلام والفساد، والكتاب الذي هذا شأنه، وقد وصفه تعالى في الآية التالية بأنه من الوحي، هو القرآن المنزل على النبي صلى الله عليه واله.

هـ. وربما قيل: إن الكتاب الحكيم هو اللوح المحفوظ، وكون الآيات آياته هو أنها نزلت منه وهي محفوظة فيه، وهو وإن لم يخل عن وجه بالنظر إلى أمثال قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨] لكن الأظهر من الآية التي نحن فيها وسائر ما في سياقها من آيات أوائل هذه السور المفتتحة بالحروف ﴿الر﴾ وسائر الآيات المشابهة لها أو الناظرة إلى وصف القرآن أن المراد بالكتاب وبآياته هو هذا القرآن المتلو المقرو وآياته المتلوة المقروة بها أنه من اللوح المحفوظ من التغيير والبطلان كالكتاب المأخوذ بوجه من الكتاب كما يستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، وقوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وغير ذلك.

٢. ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ إلى آخر الآية الاستفهام للإنكار فهو إنكار لتعجبهم من إيحاء الله إلى رجل منهم ما اشتملت عليه الدعوة القرآنية.

٣. ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الآية تفسير لما أوحاه إليه، ويتبين به أن الذي ألقاه إليه من الوحي هو بالنسبة إلى عامة الناس إنذار وبالنسبة إلى الذين آمنوا منهم خاصة تبشير فهو لا محالة يضر الناس على بعض التقادير وهو تقدير الكفر والعصيان وينفعهم على تقدير الإيمان والطاعة.

٤. وقد فسر البشرى الذي أمره أن يبشر به المؤمنين بقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾:

أ. والمراد بقدم الصدق هو المنزلة الصادقة كما يشير إليه قوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] فإن الإيمان لما استتبع الزلفى والمنزلة عند الله كان الصدق في الإيمان يستتبع الصدق في المنزلة

التي يستتبعها فلهم منزلة الصدق كما أن لهم إيمان الصدق.

ب. فإطلاق القدم على المنزلة والمكانة من الكناية ولما كان إشغال المكان عادة إنما هو بالقدم استعملت القدم في المكان إن كان في الماديات، وفي المكانة والمنزلة إن كان في المعنويات ثم أضيفت القدم إلى الصدق، وهو صدق صاحب القدم في شأنه أي قدم منسوبة إلى صدق صاحبها أو قدم هي صادقة لصدق صاحبها في شأنه.

ج. وهناك معنى آخر وهو أن يراد بالصدق طبيعته كأن للصدق قدما وللكذب قدما وقدم الصدق هي التي تثبت ولا تزول.

٥. ﴿قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ﴾:

أ. أي النبي ﷺ، وقرئ: (إن هذا لسحر مبين) أي القرآن ومآل القراءتين واحد فإنهم إنما كانوا يرمونه ﷺ بالسحر من جهة القرآن الكريم.

ب. والجملة كالتعليل لقوله: ﴿كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً﴾ يمثل به معنى تعجبهم وهو أنهم لما سمعوا ما تلاه عليهم من القرآن وجدوه كلاما من غير نوع كلامهم خارقا للعادة المألوفة في سنخ الكلام يأخذ بمجامع القلوب وتتوله إليه النفوس فقالوا: إنه لسحر مبين، وإن الجائي به لساحر مبين.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن يونس بن عبد الرحمن عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، الآية قال الولاية.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن إبراهيم بن عمر اليماني عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، قال: هو رسول الله ﷺ.

- أقول: ورواه القمي في تفسيره، مسندا والعياشي، في تفسيره مرسلا عن إبراهيم بن عمر عمن ذكره عنه عليه السلام، والظاهر أن المراد به شفاعته ﷺ.

- ويدل على ذلك ما رواه الطبرسي في المجمع: (حيث قال: قيل: قدم صدق شفاعة محمد ﷺ: قال: وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

ج. وما رواه في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن علي بن أبي طالب: في قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ

رَبِّهِمْ﴾ قال ـ: محمد ﷺ شفيع لهم يوم القيامة.

٢. خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش:

المقطع [٢] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٩»:

١. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾:

أ. لما ذكر في الآية السابقة عجبهم من نزول الوحي وهو القرآن على النبي ﷺ وتكذيبهم له برميه بالسحر شرع تعالى في بيان ما كذبوا به من الجهتين أعني من جهة أن ما كذبوا به من المعارف المشتمل عليها القرآن حق لا ريب فيه ومن جهة أن القرآن الذي رموه بالسحر كتاب إلهي حق وليس من السحر الباطل في شيء.

ب. فقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ﴾ الآية، شروع في بيان الجهة الأولى وهي أن ما يدعوكم إليه النبي ﷺ مما يعلمكم القرآن حق لا ريب فيه ويجب عليكم أن تتبعوه.

ج. والمعنى: أن ربكم معاشر الناس هو الله الذي خلق هذا العالم المشهود كله سماواته وأرضه في ستة أيام ثم استوى على عرش قدرته وقام مقام التدبير الذي إليه ينتهي كل تدبير وإدارة فشرع يدبر أمر العالم، وإذا انتهى إليه كل تدبير من دون الاستعانة بمعين أو الاعتضاد بأعضاد لم يكن لشيء من الأشياء أن يتوسط في تدبير أمر من الأمور، وهو الشفاعة، إلا من بعد إذنه تعالى فهو سبحانه هو السبب الأصلي الذي لا سبب بالأصالة دونه، ومن دونه من الأسباب أسباب بتسبيبه وشفعاء من بعد إذنه.

د. وإذا كان كذلك كان الله تعالى هو ربكم الذي يدبر أمركم لا غيره مما اتخذتموها أربابا من دون الله وشفعاء عنده وهو المراد بقوله: ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أي هلا انتقلتم انتقالا فكريا إلى ما يستنير به أن الله هو ربكم لا رب غيره بالتأمل في معنى الألوهية والخلقة والتدبير.

٢. وقد تقدم الكلام في معنى العرش والشفاعة والإذن وغير ذلك في ذيل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ﴾ [الأعراف: ٥٤]

٣. المرجع إلى الله والجزاء بالقسط للمؤمنين والكافرين:

المقطع [٣] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٠»:

١. ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾:

أ. تذكير بالمعاد بعد التذكير بالمبدإ، وقوله: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾ من قيام المفعول المطلق مقام فعله والمعنى: وعده الله وعدا حقا.

ب. والحق هو الخبر الذي له أصل في الواقع يطابق الخبر فكون وعده تعالى بالمعاد حقا معناه كون الخلقة الإلهية بنحو لا تتم خلقة إلا برجوع الأشياء، ومن جملتها الإنسان، إليه تعالى وذلك كالحجر الهابط من السماء فإنه يعد بحركته السقوط على الأرض فإن حركته سنخ أمر لا يتم إلا بالاقتراب التدريجي من الأرض والسقوط والاستقرار عليها، والأشياء على حال كدح إلى ربها حتى تلاقيه، قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] فافهم ذلك.

٢. ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ﴾:

أ. الآية تأكيد لقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ وتفصيل لإجمال ما يتضمنه من معنى الرجوع والمعاد.

ب. ويمكن أن يكون في مقام التعليل لما تقدمه من قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ الآية أشير به إلى حجتين من الحجج المستعملة في القرآن لإثبات المعاد: أما قوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فلأن الجاري من سنة الله سبحانه أنه يفيض الوجود على ما يخلقه من شيء ويمده من رحمته بما تتم له به الخلقة فيوجد ويعيش ويتنعم برحمة منه تعالى ما دام موجودا حتى ينتهي إلى أجل معدود.

ج. وليس انتهاؤه إلى أجله المعدود المضروب له فناء منه وبطلانا للرحمة الإلهية التي كان بها وجوده وبقاؤه وسائر ما يلحق بذلك من حياة وقدرة وعلم ونحو ذلك بل بقبضه تعالى ما بسطه عليه من الرحمة فإن ما أفاضه الله عليه من عنده هو وجهه تعالى ولن يهلك وجهه.

د. فنفاد وجود الأشياء وانتهائها إلى أجلها ليس فناء منها وبطلانا لها على ما نتوهمه بل رجوعا وعودا منها إلى عنده وقد كانت نزلت من عنده، وما عند الله باق فلم يكن إلا بسطا ثم قبضا فالله سبحانه

يبدأ الأشياء ببسط الرحمة ويعيدها إليه بقبضها وهو المعاد الموعود.

٣. وأما قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ الآية:

أ. فإن الحجة فيه أن العدل والقسط الإلهي، وهو من صفات فعله، يأبى أن يستوي عنده من خضع له بالإيمان به وعمل صالحا ومن استكبر عليه وكفر به وبآياته، والطائفتان لا يحس بينهما بفرق في الدنيا فإنما السيطرة فيها للأسباب الكونية بحسب ما تنفع وتضر بإذن الله، فلا يبقى إلا أن يفرق الله بينهما بعدله بعد إرجاعهما إليه فيجزي المؤمنين المحسنين جزاء حسنا والكفار المسيئين جزاء سيئا من جهة ما يتلذذون به أو يتألمون، فالحجة معتمدة على تمايز الفريقين بالإيمان والعمل الصالح وبالكفر وعلى قوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ هذا، وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلق بقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ على ظاهر التقرير.

ب. ويمكن أن يكون قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ الآية متعلقا بقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ويكون الكلام مسوقا للتعليل وإشارة إلى حجة واحدة وهي الحجة الثانية المذكورة، والأقرب من جهة اللفظ هو الأخير.

٤. الشمس والقمر والمنازل ومعرفة السنين والحساب:

المقطع [٤] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٢»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ إلى آخر الآية، الضياء، على ما قيل، مصدر ضاء يضوء ضوء وضياء كعاذ يعوذ عوذا وعواذا، وربما كان جمع ضوء كسياط جمع سوط، واللفظ، على ما قيل، على تقدير مضاف والأصل جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور.

٢. وكذلك قوله: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ﴾ أي وقدر القمر ذا منازل في مسيره ينزل كل ليلة منزلا من تلك المنازل غير ما نزله في الليلة السابقة فلا يزال يتباعد من الشمس حتى يوافيها من الجانب الآخر، وذلك في شهر قمري كامل فترتسم بذلك الشهور وترتسم بالشهور السنون، ولذلك قال: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ﴾

٣. والآية تنبئ عن حجة من الحجج الدالة على توحده تعالى في ربوبيته للناس وتنزهه عن الشركاء، والمعنى أنه هو الذي جعل الشمس ضياء تستفيدون منه في جميع شئون حياتكم كما يستفيد منه

ما في عالمكم الأرضي من موجود مخلوق، وكذا جعل القمر نورا يستفاد منه، وقدره ذا منازل يؤدي اختلاف منازله إلى تكون الشهور والسنين فتستفيدون من ذلك في العلم بعدد السنين والحساب ولم يخلق ما خلق من ذلك بما يترتب عليه من الغايات والفوائد إلا بالحق فإنها غايات حقيقية منتظمة تترتب على خلقة ما خلق فليست بلغو باطل ولا صدفة اتفاقية، فهو تعالى إنما خلق ذلك ورتبه على هذا الترتيب لتدبير شئون حياتكم وإصلاح أمور معاشكم ومعادكم فهو ربكم الذي يملك أمركم ويدبر شأنكم لا رب سواه.

٤. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ من المحتمل أن يراد به التفصيل بحسب التكوين الخارجي أو بحسب البيان اللفظي، ولعل الأول أقرب إلى سياق الآية.

٥. اختلاف الليل والنهار آيات للمتقين:

المقطع [٥] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٢»:

١. ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (الاختلاف ذهاب كل واحد من الشيئين في جهة غير جهة الآخر فاختلاف الليل والنهار ذهاب أحدهما في جهة الضياء والآخر في جهة الظلام، انتهى، والظاهر أنه مأخوذ من الخلف، والأصل في معناه أخذ أحد الشيئين الآخر في جهة خلفه ثم اتسع فاستعمل في كل تغاير كائن بين شيئين، يقال اختلفه أي جعله خلفه، واختلف الناس في كذا ضد اتفقوا فيه، واختلف الناس إليه أي ترددوا بالدخول عليه والخروج من عنده فجعل بعضهم بعضا خلفه.

ب. والمراد باختلاف الليل والنهار إما ورود كل منهما على الأرض خلف الآخر وهو توالي الليل والنهار الراسم للأسابيع والشهور والسنين، وإما اختلاف كل من الليل والنهار في أغلب بقاع الأرض المسكونة فالليل والنهار يتساويان في الاعتدال الربيعي ثم يأخذ النهار في الزيادة في المناطق الشمالية فيزيد النهار كل يوم على النهار السابق عليه حتى يبلغ أول الصيف فيأخذ في النقيصة حتى يبلغ الاعتدال الخريفي وهو أول الخريف فيتساويان، ثم يأخذ الليل في الزيادة على النهار إلى أول الشتاء وهو منتهى طول الليالي ثم يعود راجعا إلى التساوي حتى ينتهي إلى الاعتدال الربيعي وهو أول الربيع هذا في المناطق الشمالية

والأمر في المناطق الجنوبية بالخلاف منه فكلما زاد النهار طولا في أحد الجانبين زاد الليل طولا في الجانب الآخر بنفس النسبة:

• والاختلاف الأول بالليل والنهار هو الذي يدبر أمر أهل الأرض بتسليط حرارة الأشعة ثم بسط برد الظلمة ونشر الرياح وبعث الناس للحركة المعاشية ثم جمعهم للسكن والراحة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتاً وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً﴾ [النبأ: ١١]

• والاختلاف الثاني هو الذي يرسم الفصول الأربعة السنوية التي يدبر بها أمر الأقوات والأرزاق كما قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]

ج. والنهار واليوم مترادفان إلا أن في النهار، على ما قيل، فائدة اتساع الضياء ولعله لذلك لا يستعمل النهار إلا بعناية مقابلته الليل بخلاف اليوم فإنه يستعمل فيما لا عناية فيه بذلك كما في مورد الإحصاء يقال: عشرة أيام وعشرين يوما وهكذا، ولا يقال: عشرة نهارات وعشرين نهارا وهكذا.

٢. والآية تشتمل على حجة تامة على توحده تعالى في ربوبيته فإن اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض يحمل نظاما واحدا عاما متقنا يدبر به أمر الموجودات الأرضية والسماوية وخاصة العالم الإنساني تدبيرا واحدا يتصل بعض أجزائه ببعض على أحسن ما يتصور.

٣. وهو يكشف عن ربوبية واحدة ترب كل شيء ومنه الإنسان فلا رب إلا الله سبحانه لا شريك له في ربوبيته.

٤. ومن المحتمل أن يكون قوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ الآية، في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة: ﴿يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لمكان إن، والأنسب على هذا أن يكون المراد باختلاف الليل والنهار تواليهما على الأرض دون الاختلاف بالمعنى الآخر فإن هذا المعنى من الاختلاف هو الذي يسبق إلى الذهن من قوله في الآية السابقة: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ﴾ وهو ظاهر.

٦. الذين لا يرجون لقاء الله ورضوا بالدنيا مأواهم النار:

المقطع [٦] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٤»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنيا وَاطْمَأَنُّوا بِها﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. شروع في بيان ما يتفرع على الدعوة السابقة المذكورة بقوله: ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ من حيث عاقبة الأمر في استجابته ورده وطاعته ومعصيته.

ب. فبدأ سبحانه بالكافرين بهذا الأمر فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ﴾ فوصفهم أولا بعدم رجائهم لقاءه وهو الرجوع إلى الله بالبعث يوم القيامة وقد تقدم الكلام في وجه تسميته بلقاء الله في مواضع من هذا الكتاب ومنها ما في تفسير آية الرؤية من سورة الأعراف فهؤلاء هم المنكرون ليوم الجزاء وبإنكاره يسقط الحساب والجزاء فالوعد والوعيد والأمر والنهي، وبسقوطها يبطل الوحي والنبوة وما يتفرع عليه من الدين السماوي.

ج. وبإنكار البعث والمعاد ينعطف هم الإنسان على الحياة الدنيا فإن الإنسان وكذا كل موجود ذي حياة له هم فطري ضروري في بقائه وطلب لسعادة تلك الحياة فإن كان مؤمنا بحياة دائمة تسع الحياة الدنيوية والأخروية معا فهو، وإن لم يذعن إلا بهذه الحياة المحدودة الدنيوية علقت همته الفطرية بها، ورضي بها وسكن بسببها عن طلب الآخرة، وهو المراد بقوله: ﴿وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها﴾

د. ومن هنا يظهر أن الوصف الثاني أعني قوله: ﴿وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها﴾ من لوازم الوصف الأول أعني قوله: ﴿لا يَرْجُونَ لِقاءَنا﴾ وهو بمنزلة المفسر بالنسبة إليه، وأن الباء في قوله: ﴿اطْمَأَنُّوا بِها﴾ للسببية أي سكنوا بسببها عن طلب اللقاء وهو الآخرة.

٢. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ﴾ في محل التفسير لما تقدمه من الوصف لمكان ما بينهما من التلازم فإن نسيان الآخرة وذكر الدنيا لا ينفك عن الغفلة عن آيات الله.

٣. والآية قريبة المضمون من قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية: [النجم: ٣٠] حيث دل على أن الإعراض عن ذكر الله وهو الغفلة عن آياته يوجب قصر علم الإنسان في الحياة الدنيا وشئونها فلا يريد إلا الحياة الدنيا وهو الضلال عن سبيل الله، وقد عرف هذا الضلال بنسيان يوم الحساب في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾ [ص: ٢٦]

٤. فقد تبين:

أ. أن إنكار اللقاء ونسيان يوم الحساب يوجب رضى الإنسان بالحياة الدنيا والاطمئنان إليها من الآخرة وقصر العلم عليه وانحصار الطلب فيه، وإذ كان المدار على حقيقة الذكر والطلب لم يكن فرق بين إنكاره والرضى بالحياة الدنيا قولا وفعلا أو فعلا مع القول الخالي به.

ب. وتبين أيضا أن الاعتقاد بالمعاد أحد الأصول التي يتقوم بها الدين إذ بسقوطه يسقط الأمر والنهي والوعد والوعيد والنبوة والوحي وهو بطلان الدين الإلهي من رأس.

٥. ﴿أُولَئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بيان لجزائهم بالنار الخالدة قبال أعمالهم التي كسبوها.

٧. المؤمنون يهديهم ربهم بإيمانهم ومصيرهم إلى الجنة:

المقطع [٧] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٩-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٦»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، هذا بيان لعاقبة أمر المؤمنين وما يثيبهم الله على استجابتهم لدعوته وطاعتهم لأمره.

٢. ذكر سبحانه أنه يهديهم بإيمانهم، وإنما يهديهم إلى ربهم لأن الكلام في عاقبة أمر من يرجو لقاء الله، وقد قال تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، فإنما يهدي الإيمان بإذن الله إلى الله سبحانه وكلما اهتدى المؤمنون إلى الحق أو إلى الصراط المستقيم أو غير ذلك مما يشتمل عليه كلامه فإنما هي وسائل ومدارج تنتهي بالآخرة إليه تعالى قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهى﴾ [النجم: ٤٢]

٣. وقد وصف المؤمنين بالإيمان والأعمال الصالحة ثم نسب هدايتهم إليه إلى الإيمان وحده فإن الإيمان هو الذي يصعد بالعبد إلى مقام القرب، وليس للعمل الصالح إلا إعانة الإيمان وإسعاده في عمله كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] حيث ذكر للرفع الإيمان والعلم وسكت عن العمل الصالح، وأوضحه منه في الدلالة قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]

٤. هذا في الهداية التي هي شأن الإيمان، وأما نعم الجنة فإن للعمل الصالح دخلا فيها كما أن للعمل

الطالح دخلا في أنواع العذاب وقد ذكر تعالى في المؤمنين قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ كما ذكر في الكافرين قوله: ﴿أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾

٥. وليتنبه الباحث المتدبر أنه تعالى ذكر لهؤلاء المهتدين بإيمانهم من مسكن القرب جنات النعيم، ومن نعيمها الأنهار التي تجري من تحتهم فيها، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الحمد: ٧] وقوله: ﴿فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية: [النساء: ٦٩] أن النعيم بحقيقة معناه في القرآن الكريم هو الولاية الإلهية، وقد خص الله أولياءه المقربين بنوع من شراب الجنة اعتنى به في حقهم كما قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً﴾ [الإنسان: ٦]، وقال أيضا ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ إلى أن قال: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٨]، وعليك بالتدبر في الآيات وتطبيق بعضها على بعض حتى ينجلي لك بعض ما أودعه الله سبحانه في كلامه من الأسرار اللطيفة.

٦. ﴿دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾:

أ. أول ما يكرم به الله سبحانه أولياءه، وهم الذين ليس في قلوبهم إلا الله ولا مدبر لأمرهم غيره، أنه يطهر قلوبهم عن محبة غيره فلا يحبون إلا الله فلا يتعلقون بشيء إلا الله وفي الله سبحانه فهم ينزهونه عن كل شريك يجذب قلوبهم إلى نفسه عن ذكر الله سبحانه وعن أي شاغل يشغلهم عن ربهم.

ب. وهذا تنزيه منهم لربهم عن كل ما لا يليق بساحة قدسه من شريك في الاسم أو في المعنى أو نقص أو عدم، وتسبيح منهم له لا في القول واللفظ فقط بل قولا وفعلا ولسانا وجنانا، وما دون ذلك فإن له شوبا من الشرك، وقد قال تعالى: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]

ج. وهؤلاء الذين طهر الله قلوبهم عن قذارة حب غيره الشاغلة عن ذكره وملأها بحبه فلا يريدون إلا إياه وهو سبحانه الخير الذي لا شر معه قال: ﴿وَاللهُ خَيْرٌ﴾ [طه: ٧٣]، فلا يواجهون بقلوبهم التي هي ملأى بالخير والسلام أحدا إلا بخير وسلام اللهم إلا أن يكون الذي واجهوه بقلوبهم هو الذي يبدل الخير والسلام شرا وضرا كما أن القرآن شفاء لمن استشفى به لكنه لا يزيد الظالمين إلا خسارا.

د. ثم إن هذه القلوب الطاهرة لا تواجه شيئا من الأشياء إلا وهي تجده وتشاهده نعمة لله سبحانه حاكية لصفات جماله ومعاني كماله واصفة لعظمته وجلاله فكلما وصفوا شيئا من الأشياء وهم يرونه نعمة

من نعم الله ويشاهدون فيه جماله تعالى في أسمائه وصفاته ولا يغفلون ولا يسهون عن ربهم في شيء كان وصفهم لذلك الشيء وصفا منهم لربهم بالجميل من أفعاله وصفاته فيكون ثناء منهم عليه وحمدا منهم له فليس الحمد إلا الثناء على الجميل من الفعل الاختياري.

هـ. فهذا شأن أوليائه تعالى وهم قاطنون في دار العمل يجتهدون في يومهم لغد فإذا لقوا ربهم فوفى لهم بوعده وأدخلهم في رحمته وأسكنهم دار كرامته أتم لهم نورهم الذي كان خصهم به في الدنيا كما قال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨]، فسقاهم شرابا طهورا يطهر به سرائرهم من كل شرك جلي وخفي، وغشيهم بنور العلم واليقين، وأجرى من قلوبهم على ألسنتهم عيون التوحيد فنزهوا الله وسبحوه أولا وسلموا على رفقائهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ثم حمدوا الله سبحانه وأثنوا عليه بأبلغ الحمد وأحسن الثناء.

و. وهذا هو الذي يقبل الانطباق عليه، والله أعلم، قوله في الآيتين: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وفيه ذكر جنة الولاية وتطهير قلوبهم: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ وفيه تنزيه تعالى وتسبيحه عن كل نقص وحاجة وشريك تنزيها على وجه الحضور لأنهم غير محجوبين عن ربهم ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ وهو توسيم اللقاء بالأمن المطلق، ولا يوجد في غيرها من الأمن إلا اليسير النسبي ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفيه ذكر ثنائهم على الله بالجميل بعد تسبيحهم له وتنزيههم، وهذا آخر ما ينتهي إليه أهل الجنة في كمال العلم.

ز. وقد قدمنا في تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحمد: ٢] أن الحمد توصيف، ولا يسع وصفه تعالى لأحد من خلقه إلا للمخلصين من عباده الذين أخلصهم لنفسه وخصهم بكرامة من القرب لا واسطة فيها بينهم وبينه قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٠]

ح. ولذلك لم يحك في كلامه حمده إلا عن آحاد من كرام أنبيائه كنوح وإبراهيم ومحمد وداود وسليمان عليه السلام كقوله فيما أمر به نوحا: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقوله حكاية عن إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وقوله فيما أمر به محمدا ﷺ في عدة مواضع: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ٩٣]، وقوله حكاية عن داود

وسليمان: ﴿وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ١٥]

ط. وقد حكى سبحانه حمده عن أهل الجنة في عدة مواضع من كلامه كقوله: ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله أيضا: ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقوله أيضا: ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقوله في هذه الآية: ﴿وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾

٧. والآية تدل على أن الله سبحانه يلحق أهل الجنة من المؤمنين بالآخرة بعباده المخلصين ففيها وعد جميل وبشارة عظيمة للمؤمنين.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن التسبيح قال ـ: هو اسم من أسماء الله ودعوى أهل الجنة.

• أقول: ومراده بالتسبيح قولنا سبحان الله ومعنى اسميته دلالته على تنزيهه تعالى.

ب. وفي الإختصاص، بإسناده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي ﷺ: في حديث طويل مع يهودي وقد سأله عن مسائل ـ: قال ﷺ: إذا قال العبد: سبحان الله، سبح كل شيء معه ما دون العرش، فيعطى قائلها عشر أمثالها ـ، وإذا قال: الحمد لله، أنعم الله عليه بنعيم الدنيا، حتى يلقاه بنعيم الآخرة ـ، وهي الكلمة التي يقولها أهل الجنة إذا دخلوها ـ، والكلام ينقطع في الدنيا ما خلا الحمد لله ـ، وذلك قوله ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾

• أقول: وقوله: (والكلام ينقطع في الدنيا ما خلا الحمد لله) أي جميع الكلام المستعمل في الدنيا لمقاصد تعود إلى مستعمله كالكلام المستعمل لمقاصد المعاش كجميع المحاورات الإنسانية والكلام المستعمل في العبادات لغرض الثواب ونحو ذلك ينقطع بانقطاع الدنيا إذ لا خبر بعد ذلك عن هذه المقاصد الدنيوية، ولا يبقى بعدئذ إلا الحمد لله والثناء عليه بالجميل وهو كلام أهل الجنة فيها.

• وقوله: وذلك قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ معناه أن كون التحية يومئذ هو السلام المطلق يدل على أن ليس هناك إلا موافقة كل شيء وملائمته لما يريده الإنسان فكل ما يريده فهو له فلا يستعمل هناك كلام لتحصيل غاية من الغايات على حد الكلام الدنيوي إلا الثناء على جميل ما يشاهد منه تعالى

فافهم ذلك.

٨. لو يعجل الله للناس الشر لانتهى أمرهم:

المقطع [٨] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢١»:

١. ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ الآية:

أ. تعجيل الشيء الإتيان به بسرعة وعجلة والاستعجال بالشيء طلب حصوله بسرعة وعجلة، والعمه شدة الحيرة.

ب. ومعنى الآية: ولو يعجل الله للناس الشر وهو العذاب كما يستعجلون بالخير كالنعمة لأنزل عليهم العذاب بقضاء أجلهم لكنه تعالى لا يعجل لهم الشر فيذر هؤلاء المنكرين للمعاد المارقين عن ربقة الدين يتحيرون في طغيانهم أشد التحير.

ج. وتوضيحه أن الإنسان عجول بحسب طبعه يستعجل بما فيه خيره ونفعه أي أنه يطلب من الأسباب أن تسرع في إنتاج ما يبتغيه ويريده فهو في الحقيقة يطلب الإسراع المذكور من الله سبحانه لأنه السبب في ذلك بالحقيقة فهذه سنة الإنسان وهي مبنية على الأهواء النفسانية فإن الأسباب الواقعة ليست في نظامها تابعة لهوى الإنسان بل العالم الإنساني هو التابع الجاري على ما يجريه عليه نظام الأسباب اضطرارا أحب ذلك أو كرهه.

د. ولو أن السنة الإلهية في خلق الأشياء والإتيان بالمسببات عقيب أسبابها اتبعت أو شابهت هذه السنة الإنسانية المبنية على الجهل فعجلت المسببات والآثار عقيب أسبابها لأسرع الشر وهو الهلاك بالعذاب إلى الإنسان فإن سببه قائم معه، وهو الكفر بعدم رجاء لقاء الله والطغيان في الحياة الدنيا لكنه تعالى لا يعجل الشر لهم كاستعجالهم بالخير لأن سنته مبنية على الحكمة بخلاف سنتهم المبنية على الجهالة فيذرهم في طغيانهم يعمهون.

٢. وقد بان بذلك:

أ. أولا: أن في قوله ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ نوعا من التضمين فقد ضمن فيه ﴿لَقُضِيَ﴾ معنى مثل

الإنزال أو الإبلاغ ولذا عدي بإلى، والمعنى قضي منزلا أو مبلغا إليهم أجلهم أو أنزل أو أبلغ إليهم أجلهم مقضيا وهو كناية عن نزول العذاب فالكلمة من الكناية المركبة.

ب. وثانيا: أن في قوله: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ﴾ التفاتا من الغيبة إلى التكلم مع الغير، ولعل النكتة فيه الإشارة إلى توسيط الأسباب في ذلك فإن المذكور من أفعاله تعالى في الآية وما بعدها كتركهم في عمههم وكشف الضر والتزيين والإهلاك أمور يتوسل إليها بتوسيط الأسباب، والعظماء إذا أرادوا أن يشيروا إلى دخل أعوانهم وخدمهم في بعض أمورهم أتوا بصيغة المتكلم مع الغير.

٩. الإنسان يدعو عند الضر ثم يكفر بعد كشفه:

المقطع [٩] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٢»:

١. ﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً﴾ إلى آخر الآية:

أ. الضر بالضم ما يمس الإنسان من الضرر في نفسه، وقوله: ﴿دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً﴾ أي دعانا منبطحا لجنبه إلخ، والظاهر أن الترديد للتعميم أي دعانا على أي حال من أحواله فرض من انبطاح أو قعود أو قيام مصرا على دعائه لا ينسانا في حال ويمكن أن يكون ﴿لِجَنْبِهِ﴾ الآية، أحوالا ثلاثة من الإنسان لا من فاعل دعانا والعامل فيه ﴿مَسَ﴾ والمعنى إذا مس الإنسان الضر وهو منبطح أو قاعد أو قائم دعانا في تلك الحال وهذا معنى ما ورد في بعض المرسلات: ﴿دَعانا لِجَنْبِهِ﴾ العليل الذي لا يقدر أن يجلس ﴿أَوْ قاعِداً﴾ الذي لا يقدر أن يقوم ﴿أَوْ قائِماً﴾ الصحيح.

ب. ﴿مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ كناية عن النسيان والغفلة عما كان لا يكاد ينساه.

ج. والمعنى: وإذا مس الإنسان الضر لم يزل يدعونا لكشف ضره وأصر على الدعاء فإذا كشفنا عنه ضره الذي مسه نسينا وترك ذكرنا وانجذبت نفسه إلى ما كان يتمتع به من أعماله كذلك زين للمسرفين المفرطين في التمتع بالزخارف الدنيوية أعمالهم فأورثهم نسيان جانب الربوبية والإعراض عن ذكر الله تعالى.

٢. وفي الآية بيان السبب في تمادي منكري المعاد في غيهم وضلالتهم وخصوصية سببه وهو أن

هؤلاء مثلهم كمثل الإنسان يمسه الضر فيذكر ربه ويلح عليه بالدعاء لكشف ضره حتى إذا كشف عنه الضر، ولذلك كان يدعوه، مر لوجهه متوغلا في شهواته وقد نسي ما كان يدعوه ويذكره فلم يكن تركه لدعاء ربه بعد ذكره إلا معلولا لما زين له من عمله فأورثه النسيان بعد الذكر، فكذلك هؤلاء المسرفون زين لهم أعمالهم فجذبتهم إلى نفسها فنسوا ربهم بعد ذكره، وقد ذكرهم الله مقامه بإرسال الرسل إلى من قبلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا وإهلاك القرون من قبلهم بظلمهم وهذه هي السنة الإلهية يجزي القوم المجرمين.

٣. ومن هنا يظهر أن الآية التالية: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية، متمم للبيان في هذه الآية: ﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا﴾ إلى آخر الآية.

١٠. إهلاك القرون الظالمة واستخلاف الأمم:

المقطع [١٠] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٣»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إلى آخر الآية، قد ظهر معناه مما تقدم، وفي الآية التفات في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الغيبة إلى الخطاب، وكان النكتة فيه التشديد في الإنذار لأن الإنذار والتخويف بالمشافهة أوقع أثرا وأبلغ من غيره.

٢. ثم في قوله: ﴿كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ التفات آخر بتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ، والنكتة فيه أنه إخبار عن السنة الإلهية في أخذ المجرمين، والنبي ﷺ هو الأهل لفهمه والإذعان بصدقه دونهم ولو أذعنوا بصدقة لآمنوا به ولم يكفروا، وهذا بخلاف قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ﴿وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ فإنه خبر تاريخي لا ضير في تصديقهم به.

٣. ﴿ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ معناه ظاهر، وفيه بيان أن سنة الامتحان والابتلاء عامة جارية.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا﴾ الآية، قال

فإن قريشا قالت: يا رسول الله ائتنا بقرآن غير هذا، فإن هذا شيء تعلمته من اليهود والنصارى، قال الله: قل لهم: لو شاء الله ما تلوته عليكم، ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم أربعين سنة، قبل أن يوحى إلي، ولم أتكلم بشيء منه، حتى أوحي إلي.

• أقول: وفي انطباق مضمونه على الآية خفاء، على ما فيه من مخاطبتهم النبي ﷺ بالرسالة.

ب. وفي تفسير العياشي، عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله ﷺ قال لم يزل رسول الله ﷺ يقول: إني أخاف، إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم حتى نزلت سورة الفتح، فلم يعد إلى ذلك الكلام.

• أقول: والرواية لا تخلو عن شيء.

١١. الكفار يطلبون تبديل القرآن والنبي يتبع الوحي:

المقطع [١١] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٥-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٦»:

١. ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ﴾:

أ. هؤلاء المذكورون في الآية كانوا قوما وثنيين يقدسون الأصنام ويعبدونها، ومن سننهم التوغل في المظالم والآثام واقتراف المعاصي، والقرآن ينهى عن ذلك كله، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ورفض الشركاء، وعبادة الله مع التنزه عن الظلم والفسق واتباع الشهوات.

ب. ومن المعلوم أن كتابا هذا شأنه إذا تليت آياته على قوم ذلك شأنهم لم يكن ليوافق ما تهواه أنفسهم بما يشتمل عليه من الدعوة المخالفة فلو قالوا: ائت بقرآن غير هذا دل على أنهم يقترحون قرآنا لا يشتمل على ما يشتمل عليه هذا القرآن من الدعوة إلى رفض الشركاء واتقاء الفحشاء والمنكر، وإن قالوا: بدل القرآن كان مرادهم تبديل ما يخالف آراءهم من آياته إلى ما يوافقها حتى يقع منهم موقع القبول، وذلك كالشاعر ينشد من شعره أو القاص يقص القصة فلا تستحسنه طباع السامعين فيقولون: ائت بغيره أو بدله، وفي ذلك تنزيل القرآن أنزل مراتب الكلام وهو لهو الحديث الذي إنما يلقى لتلهو به نفس سامعه

وتنشط به عواطفه ثم لا يستطيبه السامع فيقول: ائت بغير هذا أو بدله.

ج. فبذلك يظهر أن قولهم إذا تليت عليهم آيات القرآن: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا﴾ يريدون به قرآنا لا يشتمل من المعارف على ما يتضمنه هذا القرآن بأن يترك هذا ويؤتى بذاك، وقولهم: ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أن يغير ما فيه من المعارف المخالفة لأهوائهم إلى معان يوافقها مع حفظ أصله فهذا هو الفرق بين الإتيان بغيره وبين تبديله:

• فما قيل: إن الفرق بينهما أن الإتيان بغيره قد يكون معه وتبديله لا يكون إلا برفعه، غير سديد فإنهم ما كانوا يريدون أن يأتيهم النبي ﷺ بهذا القرآن وغيره معا قطعا.

• وكذا ما ذكره بعضهم أن قولهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ إنما أرادوا به أن يمتحنوه بذلك فيغروه حتى إذا أجابهم إلى ذلك كان ذلك نقضا منه لدعوى نفسه أنه كلام الله، وذلك أنهم لما سمعوا ما بلغهم النبي ﷺ من آيات القرآن وتلاه عليهم وتحداهم بالإتيان بمثله وعجزوا عن الإتيان بمثله، وكانوا في ريب من كونه كلام الله، وفي ريب من كونه من النبي ﷺ نفسه ولم يكن يفوقهم في الفصاحة والبلاغة والعلم، بل كانوا يرونه دون كبار فصحائهم ومصاقع خطبائهم أرادوا أن يمتحنوه بهذا القول حتى إذا أتاهم بما سألوه كان ذلك ناقضا لأصل دعواه أنه كلام الله، وكان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان لقوة نفسية فيه كانت خفية عليهم كأسباب السحر لا بوحي، هذا، وفيه مضافا إلى مناقضة آخره أوله أنه مدفوع بما يلقنه الله سبحانه من الحجة فإن السؤال الذي لم يصدر إلا بداعي الامتحان والاختبار من غير داع جدي لا معنى للجواب عنه بالإثبات الجدي بحجة جدية وهو ظاهر.

د. وفي قوله: ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة، والظاهر أن النكتة فيه أن يكون توطئة إلى إلقاء الأمر إلى النبي ﷺ بقوله: ﴿قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ الآية، فإن ذلك لا يتم إلا بصرف الخطاب عنهم وتوجيهه إليه ﷺ.

٢. ﴿قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ إلى آخر الآية:

أ. التلقاء بكسر التاء مصدر كاللقاء نظير التبيان والبيان ويستعمل ظرفا.

ب. والله سبحانه على ما أجاب عن مقترحهم بقولهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ في أثناء كلامه بقوله ﴿بَيِّناتٍ﴾ فإن الآيات إذا كانت بينات ظاهرة الاستناد إلى الله سبحانه كشفت كشفا قطعيا عما

يريده الله سبحانه منهم من رفض الأصنام والاجتناب من كل ما لا يرتضيه بما أوحى إلى رسوله ﷺ من تفصيل دينه رد سؤالهم إليهم تفصيلا بتلقين نبيه ﷺ الحجة في ذلك بقوله: ﴿قُلْ ما يَكُونُ لِي﴾ إلى آخر الآيات الثلاث.

ج. فقوله: ﴿قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ الآية، جواب عن قولهم: ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ومعناه: قل لا أملك، وليس لي بحق، أن أبدله من عند نفسي لأنه ليس بكلامي وإنما هو وحي إلهي أمرني ربي أن أتبعه ولا أتبع غيره، وإنما لا أخالف أمر ربي لأني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم وهو يوم لقائه.

د. فقوله: ﴿ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ نفي الحق وسلب الخيرة، وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله: ﴿ما يَكُونُ لِي﴾ وقوله: ﴿إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ الآية، في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ الآية، بما يلوح منه أنه مما تعلق به الأمر الإلهي.

٣. وفي قوله: ﴿إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

أ. نوع محاذاة لما في صدر الكلام من قوله: ﴿قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ﴾ الآية فإن الإتيان بالوصف للإشعار بأن الباعث لهم أن يقولوا ما قالوا إنما هو إنكارهم للمعاد وعدم رجائهم لقاء الله فقابلهم النبي ﷺ بأمر من ربه بقوله: ﴿إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيئول المعنى إلى أنكم تسألون ما تسألون لأنكم لا ترجون لقاء الله لكنني لا أشك فيه فلا يمكنني إجابتكم إليه لأني أخاف عذاب يوم اللقاء، وهو يوم عظيم.

ب. وفي تبديل يوم اللقاء بيوم عظيم فائدة الإنذار مضافا إلى أن العذاب لا يناسب اللقاء تلك المناسبة.

٤. ﴿قُلْ لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾:

أ. أدراكم به أي أعلمكم الله به، والعمر بضمتين أو بالفتح فالسكون هو البقاء، وإذا استعمل في القسم كقولهم: لعمري ولعمرك تعين الفتح.

ب. وهذه الآية تتضمن رد الشق الأول من سؤالهم وهو قولهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا﴾ ومعناها على ما يساعد عليه السياق: أن الأمر فيه إلى مشية الله لا إلى مشيتي فإنما أنا رسول ولو شاء الله أن ينزل قرآنا غير هذا ولم يشأ هذا القرآن ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فإني مكثت فيكم عمرا من قبل نزول القرآن

وعشت بينكم وعاشرتموني وخالطتكم وخالطتموني فوجدتموني لا خبر عندي من وحي القرآن، ولو كان ذلك إلي وبيدي لبادرت إليه قبل ذلك، وبدت من ذلك آثار ولاحت لوائحه، فليس إلي من الأمر شيء، وإنما الأمر في ذلك إلى مشية الله وقد تعلقت مشيته بهذا القرآن لا غيره أفلا تعقلون؟

٥. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾:

أ. استفهام إنكاري أي لا أحد أظلم وأشد إجراما من هذين الفريقين: المفتري على الله كذبا، والمكذب بآياته فإن الظلم يعظم بعظمة من يتعلق به وإذا اختص بجنب الله كان أشد الظلم.

ب. وظاهر سياق الاحتجاج في الآيتين أن هذه الآية من تمامها والمعنى: لا أجيبكم إلى ما اقترحتم علي من الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله فإن ذلك ليس إلي ولا لي حق فيه، ولو أجبتكم إليه لكنت أظلم الناس وأشدهم إجراما ولا يفلح المجرمون فإني لو بدلت القرآن وغيرت بعض مواضعه مما لا ترتضونه لكنت مفتريا على الله كذبا ولا أظلم منه، ولو تركت هذا القرآن وجئتكم بغيره مما ترتضونه لكنت مكذبا لآيات الله، ولا أظلم منه.

ج. وربما احتمل كون الاستفهام الإنكاري بشقيه تعريضا للمشركين أي أنتم أظلم الناس بإثباتكم لله شركاء وهو افتراء الكذب على الله وبتكذيبكم بنبوتي والآيات النازلة علي وهو تكذيب بآيات الله ولا يفلح المجرمون.

د. وذكر بعضهم أن الأول من شقي الترديد للنبي على تقدير إجابتهم والثاني للمشركين، أي لا أحد أظلم عند الله من هذين الفريقين: المفترين على الله والمكذبين بآياته، وأنا أنعى عليكم الثاني منهما فكيف أرضى لنفسي بالأول وهو شر منه؟ وأي فائدة لي من هذا الاجرام العظيم وأنا أريد الإصلاح؟، والذي ذكره من المعنى لا بأس به في نفسه لكن الشأن في استفادته من الآية ودلالة لفظها عليه، وكذا الوجه السابق عليه بالنظر إلى السياق.

١٢. المشركون يعبدون آلهة زاعمين أنها شفعاء عند الله:

المقطع [١٢] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِّ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِّ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَّ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٠»:

١. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الكلام: موجه نحو عبدة الأصنام من المشركين وإن كان ربما شمل غيرهم كأهل الكتاب بحسب سعة معناه، وذلك لمكان ﴿ما﴾ وكون السورة مكية من أوائل ما نزل على النبي ﷺ من القرآن.

ب. وقد كانت عبدة الأصنام يعبدون الأصنام ليتقربوا بعبادتها إلى أربابها وبأربابها إلى رب الأرباب وهو الله سبحانه، ويقولون: (إننا على ما بنا من ألواث البشرية المادية وقذارات الذنوب والآثام لا سبيل لنا إلى رب الأرباب لطهارة ساحته وقدسها ولا نسبة بيننا وبينه، فمن الواجب أن نتقرب إليه بأحب خلائقه إليه وهم أرباب الأصنام الذين فوض الله إليهم أمر تدبير خلقه، ونتقرب إليهم بأصنامهم وتماثيلهم وإنما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند الله لتجلب إلينا الخير وتدفع عنا الشر فتقع العبادة للأصنام حقيقة، والشفاعة لأربابها وربما نسبت إليها.

ج. وقد وضع في الكلام قوله: ﴿ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾ موضع الأصنام للتلويح إلى موضع خطئهم في مزعمتهم، وهو أن هذا السعي إنما كان ينجح منهم لو كانت هذه الأصنام ضارة نافعة في الأمور وكانت ذوات شعور بالعبادة والتقرب حتى ترضى عن عبادها بعبادتهم لها فتشفع أو يشفع أربابها لهم عند الله إن كان الله يرتضي شفاعتهم وهؤلاء أجسام ميتة لا تشعر بشيء ولا تضر ولا تنفع شيئا.

٢. وقد أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يحتج على بطلان دعواهم الشفاعة، مضافا إلى ما يلوح إليه قوله: ﴿لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾ بقوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾ ومحصله أن الله سبحانه لا علم له بهذه الشفعاء في شيء من السماوات والأرض فدعواكم هذه إخبار منكم إياه بما لا يعلم، وهو من أقبح الافتراء وأشنع المكابرة، وكيف يكون في الوجود شيء لا يعلم به الله وهو يعلم ما في السماوات والأرض؟ فالاستفهام إنكاري، ونفي العلم بوجود الشفعاء كناية عن نفي وجودها، ولعل اختيار هذا التعبير لكون الشفاعة مما يتقوم بالعلم لذاته فإن الشفاعة إنما تتحقق إذا كان المشفوع عنده عالما بوجود الشافع وشفاعته فإذا فرض أنه لا يعلم بالشفعاء فكيف تتحقق الشفاعة عنده وهو لا يعلم.

٣. ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كلمة تنزيه، وهي من كلام الله وليست مقولة قول النبي ﷺ فإن ظرف المشركين بالنسبة إليه هو الخطاب دون الغيبة فلو كان من كلام النبي ﷺ لقيل: عما تشركون

بالخطاب.

١٣. الناس كانوا أمة واحدة ثم اختلفوا:

المقطع [١٣] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣١»:

١. ﴿وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ قد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣] أن الآية تكشف عن نوعين من الاختلاف بين الناس:

أ. أحدهما: الاختلاف من حيث المعاش وهو الذي يرجع إلى الدعاوي وينقسم به الناس إلى مدع ومدعى عليه وظالم ومظلوم ومتعد ومتعدى عليه وآخذ بحقه وضائع حقه، وهذا هو الذي رفعه الله سبحانه بوضع الدين وبعث النبيين وإنزال الكتاب معهم ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويعلمهم معارف الدين ويواجههم بالإنذار والتبشير.

ب. وثانيهما: الاختلاف في نفس الدين وما تضمنه الكتاب الإلهي من المعارف الحقة من الأصول والفروع، وقد صرح القرآن في مواضع من آياته أن هذا النوع من الاختلاف ينتهي إلى علماء الكتاب بغيا بينهم، وليس مما يقتضيه طباع الإنسان كالقسم الأول، وبذلك ينقسم الطريق إلى طريقي الهداية والضلال فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق، وقد ذكر سبحانه في مواضع من كلامه بعد ذكر هذا القسم من الاختلاف أنه لولا قضاء من الله سبق لحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ولكن يؤخرهم إلى أجل، قال تعالى: ﴿وَما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤] إلى غير ذلك من الآيات.

٢. وسياق الآية السابقة أعني قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾ الآية، لا يناسب من الاختلافين المذكورين إلا الاختلاف الثاني وهو الاختلاف في نفس الدين لأنها تذكر ركوب الناس طريق الضلال بعبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم واتخاذهم شفعاء عند الله ومقتضى ذلك

أن يكون المراد من كون الناس سابقا أمة واحدة كونهم على دين واحد وهو دين التوحيد ثم اختلفوا فتفرقوا فريقين موحد ومشرك.

٣. فذكر الله فيها أن اختلافهم كان يقضي أن يحكم الله بينهم بإظهار الحق على الباطل وفيه هلاك المبطلين وإنجاء المحقين لكن السابق من الكلمة الإلهية منعت من القضاء بينهم، والكلمة هي قوله تعالى لما أهبط الإنسان إلى الدنيا: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]

٤. وللمفسرين في الآية أقوال عجيبة:

أ. منها: أن المراد بالناس هم العرب كانوا على دين واحد حق وهو دين إبراهيم عليه السلام إلى زمن عمرو بن لحي الذي زوج بينهم الوثنية فانقسموا إلى حنفاء مسلمين، وعبدة أصنام مشركين وأنت خبير أنه لا دليل عليه من جهة اللفظ البتة.

ب. ومنها: أن المراد بالناس جميعهم، والمراد من كونهم أمة واحدة كونهم على فطرة الإسلام وإن كانوا مختلفين دائما، فلفظة ﴿كانَ﴾ منسلخ الزمان، والآية تحكي عما عليه الناس بحسب الطبع وهو التوحيد، وما هم عليه بحسب الفعلية وهو الاختلاف فليس الناس بحسب الطبع الفطري إلا أمة واحدة موحدين لكنهم اختلفوا على خلاف فطرتهم، وفيه أنه خلاف ظاهر الآية والآية التي في سورة البقرة، وكذا ظاهر سائر الآيات كقوله: ﴿وَما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤] وقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، على أن القول بوجود الاختلاف الدائم بين الناس مع عدم رجوعه إلى الفطرة مما لا يجتمعان.

ج. ومنها: أن المراد أن الناس جميعا كانوا على ملة واحدة هي الكفر والشرك ثم اختلفوا فكان مسلم وكافر، وهذا أسخف الأقوال في الآية فإنه مضافا إلى كونه قولا بغير دليل يأباه ظاهر الآيات فإن ظاهرها أن ظهور الاختلاف لانتهائه إلى بغي الناس من بعد ما جاءهم العلم أي ظهور الكفر والشرك عن بغي كان هو المقتضي للحكم بينهم والقضاء عليهم بنزول العذاب والهلاك فإذا كانوا جميعا على الكفر والشرك من غير سابقة هدى وإيمان فما معنى استناد الاقتضاء إلى البغي عن علم؟ وما معنى خلق الجميع ووجود المقتضي لإهلاكهم جميعا إلا انتقاض الغرض الإلهي؟، وهذا القول أشبه بما قالته النصارى في مسألة التفدية إن الله خلق الإنسان ليطعمه فيسكنه الجنة دائما لكنه عصاه ونقض بذلك غرض الخلقة

فتداركه الله بتفدية المسيح.

د. ومنها: قول بعضهم: إن المراد بالكلمة في قوله: ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية قوله تعالى فهذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الآية: ٩٣]، وفيه: أن المراد بالسبق إن كان هو السبق بحسب البيان فالآية متأخرة عن هذه الآية لوقوعها في أواخر السورة، والآيات متصلة جارية، على أن الآية في بني إسرائيل خاصة والضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ راجع إليهم وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]، على أن قوله في بعض الآيات: ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤] لا يلائم هذا المعنى من السبق، وإن كان المراد بالسبق السبق بحسب القضاء فينبغي أن يتبع في ذلك أول كلمة قالها الله تعالى في ضلال الناس وشركهم ومعصيتهم، وليست إلا ما قاله عند أول ما أسكن الإنسان الأرض وهو ما قدمناه من الآية.

١٤. الكفار والآيات والغيب:

المقطع [١٤] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٤»:

١. ﴿وَيَقُولُونَ لولا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ الآية كقوله قبلها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وقوله قبله: ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا﴾ تعد أمورا من مظالم المشركين في أقوالهم وأعمالهم ثم ترد عليها بحجج تلقنها النبي ﷺ ليقيمها عليهم كما مر في أول الآيات فقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لولا أُنْزِلَ﴾ الآية، عطف على قوله في أول الآيات: ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا﴾، وفيها مع ذلك عود بعد عود إلى إنكارهم أمر القرآن فإن مرادهم بقولهم: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وإن كان طلب آية أخرى غير القرآن لكنهم إنما قالوه إزراء وتحقيرا لأمر القرآن واستخفافا به لعدم عده آية إلهية والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ﴾ ولم يقل: (قل) كما قال في سائر الآيات كأنه يقول: ويطلبون منك آية أخرى غير مكتفين بالقرآن ولا راضين به فإذا لم يكتفوا به آية فقل: إنما الآيات من الغيب المختص بالله وليست بيدي فانتظروا إني معكم من المنتظرين.

٢. فهذا هو المستفاد من الآية وفيها دلالة على أن النبي ﷺ كان ينتظر آية فاصلة بين الحق والباطل غير القرآن قاضية بينه وبين أمته، وسيجيء الوعد الصريح منه بهذه الآية، التي يأمر بانتظارها هاهنا، في قوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٤٦] إلى تمام عدة آيات.

١٥. الناس عند الرحمة يفرحون وعند الشدة يمكرون:

المقطع [١٥] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٤»:

١. ﴿وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا﴾ إلى آخر الآية:

أ. مضمون الآية وإن كان من المعاني العامة الجارية في أغلب الناس في أكثر الأوقات فإن الفرد من الإنسان لا يخلو عن أن يمسه سراء بعد ضراء بل قلما يتفق أن لا يتكرر في حقه ذلك لكن الآية من جهة السياق المتقدم كأنها مسوقة للتعريض للمشركين ومكرهم في آيات الله، والدليل عليه قوله: ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ فقد كان النظر معطوفا على مكر طائفة خاصة وهم المخاطبون بهذه الآيات حيث كانوا يمكرون بآيات السراء والضراء بعد ظهورها، ومن مكرهم مكرهم في القرآن الذي هو آية إلهية ورحمة أذاقهم الله إياها بعد ضراء الجهالة العالقة بهم وشمول ضنك العيش والذلة والتفرقة وتباعد القلوب وبغضائها لهم وهم يمكرون به فتارة يقولون ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وتارة يقولون: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾

ب. فالآية تبين لهم أن هذا كله مكر يمكرونه في آيات الله، وتبين لهم أن المكر بآيات الله لا يعقب إلا السوء من غير أن ينفعهم شيئا فإن الله أسرع مكرا يأخذهم مكره قبل أن يأخذ مكرهم آياته فإن مكرهم بآيات الله عين مكر الله بهم.

ج. فمعنى الآية: ﴿وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ عبر عن الإصابة بالإذاقة للإيماء إلى التذاذهم بالرحمة وعناية بالقلة فإن الذوق يستعمل في القليل من التغذي ﴿رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ والتعبير بالرحمة في موضع السراء للإشارة إلى أنها من الرحمة الإلهية من غير أن يستوجبوا ذلك فكان من الواجب عليهم أن يقوموا بحقه، ويخضعوا لما تدعو إليه الآية وهو توحيد ربهم وشكر نعمته لكنهم يفاجئون بغير ذلك ﴿إِذا لَهُمْ مَكْرٌ

فِي آياتِنا﴾ كتوجيه الحوادث بما تبطل به دلالة الآيات كقولهم قد مس آباءنا السراء والضراء، والاعتذار بما لا يرتضيه الله كقولهم: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ وقولهم: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا﴾

٢. فأمر الله نبيه ﷺ أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ ثم علله بقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ﴾ فلنا عليكم شهداء رقباء أرسلناهم إليكم يكتبون أعمالكم ويحفظونها وبمجرد، ما عملتم عملا حفظ عليكم وتعين جزاؤه لكم قبل أن يؤثر مكركم أثره أو لا يؤثر كما فسروه.

٣. وهنا شيء وهو أن الظاهر من قوله تعالى: ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] على ما سيجيء من البيان في تفسير الآية إن شاء الله تعالى أن معنى كتابة الملائكة أعمال العباد هو إخراجهم الأعمال من كمون الاستعدادات إلى مرحلة الفعلية الخارجية ورسم نفس الأعمال في صحيفة الكون وبذلك تنجلي علية كتابة الرسل لأعمالهم لكونه تعالى أسرع مكرا تمام الانجلاء فإن حقيقة المعنى على هذا: أنا نحن نخرج أعمالكم التي تمكرون بها من داخل ذواتكم ونضعها في الخارج فكيف يخفى علينا كونكم تريدون بنا المكر بذلك؟ وهل المكر إلا صرف الغير عما يقصده بحيلة وستر عليه بل ذاك الذي تزعمونه مكرا بنا مكر منا بكم حيث نجعلكم تزعمونه مكرا وتقدمون على المكر بنا، وهذه المزعمة والإقدام ضلال منكم وإضلال منا لكم جزاء بما كسبته أيديكم، وسيأتي نظير هذا المعنى في قوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ [الآية: ٢٣] من السورة.

٤. وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ﴾ على قراءة تمكرون بتاء الخطاب وهي القراءة المشهورة وهو من عجيب الالتفات الواقع في القرآن ولعل النكتة فيه تمثيل معنى قوله: ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ في العين كأنه تعالى لما قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ أراد أن يوضحه لهم عيانا ففاجأهم بتجليه لهم دفعة فكلمهم وأوضح لهم السبب في كونه أسرع مكرا ثم حجبهم عن نفسه فعادوا إلى غيبتهم وعاد الكلام إلى حاله، وخوطب النبي ﷺ ببقية الخطاب: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ الآية، وهذا من لطيف الالتفات.

١٦. الكفار والإيمان والإخلاص عند الشدة:

المقطع [١٦] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ

مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٦»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الفلك السفينة وتستعمل مفردا وجمعا، والمراد بها هاهنا الجمع بدليل قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ والريح العاصف: الشديدة الهبوب، وقوله: ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ كناية عن الإشراف على الهلاك وتقديره أحاط بهم البلاء أو الأمواج، والإشارة بقوله: ﴿مِنْ هذِهِ﴾ إلى الشدة، ومعنى الآية ظاهر.

ب. وفيها من عجيب الالتفات الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ إلى قوله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِ﴾ ولعل النكتة فيه إرجاعهم إلى الغيبة وتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ ووصف أعجب جزء من هذه القصة الموصوفة له ليسمعه ويتعجب منه، ويكون فيه مع ذلك إعراض عن الأمر بمخاطبتهم لأنهم لا يفقهون القول.

٢. ﴿فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ﴾:

أ. أصل البغي هو الطلب ويكثر استعماله في مورد الظلم لكونه طلبا لحق الغير بالتعدي عليه ويقيد حينئذ بغير الحق، ولو كان بمعنى الظلم محضا لكان القيد زائدا.

ب. والجملة من تتمة الآية السابقة، والمجموع أعني قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ إلى قوله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِ﴾ بمنزلة الشاهد والمثال بالنسبة إلى عموم قوله قبله: ﴿وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ إلى آخر الآية، أو لخصوص قوله: ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ وعلى أي حال فقوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية، مما يتوقف عليه تمام الغرض من الكلام في الآية السابقة وإن لم يكن من كلام النبي ﷺ فافهم ذلك.

١٧. البغي على النفس:

المقطع [١٧] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٧»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُم عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. في الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب فقوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الآية، خطاب منه تعالى للناس بلا واسطة، وليس من كلام النبي عليه السلام مما أمره الله سبحانه أن يخاطب به الناس، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ﴾ إلى آخر الآية، فإنه لا يصلح أن يكون من خطاب النبي صلى الله عليه واله.

ب. والنكتة في هذا الالتفات هي نظير النكتة التي قدمنا ذكرها في قوله تعالى في أول الكلام: ﴿إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ﴾ فكأنه سبحانه يفاجئهم بالاطلاع عليهم أثناء ما يخاطبهم النبي ﷺ وهم يحسبون أن ربهم غائب عنهم غافل عن نياتهم ومقاصدهم في أعمالهم فيشرف عليهم ويمثل بذلك كونه معهم في جميع أحوالهم وإحاطته بهم ويقول لهم: أنا أقرب إليكم وإلى أعمالكم منكم فما تعملونه من عمل تريدون به أن تبتغوا علينا وتمكروا بنا إنما توجد بتقديرنا وتجري بأيدينا فكيف يمكنكم أن تبغوا بها علينا؟ بل هي بغي منكم على أنفسكم فإنها تبعدكم منا وتكتب آثامها في صحائف أعمالكم فبغيكم على أنفسكم وهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به أياما قلائل ثم إلينا مرجعكم فنخبركم ونوضح لكم هناك حقائق أعمالكم.

٢. ﴿مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ بالنصب في قراءة حفص عن عاصم والتقدير: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، وبالرفع في قراءة غيره وهو خبر لمبتدإ محذوف، والتقدير هو أي بغيكم وعملكم متاع الحياة الدنيا، وعلى كلتا القراءتين فقوله: ﴿مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ إلى آخر الآية، تفصيل لإجمال قوله: ﴿إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ فقوله ﴿مَتاعَ﴾ الآية، في مقام التعليل بالنسبة إلى كون بغيهم على أنفسهم من قبيل تعليل الإجمال بالتفصيل وبيانه به.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن منصور بن يونس عن أبي عبد الله عليه السلام: ثلاث يرجعن على صاحبهن: النكث والبغي والمكر، قال الله: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾

• أقول: وهو مروي عن أنس عن النبي ﷺ قال: ثلاث هن رواجع على أهلها: النكث والمكر والبغي، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ﴾ أورده في الدر المنثور.

ب. أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر محمد بن علي قال: ما من عبادة أفضل من أن تسأل،

وما يدفع القضاء إلا الدعاء، وإن أسرع الخير ثوابا البر، وأسرع الشر عقوبة البغي، وكفى بالمرء عيبا، أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع التحول عنه، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه.

ج. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لو بغى جبل على جبل لدك الباغي منهما.

١٨. مثل الحياة الدنيا:

المقطع [١٨] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٨»:

١. ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية، لما ذكر سبحانه في الآية السابقة متاع الحياة الدنيا مثل له بهذا المثل يصف فيه من حقيقة أمره ما يعتبر به المعتبرون، وهو من الاستعارة التمثيلية وليس من تشبيه المفرد بالمفرد من شيء وإن أوهم ذلك قوله: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ﴾ ابتداء، ونظائره شائعة في أمثال القرآن، والزخرف الزينة والبهجة.

٢. ﴿لَمْ تَغْنَ﴾ من غني في المكان إذا أقام فيه فأطال المقام، والباقي ظاهر.

١٩. الله يدعو إلى دار السلام:

المقطع [١٩] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٨»:

١. ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

أ. الدعاء والدعوة عطف نظر المدعو إلى ما يدعى إليه وجلب توجهه وهو أعم من النداء فإن النداء يختص بباب اللفظ والصوت، والدعاء يكون باللفظ والإشارة وغيرهما، والنداء إنما يكون بالجهر ولا يقيد به الدعاء.

ب. والدعاء في الله سبحانه تكويني وهو إيجاد ما يريده لشيء كأنه يدعوه إلى ما يريده، قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢] أي يدعوكم إلى الحياة الأخروية فتستجيبون إلى قبولها، وتشريعي وهو تكليف الناس بما يريده من دين بلسان آياته، والدعاء من العبد لربه عطف رحمته وعنايته إلى نفسه بنصب نفسه في مقام العبودية والمملوكية، ولذا كانت العبادة في الحقيقة دعاء لأن العبد ينصب فيها نفسه في مقام المملوكية والاتصال بمولاه بالتبعية والذلة ليعطفه بمولويته وربوبيته إلى نفسه وهو الدعاء، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] حيث عبر أولا بالدعاء ثم بدله ثانيا العبادة.

ج. وقد التبس الأمر على صاحب المنار فقال في تفسيره: (إن قول بعض المفسرين وغيرهم: إن من معاني الدعاء العبادة لا يصح على إطلاقه في العبادة الشرعية التكليفية فإن الصيام لا يسمى دعاء لغة ولا شرعا وإنما الدعاء هو مخ العبادة الفطرية وأعظم أركان التكليفية منها كما ورد في الحديث فكل دعاء شرعي عبادة وما كل عبادة شرعية دعاء) ومنشأ خطئه زعمه أن معنى الدعاء هو النداء للطلب وغفلته عما تقدم من تحليل معناه.

د. والأصل في معنى السلام على ما ذكره الراغب في المفردات، هو التعري عن الآفات الظاهرة والباطنة، وإليه يرجع معناه في جميع مشتقاته، والسلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة، والظاهر أن السلام والأمن متقاربان معنى، وإنما الفارق أن السلام هو الأمن مأخوذا في نفسه، والأمن هو السلام مضافا إلى ما يسلم منه يقال: هو في سلام، وهو في أمن من كذا وكذا.

هـ. والسلام من أسمائه تعالى لأن ذاته المتعالية نفس الخير الذي لا شر فيه، وتسمى الجنة دار السلام حيث لا شر فيها ولا ضر على ساكنها، وقيل: إنما سميت دار السلام لأنها دار الله الذي هو السلام، والمال واحد في الحقيقة لأنه تعالى إنما سمي سلاما لبراءته من كل شر وسوء، وفي سياق الآية ما يشعر بكون معنى السلام الوصفي مقصودا في الكلام.

و. وقد أطلق سبحانه السلام ولم يقيده بشيء ولا ورد في كلامه ما يقيده ببعض الحيثيات فهو دار السلام على الإطلاق وليست إلا الجنة فإن ما يوجد عندنا في الدنيا من السلام إنما هو الإضافي دون المطلق فما من شيء إلا وهو مزاحم ممنوع من بعض ما يحبه ويهواه، وما من حال إلا وفيه مقارنات من الأضداد والأنداد.

ز. فإذا أخذت معنى السلام مطلقا غير نسبي تحصل عندك ما عليه الجنة من الوصف، وانكشف أن توصيفها بهذه الصفة نظير توصيفها في قوله: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها﴾ [ق: ٣٥]، فإن سلامة الإنسان من كل ما يكرهه ولا يحبه تلازم سلطانه على كل ما يشاؤه ويحبه.

ح. وفي تقييد دار السلام بكونها عند ربهم دلالة على قرب الحضور وعدم غفلتهم عنه سبحانه هناك أصلا، وقد تقدم الكلام في معنى الهداية ومعنى الصراط المستقيم في مواضع من الأبحاث السابقة كتفسير سورة الحمد وغيره.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن العلاء بن عبد الكريم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: في قول الله عز وجل: ﴿وَاللهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ﴾ فقال إن السلام هو الله عز وجل، وداره التي خلقها لأوليائه الجنة.

ب. وفيه، عن ابن شهرآشوب عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه وزيد بن علي بن الحسين عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ﴾ يعني به الجنة ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني ولاية علي بن أبي طالب.

• أقول: إن كانت الرواية موقوفة فهي من الجري أو من الباطن من معنى القرآن، وفي معناها روايات أخر.

٢٠. للذين أحسنوا الحسنى وزيادة:

المقطع [٢٠] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٤٢»:

١. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾ الآية:

أ. الحسنى مؤنث أحسن والمراد المثوبة الحسنى، والمراد بالزيادة الزيادة على الاستحقاق بناء على أن الله جعل من فضله للعمل مثلا من الجزاء والثواب ثم جعله حقا للعامل في مثل قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩] ثم ضاعفه وجعل المضاعف منه أيضا حقا للعامل كما في قوله: ﴿مَنْ جاءَ

بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ [الأنعام: ١٦٠] وعند ذلك كان مفاد قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى﴾ استحقاقهم للجزاء والمثوبة الحسنى، وتكون الزيادة هي الزيادة على مقدار الاستحقاق من المثل أو العشرة الأمثال نظير ما يفيده قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣]

ب. ولو كان المراد بالحسنى في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى﴾ العاقبة الحسنى، وليس فيما يعقل فوق الحسنى شيء كان معنى قوله: ﴿وَزِيادَةٌ﴾ الزيادة على ما يعقله الإنسان من الفضل الإلهي كما يشير إليه قوله: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وما في قوله: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] فإن من المعلوم أن كل أمر حسن يشاؤه الإنسان فالمزيد على ما يشاؤه أمر فوق ما يدركه فافهم ذلك.

ج. والرهق بفتحتين اللحوق والغشيان يقال: رهقه الدين أي لحق به وغشيه، والقتر الدخان الأسود أو الغبار الأسود، وفي توصيفهم بقوله: ﴿وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾ محاذاة لما في الآية التالية من وصف أهل النار بسواد وجوههم بالقتر وهو سواد صوري والذلة وهي سواد معنوي.

د. والمعنى: للذين أحسنوا في الدنيا المثوبة الحسنى وزيادة من فضل الله، أو العاقبة الحسنى وزيادة لا تخطر ببالهم، ولا يغشى وجوههم سواد من قتر ولا ذلة، وأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في أمالي المفيد، بإسناده إلى أبي إسحاق الهمداني عن أمير المؤمنين عليه السلام: فيما كتب إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر، وأمره أن يقرأه على الناس، وفيما كتب: قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ﴾ والحسنى هي الجنة، والزيادة هي الدنيا.

ب. وفي تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: فأما الحسنى فهي الجنة، وأما الزيادة فالدنيا، ما أعطاهم الله في الدنيا يحاسبهم الله في الآخرة، ويجمع الله لهم ثواب الدنيا والآخرة، الحديث.

• أقول: والروايتان ناظرتان إلى المعنى الأول الذي قدمناه في البيان المتقدم وروى ما في معنى الثاني الطبرسي في المجمع: (عن الباقر عليه السلام.

ج. وفي تفسير البرهان، روي في نهج البيان عن علي بن إبراهيم قال: قال الزيادة هبة الله عز وجل.

د. أخرج الدارقطني وابن مردويه عن صهيب في الآية قال: قال رسول الله ﷺ: الزيادة النظر إلى وجه الله.

• أقول: وروي هذا المعنى بعدة طرق من طرق أهل السنة عن النبي ﷺ وقد تقدم توضيح معناها في تفسير قوله تعالى ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] في الجزء الثامن من الكتاب.

٢١. جزاء السيئات بمثلها:

المقطع [٢١] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٤٣»:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ إلى آخر الآية، جملة ﴿جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها﴾ مبتدأ لخبر محذوف والتقدير: لهم جزاء سيئة بمثلها من العذاب، والجملة خبر للمبتدإ الذي هو قوله: ﴿الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ﴾ والمراد أن الذين كسبوا السيئات لا يجزون إلا مثل ما عملوه من العقوبات السيئة فجزاء فعلة سيئة عقوبة سيئة.

٢. ﴿ما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ﴾ أي ما لهم عاصم يعصمهم من الله أي من عذابه وفيه نفي لشركائهم الذين يظنونهم شفعاء على وجه ينفي كل عاصم مانع سواء كان شريكا شفيعا أو ضدا قويا ممانعا أو أي عاصم غيرهما.

٣. ﴿كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾ القطع جمع قطعة ومظلما حال من الليل، والمراد كان الليل المظلم قسم إلى قطع فأغشيت وجوههم تلك القطع فاسودت بالتمام، والمتبادر منه أن يغشى وجه كل من المشركين بقطعة من تلك القطع لا كما فسره بعضهم أن المراد أن الوجوه أغشيت تلك القطع قطعة بعد قطعة فصارت ظلمات بعضها فوق بعض، فليس في الكلام ما يدل على ذلك.

٤. ﴿أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ يدل على دوام بقائهم في النار للدلالة الصحابة والخلود عليه كما أن نظيره في أصحاب الجنة يدل على نظيره.

٥. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿كَأَنَّما

﴿أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾ قال: أما ترى البيت إذا كان الليل، كان أشد سوادا من خارج، فكذلك وجوههم يزدادون سوادا.

• أقول: ورواه العياشي عن أبي بصير عنه عليه السلام وكأنه عليه السلام يريد تفسير القطع من الليل الواقعة في الآية.

٢٢. يوم الحشر يتبرأ المشركون من الذين عبدوهم:

المقطع [٢٢] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٤٤»:

١. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ﴾ إلى آخر الآية، المراد حشر جميع من سبق ذكره من المؤمنين والمشركين وشركائهم فإنه تعالى يذكر المشركين وشركاءهم في هذه الآية وما يتلوها ثم يشير إلى الجميع بقوله في الآية التالية: ﴿هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ﴾

٢. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم أنتم وليلزم شركاؤكم مكانهم وتفرع على هذا الخطاب أن زيلنا بينهم، وقطعنا الرابطة التي كانت تربطهم بشركائهم وهي رابطة الوهم والحسبان التي يتصلون بسببها بشركائهم فانقطعوا عن شركائهم وانقطع شركاؤهم عنهم فبان أن عبادتهم لم تقع عليهم ولم تتعلق بهم لأنهم إنما عبدوا الشركاء وهم ليسوا بشركاء.

٣. والدليل على هذا الذي ذكرناه قوله تعالى بعده: ﴿وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ﴾:

أ. فالكلام على ظاهره من النفي الجدي الصادق لعبادتهم إياهم، وليسوا يكذبون في كلامهم هذا بدليل استنادهم إلى شهادة الله سبحانه، ولا أنهم يريدون أنا لم نكن ندعوكم إلى عبادتنا فإن الكلام لا يلائم هذا المعنى، ولا أن مرادهم التعريض لهم بأنكم كنتم تعبدون أهواءكم وشياطينكم المغوين لكم في الحقيقة فإن ذلك لا يلائم دعواهم الغفلة، وكذا لا يلائمه قوله بعده: ﴿هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ﴾ الآية، على ما سيجيء من معناه بل مرادهم نفي العبادة حقيقة بنفي حقيقة الشركة، والاستشهاد على ذلك بشهادة الله وعلمه بغفلتهم عن عبادتهم.

ب. والعبادة التي هي اتصال ما بالمملوكية والتذلل من العابد بالمعبود إنما تكون عبادة إذا اتصلت وارتبطت بالمعبود، حتى يتم به معنى اللام في قولنا: العبادة له، ولا يكون ذلك إلا بشعور من المعبود وعلم منه بذلك فإذا لم يتحقق هناك علم لم تتحقق عبادة حقيقة، وإنما هي صورة عبادة.

٤. فقد تبين:

أ. أن المراد بقوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ﴾ إظهاره وإبرازه تعالى يومئذ حقيقة الأمر الذي سترت عليه الأوهام وحجبته الأهواء في الدنيا وهو أن حقيقة المولوية ومالكية زمان التدبير لله سبحانه وليس لغيره من المولوية والربوبية شيء حتى يصح الالتجاء إليه وتصدق عبادته، فإذا كشف الله الغطاء عن وجه هذه الحقيقة يومئذ بأن للمشركين أن شركاءهم لم يكونوا شركاء ولا معبودين لهم في الحقيقة، لغفلتهم عن عبادتهم، وإنها كانوا يأتون لهم بصورة العبادة التي كان الوهم والهوى يصور أنها عبادة وليست بها، وإليه يشير أيضا قوله تعالى: ﴿وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦]

ب. وقد تبين بذلك أيضا أن قوله: ﴿وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ﴾ قول من شركائهم لهم على الجد والحقيقة، ويظهر به فساد قول بعضهم: المراد أنكم لم تعبدونا بأمرنا ودعائنا لا أنكم لم تعبدونا أصلا لأن ذلك كذب لا يجوز أن يقع في الآخرة لكونهم ملجئين فيها إلى ترك القبيح، فإن نفي أصل العبادة بما عرفت من معناه هو حق الصدق وإثبات العبادة وإن لم يكن كذبا إلا أنه لا يخلو عن مجاز في الجملة بالنظر إلى حقيقة الأمر على أن ما ذكره أن المراد نفي العبادة بأمرهم ودعوتهم معنى لا دليل عليه من جهة اللفظ.

ج. على أن الكذب إنما لا يقع في الآخرة إذا كان عملا وكسبا وإما بمعنى نتيجة الملكات الدنيوية فلا مانع من إمكانه بل هو واقع كما يحكيه تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٤] وغيره من الآيات.

د. وكذا قول بعضهم: إن المراد ما كنتم تخصوننا بالعبادة، وإنما كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وشياطينكم المغوية لكم، فإن صدق عبادة الأهواء والشيطان على عملهم من جهة أنه اتباع للهوى والشيطان لا ينفي عنه صدق كونه عبادة للأصنام كما أنه تعالى يصدق في كلامه الجهات الثلاث جميعا قال

تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨] وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال: ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]

هـ. ومن المعلوم أن الشركاء يحتجون لنفي كونهم معبودين لهم لا لإثبات كون الهوى والشيطان معبودين لهم مع الشركاء فإن هذا لا ينفعهم في الحجة البتة، ويستلزم لغوية إثباتهم الغفلة لأنفسهم في قولهم: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ﴾ لأن الأهواء أيضا ما كانت شاعرة بعبادتهم كما أن الأصنام وهي أجسام ميتة كذلك.

و. ولعل القائل اعتمد في قوله على الحصر المفهوم من قوله: ﴿ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ﴾ بتقديم المفعول على فعله، وظاهره أنه قصر قلب مدلوله نفي المعبودية عن أنفسهم وإثباته لغيرهم، ليس نفيا لأصل العبادة فإنهم يثبتونها في قولهم: ﴿عَنْ عِبادَتِكُمْ﴾ فإن إضافة المصدر إلى معموله يفيد الثبوت.

ز. لكن الحق أن هؤلاء الشركاء إنما قالوا لهم: ﴿ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ﴾ تجاه ما قاله المشركون على ما حكاه الله: ﴿رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ [النحل: ٨٦] فنفوا عبادتهم عن الله سبحانه وأثبتوها للشركاء والشركاء لم يكن ينفعهم إلا نفي عبادة المشركين عن أنفسهم، وأما أنها ثابتة لمن؟ فلا غرض لهم يتعلق بذلك وإنما همهم تنزيه أنفسهم عن دعوى الشركة، وقد احتجوا على ذلك بإثبات الغفلة عن ذلك لأنفسهم، ولو كانوا شاعرين بعبادتهم وعبدوهم كان لزمهم أعني الشركاء دعوى الشركة.

٥. ﴿فَكَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ﴾ إلى آخر الآية، ظهر معناه بما مر من التقرير والفاء في قوله: ﴿فَكَفى بِاللهِ﴾ يفيد التعليل كقولنا: اعبد الله فهو ربك، وهو شائع في الكلام.

٦. ﴿هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. البلاء الاختبار، والإشارة بقوله: ﴿هُنالِكَ﴾ إلى الموقف الذي ذكره بقوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ﴾، فذلك الموقف موقف تختبر وتمتحن كل نفس ما أسلفت وقدمت من الأعمال فتنكشف لها حقيقة أعمالها وتشاهدها مشاهدة عيان لا مجرد الذكر أو البيان، وبمشاهدة الحق من كل شيء عيانا ينكشف أن المولى الحق هو الله سبحانه، وتسقط وتنهدم جميع الأوهام، وتضل جميع الدعاوي التي يفتريها الإنسان بأوهامه وأهوائه على الحق.

ب. فهذه الافتراءات والدعاوي جميعا إنما نشأت من حيث الروابط التي نضعها في هذه الدنيا بين الأسباب والمسببات والاستقلال والمولوية التي نعطيها الأسباب ولا إله إلا الله ولا مولى حقا إلا هو سبحانه فإذا انجلت حقيقة الأمر، وانكشف غيم الوهم وانهتك حجاب الدعاوي ظهر أن لا مولى حقا إلا هو سبحانه، وبطل جميع الآلهة التي إنما أثبتها الافتراء من الإنسان، وسقطت وحبطت جميع الأعمال إلا ما عبد به الله سبحانه عبادة حق.

ج. فالفقرات الثلاث من الآية أعني قوله: ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿رُدُّوا إِلَى اللهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ الآية، كل منها تعين الأخريين على إفادة حقيقة معناها، ومحصل مفاد المجموع ظهور حقيقة الولاية الإلهية يومئذ ظهور عيان وأن ليس لغيره تعالى إلا الفقر والمملوكية المحصنة فيبطل عند ذلك كل دعوى باطلة وينهدم بنيان الأوهام.

د. كما يشير إلى ذلك قوله: ﴿هُنالِكَ الْوَلايَةُ للهِّ الْحَقِ﴾ [الكهف: ٤٤]، وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِّ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقوله ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِّ﴾ [الانفطار: ١٩]، إلى غير ذلك.

٧. أحاديث وآثار: أخرج أبو الشيخ عن السدي: في قوله: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ﴾ قال: نسختها قوله: ﴿مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ﴾

• أقول: وهو من أسخف القول بل الآيتان ناظرتان إلى جهتين مختلفتين من المعنى وهما الظاهر والباطن.

٢٣. الرزق والتدبير من الله:

المقطع [٢٣] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ فَذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٥٠»:

١. ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الرزق هو العطاء الجاري، ورزقه تعالى للعالم الإنساني من السماء هو نزول الأمطار والثلوج

ونحوه، ومن الأرض هو بإنباتها نباتها وتربيتها الحيوان ومنهما يرتزق الإنسان، وببركة هذه النعم الإلهية يبقى النوع الإنساني والمراد بملك السمع والأبصار كونه تعالى متصرفا في الحواس الإنسانية التي بها ينتظم له أنواع التمتع من الأرزاق المختلفة التي أذن الله تعالى أن يتمتع بها فإنما هو يشخص ويميز ما يريده مما لا يريده بإعمال السمع والبصر واللمس والذوق والشم فيتحرك نحو ما يريده، ويتوقف أو يفر مما يكرهه بها.

ب. فالحواس هي التي تتم بها فائدة الرزق الإلهي، وإنما خص السمع والبصر من بينها بالذكر لظهور آثارهما في الأعمال الحيوية أكثر من غيرهما، والله سبحانه هو الذي يملكهما ويتصرف فيهما بالإعطاء والمنع والزيادة والنقيصة.

٢. ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ﴾:

أ. الحياة بحسب النظر البادئ في الإنسان هي المبدأ الذي يظهر به العلم والقدرة في الشيء فيصدر أعماله عن العلم والقدرة ما دامت الحياة، وإذا بطلت بطل الصدور كذلك.

ب. ثم اكتشف من طريق النظر العلمي أن ذلك لا يختص بأقسام الحيوان كما كان يعطيه النظر الابتدائي فإن الملاك الذي كان يوجب للحيوان كونه ذا حياة، وهو كونه ذا نفس يصدر عنها أعمال مختلفة لا على وتيرة واحدة طبيعية كحركته إلى جهات مختلفة بحركات مختلفة وسكونه من غير حركة، موجود في النبات، وكذلك الأبحاث الجارية على الطرق الحديثة تعطي ذلك فإن جراثيم الحياة الموجودة في الحيوان التي إليها تنتهي أعماله الحيوية توجد في النبات نظيرها فهو ذو حياة كمثل الحيوان فالنظر العلمي على أي حال يهدي إلى عموم الحياة لجميع أنواع الحيوان والنبات.

ج. ثم الحياة وهي تقابل الموت الذي هو بطلان مبدإ الأعمال الحيوية تعود بحسب التحليل إلى كون الشيء بحيث تترتب عليه آثاره المطلوبة منه كما أن الموت عدم كونه كذلك فحياة الأرض هي كونها نابتة مخضرة وموتها خلافه، وحياة العمل كونه بحيث ينتهي إلى الغرض الذي أتي به لأجله وموته خلافه، وحياة الكلمة كونها بحيث تؤثر في السامع أثرا مطلوبا وموتها خلافه، وحياة الإنسان كونه جاريا على ما تهدي إليه الفطرة الإنسانية ككونه ذا عقل سليم ونفس زاكية، ولذا عد القرآن الشريف الدين حياة للإنسان لأنه يرى أن الدين الحق وهو الإسلام هو الفطرة الإلهية.

د. إذا تبين هذا اتضح أن خروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي يختلف،معناه بحسب اختلاف المراد بالحياة والموت فعلى النظرتين الأوليين هو خروج الحيوان أو الحيوان والنبات بالكينونة من غيرها كالمني والبيضة والبذر فإن الحي كما لا تدوم له هذه الحياة بقاء إلى غير النهاية لا تذهب أيضا بحسب البدء في حياة غير متناهية ولا طريق إلى إثباته، وخروج أجزاء غير ذات حياة من الحيوان أو الحيوان والنبات بالانفصال.

هـ. وعلى النظرة الأخيرة أعني نظرة تعميم الحياة لكل ما يترتب عليه آثارها المطلوبة منها هو أن يخرج من الأمور غير المفيدة في باب أمور مفيدة في ذلك الباب بالكينونة والتولد كخلق الإنسان الحي والحيوان الحي والنبات الحي من التراب الميت وبالعكس، وكخروج الإنسان العاقل الصالح من الإنسان الذي لا عقل له ولا صلاح وبالعكس، وخروج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

و. وظاهر الآية الكريمة بالنظر إلى سياقها ومقام المخاطبة فيها أن يكون المراد بإخراج الحي من الميت وبالعكس فيها هو هذا المعنى الأخير، وذلك أن الآية تقيم الحجة على المشركين من المسلك الذي كانوا يسلكونه في الاحتجاج على اتخاذ الآلهة المختلفة وهو أن العالم المشهود مجموعة من موجودات مختلفة متشتتة علوية وسفلية والسفلية من إنسان وحيوان ونبات وبحر وبر وأمور وراء ذلك كثيرة، وكل منها تحت تدبير مدبر شفيع عند الله نعبده بعبادة صنمه ليقربنا إلى الله زلفى وبالجملة انتهاء التدبيرات على اختلافها إلى مدبرات مختلفة يوجب وجود أرباب من دون الله كثيرة.

ز. والآية ترد عليهم حجتهم ببيان انتهاء التدبيرات المختلفة إليه تعالى وأن ذلك يدل على أن الله سبحانه رب كل شيء وحده، فهي تخاطبهم بأنكم تعترفون بأن ما يخصكم من التدبير كرزقكم وما يعمكم وغيركم منه ينتهي إلى الله سبحانه فهو المدبر لأمركم وأمر غيركم فهو الرب لا رب سواه.

ح. وقد بدأت في التعداد بما يخص الإنسان أعني قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ وختمت بما يعمه وغيره أعني قوله: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ وظاهر السياق أن يكون المراد بقوله: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ هو التدبير الخاص بالإنسان فيكون المراد ملك السمع والأبصار التي لأفراد الإنسان، وكذا إخراج الحي من الإنسان من ميتة وبالعكس، وقد تبين أن الحياة المخصوصة بالإنسان هو كونه ذا نعمة العقل والدين.

ط. فالمراد بإخراج الحي من الميت وبالعكس، والله أعلم، إخراج الإنسان الحي بالسعادة الإنسانية من الإنسان الميت الذي لا سعادة له وبالعكس.

ي. فالله سبحانه يلقن نبيه ﷺ الحجة على توحيده بالربوبية فأمره بقوله: ﴿قُلْ﴾ إن يقول لهم في سياق الاستفهام ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ بالأمطار والإنبات والتكوين ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ﴾ منكم فتتم بهما فائدة رزقكم حيث ترتزقون بتشخيصهما من طيبات الرزق، ولولاهما لم توفقوا لذلك وفنيتم عن آخركم ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي كل أمر مفيد في بابه من غيره ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ فيتولد الإنسان السعيد من الشقي والشقي من السعيد ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ في جميع الخليقة.

٣. ﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ اعترافا بأنه الذي ينتهي إليه جميع هذه التدبيرات في الإنسان وغيره لأن الوثنيين يعتقدون ذلك فأمر النبي ﷺ أن يوبخهم أولا على ترك تقوى الله بعبادة غيره مع ظهور الحجة ثم يستنتج لهم من الحجة وجوب توحيده تعالى فقال: ﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ ثم قال: ﴿فَذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ﴾

٤. ﴿فَذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ الجملة الأولى نتيجة الحجة السابقة، وقد وصف الرب بالحق ليكون توضيحا لمفاد الحجة، وتوطئة وتمهيدا لقوله بعده: ﴿فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ﴾

٥. ﴿فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ﴾:

أ. أخذ بلازم الحجة السابقة لاستنتاج أنهم ضالون في عبادة الأصنام فإنه إذا كانت ربوبيته تعالى حقة فإن الهدى في اتباعه وعبادته فإن الهدى مع الحق لا غير فلا يبقى عند غيره الذي هو الباطل إلا الضلال.

ب. فتقدير الكلام: فما ذا بعد الحق الذي معه الهدى إلا الباطل الذي معه الضلال فحذف من كل من الطرفين شيء وأقيم الباقي مقامه إيجازا، وقيل: فما ذا بعد الحق إلا الضلال، ولذا قال بعضهم: إن في الآية احتباكا، وهو من المحسنات البديعية، وهو أن يكون هناك متقابلان فيحذف من كل منهما شيء يدل عليه الآخر فإن تقدير الكلام: فما ذا بعد الحق إلا الباطل؟ وما ذا بعد الهدى إلا الضلال؟ فحذف الباطل من الأول والهدى من الثاني وبقي قوله: فما ذا بعد الحق إلا الضلال؟ والوجه هو الذي قدمناه.

٦. ثم تمم الآية بقوله: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي إلى متى تصرفون عن الحق الذي معه الهدى إلى

الضلال الذي مع الباطل.

٧. ﴿كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. ظاهر السياق أن الكلمة التي تكلم الله سبحانه بها على الفاسقين هي أنهم لا يؤمنون أي أنه سبحانه قضى عليهم قضاء حتما وهو أن الفاسقين وهم على فسقهم، لا يؤمنون ولا تنالهم الهداية الإلهية إلى الإيمان، وقد قال تعالى: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]

ب. وعلى هذا فالإشارة بقوله: ﴿كَذلِكَ﴾ إلى ما تحصل من الآية السابقة: أن المشركين صرفوا عن الحق وفسقوا عنه فوقعوا في الضلال إذ ليس بعد الحق إلا الضلال.

ج. فمعنى قوله: ﴿كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ الآية، أن الكلمة الإلهية والقضاء الحتمي الذي قضي به في الفاسقين، وهو أنهم لا يؤمنون، هكذا حقت وثبتت في الخارج وأخذت مصداقها وهو أنهم خرجوا عن الحق فوقعوا في الضلال أي أنا لم نقض عدم هدى الفاسقين وعدم إيمانهم ظلما ولا جزافا وإنما قضينا ذلك لأنهم صرفوا عن الحق وفسقوا فوقعوا في الضلال ولا واسطة بينهما فافهم ذلك.

د. وفي الآية دلالة على أن الأمور الضرورية والأحكام والقوانين البينة التي تجري في النظام المشهود كقولنا: لا واسطة بين الحق والباطل ولا بين الهدى والضلال لها نوع استناد إلى القضاء الإلهي، وليست ثابتة في ملكه تعالى من تلقاء نفسها.

هـ. وربما ذكر بعض المفسرين: أن المراد بالكلمة في الآية كلمة العذاب وقوله: ﴿أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ في موضع التعليل بتقدير لامه، والتقدير كثبوت هذه الحجة عليهم حقت كلمة ربك على الذين فسقوا وهي وعيدهم بالعذاب وإنما حقت عليهم العذاب لأنهم لا يؤمنون، ولا يخلو عن سقم فإن وجه الشبه غير ظاهر ولا متفق فيهما فالحجة ثابتة عليهم بذاتها وأما العذاب فليس ثبوته كذلك بل لأمر آخر وهو أنهم لا يؤمنون.

و. والحجة، كما سمعت في البيان المتقدم، حجة ساذجة يعترف بحقيتها الوثنية، وقد صرفوها عن وجهها وأقاموا على ما يدعونها من ربوبية أربابهم واستحقاقها للعبادة من دون الله حيث قالوا: إن تدبير كل شأن من شئون العالم العامة إلى واحد من هذه الأرباب فهو رب ذلك الشأن، وإنما نعبد أصنامها وتماثيلها لنرضيها بذلك فتشفع لنا عند الله بما لها من القرب عنده، فأخذت الآية اعترافهم بأن هذه التدابير

لله سبحانه، وكيف لا تكون له وهو خالق الكل ومبقيها؟، فله سبحانه وحده حقيقة الربوبية وهو المستحق للعبادة لا غيره.

٢٤. الله يبدأ الخلق ثم يعيده والشركاء لا يفعلون ذلك:

المقطع [٢٤] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٤ـ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٥٥»:

١. ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. تلقين للاحتجاج من جهة المبدإ والمعاد فإن الذي يبدأ كل شيء ثم يعيده يستحق أن يعبده الإنسان اتقاء من يوم لقائه ليأمن من أليم عذابه وينال عظيم ثوابه يوم المعاد.

ب. ولما كان المشركون، وهم المخاطبون بالحجة، غير قائلين بالمعاد أمر تعالى نبيه ﷺ أن يتصدى جواب سؤاله بنفسه وقال: ﴿قُلِ اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ وإلى متى تصرفون عن الحق.

ج. وليس اعتماد الآية على مسألة الإبداء والإعادة في احتجاجها اعتمادا على مقدمة غير بينة ولا مبينة فقد احتج عليها في كلامه تعالى من طرق مختلفة كالاحتجاج من طريق لزوم الغاية في فعله، ومن طريق وجوب الجزاء على الأعمال في العدل وغير ذلك وقد نفى سبحانه الريب عن البعث والقيامة فيما يبلغ عشر مواضع من كلامه.

د. والحجة، كما تقدم الإيماء إليه، حجة عامة المؤمنين الذين يعبدونه تعالى خوفا من العقاب أو رغبة في الثواب الذي أعد لهم يوم القيامة.

٢. ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. يهدي للحق وإلى الحق بمعنى واحد فالهداية تتعدى بكلتا الحرفين، وقد ورد تعديتها باللام في مواضع كثيرة من كلامه تعالى كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة: ٢٦]، وقوله: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] إلى غير ذلك فما ذكره بعضهم من كون اللام في قوله: ﴿يَهْدِي لِلْحَقِ﴾ للتعليل ليس بشيء.

ب. لقن سبحانه نبيه ﷺ هذه الحجة وهي ثالثة الحجج، وهي حجة عقلية يعتمد عليها الخاصة من المؤمنين، وتوضيحها أن من المرتكز في الفطرة الإنسانية وبه يحكم عقله أن من الواجب على الإنسان أن يتبع الحق حتى إنه إن انحرف في شيء من أعماله عن الحق واتبع غيره لغلط أو شبهة أو هوى فإنما اتبعه لحسبانه إياه حقا والتباس الأمر عليه، ولذا يعتذر عنه بما يحسبه حقا فالحق واجب الاتباع على الإطلاق ومن غير قيد أو شرط، والهادي إلى الحق واجب اتباعه لما عنده من الحق، ومن الواجب ترجيحه على من لا يهدي إليه أو يهدي إلى غيره لأن اتباع الهادي إلى الحق اتباع لنفس الحق الذي معه وجوب اتباعه ضروري.

ج. وقد اعتمد في الحجة على هذه المقدمة الضرورية فافتتح الكلام فيها بسؤالهم عن شركائهم هل فيهم من يهدي إلى الحق؟ ومن البين أن لا جواب للمشركين في ذلك مثبتا إذ شركاؤهم سواء أكانوا جمادا غير ذي حياة كالأوثان والأصنام أم كانوا من الإحياء كالملائكة وأرباب الأنواع والجن والطواغيت من فرعون ونمرود وغيرهما لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

د. وإذ لم يكن لهم في ذلك جواب مثبت فإنهم لا يجيبون، ولذلك أمر النبي ﷺ أن يخلفهم في الجواب فيجيب في ذلك، أعني الهداية إلى الحق، بإثباتها لله سبحانه فقيل: ﴿قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِ﴾ فإن الله سبحانه هو الذي يهدي كل شيء إلى مقاصده التكوينية والأمور التي يحتاج إليها في بقائه كما في قوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طه: ٥٠] وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾ [الأعلى: ٣] وهو الذي يهدي الإنسان إلى سعادة الحياة ويدعوه إلى الجنة والمغفرة بإذنه بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع، وأمرهم ببث الدعوة الحقة الدينية بين الناس.

هـ. وقد مر في تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠] إن الحق من الاعتقاد والقول والفعل إنما يكون حقا بمطابقة السنة الجارية في الكون للذي هو فعله فالحق بالحقيقة إنما يكون حقا بمشيته وإرادته.

و. وإذ تحقق أنه ليس من شركائهم من يهدي إلى الحق، وأن الله سبحانه يهدي إلى الحق سألهم بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى﴾؟ أن يقضوا في الترجيح بين اتباعه تعالى واتباع شركائهم وهو تعالى يهدي إلى الحق وهم لا يهدون ولا يهتدون إلا بغيرهم، ومن المعلوم أن

الرجحان لمن يهدي على من لا يهدي أي لاتباعه تعالى على اتباعهم، والمشركون يحكمون بالعكس، ولذلك لامهم ووبخهم بقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟

ز. والتعبير في الترجيح في قوله: ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾ بأفعل التفضيل الدال على مطلق الرجحان دون التعين والانحصار مع أن اتباعه تعالى حق لا غير واتباعهم لا نصيب له من الحق إنما هو بالنظر إلى مقام الترجيح وليسهل بذلك قبولهم للقول من غير إثارة لعصبيتهم وتهييج لجهالتهم.

ح. وقد أبدع تعالى في قوله ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى﴾ والقراءة الدائرة: ﴿لا يَهِدِّي﴾ بكسر الهاء وتشديد الدال وأصله يهتدي، وظاهر قوله: ﴿لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى﴾ وقد حذف متعلقات الفعل فيه أنه إنما يهتدي بغيره لا بنفسه.

ط. والكلام قد قوبل فيه قوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِ﴾ بقوله: ﴿أَمَّنْ لا يَهِدِّي﴾ مع أن الهداية إلى الحق يقابلها عدم الهداية إلى الحق، وعدم الاهتداء إلى الحق يقابله الاهتداء إلى الحق فلازم هذه المقابلة الملازمة بين الاهتداء بالغير وعدم الهداية إلى الحق، وكذا الملازمة بين الهداية إلى الحق والاهتداء بالذات فالذي يهدي إلى الحق يجب أن يكون مهتديا بنفسه لا بهداية غيره والذي يهتدي بغيره ليس يهدي إلى الحق أبدا.

ي. هذا ما تدل عليه الآية بحسب ظاهرها الذي لا ريب فيه وهو أعدل شاهد على أن الكلام موضوع فيها على الحقيقة دون التجوزات المبنية على المساهلة التي نبني عليها وتداولها فيما بيننا معاشر أهل العرف فننسب الهداية إلى الحق إلى كل من تكلم بكلمة حق ودعا إليها وإن لم يعتقد بها أو اعتقد ولم يعمل بها أو عمل ولم يتحقق بمعناها، وسواء اهتدى إليها بنفسه أو هداه إليها غيره، بل الهداية إلى الحق أعني الإيصال إلى صريح الحق ومتن الواقع ليس إلا لله سبحانه أو لمن اهتدى بنفسه أي هداه الله سبحانه من غير واسطة تتخلل بينه وبينه فاهتدى بالله وهدى غيره بأمر الله سبحانه، وقد تقدمت نبذة من الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ الآية [البقرة: ١٢٤]

٣. وقد تبين بما قدمناه في معنى الآية أمور:

أ. أحدها: أن المراد بالهداية إلى الحق ما هو بمعنى الإيصال إلى المطلوب دون ما هو بمعنى إراءة الطريق المنتهي إلى الحق فإن من الضروري أن وصف طريق الحق يتأتى من كل أحد سواء اهتدى إلى الحق بنفسه أو بغيره أو لم يهتد.

ب. وثانيها: أن المراد بقوله: ﴿أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى﴾ من لا يهتدي بنفسه، وهذا أعم من أن يكون ممن يهتدي بغيره أو يكون ممن لا يهتدي أصلا، لا بنفسه ولا بغيره كالأوثان والأصنام التي هي جماد لا يقبل هداية من غيره، وذلك أن قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدى﴾ استثناء من قوله: ﴿أَمَّنْ لا يَهِدِّي﴾ الأعم من أن لا يهتدي أصلا أو يهتدي بغيره والمأخوذ في قوله: ﴿أَنْ يُهْدى﴾ فعل دخلت عليه أن المصدرية المأولة إلى المصدر، والجملة الفعلية المأولة إلى المصدر كذلك لا يدل على التحقق بخلاف المصدر المضاف إلى معموله ففرق بين قوله: ﴿أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] فلا يدل على الوقوع وبين نحو قوله: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩] فيدل على الوقوع، ويقال: ضربك زيدا عجيب إذا ضربته، وأن تضرب زيدا عجيب إذا هممت أن تضربه، فقوله: ﴿أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى﴾ معناه من لا يكون هداه من نفسه إلا أن تأتيه الهداية من ناحية الغير، ومن المعلوم أنها إنما تأتيه من الغير إذا كان في طبعه أن يقبل ذلك، وأما إذا لم يقبل فإنما يبقى له من الوصف أنه لا يهتدي فافهم ذلك.

٤. وللمفسرين في معنى هذا الاستثناء أقوال عجيبة:

أ. منها: أنه استثناء مفرغ من أعم الأحوال لأن من نفى عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء لله تعالى يشمل المسيح عيسى بن مريم وعزيرا والملائكة عليه السلام، وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه كما قال تعالى في الأنبياء من سورتهم: ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ [الأنبياء: ٧٣]

• وفيه: أن محصله أن المعنى لا يهدي إلا أن يهديه الله تعالى فيهدي غيره بعد اهتدائه بهدايته تعالى، وقد اختل عليه معنى الآية من أصله فإن من لا يهتدي إلى الحق بنفسه لا يتأتى له أن يهدي إلى الحق فإنه إنما يماس الحق من وراء حجاب فكيف يوصل إليه؟ على أن ما ذكره لا ينطبق على الأصنام التي هي مورد الاحتجاج في الآية فإنها لا تقبل الهداية من أصلها، وقد ذكر المسيح وعزيرا وهما ممن قدسته النصارى واليهود وليس وجه الكلام في الآية إليهم وإن شملتهما وغيرهما الآية بحسب عموم الملاك.

ب. ومنها: أن الاستثناء منقطع والمراد بمن لا يهدي الأصنام التي لا تقبل الهداية أصلا فحسب، والمعنى: أم من لا يهتدي أصلا كالأصنام إلا أن يهديه الله فيهتدي حينئذ،

• وفيه: أنه لا يفي بتوجيه المقابلة التي بين قوله: ﴿مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِ﴾ وقوله: ﴿أَمَّنْ لا يَهِدِّي﴾ فإن الهداية إلى الحق والاهتداء إليه لا يتقابلان إلا أن يئول المعنى إلى مثل قولنا: أفمن يهدي إلى الحق أحق

أن يتبع أم من لا يهتدي أصلا إلا أن يهديه الله فيهتدي فيهدي غيره، ويرد عليه أنه لا وجه حينئذ لتخصيصه بمثل الأصنام ممن لا يهتدي أصلا حتى يصير الاستثناء منقطعا بل يعم ما لا يهتدي أصلا لا بنفسه ولا بغيره، ومن لا يهتدي بنفسه ويهتدي بغيره كالملائكة مثلا، ويرد عليه ما ورد على الوجه السابق.

ج. ومنها: أن المراد بمن لا يهدي الأصنام التي لا تقبل الهداية و﴿إِلَّا﴾ بمعنى حتى والمعنى لا يهتدي ولا يقبل الهداية حتى يهدى.

• وفيه: أن الترديد يرجع حينئذ إلى مثل قولنا: أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهتدي أصلا حتى يهدى إلى الحق، ويعود الاستثناء مستدركا لا يتعلق به غرض في الكلام، مضافا إلى أن مجيء إلا بمعنى حتى غير ثابت وعلى تقدير ثبوته قليل في الكلام لا يحمل على مثله أفصح الكلام.

د. ومنها: أن المراد بمن لا يهدي إلا أن يهدى الملائكة والجن ممن يعبدون من دون الله وهم يقبلون الهداية من الله وإن لم يهتدوا من عند أنفسهم أو المراد الرؤساء المضلون الذين يدعون إلى الكفر فإنهم وإن لم يهتدوا لكنهم يقبلون الهداية ولو هدوا إلى الحق لهدوا إليه.

• وفيه: أن الآيات واقعة في سياق الاحتجاج على عبدة الأصنام، والقول بأن المراد بمن لا يهدي إلا أن يهدى الملائكة والجن أو الرؤساء المضلون يخرجها عن صلاحية الانطباق على المورد.

د. وثالثها: أن الهداية إلى الحق بمعنى الإيصال إليه إنما هي شأن من يهتدي بنفسه أي لا واسطة بينه وبين الله سبحانه في أمر الهداية إما من بادئ أمره أو بعناية خاصة من الله سبحانه كالأنبياء والأوصياء من الأئمة، وأما الهداية بمعنى إراءة الطريق ووصف السبيل فلا يختص به تعالى ولا بالأئمة من الأنبياء والأوصياء كما يحكيه الله تعالى عن مؤمن آل فرعون إذ يقول: ﴿وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ [غافر: ٣٨] وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٣]

٥. وأما قوله تعالى خطابا للنبي ﷺ وهو إمام: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [القصص: ٥٦] وغيره من الآيات فهي مسوقة لبيان الأصالة والتبع كما في آيات التوفي وعلم الغيب ونحو ذلك مما سيقت لبيان أن الله سبحانه هو المالك لها بالذات والحقيقة، وغيره يملكها بتمليك الله ملكا تبعيا أو عرضيا، ويكون سببا لها بإذن الله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ [الأنبياء: ٧٣] وفي الأحاديث إشارة إلى ذلك وأن الهداية إلى الحق شأن النبي وأهل بيته ﷺ وقد مر بعض الكلام في

الهداية فيما تقدم.

٦. وقوله في ذيل الآية: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهام للتعجيب استغرابا لحكمهم باتباع شركائهم مع حكم العقل الصريح بعدم جواز اتباع من لا يهتدي ولا يهدي إلى الحق.

٧. ﴿وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾:

أ. أغنى يغني يتعدى بمن وعن كلتيهما وقد جاء في الكلام الإلهي بكل من الوجهين فعدي بمن كما في الآية، وبعن كما في قوله: ﴿ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٩]

ب. وإنما نسب اتباع الظن إلى أكثرهم لأن الأقل منهم وهم أئمة الضلالة على يقين من الحق، ولم يؤثروا عليه الباطل ويدعوا إليه إلا بغيا كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وأما الأكثرون فإنما اتبعوا آباءهم تقليدا لهم لحسن ظنهم بهم.

٨. ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ والمعنى أن الله عليم بما يأتونه من الأعمال يعلم أنها اتباع للظن.

٢٥. القرآن ليس مفترى بل مصدق ومفصل لما قبله:

المقطع [٢٥] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٦٣»:

١. ﴿وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللهِ﴾ إلى آخر الآية، قد تقدمت الإشارة إلى أن نفي صفة أو معنى بنفي الكون يفيد نفي الشأن والاستعداد، وهو أبلغ من نفيه نفسه ففرق بين قولنا ما كان زيد ليقوم، وقولنا: لم يقم أو ما قام زيد إذ الأول يدل على أن القيام لم يكن من شأن زيد ولا استعد له استعدادا، والثاني ينفي القيام عنه فحسب، وفي القرآن منه شيء كثير كقوله: ﴿فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤] وقوله: ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٣]: (وقوله ﴿وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، [العنكبوت: ٤٠]، فقوله: ﴿وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللهِ﴾ نفي لشأنية الافتراء عن القرآن كما قيل وهو أبلغ من نفي فعليته، والمعنى ليس من شأن هذا القرآن ولا في صلاحيته أن يكون افتراء من دون الله يفتريه على الله سبحانه.

٢. ﴿وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي تصديقا لما هو حاضر منزل من الكتاب وهو التوراة والإنجيل كما حكى عن المسيح قوله: ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ﴾ [الصف: ٦]، وإنما وصفهما بما بين يديه مع تقدمهما لأن هناك كتابا غير الكتابين ككتاب نوح وكتاب إبراهيم عليه السلام فإذا لوحظ تقدم جميعها عليه كان الأقرب منها زمانا إليه وهو التوراة والإنجيل موصوفا بأنه بين يديه، وربما قيل: إن المراد بما بين يديه هو ما يستقبل نزوله من الأمور كالبعث والنشور والحساب والجزاء، وليس بشيء.

٣. ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ﴾:

أ. عطف على ﴿تَصْدِيقَ﴾ والمراد بالكتاب بدلالة من السياق جنس الكتاب السماوي النازل من عند الله سبحانه على أنبيائه والتفصيل إيجاد الفصل بين أجزائها المندمجة بعضها في بعض المنطوية جانب منها في آخر بالإيضاح والشرح.

ب. وفيه دلالة على أن الدين الإلهي المنزل على أنبيائه عليه السلام واحد لا اختلاف فيه إلا بالإجمال والتفصيل، والقرآن يفصل ما أجمله غيره كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وإن القرآن الكريم مفصل لما أجمله الكتب السماوية السابقة مهيمن عليها جميعا كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] وقوله: ﴿لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي لا ريب فيه هو من رب العالمين، والجملة الثانية كالتعليل للأولى.

٢٦. التحدي بأن يأتوا بسورة مثله وعاقبة المكذبين:

المقطع [٢٦] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٨-٣٩)﴾ [يونس: ٣٨-٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٦٤»:

١. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. أم منقطعة والمعنى بل يقولون افتراه، والضمير للقرآن، واتصاف السورة بكونها مثل القرآن شاهد على أن القرآن يصدق على الكثير منه والقليل.

ب. والمعنى قل للذين يقولون افتراه: إن كنتم صادقين في دعواكم فأتوا بسورة مثل هذا القرآن المفترى وادعوا كل من استطعتم من دون الله مستمدين مستظهرين فإنه لو كان كلاما مفترى كان كلاما بشريا وجاز أن يؤتى بمثله وفي ذلك تحد ظاهر بسورة واحدة من سور القرآن طويلة كانت أو قصيرة.

٢. ومن هنا يظهر:

أ. أولا: أن التحدي ليس بسورة معينة فإنهم لم يرموا بالافتراء بعض القرآن دون بعض بل جميعه، وهو يكلفهم أن يأتوا بسورة مثل ما يدعون أنه افتراه، وإنما ادعوه لجميع القرآن دون بعضه، ولا يصغي إلى قول من يقول: إن التنكير في ﴿بِسُورَةٍ﴾ للتعظيم أو للتنويع والمراد سورة من السور يذكر فيها قصص الأنبياء وأخبار وعيد الدنيا والآخرة لأن الافتراء إنما يتهم به الإخبار دون الإنشاء، أو يقول: المراد سورة طويلة مثل هذه السورة سورة يونس، في اشتمالها على أصول الدين والوعد والوعيد، وذلك أن القرآن بجميع آياته منسوب إلى الله سبحانه، ولا يختلف في ذلك ما يتضمن الإخبار وما يتضمن الإنشاء، وما كانت سورة طويلة أو قصيرة حتى الآية الواحدة، والرمي بالافتراء يصح أن يتعلق بالجميع لأنه تكذيب للنسبة المتعلقة بالجميع.

ب. وثانيا: أن الآية لا تتحدى ببلاغة القرآن وفصاحته فحسب بل السياق في هذه الآية وفي سائر الآيات التي وردت مورد التحدي:

• يشهد على أن التحدي إنما هو بما عليه القرآن من صفة الكمال ونعت الفضيلة من اشتماله على مخ المعارف الإلهية، وجوامع الشرائع من الأحكام العبادية والقوانين المدنية السياسية والاقتصادية والقضائية، والأخلاق الكريمة والآداب الحسنة، وقصص الأنبياء والأمم الماضية، والملاحم والأخبار الغيبية، ووصف الملائكة والجن والسماء والأرض والحكمة والموعظة والوعد والوعيد، وأخبار البدء والعود، وقوة الحجة وجذالة البيان والنور والهداية من غير أن يختلف جزء منه عن جزء، أضف إلى ذلك وقوعه في بلاغته وفصاحته موقعا يقصر عن البلوغ إليه أيدي البشر.

• ولقد قصر الباحثون من علماء الصدر الأول ومن يتلونهم إذ قصروا إعجازه على بلاغته وفصاحته وكتبوا في ذلك كتبا وألفوا رسائل فصرفهم ذلك عن التدبر في حقائقه والتعمق في معارفه وأنهاهم إلى أن عدوا المعاني أمورا مطروحة في الطريق يستوي فيه البدوي والحضري والعامي والخاصي

والجاهل والعالم، وأن الفضل لنظم اللفظ على نظم المعنى ولا قيمة لما وراء ذلك.

• وقد وصفه الله تعالى بكل وصف جميل دخيل في التحدي كوصفه بأنه نور ورحمة وهدى وحكمة وموعظة وبرهان وتبيان لكل شيء وتفصيل الكتاب وشفاء للمؤمنين وقول فصل وما هو بالهزل، وأنه مواقع للنجوم، وأنه لا اختلاف فيه ولم يصرح ببلاغته بعينها.

• وأطلق القول بأنهم لا يأتون بمثله ولو دعوا من استطاعوا من دون الله، ولو اجتمع على ذلك الجن والإنس وكان بعضهم لبعض ظهيرا ولم يقيد الكلام بالبلاغة والفصاحة.

٣. وقد فصلنا القول في إعجاز القرآن في تفسير قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] في الجزء الأول من الكتاب.

٢٧. التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله:

المقطع [٢٧] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٦٦»:

١. ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الآية تبين وجه الحقيقة في عدم إيمانهم به وقولهم إنه افتراء وهو أنهم كذبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ففيه معارف حقيقية من قبيل العلوم الواقعية لا يسعها علمهم، ولم يأتهم تأويله بعد أي تأويل ذاك الذي كذبوا به حتى يضطرهم إلى تصديقه.

ب. هذا ما يقتضيه السياق من المعنى فقوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يشير إلى يوم القيامة كما يؤيده قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]

٢. وهذا يؤيد:

أ. ما قدمناه في تفسير قوله: ﴿ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ [آل عمران: ٧] في الجزء الثالث من الكتاب أن المراد بالتأويل في عرف القرآن هو الحقيقة التي يعتمد عليها معنى من المعاني من حكم أو معرفة أو قصة أو غير ذلك من الحقائق الواقعية من غير أن يكون من قبيل المعنى، وأن لجميع

القرآن وما يتضمنه من معرفة أو حكم أو خبر أو غير ذلك تأويلا.

ب. ويؤيد ذلك أيضا قوله بعد: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فإن التشبيه يعطي أن المراد أن الذين من قبلهم من المشركين أيضا كذبوا بما دعاهم إليه أنبياؤهم لكونهم لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، فلما جاء به سائر الأنبياء من أجزاء الدعوة الدينية من معارف وأحكام تأويل كما أن لمعارف القرآن وأحكامه تأويلا من غير أن يكون من قبيل المفاهيم ومعاني الألفاظ كما توهموه، فمحصل المعنى أن هؤلاء المشركين الرامين للقرآن بأنه افتراء مثل المشركين والكفار من الأمم السابقة استقبلتهم من الدعوة الدينية بمعارفها وأحكامها أمور لم يحيطوا بها علما حتى يوقنوا بها ويصدقوا، فحملهم الجهل على التكذيب بها ولما يأتهم اليوم الذي يظهر لهم فيه تأويلها وحقيقة أمرها ظهورا يضطرهم على الإيقان والتصديق بها وهو يوم القيامة الذي يكشف لهم فيه الغطاء عن وجه الحقائق بواقعيتها فهؤلاء كذبوا وظلموا كما كذب الذين من قبلهم وظلموا فانظر كيف كان عاقبة أولئك الظالمين حتى تحدس بما سيصيب هؤلاء، هذا ما يعطيه دقيق البحث في معنى الآية، وللمفسرين فيها أقوال شتى مختلفة مبنية على ما ذهبوا إليه من معنى التأويل لا جدوى في التعرض لها وقد استقصينا أقوالهم سابقا.

٢٨. من يؤمن ومن لا يؤمن والبراءة من أعمالهم:

المقطع [٢٨] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤٠ـ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٦٧»:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾:

أ. قسمهم قسمين من يؤمن بالقرآن ومن لا يؤمن به ثم كنى عمن لا يؤمن به أنهم مفسدون فتحصل من ذلك أن الذين يكذبون بما في القرآن إنما كذبوا به لأنهم مفسدون، فالآية لبيان حالهم الذي هم عليه من إيمان البعض وكفر البعض وأن الكفر ناش من رذيلة الإفساد.

ب. وأما ما ذكره بعضهم في تفسير الآية: أن المراد أن قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قبلهم الذين كذبوا رسلهم إلا قليلا منهم فكان عاقبتهم عذاب الاستئصال بل سيكون قومك قسمين قسم سيؤمن بهذا القرآن وقسم لا يؤمن به أبدا فهو معنى خارج عن مدلول الآية البتة.

٢. ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ إلى آخر الآية، تلقين للتبري على تقدير تكذيبهم له، وهو من مراتب الانتصار للحق ممن انتهض لإحيائه فالطريق هو حمل الناس عليه إن حملوا وإلا فالتبري منهم لئلا يحملوه على باطلهم.

٣. ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تفسير لقوله: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾

٢٩. لا يمكن إسماع الصم ولا هداية العمي إذا كانوا لا يعقلون:

المقطع [٢٩] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢-٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٦٨»:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، وقوله: ﴿وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾ قرينة على أن المراد بنفي السمع نفي ما يقارنه من تعقل ما يدل عليه الكلام المسموع وهو المسمى بسمع القلب، والمعنى: ومنهم الذين يستمعون إليك وهم صم لا سمع لقلوبهم، ولست أنت قادرا على إسماعهم ولا سمع لهم.

٢. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ إلى آخر الآية، الكلام فيها نظير الكلام في سابقتها.

٣٠. الله لا يظلم الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون:

المقطع [٣٠] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٦٨»:

١. ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ مسوق للإشارة إلى أن ما ابتلي به هؤلاء المحرومون من السمع والبصر من جهة الصمم والعمى من آثار ظلمهم أنفسهم من غير أن يكون الله تعالى ظلمهم بسلب السمع والبصر عنهم فإنهم إنما أوتوا ما أوتوا من قبل أنفسهم.

٣١. الحشر ومعرفة الحقيقة والخسارة:

المقطع [٣١] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٦٩»:

١. ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾:

أ. ظاهر الآية أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ ظرفا متعلقا بقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ الآية، وقوله: ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً﴾ الآية، حالا من ضمير الجمع في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ وقوله: ﴿يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ حالا ثانيا مبينا للحال الأول.

ب. والمعنى قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله في يوم يحشرهم إليه حال كونهم يستقلون هذه الحياة الدنيا فيعدونها كمكث ساعة من النهار وهم يتعارفون بينهم من غير أن ينكر بعضهم بعضا أو ينساه.

ج. وقد ذكر بعضهم أن قوله: ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا﴾ صفة ليوم أو صفة للمصدر المحذوف المدلول عليه بقوله: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، وذكر بعض آخر أن قوله: ﴿يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ صفة لساعة، وهما من الاحتمالات البعيدة التي لا يساعد عليها اللفظ.

٢. وكيف كان ففي الآية رجوع إلى حديث اللقاء المذكور في أول السورة وانعطاف على ما ذكره آنفا أن من المتوقع أن يأتيهم تأويل الدين، فكأنها تقول: إنهم وإن لم يأتهم تأويل القرآن بعد لا ينبغي لهم أن يغتروا بالجمود على مظاهر هذه الحياة الدنيا ويستكثروا الأمد ويستبطئوا الأجل فإنهم سوف يحشرون إلى الله فيشاهدون أن ليست الحياة الدنيا إلا متاعا قليلا، ولا اللبث فيها إلا لبثا يسيرا كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم، فيومئذ يظهر لهم خسرانهم في تكذيبهم بلقاء الله ظهور عيان وذلك بإتيان تأويل الدين وانكشاف حقيقة الأمر وظهور نور التوحيد على ما كان، ووضوح أن الملك يومئذ لله الواحد القهار جل شأنه.

٣٢. الوفاة والشهادة والمرجع:

المقطع [٣٢] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٧٠»:

١. الآيات تنبئ عن سنة إلهية جارية، وهي أن الله سبحانه قضى قضاء حق لا يرد ولا يبدل أن يرسل إلى كل أمة رسولا يبلغهم رسالته ثم يحكم بينه وبينهم حكما فصلا بإنزال العذاب عليهم وإنجاء المؤمنين وإهلاك المكذبين، ثم تأمر النبي ﷺ أن يخبرهم أن هذه الأمة يجري فيهم ما جرى في الأمم الماضية

من السنة الإلهية من غير أن يستثنوا من كليتها غير أنه ﷺ لم يذكر لهم فيها لقنه الله من جواب سؤالهم عن وقت العذاب إلا أن القضاء حتم وللأمة عمرا وأجلا كالفرد ينتهي إليه أمد حياتها، وأما وقت النزول فقد أبهم إبهاما.

٢. وقد قدمنا في قوله تعالى: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] أن الآية لا تخلو عن إشعار بأن الأمة ستنتزع منهم نعمة الاستغفار بعد زمن النبي ﷺ فينزل عليهم العذاب، وقد تقدم أن الشواهد قائمة على كون الآية مدنية فهي بعد هذه الآيات المكية من قبيل الإيضاح في الجملة بعد الإبهام ومن ملاحم القرآن، وقد حمل بعض المفسرين ما وقع من حديث العذاب في هذه الآيات على عذاب الآخرة، وسياق الآيات يأبى ذلك.

٣. ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ﴾:

أ. إما نرينك أصله: إن نرك، زيد عليه ما والنون الثقيلة للتأكيد، والترديد بين الإرادة والتوفي للتسوية واستيعاب التقادير، والمعنى إلينا مرجعهم على أي تقدير، ولفظة ثم للتراخي بحسب ترتيب الكلام دون الزمان والآية مسوقة لتطييب نفس النبي ﷺ ولتكون كالتوطئة لحديث قضاء العذاب الذي ستفصله الآيات التالية لهذه الآية.

ب. والمعنى طب نفسا فإنا موقعون بهم ما نعدهم سواء أريناك بعض ذاك أو توفيناك قبل أن نريك ذاك فإن أمرهم إلينا ونحن شاهدون لأفعالهم المستوجبة للعذاب لا تغيب عنا ولا ننساها.

ج. والالتفات من قوله: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ﴾ للدلالة على علة الحكم فإن الله سبحانه شهيد على كل فعل بمقتضى ألوهيته.

٣٣. لكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط:

المقطع [٣٣] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٧١»:

١. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ قضاء إلهي منحل إلى قضاءين:

أ. أحدهما: أن لكل أمة من الأمم رسولا يحمل رسالة الله إليهم ويبلغها إياهم.

ب. وثانيهما: أنه إذا جاءهم وبلغهم رسالته فاختلفوا من مصدق له ومكذب فإن الله يقضي ويحكم بينهم بالقسط والعدل من غير أن يظلمهم،هذا ما يعطيه سياق الكلام من المعنى.

٢. ومنه يظهر أن قوله: ﴿فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ﴾ فيه إيجاز بالحذف والإضمار والتقدير: فإذا جاء رسولهم إليهم وبلغ الرسالة فاختلف قومه بالتكذيب والتصديق، ويدل على ذلك قوله: ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ فإن القضاء إنما يكون فيما اختلف فيه، ولذا كان السؤال عن القسط وعدم الظلم في القضاء في مورد العذاب والضرار أسبق إلى الذهن.

٣. وقد تقدم الفرق بين الرسول والنبي في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب، وهذا القضاء المذكور في الآية من خواص الرسالة دون النبوة.

٣٤. الكفار يستعجلون الوعد والنبي لا يملك ضرا ولا نفعاً:

المقطع [٣٤] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٨-٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٧٢»:

١. ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ سؤال منهم عن وقت هذا القضاء الموعود، وهو القضاء بينهم في الدنيا، والسائلون هم بعض المشركين من معاصري النبي ﷺ، والدليل عليه أمره أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الآية، فقول بعضهم: إن السؤال عن عذاب يوم القيامة أو إن السائلين بعض المشركين من الأمم السابقة لا يلتفت إليه.

٢. ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ إلى آخر الآية:

أ. لما كان قولهم: ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ في معنى قولنا: أي وقت يفي ربك بما وعدك أو يأتي بما أوعدنا به أنه يقضي بيننا وبينك فيهلكنا وينجيك والمؤمنين بك فيصفو لكم الجو ويكون لكم الأرض وتخلصون من شرنا؟ فهلا عجل لكم ذلك وذلك، أن كلامهم مسوق سوق الاستعجال تعجيزا واستهزاء كما تدل على استعجالهم الآيات التالية وهذا نظير قولهم: ﴿لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٧]

ب. لقن سبحانه النبي ﷺ أن يبدأهم في الجواب ببيان أنه لا يملك لنفسه ضرا حتى يدفعه عنها

ولا نفعا حتى يجلبه إليها ويستعجل ذلك إلا ما شاء الله أن يملكه من ضر ونفع فالأمر إلى الله سبحانه جميعا، واقتراحهم عليه بأن يعجل لهم القضاء والعذاب من الجهل.

٣. ثم يجيب عن سؤالهم عن أصل تعيين الوقت جوابا إجماليا بالإعراض عن تعيين الوقت والإقبال على ذكر ضرورة الوقوع:

أ. أما الأول فإنه من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وأمره الذي لا يتسلط عليه إلا هو، وقد تقدم قوله في آيات السورة: ﴿وَيَقُولُونَ لولا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الآية: ٢٠] من السورة.

ب. وأما الثاني أعني ذكر ضرورة الوقوع فقد بين ذلك بالإشارة إلى حقيقة هي من النواميس العامة الجارية في الكون تنحل بها العقدة وتندفع بها الشبهة، وهي أن لكل أمة أجلا لا يتخطاهم ولا يتخطونه فهو آتيهم لا محالة، وإذا أتاهم لم يخبط في وقوعه موقعه ولا ساعة، وهو قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي وأنتم أمة من الأمم فلا محالة لكم أيضا أجل كمثلهم إذا جاءكم لا تستأخرون ساعة ولا تستقدمون.

ج. فإذا فقهوا هذا الكلام وتدبروه بأن لهم أن لكل أمة حياة اجتماعية وراء الحياة الفردية التي لكل واحد من أفرادها ولحياتها من البقاء والعمر ما قضى به الله سبحانه لها ولها، من السعادة والشقاوة والتكليف والرشد والغي والثواب والعقاب نصيبها، وهي مما اعتنى بها التدبير الإلهي نظير الفرد من الإنسان حذو النعل بالنعل.

د. ويدلهم على ذلك ما يحدثهم به التاريخ ويفصح عنه الآثار من ديارهم الخربة ومساكنهم الخالية، وقد قص عليهم القرآن أخبار بعضهم كقوم نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وكلدة قوم إبراهيم وأهل سدوم وسائر المؤتفكات قوم لوط والقبط قوم فرعون وغيرهم.

هـ. فهؤلاء أمم منقرضة سكنت أجراسهم وخمدت أنفاسهم ولم ينقرضوا إلا بعذاب وهلاك، ولم يعذبوا إلا بعد ما جاءتهم رسلهم بالبينات ولم يأت قوما منهم رسوله إلا واختلفوا في الحق الذي جاءهم فمنهم من آمن به ومنهم من كذب به وهم الأكثرون.

و. فهذا يدلهم على أن هذه الأمة، وقد اختلفوا في الحق لما جاءهم، سيقضي الله بين رسوله وبينهم

فيأخذهم بما أخذ به من خلت من قبلهم من الأمم وإن الله لبالمرصاد.

٤. وعلى الباحث المتدبر أن يتنبه لأن الله سبحانه وإن بدأ في وعيده بالمشركين غير أنه هدد في أثناء كلامه المجرمين فتعلق الوعيد بهم، ومن أهل القبلة مجرمون كغيرهم فلينتظروا عذابا واصبا يفصل به الله بينهم وبين نبيه ﷺ، ولينسوا ما يلقيه الشيطان في روعهم أن أمتهم هذه أمة مرحومة رفع الله عنهم عذاب الدنيا إكراما منه لنبيهم نبي الرحمة فهم في أمن من عذاب الله وإن انهمكوا في كل إثم وخطيئة وهتكوا كل حجاب مع أنه لا كرامة عند الله إلا بالتقوى وقد خاطب المؤمنين من هذه الأمة بمثل قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]

٥. وربما تعدى المتعدي فعطف عذاب الآخرة على عذاب الدنيا فذكر أن الأمة مغفور لهم محسنهم ومسيئهم فلا يبقى لهم في الدنيا إلا كرامة أن لهم أن يفعلوا ما شاءوا فقد أسدل الله عليهم حجاب الأمن ولا في الآخرة إلا المغفرة والجنة، ولا يبقى على هذا للملة والشريعة إلا أنها تكاليف وأحكام جزافية لعب بها رب العالمين ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون تعالى عما يقولون علوا كبيرا، فهذا كله من الإعراض عن ذكر الله وهجر كتابه ﴿وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾

٣٥. العذاب يأتي بغتة والمجرمون يستعجلونه:

المقطع [٣٥] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٥٠-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٧٤»:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ماذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ إلى آخر الآيتين، البيات والتبييت الإتيان ليلا ويغلب في الشر كقصد العدو عدوه ليلا.

٢. ولما كان قولهم: ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ في معنى استعجال آية العذاب التي يلجئهم إلى الإيمان رجع بعد بيان تحقق الوقوع إلى توبيخهم وذمهم من الجهتين فوبخهم أولا على استعجالهم بالعذاب، وهو عذاب فجائي من الحزم أن يكون الإنسان منه على حذر لا أن يستعجل فيه فقال تعالى ملقنا لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً﴾ ليلا ﴿أَوْ نَهاراً﴾ فإنه عذاب لا

يأتيكم إلا بغتة إذ لستم تعلمون وقت نزوله ﴿ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾ من العذاب ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ أي ماذا تستعجلون منه وأنتم مجرمون لا يتخطاكم إذا أتاكم.

٣. ففي قوله: ﴿ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة وكان النكتة فيه رعاية حالهم أن لا يشافهوا بصريح الشر وليكون تعرضا لملاك نزول العذاب عليهم وهو إجرامهم، ووبخهم ثانيا على تأخير إيمانهم إلى حين لا ينفعهم الإيمان فيه وهو حين نزول العذاب فإن آية العذاب يلجئهم إلى الإيمان قطعا على ما هو المجرب من إيمان الإنسان عند إشراف الهلكة، ومن جهة أخرى الإيمان توبة والتوبة غير مقبولة عند ظهور آية العذاب والإشراف على الموت، فقال تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ﴾ العذاب ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن أو بالدين أو بالله ﴿آلْآنَ﴾ أي أتؤمنون به في هذا الآن والوقت ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وكان معنى استعجالهم عدم الاعتناء بشأن هذا العذاب وتحقيره بالاستهزاء به.

٤. ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ الأشبه أن تكون الآية متصلة بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الآية، فتكون الآية الأولى تبين تحقق وقوع العذاب عليهم وإهلاكه إياهم، والآية الثانية تبين أنه يقال لهم بعد الوقوع والهلاك: ذوقوا عذاب الخلد وهو عذاب الآخرة ولا تجزون إلا أعمالكم التي كنتم تكسبونها وذنوبكم التي تحملونها والخطاب تكويني كني به عن شمول العذاب لهم ونيله إياهم، وعلى هذا المعنى فالآيتان: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ إلى قوله ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ واردتان مورد الاعتراض.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً﴾ يعني ليلا ﴿أَوْ نَهاراً ماذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ فهذا عذاب ينزل في آخر الزمان على فسقة أهل القبلة، وهم يجحدون نزول العذاب عليهم.

• أقول: والرواية تتأيد بالآيات وتؤيد ما أسلفناه من البيان.

٣٦. الحق من الله واليقين بوقوعه:

المقطع [٣٦] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٧٥»:

١. ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ إلى آخر الآية، يستنبئونك،

أي يستخبرونك وقوله: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ بيان له، والضمير على ما يفيده السياق راجع إلى القضاء أو العذاب، والمآل واحد، وقد أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يؤكد القول في إثباته من جميع جهاته، وبعبارة أخرى أن يجيبهم بوجود المقتضي وعدم المانع.

٢. فقوله: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ إثبات لتحققه وقد أكد الكلام بالقسم والجملة الاسمية وإن واللام، وقوله: ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بيان أنه لا مانع هناك يمنع من حلول العذاب بكم.

٣٧. العذاب والندامة والقسط:

المقطع [٣٧] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٧٦»:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ إلى آخر الآية، إشارة إلى شدة العذاب وأهمية التخلص منه عندهم، وإسرار الندامة إخفاؤها وكتمانها خشية الشماتة ونحوها، والظاهر أن المراد بالقضاء والعذاب في الآية هو القضاء والعذاب الدنيويان لا غير.

٢. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، بإسناده عن الحسن بن موسى الخشاب، عن رجل، عن حماد بن عيسى عمن رواه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل عن قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ﴾ قال: قيل له ما ينفعهم أسرار الندامة وهم في العذاب؟ قال: كرهوا شماتة الأعداء.

٣٨. لله ملك السماوات والأرض ووعده حق:

المقطع [٣٨] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٥-٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٧٦»:

١. ﴿أَلا إِنَّ للهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ الآية وما بعدها:

أ. بيان برهاني على حقية ما ذكره من كونه حقا واقعا لا يمنع عنه مانع فإن كل شيء مما في السماوات والأرض إذا كان مملوكا لله وحده لا شريك له كان كل تصرف مفروض فيها إليه تعالى، ولم يكن لغيره

شيء من التصرف إلا بإذنه فإذا تصرف في شيء كان مستندا إلى إرادته فقط من غير أن يستند إلى مقتض آخر خارج يتصرف في ذاته المقدسة فيحمله على الفعل، أو يتقيد بعدم مانع خارجي إذا وجد تصرف فيه سبحانه بمنعه عن الفعل، فهو تعالى يفعل ما يفعل عن نفسه من غير أن يرتبط إلى مقتض من خارج أو مانع من خارج فإذا أراد سبحانه شيئا فعله من غير ممد أو عائق، وإذا وعد وعدا كان حقا لا مرد له من غير أن يتغير عن وعده بصارف.

ب. فإمعان النظر في ملكه تعالى المطلق الحقيقي يهدي إلى العلم بأن وعده حق لا يمازجه باطل ولكن أكثرهم وهم العامة من الناس لا يعلمون لعجزهم عن الإمعان في هذه الأبحاث الحقيقية أو إعجابهم بسذاجة الفهم وانسلاكهم في سلك العامة.

ج. فهم على ذلك يقيسون ملكه تعالى إلى ملك العظماء المستعلين من الإنسان فإنهم يجدون الواحد من عظمائهم وقد أوتي ملكا وسلطانا ومن كل ما يتنافس فيه فيرون له القدرة المطلقة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ثم يجدونه ربما يهم ويسعى ولا يقع ما اهتم به أو وعد وعدا ثم لم يف به رعاية لمصلحة شخصه أو غيره أو لمانع عائق فيقيسون أمره تعالى إلى أمره، ووعده إلى وعده، على أن الوعد عندهم قول من شأنه جواز أن ينطبق على الخارج وأن لا ينطبق.

د. مع أن حقيقة معنى ملكه وسلطانه وسعة قدرته ونفوذ إرادته أن الناس يعتقدون له ذلك ويتصورونه عظيما فيهم ولو طحنته نازلات الدهر يوما فأهلكته أو تغيرت عليه عقائد الناس بسبب من الأسباب سلبته ما عنده من ملك وقدرة، ومعنى وقوع ما أراده أو أحبه أن الأسباب الكونية ساعدته على ذلك ووافقته على ما أحبه، ولو لم تساعده ولم توافقه كلية الأسباب لم يكن له أن يضطرها إلى الخضوع لما يتوهم لنفسه من القدرة كما لا توافقه على مثل الموت والحياة والشباب والشيب والصحة والمرض وأمور أخرى كثيرة فليس له من الأمر شيء.

هـ. لكنه سبحانه مالك لخلقه بمعنى أن وجود كل شيء قائم به متكون متحول بأمره منوط بإذنه، وما تصرف فيه من شيء فإنما يتصرف عن نفسه لا عن اقتضاء من مقتض خارج مؤثر فيه أو عدم مانع يعوقه عن فعله فلا ينتسب شيء إلا إليه تعالى نفسه أو إلى غيره بإذنه بمقدار ما أذن فكيف يمكن أن يتخلف عن مشيته شيء فيرجع إلى غيره ولا غير هناك يرجع نحوه وينتسب إليه؟

و. وقوله تعالى فعله بما يدل بنفسه على مراده فكيف يتسرب إليه الكذب وهو متن الخارج، والعين الخارجي لا كذب فيه؟ وإنما الكذب والخطأ شأن المفاهيم الذهنية من حيث انطباقها على الخارج، وكيف يكون وعده باطلا ووعده لنا هو فعله الغائب عن نظرنا المستقبل لنا، وقد وجه كلية الأسباب إليه ولا مرد له؟

ز. فإمعان النظر في هذه الحقائق ينور للباحث المتدبر معنى ملكه تعالى لما في السماوات والأرض، وأن لازم ذلك أن وعد الله حق، وأن الارتياب فيه إنما هو من الجهل بمقامه تعالى.

ح. ولذلك قال تعالى أولا: ﴿أَلا إِنَّ للهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم عقبه بقوله كالاستنتاج منه: ﴿أَلا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ ثم استدرك فقال: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ ثم بين ملكه بقوله: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ الآية في الآية التالية.

٢. ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ احتجاج على ما تقدم في الآية السابقة من ملكه تعالى بالنسبة إلى نوع الإنسان كأنه تعالى يقول: إن أمركم جميعا من حياة وموت ورجوع إليه تعالى فكيف لا تكونون ملكا له.

٣٩. الموعظة والشفاء والهدى والرحمة للمؤمنين:

المقطع [٣٩] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٧٩»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال الراغب في المفردات: (الوعظ زجر مقترن بتخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له، القلب والعظة والموعظة الاسم)

ب. والصدر معروف والناس لما وجدوا القلب في الصدر وهم يرون أن الإنسان إنما يدرك ما يدرك بقلبه وبه يعقل الأمور ويحب ويبغض ويريد ويكره ويشتاق ويرجو ويتمنى، عدوا الصدر خزانة لما في القلب من أسراره والصفات الروحية التي في باطن الإنسان من فضائل ورذائل، وفي الفضائل صحة القلب واستقامته، وفي الرذائل سقمه ومرضه، والرذيلة داء يقال: شفيت صدري بكذا إذا ذهب به ما في

صدره من ضيق وحرج، ويقال: شفيت قلبي، فشفاء الصدور وشفاء ما في الصدور كناية عن ذهاب ما فيها من الصفات الروحية الخبيثة التي تجلب إلى الإنسان الشقاء وتنغص عيشته السعيدة وتحرمه خير الدنيا والآخرة.

ج. والهدى هي الدلالة على المطلوب بلطف على ما ذكره الراغب، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] في الجزء السابع من الكتاب بحث فيها.

د. والرحمة تأثر خاص في القلب عن مشاهدة ضر أو نقص في الغير يبعث الراحم إلى جبر كسره وإتمام نقصه، وإذا نسبت إليه تعالى كان بمعنى النتيجة دون أصل التأثر لتنزهه تعالى عن ذلك فينطبق على مطلق عطيته تعالى وإفاضته الوجود على خلقه.

هـ. وعطيته إذا نسبت إلى مطلق خلقه كانت هي ما ينسب إليه تعالى من وجودهم وبقائهم ورزقهم الذي يمد به بقاؤهم وسائر ما ينعم به عليهم من نعمة التي لا تحصى كثرة ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾، وإذا نسبت إلى المؤمنين خاصة كانت هي ما يختص بهم من سعادة الحياة الإنسانية بمظاهرها المختلفة التي ينعم الله بها عليهم من المعارف الحقة الإلهية والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة، والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة والجنة والرضوان.

و. ومن ثم إذا وصف القرآن بأنه رحمة للمؤمنين كان معناه أنه يغشى المؤمنين أنواع الخيرات والبركات التي كنزها الله فيه لمن تحقق بحقائقها وتلبس بمعانيها، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾ [الإسراء: ٨٢]

٢. وإذا أخذت هذه النعوت الأربعة التي عدها الله سبحانه للقرآن في هذه الآية أعني أنه موعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة، وقيس بعضها إلى بعض ثم اعتبرت مع القرآن كانت الآية بيانا جامعا لعامة أثره الطيب الجميل وعلمه الزاكي الطاهر الذي يرسمه في نفوس المؤمنين منذ أول ما يقرع أسماعهم إلى آخر ما يتمكن من نفوسهم ويستقر في قلوبهم:

أ. فإنه يدركهم أول ما يدركهم وقد غشيهم يم الغفلة وأحاطت بهم لجة الحيرة فأظلمت باطنهم بظلمات الشك والريب، وأمرضت قلوبهم بأدواء الرذائل وكل صفة أو حالة ردية خبيثة فيعظهم موعظة حسنة ينبههم بها عن رقدة الغفلة، ويزجرهم عما بهم من سوء السريرة والأعمال السيئة، ويبعثهم نحو الخير

والسعادة.

ب. ثم يأخذ في تطهير سرهم عن خبائث الصفات، ولا يزال يزيل آفات العقول وأمراض القلوب واحدا بعد آخر حتى يأتي على آخرها.

ج. ثم يدلهم على المعارف الحقة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة دلالة بلطف برفعهم درجة بعد درجة، وتقريبهم منزلة فمنزلة حتى يستقروا في مستقر المقربين، ويفوزوا فوز المخلصين.

د. ثم يلبسهم لباس الرحمة وينزلهم دار الكرامة ويقرهم على أريكة السعادة حتى يلحقهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، ويدخلهم في زمرة عبادة المقربين في أعلى عليين.

هـ. فالقرآن واعظ شاف لما في الصدور هاد إلى مستقيم الصراط مفيض للرحمة بإذن الله سبحانه، وإنما يعظ بما فيه ويشفي الصدور ويهدي ويبسط الرحمة بنفسه لا بأمر آخر فإنه السبب الموصول بين الله وبين خلقه فهو موعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، فافهم ذلك.

٣. وقد افتتح سبحانه الآية بقوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهو خطاب لعامة الناس دون المشركين أو مشركي مكة خاصة وإن كانت الآية واقعة في سياق الكلام معهم وذلك لأن النعوت المذكورة فيها بقوله: ﴿قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تتعلق بعامتهم دون قبيل خاص منهم.

٤. ومن غريب التفسير قول بعضهم: إن المراد بالرحمة ما يتصف به المؤمنون من الرحمة والرأفة فيما بينهم وهو خطأ يدفعه السياق البتة.

٤٠. الفرح بفضل الله ورحمته:

المقطع [٤٠] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٨٢»:

١. ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾:

أ. الفضل هو الزيادة، وتسمى العطية فضلا لأن المعطي إنما يعطي غالبا ما لا يحتاج إليه من المال ففي تسمية ما يفيضه الله على عباده فضلا إشارة إلى غناه تعالى وعدم حاجته في إفاضته إلى ما يفيضه ولا إلى من يفيض عليه.

ب. وليس من البعيد أن يكون المراد بالفضل ما يبسطه الله من عطائه على عامة خلقه، وبالرحمة خصوص ما يفيضه على المؤمنين فإن رحمة السعادة الدينية إذا انضمت إلى النعمة العامة من حياة ورزق وسائر البركات العامة كان المجموع منهما أحق بالفرح والسرور وأحرى بالانبساط والابتهاج.

ج. ومن الممكن أن يتأيد ذلك بقوله: ﴿بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ حيث أدخلت باء السببية على كل من الفضل والرحمة، وهو مشعر بكون كل واحد منهما سببا مستقلا وإن جمع بينهما ثانيا بقوله: ﴿فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ للدلالة على استحقاق مجموعهما لأن ينحصر فيه الفرح.

د. ويمكن أن يكون المراد بالفضل غير الرحمة من الأمور المذكورة في الآية السابقة أعني الموعظة وشفاء ما في الصدر والهدى، والمراد بالرحمة الرحمة بمعناها المذكور في الآية السابقة وهي العطية الخاصة الإلهية التي هي سعادة الحياة في الدنيا والآخرة، والمعنى على هذا أن ما تفضل الله به عليهم من الموعظة وشفاء ما في الصدور والهدى، وما رحم المؤمنين به من الحياة الطيبة ذلك أحق أن يفرحوا به دون ما يجمعونه من المال.

هـ. وربما تأيد هذا الوجه بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ﴾ [النور: ٢١] حيث نسب زكاتهم إلى الفضل والرحمة معا واستناد الزكاة إلى الفضل بمعنى العطية العامة بعيد عن الفهم، ومما يؤيد هذا الوجه ملائمته لما ورد في الرواية من تفسير الآية بالنبي ﷺ وعلي عليه السلام أو بالقرآن والاختصاص به وسيجيء إن شاء الله.

٢. ﴿فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾:

أ. ذكروا أن الفاء في قوله: ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ زائدة كقول الشاعر: (فإذا قتلت فعند ذلك فاجزعي،) والظرف أعني قوله: ﴿فَبِذلِكَ﴾ بدل من قوله: ﴿بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾، ومتعلق بقوله: ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ قدم عليه لإفادة الحصر، وقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ بيان ثان لمعنى الحصر.

ب. فظهر بذلك كله أن الآية تفريع على مضمون الآية السابقة فإنه تعالى لما خاطب الناس امتنانا عليهم بأن هذا القرآن موعظة لهم وشفاء لما في صدورهم وهدى ورحمة للمؤمنين منهم فرع عليه أنه ينبغي لهم حينئذ أن يفرحوا بهذا الذي امتن به عليهم من الفضل والرحمة لا بالمال الذي يجمعونه فإن ذلك، وفيه سعادتهم وما تتوقف عليه سعادتهم، خير من المال الذي ليس إلا فتنة ربما أهلكتهم وأشقتهم.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في أمالي الشيخ، قال: أخبرنا أبو عمرو قال: أخبرنا أحمد قال: حدثنا يعقوب بن يوسف بن زياد قال: حدثنا نصر بن مزاحم قال: حدثنا محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: بفضل الله وبرحمته) بفضل الله النبي ﷺ، وبرحمته علي عليه السلام:

• أقول: ورواه الطبرسي وابن الفارسي عنه مرسلا، ورواه أيضا في الدر المنثور، عن الخطيب وابن عساكر عنه.

ب. وفي المجمع: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: فضل الله رسول الله ﷺ ورحمته علي بن أبي طالب عليه السلام.

• أقول: وذلك أن النبي ﷺ نعمة أنعم الله بها على العالمين بما جاء به من الرسالة ومواد الهداية، وعلي عليه السلام هو أول فاتح لباب الولاية وفعلية التحقق بنعمة الهداية فهو الرحمة فينطبق الخبر على ما قدمناه في تفسير الآية.

ج. أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس: (قل بفضل الله القرآن وبرحمته) حين جعلهم من أهل القرآن.

• أقول: أي الفضل مواد المعارف والأحكام التي فيه، والرحمة فعلية تحقق ذلك في العاملين به فيرجع إلى ما قدمناه في تفسير الآية فتبصر، ولا مخالفة بين هذه الرواية والرواية السابقة حينئذ بحسب الحقيقة.

٤١. الكفار يحرمون ويحلون من الرزق بغير إذن الله:

المقطع [٤١] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٥٩-٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٨٣»:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً﴾ إلى آخر الآية:

أ. نسبة الرزق وهو ما يمد الإنسان في بقائه من الأمور الأرضية من مأكول ومشروب وملبوس

وغيرها إلى الإنزال مبني على حقيقة يفيدها القرآن وهي أن الأشياء لها خزائن عند الله تتنزل من هناك على حسب ما قدرها الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وقال: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ﴾ [الزمر: ٦] وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]

ب. وأما ما قيل: إن التعبير بالإنزال إنما هو لكون أرزاق العباد من المطر الذي ينزله الله من السماء، فوجه بسيط لا يطرد على تقدير صحته في جميع الموارد التي عبر فيها عن كينونتها بالإنزال كما في الأنعام وفي الحديد، والرزق الذي تذكر الآية أن الله أنزله لهم فجعلوا منه حراما وحلالا هو الأنعام من الإبل والغنم كالوصيلة والسائبة والحام وغيرها.

ج. واللام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ للغاية وتفيد معنى النفع أي أنزل الله لأجلكم ولتنتفعوا به، وليست للتعدية فإن الإنزال إنما يتعدى بعلى أو إلى، ومن هنا أفاد الكلام معنى الإباحة والحل أي أنزلها الله فأحلها، وهذا هو النكتة في تقديم التحريم على الإحلال في قوله: ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً﴾ أي كان الله أحله لكم بإنزاله رزقا لكم تنتفعون به في حياتكم وبقائكم ولكنكم قسمتموه قسمين من عند أنفسكم فحرمتم قسما وأحللتم آخر فالمعنى: قل لهم يا محمد: أخبروني عما أنزل الله لكم ولأجلكم من الرزق الحلال فقسمتموه قسمين وجعلتم بعضه حراما وبعضه حلالا ما هو السبب في ذلك؟ ومن البين أنه افتراء على الله لا عن إذن منه تعالى.

٢. ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾:

أ. سؤال عن سبب تقسيمهم الرزق إلى حرام وحلال، وإذ كان من البين أنه ليس ذلك عن إذن منه تعالى لعدم اتصالهم بربهم بوحي أو رسول كان من المتعين أنه افتراء فالاستفهام في سياق الترديد كناية عن إثبات الافتراء لهم وتوبيخ وذم.

ب. والذي يقضي به النظر الابتدائي أن الترديد في الآية غير حاصر إذ كما يجوز أن يكون تقسيمهم رزق الله إلى حرام وحلال عن إذن من الله أو افتراء عليه تعالى كذلك يجوز أن يكون عن مصلحة أحرزوها أو زعموها في ذلك أو عن هوى لهم فيه من غير أن ينسبوه إلى الله تعالى فيكون افتراء عليه.

ج. ومن وجه آخر الترديد في الآية بين إذن الله والافتراء على الله يشعر بأن الحكم إنما هو لله فالحكم

بكون بعض الرزق حراما وبعضه حلالا وهو دائر بينهم إما أن يكون من الله أو افتراء عليه، ومن الممكن أن يمنع ذلك في بادئ النظر فكثير من السنن الدائرة بين الناس كونتها طبيعة مجتمعهم أو عادتهم القومية وغير ذلك، لكن التدبر في كلامه تعالى والبحث العميق يدفع ذلك فإن القرآن يرى أن الحكم يختص بالله تعالى، وليس لأحد من خلقه أن يبادر إلى تشريع حكم ووضعه في المجتمع الإنساني، قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ [يوسف: ٤٠]

د. وقد أشار تعالى إلى لم ذلك في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] فتبين به أن معنى كون الحكم لله كونه معتمدا على الخلقة والفطرة منطبقا عليها غير مخالف لما ينطق به الكون والوجود.

هـ. وذلك أن الله سبحانه لم يخلق الخلق عبثا كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً﴾ [المؤمنون: ١١٥] بل خلقهم لأغراض إلهية وغايات كمالية يتوجهون إليها بحسب جبلتهم ويسيرون نحوها بفطرتهم بما جهزهم به من الأسباب والأدوات وهداهم إليه من السبيل الميسر لهم كما قال: ﴿أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طه: ٥٠]، وقال: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠]

و. فوجود الأشياء في بدء خلقها مناسب لما هيئ لها من منزلة الكمال مجهز بقوى وأدوات يتوسل بها إلى غايتها، ولا يسير شيء منها إلى كماله المهيا له إلا من طريق الصفات الاكتسابية والأعمال، فمن الواجب بالنظر إلى ذلك أن يكون الدين أعني القوانين الجارية في الصفات والأعمال الاكتسابية منطبقا على الخلقة والفطرة فإن الفطرة لا تنسى غايتها ولا تتخطاها، ولا تبعث نحو فعل ولا تزجر عن فعل إلا لدعوة ما جهزت به إليه، ولا يدعو الجهاز إلا لأجل ما جهز لأجله وهو الغاية.

ز. فالإنسان لما كان مجهزا بجهاز التغذية والنكاح كان حكمه الحقيقي في دين الفطرة هو التغذي والنكاح دون الجوكية والرهبانية مثلا، ولما كان مطبوعا على الاجتماع والتعاون كان من حكمه أن يشارك سائر الناس في مجتمعهم ويقوم بالأعمال الاجتماعية، وعلى هذا القياس.

ح. فالذي يتعين للإنسان من الأحكام والسنن هو الذي يدعوه إليه الكون العالمي الذي هو جزء حقير منه، وقد جهز وجوده بما يسوقه إليه من مرحلة الكمال، فهذا الكون العام المرتبط بعض أجزائه ببعض، وهو مركب إرادة الله تعالى هو الحامل للشريعة الفطرية الإنسانية، والداعي إلى دين الله الحنيف.

ط. فالدين الحق هو حكم الله سبحانه لا حكم إلا له، وهو المنطبق على الخلقة الإلهية، وما وراءه من حكم هو باطل لا يسوق الإنسان إلا إلى الشقاء والهلاك ولا يهديه إلا إلى عذاب السعير.

ي. ومن هنا ينحل ما تقدم من العقدتين فإن الحكم لما كان لله سبحانه وحده كان كل حكم دائر بين الناس إما حكما لله حقيقة مأخوذا من لدنه بوحي أو رسالة أو حكما مفترى على الله، ولا ثالث للقسمين.

ك. على أن المشركين كانوا ينسبون أمثال هذه الأحكام التي ابتدعوها واستنوا بها فيما بينهم إلى الله سبحانه كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللهُ أَمَرَنا بِها﴾ الآية [الأعراف: ٢٨]

٣. ﴿وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ إلى آخر الآية، لما كان جواب الاستفهام المتقدم: ﴿آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ معلوما من المورد، وهو أنه افتراء، استعظم وخامة عاقبته فإنه افتراء على الله سبحانه والافتراء من الآثام والذنوب بحكم البداهة فلا محالة له أثر سيء، ولذلك قال تعالى إيعادا وتهديدا: ﴿وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾

٤. وأما قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾:

أ. فهو شكوى وعتبى يشار به إلى ما اعتاد عليه الناس من كفران أكثرهم لنعمة الله، وعدم شكرهم قبال عطيته ونعمته، والمراد بالفضل هاهنا هو العطية الإلهية فإن الكلام في الرزق الذي أنزله الله لهم وهو الفضل وتحريمهم بعضه وهو الكفران وعدم الشكر.

ب. وبرجوع ذيل الآية إلى صدرها يكون الافتراء على الله من مصاديق كفران نعمته، والمعنى أن الله ذو فضل وعطاء على الناس ولكن أكثرهم كافرون لنعمته وفضله فما ظن الذين يكفرون بنعمة الله ورزقه بتحريمه افتراء على الله الكذب يوم القيامة.

٤٢. الله شهيد على كل عمل ولا يعزب عنه شيء:

المقطع [٤٢] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وفيه المسائل التالية

«الميزان: ١٠/ ٨٧»:

١. ﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال الراغب: (الشأن الحال والأمر الذي يتفق ويصلح، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾

ب. ﴿وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ الظاهر أن الضمير إلى الله سبحان ومن الأولى للابتداء والنشوء والثانية للبيان، والمعنى ولا تتلو شيئا هو القرآن ناشئا ونازلا من قبله تعالى، والإفاضة في الفعل الخوض فيه جمعا.

ج. وقد وقع في قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير، والنكتة فيه الإشارة إلى كثرة الشهود فإن لله شهودا على أعمال الناس من الملائكة والناس والله من ورائهم محيط، والعظماء يتكلمون عنهم وعن غيرهم للدلالة على أن لهم أعوانا وخدمة.

د. وليس ينبغي أن يغفل عن أن أصل الالتفات يبدأ من أول الآية فإن الآيات السابقة كانت تخاطب النبي ﷺ وتأخذ المشركين على الغيبة وتكلمهم بوساطته من غير أن تواجهه بشيء من الخطاب يخص نفسه، وقد حولت هذه الآية وجه الكلام إلى النبي ﷺ بما يخص به نفسه فقالت: ﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ ثم جمعته والمشركين وغيرهم جميعا في خطاب واحد فقالت: ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ وذلك بضمهم إلى النبي ﷺ وهم على غيبتهم وبسط الخطاب على الجميع بنوع من التغليب كما تقول لمخاطبك أنت وقومك تفعلون كذا وكذا.

هـ. والدليل على أن هذا الخطاب بنحو الضم والتغليب قوله بعده: ﴿وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ الآية، فإنه يكشف عن كون الخطاب معه ﷺ جاريا على ما كان.

و. وعلى أي حال فالتحول المذكور في خطاب الآية للإشارة إلى أن السلطنة والإحاطة التامة الإلهية واقعة على الأعمال شهادة وعلما على أتم ما يكون من كل جهة من غير أن يستثني منه نبي ولا مؤمن ولا مشرك أو يغفل عن عمل من الأعمال فلا يتوهمن أحد أن الله يخفى عليه شيء من أمره فلا يحاسبه عليه يوم القيامة، وليكن هذا هو ظنه بربه يوم القيامة وليأخذ حذره.

ز. وذكر تلاوة القرآن مستقلا مع دخوله في قوله قبلا: ﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ فإن أحد شئونه ﷺ للإيماء إلى أهمية أمرها ومزيد العناية بها.

٢. وفي الآية:

أ. أولا تشديد في العظة على النبي ﷺ وعلى أمته.

ب. وثانيا: أن الذي يتلوه النبي ﷺ من القرآن للناس من وحي الله وكلامه لا يطرقه تغيير ولا يدب فيه باطل لا في تلقيه من الله ولا في تلاوته للناس فالآية قريبة المضمون من قوله: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]

٣. ﴿وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ﴾ إلى آخر الآية، العزوب الغيبة والتباعد والخفاء، وفيه إشارة إلى حضور الأشياء عنده تعالى من غير غيبة وحفظه لها في كتاب من غير زوال، وقد تقدم بعض ما يتعلق به من الكلام في ذيل قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] في الجزء السابع من الكتاب.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآية، بكى بكاء شديدا.

• أقول: ورواه في المجمع عن الصادق عليه السلام.

٤٣. أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون:

المقطع [٤٣] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٨٨»:

١. ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

أ. استئناف في الكلام غير أنه متعلق بغرض السورة وهو الدعوة إلى الإيمان بكتاب الله والندب إلى توحيد الله تعالى بمعناه الوسيع.

ب. وللدلالة على أهمية المطلب افتتح بلفظة ﴿أَلا﴾ التنبيهية، والله سبحانه يذكر في هذه الآية والآيتين بعدها أولياءه ويعرفهم ويصف آثار ولايتهم وما يختصون به من الخصيصة.

ج. والولاية وإن ذكروا لها معاني كثيرة لكن الأصل في معناها ارتفاع الواسطة الحائلة بين الشيئين بحيث لا يكون بينهما ما ليس منهما، ثم استعيرت لقرب الشيء من الشيء بوجه من وجوه القرب كالقرب نسبا أو مكانا أو منزلة أو بصداقة أو غير ذلك ولذلك يطلق الولي على كل من طرفي الولاية، وخاصة بالنظر إلى أن كلا منهما يلي من الآخر ما لا يليه غيره فالله سبحانه ولي عبده المؤمن لأنه يلي أمره ويدبر شأنه فيهديه إلى صراطه المستقيم ويأمره وينهاه فيما ينبغي له أو لا ينبغي وينصره في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

د. والمؤمن حقا ولي ربه لأنه يلي منه إطاعته في أمره ونهيه ويلي منه عامة البركات المعنوية من هداية وتوفيق وتأييد وتسديد وما يعقبها من الإكرام بالجنة والرضوان.

هـ. فأولياء الله، على أي حال، هم المؤمنون فإن الله يعد نفسه وليا لهم في حياتهم المعنوية حيث يقول: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]

و. غير أن الآية التالية لهذه الآية المفسرة للكلمة تأبى أن تكون الولاية شاملة لجميع المؤمنين وفيهم أمثال الذين يقول الله سبحانه فيهم: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] فإن قوله في الآية التالية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ يعرفهم بالإيمان والتقوى مع الدلالة على كونهم على تقوى مستمر سابق على إيمانهم من حيث الزمان حيث قيل: ﴿آمَنُوا﴾ ثم قيل عطفا عليه: ﴿وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ فدل على أنهم كانوا يستمرون على التقوى قبل تحقق هذا الإيمان منهم ومن المعلوم أن الإيمان الابتدائي غير مسبوق بالتقوى بل هما متقاربان أو هو قبل التقوى وخاصة التقوى المستمر.

٢. فالمراد بهذه الإيمان:

أ. مرتبة أخرى من مراتب الإيمان غير المرتبة الأولى منه، فقد تقدم في الجزء الأول من الكتاب [آية: ١٣٠] من البقرة أن لكل من الإيمان والإسلام وكذا الشرك والكفر مراتب مختلفة بعضها فوق بعض فالمرتبة الأولى من الإسلام إجراء الشهادتين لسانا والتسليم ظاهرا، وتليه المرتبة الأولى من الإيمان وهو الإذعان بمؤدى الشهادتين قلبا إجمالا وإن لم يسر إلى جميع ما يعتقد في الدين من الاعتقاد الحق، ولذا كان من الجائز أن يجتمع مع الشرك من بعض الجهات، قال تعالى: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، ولا يزال إسلام العبد يصفو وينمو حتى يستوعب تسليمه لله سبحانه في كل ما يرجع إليه وإليه مصير كل أمر، وكلما ارتفع الإسلام درجة ورقي مرتبة كان الإيمان المناسب له الإذعان بلوازم

تلك المرتبة حتى يسلم العبد لربه حقيقة معنى ألوهيته وينقطع عنه السخط والاعتراض فلا يسخط لشيء من أمره من قضاء وقدر وحكم، ولا يعترض على شيء من إرادته، وبإزاء ذلك الإيمان باليقين بالله وجميع ما يرجع إليه من أمر، وهو الإيمان الكامل الذي تتم به للعبد عبوديته، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥]، والأشبه أن تكون هذه المرتبة من الإيمان أو ما يقرب منه هو المراد بالآية أعني قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ فإنه الإيمان المسبوق بتقوى مستمر دون الإيمان بمرتبته الأولى كما تقدم.

ب. على أن توصيفه أهل هذا الإيمان بأنهم ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يدل على أن المراد منه الدرجة العالية من الإيمان الذي يتم معه معنى العبودية والمملوكية المحضة للعبد الذي يرى معه أن الملك لله وحده لا شريك له، وأن ليس إليه من الأمر شيء حتى يخاف فوته أو يحزن لفقده.

ج. وذلك أن الخوف إنما يعرض للنفس عن توقع ضرر يعود إليها، والحزن إنما يطرأ عليها لفقد ما تحبه أو تحقق ما تكرهه مما يعود إليها نفعه أو ضرره، ولا يستقيم تحقق ذلك إلا فيما يرى الإنسان لنفسه ملكا أو حقا متعلقا بما يخاف عليه أو يحزن لفقده من ولد أو مال أو جاه أو غير ذلك، وأما ما لا علقة للإنسان به بوجه من الوجوه أصلا فلا يخاف الإنسان عليه ولا يحزن لفقده البتة.

د. والذي يرى كل شيء ملكا طلقا لله سبحانه لا يشاركه في ملكه أحد لا يرى لنفسه ملكا أو حقا بالنسبة إلى شيء حتى يخاف في أمره أو يحزن، وهذا هو الذي يصفه الله من أوليائه إذ يقول: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فهؤلاء لا يخافون شيئا ولا يحزنون لشيء لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا أن يشاء الله وقد شاء أن يخافوا من ربهم وأن يحزنوا لما فاتهم من كرامته إن فاتهم وهذا كله من التسليم لله فافهم ذلك.

هـ. فإطلاق الآية يفيد اتصافهم بهذين الوصفين: عدم الخوف وعدم الحزن في النشأتين الدنيا والآخرة، وأما مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٠] فإن ظاهر الآيات وإن كان هو أنها تريد الأولياء بالمعنى الذي تصفه الآية التي نحن فيها إلا أن إثبات عدم الخوف والحزن لهم يوم القيامة لا ينفي ذلك عنهم في غيره، نعم هناك فرق من جهة أخرى وهو خلوص النعمة والكرامة وبلوغ صفائها يوم القيامة وكونها مشوبة

غير خالصة في غيره.

و. ونظيرها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١] فإن الآيات وإن كانت ظاهرة في كون هذا التنزل والقول والبشارة يوم الموت لمكان قوله: ﴿كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وقوله: ﴿أَبْشِرُوا﴾ غير أن الإثبات في وقت لا يكفي للنفي في وقت آخر كما عرفت.

ز. هذا ما يدل عليه الآية بحسب إطلاق لفظها وتأييد سائر الآيات لها، وقد قيد أكثر المفسرين قوله: ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بالاستناد إلى آيات الآخرة، بيوم الموت والقيامة، وأهملوا ما تفيده خصوصية اللفظ في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ وأخذوا الإيمان والتقوى أمرين متقارنين فرجع المعنى إلى أن أولياء الله هم المتقون من أهل الإيمان ولا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون وهذا، كما عرفت، من التقييد من غير مقيد.

٣. وعمم بعضهم نفي الخوف والحزن فذكر:

أ. أنهم متصفون به في الدنيا والآخرة غير أنه أفسد المعنى من جهة أخرى فقال: إن المراد بالأولياء على ما تفسرهم به الآية الثانية جميع المتقين من المؤمنين، والمراد بعدم خوفهم وحزنهم أنهم لا يخافون في الآخرة مما يخاف منه الكافرون والفاسقون والظالمون من أهوال الموقف وعذاب الآخرة ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم وأنهم لا يخافون في الدنيا كخوف الكفار ولا يحزنون كحزنهم.

ب. قال: وأما أصل الخوف والحزن فهو من الأعراض البشرية التي لا يسلم منها أحد في الدنيا، وإنما يكون المؤمنون الصالحون أصبر الناس وأرضاهم بسنن الله اعتقادا وعلما بأنه إذا ابتلاهم بشيء مما يخيف أو يحزن فإنما يربيهم بذلك لتكميل نفوسهم وتمحيصها بالجهاد في سبيله الذي يزداد به أجرهم كما صرحت بذلك الآيات الكثيرة)

٤. أما تقييده الآية بأن المنفي عن الأولياء هو الخوف والحزن اللذين يعرضان للكفار دون ما يعرض لعامة المؤمنين بحسب الطبع البشري واستناده في ذلك إلى الآيات الكثيرة فهو من التقييد من غير مقيد، وأما قوله إن أصل الخوف والحزن مما لا يسلم منه أحد أصلا فهو من عدم تحصيل المراد بالكلام لعدم تعمقه في البحث عن الأخلاق العالية والمقامات المعنوية الإنسانية فحمله ذلك على أن يقيس حال

المكرمين من عباد الله المقربين من الأنبياء والأولياء إلى ما يجده من حال المتوسطين من عامة الناس فزعم أن ما يغشى العامة من الأعراض التي سماها أحوالا طبيعية يغشى الخاصة لا محالة، وأن ما يتعذر أو يتعسر على المتوسطين من الأحوال فهو كذلك عند الكاملين، ولا يبقى حينئذ للمقامات المعنوية والدرجات الحقيقية إلا أنها أسماء ليس وراءها حقيقة، واعتبارات وضعية اصطلح عليها نظير المقامات الوهمية والدرجات الرسمية الاجتماعية التي نتداولها في مجتمعاتنا لمصلحة الاجتماع.

أ. فلا وفى حق البحث العلمي حتى يهديه إلى حق النتيجة فيتبين أن التوحيد الكامل يقصر حقيقة الملك في الله سبحانه فلا يبقى لغيره شيء من الاستقلال في التأثير حتى يتعلق به لنفسه حب أو بغض أو خوف أو حزن ولا فرح ولا أسى ولا غير ذلك، وإنما يخاف هذا الذي غشيه التوحيد ويحزن أو يحب أو يكره بالله سبحانه، ويرتفع التناقض حينئذ بين قولنا: إنه لا يخاف شيئا إلا الله وبين قولنا: إنه يخاف كثيرا مما يضره ويحذر أمورا يكرهها فافهم ذلك.

ب. ولا البحث القرآني أتقن واستفرغ فيه الوسع حتى يظهر له أن قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أطلق فيه نفي الخوف والحزن من غير تقييد بشيء أو حال إلا ما صرح به آيات من وجوب مخافة الله فهؤلاء لا يخافون من شيء في دنيا ولا آخرة إلا من الله سبحانه ولا يحزنون.

ج. وأما الآيات الكثيرة التي تصف المؤمنين بعدم الخوف والحزن عند الموت أو يوم القيامة فهي إنما تصف أحوالهم في ظرف ولا يستوجب نفي شيء أو إثباته في مورد خلافه في غيره وهو ظاهر.

٥. والآية مع ذلك تدل على أن هذا الوصف إنما هو لطائفة خاصة من المؤمنين يمتازون عن غيرهم بمرتبة خاصة من الإيمان تخصهم دون غيرهم من عامة المؤمنين وذلك بما يفسرها من قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ بما تقدم من تقرير دلالته.

٦. وبالجملة ارتفاع الخوف من غير الله والحزن عن الأولياء ليس معناه أن الخير والشر والنفع والضرر والنجاة والهلاك والراحة والعناء واللذة والألم والنعمة والبلاء متساوية عندهم ومتشابهة في إدراكهم فإن العقل الإنساني بل الشعور العام الحيواني لا يقبل ذلك، بل معناه أنهم لا يرون لغيره تعالى استقلالا في التأثير أصلا، ويقصرون الملك والحكم فيه تعالى فلا يخافون إلا إياه أو ما يحب الله ويريد أن يحذروا منه أو يحزنوا عليه.

٧. ﴿لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾:

أ. يبشرهم الله تعالى بشارة إجمالية بما تقر به أعينهم فإن كان قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرى﴾ إنشاء للبشارة كان معناه وقوع ما بشر به في الدنيا وفي الآخرة كلتيهما، وإن كان إخبارا بأن الله سيبشرهم بشرى كانت البشارة واقعة في الدنيا وفي الآخرة، وأما المبشر به فهل يقع في الآخرة فقط أو في الدنيا والآخرة معا؟ الآية ساكتة عن ذلك.

ب. وقد وقع في كلامه تعالى بشارات للمؤمنين بما ينطبق على أوليائه تعالى كقوله تعالى: ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ [غافر: ٥١] وقوله: ﴿بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ [الحديد: ١٢] إلى غير ذلك.

٨. ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللهِ﴾ إشارة إلى أن ذلك من القضاء المحتوم الذي لا سبيل للتبدل إليه، وفيه تطييب لنفوسهم.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في أمالي المفيد، بإسناده عن عباية الأسدي عن ابن عباس قال: سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فقيل له: من هؤلاء الأولياء؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: قوم أخلصوا لله في عبادته، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر الناس إلى ظاهرها، فعرفوا آجلها حين غرت الخلق سواهم بعاجلها، فتركوا ما علموا أنه سيتركهم، وأماتوا منها ما علموا أنه سيميتهم، ثم قال: أيها المطل نفسه بالدنيا، الراكض على حبائلها، المجتهد في عمارة ما سيخرب منها، ألم تر إلى مصارع آبائك في البلاد، ومصارع أبنائك تحت الجنادل والثرى؟ كم مرضت ببدنك وعللت بكفنك، تستوصف لهم الأطباء، وتستغيث لهم الأحياء، فلم تغن عنهم غناؤك، ولا ينجع عنهم دواؤك؟

ب. وفي تفسير العياشي، عن مرثد العجلي عن أبي جعفر عليه السلام قال: وجدنا في كتاب علي بن الحسين عليه السلام: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) قال: إذا أدوا فرائض الله، وأخذوا بسنن رسول الله ﷺ، وتورعوا عن محارم الله، وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا، ورغبوا فيما عند الله،

واكتسبوا الطيب من رزق الله، ولا يريدون هذا التفاخر والتكاثر، ثم أنفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبة، فأولئك الذين بارك الله لهم فيما اكتسبوا، ويثابون على ما قدموا لآخرتهم.

ج. أخرج أحمد والحكيم والترمذي عن عمرو بن الجموح أنه سمع النبي ﷺ يقول: إنه لا يحق العبد حق صريح الإيمان، حتى يحب لله ويبغض لله تعالى، فإذا أحب الله وأبغض الله، فقد استحق الولاء من الله، الحديث.

• أقول: والروايات الثلاث في معنى الولاية يرجع بعضها إلى بعض وينطبق الجميع على ما قدمناه في تفسير الآية.

د. وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير عن النبي ﷺ: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) قال: يذكر الله لرؤيتهم.

• أقول: ينبغي أن يحمل إلى أن من آثار ولايتهم ذلك لا أن كل من كان كذلك كان من أهل الولاية إلا أن يراد أنهم كذلك في جميع أحوالهم وأعمالهم، وفي معناها ما روي عن أبي الضحى وسعد عن النبي ﷺ: في الآية قال: إذا رأوا ذكر الله.

هـ. وأخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو القاسم بن منده في كتاب سؤال القبر من طريق أبي جعفر عن جابر بن عبد الله قال: أتى رجل من أهل البادية رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أخبرني عن قول الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: أما قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ فهي الرؤيا الحسنة ترى للمؤمن فيبشر بها في دنياه، وأما قوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فإنها بشارة المؤمن عند الموت أن الله قد غفر لك، ولمن حملك إلى قبرك.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق أهل السنة ورواها الصدوق مرسلا وقوله: (ترى للمؤمن) بصيغة المجهول أعم من أن يراها هو نفسه أو غيره وقوله: (عند الموت) قد أضيف إليه في بعض الروايات البشرى يوم القيامة بالجنة.

و. وفي المجمع: (في قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ عن أبي جعفر عليه السلام: في معنى البشارة في الدنيا: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن لنفسه، أو ترى له، وفي الآخرة الجنة، وهي ما يبشرهم به الملائكة عند خروجهم من القبور، وفي القيامة إلى أن يدخلوا الجنة، يبشرونهم حالا بعد حال.

• أقول: وقال بعد ذلك وروي ذلك في حديث مروي عن النبي ﷺ انتهى وروي مثله عن الصادق عليه السلام ورواه القمي في تفسيره، مضمرا.

ز. وفي تفسير البرهان، عن ابن شهرآشوب عن زريق عن الصادق عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ قال: هو أن يبشراه بالجنة عند الموت يعني محمدا وعليا عليه السلام.

ح. وفي الكافي، بإسناده عن أبان بن عثمان عن عقبة أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الرجل إذا وقعت نفسه في صدره رأى، قلت: جعلت فداك وما يرى؟ قال: يرى رسول الله ﷺ فيقول له رسول الله، أنا رسول الله أبشر، ثم قال: ثم يرى علي بن أبي طالب عليه السلام فيقول: أنا علي بن أبي طالب الذي كنت تحب، أما لأنفعنك اليوم، قال: قلت له: أيكون أحد من الناس يرى هذا، ثم يرجع إلى الدنيا؟ قال: إذا رأى هذا أبدا مات وأعظم ذلك، قال: وذلك في القرآن قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللهِ﴾

• أقول: وهذا المعنى مروي عن أئمة أهل البيت عليه السلام بطرق كثيرة جدا وقوله: (وأعظم ذلك) أي عده عظيما.

• وقد أخذ في الحديث قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ كلاما مستقلا ففسره بما فسر، وتقدم نظيره في رواية الدر المنثور، عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ مع أن ظاهر السياق كون الآية مفسرة لقوله قبلها: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ﴾ الآية وهو يؤيد ما قدمناه في بعض الأبحاث السابقة أن جميع التقادير من التركيبات الممكنة في كلامه تعالى حجة يحتج بها كما في قوله: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] وقوله: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ وقوله: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ وقوله: ﴿قُلِ اللهُ﴾

ط. أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه وابن مردويه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي، ولكن المبشرات، قالوا: يا رسول الله وما المبشرات قال: رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة.

• أقول: وروي ما في معناه عن أبي قتادة وعائشة عنه (ﷺ)

ي. وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا، ورؤيا المسلم جزء

من ستة وأربعين جزء من النبوة، والرؤيا ثلاث: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، والرؤيا من تحزن، والرؤيا مما يحدث بها الرجل نفسه، وإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقم وليتفل ولا يحدث به الناس الحديث.

ك. وأخرج ابن أبي شيبة عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ: الرؤيا على ثلاثة: تخويف من الشيطان، ليحزن به ابن آدم، ومنه الأمر يحدث به نفسه في اليقظة، فيراه في المنام، ومنه جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة.

• أقول: أما انقسام الرؤيا إلى الأقسام الثلاثة كما ورد في الروايتين وفي معناهما روايات أخرى من طرق أهل السنة وأخرى من طرق أئمة أهل البيت عليه السلام فسيجيء توضيحه في تفسير سورة يوسف إن شاء الله تعالى.

• وأما كون الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة فقد وردت به روايات كثيرة من طرق أهل السنة رواها عنه ﷺ جمع من الصحابة كأبي هريرة وعبادة بن الصامت وأبي سعيد الخدري وأبي رزين، وروى أنس وأبو قتادة وعائشة عنه ﷺ: أنها من أجزاء النبوة كما تقدم.

• وعن الصفدي أنه وجه الرواية بأن مدة نبوة النبي ﷺ ثلاث وعشرون سنة دعا فيها إلى ربه ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة، وعشر سنين بعدها، وقد ورد أن الوحي كان يأتيه ستة أشهر من أولها من طريق الرؤيا الصالحة حتى نزل القرآن، والنسبة بين الستة الأشهر وبين الثلاث وعشرين سنة نسبة الواحد إلى الستة والأربعين.

• وقد روي عن ابن عمر وأبي هريرة عنه ﷺ: أنها جزء من سبعين جزء من النبوة فإن صحت هذه الرواية كان المراد بالتعداد مجرد التكثير من غير خصوصية لعدد السبعين.

• واعلم أن الرؤيا ربما أطلقت في لسان القرآن والحديث على ما يشاهده الرائي ما لا يشاهده غيره وإن لم ينم نومه الطبيعي، وقد نبهنا عليه في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب وأحسن كلمة في تفسيرها قوله ﷺ: تنام عيني ولا ينام قلبي.

٤٤. الحزن والعزة:

المقطع [٤٤] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٩٣»:

١. ﴿وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ للهَّ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تأديب للنبي ﷺ بتعزيته وتسليته فيما كانوا يؤذونه به بالوقوع في ربه والطعن في دينه والاعتزاز بشركائهم وآلهتهم كما يشعر به القول في الآية التالية فكاد يحزن لله فسلاه الله وطيب نفسه بتذكيره ما يسكن وجده وهو أن العزة لله وأنه سميع لمقالهم عليهم بحاله وحالهم وإذ كان له تعالى كل العزة فلا يعبأ بما اعتزوا به من العزة الوهمية فهذوا ما هذوا، وإذ كان سميعا عليما فلو شاء لأخذهم بالنكال وإذ كان لا يأخذهم فإنما في ذلك مصلحة الدعوة وخير العاقبة.

٢. ومن هنا يظهر أن كلا من قوله: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ للهَّ﴾ وقوله: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ علة مستقلة للنهي ولذا جيء بالفصل من غير عطف.

٤٥. آيات الله والتوحيد:

المقطع [٤٥] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ للهَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٦-٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٩٤»:

١. ﴿أَلا إِنَّ للهَّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية فيه بيان مالكيته تعالى لكل من في السماوات والأرض التي بها يتم للإله معنى الربوبية فإن الرب هو المالك المدبر لأمر مملوكه، وهذا الملك لله وحده لا شريك له فما يدعون له من الشركاء ليس لهم من معنى الشركة إلا ما في ظن الداعين وفي خرصهم من المفهوم الذي لا مصداق له، فالآية تقيس شركاءهم إليه تعالى وتحكم أن نسبتهم إليه تعالى نسبة الظن والخرص إلى الحقيقة والحق، والباقي ظاهر.

٢. وقد قيل: ﴿مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يقل: ما في السماوات وما في الأرض لأن الكلام في ربوبية العباد من ذوي الشعور والعقل وهم الملائكة والثقلان.

٣. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ الآية:

أ. الآية تتمم البيان الذي أورد في الآية السابقة لإثبات ربوبيته تعالى والربوبية، كما تعلم، هي الملك والتدبير، وقد ذكر ملكه تعالى في الآية السابقة، فبذكر تدبير من تدابيره العامة في هذه الآية تصلح به عامة معيشة الناس وتستبقي به حياتهم يتم له معنى الربوبية.

ب. وللإشارة إلى هذا التدبير ذكر مع الليل سكنهم فيه، ومع النهار إبصارهم فيه الباعث لهم إلى أنواع الحركات والتنقلات لكسب مواد الحياة وإصلاح شئون المعاش فليس يتم أمر الحياة الإنسانية بالحركة فقط أو بالسكون فقط فدبر الله سبحانه الأمر في ذلك بظلمة الليل الداعية إلى تجديد تجهيز القوى بعد ما لحقها من العي والتعب والنصب وإلى الارتياح والأنس بالأهل والتمتع مما جمع واكتسب بالنهار والفراغ للعبودية، وبضوء النهار الباعث إلى الرؤية فالاشتياق فالطلب.

٤٦. تنزيه الله عن الولد والغنى عنه:

المقطع [٤٦] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُّ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِّ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٩٥»:

١. ﴿قالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الاستيلاد بمعناه المعروف عند الناس هو أن يفصل الموجود الحي بعض أجزاء مادته فيربيه بالحمل أو البيض تربية تدريجية حتى يتكون فردا مثله، والإنسان من بينها خاصة ربما يطلب الولد ليكون عونا له على نوائب الدهر وذخرا ليوم الفاقة، وهذا المعنى بجميع جهاته محال عليه تعالى فهو عز اسمه منزه عن الأجزاء متعال عن التدريج في فعله بريء عن المثل والشبه مستغن عن غيره بذاته.

ب. وقد نفى القرآن الولد عنه بالاحتجاج عليه من كل من الجهات المذكورة كما تعرض لنفيه من جميعها في قوله: ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] وقد مرت الإشارة إلى ذلك في تفسير الآيات في الجزء الأول من الكتاب.

ج. وأما الآية التي نحن فيها فهي مسوقة للاحتجاج على نفي الولد من الجهة الأخيرة فحسب وهو أن الغرض من وجوده الاستعانة به عند الحاجة وذلك إنما يتصور فيمن كان بحسب طبعه محتاجا فقيرا، والله سبحانه هو الغني الذي لا يخالطه فقر فإنه المالك لما فرض في السماوات والأرض من شيء.

٢. ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ﴾ أي برهان ﴿بِهذا﴾ إثبات لكونهم إنما قالوه جهلا من غير دليل فيكون محصل المعنى أنه لا دليل لكم على ما قلتموه بل الدليل على خلافه وهو أنه تعالى غني على الإطلاق،

والولد إنما يطلبه من به فاقة وحاجة، والكلام على ما اصطلح عليه في فن المناظرة من قبيل المنع مع السند.

٣. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ توبيخ لهم في قولهم ما ليس لهم به علم، وهو مما يستقبحه العقل الإنساني ولا سيما في ما يرجع إلى رب العالمين عز اسمه.

٤٧. الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون:

المقطع [٤٧] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩ـ٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٩٦»:

١. ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ تخويف وإنذار بشؤم العاقبة، وفي الآيتين من لطيف الالتفات ما هو ظاهر فقد حكى الله أولا عنهم من طريق الغيبة قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾ ثم خاطبهم خطاب الساخط الغضبان مما نسبوا إليه وافتروا عليه فقال: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ وإنما خاطبهم متنكرا من غير أن يعرفهم نفسه حيث قال: ﴿عَلَى اللهِ﴾ ولم يقل: علي أو علينا صونا لعظمة مقامه أن يخالطهم معروفا ثم أعرض عنهم تنزها عن ساحة جهلهم ورجع إلى خطاب رسوله قائلا: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ لأنه إنذار والإنذار شأنه.

٢. ﴿مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ﴾ خطاب للنبي ﷺ فيه بيان وجه عدم فلاحهم بأنه كفر بالله ليس بحذائه إلا متاع قليل في الدنيا ثم الرجوع إلى الله والعذاب الشديد الذي يذوقونه.

٤٨. قصة نوح ودعوته وتكذيب قومه وإنجائه:

المقطع [٤٨] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: ٧١ـ٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٠٢»:

١. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ إلى آخر الآية:

أ. المقام مصدر ميمي واسم زمان ومكان من القيام، والمراد به الأول أو الثالث أي قيامي بأمر الدعوة إلى توحيد الله أو مكانتي ومنزلتي وهي منزلة الرسالة، والإجماع العزم وربما يتعدى بعلى قال الراغب: (وأجمعت كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعا يتوسل إليه بالفكرة نحو فأجمعوا كيدكم وشركاءكم.

ب. والغمة هي الكربة والشدة وفيه معنى التغطية كان الهم يغطي القلب، ومنه الغمام للغيم سمي به لتغطيته وجه السماء، والقضاء إلى الشيء إتمام أمره بقتل وإفناء ونحو ذلك.

ج. ومعنى الآية: ﴿وَاتْلُ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ وخبره العظيم حيث واجه قومه وهو واحد يتكلم عن نفسه، وهو مرسل إلى أهل الدنيا فتحدى عليهم بأن يفعلوا به ما بدا لهم إن قدروا على ذلك، وأتم الحجة على مكذبيه في ذلك ﴿إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي﴾ ونهضتي لأمر الدعوة إلى التوحيد أو منزلتي من الرسالة ﴿وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللهِ﴾ وهو داعيكم لا محالة إلى قتلي وإيقاع ما تقدرون عليه من الشر بي لإراحة أنفسكم مني ﴿فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ﴾ قبال ما يهددني من تحرج صدوركم وضيق نفوسكم علي بإرجاع أمري إليه وجعله وكيلا يتصرف في شئوني ومن غير أن أشتغل بالتدبير ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ﴾ الذين تزعمون أنهم ينصرونكم في الشدائد، واعزموا علي بما بدا لكم، وهذا أمر تعجيزي، ﴿ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ إن لم تكونوا اجتهدتم في التوسل إلى كل سبب في دفعي ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ بدفعي وقتلي ﴿وَلا تُنْظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني.

د. وفي الآية تحديه عليه السلام على قومه بأن يفعلوا به ما بدا لهم، وإظهار أن ربه قدير على دفعهم عنه وإن أجمعوا عليه وانتصروا بشركائهم وآلهتهم.

٢. ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ إلى آخر الآية، تفريع على توكله بربه، وقوله: ﴿فَما سَأَلْتُكُمْ﴾ الآية، بمنزلة وضع السبب موضع المسبب والتقدير فإن توليتم وأعرضتم عن استجابة دعوتي فلا ضير لي في ذلك فإني لا أتضرر في إعراضكم شيئا لأني إنما كنت أتضرر بإعراضكم عني لو كنت سألتكم أجرا على ذلك يفوت بالإعراض وما سألتكم عليه من أجر إن أجري إلا على الله.

٣. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي الذين يسلمون الأمر إليه فيما أراده لهم وعليهم، ولا يستكبرون عن أمره بالتسليم لسائر الأسباب الظاهرة حتى يخضعوا لها ويتوقعوا به إيصال نفع أو دفع شر.

٤. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ﴾ إلى آخر الآية، الخلائف جمع خليفة

أي جعلنا هؤلاء الناجين خلائف في الأرض والباقين من بعدهم يخلفون سلفهم ويقومون مقامهم، والباقي ظاهر.

٤٩. بعث الرسل من بعد نوح والطبع على قلوب المعتدين:

المقطع [٤٩] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٠٣»:

١. ﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. يريد بالرسل من جاء منهم بعد نوح إلى زمن موسى عليه السلام، وظاهر السياق أن المراد بالبينات الآيات المعجزة التي اقترحتها الأمم على أنبيائهم بعد مجيئهم ودعوتهم وتكذيبهم لهم فأتوا بها وكان فيها القضاء بينهم وبين أممهم، ويؤيده قوله بعده: ﴿فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية، فإن السابق إلى الذهن أنهم جاءوهم بالآيات البينات لكن الله قد كان طبع على قلوبهم لاعتدائهم فلم يكن في وسعهم أن يؤمنوا ثانيا بما كذبوا به أولا.

ب. ولازم ذلك أن يكون تكذيبهم بذلك قبل مجيء الرسل بتلك الآيات البينات فقد كانت الرسل بثوا دعوتهم فيهم ودعوهم إلى توحيد الله فكذبوا به وبهم ثم اقترحوا عليهم آية معجزة فجاءوهم بها فلم يؤمنوا.

٢. وقد أسلفنا بعض البحث عن هذه الآية في تفسير قوله: ﴿فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١] في الجزء الثامن من الكتاب، وبينا هناك أن في الآية إشارة إلى عالم الذر غير أنه لا ينافي إفادتها لما قدمناه من المعنى آنفا فليراجع.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، عن محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن محمد بن إسماعيل عن صالح بن عقبة عن عبد الله بن محمد الجعفي وعقبة جميعا عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله عز وجل خلق الخلق، فخلق من أحب مما أحب، فكان مما أحب أن خلقه من طين الجنة، وخلق من أبغض مما أبغض، وكان ما أبغضه أن خلقه من طينة النار، ثم بعثهم في الظلال، فقلت: وأي شيء الظلال؟ فقال: ألم تر إلى ظلك في

الشمس شيء وليس بشيء، ثم بعث منهم النبيين، فدعوهم إلى الإقرار بالله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ ثم دعوهم إلى الإقرار بالنبيين، فأقر بعض وأنكر بعض، ثم دعوهم إلى ولايتنا فأقر بها والله من أحب، وأنكرها من أبغض، وهو قوله: ﴿فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: كان التكذيب من قبل.

• أقول: ورواه في العلل، بإسناده إلى محمد بن إسماعيل عن صالح عن عبد الله وعقبة عنه عليه السلام، ورواه العياشي عن الجعفي عنه (عليه السلام)

ب. وفي تفسير العياشي، عن زرارة وحمران عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام: خلق الخلق وهم أظلة، فأرسل رسوله محمدا ﷺ، فمنهم من آمن به ومنهم من كذبه، ثم بعثه في الخلق الآخر فآمن به من كان آمن به في الأظلة، وجحده من جحده يومئذ فقال: ﴿فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾

• أقول: قد فصلنا القول في ما يسمى عالم الذر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى﴾ الآية، وأوضحنا هناك أن آيات الذر تثبت عالما إنسانيا آخر غير هذا العالم الإنساني المادي التدريجي المشوب بالآلام والمصائب والمعاصي والآثام المشهود لنا من طريق الحس، وهو مقارن لهذا العالم المحسوس نوعا من المقارنة لكنه غير محكوم بهذه الأحكام المادية، وليس تقدمه على عالمنا هذا تقدما بالزمان بل بنوع آخر من التقدم نظير التقدم المستفاد من قوله: ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فإن (كن) و(يكون) يحكيان عن مصداق واحد وهو وجود الشيء خارجا لكن هذا الوجود بعينه بوجهه الذي إلى الله متقدم عليه بوجهه الآخر، وهو بوجهه الرباني غير تدريجي ولا زماني ولا غائب عن ربه ولا منقطع عنه بخلاف وجهه إلى الخلق على التفصيل الذي تقدم هناك.

• والذي أوردناه من الرواية في هذا البحث الروائي تشير إلى عالم الذر كالذي مرت سابقا غير أنها تختص بمزية وهي ما فيها من لطيف التعبير بالظلال فإن بإجادة التأمل في هذا التعبير يتضح المراد أحسن الاتضاح فإن في الأشياء الكونية أمورا هي كالظلال في أنها لازمة لها حاكية لخصوصيات وجودها وآثار وجودها، ومع ذلك فهي هي وليست هي.

• فإنا إذا نظرنا إلى الأشياء وجردنا النظر ومحضناه في كونها صنع الله وفعله المحض غير المنفك منه

ولا المنفصل عنه، وهي نظرة حقة واقعية، لم يتحقق فيها إلا التسليم لله والخضوع لإرادته والتذلل لكبريائه والتعلق برحمته وأمر ربوبيته والإيمان بوحدانيته وبما أرسل به رسله وأنزله إليهم من دينه.

• وهذه الوجودات ظلال، أشياء وليست بأشياء، إذا قيست إلى وجودات الأشياء المادية، وأخذ العالم المادي أصلا مقيسا إليه وهو الذي بنت عليه الآيات من جهة كون غرضها بيان ثبوت التكليف بالتوحيد تكليفا لا محيص عنه مسئولا عنه يوم القيامة.

• ولو أخذت جهة الرب تعالى أصلا وقيس إليه هذا العالم المادي بما فيه من الموجودات المادية، وهو أيضا نظر حق، كان هذا العالم هو الظل وكانت جهة الرب تعالى هو الأصل والشخص الذي له الظل كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، [القصص: ٨٨] وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ﴾، [الرحمن: ٢٧]

• وأما ما رواه العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ قال: (بعث الله الرسل إلى الخلق، وهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فمن صدق حينئذ صدق بعد ذلك، ومن كذب حينئذ كذب بعد ذلك)، فظاهره أن للبعث تعلقا بالنطف التي في الأصلاب والأرحام، وهم أحياء عقلاء مكلفون، وهذا مما يدفعه الضرورة كما تقدم في الكلام على آية الذر اللهم إلا أن يحمل على أن المراد كون عالم الذر محيطا بهذا العالم المادي التدريجي الزماني من جهة كونه غير زماني فلا يتعلق الوجود الذري بزمان دون زمان وهو مع ذلك محمل بعيد.

٥٠. إرسال موسى وهارون إلى فرعون واتهامها بالسحر:

المقطع [٥٠] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٥-٧٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٠٨»:

١. ﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهارُونَ﴾ الآية، أي ثم بعثنا من بعد نوح والرسل الذين من بعده موسى وأخاه هارون بآياتنا إلى فرعون والجماعة الذين يختصون به من قومه وهم القبط فاستكبروا عن

آياتنا وكانوا مستمرين على الاجرام.

٢. ﴿فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا﴾ الآية، الظاهر أن المراد بالحق هو الآية الحقة كالثعبان واليد البيضاء، وقد جعلهما الله آية لرسالته بالحق فلما جاءهم الحق قالوا وأكدوا القول: إن هذا، يشيرون إلى الحق من الآية، لسحر مبين واضح كونه سحرا، وإنما سمى الآية حقا قبال تسميتهم إياها سحرا.

٣. ﴿قالَ مُوسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا﴾ الآية، أي فلما سمع مقالتهم تلك ورميهم الحق بأنه سحر مبين قال لهم منكرا لقولهم في صورة الاستفهام: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ﴾ إنه لسحر؟ ثم كرر الإنكار مستفهما بقوله: ﴿أَسِحْرٌ هذا﴾؟ فمقول القول في الجملة الاستفهامية محذوف إيجازا لدلالة الاستفهام الثاني عليه، وقوله: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ يمكن أن يكون جملة حالية معللة للإنكار الذي يدل عليه قوله: ﴿أَسِحْرٌ هذا﴾، ويمكن أن يكون إخبارا مستقلا بيانا للواقع يبرئ به نفسه من أن يقترف السحر لأنه يرى لنفسه الفلاح وللساحرين أنهم لا يفلحون.

٤. ﴿قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ الآية، اللفت هو الصرف عن الشيء، والمعنى: قال فرعون وملؤه لموسى معاتبين له: ﴿أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا﴾ وتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ يريدون سنة قدمائهم وطريقتهم ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ﴾ يعنون الرئاسة والحكومة وانبساط القدرة ونفوذ الإرادة يؤمون بذلك أنكما اتخذتما الدعوة الدينية وسيلة إلى إبطال طريقتنا المستقرة في الأرض، ووضع طريقة جديدة أنتما واضعان مبتكران لها موضعها تحوزان بإجرائها في الناس وإيماننا بكما وطاعتنا لكما الكبرياء والعظمة في المملكة.

٥. وبعبارة أخرى إنما جئتما لتبدلا الدولة الفرعونية المتعرقة في القبط إلى دولة إسرائيلية تدار بإمامتكما وقيادتكما، وما نحن لكما بمؤمنين حتى تنالا بذلك أمنيتكما وتبلغا غايتكما من هذه الدعوة المزورة.

٥١. فرعون يجمع السحرة وموسى يبطل سحرهم:

المقطع [٥١] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٧٩ـ٨٢]،

وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١١٠»:

١. ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ﴾ كان يأمر به ملأه فيعارض بسحر السحرة معجزة موسى كما فصل في سائر الآيات القاصة للقصة وتدل عليه الآيات التالية.

٢. ﴿فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا﴾ الآية، أي لما جاءوا وواجهوا موسى وتهيئوا لمعارضته قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقوه من الحبال والعصي، وقد كانوا هيئوها ليلقوها فيظهروها في صور الحيات والثعابين بسحرهم.

٣. ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾:

أ. ما قاله عليه السلام بيان لحقيقة من الحقائق لينطبق عليها ما سيظهره الله من الحق على يديه من صيرورة العصا ثعبانا يلقف ما ألقوه من الحبال والعصي وأظهروه في صور الحيات والثعابين بسحرهم.

ب. والحقيقة التي بينها لهم أن الذي جاءوا به سحر والسحر شأنه إظهار ما ليس بحق واقع في صورة الحق الواقع لحواس الناس وأنظارهم، وإذ كان باطلا في نفسه فإن الله سيبطله لأن السنة الإلهية جارية على إقرار الحق وإحقاقه في التكوين وإزهاق الباطل وإبطاله فالدولة للحق وإن كانت للباطل جولة أحيانا.

ج. ولذا علل قوله: ﴿إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فإن الصلاح والفساد شأنان متقابلان، وقد جرت السنة الإلهية أن يصلح ما هو صالح ويفسد ما هو فاسد أي إن يرتب على كل منهما أثره المناسب له المختص به وأثر العمل الصالح أن يناسب ويلائم سائر الحقائق الكونية في نظامها الذي تجري هي عليه، ويمتزج بها ويخالطها فيصلحه الله سبحانه ويجريه على ما كان من طباعه، وأثر العمل الفاسد أن لا يناسب ولا يلائم سائر الحقائق الكونية فيما تقتضيه بطباعها وتجري عليه بجبلتها فهو أمر استثنائي في نفسه، ولو أصلحه الله في فساده كان ذلك إفسادا للنظام الكوني، فيعارضه سائر الأسباب الكونية بما لها من القوى والوسائل المؤثرة، وتعيده إلى السيرة الصالحة إن أمكن وإلا أبطلته وأفنته ومحته عن صحيفة الوجود البتة.

د. وهذه الحقيقة تستلزم أن السحر وكل باطل غيره لا يدوم في الوجود وقد قررها الله سبحانه في كلامه في مواضع مختلفة كقوله: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وقوله: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، ومنها قوله في هذه الآية: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، وأكده بتقريره في جانب الإثبات بقوله في الآية التالية: ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الحَقَ بِكَلِماتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ كما سيأتي توضيحه.

٤. ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾:

أ. لما كشف الله عن الحقيقة المتقدمة في جانب النفي بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أبان عنه في جانب الإثبات أيضا في هذه الآية بقوله: ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ﴾ وقد جمع تعالى بين معنيي النفي والإثبات في قوله: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]

ب. ومن هنا يقوى احتمال أن يكون المراد بالكلمات في الآية أقسام الأقضية الإلهية في شئون الأشياء الكونية الجارية على الحق فإن قضاء الله ماض وسنته جارية أن يضرب الحق والباطل في نظام الكون ثم لا يلبث الباطل دون أن يفنى ويعفى أثره ويبقى الحق على جلائه، وذلك قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، وسيجيء استيفاء البحث فيه في ذيل الآية إن شاء الله تعالى.

ج. والحاصل أن موسى عليه السلام إنما ذكر هذه الحقيقة لهم ليوقفهم على سنة إلهية حقة غفلوا عنها، وليهيئ نفوسهم لما سيظهره عملا من غلبة الآية المعجزة على السحر وظهور الحق على الباطل، ولذا بادروا إلى الإيمان حين شاهدوا المعجزة، وألقوا أنفسهم على الأرض ساجدين على ما فصله الله سبحانه في مواضع أخرى من كلامه.

٥. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذكر الاجرام من بين أوصافهم لأن فيه معنى القطع فكأنهم قطعوا سبيل الحق على أنفسهم وبنوا على ذلك بنيانهم فهم على كراهية من ظهور الحق، ولذلك نسب الله كراهة ظهور الحق إليهم بما هم مجرمون في قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ وفي معناه قوله في أول الآيات: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾

٥٢. إيمان قليل من قوم موسى خوفاً من فرعون:

المقطع [٥٢] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ

عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١١١»:

١. ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. ذكر بعض المفسرين أن الضمير في (قومه) راجع إلى فرعون، والذرية الذين آمنوا من قومه كانت أمهاتهم من بني إسرائيل وآباؤهم من القبط فتبعوا أمهاتهم في الإيمان بموسى، وقيل: الذرية بعض أولاد القبط، وقيل: أريد بها امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون، وقد ذكرا في القرآن وجارية وامرأة هي مشاطة امرأة فرعون.

ب. وذكر آخرون أن الضمير لموسى عليه السلام والمراد بالذرية جماعة من بني إسرائيل تعلموا السحر وكانوا من أصحاب فرعون، وقيل: هم جميع بني إسرائيل وكانوا ستمائة ألف نسمة سماهم ذرية لضعفهم، وقيل: ذرية آل إسرائيل ممن بعث إليهم موسى وقد هلكوا بطول العهد، وهذه الوجوه، كما ترى، لا دليل على شيء منها في الآيات من جهة اللفظ.

ج. والذي يفيده السياق وهو الظاهر من الآية أن يكون الضمير راجعا إلى موسى والمراد بالذرية من قوم موسى بعض الضعفاء من بني إسرائيل دون ملئهم الأقوياء والشرفاء، والاعتبار يساعد على ذلك فإنهم جميعا كانوا أسراء للقبط محكومين بحكمهم بأجمعهم، والعادة الجارية في أمثال هذه الموارد أن يتوسل الشرفاء والأقوياء بأي وسيلة أمكنت إلى حفظ مكانتهم الاجتماعية وجاههم القومي، ويتقربوا إلى الجبار المسيطر عليهم بإرضائه بالمال والتظاهر بالخدمة ومراءاة النصح والتجنب عما لا يرتضيه فلم يكن في وسع الملإ من بني إسرائيل أن يعلنوا موافقة موسى على بغيته، ويتظاهروا بالإيمان به.

د. على أن قصص بني إسرائيل في القرآن أعدل شاهد على أن كثيرا من عتاة بني إسرائيل ومستكبريهم لم يؤمنوا بموسى إلى أواخر عهده وإن كانوا يتسلمون له ويطيعونه في عامة أوامره التي كان يصدرها لبذل المساعي في سبيل نجاة بني إسرائيل لما كان فيها صلاح قوميتهم وحرية شعبهم ومنافع أشخاصهم، فالإطاعة في هذه الأمور أمر والإيمان بالله وما جاء به الرسول أمر آخر.

هـ. ويستقيم على هذا معنى قوله: ﴿وَمَلَائِهِمْ﴾ بأن يكون الضمير إلى الذرية ويفيد الكلام أن الذرية الضعفاء كانوا في إيمانهم يخافون الملأ والأشراف من بني إسرائيل فإنهم ربما كانوا يمنعونهم لعدم

إيمانهم أنفسهم أو تظاهروا بذلك ليرضوا به فرعون وقومه ويطيبوا أنفسهم فلا يضيقوا عليهم وينقصوا من إيذائهم والتشديد عليهم.

و. وأما ما قيل: إن الضمير راجع إلى فرعون لأنه ذو أصحاب أو للذرية لأنهم كانوا من القبط فمما لا يصار إليه البتة وخاصة أول الوجهين.

٢. ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾:

أ. أي يعذبهم ليعودوا إلى ملته وقوله: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي والظرف هذا الظرف وهو أن فرعون عال في الأرض مسرف في الأمر.

ب. فالمعنى، والله أعلم، فتفرع على قصة بعثهما واستكبار فرعون وملئه أنه لم يؤمن بموسى إلا ضعفاء من بني إسرائيل وهم يخافون ملأهم ويخافون فرعون أن يعذبهم لإيمانهم وكان ينبغي لهم ومن شأنهم أن يخافوا فإن فرعون كان يومئذ عاليا في الأرض مسلطا عليهم وإنه كان من المسرفين لا يعدل فيما يحكم ويجاوز الحد في الظلم والتعذيب.

ج. ولو صح أن يراد بقومه كل من بعث إليهم موسى وبلغهم الرسالة وهم القبط وبنو إسرائيل استقام الكلام من طريق آخر من غير حاجة إلى ما تقدم من تكلفاتهم.

٥٣. موسى يأمر قومه بالتوكل على الله:

المقطع [٥٣] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١١٣»:

١. ﴿وَقالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾:

أ. لما كان الإيمان بالله بما يفيده للمؤمن من العلم بمقام ربه ولو إجمالا وأنه سبب فوق الأسباب إليه ينتهي كل سبب، وهو المدبر لكل أمر، يدعوه إلى تسليم الأمر إليه والتجنب عن الاعتماد بظاهر ما يمكنه التسبب به من الأسباب فإنه من الجهل، ولازم ذلك إرجاع الأمر إليه والتوكل عليه، وقد أمرهم في الآية بالتوكل على الله، علقه أولا على الشرط الذي هو الإيمان ثم تمم الكلام بالشرط الذي هو الإسلام.

ب. فالكلام في تقدير: إن كنتم آمنتم بالله ومسلمين له فتوكلوا عليه، وقد فرق بين الشرطين ولعله

لم يجمع بينهما فيقول: (إن كنتم آمنتم وأسلمتم فتوكلوا) لاختلاف الشرطين بحسب الحال فقد كان الإيمان واقعا محرزا منهم، وأما الإسلام فهو من كمال الإيمان، وليس من الواجب الضروري أن يكون كل مؤمن مسلما بل من الأولى الأحرى أن يكمل إيمانه بالإسلام، فالتفريق بين الشرطين للإشعار بكون أحدهما واجبا واقعا منهم، والآخر مما ينبغي لهم أن يتحققوا به فالمعنى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله، وقد آمنتم، وكنتم مسلمين له، وينبغي أن تكونوا كذلك، فتوكلوا على الله ففي الكلام من لطيف الصنعة ما لا يخفى.

٢. ﴿فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إلى آخر الآيتين، إنما توكلوا على الله لينجيهم من فرعون وملئه فدعاؤهم بما دعوا به من قولهم: ﴿رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً﴾ الآية، سؤال منهم نتيجة توكلهم وهو أن ينزع الله منهم لباس الضعف والذلة، وينجيهم من القوم الكافرين:

أ. أما الأول فقد أشاروا إليه بقولهم: ﴿رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وذلك أن الذي يغري الأقوياء الظالمين على الضعفاء المظلومين هو ما يشاهدون فيهم من الضعف فيفتتنون به فيظلمونهم فالضعيف بما له من الضعف فتنة للقوي الظالم كما أن الأموال والأولاد بما عندها من جاذبة الحب فتنة للإنسان قال تعالى: ﴿إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، والدنيا فتنة لطالبها فسؤالهم ربهم أن لا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين سؤال منهم أن يسلبهم الضعف والذلة بسلب الغرض منه وهو سلب الشيء بسلب سببه.

ب. وأما الثاني أعني التنجية فهو الذي ذكره حكاية عنهم في الآية الثانية: ﴿وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾

٥٤. الوحي إلى موسى وهارون باتخاذ البيوت قبلة وإقامة الصلاة:

المقطع [٥٤] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١١٤»:

١. ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾ الآية، التبوي أخذ المسكن والمنزل، ومصر بلد فرعون، والقبلة في الأصل بناء نوع من المصدر كجلسة أي الحالة التي يحصل بها التقابل بين الشيء وغيره فهو مصدر بمعنى الفاعل أي اجعلوا بيوتكم متقابلة يقابل بعضها بعضا وفي جهة واحدة

وكان الغرض أن يتمكنا منهم بالتبليغ ويتمكنوا من إقامة الصلاة جماعة كما يدل عليه أو يشعر به قوله بعده: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ لوقوعه بعده.

٢. وأما قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فالسياق يدل على أن المراد به البشارة بإجابة ما سألوه في دعائهم المذكور آنفا: ﴿رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً﴾ إلى آخر الآيتين.

٣. والمعنى: وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتخذا لقومكما مساكن من البيوت في مصر، وكأنهم لم يكونوا إلى ذاك الحين إلا كهيئة البدويين يعيشون في الفساطيط أو عيشة تشبهها، واجعلا أنتما وقومكما بيوتكم متقابلة وفي جهة واحدة يتصل بذلك بعضكم ببعض ويتمشى أمر التبليغ والمشاورة والاجتماع في الصلوات، وأقيموا الصلاة وبشر يا موسى أنت المؤمنين بأن الله سينجيهم من فرعون وقومه.

٥٥. دعاء موسى على فرعون وقومه واستجابة الله:

المقطع [٥٥] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨-٨٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١١٥»:

١. ﴿وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً﴾ الآية، الزينة بناء نوع من الزين وهي الهيأة التي تجذب النفس إلى الشيء، والنسبة بين الزينة والمال العموم من وجه فبعض الزينة ليس بمال يبذل بإزائه الثمن كحسن الوجه واعتدال القامة، وبعض المال ليس بزينة كالأنعام والأراضي، وبعض المال زينة كالحلي والتقابل الواقع بين الزينة والمال يعطي أن يكون المراد بالزينة جهة الزينة من غير نظر إلى المالية كالحلي والرياش والأثاث والأبنية الفاخرة وغيرها.

٢. ﴿رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾:

أ. قيل اللام للعاقبة، والمعنى وعاقبة أمرهم أنهم يضلون عن سبيلك ولا يجوز أن يكون لام الغرض لأنا قد علمنا بالأدلة الواضحة أن الله سبحانه لا يبعث الرسول ليأمر الخلق بالضلال ولا يريد أيضا منهم الضلال، وكذلك لا يؤتيهم المال ليضلوا، وهو حق لكن في الإضلال الابتدائي المستحيل عليه تعالى، وأما الإضلال بعنوان المجازاة ومقابلة السوء بالسوء فلا دليل على امتناعه على الله سبحانه بل يثبته

كلامه في موارد كثيرة، وقد كان فرعون وملؤه مصرين على الاستكبار والإفساد ملحين على الاجرام فلا مانع من أن يؤتيهم الله بذلك زينة وأموالا ليضلوا عن سبيله جزاء بما كسبوا.

ب. وربما قيل: إن اللام في (ليضلوا) للدعاء، وربما قيل: إن الكلام بتقدير لا أي لئلا يضلوا عن سبيلك، والسياق لا يساعد على شيء من الوجهين.

ج. والطمس، كما قيل، تغير إلى الدثور والدروس فمعنى (اطمس على أموالهم) غيرها إلى الفناء والزوال.

٣. ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ من الشد المقابل للحل أي أقس قلوبهم واربط عليها ربطا لا ينشرح للحق فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فهو الطبع على القلوب، وقول بعضهم: إن المراد بالشد تثبيتهم على المقام بمصر بعد الطمس على أموالهم ليكون ذلك أشد عليهم وآلم، وكذا قول آخرين: إنه كناية عن إماتتهم وإهلاكهم من الوجوه البعيدة.

٤. فمعنى الآية: وقال موسى، وكان ذلك بعد يأسه من إيمان فرعون وملئه ويقينه بأنهم لا يدومون إلا على الضلال والإضلال كما يدل عليه سياق كلامه في دعائه، ربنا إنك جازيت فرعون وملأه على كفرهم وعتوهم جزاء السوء فآتيتهم زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا إرادة منك لأن يضلوا من اتبعهم عن سبيلك، وإرادتك لا تبطل وغرضك لا يلغو ربنا أدم على سخطك عليهم واطمس على أموالهم وغيرها عن مجرى النعمة إلى مجرى النقمة واجعل قلوبهم مشدودة مربوطة فلا يؤمنوا حتى يقفوا موقفا لا ينفعهم الإيمان وهو زمان يرون فيه العذاب الإلهي.

٥. وهذا الدعاء من موسى عليه السلام على فرعون وملئه إنما هو بعد يأسه التام من إيمانهم، وعلمه أنه لا يترقب منهم في الحياة إلا أن يضلوا ويضلوا كدعاء نوح على قومه فيما حكاه الله: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٧]، وحاشا ساحة الأنبياء عليهم‌السلام أن يتكلموا على الخرص والمظنة في موقف يشافهون فيه رب العالمين جلت كبرياؤه وعز شأنه.

٦. ﴿قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ الآية:

أ. خطاب على ما يدل عليه السياق، لموسى وهارون ولم يحك الدعاء في الآية السابقة إلا عن

موسى، وهذا يؤيد ما ذكره المفسرون: أن موسى عليه السلام كان يدعو، وكان هارون يؤمن له وآمين دعاء فقد كانا معا يدعوان وإن كان متن الدعاء لموسى عليه السلام وحده.

ب. والاستقامة هو الثبات على الأمر، وهو منهما عليه السلام الثبات على الدعوة إلى الله وعلى إحياء كلمة الحق، والمراد بالذين لا يعلمون الجهلة من شعب إسرائيل وقد وصفهم موسى عليه السلام بالجهل كما في قوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]

ج. والمعنى: (قال) الله مخاطبا لموسى وهارون ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ من سؤال العذاب الأليم لفرعون وملئه، والطمس على أموالهم والشد على قلوبهم ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ واثبتا على ما أمرتما به من الدعوة إلى الله وإحياء كلمة الحق ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ﴾ البتة ﴿سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بإجابة ما يقترحون عليكما عن أهواء أنفسهم ودواعي شهواتهم، وفيه نوع تلويح إلى أنهم سيسألون أمورا فيها إحياء سنتهم القومية وسيرتهم الجاهلية.

د. وبالجملة فالآية تذكر إجابة دعوتهما المتضمنة لعذاب فرعون وملئه وعدم توفيقهم للإيمان ووعدهما بذلك ولذلك ذكر في الآية التالية وفاؤه تعالى بهذا الوعد بخصوصيته التي فيه.

هـ. ولم يكن في الدعاء ما يدل على مسألة الفور أو التراخي في القضاء عليهم بالعذاب وعلى ذلك جرى أيضا سياق الآية الدالة على القبول والإجابة وكذا الآية المخبرة عن كيفية إنجازه، وقد نقل في المجمع: (عن ابن جريج: أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنة: قال: وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام، ورواه عنه عليه السلام في الإحتجاج، وكذا في الكافي، وتفسير العياشي، عن هشام بن سالم عنه عليه السلام وفي تفسير القمي، عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عنه (عليه السلام)

٥٦. إيمان فرعون عند الغرق وتنجية بدنه آية:

المقطع [٥٦] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١١٧»:

١. ﴿وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً﴾ إلى آخر الآية، البغي والعدو كالعدوان الظلم وإدراك الشيء اللحوق به والتسلط عليه كما أن إتباع الشيء طلب اللحوق به.

٢. ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ﴾:

أ. أي آمنت بأنه.

ب. وقد وصف الله بالذي آمنت به بنو إسرائيل ليظفر بما ظفروا به بإيمانهم وهو مجاوزة البحر والأمان من الغرق، ولذلك أيضا جمع بين الإيمان والإسلام ليزيل بذلك أثر ما كان يصر عليه من المعصية وهو الشرك بالله والاستكبار على الله، والباقي ظاهر.

٣. ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ آلآن بالمد أصله ءألآن أي أتؤمن بالله الآن وهو حين أدركك العذاب ولا إيمان وتوبة حين غشيان العذاب ومجيء الموت من كل مكان، وقد عصيت قبل هذا وكنت من المفسدين، وأفنيت أيامك في معصيته، ولم تقدم التوبة لوقتها فما ذا ينفعك الإيمان بعد فوت وقته وهذا هو الذي كان موسى وهارون سألاه ربهما أن يأخذه بعذاب أليم ويسد سبيله إلى الإيمان إلا حين يغشاه العذاب فلا ينفعه الإيمان ولا تغني عنه التوبة شيئا.

٤. ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ﴾:

أ. التنجية والإنجاء تفعيل وإفعال من النجاة كالتخليص والإخلاص من الخلاص وزنا ومعنى.

ب. وتنجيته ببدنه تدل على أن له أمرا آخر وراء البدن فقده بدنه بغشيان العذاب وهو النفس التي تسمى أيضا روحا، وهذه النفس المأخوذة هي التي يتوفاها الله ويأخذها حين موتها كما قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وهي التي يخبر عنها الإنسان بقوله: (أنا) وهي التي بها تتحقق للإنسان إنسانيته، وهي التي تدرك وتريد وتفعل الأفعال الإنسانية بواسطة البدن بما له من القوى والأعضاء المادية، وليس للبدن إلا أنه آلة وأداة تعمل بها النفس أعمالها المادية.

ج. ولمكان الاتحاد الذي بينها وبين البدن يسمى باسمها البدن وإلا فأسماء الأشخاص في الحقيقة لنفوسهم لا لأبدانهم، وناهيك في ذلك التغير المستمر الذي يعرض البدن مدة الحياة، والتبدل الطبيعي الذي يطرء عليه حينا بعد حين حتى ربما تبدل البدن بجميع أجزائه إلى أجزاء أخر تتركب بدنا آخر فلو

كان زيد هو البدن الذي ولدته أمه يوم ولدته والاسم له لكان غيره وهو ذو سبعين وثمانين قطعا والاسم لغيره حتما، ولم يثب ولم يعاقب الإنسان وهو شائب على ما عمله وهو شاب لأن الطاعة والمعصية لغيره.

د. فهذه وأمثالها شواهد قطعية على أن إنسانية الإنسان بنفسه دون بدنه، والأسماء للنفوس لا للأبدان يدركها الإنسان ويعرفها إجمالا وإن كان ربما أنكرها في مقام التفصيل.

هـ. وبالجملة فالآية: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ كالصريح أو هو صريح في أن النفوس وراء الأبدان، وأن الأسماء للنفوس دون الأبدان إلا ما يطلق على الأبدان بعناية الاتحاد.

و. فمعنى ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ نخرج بدنك من أليم وننجيه، وهو نوع من تنجيتك، لما بين النفس والبدن من الاتحاد القاضي بكون العمل الواقع على أحدهما واقعا بنحو على الآخر، لتكون لمن خلفك آية، وهذا بوجه نظير قوله تعالى: ﴿مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥] فإن الذي يعاد إلى الأرض هو جسد الإنسان دون الإنسان التام فليست نسبة الإعادة إلى الإنسان إلا لما بين نفسه وبدنه من الاتحاد.

ز. وقد ذكر المفسرون أن الإنجاء والتنجية لما كان دالا بلفظه على سلامة الذي أنجي إنجاء كان مفاد قوله: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ أن يكون فرعون خارجا من أليم حيا وقد أخرجه الله ميتا فالمتعين أخذ قوله: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ من النجوة وهي الأرض المرتفعة التي لا يعلوها السيل، والمعنى اليوم نخرج بدنك إلى نجوة من الأرض.

ح. وربما قال بعضهم إن المراد بالبدن الدرع، وقد كان لفرعون درع من ذهب يعرف به فأخرجه الله فوق الماء بدرعه ليكون لمن خلفه آية وعبرة، وربما قال بعضهم إن التعبير بالتنجية تهكم به، والحق أن هذا كله تكلف لا حاجة إليه، ولم يقل: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ وإنما قيل ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ ومعناه ننجي بدنك، والباء للآلية أو السببية، والعناية هي الاتحاد الذي بين النفس والبدن.

ط. على أن جعل ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ بمعنى نجعلك على نجوة من الأرض لا يفي بدفع الإشكال من أصله فإن الذي جعل على نجوة هو بدن فرعون على قولهم، وهو غير فرعون قطعا وإلا كان حيا سالما، ولا مناص إلا أن يقال: إن ذلك بعناية الاتحاد الذي بين الإنسان وبدنه، ولو صححت هذه العناية إطلاق اسم الإنسان على بدنه من غير نفس لكان لها أن تصحح نسبة التنجية إلى الإنسان من جهة وقوع التنجية ببدنه، وخاصة مع وجود القرينة الدالة على أن المراد بالتنجية هي التي للبدن دون التي للإنسان المستتبع

لحفظ حياته وسلامته نفسا وبدنا، والقرينة هي قوله: ﴿بِبَدَنِكَ﴾

٥٧. تمكين بني إسرائيل واختلافهم بعد العلم:

المقطع [٥٧] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٢٠»:

١. ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾:

أ. أي أسكناهم مسكن صدق، وإنما يضاف الشيء إلى الصدق نحو وعد صدق وقدم صدق ولسان صدق ومدخل صدق ومخرج صدق للدلالة على أن لوازم معناه وآثاره المطلوبة منه موجودة فيه صدقا من غير أن يكذب في شيء من آثاره التي يعدها بلسان دلالته الالتزامية لطالبه فوعد صدق مثلا هو الوعد الذي سيفي به واعده، ويسر بالوفاء به موعوده، ويحق أن يطمع فيه ويرجى وقوعه، فإن لم يكن كذلك فليس بوعد صدق بل وعد كذب كأنه يكذب في معناه ولوازم معناه.

ب. وعلى هذا فقوله: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ يدل على أن الله سبحانه بوأهم مبوءا يوجد فيه جميع ما يطلبه الإنسان من المسكن من مقاصد السكنى كطيب الماء والهواء وبركات الأرض ووفور نعمها والاستقرار فيها وغير ذلك، وهذه هي نواحي بيت المقدس والشام التي أسكن الله بني إسرائيل فيها وسماها الأرض المقدسة المباركة وقد قص القرآن دخولهم فيها.

ج. وأما قول بعضهم: إن المراد بهذا المبوء مصر دخلها بنو إسرائيل واتخذوا فيها بيوتا فأمر لم يذكره القرآن، على أنهم لو فرض دخولهم فيها ثانيا لم يستقروا فيها استقرارا مستمرا، وتسمية ما هذا شأنه مبوأ صدق مما لا يساعد عليه معنى اللفظ.

٢. والآية أعني قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى قوله ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾:

أ. مسوقة سوق الشكوى والعتبى، ويشهد به تذييلها بقوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ إلى آخر الآية بيان لعاقبة اختلافهم عن علم وبمنزلة أخذ النتيجة من القصة.

ب. والمعنى: أنا أتممنا على بني إسرائيل النعمة وبوأناهم مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات بعد

حرمانهم من ذلك مدة طويلة كانوا فيها في إسارة القبط فوحدنا شعبهم وجمعنا شملهم فكفروا النعمة وفرقوا الكلمة واختلفوا في الحق، ولم يكن اختلافهم عن عذر الجهل وإنما اختلفوا عن علم إن ربك يقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

٥٨. الشك وسؤال أهل الكتاب:

المقطع [٥٨] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يونس: ٩٤ـ٩٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٢٢»:

١. ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الشك الريب، والمراد بقوله: ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ المعارف الراجعة إلى المبدإ والمعاد والسنة الإلهية في القضاء على الأمم مما تقدم في السورة، وقوله: ﴿يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ﴿يَقْرَؤُنَ﴾ فعل مضارع استعمل في الاستمرار و﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ حال من الكتاب عامله متعلقة المقدر، والتقدير منزلا من قبلك، كل ذلك على ما يعطيه السياق.

ب. والمعنى ﴿فَإِنْ كُنْتَ﴾ أيها النبي ﴿فِي شَكٍّ﴾ وريب ﴿مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ﴾ من المعارف الراجعة إلى المبدإ والمعاد وما قصصنا عليك إجمالا من قصص الأنبياء الحاكية لسنة الله الجارية في خلقه من الدعوة أولا ثم القضاء بالحق ﴿فَسْئَلِ﴾ أهل الكتاب ﴿الَّذِينَ﴾ لا يزالون ﴿يَقْرَؤُنَ﴾ جنس ﴿الْكِتابَ﴾ منزلا من السماء ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ أقسم ﴿لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ المترددين.

ج. وهذا لا يستلزم وجود ريب في قلب النبي ﷺ ولا تحقق شك منه فإن هذا النوع من الخطاب كما يصح أن يخاطب من يجوز عليه الريب والشك كذلك يصح أن يخاطب به من هو على يقين من القول وبينه من الأمر على نحو التكنية عن كون المعنى الذي أخبر به المخبر مما تعاضدت عليه الحجج وتجمعت عليه الآيات فإن فرض من المخاطب أو السامع شك في واحدة منها كان له أن يأخذ بالأخرى.

د. وهذه طريقة شائعة في عرف التخاطب والتفاهم يأخذ بها العقلاء فيما بينهم جريا على ما تدعوهم إليه قرائحهم ترى الواحد منهم يقيم الحجة على أمر من الأمور ثم يقول: فإن شككت في ذلك

أو سلمنا أنها لا توجب المطلوب فهناك حجة أخرى على ذلك وهي أن كذا كذا وذلك كناية عن أن الحجج متوفرة متعاضدة كالدعائم المضروبة على ما لا يحتاج إلى أزيد من واحد منها لكن الغرض من تكثيرها هو أن تكون العريشة قائمة عليها على تقدير قيام الكل والبعض.

هـ. فيئول معنى الكلام إلى أن هذه معارف بينها الله لك بحجج تضطر العقول إلى قبولها وقصص تحكي سنة الله في خلقه والآثار تدل عليها، بينها في كتاب لا ريب فيه، فعلى ما بينه حجة وهناك حجة أخرى وهي أن أهل الكتب السماوية الموفين لها حق قراءتها يجدون ذلك فيما يقرءونه من الكتاب فهناك مبدأ ومعاد، وهناك دين إلهي بعث به رسله يدعون إليه، ولم يدعوا أمة من الأمم إلا انقسموا قبيلين مؤمن ومكذب فأنزل الله آية فاصلة بين الحق والباطل وقضى بينهم.

و. وهذا أمر لا يسع أهل الكتاب أن ينكروه، وإنما كانوا ينكرون بشارات النبي ﷺ وبعض ما يختص به الإسلام من المعارف وما غيروه في الكتب من الجزئيات، ومن لطيف الإشارة أن الله سبحانه لم يذكر في القصص المذكورة في هذه السورة قصة هود وصالح لعدم تعرض التوراة الموجودة عندهم لقصتهما وكذا قصة شعيب وقصة المسيح لعدم توافق أهل الكتاب عليها وليس إلا لمكان أن يستشهد في هذه الآية بما لا يمتنعون من تصديقه.

ز. فهذه الآية في إلقاء الحجة على النبي ﷺ وزانها وزان قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] في إلقاء الحجة إلى الناس.

ح. على أن السورة من أوائل السور النازلة بمكة، ولم تشتد الخصومة يومئذ بين المسلمين وأهل الكتاب وخاصة اليهود اشتدادها بالمدينة، ولم يركبوا بعد من العناد واللجاج ذاك المركب الصعب الذي ركبوه بعد هجرة النبي ﷺ، ونشوب الحروب بينهم وبين المسلمين حتى بلغوا المبلغ الذي قالوا: ﴿ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]

ط. فهذا ما يعطيه سياق الآية من المعنى، وأظنك إن أمعنت في تدبر الآية وسائر الآيات التي تناسبها مما يخاطب النبي ﷺ بحقية ما نزل إليه من ربه، ويتحدى على البشر بعجزهم عن إتيان مثله، وما يصف النبي ﷺ أنه على بصيرة من أمره، وأنه على بينه من ربه أقنعك ذلك فيما قدمناه من المعنى، وأغناك عن التمحلات التي ارتكبوها في تفسير الآية بما لا جدوى في نقلها والبحث عنها.

٢. ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ نهى عن الارتياب والامتراء أولا ثم ترقى إلى النهي عن التكذيب بآيات الله وهو العناد مع الحق استكبارا على الله فإن الآية لا تكون آية إلا مع وضوح دلالتها وظهور بيانها وتكذيب ما هذا شأنه لا يكون مبينا إلا على العناد واللجاج.

٣. ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ تفريع على التكذيب بآيات الله فهو نتيجته وعاقبته فهو المنهي عنه بالحقيقة، والمعنى: ولا تكن من الخاسرين، والخسران زوال رأس المال بانتقاصه أو ذهاب جميعه، وهو الإيمان بالله وآياته الذي هو رأس مال الإنسان في سعادة حياته في الدنيا والآخرة على ما يستفاد من الآية التالية حيث يعلل خسرانهم بأنهم لا يؤمنون.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن محمد بن سعيد الأسدي أن موسى بن محمد بن الرضا أخبره أن يحيى بن أكثم كتب إليه يسأله عن مسائل: (أخبرني عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من المخاطب بالآية؟ فإن كان المخاطب فيها النبي، فقد شك فيما أنزل الله، وإن كان المخاطب بها غيره فعلى غيره إذا نزل الكتاب، قال موسى: فسألت أخي عن ذلك، قال: فأما قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فإن المخاطب بذلك رسول الله ﷺ، ولم يكن في شك مما أنزل الله، ولكن قالت الجهلة: كيف لم يبعث إلينا نبيا من الملائكة؟ أنه لم يفرق بينه وبين غيره في الاستغناء، في المأكل والمشرب والمشي في الأسواق، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: فاسأل الذين يقرءون الكتاب، من قبلك بمحضر الجهلة هل بعث الله رسولا من قبلك، إلا وهو يأكل الطعام ويشرب ويمشي في الأسواق؟ ولك بهم أسوة، وإنما قال: فإن كنت في شك، ولم يكن ولكن ليتبعهم، كما قال له: ﴿فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ﴾، ولو قال: تعالوا نبتهل فنجعل لعنة الله عليكم، لم يكونوا يجيئون للمباهلة، وقد عرف أن نبيه مؤد عنه رسالته، وما هو من الكاذبين، كذلك عرف النبي ﷺ، أنه صادق فيما يقول، ولكن أحب أن ينصف من نفسه)

• أقول: ورواه الصدوق في المعاني، بإسناده عن موسى بن محمد بن علي، وهو يرجع إلى ما قدمناه، وقد ورد في بعض الروايات أن الآية نزلت ليلة المعراج فأمره الله أن يسأل أرواح الأنبياء عن ذلك، وهم

الذين أرادهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وروي الوجه أيضا عن الزهري لكن في انطباقه على لفظ الآية خفاء.

ب. أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في الآية قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل.

٥٩. الذين حقت عليهم كلمة الله لا يؤمنون حتى يروا العذاب:

المقطع [٥٩] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٢٤»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ الآية:

أ. تعليل للنهي السابق ببيان ما للمنهي عنه من الشأن فإن أصل النظم بحسب المعنى المستفاد من السياق أن يقال: لا تكونن من المكذبين لأن المكذبين لا يؤمنون فيكونون خاسرين لأن رأس مال السعادة هو الإيمان فوضع قوله ﴿الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ موضع (المكذبين) للأدلة على سبب الحكم وأن المكذبين إنما يخسرون لأن كلمة الله سبحانه تحق عليهم فالأمر على كل حال إلى الله سبحانه.

ب. والكلمة الإلهية التي حقت على المكذبين بآيات الله هي قوله يوم شرع الشريعة العامة لآدم وزوجته فمن بعدهما من ذريتهما: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً﴾إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]

ج. وهذا هو الذي يريده بقوله في مقام بيان سبب خسران المكذبين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وهم المكذبون حقت عليهم كلمة العذاب فهم ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ ولذلك كانوا خاسرين لأنهم ضيعوا رأس مال سعادتهم وهو الإيمان فحرموه وحرموا بركاته في الدنيا والآخرة، وإذ حق عليهم أنهم لا يؤمنون فلا سبيل لهم إلى الإيمان ولو جاءتهم كل آية ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ ولا فائدة في الإيمان الاضطراري.

د. وقد كرر الله سبحانه في كلامه هذا القول واستتباعه للخسران وعدم الإيمان كقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧]، وقوله: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾

[يس: ٧٠] أي بتكذيبهم بالآيات المستتبع لعدم إيمانهم فخسرانهم، وقوله: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥] إلى غير ذلك.

٢. وقد ظهر من الآيات:

أ. أولا أن العناد مع الحق والتكذيب بآيات الله يحق كلمة العذاب الخالد على الإنسان.

ب. وثانيا: أن رأس مال سعادة الحياة للإنسان هو الإيمان.

ج. وثالثا: أن كل إنسان فهو مؤمن لا محالة إما إيمانا اختياريا مقبولا يسوقه إلى سعادة الحياة الدنيا والآخرة، وإما إيمانا اضطراريا غير مقبول حيثما يرى العذاب الأليم.

٦٠. إيمان قوم يونس نفعهم فكشف عنهم العذاب:

المقطع [٦٠] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٢٥»:

١. ﴿فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ﴾ الآية:

أ. ظاهر السياق أن لولا للتحضيض، وأن المراد بقوله: ﴿آمَنَتْ﴾ الإيمان الاختياري الصحيح كما يشعر به قوله بعده: ﴿فَنَفَعَها إِيمانُها﴾ ولوقوع التحضيض على أمر ماض لم يتحقق أفادت الجملة معنى اليأس المساوق للنفي فاستقام الاستثناء الذي في قوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾

ب. والمعنى: هلا كانت قرية، من هذه القرى التي جاءتهم رسلنا فكذبوهم، آمنت قبل نزول العذاب إيمانا اختياريا فنفعها إيمانها، لا ولم يؤمن إلا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم بالحياة إلى حين آجالهم العادية الطبيعية، ومنه يعلم أن الاستثناء متصل.

٢. وذكر:

أ. بعضهم أن المعنى لم يكن فيما خلا أن يؤمن أهل قرية بأجمعهم حتى لا يشذ منهم أحد إلا قوم يونس فهلا كانت القرى كلها هكذا، وفيه أنه في نفسه معنى لا بأس فيه إلا أن الآية بلفظها لا تنطبق عليه بما فيه من الخصوصيات وهو ظاهر.

ب. وذكر بعض آخر: أن المعنى لم يكن معهودا من حال قرية من القرى أن يكفر ثم يؤمن فينفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم العذاب ومتعناهم، والإشكال عليه كالإشكال على سابقه.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن معمر قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: إن يونس أمره الله بما أمره فأعلم قومه، فأظلهم العذاب ففرقوا بينهم وبين أولادهم، وبين البهائم وأولادها ثم عجوا إلى الله وضجوا، فكف الله العذاب عنهم، الحديث.

• أقول: وسيأتي إن شاء الله قصة يونس وقومه في ذيل بعض الآيات المتعرضة لتفصيل قصته عليه السلام.

ب. أخرج ابن أبي حاتم واللالكائي في السنة عن علي بن أبي طالب قال: إن الحذر لا يرد القدر، وإن الدعاء يرد القدر، وذلك في كتاب الله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ﴾ الآية.

• أقول: وروي ما في معناه عن ابن النجار عن عائشة عن النبي ﷺ.

٦١. الإيمان لا يكون إلا بإذن الله والرجس على من لا يعقلون:

المقطع [٦١] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٩-١٠١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٢٦»:

١. ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾:

أ. أي لكنه لم يشأ ذلك فلم يؤمن جميعهم ولا يؤمن فالمشيئة في ذلك إلى الله سبحانه ولم يشأ ذلك فلا ينبغي لك أن تطمع فيه ولا أن تجتهد لذلك لأنك لا تقدر على إكراههم وإجبارهم على الإيمان، والإيمان الذي نريده منهم هو ما كان عن حسن الاختيار لا ما كان عن إكراه وإجبار.

ب. ولذلك قال بعد ذلك في صورة الاستفهام الإنكاري: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي بعد ما بينا أن أمر المشية إلى الله وهو لم يشأ إيمان جميع الناس فلا يؤمنون باختيارهم البتة لم يبق لك إلا أن تكره الناس وتجبرهم على الإيمان، وأنا أنكر ذلك عليك فلا أنت تقدر على ذلك ولا أنا أقبل

الإيمان الذي هذا نعته.

٢. ﴿وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾:

أ. لما ذكر في الآية السابقة أن الأمر إلى الله سبحانه لو شاء أن يؤمن أهل الأرض جميعا لآمنوا لكنه لم يشأ فلا مطمع في إيمان الجميع زاد في هذه الآية في بيان ذلك ما محصله أن الملك، بالكسر، لله فله أصالة التصرف في كل أمر لا يشاركه في ذلك مشارك إلا أن يأذن لبعض ما خلقه في بعض التصرفات.

ب. والإيمان بالله عن اختيار والاهتداء إليه أمر من الأمور يحتاج في تحققه إلى سبب يخصه، ولا يؤثر هذا السبب ولا يتصرف في الكون بإيجاد مسببه إلا عن إذن من الله سبحانه في ذلك لكن الله سبحانه بجعل الرجس والضلال على أهل العناد والجحود لم يأذن في إيمانهم، ولا رجاء في سعادتهم.

ج. ولو أنه تعالى أذن في ذلك لأحد لأذن في إيمان غير أولئك المكذبين فقوله: ﴿وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ حكم عام حقيقي ينيط تملك النفوس للإيمان إلى إذن الله، وقوله: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ الآية، يسلب عن الذين لا يعقلون استعداد حصول الإذن فيبقى غيرهم.

د. وقد أريد في الآية بالرجس ما يقابل الإيمان من الشك والريب بمعنى أنه هو المصداق المنطبق عليه الرجس في المقام لما قوبل بالإيمان، وقد عرف في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]

هـ. وقد أريد أيضا بقوله: ﴿الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ أهل التكذيب بآيات الله من جهة أنهم ممن حقت عليه كلمة العذاب فإنهم الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يعقلون قال: ﴿وَطَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣]

٣. ﴿قُلِ انْظُرُوا ماذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي من المخلوقات المختلفة المتشتتة التي كل واحد منها آية من آيات الله تعالى تدعو إلى الإيمان.

٤. ﴿وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ظاهره أن ﴿ما﴾ استفهامية والجملة مسوقة بداعي الإنكار وإظهار الأسف كقول الطبيب: بما ذا أعالج الموت؟ أي أنا أمرناك أن تنذرهم بقولنا: ﴿قُلِ انْظُرُوا ماذا فِي السَّماواتِ﴾ الآية، لكن أي تأثير للنذر فيهم أو للآيات فيهم وهم لا يؤمنون أي عازمون مجمعون على أن لا يؤمنوا بالطبع الذي على قلوبهم وربما قيل: إن ما نافية.

٥. أحاديث وآثار: في الكافي، والبصائر، مسندا عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الرجس هو الشك ولا نشك في ديننا أبدا.

٦٢. الكفار ينتظرون مثل أيام الذين خلوا من قبلهم:

المقطع [٦٢] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٢-١٠٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٢٧»:

١. ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾:

أ. تفريع على ما في الآية السابقة من قوله: ﴿وَما تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إذا لم تغن الآيات والنذر عنهم شيئا وهم لا يؤمنون البتة فهم لا ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، وإنما يحبسون نفوسهم لآية العذاب الإلهي التي تفصل بينك وبينهم فتقضي عليهم لأنهم حقت عليهم كلمة العذاب.

ب. ولذا أمر النبي ﷺ أن يبلغهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا﴾ أي مثل أيام الذين خلوا من قبلكم يعني يوم العذاب الذي يفصل بيني وبينكم فتؤمنون ولا ينفعكم إيمانكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

ج. وقد تبين بما مر أن الاستفهام في الآية إنكاري.

٢. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الجملة تتمة صدر الآية السابقة وقوله: ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا﴾) إلخ، جملة معترضة والنظم الأصلي بحسب المعنى ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ﴾ أي قومك هؤلاء ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الذين كانت تحق عليهم كلمة العذاب فنرسل إليهم آية العذاب ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾

٣. وإنما اعترض بقوله: ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ بين الكلام لأنه يتعلق بالجزء الذي يتقدمه من مجموع الكلام المستفهم عنه فإنه المناسب لأن يجعل جوابا لهم، وهو يتضمن انتظار النبي ﷺ للقضاء بينه وبينهم، وأما تنجيته وتنجية المؤمنين به فإن المنتظر لها هو النبي ﷺ والمؤمنون لا هو وحده ولا يتعلق هذا الانتظار بفصل القضاء بل بالنجاة من العذاب وهو مع ذلك لا يتعلق به غرض في المقام الذي سيق فيه الكلام لإنذار المشركين لا لتبشير النبي ﷺ والمؤمنين فافهم ذلك.

٤. وأما قوله: ﴿كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فمعناه كما كنا ننجي الرسل والذين آمنوا في الأمم السابقة عند نزول العذاب كذلك ننجي المؤمنين بك من هذه الأمة حق علينا ذلك حقا، فقوله: ﴿حَقًّا عَلَيْنا﴾ مفعول مطلق قام مقام فعله المحذوف، واللام في ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ للعهد والمراد به مؤمنوا هذه الأمة، وهذا هو الوعد الجميل للنبي ﷺ والمؤمنين من هذه الأمة بالإنجاء.

٥. وليس من البعيد أن يستفاد من قوله: ﴿نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن فيه تلويحا إلى أن النبي ﷺ لا يدرك هذا القضاء، وإنما يقع بعد ارتحاله حيث ذكر المؤمنون ولم يذكر معهم النبي ﷺ مع أنه تعالى ذكر في السابقين رسله مع المؤمنين بهم كما ربما يخطر بالبال من تكرر قوله تعالى في كلامه: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾ أو ما في معناه.

٦٣. النبي والدين والتوحيد:

المقطع [٦٣] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٣١»:

١. ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ الآية:

أ. قد تقدم غير مرة أن الدين هو السنة المعمول بها في الحياة لنيل سعادتها وفيه معنى الطاعة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦] وربما استعمل بمعنى الجزاء.

ب. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ أي في طريقتي التي أسلكها وأثبت عليها وشك الإنسان في دين غيره وطريقته المعمولة له إنما يكون في ثباته عليه هل يستقر عليه ويستقيم؟ وقد كان المشركون يطمعون في دينه ﷺ وربما رجوا أن يحولوه عنه فينجوا من دعوته إلى التوحيد ورفض الشرك بالآلهة.

ج. فالمعنى: إن كنتم تشكون فيما أدين به وأدعو إليه هل أستقيم عليه؟ أو شككتم في ديني ما هو؟ ولم تحصلوا الأصل الذي يبتني عليه فإني أصرح لكم القول فيه وأبينه لكم وهو أني لا أعبد آلهتكم وأعبد الله وحده.

٢. وقد أخذ في قوله: ﴿وَلكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾:

أ. له تعالى وصف توفيهم دون غيره من أوصافه تعالى لأنهم إنما كانوا يعبدون الإله لزعمهم الحاجة

إليه في دفع الضرر وجلب النفع، والتوفي أمر لا يشكون أنه سيصيبهم وأنه لله وحده فمساس الحاجة إلى الأمن من ضرره يوجب عبادة الله سبحانه.

ب. على أن اختيار التوفي للذكر ليكون في الكلام تلويح إلى تهديدهم فإن الآيات، السابقة وعدتهم العذاب وعدا قطعيا، ووفاة المشركين ميعاد عذابهم، ويؤيد ذلك اتباع قوله: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ بقوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن نجاتهم من العذاب جزء الوعد الذي ذكره الله في الآيتين السابقتين على هذه الآية: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾إلى قوله﴿نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ج. والمعنى: فاعلموا واستيقنوا أني لا أعبد آلهتكم ولكن أعبد الله الذي وعد عذاب المكذبين منكم وإنجاء المؤمنين وأمرني أن أكون منهم كما أمرني أن أجتنب عبادة الآلهة.

٦٤. الدين والتوحيد والحنيفية:

المقطع [٦٤] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٥-١٠٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٣٢»:

١. ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ عطف على موضع قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ﴾ الآية، فإنه في معنى وكن من المؤمنين، وقد مر الكلام في معنى إقامة الوجه للدين الحنيف غير مرة.

٢. ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ الله ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾ نهي بعد نهي عن الشرك، وبيان أن الشرك يدخل الإنسان في زمرة الظالمين فيحق عليه ما أوعد الله به الظالمين في كلامه.

٣. ومن لطيف التعبير قوله حين ذكر الدعاء: ﴿ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾ وحين ذكر العبادة: ﴿الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله﴾ فإن العبادة بالطبع يعطي للمعبود شعورا وعقلا فناسب أن يعبر عنه بنحو ﴿الَّذِينَ﴾ المستعمل في ذوي العلم والعقل، والدعاء وإن كان كذلك لمساوقته العبادة غير أنه لما وصف المدعو بما لا ينفع ولا يضر، وربما توهم أن ذوي العلم والعقل يصح أن تنفع وتضر، عبر بلفظة ﴿ما﴾ ليلوح إلى أنها جماد لا يتخيل في حقهم إرادة نفع أو ضرر، وفي التعبير نفسه أعني قوله: ﴿ما لا يَنْفَعُكَ وَلا

﴿يَضُرُّكَ﴾ إعطاء الحجة على النهي عن الدعاء.

٤. ﴿إِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، الجملة حالية وهي تتمة البيان في الآية السابقة، والمعنى: ولا تدع من دون الله ما لا نفع لك عنده ولا ضرر، والحال أن ما مسك الله به من ضر لا يكشفه غيره وما أرادك به من خير لا يرده غيره فهو القاهر دون غيره يصيب بالخير عباده بمشيئته وإرادته، وهو مع ذلك غفور رحيم يغفر ذنوب عباده ويرحمهم، واتصافه بهذه الصفات الكريمة وكون غيره صفر الكف منها يقتضي تخصيص العبادة والدعوة به.

٦٥. الحق والهداية والضلال والصبر:

المقطع [٦٥] من سورة يونس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٨-١٠٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٣٣»:

١. ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن أو ما يشتمل عليه من الدعوة الحقة، وقوله: ﴿فَمَنِ اهْتَدى﴾ إلى آخر الآية، إعلام لهم بكونهم مختارين فيما ينتخبونه لأنفسهم من غير أن يسلبوا الخيرة ببيان حقيقة هي أن الحق، وقد جاءهم، من حكمه أن من اهتدى إليه فإنما يهتدي ونفعه عائد إليه، ومن ضل عنه فإنما يضل وضرره على نفسه فلهم أن يختاروا لأنفسهم ما يحبونه من نفع أو ضرر، وليس هو ﷺ وكيلا لهم يتصدى من الفعل ما هو لهم فالآية كناية عن وجوب اهتدائهم إلى الحق لأن فيه نفعهم.

٢. ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾ أمر باتباع ما يوحى إليه والصبر على ما يصيبه في جنب هذا الاتباع من المصائب والمحن، ووعد بأن الله سبحانه سيحكم بينه وبين القوم، ولا يحكم إلا بما فيه قرة عينه فالآية تشتمل على أمره بالاستقامة في الدعوة وتسليته فيما يصيبه، ووعده بأن العاقبة الحسنى له.

٣. وقد اختتمت الآية بحكمه تعالى، وهو الذي عليه يعتمد معظم آيات السورة في بيانها، والله أعلم.

سورة هود

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٦٠] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة كما يظهر من مفتتحها ومختتمها والسياق الذي يجري عليه آياتها تبين غرض الآيات القرآنية على كثرتها وتشتتها، وتصف المحصل من مقاصدها على اختلافها والملخص من مضامينها، فتذكر أنها على احتوائها معارف الدين المختلفة من أصول المعارف الإلهية والأخلاق الكريمة الإنسانية، والأحكام الشرعية الراجعة إلى كليات العبادات والمعاملات والسياسات والولايات، ثم وصف عامة الخليقة كالعرش والكرسي واللوح والقلم والسماء والأرض والملائكة والجن والشياطين والنبات والحيوان والإنسان، ووصف بدء الخليقة وما ستعود إليه من الفناء والرجوع إلى الله سبحانه، وهو يوم البعث بما يتقدمه من عالم القبر وهو البرزخ، ثم القيام لرب العالمين والحشر والجمع والسؤال والحساب والوزن وشهادة الأشهاد، ثم فصل القضاء، ثم الجنة أو النار بما فيهما من الدرجات والدركات.

ب. ثم وصف الرابطة التي بين خلقة الإنسان وبين عمله، وما بين عمله وما يستتبعه من سعادة أو شقاوة ونعمة أو نقمة ودرجة أو دركة، وما يتعلق بذلك من الوعد والوعيد والإنذار والتبشير بالموعظة والمجادلة الحسنة والحكمة.

ج. فالآيات القرآنية على احتوائها تفاصيل هذه المعارف الإلهية والحقائق الحقة تعتمد على حقيقة واحدة هي الأصل وتلك فروعه، وهي الأساس الذي بني عليه بنيان الدين وهو توحيده تعالى توحيد الإسلام، بأن يعتقد أنه تعالى هو رب كل شيء لا رب غيره، ويسلم له من كل وجهة، فيوفي له حق ربوبيته، ولا يخشع في قلب ولا يخضع في عمل إلا له جل أمره، وهذا أصل يرجع إليه على إجماله جميع تفاصيل المعاني القرآنية من معارفها وشرائعها بالتحليل، وهو يعود إليها على ما بها من التفصيل بالتركيب.

د. فالسورة تبين ذلك بنحو الإجمال في هذه الآيات الأربع التي افتتحت بها، ثم تأخذ في بيانه التفصيلي بسمة الإنذار والتبشير بذكر ما لله من السنة الجارية في عباده، وإيراد أخبار الأمم الماضية، وقصص أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليه السلام، وما ساقهم إليه الاستكبار عن

إجابة الدعوة الإلهية والإفساد في الأرض والإسراف في الأمر، ووصف ما وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وما أوعد الله به الذين كفروا وكذبوا بالآيات، وتبين في خلال ذلك أموراً من المعارف الإلهية الراجعة إلى التوحيد والنبوة والمعاد.

هـ. ومما تقدم يظهر ما في قول بعضهم عند ما ذكر غرض هذه السورة: أنها في معنى سورة يونس وموضوعها، وهو أصول عقائد الإسلام في الإلهيات والنبوات والبعث والجزاء وعمل الصالحات، وقد فصل فيها ما أجمل في سورة يونس من قصص الرسل عليه السلام.

و. وقد عرفت أن السورتين مسوقتان لغرضين مختلفين لا يرجع أحدهما إلى الآخر البتة، فسورة يونس تبين أن السنة الإلهية جارية على القضاء بين الرسل وبين أممهم المكذبين لهم، ثم توعد هذه الأمة بما جرى مثله على الذين من قبلهم، وسورة هود تبين أن المعارف القرآنية ترجع بالتحليل إلى التوحيد الخالص كما أن التوحيد يعود بحسب التركيب إلى تفاصيل المعارف الأصلية والفرعية.

ز. والسورة، على ما تشهد به آياتها بمضامينها والاتصال الظاهر بينها، مكية نازلة دفعة واحدة، وقد روي عن بعضهم استثناء قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ﴾ [الآية: ١٢] فذكر أنها مدنية، واستثنى بعضهم قوله: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الآية: ١٧]، وبعضهم قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ [الآية: ١١٤]، ولا دليل على شيء من ذلك من طريق اللفظ، وظاهر اتصالها أنها جميعاً مكية.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وفي هذه الآيات الكريمة بيان أن هذا القرآن كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، وأن العبادة لله وحده، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول للناس: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، وأن يستغفروا ربهم ثم يتوبوا إليه يمتعهم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى، ويؤت كل ذي فضل فضله، وقد جاءت هذه الآيات افتتاحاً للسورة لتقرر حقيقة أساسية هي أن القرآن كتاب محكم التفاصيل لم يأتِ عبثاً، وأن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم قائمة على الإنذار والتبشير، وأن طريق النجاة هو التوحيد والاستغفار والتوبة إلى الله، وأن كل إنسان سيلقى جزاء عمله، وهذا التمهيد ضروري لأنه سيبعده الحديث عن قصص الأنبياء والأمم المكذبة، فتبين هذه الآيات الغاية من إرسال

الرسل وإنزال الكتب، وهي دعوة الناس إلى عبادة الله والرجوع إليه قبل فوات الأوان.

٢. الآيات [٥ ـ ١٦] جمل وفصول من أعمال المشركين وأقوالهم في الرد على نبوة النبي ﷺ وما نزل عليه من الكتاب تذكرها الآيات وتجيب عنها بإلقاء الحجة، كاستخفائهم من الله، وقولهم: ما يحبس العذاب عنا، وقولهم: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، وقولهم: إنه افترى القرآن، وفيها بعض معارف أخر.

٣. الآيات [١٧ ـ ٢٤] ظاهر الآيات أنها واقعة موقع التطييب لنفس النبي ﷺ وتقوية إيمانه بكتاب الله وتأكيد ما عنده من البصيرة في أمره، فالكلام جار على ما كان عليه من خطابه ﷺ، فقد كان وجه الكلام إليه حتى انتهى إلى ما اتهموه به من الافتراء على الله سبحانه، فأمره أن يتحدى عليهم بإتيان عشر سور مثله مفتريات، ثم أمره أن يطيب نفساً ويثبت على ما عنده من العلم بأنه منزل من عند الله، فإنما هو على الحق وليس بمفتر، فلا يستوحش من إعراض الأكثرين ولا يرتاب.

٤. الآيات [٢٥ ـ ٣٥]:

أ. شروع في قصص الأنبياء عليهم السلام، وقد بدأ بنوح وعقبه بجماعة ممن بعده كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليه السلام.

ب. وقد قسم قصة نوح إلى فصول، أولها احتجاجه عليه السلام على قومه في التوحيد، فهو عليه السلام أول الأنبياء الناهضين للتوحيد على الوثنية على ما ذكره الله تعالى في كتابه، وأكثر ما قص من احتجاجه عليه السلام مع قومه من المجادلة بالتي هي أحسن، وبعضه من الموعظة، وقليل منه من الحكمة، وهو الذي يناسب تفكر البشر الأولي والإنسان القديم الساذج، وخاصة تفكرهم الاجتماعي الذي لا ظهور فيه إلا للمركوم من أفكار الأفراد المتوسطين في الفهم.

٥. الآيات [٣٦ـ ٤٩] تتمة قصة نوح عليه السلام، وهي تشتمل على فصول كإخباره عليه السلام بنزول العذاب على قومه، وأمره بصنع الفلك، وكيفية نزول العذاب وهو الطوفان، وقصة ابنه الغريق، وقصة نجاته ونجاة من معه، لكنها جميعاً ترجع من وجه إلى فصل واحد وهو فصل القضاء بينه عليه السلام وبين قومه.

٦. الآيات [٥٠ ـ ٦٠]:

أ. تذكر الآيات قصة هود النبي وقومه وهم عاد الأولى، وهو عليه السلام أول نبي يذكره الله تعالى في كتابه بعد نوح عليه السلام، ويشكر مسعاه في إقامة الدعوة الحقة والانتهاض على الوثنية.

ب. ويعقب ذكر قوم نوح بذكر قوم هود، قال تعالى في عدة مواضع من كلامه: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ﴾

٧. الآيات [٦١ ـ ٦٨] تذكر الآيات الكريمة قصة صالح النبي عليه السلام وقومه وهم ثمود، وهو عليه السلام ثالث الأنبياء القائمين بدعوة التوحيد الناهضين على الوثنية، دعا ثمود إلى التوحيد وتحمل الأذى والمحنة في جنب الله حتى قضي بينه وبين قومه بهلاكهم ونجاته ونجاة من معه من المؤمنين.

٨. الآيات [٦٩ ـ ٧٦]:

أ. تتضمن الآيات قصة بشرى إبراهيم عليه السلام بالولد، وأنها كالتوطئة لما سيذكر بعده من قصة ذهاب الملائكة إلى لوط النبي عليه السلام لإهلاك قومه، فإن تلك القصة ذيل هذه القصة.

ب. وفي آخر قصة البشرى ما يتبين به وجه قصة الإهلاك وهو قوله: ﴿إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ الآية.

٩. الآيات [٧٧ ـ ٨٣] الآيات تذكر عذاب قوم لوط، وهي من وجه تتمة الآيات السابقة التي قصت نزول الملائكة ودخولهم على إبراهيم عليه السلام وتبشيره بإسحاق، فإنها كانت كالتوطئة لقصة عذاب قوم لوط.

١٠. الآيات [٨٤ ـ ٩٥]:

أ. تذكر الآيات قصة شعيب عليه السلام وقومه وهم أهل مدين، وكانوا يعبدون الأصنام، وكان قد شاع التطفيف في الكيل والوزن عندهم واشتد الفساد فيهم، فأرسل الله سبحانه شعيباً عليه السلام إليهم فدعاهم إلى التوحيد وتوفية الميزان والمكيال بالقسط وترك الفساد في الأرض، وبشرهم وأنذرهم وبالغ في عظتهم.

ب. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: كان شعيب خطيب الأنبياء.

ج. فلم يجبه القوم إلا بالرد والعصيان، هددوه بالرجم والطرد من بينهم، وبالغوا في إيذائه وإيذاء شرذمة من الناس آمنوا به، وصدوهم عن سبيل الله، وداموا على ذلك حتى سأل الله أن يقضي بينه وبينهم

فأهلكهم الله تعالى.

١١. الآيات [٩٦ ـ ٩٩] إشارة إلى قصة موسى الكليم عليه السلام، وهو أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن، ذكر باسمه في مائة ونيف وثلاثين موضعاً منه في بضع وثلاثين سورة، وقد اعتنى بتفصيل قصته أكثر من غيره، غير أنه تعالى أجمل القول فيها في هذه السورة فاكتفى بالإشارة الإجمالية إليها.

١٢. الآيات [١٠٠ ـ ١٠٨] فيها رجوع إلى القصص السابقة بنظر كلي، يلخص سنة الله في عباده وما يستتبعه الشرك في الأمم الظالمة من الهلاك في الدنيا والعذاب الخالد في الآخرة، ليعتبر بذلك أهل الاعتبار.

١٣. الآيات [١٠٩ ـ ١١٩]:

أ. لما فصل تعالى فيما قص على نبيه ﷺ قصص الأمم الغابرة، وما أداهم إليه شركهم وفسقهم وجحودهم لآيات الله واستكبارهم عن قبول الحق الذي كان يدعوهم إليه أنبياؤهم، وساقهم إلى الهلاك وعذاب الاستئصال، ثم إلى عذاب النار الخالد في يوم مجموع له الناس، ثم لخص القول في أمرهم في الآيات السابقة.

ب. أمر في هذه الآيات نبيه ﷺ أن يعتبر هو ومن معه بذلك، ويستيقنوا أن الشرك بالله والفساد في الأرض لا يهدي الإنسان إلا إلى الهلاك والبوار، فعليهم أن يلزموا طريق العبودية ويمسكوا بالصبر والصلاة ولا يركنوا إلى الذين ظلموا فتمسهم النار، وما لهم من دون الله من أولياء ثم لا ينصرون.

ج. ويعلموا أن كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وإن مهلتهم فيما يمهلهم الله ليس إلا لتحقيق كلمة الحق التي سبقت منه وستتم بما يجازيهم به يوم القيامة.

١٤. الآيات [١٢٠ ـ ١٢٣]:

أ. الآيات تلخص للنبي ﷺ القول في غرض السورة المسرودة له آياتها، وتنبئه أن السورة تبين له حق القول في المبدأ والمعاد وسنة الله الجارية في عباده.

ب. فهي بالنسبة إلى النبي ﷺ تعليم للحق، وبالنسبة إلى المؤمنين موعظة وذكرى، وبالنسبة إلى الكافرين المستنكفين عن الإيمان قطع خصام.

ج. فقل لهم آخر ما تحاجهم: اعملوا بما ترون ونحن عاملون بما نراه، وننتظر جميعاً صدق ما قص

الله علينا من سنته الجارية في خلقه من إسعاد المصلحين وإشقاء المفسدين، وتختم بأمره ﷺ بعبادته والتوكل عليه لأن الأمر كله إليه.

١. الكتاب والإنذار والبشرى والتوحيد:

المقطع [١] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَّ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١ـ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٣٤»:

١. ﴿الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾:

أ. المقابلة بين الإحكام والتفصيل الذي هو إيجاد الفصل بين أجزاء الشيء المتصل بعضها ببعض، والتفرقة بين الأمور المندمجة كل منها في آخر تدل على أن المراد بالإحكام ربط بعض الشيء ببعضه الآخر وإرجاع طرف منه إلى طرف آخر بحيث يعود الجميع شيئا واحدا بسيطا غير ذي أجزاء وأبعاض.

ب. ومن المعلوم أن الكتاب إذا اتصف بالإحكام والتفصيل بهذا المعنى الذي مر فإنما يتصف بها من جهة ما يشتمل عليه من المعنى والمضمون لا من جهة ألفاظه أو غير ذلك، وأن حال المعاني في الإحكام والتفصيل والاتحاد والاختلاف غير حال الأعيان فالمعاني المتكثرة إذا رجعت إلى معنى واحد كان هذا الواحد هو الأصل المحفوظ في الجميع وهو بعينه على إجماله هذه التفاصيل، وهي بعينها على تفاصيلها ذاك الإجمال وهذا كله ظاهر لا ريب فيه.

ج. وعلى هذا فكون آيات الكتاب محكمة أولا ثم مفصلة ثانيا معناه أن الآيات الكريمة القرآنية على اختلاف مضامينها وتشتت مقاصدها وأغراضها ترجع إلى معنى واحد بسيط، وغرض فارد أصلي لا تكثر فيه ولا تشتت بحيث لا تروم آية من الآيات الكريمة مقصدا من المقاصد ولا ترمي إلى هدف إلا والغرض الأصلي هو الروح الساري في جثمانه والحقيقة المطلوبة منه.

د. فلا غرض لهذا الكتاب الكريم على تشتت آياته وتفرق أبعاضه إلا غرض واحد متوحد إذا فصل كان في مورد أصلا دينيا وفي آخر أمرا خلقيا وفي ثالث حكما شرعيا وهكذا كلما تنزل من الأصول إلى فروعها ومن الفروع إلى فروع الفروع لم يخرج من معناه الواحد المحفوظ، ولا يخطي غرضه فهذا الأصل الواحد بتركبه يصير كل واحد واحد من أجزاء تفاصيل العقائد والأخلاق والأعمال، وهي بتحليلها

وإرجاعها إلى الروح الساري فيها الحاكم على أجسادها تعود إلى ذاك الأصل الواحد.

هـ. فتوحيده تعالى بما يليق بساحة عزه وكبريائه مثلا في مقام الاعتقاد هو إثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وفي مقام الأخلاق هو التخلق بالأخلاق الكريمة من الرضا والتسليم والشجاعة والعفة والسخاء ونحو ذلك والاجتناب عن الصفات الرذيلة، وفي مقام الأعمال والأفعال الإتيان بالأعمال الصالحة والورع عن محارم الله.

و. وإن شئت فقل: إن التوحيد الخالص يوجب في كل من مراتب العقائد والأخلاق والأعمال ما يبينه الكتاب الإلهي من ذلك كما أن كلا من هذه المراتب وكذلك أجزاؤها لا تتم من دون توحيد خالص.

٢. فقد تبين أن الآية في مقام بيان رجوع تفاصيل المعارف والشرائع القرآنية إلى أصل واحد هو بحيث إذا ركب في كل مورد من موارد العقائد والأوصاف والأعمال مع خصوصية ذلك المورد أنتج حكما يخصه من الأحكام القرآنية، وبذلك يظهر:

أ. أولا: أن قوله: ﴿كِتابٌ﴾ خبر لمبتدإ محذوف والتقدير: هذا كتاب، والمراد بالكتاب هو ما بأيدينا من القرآن المقسم إلى السور والآيات، ولا ينافي ذلك ما ربما يذكر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو القرآن بما هو في اللوح فإن هذا الكتاب المقرو متحد مع ما في اللوح اتحاد التنزيل مع التأويل.

ب. وثانيا: أن لفظة ﴿ثُمَ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ الآية، لإفادة التراخي بحسب ترتيب الكلام دون التراخي الزماني إذ لا معنى للتقدم والتأخر الزماني بين المعاني المختلفة بحسب الأصلية والفرعية أو بالإجمال والتفصيل.

٣. ويظهر أيضا ما في بعض ما ذكره أرباب التفاسير في معنى الآية:

أ. كقول بعضهم: إن معناها أحكمت آياته فلم تنسخ منها كما نسخت الكتب والشرائع ثم فصلت ببيان الحلال والحرام وسائر الأحكام.

• وفيه: أن الواجب على هذا المعنى أن يقيد عدم النسخ بعدم النسخ بكتاب غير القرآن ينسخ القرآن بعده كما نسخ القرآن غيره فإن وجود النسخ بين الآيات القرآنية نفسها مما لا ينبغي الارتياب فيه، والتقييد المذكور لا دلالة عليه من جهة لفظ الآية.

ب. وكقول بعضهم: إن المراد أحكمت آياته بالأمر والنهي ثم فصلت بالوعد والوعيد والثواب

والعقاب.

• وفيه أنه تحكم لا دليل عليه أصلا.

ج. وكقول بعضهم: إن المراد إحكام لفظها بجعلها على أبلغ وجوه الفصاحة حتى صار معجزا، وتفصيلها بالشرح والبيان.

• والكلام في هذا الوجه كسابقه.

د. وكقول بعضهم: المراد بإحكام آياته جعلها محكمة متقنة لا خلل فيها ولا باطل، والمراد بتفصيلها جعلها متتابعة بعضها إثر بعض.

• وفيه: أن التفصيل بهذا المعنى غير معهود لغة إلا أن يفسر بمعنى التفرقة والتكثير ويرجع حينئذ إلى ما قدمناه من المعنى.

هـ. وكقول بعضهم: إن المراد أحكمت آياته جملة ثم فرقت في الإنزال آية بعد آية ليكون المكلف أمكن من النظر والتأمل.

• وفيه: أن الأحرى بهذا الوجه أن يذكر في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقوله: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦] وما في هذا المعنى من الآيات مما يدل على أن للقرآن مرتبة عند الله هي أعلى من سطح الأفهام ثم نزل إلى مرتبة تقبل التفهم والتفقه رعاية لحال الأفهام العادية كما يشير إليه أيضا قوله: ﴿وَالْكِتابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، وأما آيتنا التي نحن فيها: ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ الآية، فقد علق فيها الإحكام والتفصيل معا على الآيات، وليس ذلك إلا من جهة معانيها فتفيد أن الإحكام والتفصيل هما في معاني هذه الآيات المتكثرة فلها جهة وحدة وبساطة وجهة كثرة وتركب، وينطبق على ما قدمناه من المعنى لا على ما ذكره الراجع إلى مسألة التأويل والتنزيل فافهم ذلك.

و. وكقول بعضهم: إن المراد بالإحكام والتفصيل إجمال بعض الآيات وتبيين البعض الآخر، وقد مثل لذلك بقوله تعالى في هذه السورة: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [الآية: ٢٤]، فإنه مجمل محكم يتبين بما ورد فيها من قصة نوح وهود وصالح، وهكذا.

• وفيه: أن ظاهر الآية أن الإحكام والتفصيل متحدان من حيث المورد بمعنى أن الآيات التي ورد عليها الإحكام بعينها هي التي ورد عليها التفصيل لا أن الإحكام وصف لبعض آياته والتفصيل وصف بعضها الآخر كما هو لازم ما ذكره.

٤. ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ الحكيم من أسمائه الحسنى الفعلية يدل على إتقان الصنع، وكذا الخبير من أسمائه الحسنى يدل على علمه بجزئيات أحوال الأمور الكائنة ومصالحها، وإسناد إحكام الآيات وتفصيلها إلى كونه تعالى حكيما خبيرا لما بينهما من النسبة.

٥. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ الآية وما بعدها:

أ. تفسير لمضمون الآية الأولى: ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وإذ كانت الآية تتضمن أنه كتاب من الله إلى... له آيات محكمة ثم مفصلة كانت العناية في تفسيرها متوجه إلى إيضاح هذه الجهات.

ب. ومن المعلوم أن هذا الكتاب الذي أنزله الله تعالى من عنده إلى رسوله ليتلوه على الناس ويبلغهم له وجه خطاب إلى الرسول ﷺ ووجه خطاب إلى الناس بوساطته أما وجه خطابه إلى الرسول ﷺ وهو الذي يتلقاه الرسول من وحي الله فهو أن أنذر وبشر وادع الناس إلى كذا وكذا، وهذا الوجه هو الذي عني به في أول سورة يونس حيث قال تعالى: ﴿أَوْحَيْنا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]

ج. وأما وجه خطابه إلى الناس وهو الذي يتلقاه الناس من الرسول ﷺ فهو ما يلقيه إلى الناس من المعنى في ضمن تلاوته كلام الله عليهم بعنوان الرسالة أني أدعوكم إلى الله دعوة نذير وبشير، وهذا الوجه من الخطاب هو الذي عنى به في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ الآية.

د. فالآية من كلام الله تفسر معنى إحكام آيات الكتاب ثم تفصيلها بحكاية ما يتلقاه الناس من دعوة الرسول إياهم بتلاوة كتاب الله عليهم، وليس كلاما للرسول بطريق الحكاية ولا بتقدير القول ولا من الالتفات في شيء، ولا أن التقدير: أمركم بأن لا تعبدوا أو: (فصلت آياته لأن لا تعبدوا إلا الله) بأن يكون قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ نفيا لا نهيا فإن قوله بعد: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ معطوف على

قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾، وهو يشهد بأن ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ نهي لا نفي، على أن التقدير لا يصار إليه من غير دليل فافهم ذلك فإنه من لطيف صنعة البلاغة في الآية.

هـ. وعلى هذا فقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ دعوة إلى توحيد العبادة بالنهي عن عبادة غير الله من الآلهة المتخذة شركاء لله، وقصر العبادة فيه تعالى.

٢. الاستغفار والتوبة سبب للمتاع الحسن والأجل المسمى:

المقطع [٢] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللهَّ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٣-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٤١»:

١. ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾:

أ. أمر بطلب المغفرة من الله وقد اتخذوه ربا لهم برفض عبادة غيره ثم أمر بالتوبة والرجوع إليه بالأعمال الصالحة ويتحصل من الجميع سلوك الطريق الطبيعي الموصل إلى القرب والزلفى منه تعالى، وهو رفض الآلهة دون الله ثم طلب المغفرة والطهارة النفسانية للحضور في حظيرة القرب ثم الرجوع إليه تعالى بالأعمال الصالحة.

ب. وقد جيء بأن التفسيرية ثانيا في قوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا﴾ الآية، لاختلاف ما بين المرحلتين اللتين يشير إليهما قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ وهي مرحلة التوحيد بالعبادة مخلصا، وقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وهي مرحلة العمل الصالح وإن كانت الثانية من نتائج الأولى وفروعها.

ج. ولكون التوحيد هو الأصل الأساسي والاستغفار والتوبة نتيجة وفرعا متفرعا عليه أورد النذر والبشارة بعد ذكر التوحيد، والوعد الجميل الذي يتضمنه قوله: ﴿يُمَتِّعْكُمْ﴾ الآية، بعد ذكر الاستغفار والتوبة فقال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ فبين به أن النذر والبشرى كائنين ما كانا يرجعان إلى التوحيد ويتعلقان به ثم قال: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً﴾ الآية فإن الآثار القيمة والنتائج الحسنة المطلوبة إنما تترتب على الشيء بعد ما تم في نفسه وكمل بصفاته وفروعه ونتائجه، والتوحيد وإن كان هو الأصل الوحيد للدين على سعته لكن شجرته لا تثمر ما لم تقم على ساقها ويتفرع عليها فروعها وأغصانها، ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ

حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾

د. والظاهر أن المراد بالتوبة في الآية الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧] فيستقيم الجمع بين الاستغفار والتوبة مع عطف التوبة عليه بثم، والمعنى اتركوا عبادة الأصنام بعد هذا واطلبوا من ربكم غفران ما قدمتم من المعصية ثم آمنوا بربكم.

هـ. وقيل: إن المعنى اطلبوا المغفرة واجعلوها غرضكم ثم توصلوا إليه بالتوبة وهو غير جيد ومن التكلف ما ذكره بعضهم أن المعنى: استغفروا من ذنوبكم الماضية ثم توبوا إليه كلما أذنبتم في المستقبل وكذا قول آخر: إن ﴿ثُمَّ﴾ في الآية بمعنى الواو لأن التوبة والاستغفار واحد.

٢. ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾:

أ. الأجل المسمى هو الوقت الذي ينتهي إليه الحياة لا تتخطاه البتة، فالمراد هو التمتيع في الحياة الدنيا بل بالحياة الدنيا لأن الله سبحانه سماها في مواضع من كلامه متاعا، فالمتاع الحسن إلى أجل مسمى ليس إلا الحياة الدنيا الحسنة.

ب. فيئول معنى قوله: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً﴾ على تقدير كون ﴿مَتاعاً﴾ مفعولا مطلقا إلى نحو من قولنا: يمتعكم تمتيعا حسنا بالحياة الحسنة الدنيوية (ومتاع الحياة إنما يكون حسنا إذا ساق الإنسان إلى سعادته الممكنة له، وهداه إلى أماني الإنسانية من التنعم بنعم الدنيا في سعة وأمن ورفاهية وعزة وشرافة فهذه الحياة الحسنة تقابل المعيشة الضنك التي يشير إليها في قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ [طه: ١٢٤]

ج. ولا حسن لمتاع الحياة الدنيا ولا سعة في المعيشة لمن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه فإن البعض من الناس وإن أمكن أن يؤتى سعة من المال وعلوا في الأرض ثم يحسب أن لا أمنية من أماني الإنسانية إلا وقد أوتيها لكنه في غفلة عن ابتهاج من تحقق بحقيقة الإيمان بالله ودخل في ولاية الله فآتاه الله الحياة الطيبة الإنسانية، وآمنه من ذلة الحياة الحيوانية التي لا حكومة فيها إلا للحرص والشره والافتراس والتكلب والجهالة، فالنفس الحرة الإنسانية تذم من الحياة ما يستأثره النفوس الرذيلة الخسيسة وإن استتبع الذلة والمسكنة وكل شناعة.

د. فالحياة الحسنة لمجتمع صالح حر أن يشتركوا في التمتع من مزايا النعم الأرضية التي خلقها الله

لهم اشتراكا عن تراحم بينهم وتعاون وتعاضد من غير تعد وتزاحم بحيث يطلب كل خير نفسه ونفعها في خير مجتمعة ونفعه من غير أن يعبد نفسه ويستعبد الآخرين.

هـ. وبالجملة التمتع بالحياة الحسنة إلى أجل مسمى هو تمتع الفرد بالحياة على ما تستحسنه الفطرة الإنسانية وهو الاعتدال في التمتعات المادية في ضوء العلم النافع والعمل الصالح هذا إذا نسب إلى الفرد، وأما إذا نسب إلى المجتمع فهو الانتفاع العام من نعم الحياة الأرضية الطيبة بتخصيص ما يناله الأفراد بكدهم وسعيهم بالمجتمع الملتئم الأجزاء من غير تضاد بين أبعاضه أو تناقض.

٣. ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾:

أ. الفضل هو الزيادة وإذ نسب الفضل في قوله: ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ إلى من عنده الفضل من الأفراد كان ذلك قرينة على كون الضمير في ﴿فَضْلَهُ﴾ راجعا إلى ذي الفضل دون اسم الجلالة كما احتمله بعضهم والفضل والزيادة من المعاني النسبية التي إنما تتحقق بقياس شيء إلى شيء وإضافته إليه.

ب. فالمعنى: ويعطي كل من زاد على غيره بشيء من صفاته وأعماله وما يقتضيه من الاختصاص بمزيد الأجر وخصوصه موهبة السعادة تلك الزيادة من غير أن يبطل حقه أو يغصب فضله أو يملكه غيره كما يشاهد في المجتمعات غير الدينية وإن كانت مدنية راقية فلم تزل البشرية منذ سكنت الأرض وكونت أنواع المجتمعات الهمجية أو الراقية أو ما هي أرقى تنقسم إلى طائفتين مستعلية مستكبرة قاهرة، ومستذلة مستعبدة مقهورة، وليس يعدل هذا الإفراط والتفريط ولا يسوي هذا الاختلاف إلا دين التوحيد.

ج. فدين التوحيد هو السنة الوحيدة التي تقصر المولوية والسيادة في الله سبحانه وتسوي بين القوي والضعيف والمتقدم والمتأخر والكبير والصغير والأبيض والأسود والرجل والمرأة وتنادي بمثل قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله: ﴿أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]

٤. ثم إن وقوع قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ الحاكي عن الاعتناء بفضل كل ذي فضل بعد قوله: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الدال على تمتيع الجميع مشعر:

أ. أولا: بأن المراد بالجملة الأولى المتاع العام المشترك بين أفراد المجتمع وبعبارة أخرى حياة المجتمع

العامة الحسنة، وبالجملة الثانية المزايا التي يؤتاها بعض الأفراد قبال ما يختصون به من الفضل.

ب. وثانيا: أن الجملة الأولى تشير إلى التمتيع بمتاع الحياة الدنيا والثانية إلى إيتاء ثواب الآخرة قبال الأعمال الصالحة القائمة بالفرد أو إيتاء كل ذي فضل فضله في الدنيا والآخرة معا بتخصيص كل من جاء بزيادة في جهة دنيوية بما تقتضيه زيادته من المزية في جهات الحياة بإقامة كل ذي فضيلة في صفة أو عمل مقامه الذي تقتضيه صفته أو عمله ووضعه موضعه من غير أن يسوي بين الفاضل والمفضول في دينهما أو تزاح الخصوصيات وتبطل الدرجات والمنازل بين الأعمال والمساعي الاجتماعية فلا يتفاوت حال الناشط في عمله والكسلان، ولا يختلف أمر المجتهد في العمل الدقيق المهم في بابه واللاعب بالعمل الحقير الهين وهكذا.

٥. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي فإن تتولوا إلخ بالخطاب، والدليل عليه قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وما تقدم في الآيتين من الخطابات المتعددة فلا يصغي إلى قول من يأخذ قوله: ﴿تَوَلَّوْا﴾ جمعا مذكرا غائبا من الفعل الماضي فإنه ظاهر الفساد.

٦. وقد أغرب بعض المفسرين حيث قال في قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾: (والآية تتضمن نجاة هذه الأمة المحمدية من عذاب الاستئصال كما بيناه في تفسير سورة يونس أيضا)

أ. ولست أدري كيف استفاد من الآية ما ذكره ولعله بنى ذلك على أن الآية اشترطت للأمة الحياة الحسنة من غير استئصال إن آمنوا بالله وآياته ثم إنهم آمنوا وانتشر الإسلام في الدنيا، لكن من المعلوم أن الرسول ﷺ مرسل إلى أهل الدنيا عامة ولم يؤمن به عامتهم، ولا أن المؤمنين به أخلصوا جميعا إيمانهم من النفاق وسرى الإيمان من ظاهرهم إلى باطنهم ومن لسانهم إلى جنانهم، ولو كان مجرد إيمان بعض الأمة مع كفر الآخرين كافيا في تحقق الشرط وارتفاع عذاب الاستئصال لكفى في أمة نوح وهود عليه السلام وغيرهما وقد دعوا أممهم إلى ما دعا إليه محمد ﷺ، واشترطوا لهم مثل ما اشترط لأمته ثم عمهم الله بعذاب الاستئصال وكان حقا عليه نصر المؤمنين.

ب. وقد حكى الله سبحانه عن نوح قوله لقومه في ضمن دعوته: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً﴾ [نوح: ١٢] وحكى عن هود قوله: ﴿وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى

قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وحكى جملة عن نوح وهود وصالح والذين من بعدهم قولهم: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠]

ج. وأما قوله: (وقد بيناه في سورة يونس أيضا) فلم يأت هناك إلا بدعوى خالية وقد قدمنا هناك أن آيات سورة يونس صريحة في أن الله سيقضي بين هذه الأمة بين نبيها ﷺ فيعذبهم وينجي المؤمنين سنة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٧. ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في مقام التعليل لما يفيده قوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ من المعاد، وذيل الآية، مسوق لإزاحة ما يمكن أن يختلج في صدورهم من استبعاد البعث بعد عروض الموت، والمعنى وإن تتولوا عن إخلاص العبادة له ورفض الشركاء فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير سيستقبلكم فتواجهونه وهو يوم البعث بعد الموت لأن مرجعكم إلى الله والله على كل شيء قدير فلا يعجز عن إحيائكم بعد الإماتة فإياكم أن تستبعدوا ذلك.

٨. فالآية قرينة على أن المراد باليوم الكبير يوم القيامة، وروى القمي في تفسيره، مضمرا: أن المراد بعذاب يوم كبير الدخان والصيحة.

٣. الإخفاء والإسرار وعلم الصدور:

المقطع [٣] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٤٦»:

١. ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ إلى آخر الآية، ثنى الشيء يثناه ثنيا كفتح يفتح فتحا أي عطفه وطواه ورد بعضه على بعض قال في المجمع: (أصل الثني العطف تقول: ثنيته عن كذا أي عطفته، ومنه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر في المعنى، ومنه الثناء لعطف المناقب في المدح، ومنه الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخراج منه، انتهى، وقال أيضا: الاستخفاء طلب خفاء الشيء يقال: استخفى وتخفى بمعنى، وكذلك استغشى وتغشى، انتهى.

٢. فالمراد بقوله: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أنهم يميلون بصدورهم إلى خلف ويطأطئون

رءوسهم ليتخفوا من الكتاب أي من استماعه حين تلاوته وهو كناية عن استخفائهم من النبي ﷺ ومن حضر عنده حين تلاوة القرآن عليهم للتبليغ لئلا يروا هناك فتلزمهم الحجة.

٣. ﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ﴾ الآية:

أ. كأنهم كانوا يسترون رءوسهم أيضا بثيابهم عند استخفائهم بثني الصدور فذكر الله سبحانه ذلك وأخبر أنه تعالى يعلم عند ذلك ما يسرون وما يعلنون فما يغنيهم التخفي عن استماع القرآن والله يعلم سرهم وعلانيتهم.

ب. وقيل: إن المراد باستغشائهم ثيابهم هو الاستغشاء في بيوتهم ليلا عند أخذ المضاجع للنوم، وهو أخفى ما يكون فيه الإنسان وأخلى أحواله، والمعنى: أنهم يثنون صدورهم ليستخفوا من هذا الكتاب عند تلاوته عليهم، والله يعلم سرهم وعلانيتهم في أخفى ما يكونون عليه من الحال وهو حال تغشيهم بثيابهم للنوم، ولا يخلو الوجه من ظهور.

٤. هذا ما يفيده السياق في معنى الآية، وربما ذكر لها معان أخر بعيدة من السياق:

أ. منها قولهم: إن الضمير في ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ راجع إليه تعالى أو إلى النبي ﷺ.

ب. ومنها قول بعضهم: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي يطوونها على الكفر.

ج. وقول آخرين: أي يطوونها على عداوة النبي ﷺ إلى غير ذلك من المعاني المذكورة وهي جميعا معان بعيدة.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي: في قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ الآية: بإسناده عن ابن محبوب عن جميل بن صالح عن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال: أخبرني جابر بن عبد الله أن المشركين كانوا، إذا مروا برسول الله ﷺ حول البيت، طأطأ أحدهم رأسه وظهره هكذا، وغطى رأسه بثوب لا يراه رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ﴾ الآية.

ب. أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي رزين قال: كان أحدهم يحني ظهره ويستغشي بثوبه.

ج. وفي المجمع: (روي عن علي بن الحسين وأبي جعفر وجعفر بن محمد عليه السلام: يثنوني على

يفعوعل.

٤. رزق كل دابة على الله:

المقطع [٤] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٤٨/١٠»:

١. ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى الله رِزْقُها﴾ إلى آخر الآية:

أ. الدابة على ما في كتب اللغة كل ما يدب ويتحرك، ويكثر استعماله في النوع الخاص منه، وقرينة المقام تقتضي كون المراد منه العموم لظهور أن الكلام مسوق لبيان سعة علمه تعالى، ولذلك عقب به قوله: ﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾

ب. وهذا المعنى أعني كون ذكر وجوب رزق كل دابة على الله لبيان سعة علمه لكل دابة في جميع أحوالها يستوجب أن يكون قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها﴾ بمنزلة عطف التفسير لقوله: ﴿عَلَى الله رِزْقُها﴾ فيعود المعنى إلى أن كل دابة من دواب الأرض على الله أن يرزقها، ولن تبقى بغير رزق، فهو تعالى عليم بها خبير بحالها أينما كانت فإن كانت في مستقر لا تخرج منه كالحوت في الماء وكالصدف فيما وقعت واستقرت فيه من الأرض رزقها هناك وإن كانت خارجة من مستقرها وهي في مستودع ستتركه إلى مستقرها كالطير في الهواء أو كالمسافر الغارب عن وطنه أو كالجنين في الرحم رزقها هناك وبالجملة هو تعالى عالم بحال كل دابة في الأرض وكيف لا وعليه تعالى رزقها ولا يصيب الرزق المرزوق إلا بعلم من الرازق بالمرزوق وخبرة منه بما حل فيه من محل دائم أو معجل ومستقر أو مستودع.

ج. ومن هنا يظهر أن المراد بالمستقر والمستودع المحل الذي تستقر فيه الدابة ما دامت دابة تدب في الأرض وتعيش عيشة دنيوية والمحل الذي تحل فيه ثم تودعه وتفارقه، وأما ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالمستقر والمستودع أماكنها في الحياة وبعد المات أو أن المراد بهما الأصلاب والأرحام أو أن المراد بهما مساكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة فمعان بعيدة عن سياق الآية اللهم إلا أن يجعل قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها﴾ كلاما مستأنفا بحياله غير مفسر لما قبله.

د. وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨] ما يناسب هذا المقام فليراجع إليه من شاء.

٢. وأما قوله: ﴿عَلَى اللهِ رِزْقُها﴾:

أ. فهو دال على وجوب الرزق عليه تعالى وقد تكرر في القرآن أن الرزق من أفعاله تعالى المختصة به وأنه حق للخلق عليه تعالى قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]

ب. ولا ضير في أن يثبت عليه تعالى حق لغيره إذا كان تعالى هو الجاعل الموجب لذلك على نفسه من غير أن يداخل فيه غيره، ولذلك نظائر في كلامه تعالى كما قال: ﴿كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وقال: ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] إلى غير ذلك من الآيات.

ج. والاعتبار العقلي يؤيد ذلك فإن الرزق هو ما يديم به المخلوق الحي وجوده وإذ كان وجوده من فيض جوده تعالى فما يتوقف عليه من الرزق من قبله، وإذ لا شريك له تعالى في إيجاده لا شريك له في ما يتوقف عليه وجوده كالرزق.

٣. وقد تقدم بعض الكلام في معنى الكتاب المبين في سورة الأنعام [آية: ٥٩] وفي سورة يونس [آية: ٦١] فليراجع.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن محمد بن الفضيل عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: أتى رسول الله ﷺ رجل من أهل البادية فقال: يا رسول الله إن لي بنين وبنات وإخوة وأخوات، وبني بنين وبني بنات وبني إخوة وبني أخوات، والمعيشة علينا خفيفة، فإن رأيت يا رسول الله أن تدعو الله أن يوسع علينا، قال: وبكى فرق له المسلمون، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ من كفل بهذه الأفواه، المضمونة على الله رزقها صب الله عليه الرزق صبا، كالماء المنهمر إن قليل فقليلا، وإن كثير فكثيرا، قال: ثم دعا رسول الله ﷺ وأمن له المسلمون، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: فحدثني من رأى الرجل في زمن عمر، فسأله عن حاله فقال: من أحسن من خوله

حلالا وأكثرهم مالا.

ب. أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: إذا كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له إليها حاجة، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض، فتقول الأرض يوم القيامة: هذا ما استودعتني.

• أقول: والرواية غير ظاهرة في تفسير الآية.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: ألا إن الروح الأمين نفث في روعي، أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق، أن تطلبوه بشيء من معصية الله، فإن الله تعالى قسم الأرزاق بين خلقه حلالا، ولم يقسمها حراما فمن اتقى الله وصبر أتاه رزقه من حله، ومن هتك حجاب ستر الله عز وجل، وأخذه من غير حله قص به من رزقه الحلال، وحوسب عليه.

• أقول: الرواية من المشهورات رواها العامة والخاصة بطرق كثيرة.

د. وفي تفسير العياشي، عن أبي الهذيل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله قسم الأرزاق بين عباده، وأفضل فضلا كبيرا لم يقسمه بين أحد قال الله: ﴿وَسْئَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾

• أقول: والرواية مروية عن النبي ﷺ، وقد تقدمت بعض ما في هذا المعنى من الأخبار في ذيل قوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [آل عمران آية، ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَسْئَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: آية، ٣٢]

هـ. وفي الكافي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام كثيرا ما يقول: اعلموا علما يقينا أن الله جل وعز لم يجعل للعبد، وإن اشتد جهده، وعظمت حيلته وكثرت مكايده، أن يسبق ما سمي له في الذكر الحكيم، أيها الناس إنه لن يزداد امرؤ نقيرا بحذقه، ولن ينقص امرؤ نقيرا لحمقه، فالعالم بهذا العامل به أعظم الناس راحة في منفعته، والعالم بهذا التارك له أعظم الناس شغلا في مضرته، ورب منعم عليه مستدرج بالإحسان إليه، ورب مغرور في الناس مصنوع له، فاتق الله أيها الساعي عن سعيك، وقصر من عجلتك، وانتبه من سنة غفلتك، وتفكر فيما جاء عن الله عز وجل على لسان نبيه ﷺ، الحديث.

و. وفي الكافي، بإسناده عن ابن أبي عمير عن عبد الله بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن محمد بن المنكدر كان يقول: ما كنت أظن أن علي بن الحسين يدع خلقا، أفضل منه حتى رأيت ابنه محمد بن علي، فأردت أن أعظه فوعظني، فقال له أصحابه: بأي شيء وعظك؟ فقال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة، فلقيني أبو جعفر محمد بن علي وكان رجلا بادنا ثقيلا، وهو متكئ على غلامين أسودين أو موليين، فقلت في نفسي: سبحان الله، شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على مثل هذه الحالة، في طلب الدنيا أما إني لأعظنه، فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي بنهر وهو ينصاب عرقا، فقلت: أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة، على هذه الحالة في طلب الدنيا، أرأيت لو جاء أجلك وأنت على هذه الحال؟ فقال: لو جاءني الموت وأنا على هذه الحال، جاءني وأنا في طاعة من طاعة الله عز وجل، أكف بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس، وإنما كنت أخاف أن جاءني الموت، وأنا على معصية من معاصي الله، فقلت: صدقت يرحمك الله، أردت أن أعظك فوعظتني.

ز. وفيه، بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: استقبلت أبا عبد الله في بعض طرق المدينة، في يوم صائف شديد الحر، فقلت: جعلت فداك حالك عند الله عز وجل، وقرابتك من رسول الله ﷺ، وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم؟ فقال: يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق، لأستغني به عن مثلك.

• أقول: ولا منافاة بين القضاء بالرزق وبين الأمر بطلبه، وهو ظاهر.

٥. خلق السماوات والأرض في ستة أيام وابتلاء الناس بالأعمال:

المقطع [٥] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هود: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٤٩»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾:

أ. الكلام المستوفى في توصيف خلق السماوات والأرض على ما يظهر من كلامه تعالى ويفسره ما ورد في ذلك عن أهل العصمة عليه السلام موكول إلى ما سيأتي من تفسير سورة فصلت إن شاء الله تعالى.

ب. وإجمال القول الذي يظهر به معنى قوله: ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وقوله: ﴿وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ هو أن الظاهر أن ما يذكره تعالى من السماوات، بلفظ الجمع، ويقارنها بالأرض ويصف خلقها في ستة أيام طبقات

من الخلق الجسماني المشهود تعلو أرضنا فكل ما علاك وأظلك فهو سماء على ما قيل والعلو والسفل من المعاني الإضافية، فهي طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلو أرضنا وتحيط بها فإن الأرض كروية الشكل على ما يفيده قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ [الأعراف: ٥٤]

ج. والسماء الأولى هي التي تزينه مصابيح النجوم والكواكب فهي الطبقة التي تتضمنها أو هي فوقها وتتزين بها كالسقف يتزين بالقناديل والمشاكي وأما ما فوق السماء الدنيا فلم يرد في كلامه شيء من صفتها غير ما في قوله تعالى ﴿سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً﴾ [الملك: ٣]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً﴾ [نوح: ١٦] حيث يدل على مطابقة بعضها بعضا.

د. وقد ذكر الله سبحانه في صفة خلقها أنها كانت رتقاء ففتقها ومتفرقة متلاشية فجمعها وركمها وأنها كانت دخانا فصيرها سماوات، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقال ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾ [فصلت: ١٢] فأفاد أن خلق السماوات إنما تم في يومين، واليوم مقدار معتد به من الزمان وليس من الواجب أن يطابق اليوم في كل ظرف ووعاء يوم أرضنا الحاصل من دورة واحدة من حركتها الوضعية كما أن اليوم الواحد في القمر الذي لهذه الأرض يعدل تسعة وعشرين يوما ونصفا تقريبا من أيام الأرض واستعمال اليوم في البرهة من الزمان شائع في الكلام.

هـ. فقد خلق الله سبحانه السماوات السبع في برهتين من الزمان كما قال في الأرض: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠] فأنبأ عن خلقها في يومين وهما عهدان وطوران وجعل الأقوات في أربعة أيام وهي الفصول الأربعة.

٢. فالمتحصل من الآيات:

أ. أولا: أن خلق السماوات والأرض على ما هي عليه اليوم من الصفة والشكل لم يكن عن عدم بحت بل هي مسبوقة الوجود بمادة متشابهة مركومة مجتمعة ففصل بعض أجزائها عن بعض فجعلت أرضا في برهتين من الزمان وقد كانت السماء دخانا ففصلت وقضيت سبع سماوات في برهتين من الزمان.

ب. وثانيا: أن ما نراه من الأشياء الحية إنما جعلت من الماء فمادة الماء هي مادة الحياة.

٣. وبما قدمنا يظهر معنى الآية التي نحن فيها فقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ المراد بخلقها جمع أجزائها وفصلها وفتقها من سائر ما يختلط بها من المادة المتشابهة المركومة، وقد تم أصل الخلق والرتق في السماوات في يومين وفي الأرض أيضا في يومين ويبقى من الستة الأيام يومان لغير ذلك.

٤. وأما قوله: ﴿وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ﴾:

أ. فهو حال والمعنى وكان عرشه يوم خلقهن على الماء وكون العرش على الماء يومئذ كناية عن أن ملكه تعالى كان مستقرا يومئذ على هذا الماء الذي هو مادة الحياة فعرش الملك مظهر ملكه، واستقراره على محل هو استقرار ملكه عليه كما أن استواءه على العرش احتواءه على الملك وأخذه في تدبيره.

ب. وقول بعضهم: إن المراد بالعرش البناء أخذا من قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] أي يبنون كلام بعيد عن الفهم.

٥. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾:

أ. اللام للغاية والبلاء الامتحان والاختبار، وقوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ بيان للاختبار والامتحان في صورة الاستفهام والمراد أنه تعالى خلق السماوات والأرض على ما خلق لغاية امتحانكم وتمييز المحسنين منكم من المسيئين.

ب. ومن المعلوم أن البلاء والامتحان أمر مقصود لغيره وهو تمييز الجيد من الردي والحسن من السيئ، وكذلك الحسنة والسيئة إنما يراد تمييزهما لأجل ما يترتب عليهما من الجزاء، وكذلك الجزاء إنما يراد لأجل ما فيه من إنجاز الوعد الحق ولذلك نجده تعالى يذكر كل واحد من هذه الأمور المترتبة غاية للخلقة فقال في كون الابتلاء غاية للخلقة: ﴿إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧]، وقال في معنى التمييز والتمحيص: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقال في خصوص الجزاء: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢] وقال في كون الإعادة لإنجاز الوعد: ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] إلى غير ذلك من الآيات، وقال في كون العبادة غرضا في خلق الثقلين: ﴿وَما

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]

ج. وعد العمل الصالح أو الإنسان المحسن غاية للخلقة لا ينافي اشتمال الخلقة على غايات أخرى بعد ما كان الإنسان أحد تلك الغايات حقيقة لأن الوحدة والاتصال الحاكم على العالم يصحح كون كل واحد من أنواع الموجودات غاية للخلقة بما أنه محصول الارتباط ونتيجة الازدواج العام بين أجزائه فمن الجائز أن يخاطب كل نوع من أنواع الخليقة أنه المطلوب المقصود من خلق السماوات والأرض بما أنها تؤدي إليه.

د. على أن الإنسان أكمل وأتقن المخلوقات الجسمانية من السماوات والأرض وما فيهما صنعا ولئن نمى في جانب العلم والعمل نماء حسنا كان أفضل ذاتا مما سواه وأرفع مقاما وأعلى درجة من غيره وإن كان بعض الخليقة كالسماء أشد منه خلقا كما ذكره الله تعالى ومن المعلوم أن كمال الصنع هو المقصود منه إذا اشتمل على ناقص ولذا كنا نعد مراحل وجود الإنسان المختلفة من المنوية والجنينية والطفولية وغيرها مقدمة لوجود الإنسان السوي الكامل وهكذا.

هـ. وبهذا البيان يظهر أن أفضل أفراد الإنسان، إن كان فيهم من هو أفضل مطلقا، غاية لخلق السماوات والأرض، ولفظ الآية أيضا لا يخلو عن إشارة أو دلالة على ذلك فإن قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ يفيد أن القصد إلى تمييز من هو أحسن عملا من غيره سواء كان ذلك الغير محسنا أو مسيئا فمن كان عمله أحسن من سائر الأفراد سواء كانوا محسنين وأعمالهم دون عمله أو مسيئين كان تمييزه منهم هو الغرض المقصود من الخلقة، وبذلك يستصح ما ورد في الحديث القدسي من خطابه تعالى لنبيه ﷺ: (لولاك لما خلقت الأفلاك) فإنه ﷺ أفضل الخلق.

٦. في المجمع: (قال الجبائي: وفي الآية دلالة على أنه كان قبل خلق السماوات والأرض والملائكة لأن خلق العرش على الماء لا وجه لحسنه إلا أن يكون فيه لطف لمكلف يمكنه الاستدلال به فلا بد حينئذ من حي مكلف، وقال علي بن عيسى: لا يمتنع أن يكون في الإخبار بذلك مصلحة للمكلفين فلا يجب ما قاله الجبائي وهو الذي اختاره المرتضى قدس الله روحه)

أ. أقول: وما ذكراه مبني على ما ذهب إليه المعتزلة: أن أفعال الله سبحانه معللة بالأغراض وتابعة للمصالح وجهات الحسن ولو كان ذلك بأن يخلق خلقا ليخبر بذلك المكلفين فيعتبروا به ويؤمنوا له فيتم

بذلك مصلحة من مصالحهم، وقد تقدم في أبحاثنا السابقة أن الله سبحانه لا يحكم عليه ولا يؤثر فيه غيره سواء كان ذلك الغير مصلحة أو أي شيء آخر مفروض وأن غيره أي شيء فرض مخلوق له مدبر بأمره إن كان أمرا ذا واقعية ووجود إن الحكم إلا لله والله خالق كل شيء.

ب. فجهات الحسن والمصلحة وهي التي تحكم علينا وتبعثنا نحو أفعالنا أمور خارجة عن أفعالنا مؤثرة فينا من جهة كوننا فاعلين نروم بها إلى سعادة الحياة، وأما هو سبحانه فإنه أجل من ذلك، وذلك أن جهات الحسن والمصلحة هذه إنما هي قوانين عامة مأخوذة من نظام الكون والروابط الدائرة بين أجزاء الخلقة، ومن الضروري أن الكون وما فيه من النظام الجاري فعله سبحانه، ومن الممتنع جدا أن يتقدم المفهوم المنتزع على ما انتزع منه من الفعل ثم يتخطاه ولا يقنع حتى يتقدم على فاعله الموجد له.

ج. وأما ما في الآية من تعليل خلق السماوات والأرض بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ونظائره الكثيرة في القرآن فإنما هو وأمثاله من قبيل التعليل بالفوائد المترتبة والمصالح المتفرعة وقد أخبر تعالى أن فعله لا يخلو من الحسن إذ قال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، فهو سبحانه هو الخير لا شر فيه وهو الحسن لا قبح عنده وما كان كذلك لم يصدر عنه شر ولا قبيح البتة.

د. وليس مقتضى ما تقدم أن يكون معنى الحسن هو ما صدر عنه تعالى أو الذي أمر به وإن استقبحه العقل، ومعنى القبيح هو ما لا يصدر عنه أو الذي نهى عنه وإن استحسنه العقل واستصوبه فإن ذلك يأباه أمثال قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]

٧. ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾:

أ. لما كان قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ الآية، يشير إلى المعاد أشار إلى ما كان يواجه به الكفار ذكره ﷺ للمعاد برميه بأنه سحر من القول.

ب. فظاهر الآية أنهم كما كانوا يسمون لفظ القرآن الكريم بما فيه من الفصاحة وبلاغة النظم سحرا، كذلك كانوا يسمون ما يخبر به القرآن أو النبي ﷺ من حقائق المعارف التي لا يصدقه أحلامهم كالبعث بعد الموت سحرا، وعلى هذا فهو من مبالغتهم في الافتراء على كتاب الله والتعنت والعناد مع الحق الصريح حيث تعدوا عن رمي اللفظ لفصاحته وبلاغته بالسحر إلى رمي المعنى لصحته واستقامته بالسحر.

ج. ومن الممكن أن يكون المراد بالسحر المغالطة والتمويه بإظهار الباطل في صورة الحق على نحو إطلاق الملزوم وإرادة اللازم لكن لا يلائمه ظاهر قوله تعالى في نظير المورد: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩]

٨. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الطيالسي وأحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي رزين قال: قلت: يا رسول الله أين كان ربنا، قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء.

• أقول: العماء الغيم الذي يمنع نفوذ البصر فيه، و(ما) في قوله: (ما تحته هواء وما فوقه هواء) موصولة والمراد بالهواء هو الخالي من كل شيء كما في قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أو أنها نافية والمراد بالهواء معناه المعروف، والمراد به أنه كان عماء لا يحيط به الهواء على خلاف سائر العماءات.

• والرواية من أخبار التجسم ولذا وجه بأن قوله: في عماء إلخ كناية عن غيب الذات الذي تكل عنه الأبصار وتتحير فيه الألباب.

ب. وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن عمران بن حصين قال: قال أهل اليمن: يا رسول الله أخبرنا عن أول هذا الأمر، كيف كان؟ قال: كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض، فنادى مناد: ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني تركتها.

• أقول: وروى عدة من رجال الحديث هذه الرواية عن بريدة: وقال بريدة في آخرها: (ثم أتاني آت فقال: هذه ناقتك قد ذهبت، فخرجت والسراب ينقطع دونها، فلوددت أني كنت تركتها) وهذا مما يوهن الحديثين.

ج. أخرج داود بن المحبر في كتاب العقل وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ فقلت: ما معنى ذلك يا رسول الله؟ قال: ليبلوكم أيكم أحسن عقلا، ثم قال: وأحسنكم عقلا أورعكم عن محارم الله،

وأعلمكم بطاعة الله.

د. وفي الكافي، مسندا عن سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ قال: قال: ليس يعني أكثركم عملا، ولكن أصوبكم عملا، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة، ثم قال: الإبقاء على العمل، حتى يخلص أشد من العمل، والعمل الخالص: الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد، إلا الله عز وجل والنية أفضل من العمل، ألا إن النية هي العمل، ثم تلا قوله عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شاكِلَتِهِ﴾ يعني على نيته.

• أقول: قوله ألا إن النية هي العمل يعني ليس للعمل أثر إلا لما معه من النية.

٦. تأخير العذاب واستهزاء الكافرين به:

المقطع [٦] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [هود: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٥٤»:

١. ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. اللام في صدر الآية للقسم ولذلك أكد الجواب أعني قوله: ﴿لَيَقُولُنَ﴾ باللام والنون والمعنى: وأقسم لئن أخرنا عن هؤلاء الكفار ما يستحقونه من العذاب قالوا مستهزءين: ما الذي يحبس هذا العذاب الموعود عنا ولما ذا لا ينزل علينا ولا يحل بنا.

ب. وفي هذا إشارة أو دلالة على أنهم سمعوا من كلامه تعالى أو من كلام النبي ﷺ ما يوعدهم بعذاب لا محيص منه وإن الله أخر ذلك تأخيرا رحمة لهم فاستهزءوا به وسخروا منه بقولهم: ﴿ما يَحْبِسُهُ﴾ ويؤيده قوله تعالى عقيب ذلك: ﴿أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ﴾ الآية.

ج. وبهذا يتأيد أن السورة، سورة هود، نزلت بعد سورة يونس لمكان قوله تعالى فيها: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ إلى آخر الآيات.

٢. ﴿إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾:

أ. الأمة الحين والوقت كما في قوله تعالى: ﴿وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي بعد حين ووقت.

ب. وربما أمكن أن يراد بالأمة الجماعة فقد وعد الله سبحانه أن يؤيد هذا الدين بقوم صالحين لا يؤثرون على دينه شيئا ويمكن عند ذلك للمؤمنين دينهم الذي ارتضى لهم قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ [النور: ٥٥]، وهذا وجه لا بأس به.

ج. وقيل: إن المراد بالأمة الجماعة وهم قوم يأتي الله بهم بعد هؤلاء فيصرون على الكفر فيعذبهم بعذاب الاستئصال كما فعل بقوم نوح، أو هم قوم يأتون بعد هؤلاء فيصرون على معصية الله فتقوم عليهم القيامة.

د. والوجهان سخيفان لبنائهما على كون المعذبين غير هؤلاء المستهزءين من الكفار وظاهر قوله تعالى: ﴿أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ الآية، إن المعذبين هم المستهزءون بقولهم: ﴿ما يَحْبِسُهُ﴾

٣. ﴿أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾:

أ. بمنزلة الجواب عن قولهم: ﴿ما يَحْبِسُهُ﴾ الواقع موقع الاستهزاء فإنه في معنى الرد على ما أوعدوا به من العذاب، ومحصله أن هذا العذاب الذي يهددنا لو كان حقا لم يكن لحبسه سبب فإنا كافرون غير عادلين عن الكفر ولا تاركين له فتأخر نزول العذاب من غير موجب لتأخره بل مع الموجب لتعجيله كاشف عن كونه من قبيل الوعد الكاذب، فأجاب الله عن ذلك بأنه سيأتيهم ولا يصرفه يومئذ عنهم صارف ويحيق بهم هذا العذاب الذي كانوا به يستهزءون.

ب. وبما تقدم يظهر أن هذا العذاب الذي يهددون به عذاب دنيوي سيحيق بهم وينزل عليهم دون عذاب الآخرة، وعلى هذا فهذه الآية والتي قبلها يذكر كل منهما شيئا من ما تهوس به الكفار بجهالتهم فالآية السابقة تذكر أنهم إذا ذكر لهم البعث وأنذروا بعذاب يوم القيامة قالوا: إن هذا إلا سحر مبين، وهذه الآية تذكر أن الله إذا أخر عنهم العذاب إلى أمة وأخبروا بذلك قالوا مستهزءين: ما يحبسه.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير النعماني، بإسناده عن إسحاق بن عبد العزيز عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله:

﴿لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ قال: العذاب خروج القائم عليه السلام، والأمة المعدودة أهل بدر وأصحابه.

• أقول: وروى هذا المعنى الكليني في الكافي، والقمي والعياشي في تفسيريهما عن علي والباقر والصادق (عليهم السلام)

ب. وفي المجمع: قيل: إن الأمة المعدودة هم أصحاب المهدي، ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا كعدة أهل بدر، يجتمعون في ساعة واحدة كما يجتمع قزع الخريف، قال: وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام)

ج. وفي تفسير القمي: في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ قال: قال: صبروا في الشدة وعملوا الصالحات في الرخاء.

٧. الرحمة والنعمة واليأس والفرح:

المقطع [٧] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩ـ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٥٦»:

١. ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ﴾:

أ. قال في المجمع: (الذوق تناول الشيء بالفم لإدراك الطعم، وسمى الله سبحانه إحلال اللذات بالإنسان إذاقة لسرعة زوالها تشبيها بما يذاق ثم يزول كما قيل: أحلام نوم أو كظل زائل والنزع قلع الشيء عن مكانه، واليئوس فعول من يئس، صيغة مبالغة، واليأس القطع بأن الشيء المتوقع لا يكون ونقيضه الرجاء)

ب. وقد وضعت الرحمة في الآية مكان النعمة للإشعار بأن النعم التي يؤتيها الله الإنسان عنوانها الرحمة وهي رفع حاجة الإنسان فيما يحتاج إليه من غير استحقاق وإيجاب والمعنى: أنا إن آتينا الإنسان شيئا من النعم التي يتنعم بها ثم نزعناها يئس منها واشتد يأسه حتى كأنه لا يرى عودها إليه ثانيا ممكنا وكفر بنعمتنا كأنه يرى تلك النعمة من حقه الثابت علينا ويرانا غير مالكين لها فالإنسان مطبوع على اليأس عما

أخذ منه والكفران، وقد أخذ في الآية لفظ الإنسان، وهو لفظ دال على نوعه، للدلالة على أن الذي يذكر من صفته من طبع نوعه.

٢. ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾:

أ. قال في المجمع: (النعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه والضراء مضرة يظهر الحال بها لأنهما أخرجتا مخرج الأحوال الظاهرة مثل حمراء وعيناء مع ما فيهما من المبالغة، والفرح والسرور من النظائر وهو انفتاح القلب بما يلتذ به وضده الغم، إلى أن قال: والفخور الذي يكثر فخره وهو التطاول بتعديد المناقب وهي صفة ذم إذا أطلقت لما فيها من التكبر على من لا يجوز أن يتكبر عليه)

ب. والمراد بالسيئات بقرينة المقام المصائب والبلايا التي يسوء الإنسان نزولها عليه، والمعنى: ولئن أصبناه بالنعمة بعد الضراء ليقولن ذهب الشدائد عني، وهو كناية عن الاعتقاد بأن هاتيك الشدائد والنوازل لا تعود بعد زوالها ولا تنزل بعد ارتفاعها ثانيا.

٣. ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ بمنزلة التعليل لقوله: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ فإنه يفرح ولا يزال على ذلك لما ذاقه من النعماء بعد الضراء، ولو كان يرى أن ما عنده من النعماء جائز الزوال لا وثوق على بقائه ولا اعتماد على دوامه، وأن الأمر ليس إليه بل إلى غيره ومن الجائز أن يعود إليه ما تركه من السيئات لم يكن فرحا بذلك فإنه لا فرح في أمر مستعار غير ذي قرار، وإنه ليفخر بما أوتي من النعماء على غيره، ولا فخر إلا بكرامة أو منقبة يملكها الإنسان فهو يرى ما عنده من النعمة أمرا بيده زمامه ليس لغيره أن يسلبه وينزعه منه ويعيد إليه ما ذهب عنه من السيئات ولذلك يفخر ويكثر من الفخر.

٤. ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ذكر سبحانه ما الإنسان مطبوع عليه عند الشدة والبلاء من اليأس والكفر وعند الرخاء والنعماء من الفرح والفخر، ومغزى الكلام أنه مخلوق كليل البصر قصير النظر إنما يرى ما يجده في حاله الحاضرة، ويذهل عما دون ذلك فإن زالت عنه نعمة لم ير لها عودة وأنها كانت من عند الله سبحانه، وله تعالى أن يعيدها إليه إن شاء حتى يصبر على بلائه ويتعلق قلبه به بالرجاء والمسألة، وإن عادت إليه نعمة بعد زوالها رأى أنه يملكها ففرح وفخر ولم ير لله تعالى صنعا في ذلك حتى يشكره عليها ويكف عن الفرح وعن التطاول على غيره بالفخر.

٥. استثنى سبحانه طائفة من الإنسان ووصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ثم

وعدهم وعدا حسنا بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وذلك أن التخلص من هذا الطبع المذموم إنما يتمشى من الصابرين الذين يصبرون عند الضراء فلا يحملهم الجزع على اليأس والكفر، ويعملون الصالحات من الشكر بثنائه تعالى على ما كشف الضراء وأعقب بالنعماء وصرف نعمه في ما يرضيه ويريح خلقه فلا يحملهم الاستغناء على الفرح والفخر، وهؤلاء هم المتخلصون الناجون يغفر لهم ربهم بإمحاء آثار ذلك الطبع المذموم ووضع الخصال المحمودة موضعه ولهم عند ربهم مغفرة وأجر كبير.

٦. وفي الآية دلالة على أن الصبر مع العمل الصالح لا ينفك عن الإيمان فإنها تعد هؤلاء الصابرين مغفرة وأجرا كبيرا، والمغفرة لا تنال المشركين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦]

٧. وقد ورد الوعد بعين ما ذكر في هذه الآية أعني المغفرة والأجر الكبير للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر: ٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]

٨. واتصال الآيات الثلاث بما قبلها ظاهر فإن الكلام كان في الآيات السابقة مسوقا في كفر الكافرين ورميهم الوعد بالبعث بالسحر ومقابلتهم الإيعاد بنزول العذاب بالاستهزاء، فذكر سبحانه أنهم على حالهم الطبعي لا يرون لما عندهم من نعمة الله زوالا بنزول العذاب ولا لما بهم من رث الحال تبدلا إلى العيش الهنيء والمتاع الحسن الذي وعدهم الله به في صدر السورة.

٨. النبي نذير وليس بمسيطر على الكفار:

المقطع [٨] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٥٨»:

١. ﴿فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. لما كانت رسالة النبي ﷺ بما أيدت به من القرآن الكريم والآيات البينات والحجج والبراهين مما لا يسع لذي عقل إنكارها ولا لإنسان صحيح المشاعر ردها والكفر بها كان ما حكى من كفر الكافرين وإنكار المشركين أمرا مستبعدا بحسب الطبع، وإذا كان وقوع أمر على صفة من الصفات مستبعدا أخذ الإنسان في تقرير ذلك الأمر من غير مجرى الاستبعاد طلبا للمخرج من نسبة الوقوع إلى ما يستبعده الطبع.

ب. ولما كان المقام في الآية الكريمة هذا المقام وكان ما حكاه الله سبحانه من كفر المنكرين وإنكار المشركين لما جاء به النبي ﷺ إليهم من الحق الصريح وما أنزل إليه من كلام الله تعالى مع ما يتلوه من البينات والحجج مما لا ينبغي أن يذعن به لبعده طبعا بين تعالى لذلك وجها بعد وجه على سبيل الترجي فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ﴾ الآية، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ﴾ الآية.

ج. فكأنه قيل: من المستبعد أن تهديهم إلى الحق الواضح ويسمعوا منك كلامي ثم لا يستجيبوا دعوتك ويكفروا بالحق بعد وضوحه فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وغير داعيهم إليه ولذلك جبهوك بالإنكار أم يقولون إن القرآن ليس من كلام الله بل هو افتراء افتريته على الله ولذلك لم يؤمنوا به، فإن كنت تركت بعض الوحي خوفا من اقتراحهم عليك الآيات فإنما أنت نذير وليس لك إلا ما شاء الله، وأن يقولوا افتراه فقل لهم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات (إلخ)

د. ومما تقدم يظهر أن إيراد الكلام مورد الترجي والاحتمال لرعاية ما يقتضيه المقام من طبع الاستبعاد فالمقام مقام الاستبعاد ومقتضاه ذكر كل سبب محتمل التأثير في الحادثة المستبعدة، اعتبر ذلك في ملك ينتهي إليه تمرد بعض ضعفاء رعيته فيبعث بعض عماله إلى دعوتهم إلى السمع والطاعة ويكتب في ذلك كتابا يأمره أن يقرأه عليهم ويلومهم على تمردهم واستكبارهم على ما بهم من الضعف والذلة ولولاهم من القوة والسطوة والعزة ثم يبلغ الملك أنهم ردوا على رسوله ما بلغهم من قبله، ويكتب إليه كتابا ثانيا يأمره بقراءته عليهم وإذا فيه: لعلك لم تقرأ كتابي عليهم مخافة أن يقترحوا عليك بما لا تقدر عليه أو أنهم زعموا أن الكتاب ليس من قبلي وإنما افتريته علي افتراء فإن كان الأول فإنك رسول ليس عليك إلا البلاغ وإن كان الثاني فإن الكتاب بخطي كتبته بيدي وختمت عليه بخاتمي ولا يقدر أحد غيري أن يقلدني في ذلك.

هـ. والتأمل في هذا المثال يعطي أن المقام فيما يتضمنه الكتاب الثاني من الخطاب مقام الاستبعاد وأن القصد من ذكر الاحتمالين ترك الإبلاغ وزعم الافتراء ليس هو توبيخ الرسول جدا أو احتمال زعمهم الكذب والفرية جدا، وإنما ذكر الوجهان لداعي أن يكونا كالمقدمة لذكر ما يزول به الشبهتان وهو أن الرسول ليس له من الأمر شيء حتى يقترح، عليه بما يقترح وأن الكتاب للملك ليس فيه ريب ولا شك.

و. ومن هنا يظهر أن قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ الآية،

ليس يفيد الترجي الجدي ولا مسوقا لتوبيخ النبي ﷺ ولا مرادا به تسليته وتطييب نفسه إثر ما كان يناله من الحزن والأسى بكفرهم وجحودهم لما أتى به من الحق الصريح بل الكلام مسوق ليتوصل به إلى ذكر قوله: ﴿إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

ز. فما ذكره بعض المفسرين أن الكلام مسرود لنهي النبي ﷺ عن الحزن وضيق الصدر بما كانوا يواجهونه به من الكفر والجحود، والنهي نهي تسلية وتطييب للنفس نظير ما في قوله: ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] كلام ليس في محله.

ح. ويظهر أيضا أن قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تارِكٌ﴾ الآية، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ﴾ الآية، كشقي الترديد ويتصلان معا بما قبلهما من وجه واحد كما ذكرناه.

٢. ﴿تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ﴾ إنما ذكر البعض لأن الآيات السابقة متضمنة لتبليغ الوحي في الجملة أي لعلك تركت بعض ما أوحينا إليك من القرآن فما تلوته عليهم فلم ينكشف لهم الحق كل الانكشاف حتى لا يجبهوك بما جبهوك به من الرد والجحود، وذلك أن القرآن بعضه يوضح بعضا وشطر منه يقرب شطرا منه من القبول كآيات الاحتجاج توضح الآيات المشتملة على الدعاوي، وآيات الثواب والعقاب تقرب الحق من القبول بالتطميع والتخويف، وآيات القصص والعبر تستميل النفوس وتلين القلوب.

٣. ﴿وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا﴾ الآية، قال في المجمع: (ضائق وضيق بمعنى واحد إلا أن ضائق هاهنا أحسن لوجهين: أحدهما: أنه عارض والآخر أنه أشكل بقوله تارك) والظاهر أن ضمير ﴿بِهِ﴾ راجع إلى قوله: ﴿بَعْضَ ما يُوحى﴾ وإن ذكر بعضهم أن الضمير راجع إلى قولهم: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ الآية، أو إلى اقتراحهم وهذا أوفق بكون قوله ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ الآية، بدلا من الضمير في ﴿بِهِ﴾ وما ذكرناه أوفق بكونه مفعولا له لقوله: ﴿تارِكٌ﴾ والتقدير: لعلك تارك ذلك مخافة أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك.

٤. ﴿إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ جواب عن اقتراحهم بقولهم: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾، وقد تكرر في مواضع من كلامه تعالى ذكر ما اقترحوه اقتصر في بعضها على ذكر مجيء الملك وزيد في بعضها

عليه غيره كاقتراح الإتيان بالله سبحانه ليشهد على الرسالة وأن يكون له جنة يأكل منها وأن ينزل من السماء كتابا يقرءونه، وقد أجاب الله سبحانه عنها جميعا بمثل ما أجاب به هاهنا وهو أن رسوله ليس له إلا الرسالة فليس بيده وهو بشر رسول أن يجيبهم إلى ما اقترحوا به عليه إلا أن يشاء الله في ذلك شيئا ويأذن في إتيان آية كما قال: ﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [غافر: ٧٨]

٥. ثم عقب قوله: ﴿إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ بقوله: ﴿وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾:

أ. لتتميم الجواب عن اقتراحهم على النبي ﷺ بالمعجزات ومحصله: أن النبي ﷺ بشر مثلهم ولم يؤمر إلا بالإنذار وهو الرسالة بإعلام الخطر، والقيام بالأمور كلها وتدبيرها سواء كانت جارية على العادة أو خارقة لها إنما هو إلى الله سبحانه فلا وجه لتعلقهم بالنبي ﷺ فيما ليس إليه.

ب. وذلك أن الله سبحانه هو الموجد للأشياء كلها وفاطرها وهو القائم على كل شيء فيما يجري عليه من النظام فما من شيء إلا وهو تعالى المبدأ في أمره وشأنه والمنتهى سواء الأمور الجارية على العادة والخارقة لها فهو تعالى الذي يسلم إليه أمره ويدبر شأنه فهو تعالى الوكيل عليه فإن الوكيل هو الذي يسلم إليه الأمر وينفذ فيه منه الحكم فهو تعالى على كل شيء وكيل.

ج. وبذلك يظهر أن قوله: ﴿وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ بمعونة من قوله: ﴿إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ يفيد قصر القلب فإنهم سألوا النبي ﷺ أمرا ليس إليه وإنما هو إلى الله تعالى.

٩. التحدي بعشر سور مثل القرآن:

المقطع [٩] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٦٢»:

١. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ قد تقدم من الكلام ما يصح به أخذ ﴿أَمْ﴾ متصلة لكون قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تارِكٌ﴾ الآية، في معنى الاستفهام، والتقدير: أفأنت تارك بعض ما يوحى إليك خوفا من اقتراحهم المعجزة أم يقولون إنك افتريته علينا فإن من المستبعد أن يقرأ عليهم كلامي ثم لا يؤمنوا به وقيل: إن أم مقطعة والمعنى: بل يقولون افتراه.

٢. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى التحدي بالقرآن وبيان جهات إعجازه]، خلاصته:

أ. بيان أن التحدي في الآية يشمل جميع جهات القرآن: المعارف الحقيقية، والحجج البرهانية، والمواعظ، والأخلاق، والشرائع، والأخبار الغيبية، والفصاحة والبلاغة، لا البلاغة وحدها.

ب. إثبات أن قوله: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يدل على أن التحدي ليس مقصوراً على البلاغة، لأنه يشمل من لا يعرف العربية.

ج. توضيح أن آيات التحدي المختلفة (بسورة، بعشر سور، بحديث مثله، بالقرآن كله) تهدف إلى إظهار إعجاز القرآن من وجوه متعددة، لا أنها متناقضة.

د. الرد على من زعم أن جهة الإعجاز هي البلاغة فقط، وبيان أن ذلك لا يفسر التحدي بعشر سور بعد التحدي بسورة واحدة.

هـ. بيان أن المثل في قوله: ﴿بِمِثْلِهِ﴾ لا يعني المثل في الجنس، بل يعني المماثلة في جميع الخصائص المعجزة، وهو ما لا يقدر عليه البشر ولو اجتمعوا.

و. الرد على شبهة أن القرآن قد يكون من كلام بشر فائق البلاغة، وبيان أن البشر قادرون على تقليد بعضهم البعض في الكمالات، بينما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، مما يثبت أنه غير بشري.

ز. توضيح أن قوله: ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ في هذه الآية دون غيرها، لأن التحدي هنا يتعلق بالعلم الإلهي الخاص الذي لا سبيل للبشر إليه.

٣. ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾:

أ. إجابة الدعوة واستجابتها بمعنى.

ب. والظاهر من السياق أن الخطاب في الآية للمشركين، وأنه من تمام كلام النبي ﷺ الذي أمر بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ إن يلقيه إليهم، وعلى هذا فضمير الجمع في قوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ راجع إلى الآلهة وكل من استعانوا به المدلول عليهم بقوله: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾

ج. والمعنى: فإن لم يستجب لكم معاشر المشركين هؤلاء الذين دعوتموهم من آلهتكم ومن بلغاء أهل لسانكم العارفين بأساليب الكلام وعلماء أهل الكتاب الذين عندهم الكتب السماوية وأخبار الأنبياء والأمم والكهنة المستمدين من إلقاء شياطين الجن، وجهابذة العلم والفهم من سائر الناس المتعمقين في المعارف الإنسانية بأطرافها فاعلموا أنما أنزل هذا القرآن بعلم الله ولم يختلق عن علمي أنا ولا غيري ممن

تزعمون أنه يعلمني ويملي علي، واعلموا أيضا أن ما أدعوكم إليه من التوحيد حق فإنه لو كان هناك إله من دون الله لنصركم على ما دعوتموه إليه فهل أنتم أيها المشركون مسلمون لله تعالى منقادون لأمره؟

د. فقوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ في معنى قولنا: فإن لم تقدروا على المعارضة بعد الاستعانة والاستمداد بمن استطعتم أن تدعوهم من دون الله، وذلك أن الأسباب التي توجب قدرتهم على المعارضة هي ما عندهم من قدرة البيان وقريحة البلاغة وهم يرون أن ذلك من مواهب آلهتهم من دون الله وكذا ما عند آلهتهم مما لم يهبوهم بعد، ولهم أن يؤيدوهم به إن شاءوا على زعمهم، وأيضا ما عند غير آلهتهم من المدد، وإذا لم يستجبهم الذين يدعونهم في معارضة القرآن فقد ارتفع جميع الأسباب الموجبة لقدرتهم وارتفعت بذلك قدرتهم فعدم إجابته الشركاء على معارضة القرآن ملازم لعدم قدرتهم عليها حتى بما عند أنفسهم من القدرة ففي الكلام كناية.

٤. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بعلم الله هو العلم المختص به وهو الغيب الذي لا سبيل لغيره تعالى إليه إلا بإذنه كما قال تعالى: ﴿لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ النساء: ١٦٦، وقال: ﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يوسف: ١٠٢، وقال: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ﴾ الجن: ٢٧، وقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ الواقعة: ٨٠.

ب. فالمعنى: فإن لم تقدروا على معارضته بأي سبب ممد تعلقتم به من دون الله فتيقنوا أنه لم ينزل إلا عن سبب غيبي وأنه من أنباء الغيب الذي يختص به تعالى فهو الذي أنزله علي وكلمني به وأراد تفهيمي وتفهيمكم بما فيه من المعارف الحقة وذخائر الهداية.

ج. وذكر بعضهم أن المراد به أنه إنما أنزل على علم من الله بنزوله وشهادة منه له، وذكر آخرون أن المراد أنه إنما أنزل بعلم من الله أنه لا يقبل المعارضة أو بعلم من الله بنظمه وترتيبه ولا يعلم غيره ذلك وهذه معان واهية بعيدة عن الفهم.

د. والجملة أعني قوله: ﴿أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ إحدى النتيجتين المأخوذتين من عدم استجابة شركائهم لهم، والنتيجة الأخرى قوله: ﴿وَأَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولزوم هذه النتيجة من وجهين:

• أحدهما: أنهم إذا دعوا آلهتهم لما يهمهم من الأمور فلم يجيبوهم كشف ذلك عن أنهم ليسوا بآلهة فليس الإله إلا من يجيب المضطر إذا دعاه وخاصة إذا دعاه لما فيه نفع الإله المدعو فإن القرآن الذي أتى به النبي ﷺ كان يقطع دابرهم ويميت ذكرهم ويصرف الناس عن التوجه إليهم فإذا لم يجيبوا أولياءهم إذا دعوهم لمعارضة كتاب هذا شأنه كان ذلك من أوضح الدليل على نفي ألوهيتهم.

• وثانيهما: أنه إذا صح أن القرآن حق نازل من عند الله صادق فيما يخبر به، ومما يخبر به أنه ليس مع الله إله آخر علم بذلك أنه لا إله إلا الله سبحانه.

هـ. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي لما علمتم واتضح لكم من جهة عدم استجابة شركائكم من دون الله وعجزكم عن المعارضة فهل أنتم مسلمون لما وقع عليه علمكم هذا من توحيد الله سبحانه وكون هذا القرآن كتابا نازلا بعلمه؟ وهو أمر بالإسلام في صورة الاستفهام هذا كله ما يقتضيه ظاهر الآية.

و. وقيل: إن الخطاب في قوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ الآية، للنبي ﷺ خوطب بلفظ الجمع تعظيما له وتفخيما لشأنه وضمير الجمع الغائب راجع إلى المشركين أي فإن لم يستجب المشركون لما دعوتهم أيها النبي إليه من المعارضة فاعلم أنه منزل بعلم الله وأن الله واحد فهل أنت مسلم لأمره.

• وفيه أنه قد صح أن التعظيم بلفظ الجمع والكثرة يختص في الكلام العربي بالمتكلم وأما الخطاب والغيبة فلا تعظيم فيها بلفظ الجمع.

• مضافا إلى أن استناد الوحي الإلهي والتكليم الرباني إليه تعالى استناد ضروري لا يقبل الشك حتى يستعان عليه بالدليل فما يتلقاه النبي ﷺ دلالته على كونه كلاما من الله دلالة ضرورية غير محتاجة إلى حجة حتى يحتج عليه بعدم إجابة المشركين إلى معارضة القرآن وعجزهم عنها بخلاف كلام المخلوقين من الإنسان والجن والملك وأي هاتف آخر فإنه يحتاج في حصول العلم باستناده إلى متكلمه إلى دليل خارجي من حسن أو عقل، وقد تقدمت إشارة إلى ذلك في قصة زكريا من سورة آل عمران، وسيجيء البحث المستوفى عن ذلك فيما يناسبه من المورد إن شاء الله تعالى.

• على أن خطاب النبي ﷺ بمثل قوله: ﴿وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ لا يخلو عن بشاعة، على أن نفس الاستدلال أيضا غير تام كما سنبين.

ز. وقيل: إن الخطاب في الآية للنبي ﷺ والمؤمنين جميعا أو للمؤمنين خاصة لأن المؤمنين يشاركونه

ﷺ في الدعوة الدينية والتحدي بالقرآن الذي هو كتاب ربهم المنزل عليهم والمعنى: فإن لم يستجب المشركون لكم في المعارضة فاعلموا أن القرآن منزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل تسلمون أنتم لله؟

ح. ولما تفطن بعضهم أن لا معنى لدعوة المؤمنين وهم مؤمنون بالله وحده وبكتابه إلى العلم بأنه كتاب نازل من عند الله وبأنه تعالى واحد لا شريك له أصلحه بأن المراد فاثبتوا على علمكم أنه إنما أنزل بعلم الله وازدادوا به إيمانا ويقينا وأنه لا إله إلا هو ولا يستحق العبادة سواه فهل أنتم ثابتون على إسلامكم والإخلاص فيه؟

• وفيه أنه تقييد للآية من غير مقيد والحجة غير تامة وذلك أن المشركين لو كانوا وقفوا موقف المعارضة بما عندهم من البضاعة واستعانوا عليها بدعوة آلهتهم وسائر من يطمعون فيه من الجن والإنس ثم عجزوا كان ذلك دليلا واضحا يدلهم على أن القرآن فوق كلام البشر وتمت بذلك الحجة عليهم، وأما عدم استجابة الكفار للمعارضة فليس يدل على كونه من عند الله لأنهم لم يأتمروا بما أمروا به بقوله: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ إما لعلمهم بأنه كلام الله الحق وإنما كان قولهم: ﴿افْتَرَاهُ﴾ قولا ناشئا عن العناد واللجاج لا عن إذعان به أو شك فيه، أو لأنهم كانوا آيسين من استجابة شركائهم للدعوة على المعارضة، أو لأنهم كانوا هازلين في قولهم ذلك يهذرون هذرا.

ط. وبالجملة عدم استجابة المشركين للنبي ﷺ أو للمؤمنين أو لهم جميعا لا يدل بنفسه على كون القرآن نازلا من عند الله إلا إذا كان عدم الاستجابة المذكورة بعد تحقق دعوتهم شركاءهم إلى المعارضة وعدم استجابتهم لهم، ولم يتحقق من المشركين دعوة على هذه الصفة، ومجرد عدم استجابة المشركين أنفسهم لا ينفع شيئا، ولا يبقى إلا أن يقال: إن معنى الآية: فإن دعا المشركون من استطاعوا من دون الله فلم يستجيبوا لهم ولم يستجب المشركون لكم أيها النبي ومعاشر المؤمنين فاعلموا أنما أنزل بعلم الله إلخ، وهذا هو الذي أومأنا إليه آنفا أنه تقييد للآية من غير مقيد.

ي. على أن فيه أمرا للمؤمنين أن يهتدوا في إيمانهم ويقينهم بأمر فرضي غير واقع وكلامه تعالى يجل عن ذلك، ولو أريدت الدلالة على أنهم غير قادرين على ذلك وإن دعوا شركاءهم إلى المعارضة كان من حق الكلام أن يقال: فإن لم يستجيبوا لكم ولن يستجيبوا فاعلموا إلخ، كما قيل كذلك في نظيره قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]

١٠. الدنيا والآخرة والحبط والبطلان:

المقطع [١٠] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٧٥»:

١. ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ﴾:

أ. التوفية إيصال الحق إلى صاحبه وإعطاؤه له بكماله، والبخس نقص الأجر.

ب. وفي الآية تهديد لهؤلاء الذين لا يخضعون للحق لما جاءهم ولا يسلمون له إيثارا للحياة الدنيا ونسيانا للآخرة، وبيان لشيء من سنة الأسباب القاضية عليهم باليأس من نعيم الحياة الآخرة، وذلك أن العمل كيفما كان فإنما يسمح للإنسان بالغاية التي أرادها به وعمله لأجلها، فإن كانت غاية دنيوية تصلح شئون الحياة الدنيا من مال وجمال وحسن حال ساقه العمل، إن أعانته سائر الأسباب العاملة، إلى ما يرجوه بالعمل وأما الغايات الأخروية فلا خبر عنها لأنها لم تقصد حتى تقع، ومجرد صلاحية العمل لأن يقع في طريق الآخرة وينفع في الفوز بنعيمها كالبر والإحسان وحسن الخلق لا يوجب الثواب وارتفاع الدرجات ما لم يقصد به وجه الله ودار ثوابه.

٢. ولذلك عقبه بقوله تعالى: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فأخبر أنهم إذا وردوا الحياة الآخرة وقعوا في دار حقيقتها أنها نار تأكل جميع أعمالهم في الحياة كما تأكل النار الحطب وتبير وتهلك كل ما تطيب به نفوسهم من محاسن الوجود، وتحبط جميع ما صنعوا فيها وتبطل ما أسلفوا من الأعمال في الدنيا، ولذلك سماها سبحانه في موضع آخر بدار البوار أي الهلاك فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ الله كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها﴾ إبراهيم: ٢٩، وبذلك يظهر أن كلا من قوله: ﴿وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها﴾ وقوله: ﴿وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يفسر قوله: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ نوعا ما من التفسير.

٣. وبما تقدم يظهر:

أ. أولا: أن المراد من توفية أعمالهم إليهم توفية نتائجها وإيصال الآثار التي لها بحسب نظام

الأسباب والمسببات لا ما يقصده الفاعل بفعله ويرجوه بمسعاه فإن الذي يناله الفاعل في هذه النشأة بفعله هو نتيجة الفعل التي يعينه سائر الأسباب العاملة عليها لا ما يؤمه الفاعل كيفما كان فما كل ما يتمنى المرء يدركه، وقد عبر تعالى عن هذه الحقيقة في موضع آخر بقوله: ﴿وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ الشورى: ٢٠، فقال تعالى: ﴿نُؤْتِهِ مِنْها﴾ ولم يقل: نؤته إياها، وقال في موضع آخر: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ إسراء: ١٨ فذكر ما يريده الإنسان من الدنيا ويناله منها وزاد بيانا أنه ليس كل من يريد أمرا يناله ولا كل ما يراد ينال بل الأمر إلى الله سبحانه يعطي ما يشاء ويمنع ما يشاء ويقدم من يريد ويؤخر من يريد على ما تجري عليه سنة الأسباب.

ب. وثانيا: أن الآيتين أعني قوله: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ﴾ إلى آخر الآيتين تبينان حقيقة من الحقائق الإلهية.

١١. البيّنة والشاهد وكتاب موسى:

المقطع [١١] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٨٣»:

١. ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً﴾:

أ. الجملة تفريع على ما مضى من الكلام الذي هو في محل الاحتجاج على كون القرآن كتابا منزلا من عند الله سبحانه، و﴿فَمَنْ﴾ مبتدأ خبره محذوف والتقدير: كغيره، أو ما يؤدي معناه، والدليل عليه قوله تلوا: ﴿أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾

ب. والاستفهام إنكاري والمعنى: ليس من كان كذا وكذا كغيره ممن ليس كذلك وأنت على هذه الصفات فلا تك في مرية من القرآن.

٢. ﴿عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾:

أ. البينة صفة مشبهة معناها الظاهرة الواضحة غير أن الأمور الظاهرة الواضحة ربما أوضحت ما

ينضم إليها ويتعلق بها كالنور الذي هو بين ظاهر ويظهر به غيره، ولذلك كثر استعمال البينة فيما يتبين به غيره كالحجة والآية، ويقال للشاهد على دعوى المدعي بينة.

ب. وقد سمى الله تعالى الحجة بينة كما في قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] وسمى آيته بينة كما في قوله: ﴿قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] وسمى البصيرة الخاصة الإلهية التي أوتيها الأنبياء بينة كما في قوله حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ [هود: ٢٨] أو مطلق البصيرة الإلهية كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ﴾ سورة [محمد: ١٤] وقد قال تعالى في معناه: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ [الأنعام: ١٢٢]

ج. والظاهر أن المراد بالبينة في المقام هو هذا المعنى الأخير العام بقرينة قوله بعد: ﴿أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وإن كان المراد به بحسب المورد هو النبي ﷺ فإن الكلام مسوق ليتفرع عليه قوله: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾، فالمراد بها البصيرة الإلهية التي أوتيها النبي عليه السلام لا نفس القرآن النازل عليه فإنه لا يحسن ظاهرا أن يتفرع عليه قوله: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ وهو ظاهر ولا ينافيه كون القرآن في نفسه بينة من الله من جهة كونه آية منه تعالى كما في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] فإن المقام غير المقام.

د. وبما مر يظهر أن قول من يقول: إن المراد بمن كان إلخ، النبي خاصة إرادة استعمالية ليس في محله وإنما هو مراد بحسب انطباق المورد، وكذا قول من قال: إن المراد به المؤمنون من أصحاب النبي ﷺ فلا دليل على التخصيص.

هـ. ويظهر أيضا فساد القول بأن المراد بالبينة هو القرآن، وكذا القول بأنها حجة العقل وأضيفت إلى الرب تعالى لأنه ينصب الأدلة العقلية والنقلية، ووجه فساده أنه لا دليل على التخصيص ولا تقاس البينة القائمة للنبي عليه السلام من ناحيته تعالى بالتعريف الإلهي القائم لنا من ناحية العقول.

٣. ﴿وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾:

أ. المراد بالشهادة تأدية الشهادة التي تفيد صحة الأمر المشهود له دون تحملها فإن المقام مقام تثبيت

حقية القرآن وهو إنما يناسب الشهادة بمعنى التأدية لا بمعنى التحمل.

ب. والظاهر أن المراد بهذا الشاهد بعض ما أيقن بحقية القرآن وكان على بصيرة إلهية من أمره فآمن به عن بصيرته وشهد بأنه حق منزل من عند الله تعالى كما يشهد بالتوحيد والرسالة فإن شهادة الموقن البصير على أمر تدفع عن الإنسان مرية الاستيحاش وريب التفرد فإن الإنسان إذا أذعن بأمر وتفرد فيه ربما أوحشه التفرد فيه إذا لم يؤيده أحد في القول به أما إذا قال به غيره من الناس وأيد نظره في ذلك زالت عنه الوحشة وقوي قلبه وارتبط جأشه وقد احتج تعالى بما يماثل هذا المعنى في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠]

ج. وعلى هذا فقوله: ﴿يَتْلُوهُ﴾ من التلو لا من التلاوة، والضمير فيه راجع إلى ﴿فَمَنْ﴾ أو إلى ﴿بَيِّنَةٍ﴾ باعتبار أنه نور أو دليل، ومآل الوجهين واحد فإن الشاهد الذي يلي صاحب البينة يلي بينته كما يلي نفسه والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى ﴿فَمَنْ﴾ دون قوله: ﴿رَبِّهِ﴾ وعدم رجوعه إلى البينة ظاهر ومحصل المعنى: من كان على بصيرة إلهية من أمر ولحق به من هو من نفسه فشهد على صحة أمره واستقامته.

د. وعلى هذا الوجه ينطبق ما ورد في روايات الفريقين أن المراد بالشاهد علي عليه السلام إن أريد به أنه المراد بحسب انطباق المورد لا بمعنى الإرادة الاستعمالية.

٤. وللقوم في معنى الجملة أقوال شتى:

أ. فقيل: إن (يتلو) من التلاوة كما قيل: إنه من التلو.

ب. وقيل: إن الضمير في ﴿يَتْلُوهُ﴾ راجع إلى ﴿بَيِّنَةٍ﴾ كما قيل: إنه راجع إلى ﴿فَمَنْ﴾

ج. وقيل: المراد بالشاهد القرآن.

د. وقيل: جبرائيل يتلو القرآن على النبي ﷺ ولعله مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]

هـ. وقيل: الشاهد ملك يسدد النبي ﷺ ويحفظه القرآن، ولعله لنوع من الاستناد إلى الآية المذكورة.

و. وقيل: الشاهد هو النبي ﷺ وقد قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥]

ز. وقيل: شاهد منه لسانه أي يتلو القرآن بلسانه.

ح. وقيل: الشاهد علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد وردت به عدة روايات من طرق الشيعة وأهل السنة.

• والتأمل في سياق الآية وظاهر جملها يكفي مئونة إبطال هذه الوجوه غير ما قدمناه من معنى الآية فلا نطيل الكلام بالبحث عنها والمناقشة فيها.

٥. ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً﴾:

أ. الضمير راجع إلى الموصول أو إلى البينة على حد ما ذكرناه في ضمير ﴿يَتْلُوهُ﴾ والجملة حال بعد حال أي أفمن كان على بصيرة إلهية ينكشف له بها أن القرآن حق منزل من عند الله والحال أن معه شاهدا منه يشهد بذلك عن بصيرة والحال أن هذا الذي هو على بينة سبقه كتاب موسى إماما ورحمة أو قبل بينته التي منها القرآن أو هي القرآن المشتمل على المعارف والشرائع الهادية إلى الحق كتاب موسى إماما فليس هو أو ما عنده من البينة ببدع من الأمر غير مسبوق بمثل ونظير بل هناك طريق مسلوك من قبل يهدي إليه كتاب موسى.

ب. ومن هنا يظهر وجه توصيف كتاب موسى وهو التوراة بالإمام والرحمة فإنه مشتمل على معارف حقة وشريعة إلهية يؤتم به في ذلك ويتنعم بنعمته، وقد ذكره الله بهذا الوصف في موضع آخر من كلامه فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]

٦. والآيات، كما ترى، أقرب الآيات مضمونا من الآية المبحوث عنها تذكر:

أ. أولا: أن القرآن بينة إلهية أو أمر قامت عليه بينة إلهية.

ب. ثم تذكر شهادة الشاهد من بني إسرائيل عليه وتأيده بها.

ج. ثم تذكر أنه مسبوق فيما يتضمنه من المعارف والشرائع بكتاب موسى الذي كان إماما ورحمة يأتم به الناس ويهتدون، وطريقا مسلوكا مجربا، والقرآن كتاب مثله مصدق له منزل من عند الله لإنذار الظالمين وتبشير المحسنين.

د. ومن هنا يظهر أيضا: أن قوله: ﴿إِماماً وَرَحْمَةً﴾ حال من كتاب موسى لا من قوله: ﴿شاهِدٌ مِنْهُ﴾ على ما ذكره بعضهم.

٧. ﴿أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾:

أ. المشار إليهم بقوله: ﴿أُولئِكَ﴾ بناء على ما تقدم من معنى صدر الآية هم الذين كانوا على بينة من ربهم المدلول عليهم بقوله: ﴿أَفَمَنْ كانَ﴾ الآية، وأما إرجاع الإشارة إلى المؤمنين لدلالة السياق عليهم فبعيد عن الفهم.

ب. وكذا الضمير في قوله: ﴿رَبِّهِ﴾ راجع إلى القرآن من جهة أنه بينة منه تعالى أو أمر قامت عليه البينة، وأما إرجاعه إلى النبي ﷺ فلا يلائم ما قررناه من معنى الآية فإن في صدر الآية بيان حال النبي ﷺ بنحو العموم حتى يتفرع عليه قوله: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ كأنه قيل: إنك على بينة كذا ومعك شاهد وقبلك كتاب موسى، ومن كان على هذه الصفة يؤمن بما أوتي من كتاب الله، ولا يصح أن يقال: ومن كان على هذه الصفة يؤمن بك، والكلام في الضمير في ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ كالكلام في ضمير ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾

ج. وأمر الآية فيما يحتمله مفردات ألفاظها وضمائرها عجيب فضرب بعضها في بعض يرقى إلى ألوف من المحتملات بعضها صحيح وبعضها خلافه.

٨. ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ المرية كجلسة النوع من الشك، والجملة تفريع على صدر الآية، والمعنى أن من كان على بينة من ربه في أمر وقد شهد عليه شاهد منه وقبله إمام ورحمة ككتاب موسى ليس كغيره من الناس الغافلين المغفلين فهو يؤمن بما عنده من أمر الله ولا يوحشه إعراض أكثر الناس عما عنده، وأنت كذلك فإنك على بينة من ربك ويتلوك شاهد ومن قبلك كتاب موسى إماما ورحمة وإذا كان كذلك فلا تك في مرية من أمر ما أنزل إليك من القرآن إنه محض الحق من جانب الله ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

٩. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ تعليل للنهي وقد أكد بإن ولام الجنس للدلالة على توافر الأسباب النافية للمرية وهي قيام البينة وشهادة الشاهد وتقدم كتاب موسى إماما ورحمة.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أحمد بن عمر الخلال قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن قول الله عز

وجل: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ فقال: أمير المؤمنين عليه السلام هو الشاهد من رسول الله ﷺ، ورسول الله على بينة من ربه.

ب. وفي أمالي الشيخ، بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي بن الحسين عن الحسن عليه السلام: في خطبة طويلة خطبها بمحضر معاوية، منها، فأدت الأمور وأفضت الدهور، إلى أن بعث الله محمدا ﷺ للنبوة واختاره للرسالة، وأنزل عليه كتابه ثم أمره بالدعاء إلى الله عز وجل، فكان أبي أول من استجاب لله عز وجل ولرسله، وأول من آمن وصدق الله ورسوله، وقد قال الله عز وجل في كتابه المنزل على نبيه المرسل: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ فرسول الله ﷺ الذي على بينة من ربه، وأبي الذي يتلوه وهو شاهد منه، الخطبة.

• أقول: وكلامه عليه السلام أحسن شاهد على ما قدمناه في معنى الآية أن إرادته عليه السلام بالشاهد من باب الانطباق.

ج. وفي بصائر الدرجات، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: لو كسرت لي الوسادة فقعدت عليها، لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم وأهل الإنجيل بإنجيلهم، وأهل الفرقان بفرقانهم بقضاء يصعد إلى الله يزهر، والله ما نزلت آية في كتاب الله في ليل أو نهار، إلا وقد علمت فيمن أنزلت، ولا أحد ممن مر على رأسه المواسي، إلا وقد أنزلت آية فيه من كتاب الله، تسوقه إلى الجنة أو النار، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، ما الآية التي نزلت فيك؟ قال: أما سمعت الله يقول: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ فرسول الله ﷺ على بينة من ربه، وأنا الشاهد له ومنه.

• أقول: وروى هذا المعنى المفيد في الأمالي، مسندا وفي كشف الغمة، مرسلا عن عباد بن عبد الله الأسدي عنه عليه السلام، والعياشي في تفسيره مرسلا عن جابر عن عبد الله بن يحيى عنه عليه السلام وكذا ابن شهرآشوب عن الطبري بإسناده عن جابر بن عبد الله عنه عليه السلام وكذا عن الأصبغ وعن زين العابدين والباقر والصادق عليه السلام عنه عليه السلام.

د. أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ رسول الله ﷺ على بينة من ربه، وأنا شاهد منه.

• أقول: وفي تفسير البرهان، عن تفسير الثعلبي بإسناده عن الشعبي يرفعه إلى علي عليه السلام مثله وفيه عن ابن المغازلي يرفعه إلى عباد بن عبد الله عن علي عليه السلام مثله، وكذا عن كنوز الرموز للرسعني مثله.

هـ. وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أنا ﴿وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ قال: علي.

• أقول: وفي تفسير البرهان، عن ابن المغازلي في تفسير الآية عن النبي ﷺ مثله.

و. وفي تفسير البرهان، عن ابن المغازلي بإسناده عن علي بن حابس قال: دخلت أنا وأبو مريم على عبد الله بن عطاء، قال أبو مريم: حدث علينا الحديث الذي حدثتني به عن أبي جعفر، قال: كنت عند أبي جعفر جالسا إذ مر علينا ابن عبد الله بن سلام، قلت: جعلت فداك هذا ابن الذي عنده علم الكتاب، قال: لا ولكنه صاحبكم علي بن أبي طالب، الذي نزلت فيه آيات من كتاب الله تعالى: ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾

ز. وفيه، عن ابن شهرآشوب عن الحافظ أبي نعيم بثلاثة طرق عن ابن عباس قال: قال سمعت عليا يقول: قول الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ رسول الله ﷺ على بينة، وأنا الشاهد.

ح. وفيه، أيضا عن موفق بن أحمد قال: قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ قال ابن عباس: هو علي، يشهد للنبي ﷺ وهو منه.

• أقول: ورواه عن الثعلبي في تفسيره يرفعه إلى ابن عباس: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ علي خاصة.

• أقول: قال صاحب المنار، في تفسير الآية عند ذكر معاني الشاهد: (ومنها: أنه علي ترويه الشيعة ويفسرونه بالإمامة، وروي: أنه كرم الله وجهه سئل عنه فأنكره وفسره بأنه لسانه ﷺ، وقابلهم خصومهم بمثلها فقالوا: أنه أبو بكر، وهما من التفسير بالهوى)

• أما قوله: (إن الشيعة ترويه) فقد عرفت أن رواته من أهل السنة أكثر من الشيعة، وأما قوله: (إنه مثل تفسيره بأبي بكر من التفسير بالهوى) فيكفيك في ذلك ما تقدم في معنى الآية فراجع.

١٢. الكذب واللعنة والصدود:

المقطع [١٢] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود: ١٨-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٨٧»:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ إلى آخر الآية:

أ. من الممكن أن يكون ذيلا للسياق السابق من حيث كان تطييبا لنفس النبي ﷺ فيئول المعنى إلى أنك إذ كنت على بينة من ربك لست بظالم فحاشاك أن تكون مفتريا على الله الكذب لأن المفتري على الله كذبا من أظلم الظالمين، ولهم من وبال كذبهم كذا وكذا.

ب. وكيف كان فالمراد بافتراء الكذب على الله سبحانه توصيفه تعالى بما ليس فيه أو نسبة شيء إليه بغير الحق أو بغير علم، والافتراء من أظهر أفراد الظلم والإثم، ويعظم الظلم بعظم متعلقه حتى إذا انتهى إلى ساحة العظمة والكبرياء كان من أعظم الظلم.

ج. والكلام واقع موقع قلب الدعوى عليهم إذ كانوا يقولون للنبي ﷺ: إنه افترى على الله كذبا بنسبة القرآن إليه فقلب القول عليهم أنهم هم الذين افتروا على الله كذبا إذا أثبتوا له شركاء بغير علم وهو الله لا إله إلا هو، وإذ صدوا عن سبيل الله ومعناه نفي كونه سبيلا لله وهو افتراء، وإذ طلبوا سبيلا أخرى فاستنوا بها في حياتهم وكان ذلك تغييرا لسبيل الله التي تهدي إليها الفطرة والنبوة، وإذ كفروا بالآخرة فنفوها وذلك إثبات مبدإ من غير معاد ونسبة اللغو وفعل الباطل إليه تعالى وهو افتراء عليه.

د. وبالجملة انتحالهم بغير دين الله ونحلته، وأخذهم بالعقائد الباطلة في المبدإ والمعاد واستنانهم بغير سنة الله في حياتهم الدنيوية الاجتماعية، والذي من الله إنما هو الحق ولا سنة عند الله إلا دين الحق، افتراء على الله، وسيشهد عليهم الأشهاد بذلك يوم يعرضون على ربهم.

٢. ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ العرض إظهار الشيء ليرى ويوقف عليه، ولما كان ارتفاع الحجب بينهم وبين ربهم يوم القيامة بظهور آياته ووضوح الحق الصريح من غير شاغل يشغل عنه حضورا اضطراريا منهم لفصل القضاء سماه عرضا لهم على ربهم كما سمي بوجه آخر بروزا منهم لله فقال: ﴿يَوْمَ

هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿وَبَرَزُوا للهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] فقال: ﴿أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ﴾ أي يأتي بهم الملائكة الموكلون بهم فيوقفونهم موقفا ليس بينهم وبين ربهم حاجب حائل لفصل القضاء.

٣. ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ﴾:

أ. الأشهاد جمع شهيد كأشراف جمع شريف وقيل: جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب، ويؤيد الأول قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١] وقوله: ﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]

ب. وقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم شهادة منهم عليهم بالافتراء على الله أي سجل عليهم بأنهم المفترون من جهة شهادة الأشهاد عليهم بذلك في موقف لا يذكر فيه إلا الحق ولا مناص فيه عن الاعتراف والقبول كما قال تعالى: ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ [النبأ: ٣٨] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ [آل عمران: ٣٠]

٤. ﴿أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ الآية:

أ. تتمة قول الأشهاد، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥]

ب. وهذا القول منهم المحكي في كلامه تعالى تثبيت منهم للبعد واللعن على الظالمين وتسجيل للعذاب، وليس اللعن والرحمة يوم القيامة كاللعن والرحمة في الدنيا كما في قوله تعالى: ﴿أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] وذلك أن الدنيا دار عمل ويوم القيامة يوم جزاء فما فيه من لعنة أو رحمة هو إيصال ما ادخر لهم إليهم فلعن اللاعن أحدا يوم القيامة طرده من رحمة الله الخاصة بالمؤمنين وتسجيل عذاب البعد عليه.

٥. ثم فسر سبحانه الظالمين بقوله حكاية عنهم: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ﴾ فهم الذين لا يذعنون بيوم الحساب حتى يعملوا له وإنما يعملون للدنيا ويسلكون من طريق الحياة ما يتمتعون به للدنيا المادية فحسب، وهو السنة الاجتماعية غير المعتنية بما يريده

الله من عباده من دين الحق وملة الفطرة فهؤلاء سواء اعتقدوا بصانع وعملوا بسنة محرفة منحرفة عن دين الفطرة وهو الإسلام أم لم يعتقدوا به ممن يقول: إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، ظالمون مفترون على الله الكذب، وقد تقدم بعض الكلام المتعلق بهذه المعاني في سورة الأعراف [آية: ٤٤ ـ: ٤٥]

٦. وقد بان مما تقدم من البحث في الآيتين:

أ. أولا: أن الدين في عرف القرآن هو السنة الاجتماعية الدائرة في المجتمع.

ب. وثانيا: أن السنن الاجتماعية إما دين حق فطري وهو الإسلام أو دين محرف عن الدين الحق وسبيل الله عوجا.

١٣. الظالمون لا يعجزون الله ولا أولياء لهم:

المقطع [١٣] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٩٠»:

١. ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِياءَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الإشارة إلى المفترين على الله الموصوفين بما مر في الآيتين السابقتين.

ب. والمقام يدل على أن المراد من كونهم غير معجزين في الأرض أنهم لم يكونوا معجزين لله سبحانه في حياتهم الأرضية حيث خرجوا عن زي العبودية فأخذوا يفترون على الله الكذب ويصدون عن سبيله ويبغونها عوجا فكل ذلك لا لأن قدرتهم المستعارة فاقت قدرة الله سبحانه ومشيتهم سبقت مشيته، ولا لأنهم خرجوا من ولاية الله فدخلوا في ولاية غيره وهم الذين اتخذوهم أولياء من أصنامهم وكذا سائر الأسباب التي ركنوا إليها، وذلك قوله: ﴿وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِياءَ﴾

ج. وبالجملة لا قدرتهم غلبت قدرة الله سبحانه ولا شركاؤهم الذين يسمونهم أولياء لأنفسهم أولياء لهم بالحقيقة يدبرون أمرهم ويحملونهم على ما يأتون به من البغي والظلم بل الله سبحانه هو وليهم وهو المدبر لأمرهم يجازيهم على سوء نياتهم وأعمالهم بما يجرهم إلى سوء العذاب ويستدرجهم من حيث لا يشعرون كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً

وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

٢. ﴿يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ﴾ ذلك لأنهم فسقوا ثم لجوا عليه أو لأنهم عصوا الله بأنفسهم وحملوا غيرهم على معصية الله فيضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا المعصية قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وقال: ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾ [يس: ١٢]

٣. ﴿ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ﴾ في مقام التعليل ولذا جيء بالفصل يقول تعالى إنهم لم يكفروا ولم يعصوا لظهور إرادتهم على إرادة الله ولا لأن لهم أولياء من دون الله يستظهرون بهم على الله بل لأنهم ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا ما يأتيهم من الإنذار والتبشير من ناحيته أو يذكر لهم من البعث والزجر من قبله وما كانوا يبصرون آياته حتى يؤمنوا بها كما وصفهم في قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وفي قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وآيات أخرى كثيرة تدل على أنه تعالى سلبهم عقولهم وأعينهم وآذانهم غير أنه تعالى يحكي عنهم مثل قولهم: ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ [الملك: ١١]، واعترافهم بأن عدم سمعهم وعقلهم كان ذنبا منهم مع أن ذلك مستند إلى سلبه تعالى منهم ذلك يدل على أنهم أنفسهم توسلوا إلى سلب هذه النعم بالذنوب كما يدل عليه ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وغيره.

٤. وذكروا في معنى قوله: ﴿ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ﴾ وجوها أخرى:

أ. منها: أن قوله: ﴿ما كانُوا﴾ (إلخ)، في محل النصب بنزع الخافض وهو متعلق بقوله: ﴿يُضاعَفُ﴾ (إلخ)، والأصل: بما كانوا يستطيعون السمع وبما كانوا يبصرون، والمعنى يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون وبما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون.

ب. ومنها: أنه عنى بقوله: ﴿ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الآية، نفي السمع والبصر عن آلهتهم وأوثانهم، وتقدير الكلام أولئك الكفار وآلهتهم لم يكونوا معجزين في الأرض، وقال مخبرا عن الآلهة: ﴿ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ﴾

ج. ومنها: أن لفظة ما في ﴿ما كانُوا﴾ ليست للنفي بل تجري مجرى قولهم: لأواصلنك ما لاح نجم، والمعنى أنهم معذبون ما داموا أحياء.

د. ومنها: أن نفي السمع والبصر بمعنى نفي الفائدة فإنهم لاستثقالهم استماع آيات الله والنظر فيها وكراهيتهم لذلك أجروا مجرى من لا يستطيع السمع ولا يبصر فالكلام على الكناية.

هـ. وأعدل الوجوه آخرها وهي جميعا سخيفة ظاهرة السخافة والوجه ما قدمناه.

١٤. الخاسرون حقاً هم الذين خسروا أنفسهم:

المقطع [١٤] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢١-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٩٢»:

١. ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أما خسرانهم فإن الإنسان لا يملك بالحقيقة، وذلك بتمليك من الله تعالى، إلا نفسه وإذا اشترى لنفسه ما فيه هلاكها وضيعتها بالكفر والمعصية فقد خسر في هذه المعاملة التي أقدم عليها نفسه فخسران النفس كناية عن الهلاك، وأما ضلال ما كانوا يفترون فإنه كان كذبا وافتراء ليس له وجود في الخارج من أوهامهم ومزاعمهم التي زينتها لهم الأهواء والهوسات الدنيوية وبانطواء بساط الحياة الدنيا يزول وينمحي تلك الأوهام ويضل ما لاح واستقر فيها من الكذب والافتراء ويومئذ يعلمون أن الله هو الحق المبين، ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

٢. ﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾:

أ. عن الفراء: أن (لا جرم) في الأصل بمعنى لا بد ولا محالة ثم كثرت فحولت إلى معنى القسم وصارت بمعنى (حقا) ولهذا تجاب باللام نحو لا جرم لأفعلن كذا)، وقد ذكروا أن (جرم) بفتحتين بمعنى القطع فلعلها كانت في الأصل تستعمل في نتائج الكلام كلفظة (لا محالة) وتفيد أنه لا يقطع هذا القول قاطع أن كذا كذا كما يتصور نظير المعنى في (لا محالة) فمعنى الآية على هذا: حقا إنهم في الآخرة هم الأخسرون.

ب. ووجه كونهم في الآخرة هم الأخسرين أن فرض أنهم أخسر بالنسبة إلى غيرهم من أهل

المعاصي هو أنهم خسروا أنفسهم بإهلاكها وإضاعتها بالكفر والعناد فلا مطمع في نجاتهم من النار في الآخرة كما لا مطمع في أن يفوزوا في الدنيا ويسعدوا بالإيمان ما داموا على العناد، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وقال تعالى في هؤلاء المختوم على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم: ﴿وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠]، وقال أيضا في سبب عدم إمكان إيمانهم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]

ج. وإن فرض أنهم أخسر بالنسبة إلى الدنيا فذلك لكونهم بكفرهم وصدهم عن سبيل الله حرموا سعادة الحياة التي يمهدها لهم الدين الحق فخسروا في الدنيا كما خسروا في الآخرة لكنهم في الآخرة أخسر لكونها دائمة مخلدة وأما الدنيا فليست إلا قليلا، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]

د. على أن الأعمال تشتد وتتضاعف في الآخرة بنتائجها كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٢]، وأحسن الوجهين أولهما لأن ظاهر الآية حصر الأخسرين فيهم دون إثبات أخسريتهم في الآخرة قبال الدنيا.

١٥. المؤمنون الصالحون المخبتون أصحاب الجنة:

المقطع [١٥] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ [هود: ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٩٣»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال الراغب في المفردات: الخبت المطمئن من الأرض وأخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل وأنجد ثم استعمل الإخبات في استعمال اللين والتواضع قال الله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ﴾، وقال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ أي المتواضعين نحو لا يستكبرون عن عبادته، وقوله: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تلين وتخشع)

ب. فالمراد بإخباتهم إلى الله اطمئنانهم إليه بحيث لا يتزلزل ما في قلوبهم من الإيمان به فلا يزيغون ولا يرتابون كالأرض المطمئنة التي تحفظ ما استقر فيها فلا وجه لما قيل إن الأصل، أخبتوا لربهم فإن ما في معنى الاطمئنان يتعدى بإلى دون اللام.

ج. وتقييده تعالى الإيمان والعمل الصالح بالإخبات إليه يدل على أن المراد بهم طائفة خاصة من المؤمنين وهم المطمئنون منهم إلى الله ممن هم على بصيرة من ربهم، وهو الذي أشرنا إليه في صدر الآيات عند قوله: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ الآية أن الآيات تقيس ما بين فريقين خاصين من الناس وهم أهل البصيرة الإلهية ومن عميت عين بصيرته.

د. ومن هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين أن هذه الآيات السبع يعني قوله: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ إلى قوله﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ بيان لحال الفريقين وهم الذين يكفرون بالقرآن والذين يؤمنون به.

٢. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: إن عندنا رجلا يقال له: كليب، فلا يجيء عنكم شيء إلا قال: أنا أسلم فسميناه كليب تسليم، قال: فترحم عليه ثم قال: أتدرون ما التسليم؟ فسكتنا فقال: هو والله الإخبات، قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ﴾

• أقول: وروى مثله العياشي في تفسيره والكشي وكذا صاحب البصائر عن أبي أسامة زيد الشحام عنه عليه السلام.

١٦. مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع:

المقطع [١٦] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٩٤»:

١. ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ المثل هو الوصف، وغلب في المثل السائر وهو بيان معنى من المعاني الخفية على المستمع بأمر محسوس أو كالمحسوس يأنس به ذهنه ويتلقاه فهمه لينتقل به إلى المعنى المعقول المقصود بيانه، والمراد بالفريقين من بين حالهما في الآيات السابقة، والباقي واضح.

١٧. نوح يدعو قومه فيستهزئون به:

المقطع [١٧] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٥-٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ١٩٨»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ القراءة المعروفة ﴿إِنِّي﴾ بكسر الهمزة على تقدير القول وقرئ أني بفتح الهمزة بنزع الخافض والتقدير بأني لكم نذير مبين، والجملة أعني قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ على أي حال بيان إجمالي لما أرسل به فإن جميع ما بلغه قومه عن ربه وأرسل به إليهم إنذار مبين فهو نذير مبين، فكما أنه لو قال: ما سألقيه إليكم من القول إنذار مبين كان بيانا لجميع ما أرسل به إليهم بأوجز كلمة كذا قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بيان لذلك بالإجمال غير أنه يزيد على سابقه ببيان سمة نفسه وهي أنه رسول من الله إليهم لينذرهم بعذاب الله، وليس له من الأمر شيء أزيد من أنه واسطة يحمل الرسالة.

٢. ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾:

أ. بيان ثان لما أرسل به أو بيان لقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ومآل الوجهين واحد، وأن على أي حال مفسرة، والمعنى أن محصل رسالته النهي عن عبادة غير الله تعالى من طريق الإنذار والتخويف.

ب. وذكر بعض المفسرين أن الجملة أعني قوله: ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا﴾ الآية، بدل من قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أو مفعول لقوله مبين، ولعل السياق يؤيد ما قدمناه.

ج. والظاهر أن المراد بعذاب يوم أليم عذاب الاستئصال دون عذاب يوم القيامة أو الأعم من العذابين يدل على ذلك قولهم له فيما سيحكيه الله تعالى عنهم: ﴿يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شاءَ﴾ الآية، فإنه ظاهر في عذاب الاستئصال، فهو عليه السلام كان يدعوهم إلى رفض عبادة الأوثان ويخوفهم من يوم ينزل عليهم من الله عذاب أليم أي مؤلم ونسبة الإيلام إلى اليوم دون العذاب في قوله: ﴿عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ من قبيل وصف الظرف بصفة المظروف.

د. وبما تقدم يندفع ما ربما قيل: إن تعذيب المشركين مقطوع لا محتمل فما الوجه في خوفه عليه

السلام من تعذيبهم المقطوع؟ والخوف إنما يستقيم في محتمل الوقوع لا مقطوعه.

هـ. وبالجملة كان عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه بتخويفهم من العذاب، وإنما كان يخوفهم لأنهم كانوا يعبدون الأوثان خوفا من سخطهم فقابلهم نوح عليه السلام بأن الله سبحانه هو الذي خلقهم ودبر شئون حياتهم وأمور معاشهم بخلق السماوات والأرض وإشراق الشمس والقمر وإنزال الأمطار وإنبات الأرض وإنشاء الجنات وشق الأنهار على ما يحكيه تعالى عنه عليه السلام في سورة نوح، وإذ كان كذلك كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه فليخافوا عذابه وليعبدوه وحده.

و. وهذه الحجة في الحقيقة حجة برهانية مبنية على اليقين لكنهم إنما كانوا يتلقونها حجة جدلية مبنية على الظن لأنهم لسذاجة أفهامهم كانوا يتوقعون سخط الرب وعذابه على المخالفة لأنهم يرونه وليا لأمرهم مصلحا لشأنهم فيقيسون أمره بأمر الأولياء من الإنسان الحاكمين في من دونهم من أفراد المجتمع الذين يجب الخضوع لمقامهم والتسليم لإرادتهم ولو استكبر عن الخضوع لهم والتسليم لإرادتهم من دونهم سخطوا عليهم وعاقبوهم بما أجرموا وتمردوا.

ز. وعلى هذا القياس يجب إرضاء الرب أو الأرباب الذين يرجع إليهم أمر الكون وولاية النظام الجاري فيه فيجب إرضاؤه وإخماد نار غضبه بالخضوع له والتقرب إليه بتقديم القرابين والتضحية وسائر أنحاء العبادة فهكذا كانوا يعتقدون وهو مبني على الظن.

ح. لكن مسألة نزول العذاب على الاستنكاف عن عبادة الله تعالى والاستكبار عن التسليم والخضوع لساحة الربوبية مسألة حقيقية يقينية فإن من النواميس الكلية الجارية في الكون لزوم خضوع الضعيف للقوي والمتأثر المقهور للمؤثر القاهر فما قولك في الله الواحد القهار الذي إليه مصير الأمور.

ط. وقد أبدع الله سبحانه أجزاء الكون وربط بعضها ببعض ثم أجرى الحوادث على نظام الأسباب وعلى ذلك يجري كل شيء في نظام وجوده فلو انحرف عما يخطه له سائر الأسباب من الخط أدى ذلك إلى اختلال نظامها وكان ذلك منازعة منه لها وعند ذلك ينتهض سائر الأسباب الكونية من أجزاء الوجود لتعديل أمره وإرجاعه إلى خط يلائمها تدفع بذلك الشر عن نفسها فإن استقام هذا الجزء المنحرف عن خطه المخطوط له فهو وإلا حطمتها حاطمات الأسباب ونازلات النوائب والبلايا، وهذا أيضا من النواميس الكلية.

ي. والإنسان الذي هو أحد أجزاء الكون له في حياته خط خطه له الصنع والإيجاد فإن سلكه هداه إلى سعادته ووافق بذلك سائر أجزاء الكون وفتحت له أبواب السماء ببركاتها وسمحت له الأرض بكنوز خيراتها، وهذا هو الإسلام الذي هو الدين عند الله تعالى المدعو إليه بدعوة نوح ومن بعده من الأنبياء والرسل عليه السلام.

ك. وإن تخطاه وانحرف عنه فقد نازع أسباب الكون وأجزاء الوجود في نظامها الجاري وزاحمها في شئون حياتها فليتوقع مر البلاء ولينتظر العذاب والعناء فإن استقام في أمره وخضع لإرادة الله سبحانه وهي ما تحطمه من الأسباب العامة فمن المرجو أن تتجدد له النعمة بعد النقمة وإلا فهو الهلاك والفناء وإن الله لغني عن العالمين، وقد تقدم هذا البحث في بعض أجزاء الكتاب السابقة.

٣. ﴿فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا﴾ إلى آخر الآية:

أ. الفاء في صدر الآية لتفريع جوابهم عن قول نوح عليه السلام، وفيه إشارة إلى أنهم بادروه بالرد والإنكار من دون أن يفكروا في أنفسهم فيختاروا ما هو أصلح لهم.

ب. والمجيبون هم الملأ من قومه والأشراف والكبراء الذين كفروا به ولم يتعرضوا في جوابهم لما ألقى إليهم من حجة التوحيد بل إنما اشتغلوا بنفي رسالته والاستكبار عن طاعته فإن قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ إلى آخر الآيتين، كان مشتملا على دعوى الرسالة وملوحا إلى وجوب الاتباع وقد صرح به فيما حكي عنه في موضع آخر، قال تعالى: ﴿قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣]

ج. ومحصل ما نقله الله تعالى من جوابهم هو أنه لا دليل على لزوم اتباعك بل الدليل على خلافه فهو في الحقيقة حجتان منظومتان على طريق الإضراب والترقي ولذلك أخر قولهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ﴾

٤. والحجة الأولى التي مدلولها عدم الدليل على وجوب اتباعه مبينة بطرق ثلاث هي قوله: ﴿ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً﴾ الآية، وقوله: ﴿وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا﴾، إلخ، والحجة بجميع أجزائها مبنية على إنكار ما وراء الحس كما سنبين ولذلك كرروا فيه قولهم: ما نراك ونرى.

أ. فقوله: ﴿ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا﴾ أول جوابهم عما يدعيه نوح عليه السلام من الرسالة، وقد تمسكوا فيه بالمماثلة كما هو دأب سائر الأمم مع أنبيائهم على ما حكاه الله تعالى في كتابه وتقريره: أنك مثلنا

في البشرية ولو كنت رسولا إلينا من عند الله لم تكن كذلك ولا نشاهد منك إلا أنك بشر مثلنا، وإذ كنت بشرا مثلنا لم يكن هناك موجب لاتباعك، ففي الكلام تكذيب لرسالته عليه السلام بأنه ليس إلا بشرا مثلهم ثم استنتاج من ذلك أنه لا دليل على لزوم اتباعه، والدليل على ما ذكرنا قول نوح عليه السلام فيما سيحكيه الله تعالى من كلامه: ﴿يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ الآية.

ب. وقد اشتبه الأمر على بعض المفسرين فقرر قولهم: ﴿ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا﴾ بأنهم ساووه بأنفسهم في الزنة الاجتماعية واستنتجوا منها أنه لا وجه لاتباعهم له، قال في تفسير الآية: أجابوه بأربع حجج داحضة، إحداها: أنه بشر مثلهم فساووه بأنفسهم في الجملة، وهذا يدل على أنه عليه السلام كان من طبقتهم أو ما يقرب منها في بيته وفي شخصه وهكذا كان كل رسول من وسط قومه، ووجه الجواب أن المساواة تنافي دعوى تفوق أحد المتساويين على الآخر بجعل أحدهما تابعا طائعا والآخر متبوعا مطاعا لأنه ترجيح بغير مرجح)

• ولو كان المعنى ما ذكره لكان من حق الكلام أن يقال: أنت مثلنا أو نراك مثلنا دون أن يقال: ما نراك إلا بشرا مثلنا فيذكر أنه بشر ولا حاجة إلى الإشارة إلى بشريته، ولكان معنى الكلام عائدا إلى المراد من قولهم بعد: وما نرى لكم علينا من فضل، وكان فضلا من الكلام.

• ومن العجب استفادته من الكلام مساواته عليه السلام لهم في البيت والشخصية ثم قوله: (وهكذا كان كل رسول من وسط قومه) وفي الرسل مثل إبراهيم وسليمان وأيوب عليه السلام.

٥. ﴿وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ﴾ قال في المفردات: الرذل، بفتح الراء، والرذال، بكسرها، المرغوب عنه لرداءته قال تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ﴾ وقال: ﴿قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ جمع الأرذل، وقال في المجمع: (الرذل الخسيس الحقير من كل شيء والجمع أرذل ثم يجمع على أراذل كقولك: كلب وأكلب وأكالب، ويجوز أن يكون جمع الأرذل فيكون مثل أكابر جمع أكبر، وقال: والرأي الرؤية من قوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي رؤية العين والرأي أيضا ما يراه الإنسان في الأمر وجمعه آراء) وقال في المفردات: (وقوله: ﴿بادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي ما يبدأ من الرأي وهو الرأي الفطير، وقرئ: بادي بغير همزة أي الذي يظهر من الرأي ولم يترو فيه)

٦. ﴿بادِيَ الرَّأْيِ﴾:

أ. يحتمل أن يكون قيدا لقوله: ﴿هُمْ أَراذِلُنا﴾ أي كونهم أراذل وسفلة فينا معلوم في ظاهر الرأي والنظر أو في أول نظرة.

ب. ويحتمل كونه قيدا لقوله: ﴿اتَّبَعَكَ﴾ أي اتبعوك في ظاهر الرأي أو في أوله من غير تعمق وتفكر ولو تفكروا قليلا وقلبوا أمرك ظهرا لبطن ما اتبعوك، وهذا الاحتمال لا يستغني عن تكرار الفعل ثانيا والتقدير: اتبعوك بادي الأمر وإلا اختل المعنى لو لم يتكرر وقيل: ما نراك اتبعك في بادي الرأي إلا الذين هم أراذلنا.

٧. وبالجملة معنى الآية: أنا نشاهد أن متبعيك هم الأراذل والأخساء من القوم ولو اتبعناك ساويناهم ودخلنا في زمرتهم وهذا ينافي شرافتنا ويحط قدرنا في المجتمع، وفي الكلام إيماء إلى بطلان رسالته عليه السلام بدلالة الالتزام فإن من معتقدات العامة أن القول لو كان حقا نافعا لتبعه الشرفاء والعظماء وأولوا القوة والطول فلو استنكفوا عنه أو اتبعه الأخساء والضعفاء كالعبيد والمساكين والفقراء ممن لا حظ له من مال أو جاه ولا مكانة له عند العامة فلا خير فيه.

٨. ﴿وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ﴾:

أ. المراد نفي مطلق الفضل من متاع دنيوي يختصون بالتنعم به أو شيء من الأمور الغيبية كعلم الغيب أو التأيد بقوة ملكوتية وذلك لكون النكرة، فضل، واقعة في سياق النفي فتفيد العموم.

ب. وقد أشركوا أتباع نوح عليه السلام والمؤمنين به منهم في دعوته إذ قالوا: ﴿وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا﴾ ولم يقولوا: (ولا نرى لك) لأنهم كانوا يحثونهم ويرغبونهم في اتباع ما اتبعوه من الطريقة، والمعنى أن دعوتكم إيانا، وعندنا ما نتمتع به من مزايا الحياة الدنيا كالمال والبنين والعلم والقوة، إنما يستقيم ويؤثر أثره لو كان لكم شيء من الفضل تفضلون به علينا من زينة الحياة الدنيا أو علم من الغيب أو قوة من الملكوت حتى يوجب ذلك خضوعا منا لكم ولا نرى شيئا من ذلك عندكم فأي موجب يوجب علينا اتباعكم؟

ج. وإنما عممنا الفضل في كلامه للفضل من حيث الجهات المادية وغيره كعلم الغيب والقوة الملكوتية خلافا لأكثر المفسرين حيث فسروا الفضل بالفضل المادي كالمال والكثرة وغيرهما، لما يستفاد من

كلامهم من العموم لوقوع النكرة في سياق النفي، مضافا إلى أن ما يحاذي قولهم هذا من جواب نوح عليه السلام يدل على ذلك وهو قوله: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ الآية على ما سيأتي.

٩. ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ﴾ إضراب في الاحتجاج كما تقدمت الإشارة إليه فمحصله أنا لا نرى معكم أمرا يوجب اتباعنا لكم بل هناك أمر يوجب عدم الاتباع وهو أنا نظنكم كاذبين، ومعناه على ما يعطيه السياق، والله أعلم، أنه لما لم يكن عندكم ما يشاهد معه صحة دعوتكم وأنكم تلحون علينا بالسمع والطاعة وأنتم صفر الأيدي من مزايا الحياة من مال وجاه وهذه الحال تستدعي الظن بأنكم كاذبون في دعواكم تريدون بها نيل ما بأيدينا من أماني الحياة بهذه الوسيلة وبالجملة هذه أمارة توجب عادة الظن بأنها أكذوبة يتوسل بها إلى اقتناء الأموال والقبض على ثروة الناس والاستعلاء عليهم بالحكم والرئاسة، وهذا كما حكى الله سبحانه عنهم في مثل القصة إذ قال: ﴿فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وبهذا يظهر وجه تعليقهم الكذب بالظن دون الجزم، وأن المراد بالكذب الكذب المخبري دون الخبري.

١٠. وضع هنا مبحثا حول [قصة نوح عليه السلام]، خلاصته:

أ. ذكر اسم نوح عليه السلام في القرآن في بضع وأربعين موضعاً، وفصلت قصته في ست سور هي: الأعراف، هود، المؤمنون، الشعراء، القمر، ونوح، وأكثرها تفصيلاً سورة هود.

ب. كان الناس بعد آدم على الفطرة حتى فشا فيهم الاستكبار والاستعلاء، واتخذوا الأصنام أنداداً، فبعث الله نوحاً بالكتاب والشريعة يدعوهم إلى التوحيد والمساواة والعدل.

ج. لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، فلم يؤمن به إلا القليل، فأوحى الله إليه أن يصنع الفلك، وأمره أن يحمل من كل زوجين اثنين ومن أهله إلا من سبق عليه القول، فغرق الكافرون ونجا المؤمنون.

د. قصة ابن نوح الغريق تبين أدبه مع ربه في مناجاته، حيث نادى ربه مستفسراً لا سائلاً، وأدبه الله بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾

هـ. نوح هو أول أولي العزم، وأول من أتى بكتاب وشريعة، وهو الأب الثاني للنسل الحاضر،

وإليه ينتهي دين التوحيد في العالم، وخصه الله بسلام عام: ﴿سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ﴾

و. التوراة الحاضرة تخالف القرآن في عدة وجوه: لم تذكر استثناء امرأة نوح، ولم تذكر ابنه الغريق، وذكرت عمره ٩٥٠ سنة بينما القرآن يذكر أنها مدة لبثه في قومه قبل الطوفان، وذكرت خصوصيات (كقوس قزح والغراب والحمامة) لم ترد في القرآن، وكثير منها بالإسرائيليات أشبه.

١١. وضع هنا مبحثا حول [هل كانت نبوة نوح عليه السلام عامة للبشر؟]، خلاصته:

أ. اختلفت آراء العلماء في عموم رسالة نوح عليه السلام: فالمعروف عند الشيعة عموم رسالته، وورد من طرق أهل البيت أن أولي العزم من الأنبياء (نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد) كانوا مبعوثين إلى الناس كافة.

ب. أهل السنة منهم من قال بعموم رسالته مستنداً إلى ظواهر الآيات (كقوله: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾، وحديث الشفاعة أن نوحاً أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض)

ج. ومنهم من أنكر ذلك مستنداً إلى حديث (كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة)، وأولوا الآيات بأن المراد بالأرض هي أرض قومه خاصة.

د. الحق أن النبوة تعتمد على حقيقة تكوينية لا اعتبارية، وهي ناموس تكميل الأنواع وهدايتها إلى غاياتها الوجودية، والنوع الإنساني لا يتم كماله إلا بالاجتماع التعاوني، والاجتماع لا يتم إلا بقوانين تحكم فيه، والعقل وحده لا يكفي لذلك لأنه يدعو إلى الاختلاف والاستخدام.

هـ. من الواجب في العناية الإلهية أن تهدي المجتمع الإنساني إلى تعاليم تسعده وتكمله، وهذه الهداية لا تتم إلا بالوحي، والوحي طريق آخر غير طريق التفكر والتعقل، وهو نوع تكليم إلهي يعلم الإنسان ما يفوز به.

و. الآيات القرآنية (كقوله: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ﴾، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾) تدل على أن شريعة نوح كانت عامة، وأنها أول الشرائع الإلهية المنزلة على البشر.

ز. الروايات الدالة على عدم عموم دعوته مخالفة للكتاب، وفي حديث الرضا عليه السلام أن أولي العزم من الأنبياء لهم شريعة وكتاب ونبوتهم عامة لجميع من سواهم.

١٢. وضع هنا مبحثا حول [عبادة الأصنام]، خلاصته:

أ. الإنسان مفطور على الخضوع لقوة فائقة، وهو شديد الولع بتجسيم الأمور المعنوية وتمثيل غير المحسوس في قالب المحسوس، مما أوقعه في تصور الله على صورة خيالية مادية، رغم تنزيهه لفظاً.

ب. العبادة هي خضوع وتذلل نفساني أمام قوة قاهرة، وهي فطرة إنسانية لا يمكن ردعها، والإسلام لم ينه عن عبادة غير الله إلا بعد أن بين أنهم مخلوقون أمثالهم، وأن العزة والقوة لله جميعاً.

ج. نشأت الوثنية من اتخاذ تماثيل للرجال العظماء بعد موتهم، ثم تطورت إلى عبادة أصنام أرباب الأنواع والشفعاء، واتخذ الناس أصناماً للكواكب وللملائكة وللجن، وصولاً إلى عبادة الأصنام نفسها.

د. الوثنية الصابئية تبتني على ربط حوادث العالم بالأجرام العلوية، واتخاذ أصنام وتماثيل لها، ويتولى كهنتها الذبائح والقرابين، والبرهمية تؤمن بثالوث (برهما، وشنو، سيوا) وبالتناسخ، والبوذية تدعو إلى التخلص من الألم بالزهد والخلق الكريم، ولا تتحدث عن الإله.

هـ. وثنية العرب نشأت بعد أن أدخل عمرو بن لحي صنم (هبل) إلى مكة ودعا إلى عبادة الأصنام، بعد أن كان العرب على دين إبراهيم حنفاء، وانتشرت أصنام كثيرة كاللات والعزى ومناة، واختلط في دينهم آثار من الصابئة والبرهمية واليهودية والنصرانية، مع بقاء بعض سنن الحنيفية كالحج والختان.

١٣. وضع هنا مبحثا حول [دفاع الإسلام عن التوحيد ومنازلته الوثنية]، خلاصته:

أ. الدعوة الإلهية لم تزل تخاصم الوثنية وتندب إلى التوحيد، وقد أجمل الله ذلك في قوله: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

ب. بدأ النبي ﷺ دعوته العامة بدعاء الوثنيين إلى التوحيد بالحكمة والموعظة، فقوبل بالاستهزاء والأذى، واضطر المؤمنون إلى الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، ثم قاتلهم حتى فتح مكة وكسر الأصنام حول الكعبة.

ج. الإسلام شديد العناية بحسم مادة الوثنية، وذلك من خلال المعارف الأصلية (كالتوحيد الخالص)، والأخلاق الكريمة (كالتوكل والثقة بالله)، والأحكام الشرعية (كالنهي عن السجدة لغير الله، والنهي عن التصوير واتخاذ التماثيل)

د. الشرك ينقسم إلى جلي وخفي، وله مراتب كثيرة لا يسلم من جميعها إلا المخلصون، وهو أخفى

من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء، وقد ورد في الروايات أن القلب السليم هو الذي لا شرك فيه ولا شك.

هـ. بنى النبي ﷺ سيرته على التوحيد ونفي الشركاء، فساوى بين الناس في الأحكام، وعاش كأحدهم لا يمتاز في مأكل أو ملبس أو مجلس، ونبذ الفخر والتحكم لأحد على أحد إلا كرامة التقوى.

١٤. وضع هنا مبحثا حول [تعليم القرآن مقارناً بتعاليم الأديان الأخرى]، خلاصته:

أ. التناسخ من الأصول الأولية للبرهمية والبوذية والصابئية، وهو الاعتقاد بأن العالم محكوم بالكون والفساد دائماً، وأن النفس تنتقل بعد الموت إلى بدن آخر، وتعيش سعيدة أو شقية بحسب أعمالها، إلا من عرف (البرهم) واتحد به فإنه ينجو من الولادة الثانية.

ب. رسائل (أوبانيشاد) ـ القسم الرابع من (ويدا) ـ تحتوي على حقائق سامية توافق التوحيد، وتنفي عبادة الأصنام وتقر بالقيامة والثواب والعقاب، لكن علماء البراهمة أولوها بما يتوافق مع التناسخ والوثنية.

ج. إخفاء المعارف الإلهية على العامة (بتقديمها بالرمز والأمثال) يؤدي إلى إلغاء سنة الفطرة الاجتماعية، وإهمال طريق العقل، وتسليط التقليد الإجباري، وإنفاذ سنة الاستعباد، وهذا ما وقع في الوثنية والصابئة والمجوس واليهود والنصارى.

د. الإسلام أصلح هذه المفاسد بتقديم المعارف العالية في قالب بيان ساذج يصلح للعقول العادية، مع إبقائها مسفرة للخاصة، فجمع بين عرض الدين للعامة والخاصة، وإعمال العقل، والتقريب بين الطبقات الاجتماعية.

هـ. الإسلام عالج غائلة الشرك بنفي الاستقلال عن كل شيء إلا الله، وركز الأفهام بين التشبيه والتنزيه، وأمر بأن لا يقال في ذلك إلا عن علم وحجة عقلية، وأسس المساواة بين الناس قائلاً: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ الله أَتْقاكُمْ﴾

١٥. وضع هنا مبحثا حول [الاستشفاع والتوسل وزيارة القبور]، خلاصته:

أ. يظن بعضهم أن الاستشفاع بالنبي وآله المعصومين، ومسألة الله بحقهم، وزيارة قبورهم وتقبيلها والتبرك بتربتهم، من الشرك المنهي عنه، محتجين بأن ذلك إعطاء تأثير ربوبي لغير الله، وأن

المشركين قالوا مثل ذلك في أصنامهم.

ب. هذا القول فاتهم أن ثبوت التأثير في غير الله ضروري، والقرآن يسند التأثير بجميع أنواعه إلى غيره، والمنفي هو الاستقلال في التأثير لا مطلق التأثير، فنفي مطلق التأثير يستلزم إبطال قانون العلية الذي هو ركن أدلة التوحيد.

ج. الفرق بين الشرك والتوسل: أن المشركين أعطوا الأصنام الاستقلال وقصدوهم بالعبادة دون الله، أما المسلم فيتمحض العبادة لله وحده، ويستشفع بالأنبياء والأولياء بإذن الله، ويتوسل بتعظيم شعائره وحب أوليائه، من غير أن يعطيهم استقلالاً في التأثير.

د. لو قال المشركون: (نعبد الله وحده ونرجو أن يشفع لنا ملائكته أو رسله بإذنه) لما كفروا، بل عادت شركاؤهم كالكعبة التي هي وجهة لا معبودة.

هـ. الحجر الأسود والكعبة في الإسلام مستلمان ومقبلان، لكنهما ليسا معبودين، بل هما وجهة وشعيرة من شعائر الله، فتعظيمها من تقوى القلوب، وكذلك تعظيم النبي وآله وحبهم من الشعائر التي شرعها الله.

١٨. نوح يردّ على قومه بأنه على بينة من ربه:

المقطع [١٨] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٠٤»:

١. ﴿قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ إلى آخر الآية:

أ. بيان لما أجاب به نوح عليه السلام عن حجتهم إلى تمام أربع آيات، والتعمية الإخفاء فمعنى عميت عليكم بالبناء للمفعول أخفيت عليكم من ناحية جهلكم وكراهتكم للحق، وقرئ عميت بالتخفيف والبناء للفاعل أي خفيت عليكم تلك الرحمة.

ب. لما كانت حجتهم مبنية على الحس ونفي ما وراءه وقد استنتجوا منها أولا عدم الدليل على وجوب طاعته واتباعه ثم أضربوا عنه بالترقي إلى استنتاج الدليل على عدم الوجوب بل على وجوب العدم أجابهم عليه السلام بإثبات ما حاولوا نفيه من رسالته وما يتبعه، ونفي ما حاولوا إثباته باتهامه واتهام أتباعه

بالكذب غير أنه استعطفهم بخطاب يا قوم، بالإضافة إلى ضمير التكلم، مرة بعد مرة ليجلبهم إليه فيقع نصحه موقع القبول منهم.

ج. وقد أبدعت الآيات الكريمة في تقرير حجته عليه السلام في جوابهم فقطعت حجتهم فصلا فصلا وأجابت عن كل فصل بوجهيه أعني من جهة إنتاجه أن لا دليل على اتباعه عليه السلام وأن الدليل على خلافه وذلك قوله: ﴿يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ﴾ الآية، ثم أخذت من كل حجة سابقة شيئا يجري مجرى التلخيص فإضافته إلى الحجة اللاحقة بادئة به فامتزجت الحجة بالحجة على ما لكل منها من الاستقلال والتمام.

د. فتمت الحجج ثلاثا كل واحدة منها مبدوءة بالخطاب وهي قوله: ﴿يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ الآية، فتدبر فيها.

٢. فقوله: ﴿قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ جواب عن قولهم: ﴿ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا﴾ يريدون به أنه ليس معه إلا البشرية التي يماثلهم فيها ويماثلونه فبأي شيء يدعي وجوب اتباعهم له؟ بل هو كاذب يريد بما يدعيه من الرسالة أن يصطادهم فيقتنص بذلك أموالهم ويترأس عليهم.

أ. وإذ كان هذا القول منهم متضمنا لنفي رسالته وسندهم في ذلك أنه بشر لا أثر ظاهر معه يدل على الرسالة والاتصال بالغيب كان من الواجب تنبيههم على ما يظهر به صدقه في دعوى الرسالة وهو الآية المعجزة الدالة على صدق الرسول في دعوى الرسالة فإن الرسالة نوع من الاتصال بالغيب خارق للعادة الجارية لا طريق إلى العلم بتحققه إلا بوقوع أمر غيبي آخر خارق للعادة يوقن به كون الرسول صادقا في دعواه الرسالة، ولذلك أشار عليه السلام بقوله: ﴿يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ إلى أن معه بينة من الله وآية معجزة تدل على صدقه في دعواه.

ب. ومن هنا يظهر أن المراد بالبينة الآية المعجزة التي تدل على ثبوت الرسالة لأن ذلك هو الذي يعطيه السياق فلا يعبأ بما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالبينة في الآية العلم الضروري الذي يعلم به النبي أنه نبي وذلك لكونه معنى أجنبيا عن السياق.

٣. ﴿وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ الظاهر أنه عليه السلام يشير به إلى ما آتاه الله تعالى من الكتاب والعلم، وقد تكرر في القرآن الكريم تسمية الكتاب وكذا تسمية العلم بالله وآياته رحمة قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا﴾ [الكهف: ٦٥]، وقال: ﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: ٨]

٤. وأما قوله: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فالظاهر أن ضميره راجع إلى الرحمة، والمراد أن ما عندي من العلم والمعرفة أخفاها عليكم جهلكم وكراهتكم للحق بعد ما ذكرتكم به وبثثته فيكم.

٥. ﴿أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ﴾:

أ. الإلزام جعل الشيء مع الشيء بحيث لا يفارقه ولا ينفك منه، والمراد بإلزامهم الرحمة وهم لها كارهون إجبارهم على الإيمان بالله وآياته والتلبس بما يستدعيه المعارف الإلهية من النور والبصيرة.

ب. ومعنى الآية، والله أعلم، أخبروني إن كانت عندي آية معجزة تصدق رسالتي مع كوني بشرا مثلكم وكانت عندي ما تحتاج إليه الرسالة من كتاب وعلم يهديكم الحق لكن لم يلبث دون أن أخفاه عليكم عنادكم واستكباركم أيجب علينا عندئذ أن نجبركم عليها؟ أي عندي جميع ما يحتاج إليه رسول من الله في رسالته وقد أوقفتكم عليه لكنكم لا تؤمنون به طغيانا واستكبارا وليس علي أن أجبركم عليها، إذ لا إجبار في دين الله سبحانه.

ج. ففي الكلام تعريض لهم أنه قد تمت عليهم الحجة وبانت لهم الحقيقة فلم يؤمنوا لكنهم مع ذلك يريدون أمرا يؤمنون لأجله وليس إلا الإجبار والإلزام على كراهية، فهم في قولهم: لا نراك إلا بشرا مثلنا، لا يريدون إلا الإجبار، ولا إجبار في دين الله.

د. والآية، من جملة الآيات النافية للإكراه في الدين تدل على أن ذلك من الأحكام الدينية المشرعة في أقدم الشرائع وهي شريعة نوح عليه السلام وهو باق على اعتباره حتى اليوم من غير نسخ.

٦. وقد ظهر مما تقدم أن الآية، أعني قوله: ﴿يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ﴾ الآية، جواب عن قولهم: ﴿ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا﴾ ويظهر بذلك فساد قول بعضهم: إنه جواب عن قولهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ﴾ وقول آخرين: إنه جواب عن قولهم: ﴿ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ﴾ وقول طائفة

أخرى أنه جواب عن قولهم: ﴿وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ﴾ ولا نطيل الكلام بالتعرض لتوضيحها وردها.

١٩. نوح لا يسأل أجراً ولا يطرد المؤمنين:

المقطع [١٩] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩-٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٠٧»:

١. ﴿وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ يريد به الجواب عما اتهموه به من الكذب ولازمه أن تكون دعوته طريقا إلى جلب أموالهم وأخذ ما في أيديهم طمعا فيه فإنه إذا لم يسألهم شيئا من أموالهم لم يكن لهم أن يتهموه بذلك.

٢. ﴿وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾:

أ. جواب عن قولهم: ﴿وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ﴾ وقد بدل لفظة الأراذل، وهي لفظة إزراء وتحقير، من قوله: الذين آمنوا تعظيما لأمر إيمانهم وإشارة إلى ارتباطهم بربهم.

ب. نفى في جوابه أن يكون يطردهم وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ إيذانا بأن لهم يوما يرجعون فيه إلى الله فيحاسبهم على أعمالهم فيجازيهم على ما عملوه من خير أو شر فحسابهم على ربهم وليس لغيره من الأمر شيء، فليس على نوح عليه السلام أن يحاسبهم فيجازيهم بشيء لكن القوم لجهالتهم يتوقعون على الفقراء والمساكين والضعفاء أن يطردوا من مجتمع الخير ويسلبوا النعمة والشرافة والكرامة.

ج. فظهر أن المراد بقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ الإيماء إلى محاسبة الله سبحانه إياهم يوم يرجعون فيه إليه فيلاقونه كما وقع في نظير هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]

د. وأما قول من قال: إن معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ إنه لا يطردهم لأنهم ملاقوا ربهم فيجازي من ظلمهم وطردهم، أو أنهم ملاقوا ثواب ربهم فكيف يكونون أراذل وكيف يجوز طردهم وهم لا يستحقون ذلك، فبعيد عن الفهم، على أن أول المعنيين يجعل الآية التالية أعني قوله: ﴿وَيا قَوْمِ مَنْ

يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ الآية زائدة مستغنى عنها كما هو ظاهر.

هـ. وظهر أيضا أن المراد بقوله: ﴿وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ جهلهم بأمر المعاد وأن الحساب والجزاء إلى الله لا إلى غيره، وأما ما ذكره بعضهم أن المراد به الجهالة المضادة للعقل والحلم أي تسفهون عليهم أو المراد أنكم تجهلون أن حقيقة الامتياز بين إنسان وإنسان باتباع الحق وعمل البر والتحلي بالفضائل لا بالمال والجاه كما تظنون فهو معنى بعيد عن السياق.

٣. ﴿وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ النصر مضمن معنى المنع أو الإنجاء ونحوهما والمعنى من يمنعني أو من ينجيني من عذاب الله إن طردتهم أفلا تتذكرون أنه ظلم، والله سبحانه ينتصر للمظلوم من الظالم وينتقم منه، والعقل جازم بأن الله سبحانه لا يساوي بين الظالم والمظلوم، ولا يدع الظالم يظلم دون أن يجازيه على ظلمه بما يسوؤه ويشفي به غليل صدر المظلوم والله عزيز ذو انتقام.

٢٠. نوح يردّ على قومه:

المقطع [٢٠] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٠٨»:

١. ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾:

أ. جواب عن قولهم: ﴿وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ﴾ يرد عليهم قولهم بأني لست أدعي شيئا من الفضل الذي تتوقعون مني أن أدعيه بما أني أدعي الرسالة فإنكم تزعمون أن على الرسول أن يملك خزائن الرحمة الإلهية فيستقل بإغناء الفقير وشفاء العليل وإحياء الموتى والتصرف في السماء والأرض وسائر أجزاء الكون بما شاء وكيف شاء، وأن يملك علم الغيب فيحصل على كل خير محجوب عن العيون مستور عن الأبصار فيجلبه إلى نفسه، ويدفع كل شر مستقبل كامن عن نفسه وبالجملة يستكثر من الخيرات ويصان من المكاره، وأن يرتفع عن درجة البشرية إلى مقام الملكية أي يكون ملكا منزها من ألواث الطبيعة ومبرى من حوائج البشرية ونقائصها فلا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا يقع في تعب اكتساب الرزق واقتناء لوازم الحياة وأمتعتها.

ب. فهذه هي جهات الفضل التي تزعمون أن الرسول يجب أن يؤتاها ويمتلكها فيستقل بها، وقد

أخطأتم فليس للرسول إلا الرسالة وإني لست أدعي شيئا من ذلك فلا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك، وبالجملة لست أدعي شيئا من الفضل الذي تتوقعونه حتى تكذبوني بفقده، وإنما أقول إني على بينة من ربي تصدق رسالتي وآتاني رحمة من عنده.

٢. والمراد بقوله: ﴿خَزائِنُ اللهِ﴾:

أ. جميع الذخائر والكنوز الغيبية التي ترزق المخلوقات منها ما يحتاجون إليه في وجودهم وبقائهم ويستعينون به على تتميم نقائصهم وتكميلها.

ب. فهاتيك هي التي تزعم العامة أن الأنبياء والأولياء يؤتون مفاتيحها ويمتلكون بها من القدرة ما يفعلون بها ما يشاءون ويحكمون ما يريدون كما اقترح على النبي ﷺ وقد حكاه الله تعالى إذ يقول: ﴿وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٣]

٣. وإنما قال: ﴿وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ولم يقل: ولا أقول إني أعلم الغيب لأن هذا النوع من العلم لما كان مما يضن به ولا يسمح بإظهاره لم يكن قول القائل: لا أقول إني أعلم الغيب نافيا لوجوده عند القائل بل يحتاج إلى أن يقال: لا أعلم الغيب ليفيد النفي بخلاف قوله: ﴿لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ﴾ وقوله: ﴿وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾، ولم يكرر قوله: ﴿لَكُمْ﴾ لحصول الكفاية بالواحدة.

٤. وقد أمر الله سبحانه نبيه محمد ﷺ أن يخاطب قومه بما خاطب به نوح عليه السلام قومه ثم ذيله بما يظهر به المراد إذ قال: ﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]

٥. انظر إلى قوله: ﴿لا أَقُولُ لَكُمْ﴾ الآية، ثم إلى قوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ ثم إلى قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ الآية، فهو ينفي أولا الفضل الذي يتوقعه عامة الناس من نبيهم ثم يثبت للرسول الرسالة فحسب ثم يبادر إلى إثبات الفضل من جهة أخرى غير الجهة التي يتوقعها الناس وهو أنه بصير بإبصار الله تعالى وأن غيره بالنسبة إليه كالأعمى بالنسبة إلى البصير وهذا هو الموجب

لاتباعهم له كما يتبع الأعمى البصير، وهو المجوز له أن يدعوهم إلى اتباعه.

٦. وضع هنا مبحثا حول [قدرة الأنبياء والأولياء]، خلاصته:

أ. الناس في جهل بمقام ربهم وغفلة عن معنى إحاطته وهيمنته، فقيسوا العالم الربوبي على عالم المادة، فجعلوا الله كجبار من جبابرة البشر، موجوداً محدوداً منعزلاً، له صفات مستقلة كالعلم والقدرة والحياة، وهذا قياس فاسد.

ب. البراهين اليقينية تقضي بأن الموجودات الممكنة غير مستقلة في شيء من ذواتها وآثارها، فلا حد لها يتحدد به، والله هو الغني المستقل الذي لا يفتقر في شيء، وصفاته عين ذاته لا تمايز فيها.

ج. ما للممكن من الوجود أو الحياة أو القدرة أو العلم متعلق الوجود بالله غير مستقل منه بوجه، ولا فرق بين القليل والكثير ما دامت خصيصة عدم الاستقلال محفوظة، فلا مانع من فرض ممكن له علم بكل شيء أو قدرة على كل شيء ما دام غير مستقل عن الله.

د. الآيات النافية (كعلم الغيب والإحياء والإماتة والخلق) تختص هذه الأمور بالله بنحو الأصالة والاستقلال، والآيات المثبتة (كإحياء عيسى للموتى بإذن الله) تثبت إمكان تحققها في غيره بنحو التبعية وعدم الاستقلال.

هـ. من أثبت شيئاً من العلم المكنون أو القدرة الغيبية لغيره من الأنبياء والأولياء مع نفي الأصالة والاستقلال، فلا حجر عليه، ومن أثبت ذلك على نحو الأصالة والاستقلال، ولو أسنده إلى الله، فهو غالٍ مشمول لقوله: ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]

٧. ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. قال في المفردات: (زريت عليه عبته وأزريت به قصرت به وكذلك ازدريت به وأصله افتعلت قال: تزدري أعينكم أي تستقلهم تقديره تزدريهم أعينهم أي تستقلهم وتستهين بهم)

ب. وهذا الفصل من كلامه عليه السلام إشارة إلى ما كان يعتقده الملأ الذين كفروا من قومه وبنوا عليه سنة الأشرافية وطريقة السيادة، وهو أن أفراد الإنسان تنقسم إلى قسمين الأقوياء والضعفاء، أما الأقوياء فهم أولوا الطول وأرباب القدرة المعتضدون بالمال والعدة، وأما الضعفاء فهم الباقون، والأقوياء

هم السادة في المجتمع الإنساني لهم النعمة والكرامة، ولأجلهم انعقاد المجتمع، وغيرهم من الضعفاء مخلوقون لأجلهم مقصودون لهم أضاحي منافعهم كالرعية بالنسبة إلى كرسي الحكومة المستبدة، والعبيد بالنسبة إلى الموالي، والخدم والعملة بالنسبة إلى المخدومين والنساء بالنسبة إلى الرجال، وبالأخرة كل ضعيف بالنسبة إلى القوي المستعلي عليه.

ج. وبالجملة كان معتقدهم أن الضعيف في المجتمع إنسان منحط أو حيوان في صورة إنسان إنما يرد داخل المجتمع ويشاركهم في الحياة ليستفيد الشريف من عمله وينتفع من كد يمينه لحياته من غير عكس بل هو محروم من الكرامة مطرود عن حظيرة الشرافة آيس من الرحمة والعناية.

د. فهذا هو الذي كانوا يرونه وكان هو المعتمد عليه في مجتمعهم، وقد رد نوح عليه السلام ذلك إليهم بقوله: ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً﴾

٨. ثم بين خطأهم في معتقدهم بقوله: ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي إن أعينكم إنما تزدريهم وتستحقرهم وتستهين أمرهم لما تحس ظاهر ضعفهم وهوانهم، وليس هو الملاك في إحراز الخير ونيل الكرامة بل الملاك في ذلك وخاصة الكرامات والمثوبات الإلهية أمر النفس وتحليها بحلي الفضيلة والمنقبة المعنوية، ولا طريق لي ولا لكم إلى العلم ببواطن النفوس وخبايا القلوب إلا لله سبحانه فليس لي ولا لكم أن نحكم بحرمانهم من الخير والسعادة.

٩. ثم بين بقوله: ﴿إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ السبب في تحاشيه عن هذا القول ومعناه أنه قول بغير علم، وتحريم الخير على من يمكن أن يستحقه جزافا من غير دليل ظلم لا ينبغي أن يرومه الإنسان فيدخل بذلك في زمرة الظالمين.

١٠. وهذا المعنى هو الذي يشير تعالى إليه فيما يحكيه من كلام أهل الأعراف يوم القيامة خطابا لهؤلاء الطاغين إذ يقول: ﴿وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩]

١١. وفي الكلام أعني قول نوح عليه السلام: ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ الآية، تعريض لهم أنهم كما كانوا يحرمون على ضعفاء المجتمع المزايا الحيوية الاجتماعية كذلك كانوا يحرمون عليهم الكرامة الدينية ويقولون: إنهم لا يسعدون بدين وإنما يسعد به أشراف المجتمع وأقوياؤهم، وفيه أيضا تعريض

بأنهم ظالمون.

١٢. وإنما عقب نوح عليه السلام قوله: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾:

أ. وهو ينفي فيه جهات الامتياز التي كانوا يتوقعونها في الرسول عن نفسه، بقوله: ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً﴾ الآية، مع أنه راجع إلى الضعفاء الذين آمنوا به من قومه لأن الملأ ألحقوهم به في قولهم: ﴿وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ﴾

ب. وتوضيحه أن معنى قولهم هذا أن اتباعنا لك ولمن آمن بك من هؤلاء الأراذل إنما يستقيم لفضل يتم لكم علينا ولا نرى لكم علينا من فضل أما أنت فليس معك ما يختص به الرسول من قدرة ملكوتية أو علم بالغيب أو أن تكون ملكا منزها من ألواث المادة والطبيعة، وأما المؤمنون بك فإنما هم أراذلنا الآيسون من كرامة الإنسانية المحرومون من الرحمة والعناية، فأجاب عنهم نوح بما معناه: أما أنا فلا أدعي شيئا مما تتوقعون من رسالتي فليست للرسول إلا الرسالة وأما هؤلاء الضعفاء الذين لهم هوان عندكم فمن الجائز أن يعلم الله من نفوسهم خيرا فيؤتيهم خيرا وفضلا فهو أعلم بأنفسهم، وملاك الكرامة الدينية والرحمة الإلهية زكاء النفس وسلامة القلب دون الظاهر الذي تزدريه أعينكم فلست أقول: لن يؤتيهم الله خيرا، فإنه ظلم يدخلني في زمرة الظالمين.

٢١. قوم نوح يطلبون العذاب استهزاءً ورده عليهم:

المقطع [٢١] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٢ـ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢١٥»:

١. ﴿قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾:

أ. كلام ألقوه إلى نوح عليه السلام بعد ما عجزوا عن دحض حجته وإبطال ما دعا إليه من الحق، وهو مسوق سوق التعجيز والمراد بقولهم: ﴿بِما تَعِدُنا﴾ ما أنذرهم به في أول دعوته من عذاب يوم أليم.

ب. وقد أورد الله سبحانه قولهم هذا فصلا من غير تفريع لأنهم إنما قالوه بعد ما لبث فيهم أمدا

بعيدا يدعوهم إلى التوحيد ويخاصمهم ويحاجهم بفنون الخصام والحجاج حتى قطع جميع معاذيرهم وأنار الحق لهم كما يدل عليه قوله تعالى فيما يحكي عنه عليه السلام في دعائه: ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً﴾ [نوح: ٩] وفي سورة العنكبوت: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً﴾ [العنكبوت: ١٤]، فهذا الذي أورده الله من حجاجه قومه وجوابهم في شكل محاورة واحدة إنما وقع في مآت من السنين، وهو كثير النظير في القرآن الكريم ولا بدع فيه فإن الذي يقتص ذلك هو الله سبحانه المحيط بالدهر وبكل ما فيه والذي يسمعها بالوحي هو النبي ﷺ وقد أوتي من سعة النظر ما يجتمع عنده أشتات الأمم وأطراف الزمان.

ج. والمعنى، والله أعلم، يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا حتى سئمنا ومللنا وما نحن لك بمؤمنين فأتنا بما تعدنا من العذاب، وهم لا يعترفون بالعجز عن خصامه وجداله بل يؤيسونه من أنفسهم في الحجاج ويطلبون منه أن يشتغل بما يشتغل الداعي الآيس من السمع والطاعة وهو الشر الذي يهددهم به ويذكره وراء نصحه.

٢. ﴿قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾:

أ. لما كان قولهم: ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا﴾ الآية، طلبا منه أن يأتيهم بالعذاب وليس ذلك إليه فإنما هو رسول، أجاب عن اقتراحهم هذا أيضا، في سياق قصر القلب، أن الإتيان بالعذاب ليس إلي بل إنما هو إلى الله فهو الذي يملك أمركم فيأتيكم بالعذاب الذي وعدتكموه بأمره فهو ربكم وإليه مرجع أمركم كله، ولا يرجع إلي من أمر التدبير شيء حتى أن وعدي إياكم بالعذاب واقتراحكم علي بطلبه لا يؤثر في ساحة كبريائه شيئا فإن يشأ يأتكم به وأن لم يشأ فلا.

ب. ومن هنا يظهر أن قوله عليه السلام: ﴿إِنْ شاءَ﴾ من ألطف القيود في هذا المقام أفيد به حق التنزيه وهو أن الله سبحانه لا يحكم فيه شيء ولا يقهره قاهر يفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره نظير ما سيأتي في آخر السورة من الاستثناء في قوله: ﴿خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]

٣. ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ تنزيه آخر لله سبحانه وهو مع ذلك جواب عن الأمر التعجيزي الذي ألقوه إليه عليه السلام فإن ظاهره أنهم لا يعبئون بما هددهم به من العذاب كأنهم معجزون لا يقدر عليهم.

٤. ﴿وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ الآية:

أ. قال في المفردات: (النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه، قال، وهو من قولهم نصحت له الود أي أخلصته وناصح العسل خالصة أو من قولهم: نصحت الجلد خطته والناصح الخياط والنصاح الخيط)، وقال أيضا: (الغي جهل من اعتقاد فاسد، وذلك أن الجهل قد يكون من الإنسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا ولا فاسدا، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد، وهذا النحو الثاني يقال له غي قال تعالى: ﴿ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى﴾، وقال: ﴿وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ﴾) وعلى هذا فالفرق بين الإغواء والإضلال أن الإضلال إخراج من الطريق مع بقاء المقصد في ذكر الضال، والإغواء إخراجه منه مع زواله عن ذكره لاشتغاله بغيره جهلا.

ب. والإرادة والمشية كالمترادفتين، وهي من الله سبحانه تسبيب الأسباب المؤدية لوجود شيء بالضرورة فكون الشيء مرادا له تعالى أنه تمم أسباب وجوده وأكملها فهو كائن لا محالة، وأما أصل السببية الجارية فهي مرادة بنفسها ولذا قيل: خلق الله الأشياء بالمشية والمشية بنفسها.

ج. وبالجملة قوله: ﴿وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ الآية، كأحد شقي الترديد والشق الآخر قوله: ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ كأنه عليه السلام يقول: أمركم إلى الله إن شاء أن يعذبكم أتاكم بالعذاب ولا يدفع عذابه ولا يقهر مشيته شيء فلا أنتم معجزوه، ولا نصحي ينفعكم إن أردت أن أنصح لكم بعد ما أراد الله أن يغويكم لتكفروا به فيحق عليكم كلمة العذاب، وقيد نصحه بالشرط لأنهم لم يكونوا يسلمون له أنه ينصحهم.

د. والإغواء كالإضلال وإن لم يجز نسبته إليه تعالى إذا كان إغواء ابتدائيا لكنه جائز إذا كان بعنوان المجازاة كان يعصي الإنسان ويستوجب به الغواية فيمنعه الله أسباب التوفيق ويخليه ونفسه فيغوي ويضل عن سبيل الحق قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

هـ. وفي الكلام إشارة إلى أن نزول عذاب الاستئصال عليهم مسبوق بالإغواء الإلهي كما يلوح إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً﴾ [الإسراء: ١٦]، وقال: ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [فصلت: ٢٥]

٥. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ الآية، أو لقوله: ﴿إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شاءَ﴾إلى قوله ﴿يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ جميعا ومحصله أن أمر تدبير العباد إلى الرب الذي إليه يرجع الأمور، والله سبحانه هو ربكم وإليه ترجعون فليس لي أن آتيكم بعذاب موعود، وليس لكم أن تعجزوه إن شاء أن يأتيكم بالعذاب فأتاكم به لاستئصالكم وليس لنصحي أن ينفعكم إن أراد هو أن يغويكم ليعذبكم.

٦. وقد ذكروا في قوله: ﴿إِنْ كانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وجوها من التأويل:

أ. منها: أن المعنى يعاقبكم على كفركم، وقد سمى الله تعالى العذاب غيا في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]

ب. ومنها: أن المراد إن كان الله يريد عقوبة إغوائكم الخلق وإضلالكم إياهم ومن عادة العرب أن يسمي العقوبة باسم الشيء المعاقب عليه، ومن هذا الباب قوله: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يعاقبهم على استهزائهم وقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] أي عذبهم على مكرهم إلى غير ذلك.

ج. ومنها: أن الإغواء بمعنى الإهلاك فالمعنى يريد أن يهلككم فهو من قولهم: غوي الفصيل إذا فسد من كثرة شرب اللبن.

د. ومنها: أن قوم نوح كانوا يعتقدون أن الله تعالى يضل عباده عن الدين، وأن ما هم عليه بإرادة الله، ولو لا ذلك لغيره وأجبرهم على خلافه فقال لهم نوح على وجه التعجب لقولهم والإنكار لذلك أن نصحي لا ينفعكم إن كان القول كما تقولون.

• وأنت بالتأمل فيما قدمناه تعرف أن الكلام في غنى من هذه التأويلات.

٢٢. النبي يبرأ من تهمة الافتراء على الله:

المقطع [٢٢] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢١٨»:

١. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾:

أ. أصل الجرم، على ما ذكره الراغب في مفرداته، قطع الثمرة من الشجرة وأجرم أي صار ذا جرم، وأستعير لكل اكتساب مكروه فالجرم بضم الجيم وفتحها بمعنى الاكتساب المكروه وهو المعصية.

ب. والآية، واقعة موقع الاعتراض، والنكتة فيه أن دعوة نوح واحتجاجاته على وثنية قومه وخاصة ما أورده الله تعالى في هذه السورة من احتجاجه أشبه شيء بدعوة النبي ﷺ، واحتجاجه على وثنية أمته.

ج. وإن شئت زيادة تصديق في ذلك فارجع إلى سورة الأنعام، وهي في الحقيقة سورة الاحتجاج، وقابل ما حكاه الله تعالى عن نوح في هذه السورة ما أمر الله به النبي ﷺ في تلك السورة بقوله: ﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ إلى أن قال ـ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِ﴾ إلى أن قال ـ﴿قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾

د. ولك أن تطبق سائر ما ذكر من حججه عليه السلام في سورة نوح والأعراف على ما ذكر من الحجج في سورة الأنعام وفي هذه السورة فتشاهد صدق ما ادعيناه.

هـ. ولهذه المشابهة والمناسبة ناسب أن يعطف بعد ذكر حجج نوح عليه السلام في إنذاره قومه بأمر من الله سبحانه على ما اتهموا النبي ﷺ ورموه بالافتراء على الله، وهو لا ينذرهم ولا يلقي إليهم من الحجج إلا كما أنذر به نوح عليه السلام وألقاه من الحجج إلى قومه، وهذا كما ينذر رسول الملك قومه والمتمردين المستنكفين عن الطاعة ويلقي إليهم النصح ويتم عليهم الحجة فيرمونه بأنه مفتر على الملك ولا طاعة ولا وظيفة فيرجع إليهم بالنصح ثانيا، ويذكر لهم قصة رسول ناصح آخر من الملك إلى قوم آخرين نصح لهم بمثل ما نصح هو لهم فلم يتبصروا به فهلكوا فحيثما يذكر لهم حججه ومواعظه يبعثه الوجد والأسف إلى أن يتذكر رميهم إياه بالافتراء فيأسف لذلك قائلا: إنكم ترمونني بالافتراء ولم أذكر لكم إلا ما بثه هذا الرسول في قومه من كلمة الحكمة والنصيحة لا جرم إن افتريته فعلي إجرامي ولا تقبلوا قولي غير أني بريء من عملكم.

و. وقد عاد سبحانه إلى الأمر بمثل هذه المباراة ثانيا في آخر السورة بعد إيراد قصص عدة من الرسل حيث قال: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢٢]

٢. وذكر بعض المفسرين أن الآية، من تمام القصة والخطاب فيها لنوح، والمعنى أم يقول قوم نوح

افتراه نوح قل يا نوح إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون، وعلى هذا فالكلام مشتمل على نوع التفات من الغيبة إلى الخطاب وهذا بعيد عن سياق الكلام غايته.

٣. وفي قوله: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ إثبات إجرام مستمر لهم وقد أرسل إرسال المسلمات كما في قوله: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرامِي﴾ من إثبات الجرم وذلك أن الذي ذكر من حجج نوح إن كان من الافتراء كان كذبا من حيث إن نوحا عليه السلام لم يحتج بهذه الحجج وهي حقة، لكنها من حيث إنها حجج عقلية قاطعة لا تقبل الكذب وهي تثبت لهؤلاء الكفار إجراما مستمرا في رفض ما يهديهم إليه من الإيمان والعمل الصالح فهم في خروجهم عن مقتضى هذه الحجج مجرمون قطعا، والنبي ﷺ مجرم لا قطعا بل على تقدير أن يكون مفتريا وليس بمفتر.

٢٣. الوحي إلى نوح بصنع الفلك:

المقطع [٢٣] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: ٣٦-٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٢٢»:

١. ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ الابتئاس من البؤس وهو حزن مع استكانة.

٢. ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ إيئاس وإقناط له عليه السلام من إيمان الكفار من قومه بعد ذلك، ولذلك فرع عليه قوله: ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لأن الداعي إلى أمر إنما يبتئس ويغتم من مخالفة المدعوين وتمردهم ما دام يرجو منهم الإيمان والاستجابة لدعوته، وأما إذا يئس من إجابتهم فلا يهتم بهم ولا يتعب نفسه في دعوتهم إلى السمع والطاعة والإلحاح عليهم بالإقبال إليه ولو دعاهم بعدئذ فإنما يدعوهم لغرض آخر كإتمام الحجة وإبراز المعذرة.

٣. وعلى هذا ففي قوله: ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تسلية من الله لنوح عليه السلام وتطييب لنفسه الشريفة من جهة ما في الكلام من الإشارة إلى حلول حين فصل القضاء بينه وبين قومه، وصيانة

لنفسه من الوجد والغم لما كان يشاهد من فعلهم به وبالمؤمنين به من قومهم من إيذائهم إياهم في دهر طويل (مما يقرب من ألف سنة) لبث فيه بينهم.

٤. ويظهر من كلام بعضهم أنه استفاد من قوله: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ أن من كفر منهم فليس يؤمن بعد هذا الحين أبدا كما أن الذين آمنوا به ثابتون على إيمانهم دائمون عليه.

• وفيه أن العناية في الكلام إنما تعلقت ببيان عدم إيمان الكفار بعد ذلك فحسب وأما إيمان المؤمنين فلم يعن به إلا بمجرد التحقق سابقا ولا دلالة في الاستثناء على أزيد من ذلك، وأما ثباتهم ودوامهم على الإيمان فلا دليل عليه.

٥. ويستفاد من الآية:

أ. أولا: أن الكفار لا يعذبون ما كان الإيمان مرجوا منهم فإذا ثبتت فيهم ملكة الكفر ورجس الشرك حق عليهم كلمة العذاب.

ب. وثانيا: أن ما حكاه الله سبحانه من دعاء نوح بقوله: ﴿وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٧] كان واقعا بين قوله: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ الآية، وبين قوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾إلى قوله﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾

٦. وذلك لأنه، كما ذكر بعضهم، لا سبيل إلى العلم بعدم إيمان الكفار في المستقبل من طريق العقل وإنما طريقه السمع بالوحي فهو عليه السلام علم أولا من وحيه تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن أن أحدا منهم لا يؤمن بعد ذلك ولا في نسلهم من سيؤمن بالله ثم دعا عليهم بالعذاب وذكر في دعائه ما أوحي إليه فلما استجاب الله دعوته وأراد إهلاكهم أمره عليه السلام باتخاذ السفينة وأخبره أنهم مغرقون.

٧. ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾:

أ. الفلك هي السفينة مفردها وجمعها واحد والأعين جمع قلة للعين وإنما جمع للدلالة على كثرة المراقبة وشدتها فإن الجملة كناية عن المراقبة في الصنع.

ب. وذكر الأعين قرينة على أن المراد بالوحي ليس هو هذا الوحي أعني قوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ الآية، حتى يكون وحيا للحكم بل وحي في مقام العمل وهو تسديد وهداية عملية بتأييده بروح القدس

الذي يشير إليه أن افعل كذا وافعل كذا كما ذكره تعالى في الأئمة من آل إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقد تقدمت الإشارة إليه في المباحث السابقة وسيجيء إن شاء الله في تفسير الآية.

٨. ﴿وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي لا تسألني في أمرهم شيئا تدفع به الشر والعذاب وتشفع لهم لتصرف عنهم السوء لأن القضاء فصل والحكم حتم وبذلك يظهر أن قوله: ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ في محل التعليل لقوله: ﴿وَلا تُخاطِبْنِي﴾ الآية، أو لمجموع قوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ويظهر أيضا أن قوله: ﴿وَلا تُخاطِبْنِي﴾ الآية، كناية عن الشفاعة، والمعنى: واصنع السفينة تحت مراقبتنا الكاملة وتعليمنا إياك ولا تسألني صرف العذاب عن هؤلاء الذين ظلموا فإنهم مقضي عليهم الغرق قضاء حتم لا مرد له.

٩. ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (السخرية إظهار خلاف الإبطان على وجه يفهم منه استضعاف العقل، ومنه التسخير لتذليل يكون استضعافا بالقهر، والفرق بين السخرية واللعب أن في السخرية خديعة واستنقاصا ولا تكون إلا في الحيوان وقد يكون اللعب بجماد)، وقال الراغب في المفردات: (سخرت منه واستسخرته للهزء منه قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ وقيل: رجل سخر، بالضم فالفتح، لمن سخر وسخرة، بالضم فالسكون، لمن يسخر منه، والسخرية، بالضم، والسخرية، بالكسر، لفعل الساخر)

ب. ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ حكاية الحال الماضية يمثل بها ما يجري على نوح عليه السلام من إيذاء قومه وقيام طائفة منهم بعد طائفة على إهانته والاستهزاء به في عمل السفينة وصبره عليه في جنب الدعوة الإلهية وإقامة الحجة عليهم من غير أن يفشل وينثني.

ج. ﴿كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ حال من فاعل يصنع والملأ هاهنا الجماعة الذين يعبأ بهم، وفي الكلام دلالة على أنهم كانوا يأتونه وهو يصنع الفلك جماعة بعد جماعة بالمرور عليه ساخرين، وأنه عليه السلام كان يصنعها في مرأى منهم وممر عام.

د. ﴿قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ﴾ في موضع الجواب لسؤال مقدر كان قائلا قال: فما ذا قال نوح عليه السلام؟ فقيل: ﴿قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ ولذا فصل الكلام من غير عطف.

هـ. ولم يقل عليه السلام: إن تسخروا مني فإني أسخر منكم ليدفع به عن نفسه وعن عصابة المؤمنين به وكأنه كان يستمد من أهله واتباعه في ذلك وكانوا يشاركونه في عمل السفينة وكانت السخرية تتناولهم جميعا فظاهر الكلام أن الملأ كانوا يواجهون نوحا ومن معه في عمل السفينة بسخرية نوح ورميه عليه السلام بالخبل والجنون فيشمل هزؤهم نوحا ومن معه وإن كانوا لم يذكروا في هزئهم إلا نوحا فقط، على أن الطبع والعادة يقضيان أن يكونوا يسخرون من أتباعه أيضا كما كانوا يسخرون منه فهم أهل مجتمع واحد تربط المعاشرة بعضهم ببعض وإن كانت سخريتهم من أتباعه سخرية منه في الحقيقة لأنه هو الأصل الذي تقوم به الدعوة، ولذا قيل: ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ ولم يقل: سخروا منه ومن المؤمنين.

و. والسخرية وإن كانت قبيحة ومن الجهل إذا كانت ابتدائية لكنها جائزة إذا كانت مجازاة وبعنوان المقابلة وخاصة إذا كانت تترتب عليها فائدة عقلائية كإنفاذ العزيمة وإتمام الحجة قال تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]، ويدل على اعتبار المجازاة والمقابلة بالمثل في الآية قوله: ﴿كَما تَسْخَرُونَ﴾

١٠. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾ السياق يقضي أن يكون قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تفريعا على الجملة الشرطية السابقة ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ وتكون الجملة المتفرعة هو متن السخرية التي أتى بها نوح عليه السلام ويكون قوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ﴾ الآية، متعلقا بتعلمون على أنه معلوم العلم، والمعنى: أن تسخروا منا فإنا نسخر منكم فنقول لكم: سوف تعلمون من يأتيه العذاب؟ نحن أو أنتم؟ وهذه سخرية بقول حق.

١١. ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ﴾ المراد به عذاب الاستئصال في الدنيا وهو الغرق الذي أخزاهم وأذلهم، والمراد بقوله: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾ أي ينزل عليه عذاب ثابت لازم لا يفارق، هو عذاب النار في الآخرة، والدليل على ما ذكرنا من كون العذاب الأول هو الذي في الدنيا والثاني هو عذاب الآخرة هو المقابلة وتكرر العذاب، منكرا، في اللفظ وتوصيف الأول بالإخزاء والثاني بالإقامة.

١٢. وربما أخذ بعضهم قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تاما من غير ذكر متعلق العلم وقوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ﴾ الآية، ابتداء كلام من نوح وهو بعيد عن السياق.

١٣. صنعه عليه السلام الفلك: أمره الله تعالى أن يصنع الفلك بتأييده سبحانه وتسديده فأخذ في صنعها وكان القوم يمرون عليه طائفة بعد طائفة فيسخرون منه وهو يصنعها على بسيط الأرض من غير ماء، ويقول عليه السلام: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾ (سورة هود) وقد نصب الله لنزول العذاب علما وهو أن يفور الماء من التنور (سورتا هود والمؤمنون)

١٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن المفضل قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بالكوفة أيام قدم على أبي العباس، فلما انتهينا إلى الكناسة قال: هاهنا صلب عمي زيد رحمه الله، ثم مضى حتى انتهى إلى طاق الزياتين وهو آخر السراجين، فنزل وقال: انزل فإن هذا الموضع كان مسجد الكوفة الأول، الذي كان خطه آدم وأنا أكره أن أدخله راكبا، قلت: فمن غيره عن خطته؟ قال، أما أول ذلك فالطوفان في زمن نوح، ثم غيره أصحاب كسرى والنعمان ثم غيره بعد زياد بن أبي سفيان، فقلت: وكانت الكوفة ومسجدها في زمن نوح؟ فقال لي: نعم يا مفضل، وكان منزل نوح وقومه في قرية على منزل من الفرات، مما يلي غربي الكوفة، قال: وكان نوح رجلا نجارا فجعله الله عز وجل نبيا وانتجبه، ونوح أول من عمل سفينة تجري على ظهر الماء، قال: ولبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، يدعوهم إلى الله عز وجل فيهزءون به ويسخرون منه، فلما رأى ذلك منهم دعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً﴾، فأوحى الله عز وجل إلى نوح، أن اصنع سفينة وأوسعها وعجل عملها، فعمل نوح سفينة في مسجد الكوفة بيده، فأتى بالخشب من بعد حتى فرغ منها، قال المفضل: ثم انقطع حديث أبي عبد الله عليه السلام عند زوال الشمس، فقام أبو عبد الله عليه السلام فصلى الظهر والعصر، ثم انصرف من المسجد فالتفت عن يساره، وأشار بيده إلى موضع دار الداريين، وهي موضع دار ابن حكيم وذلك فرات اليوم، فقال: يا مفضل وهاهنا نصبت أصنام قوم نوح: يغوث ويعوق ونسر، ثم مضى حتى ركب دابته، فقلت: جعلت فداك في كم عمل نوح سفينته؟ قال في: دورين، قلت: وكم

الدوران؟ قال: ثمانين سنة، قلت: فإن العامة يقولون، عملها في خمس مائة سنة؟ فقال: كلا، كيف؟ والله يقول: ﴿وَوَحْيِنا﴾ قال: قلت: فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ﴾ فأين كان موضعه؟ وكيف كان؟ فقال: كان التنور في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبله ميمنة المسجد، قلت له: فأين ذلك؟ قال: موضع زاوية باب الفيل اليوم، ثم قلت له: وكان بدء خروج الماء من ذلك التنور؟ فقال نعم: إن الله عز وجل أحب أن يرى قوم نوح آية، ثم إن الله تبارك وتعالى أرسل عليهم المطر، يفيض فيضا والعيون كلهن فيضا فغرقهم الله، وأنجى نوحا ومن معه في السفينة، الحديث.

• أقول: والرواية على طولها غير متعلقة بالتفسير غير أنا أوردناها لتكون كالأنموذجة من روايات كثيرة وردت في هذه المعاني من طرق الشيعة وأهل السنة ولتكون عونا لفهم قصص الآيات من طريق الروايات.

• وفي الرواية استفادة التعجيل في صنع السفينة من قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا﴾ الآية، وفي الرواية نسبة زياد إلى أبي سفيان ولعل الوارد في لفظ الإمام (زياد) فأضيف إليه (ابن أبي سفيان) في لفظ بعض الرواة.

ب. في الكافي، بإسناده عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان شريعة نوح أن يعبد الله بالتوحيد والإخلاص وخلع الأنداد، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها، وأخذ الله ميثاقه على نوح والنبيين، أن يعبدوا الله تبارك وتعالى، ولا يشركوا به شيئا، وأمر بالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلال والحرام، ولم يفرض عليه أحكام حدود ولا فرائض مواريث، فهذه شريعته، فلبث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عاما، يدعوهم سرا وعلانية فلما أبوا وعتوا قال: (رب إني ﴿مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ فأوحى الله عز وجل إليه: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فذلك قول نوح: ﴿وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً﴾ فأوحى الله إليه: ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾

• أقول: ورواه العياشي عن الجعفي مرسلا وظاهر الرواية أن له عليه السلام دعاءين على قومه أحدهما وهو أولهما قوله: (رب إني ﴿مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ الواقع في سورة القمر، وثانيهما بعد ما أيأسه الله من إيمان قومه وهو قوله: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً﴾ الواقع في سورة نوح.

ج. وفي معاني الأخبار، بإسناده عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله عز وجل ﴿وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: كانوا ثمانية.

• أقول: ورواه العياشي أيضا عن حمران عنه عليه السلام، وللناس في عددهم أقوال أخر: ستة أو سبعة أو عشرة أو اثنان وسبعون أو ثمانون ولا دليل على شيء منها.

د. وفي العيون، بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قال الرضا عليه السلام: لما هبط نوح إلى الأرض كان نوح وولده ومن تبعه ثمانين نفسا، فبنى حيث نزل قرية فسماها قرية الثمانين.

• أقول: ولا تنافي بين الروايتين لجواز كون ما عدا الثمانية من أهل نوح عليه السلام وقد عمر ما يقرب من ألف سنة يومئذ.

٢٤. بداية الطوفان وحمل الأزواج والأهل في الفلك:

المقطع [٢٤] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٢٦»:

١. ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. يقال: فار القدر يفور فورا وفورانا إذا غلا واشتد غليانه، وفارت النار إذا اشتعلت وارتفع لهيبها، والتنور تنور الخبز، وهو مما اتفقت فيه اللغتان: العربية والفارسية أو الكلمة فارسية في الأصل.

ب. وفوران التنور نبع الماء وارتفاعه منه، وقد ورد في الروايات: أن أول ما ابتداء الطوفان يومئذ، كان ذلك بتفجر الماء من تنور، وعلى هذا فاللام في التنور للعهد يشار بها إلى تنور معهود في الخطاب، ويحتمل اللفظ أن يكون كناية عن اشتداد غضب الله تعالى فيكون من قبيل قولهم: (حمي الوطيس) إذا اشتد الحرب.

ج. فقوله: ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ﴾ أي كان الأمر على ذلك حتى إذا جاء أمرنا أي تحقق الأمر الربوبي وتعلق بهم وفار الماء من التنور أو اشتد غضب الرب تعالى قلنا له كذا وكذا.

د. وفي التنور أقوال أخر بعيدة من الفهم:

• كقول من قال إن المراد به طلوع الفجر وكان عند ذلك أول ظهور الطوفان.

• وقول بعضهم: إن المراد به أعلى الأرض وأشرفها أي انفجر الماء من الأمكنة المرتفعة ونجود الأرض، وقول آخرين: إن التنور وجه الأرض هذا.

٢. ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي أمرنا نوحا عليه السلام أن يحمل في السفينة من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين وهي الذكر والأنثى.

٣. ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي واحمل فيها أهلك وهم المختصون به من زوج وولد وأزواج الأولاد وأولادهم إلا من سبق عليه قولنا وتقدم عليه عهدنا أنه هالك، وكان هذا المستثنى زوجته الخائنة التي يذكرها الله تعالى في قوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما﴾ [التحريم: ١٠]، وابن نوح الذي يذكره الله تعالى في الآيات التالية وكان نوح عليه السلام يرى أن المستثنى هو امرأته فحسب حتى بين الله سبحانه أن ابنه ليس من أهله وأنه عمل غير صالح فعند ذلك علم أنه من الذين ظلموا.

٤. ﴿وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي واحمل فيها من آمن بك من قومك غير أهلك لأن من آمن به من أهله أمر بحمله بقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ ولم يؤمن به من القوم إلا قليل.

٥. في قوله: ﴿وَما آمَنَ مَعَهُ﴾ دون أن يقال: وما آمن به تلويح إلى أن المعنى: وما آمن بالله مع نوح إلا قليل، وذلك أنسب بالمقام وهو مقام ذكر من أنجاه الله من عذاب الغرق، والملاك فيه هو الإيمان بالله والخضوع لربوبيته، وكذا في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ دون أن يقال إلا قليل: منهم بلوغا في استقلالهم إن من آمن كان قليلا في نفسه لا بالقياس إلى القوم فقد كانوا في نهاية القلة.

٦. نزول العذاب ومجيء الطوفان: حتى إذا تمت صنعة الفلك وجاء أمر الله وفار التنور أوحى الله تعالى إليه أن يحمل في السفينة من كل من الحيوان زوجين اثنين وأن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول الإلهي بالغرق وهو امرأته الخائنة وابنه الذي تخلف عن ركوب السفينة، وأن يحمل الذين آمنوا (سورتا هود والمؤمنون) فلما حملهم وركبوا جميعا فتح الله أبواب السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (سورة القمر) وعلا الماء وارتفعت السفينة عليه وهي تسير في موج كالجبال (سورة هود) فأخذ الناس الطوفان وهم ظالمون وقد أمره الله تعالى إذا استوى هو ومن معه على الفلك أن يحمد الله على ما نجاه من القوم الظالمين وأن يسأله البركة في نزوله فيقول: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾،

ويقول: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾

٧. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن أبي رزين الأسدي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إن نوحا عليه السلام لما فرغ من السفينة، وكان ميعاده فيما بينه وبين ربه في إهلاك قومه، أن يفور التنور ففار التنور في بيت امرأة، فقالت إن التنور قد فار فقام إليه فختمه، فقام الماء وأدخل من أراد أن يدخل، وأخرج من أراد أن يخرج، ثم جاء إلى خاتمه فنزعه، يقول الله عز وجل: ﴿فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ﴾، قال: وكان نجره في وسط مسجدكم، ولقد نقص عن ذرعه سبعمائة ذراع.

• أقول: وكون فوران التنور علامة له عليه السلام يعلم به اقتراب الطوفان من الوقوع واقع في عدة من روايات الخاصة والعامة وسياق الآية: ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ﴾ الآية، لا يخلو من ظهور في كونه ميعادا.

٨. وضع هنا مبحثا حول [هل كان الطوفان عاماً لجميع الأرض؟]، خلاصته:

أ. عموم دعوة نوح عليه السلام يقضي بعموم العذاب، والآيات الدالة على عموم الطوفان كقوله: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾، وقوله: ﴿لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، بالإضافة إلى الأمر بحمل زوجين من كل حيوان، كلها شواهد على عموم الطوفان.

ب. من قال بخصوص الطوفان بأرض قوم نوح، أول الآيات بأن المراد بالأرض أرضهم ووطنهم، وهذا تأويل من غير دليل.

ج. وجود الأصداف والأسماك المتحجرة في قلل الجبال لا يدل بالضرورة على أنها من أثر طوفان نوح، بل قد تكون من أثر تكون الجبال في الماء، لكن من الجائز أن تحملها أمواج الطوفان العظيمة إليها.

د. الأبحاث الجيولوجية تؤكد أن سطح الأرض في عهد ليس بذاك البعيد كان مجرى سيول هائلة غطت معظم بقاعها، وأن الطبقات الرسوبية التي تغطي أغلب مناطق الأرض تدل على حدوث طوفانات عظيمة ومتكررة.

هـ. الطبقات الرسوبية الأفقية الباقية على حالها من أحدث الطبقات، وعمرها لا يجاوز عشرة

آلاف إلى خمسة عشر ألف سنة من زماننا، وهو ما يتناسب مع عهد الطوفان.

و. انبساط البحار واتساعها، وانفصال القارات (كبريطانيا عن أوروبا، وإفريقيا عن أوروبا، وجزائر إندونيسيا عن آسيا) هي من آثار الطوفان.

ز. العوامل المؤثرة في ازدياد المياه في عهد الطوفان: تغيرات جوية هائلة، وذوبان الجليد المتراكم من الدورة السابقة، مما أوجد أمطاراً غزيرة غير معهودة، وفجر عيوناً أرضية زادت في قوة السيول.

ح. القرآن يصف الطوفان بدقة علمية: ﴿فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً﴾، وهذا يتفق مع ما ذكرته الجيولوجيا من أمطار غزيرة وتفجر عيون أرضية.

ط. عمر نوح الطويل ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ﴾ ليس مستبعداً، فالبشر الأولي كانوا يعمرون أطول بسبب بساطة العيش وقلة الأمراض، وهو من معجزات الأنبياء.

ي. إهلاك الحيوان في الطوفان ليس عقوبة، بل هو من الحوادث العامة التي تهلك الألوف كالزلازل والوباء، ولله فيما يقضي حكم.

٢٥. ركوب الفلك باسم الله:

المقطع [٢٥] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٢٧»:

١. ﴿وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. قرئ مجراها بفتح الميم وهو مجرى السفينة وسيرها، ومجراها بضم الميم وهو إجراء السفينة وسياقها، ومرساها بضم الميم مصدر ميمي مرادف الإرساء، والإرساء الإثبات والإيقاف، قال تعالى: ﴿وَالْجِبالَ أَرْساها﴾ [النازعات: ٣٢]

ب. ﴿وَقالَ ارْكَبُوا فِيها﴾ معطوف على قوله في الآية السابقة: ﴿جاءَ أَمْرُنا﴾ أي حتى إذا قال نوح إلخ، وخطابه لأهله وسائر المؤمنين أو لجميع من في السفينة.

ج. ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْراها وَمُرْساها﴾ تسمية منه عليه السلام يجلب به الخير والبركة لجري السفينة وإرسائها فإن في تعليق فعل من الأفعال أو أمر من الأمور على اسم الله تعالى وربطه به صيانة له من الهلاك والفساد واتقاء من الضلال والخسران لما أنه تعالى رفيع الدرجات منيع الجانب لا سبيل للدثور والفناء

والعي والعناء إليه فما تعلق به مصون لا محالة من تطرق عارض السوء، فهو عليه السلام يعلق جري السفينة وإرساءها باسم الله وهذان هما السببان الظاهران في نجاة السفينة ومن فيها من الغرق، وإنما ينجح هذان السببان لو شملت العناية الإلهية من ركبها، وإنما تشمل العناية بشمول المغفرة الإلهية لخطايا ركابها والرحمة الإلهية لهم لينجوا من الغرق ويعيشوا على رسلهم في الأرض، ولذلك علل عليه السلام تسميته بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إنما أذكر اسم الله على مجرى سفينتي ومرساها لأنه ربي الغفور الرحيم، له أن يحفظ مجراها ومرساها من الاختلال والتخبط حتى ننجو بذلك من الغرق بمغفرته ورحمته.

٢. ونوح عليه السلام أول إنسان حكى الله سبحانه عنه التسمية باسمه الكريم فيما أوحاه من كتابه فهو عليه السلام أول فاتح فتح هذا الباب كما أنه أول من أقام الحجة على التوحيد، وأول من جاء بكتاب وشريعة وأول من انتهض لتعديل الطبقات ورفع التناقض عن المجتمع الإنساني.

٣. وما قدمناه من معنى قوله: ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْراها وَمُرْساها﴾ مبني على ما هو الظاهر من كون الجملة تسمية من نوح عليه السلام والمجرى والمرسى مصدرين ميميين وربما احتمل كونه تسمية ممن مع نوح بأمره أو كون مجراها ومرساها اسمين للزمان أو المكان فيختلف المعنى، قال في الكشاف في الآية: (يجوز أن يكون كلاما واحدا وكلامين: فالكلام الواحد أن يتصل باسم الله باركبوا حالا من الواو بمعنى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها إما لأن المجرى والمرسى للوقت وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم: خفوق النجم ومقدم الحاج، ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء، وانتصابهما بما في بسم الله من معنى الفعل أو بما فيه من إرادة القول، والكلامان أن يكون بسم الله مجراها ومرساها جملة من مبتدإ وخبر مقتضبة أي بسم الله إجراؤها وإرساؤها، يروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت، وإذا أن ترسو قال: بسم الله فرست، ويجوز أن يقحم، الاسم كقوله: ثم اسم السلام عليكما ويراد بالله إجراؤها وإرساءها)، قال: (وقرئ مجراها ومرساها بفتح الميم من جرى ورسى إما مصدرين أو وقتين أو مكانين، وقرأ مجاهد: مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل صفتين لله)

٢٦. نوح ينادي ابنه الذي كان في معزل:

المقطع [٢٦] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ

وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٢٩»:

١. ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ الضمير للسفينة، والموج اسم جنس كتمر أو جمع موجة، على ما قيل، وهي قطعة عظيمة ترتفع عن جملة الماء وفي الآية إشعار بأن السفينة كانت تسير على الماء ولم تكن تسبح جوف الماء كالحيتان كما قيل.

٢. ﴿وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ﴾:

أ. المعزل اسم مكان من العزل وقد عزل ابنه نفسه عن أبيه والمؤمنين في مكان لا يقرب منهم، ولذلك قال: ﴿وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ ولم يقل: وقال نوح لابنه.

ب. والمعنى: ونادى نوح ابنه وكان ابنه في مكان منعزل بعيد منهم وقال في ندائه: يا بني، بالتصغير والإضافة دلالة على الإشفاق والرحمة، اركب معنا السفينة ولا تكن مع الكافرين فتشاركهم في البلاء كما شاركتهم في الصحبة وعدم ركوب السفينة، ولم يقل عليه السلام: ولا تكن من الكافرين لأنه لم يكن يعلم نفاقه وأنه غير مؤمن إلا باللفظ، ولذلك دعاه إلى الركوب.

٣. ﴿قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ الآية:

أ. قال الراغب: (المأوى مصدر أوى يأوي أويا ومأوى تقول: أوى إلى كذا: انضم إليه يأوي أويا ومأوى وآواه غيره يؤويه إيواء)، والمعنى: قال ابن نوح مجيبا لأبيه رادا لأمره: سأنضم إلى جبل يعصمني ويقيني من الماء فلا أغرق، قال نوح: لا عاصم اليوم، وهو يوم اشتد غضب الله وقضى بالغرق لأهل الأرض إلا من التجأ منهم إلى الله، من الله لا جبل ولا غيره، وحال بين نوح وابنه الموج فكان ابنه من المغرقين ولو لم يحل الموج بينهما ولم ينقطع الكلام بذلك لعرف كفره وتبرأ منه.

ب. وفي الكلام إشارة إلى أن أرضهم كانت أرضا جبلية لا مئونة زائدة في صعود الإنسان إلى بعض جبال كانت هناك.

٤. ﴿وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. البلع إجراء الشيء في الحلق إلى الجوف، والإقلاع الإمساك وترك الشيء من أصله، والغيض جذب الأرض المائع الرطب من ظاهرها إلى باطنها وهو كالنشف يقال: غاضت الأرض الماء أي نقصته.

ب. والجودي مطلق الجبل والأرض الصلبة، وقيل: هو جبل بأرض موصل في سلسلة جبال تنتهي إلى أرمينية وهي المسماة (آرارات)

٥. أحاديث وآثار:

أ. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بن علي: في قوله: ﴿وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ قال هي بلغة طيئ، لم يكن ابنه وكان ابن امرأته.

• أقول: ورواه العياشي في تفسيره عن محمد بن مسلم عنه عليه السلام.

ب. وفي تفسير العياشي، عن موسى عن العلاء بن سيابة عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله: ﴿وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ قال ليس بابنه، إنما هو ابن امرأته وهي لغة طيئ، يقولون لابن امرأته: ابنه، الحديث.

ج. وفيه، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: في قول نوح: ﴿يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا﴾ قال: ليس بابنه، قال: قلت: إن نوحا قال: يا بني؟ قال: فإن نوحا قال ذلك، وهو لا يعلم.

• أقول: والمعتمد ما تقدم من رواية الوشاء عن الرضا عليه السلام.

٢٧. الطوفان والجودي والظالمون:

المقطع [٢٧] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٣٠»:

١. ﴿وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي﴾:

أ. نداء صادر من ساحة العظمة والكبرياء لم يصرح باسم قائله وهو الله عز اسمه للتعظيم، والأمر تكويني تحمله كلمة (كن) الصادرة من ذي العرش تعالى يترتب عليه من غير فصل أن تبتلع الأرض ما على وجهها من الماء المتفجر من عيونها، وأن تكف السماء عن أمطارها.

ب. وفيه دلالة على أن الأرض والسماء كانتا مشتركتين في إطغاء الماء بأمر الله كما يبينه قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]

٢. ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أي نقص الماء ونشف عن ظاهر الأرض وانكشف البسيط، وذلك إنما يكون بالطبع باجتماع ما يمكن اجتماعه منه في الغدران وتشكيل البحار والبحيرات، وانتشاف ما على سائر البسيطة.

٣. ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي أنجز ما وعد لنوح عليه السلام من عذاب القوم وأنفذ الأمر الإلهي بغرقهم وتطهر الأرض منهم أي كان ما قيل له كن كما قيل فقضاء الأمر كما يقال على جعل الحكم وإصداره كذلك يقال على إمضائه وإنفاذه وتحقيقه في الخارج، غير أن القضاء الإلهي والحكم الربوبي الذي هو عين الوجود الخارجي جعله وإنفاذه واحد، وإنما الاختلاف بحسب التعبير.

٤. ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِ﴾ أي استقرت السفينة على الجبل أو على جبل الجودي المعهود، وهو إخبار عن اختتام ما كان يلقاه نوح ومن معه من أمر الطوفان.

٥. ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. أي قال الله عز اسمه: بعدا للقوم الظالمين أي ليبعدوا بعدا فأبعدهم بذلك من رحمته وطردهم عن دار كرامته، والكلام في ترك ذكر فاعل ﴿قِيلَ﴾ هاهنا كالكلام فيه في ﴿قِيلَ﴾ السابق.

ب. والأمر أيضا في قوله: ﴿بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كالأمرين السابقين: ﴿يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي﴾ تكويني فهو عين ما أنفذه الله فيهم من الغرق المؤدي إلى خزيهم في الدنيا وخسرانهم في الآخرة، وإن كان من وجه آخر من جنس الأمر التشريعي لتفرعه على مخالفتهم الأمر الإلهي بالإيمان والعمل، وكونه جزاء لهم على استكبارهم واستعلائهم على الله عز وجل.

ج. وللصفح عن ذكر الفواعل في قوله: ﴿وَقِيلَ يا أَرْضُ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْداً﴾ الآية، في الآية وجه آخر مشترك وهو أن هذه الأمور العظيمة الهائلة المدهشة لن يقدر عليها إلا الواحد القاهر الذي لا شريك له في أمره فلا يذهب الوهم إلى غيره لو لم يذكر على فعله فما هو إلا فعله ذكر أم لم يذكر.

د. ولمثل هذه النكتة حذف فاعل ﴿غِيضَ الْمَاءُ﴾ وهو الأرض، وفاعل ﴿اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِ﴾ وهو السفينة، ولم يعين القوم الظالمون بأنهم قوم نوح، ولا الناجون بأنهم نوح عليه السلام ومن معه في السفينة فإن الآية بلغت في بلاغتها العجيبة من حيث سياق القصة مبلغا ليس فيه إلا سماء تنزل أمطارها،

وأرض انفجرت بعيونها وانغمرت بالماء وسفينة تجري في أمواجه، وأمر مقضي، وقوم ظالمون هم قوم نوح وأمر إلهي بوعد القوم بالهلاك فلو غيض الماء فإنما تغيضه الأرض، ولو استقر شيء واستوى فإنما هي السفينة تستقر على الأرض كما أنه لو قيل: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وقيل: بعدا للقوم الظالمين فإنما القائل هو الله عز اسمه والقوم الظالمون هم المقضي عليهم بالعذاب، ولو قيل: قضي الأمر فإنما القاضي هو الله سبحانه، والأمر هو ما وعده نوحا ونهاه أن يراجعه في ذلك وهو أنهم مغرقون، ولو قيل للسماء: أقلعي بعد ما قيل للأرض: ابلعي ماءك فإنما يراد إقلاعها وإمساكها ماءها.

٦. ففي الآية الكريمة اجتماع عجيب من أسباب الإيجاز وتوافق لطيف فيما بينها كما أن الآية واقفة على موقف عجيب من بلاغة القرآن المعجزة يبهر العقول ويدهش الألباب وإن كانت الآيات القرآنية كلها معجزة في بلاغتها، وقد اهتم بأمرها رجال البلاغة وعلماء البيان فغاصوا لجي بحرها وأخرجوا ما استطاعوا نيله من لئاليها، وما هو، وقد اعترفوا بذلك، إلا كغرفة من بحر أو حصاة من بر.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن إبراهيم بن أبي العلاء عن أحدهما عليهماالسلام قال: لما قال الله: ﴿يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي﴾ قالت الأرض: إنما أمرت أن أبلع مائي أنا فقط، ولم أومر أن أبلع ماء السماء فبلعت الأرض ماءها، وبقي ماء السماء فصير بحرا حول الدنيا.

ب. وفيه، عن أبي بصير عن أبي الحسن موسى عليه السلام: في حديث ذكر فيه الجودي قال: وهو جبل بالموصل.

ج. وفيه، عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِ﴾ هو فرات الكوفة.

• أقول: ويؤيد الرواية السابقة روايات أخر.

د. وفيه، عن عبد الحميد بن أبي الديلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما ركب نوح عليه السلام في السفينة قيل: بعدا للقوم الظالمين.

هـ. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ﴾ الآية، قال: ويروى أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن، فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوما،

لتصفو أذهانهم فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام، ولا يشبه كلام المخلوقين وتركوا، ما أخذوا فيه وافترقوا.

٢٨. نوح يسأل ربه عن ابنه ويستغفره عن سؤال ما ليس له به علم:

المقطع [٢٨] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥-٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٣٢»:

١. ﴿وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ﴾:

أ. دعاء نوح عليه السلام لابنه الذي تخلف عن ركوب السفينة وقد كان آخر عهده به يوم ركب السفينة فوجده في معزل فناداه وأمره بركوب السفينة فلم يأتمر ثم حال بينهما الموج فوجد نوح عليه السلام وهو يرى أنه مؤمن بالله من أهله وقد وعده الله بإنجاء أهله.

ب. ولما به من الوجد والحزن رفع صوته بالدعاء كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ ولم يقل: سأل أو قال أو دعا، ورفع الصوت بالاستغاثة من المضطر الذي اشتد به الضر وهاج به الوجد أمر طبعي، والدعاء أعني نداء نوح عليه السلام ربه في ابنه وإن ذكر في القصة بعد ذكر إنجاز غرق القوم وظاهره كون النداء بعد تمام الأمر واستواء الفلك لكن مقتضى ظاهر الحال أن يكون النداء بعد حيلولة الموج بينهما وعلى هذا فذكره بعد ذكر انقضاء الطوفان إنما هو لمكان العناية ببيان جميع ما في القصة من الهيئة الهائلة في محل واحد لتكميل تمثيل الواقعة ثم الأخذ ببيان بعض جهاته الباقية.

ج. وقد كان عليه السلام رسولا أحد الأنبياء أولي العزم عالما بالله عارفا بمقام ربه بصيرا بموقف نفسه في العبودية، والظرف ظهرت فيه آية الربوبية والقهر الإلهي أكمل ظهورها فأغرقت الدنيا وأهلها، ونودي من ساحة العظمة والكبرياء على الظالمين بالبعد، فأخذ نوح عليه السلام يدعو لابنه والظرف هذا الظرف لم يجترئ عليه السلام، على ما يقتضيه أدب النبوة، على أن يسأل ما يريده من نجاة ابنه بالتصريح، بل أورد القول كالمستفسر عن حقيقة الأمر، وابتدر بذكر ما وعده الله من نجاة أهله حين أمره أن يجمع الناجين معه في السفينة فقال له: ﴿احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾

د. وكان أهله، غير امرأته، حتى ابنه هذا مؤمنين به ظاهرا ولو لم يكن ابنه هذا على ما كان يراه نوح عليه السلام مؤمنا لم يدعه البتة إلى ركوب السفينة فهو عليه السلام الداعي على الكافرين السائل هلاكهم بقوله: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً﴾ فقد كان يرى ابنه هذا مؤمنا ولم يكن مخالفته لأمر أبيه إذ أمره بركوب السفينة كفرا أو مؤديا إلى الكفر وإنما هي معصية دون الكفر.

هـ. ولذلك كله قال عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ فذكر وعد ربه وضم إليه أن ابنه من أهله، على ما في الكلام من دلالة ﴿رَبِّ﴾ على الاسترحام، ودلالة الإضافة في ﴿ابْنِي﴾ على الحجة في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِي﴾ ودلالة التأكيد بإن ولام الجنس في قوله: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ على أداء حق الإيمان.

و. وكانت الجملتان: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ ينتجان بانضمام بعضهما إلى بعض الحكم بلزوم نجاة ابنه لكنه عليه السلام لم يأخذ بما ينتجه كلامه من الحكم أدبا في مقام العبودية فلا حكم إلا لله بل سلم الحكم الحق والقضاء الفصل إلى الله سبحانه فقال: ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ﴾

ز. فالمعنى: رب إن ابني من أهلي، وإن وعدك حق كل الحق، وإن ذلك يدل على أن لا تأخذه بعذاب القوم بالغرق ومع ذلك فالحكم الحق إليك فأنت أحكم الحاكمين كأنه عليه السلام يستوضح ما هو حقيقة الأمر ولم يذكر نجاة ابنه ولا زاد على هذا الذي حكاه الله عنه شيئا وسيوافيك بيان ذلك.

٢. ﴿قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ الآية:

أ. بين سبحانه لنوح عليه السلام وجه الصواب فيما ذكره بقوله: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ﴾ الآية، وهو يستوجب به نجاة ابنه فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ فارتفع بذلك أثر حجته.

ب. والمراد بكونه ليس من أهله، والله أعلم، أنه ليس من أهله الذين وعده الله بنجاتهم لأن المراد بالأهل في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ الأهل الصالحون، وهو ليس بصالح وإن كان ابنه ومن أهله بمعنى الاختصاص، ولذلك علل قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾

ج. سؤال وإشكال: فإن قلت: لازم ذلك أن يكون امرأته الكافرة من أهله لأنها إنما خرجت من الحكم بالاستثناء وهي داخلة موضوعا في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ ويكون ابنه ليس من أهله وخارجا موضوعا لا بالاستثناء وهو بعيد، والجواب: المراد بالأهل في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ هم الأهل

بمعنى الاختصاص وبالمستثنى، من سبق عليه القول، غير الصالحين ومصداقه امرأته وابنه هذا، وأما الأهل الواقع في قوله هذا: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ فهم الصالحون من المختصين به عليه السلام طبقا لما وقع في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فإنه عليه السلام لا يريد بالأهل في قوله هذا غير الصالحين من أولي الاختصاص وإلا شمل امرأته وبطلت حجته فافهم ذلك.

د. فهذا هو الظاهر من معنى الآية، ويؤيده بعض ما ورد عن أئمة أهل البيت عليه السلام مما سيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

٣. وذكروا في تفسير الآية معان أخر:

أ. منها: أن المراد أنه ليس على دينك فكأن كفره أخرجه عن أن يكون له أحكام أهله، ونسب إلى جماعة من المفسرين.

• وفيه أنه في نفسه معنى لا بأس به إلا أنه غير مستفاد من سياق الآية لأن الله سبحانه ينفي عنه الأهلية بالمعنى الذي كان يثبتها له به نوح عليه السلام ولم يكن نوح يريد بأهليته أنه مؤمن غير كافر بل إنما كان يريد أنه أهله بمعنى الاختصاص والصلاح وإن كان لازمه الإيمان، اللهم إلا أن يرجع إلى المعنى المتقدم.

ب. ومنها: أنه لم يكن ابنه على الحقيقة وإنما ولد على فراشه فقال نوح عليه السلام: إنه ابني على ظاهر الأمر فأعلمه الله أن الأمر على خلاف ذلك، ونبهه على خيانة امرأته، وينسب إلى الحسن ومجاهد.

• وفيه: أنه على ما فيه من نسبة العار والشين إلى ساحة الأنبياء عليهم‌السلام، والذوق المكتسب من كلامه تعالى يدفع ذلك عن ساحتهم وينزه جانبهم عن أمثال هذه الأباطيل، أنه ليس مما يدل عليه اللفظ بصراحة ولا ظهور فليس في القصة إلا قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾ وليس بظاهر فيما تجرءوا عليه وقوله في امرأة نوح: ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما﴾ [التحريم: ١٠] وليس إلا ظاهرا في أنهما كانتا كافرتين تواليان أعداء زوجيهما وتسران إليهم بأسرارهما وتستنجدانهم عليهما.

ج. ومنها: أنه كان ابن امرأته عليه السلام وكان ربيبه لا ابنه من صلبه.

• وفيه أنه مما لا دليل عليه من جهة اللفظ، على أنه لا يلائم قوله في تعليل أنه ليس من أهله: ﴿إِنَّهُ

عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾ ولو كان كذلك كان من حق الكلام أن يقال: إنه ابن المرأة، على أن من المستبعد جدا أن لا يكون نوح عليه السلام عالما بأنه ربيبه وليس بابنه حتى يخاطب ربه بقوله: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أو يكون عالما بذلك ويتكلم بالمجاز ويحتج على ربه العليم الخبير بذلك فينبه أنه ليس ابنه وإنما هو ربيب.

• وقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾ ظاهر السياق أن الضمير لابن نوح عليه السلام فيكون هو العمل غير الصالح، وعده عملا غير صالح نوع من المبالغة نحو زيد عدل أي ذو عدل، وقولها: فإنما هي إقبال وإدبار، أي ذات إقبال وإدبار.

• فالمعنى: إن ابنك هذا ذو عمل غير صالح فليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم، ويؤيد هذا المعنى قراءة من قرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلَ غَيْرُ صالِحٍ﴾ بالفعل الماضي أي عمل عملا غير صالح.

د. وذكر بعضهم: أن الضمير راجع إلى سؤال نوح عليه السلام المفهوم من قوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي إن سؤالك نجاة ابنك عمل غير صالح لأنه سؤال لما ليس لك به علم ولا ينبغي لنبي أن يخاطب ربه بمثل ذلك.

• وهو من أسخف التفسير فإنه معنى لا يلائم شيئا من الجملتين المكتنفتين به لا قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ولا قوله: ﴿فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وهو ظاهر، ولو كان كذلك كان من حق الكلام أن يتقدم على قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ويتصل بقول نوح عليه السلام.

• على أنك عرفت أن قول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ الآية، لا يتضمن سؤالا وإنما كان يسوقه، لو جرى في كلامه، إلى السؤال لكن العناية الإلهية حالت بينه وبين السؤال.

٤. ﴿فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾:

أ. كان قول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ في مظنة أن يسوقه إلى سؤال نجاة ابنه وهو لا يعلم أنه ليس من أهله فأخذته العناية الإلهية، وحال التسديد الغيبي بينه وبين السؤال فأدركه النهي بقوله: ﴿فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ بتفريع النهي على ما تقدم أي فإذ ليس من أهلك لكونه عملا غير صالح وأنت لا سبيل لك إلى العلم بذلك فإياك أن تبادر إلى سؤال نجاته لأنه سؤال ما ليس لك به علم.

ب. والنهي عن السؤال بغير علم لا يستلزم تحقق سؤال ذلك منه عليه السلام لا مستقلا ولا في

ضمن قوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ لأن النهي عن الشيء لا يستلزم الارتكاب قبلا، وقد قال تعالى: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨] فنهى النبي ﷺ عن حب الدنيا والافتتان بزينتها وحاشاه عن ذلك.

ج. وإنما يفتقر النهي في صحة تعلقه بفعل ما أن يكون فعلا اختياريا يمكن أن يبتلي به المكلف، وما نهي عنه الأنبياء عليهمالسلام على هذه الصفة وإن كانوا ذوي عصمة إلهية وتسديد غيبي، فإن من العصمة والتسديد أن يراقبهم الله سبحانه في أعمالهم وكلما اقتربوا مما من شأنه أن يزل فيه الإنسان نبههم على وجه الصواب ويدعوهم إلى السداد والتزام طريق العبودية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً﴾ [الإسراء: ٧٥] فأنبأ تعالى أنه هو الذي ثبته ولم يدعه يقترب من الركون إليهم فضلا عن نفس الركون، وقال تعالى ﴿وَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٣]

د. ومن الدليل على أن النهي، ﴿فَلا تَسْئَلْنِ﴾ الآية، نهي عما لم يقع بعد قول نوح عليه السلام بعد استماع هذا النهي: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ولو كان سأل شيئا لقيل: أعوذ بك من سؤالي ذلك ليفيد المصدر المضاف إلى المعمول التحقق والارتكاب.

هـ. ومن الدليل أيضا على أنه عليه السلام لم يسأل ذلك تعقيب قوله: ﴿فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ بقوله: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾ فإن معناه: أني أنصح لك في القول أن لا تكون بسؤالك ذلك من الجاهلين، ولو كان نوح سأل ذلك لكان من الجاهلين لأنه سأل ما ليس له به علم.

٥. سؤال وإشكال: فإن قلت: إنه تعالى قال: ﴿أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾ أي ممن استقرت فيه صفة الجهل، واستقرارها إنما يكون بالتكرار لا بالمرة والدفعة، وبذلك يعلم أنه سأل ما سأل وتحقق منه الجهل مرة وإنما وعظه الله تعالى بها وعظ لئلا يعود إلى مثله فيتكرر منه ذلك فيدخل في زمرة الجاهلين، والجواب:

أ. زنة الفاعل كجاهل لا تدل على الاستقرار والتكرر وإنما تفيده الصفة المشبهة كجهول على ما ذكروه، ويشهد لذلك قوله تعالى في قصة البقرة: ﴿قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ

الْجاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، وقوله في قصة يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] وقوله خطابا لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]

ب. وأيضا لو كان المراد من النهي عن السؤال أن لا يتكرر منه ذلك بعد ما وقع مرة لكان الأنسب أن يصرح بالنهي عن العود إلى مثله دون النهي عن أصله كما وقع في نظير المورد من قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ إلى أن قال: ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً﴾ [النور: ١٧]

٦. ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾:

أ. لما تبين لنوح عليه السلام أنه لو ساقه طبع الخطاب الذي خاطب به ربه إلى السؤال كان سائلا ما ليس له به علم وكان من الجاهلين وإن عناية الله حالت بينه وبين الهلكة، شكر ربه فاستعاذ بمغفرته ورحمته عن ذلك السؤال المخسر فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾

ب. والكلام في الاستعاذة مما لم يقع بعد من الأمور المهلكة والمعاصي الموبقة كالنهي عما لم يقع من الذنوب والآثام وقد تقدم الكلام فيه وقد أمر الله نبيه ﷺ بالاستعاذة من الشيطان وهو معصوم لا سبيل للشيطان إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى أن قال: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥] وقال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٨] والوحي مصون عن مس الشياطين كما قال تعالى: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]

٧. ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ كلام صورته صورة التوبة وحقيقته الشكر على ما أنعم الله عليه من التعليم والتأديب:

أ. أما صورة توبته فإن في ذلك رجوعا إلى ربه تعالى بالاستعاذة ولازمها طلب مغفرة الله ورحمته أي ستره على الإنسان ما فيه زلته وهلاكته وشمول عنايته لحاله وقد تقدم في أواخر الجزء السادس من الكتاب بيان أن الذنب أعم من مخالفة الأمر التشريعي بل كل وبال وأثر سيئ الإنسان بوجه، وأن المغفرة

أعم من الستر على المعصية المعروفة عند المتشرعة بل كل ستر إلهي يسعد الإنسان ويجمع شمله.

ب. وأما حقيقة الشكر فإن العناية الإلهية التي حالت بينه وبين السؤال الذي كان يوجب دخوله في زمرة الجاهلين وعصمته ببيان وجه الصواب كانت سترا إلهيا على زلة في طريقه ورحمة ونعمة أنعم الله سبحانه بها عليه فقوله عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي إن لم تعذني من الزلات لخسرت، ثناء وشكر لصنعه الجميل.

٨. أحاديث وآثار:

أ. وفي العيون، بإسناده عن الحسن بن علي الوشاء عن الرضا عليه السلام قال: سمعته يقول: قال أبي: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله عز وجل قال لنوح: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لأنه كان مخالفا له، وجعل من اتبعه من أهله، قال: وسألني كيف يقرءون هذه الآية في ابن نوح؟ فقلت: يقرؤها الناس على وجهين: إنه عمل غير صالح، وإنه عمل غير صالح، فقال: كذبوا هو ابنه ولكن الله نفاه عنه، حين خالفه في دينه.

• أقول: ولعله عليه السلام يشير بقوله: (وجعل من اتبعه من أهله) إلى قوله تعالى ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، فإن الظاهر أن المراد بأهله جميع من نجا معه.

• وكان المراد من قراءة الآية تفسيرها والراوي يشير بإيراد القراءتين إلى تفسير من فسر الآية بأن المراد أن امرأة نوح حملت الابن من غيره فألحقه بفراشه ولذلك قرأ بعضهم: (ونادى نوح ابنها) أو (ونادى نوح ابنه) بفتح الهاء مخفف ابنها ونسبوا القراءتين إلى علي وبعض الأئمة من ولده عليه السلام.

• قال في الكشاف: وقرأ علي (ابنها) والضمير لامرأته، وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير (ابنه) بفتح الهاء يريدان (ابنها) فاكتفيا بالفتحة عن الألف وبه ينصر مذهب الحسن قال قتادة: سألته فقال: والله ما كان ابنه فقلت: إن الله حكى عنه ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون أنه كان ابنه! فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب؟ واستدل بقوله من أهلي ولم يقل: مني)

• واستدلاله بما استدل به سخيف فإن الله وعده بنجاة أهله ولم يعده بنجاة من كان منه حتى يضطر إلى قول: إن ابني مني عند سؤال نجاته، وقد تقدم بيان أن لفظ الآيات لا يلائم هذا الوجه.

• وما ذكر من عدم الخلاف بين أهل الكتاب منظور فيه فإن التوراة ساكتة عن قصة ابن نوح هذا

الغريق.

ب. أخرج ابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ عن علي: أنه قرأ: (ونادى نوح ابنها)

٢٩. هبوط نوح ومن معه بسلام وبركات:

المقطع [٢٩] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٨-٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٣٩»:

١. ﴿قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ الآية:

أ. السلام هو السلامة أو التحية غير أن ذكر مس العذاب في آخر الآية يؤيد كون المراد به في صدرها السلامة من العذاب وكذا تبديل البركة في آخر الآية إلى التمتع يدل على أن المراد بالبركات ليس مطلق النعم وأمتعة الحياة بل النعم من حيث تسوق الإنسان إلى الخير والسعادة والعاقبة المحمودة.

ب. فقوله: ﴿قِيلَ﴾ ولم يذكر القائل وهو الله سبحانه للتعظيم، ﴿يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ﴾ معناه، والله أعلم، يا نوح انزل مع سلامة من العذاب، الطوفان، ونعم ذوات بركات وخيرات نازلة منا عليك أو أنزل بتحية وبركات نازلة منا عليك.

ج. ﴿وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ وتنكير أمم يدل على تبعيضهم لأن من الأمم من يذكره تعالى بعد في قوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾

د. والخطاب أعني قوله تعالى: ﴿يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ﴾ إلى آخر الآية بالنظر إلى ظرف صدوره وليس وقتئذ متنفس على وجه الأرض من إنسان أو حيوان وقد أغرقوا جميعا ولم يبق منهم إلا جماعة قليلة في السفينة وقد رست واستوت على الجودي، وقد قضي أن ينزلوا إلى الأرض فيعمروها ويعيشوا فيها إلى حين، خطاب عام شامل للبشر من لدن خروجهم منها إلى يوم القيامة نظير ما صدر من الخطاب الإلهي يوم أهبط آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض.

هـ. وقد حكاه الله تعالى في موضع بقوله: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ إلى أن قال ـ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩] وفي موضع آخر بقوله: ﴿قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، وهذا الخطاب خطاب ثان مشابه لذاك الخطاب الأول موجه إلى نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وإليهم ينتهي نسل البشر اليوم، متعلق بهم وبمن يلحق بهم من ذراريهم إلى يوم القيامة، وهو يتضمن تقدير حياتهم الأرضية والإذن في نزولهم إليها واستقرارهم فيها وإيوائهم إياها.

و. وقد قسم الله هؤلاء المأذون لهم قسمين فعبر عن إذنه لطائفة منهم بالسلام والبركات وهم نوح عليه السلام وأمم ممن معه، ولطائفة أخرى بالتمتيع، وعقب التمتيع بمس العذاب لهم كما كلمتي السلام والبركات لا تخلوان من بشرى الخير والسعادة بالنسبة إلى من تعلقتا به.

ز. فقد بان من ذلك أن الخطاب بالهبوط في هذه الآية مع ما يرتبط به من سلام وبركات وتمتيع موجه إلى عامة البشر من حين هبوط أصحاب السفينة إلى يوم القيامة، ووزانه وزان خطاب الهبوط الموجه إلى آدم وزوجته عليه السلام، وفي هذا الخطاب إذن في الحياة الأرضية ووعد لمن أطاع الله سبحانه ووعيد لمن عصاه كما أن في ذلك الخطاب ذلك طابق النعل بالنعل.

ح. وظهر بذلك أن المراد بقوله: ﴿وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ الأمم الصالحون من أصحاب السفينة ومن سيظهر من نسلهم من الصالحين، والظاهر على هذا أن يكون ﴿مِمَّنْ﴾ في قوله ﴿مِمَّنْ مَعَكَ﴾ ابتدائية لا بيانية، والمعنى وعلى أمم يبتدي تكونهم ممن معك، وهم أصحاب السفينة والصالحون من نسلهم.

ط. وظاهر هذا المعنى أن يكون أصحاب السفينة كلهم سعداء ناجين، والاعتبار يساعد ذلك فإنهم قد محصوا بالبلاء تمحيصا وآثروا ما عند الله من زلفى وقد صدق الله سبحانه إيمانهم مرتين في أثناء القصة حيث قال عز من قائل: ﴿إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [آية: ٣٦] من السورة، وقال: ﴿وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، [آية: ٤٠] من السورة.

٢. ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ كأنه مبتدأ لخبر محذوف والتقدير: وممن معك أمم أو وهناك أمم سنمتعهم إلخ، وقد أخرجهم الله سبحانه من زمرة المخاطبين بخطاب الإذن فلم يقل: ومتاع لأمم آخرين سيعذبون طردا لهم من موقف الكرامة، فأخبر أن هناك أمما آخرين سنمتعهم ثم نعذبهم وهم غير مأذون لهم في التصرف في أمتعة الحياة إذن كرامة وزلفى.

٣. وفي الآية جهات من تعظيم القائل لا تخفى كالبناء للمفعول في ﴿قِيلَ﴾ وتخصيص نوح عليه السلام بخطاب الهبوط والتكلم مع الغير في قوله: ﴿مِنَّا﴾ في موضعين و﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ وغير ذلك.

٤. وظهر أيضا: أن ما فسروا به قوله: ﴿عَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ أن معناه: على أمم من ذرية من معك ليس على ما ينبغي مع ما فيه من خروج من معه من الخطاب وكذا قول من قال: يعني بالأمم سائر الحيوان الذين كانوا معه لأن الله جعل فيهم البركة، وفساده أظهر.

٥. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ﴾ أي هذه القصص أو هذه القصة من أنباء الغيب نوحيها إليك.

٦. ﴿ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا﴾ أي كانت وهي على محوضة الصدق والصحة مجهولة لك ولقومك من قبل هذا، والذي عند أهل الكتاب منها محرف مقلوب عن وجه الصواب كما سيوافيك ما في التوراة الحاضرة من قصته عليه السلام.

٧. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أمر منتزع عن تفصيل القصة أي إذا علمت ما آل إليه أمر نوح عليه السلام وقومه من هلاك قومه ونجاته ونجاة من معه من المؤمنين وقد ورثهم الله الأرض على ما صبروا، ونصر نوحا على أعدائه على ما صبر فاصبر على الحق فإن العاقبة للمتقين، وهم الصابرون في جنب الله سبحانه.

٣٠. هود يدعو عاداً للاستغفار:

المقطع [٣٠] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٠-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٢٩٨»:

١. ﴿وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً﴾ كان أخاهم في النسب لكونه منهم وأفراد القبيلة يسمون إخوة لانتسابهم جميعا إلى أب القبيلة، والجملة معطوفة على قوله تعالى سابقا: ﴿نُوحاً إِلى قَوْمِهِ﴾ والتقدير: (ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا) ولعل حذف الفعل هو الموجب لتقديم الظرف على المفعول في المعطوف على خلاف المعطوف عليه حيث قيل: ﴿وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ﴾ الآية، ولم يقل: وهودا إلى عاد مثلا كما قال: ﴿نُوحاً

إِلى قَوْمِهِ﴾ لأن دلالة الظرف أعني: ﴿إِلى عادٍ﴾ على تقدير الإرسال أظهر وأوضح.

٢. ﴿قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾:

أ. الكلام وارد مورد الجواب كان السامع لما سمع قوله: ﴿وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً﴾ قال: فما ذا قال لهم؟ فقيل: ﴿قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ الآية، ولذا جيء بالفصل من غير عطف.

ب. ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ في مقام الحصر أي اعبدوه ولا تعبدوا غيره من آلهة اتخذتموها أربابا من دون الله تعبدونها لتكون لكم شفعاء عند الله من غير أن تعبدوه تعالى، والدليل على الحصر المذكور قوله بعد: ﴿ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ حيث يدل على أنهم كانوا قد اتخذوا آلهة يعبدونها افتراء على الله بالشركة والشفاعة.

٣. ﴿يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال في المجمع: (الفطر الشق عن أمر الله كما ينفطر الورق عن الشجر، ومنه فطر الله الخلق لأنه بمنزلة ما شق منه فظهر)، وقال الراغب: (أصل الفطر الشق طولا يقال: فطر فلان كذا فطرا وأفطر هو فطورا وانفطر انفطارا إلى أن قال: وفطر الله الخلق وهو إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال فقوله: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ إشارة منه تعالى إلى ما فطر أي أبدع وركز في الناس من معرفته، وفطرة الله هي ما ركز فيه من قوته على معرفة الإيمان وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾)

ب. والظاهر أن الفطر هو الإيجاد عن عدم بحت، والخصوصية المفهومة من مثل قوله: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ إنما نشأت من بناء النوع الذي تشتمل عليه فطرة وهي فعلة، وعلى هذا فتفسير بعضهم الفطرة بالخلقة بعيد من الصواب، وإنما الخلق هو إيجاد الصورة عن مادة على طريق جمع الأجزاء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠]

ج. والكلام مسوق لرفع التهمة والعبث والمعنى يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم أجرا وجزاء حتى تتهموني أني أستدر به نفعا يعود إلي وإن أضر بكم، ولست أدعوكم من غير جزاء مطلوب حتى يكون عبثا من الفعل بل إنما أطلب به جزاء من الله الذي أوجدني وأبدعني أفلا تعقلون عني ما أقوله لكم حتى يتضح لكم أني ناصح لكم في دعوتي، ما أريد إلا أن أحملكم على الحق.

٤. ﴿وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً﴾ إلى آخر الآية تقدم الكلام في معنى قوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ في صدر السورة.

٥. ﴿يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً﴾ في موقع الجزاء لقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ الآية، أي إن تستغفروه وتتوبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا، والمراد بالسماء السحاب فإن كل ما علا وأظل فهو سماء، وقيل المطر وهو شائع في الاستعمال، والمدرار مبالغة من الدر، وأصل الدر اللبن ثم أستعير للمطر ولكل فائدة ونفع فإرسال السماء مدرارا إرسال سحب تمطر أمطارا متتابعة نافعة تحيي بها الأرض وينبت الزرع والعشب، وتنضر بها الجنات والبساتين.

٦. ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ﴾ قيل المراد بها زيادة قوة الإيمان على قوة الأبدان وقد كان القوم أولي قوة وشدة في أبدانهم ولو أنهم آمنوا انضافت قوة الإيمان على قوة أبدانهم وقيل المراد بها قوة الأبدان كما قال نوح لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٢] ولعل التعميم أولى.

٧. ﴿وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ بمنزلة التفسير لقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي إن عبادتكم لما اتخذتموه من الآلهة دون الله إجرام منكم ومعصية توجب نزول السخط الإلهي عليكم فاستغفروا الله من إجرامكم وارجعوا إليه بالإيمان حتى يرحمكم بإرسال سحب هاطلة ممطرة وزيادة قوة إلى قوتكم.

٨. وفي الآية:

أ. أولا: إشعار أو دلالة على أنهم كانوا مبتلين بإمساك السماء والجدب والسنة كما ربما أومأ إليه قوله: ﴿يُرْسِلِ السَّماءَ﴾ وكذا قولهم على ما حكاه الله تعالى في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]

ب. وثانيا: أن هناك ارتباطا تاما بين الأعمال الإنسانية وبين الحوادث الكونية التي تمسه فالأعمال الصالحة توجب فيضان الخيرات ونزول البركات، والأعمال الطالحة تستدعي تتابع البلايا والمحن، وتجلب النقمة والشقوة والهلكة كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الأعراف: ٩٦]، وقد تقدم تفصيل الكلام فيه في بيان [الآيات: ٩][د: ١٠٢] من سورة الأعراف في الجزء الثامن من الكتاب، وفي أحكام الأعمال في الجزء الثاني منه.

٩. أحاديث وآثار:

أ. روي إمساك السماء عنهم من طريق أهل السنة عن الضحاك أيضا قال: أمسك عن عاد القطر ثلاث سنين، فقال لهم هود: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً﴾ فأبوا إلا تماديا، وقد تقدم أن الآيات لا تخلو من إشارة إليه.

ب. واعلم أن الروايات في قصة هود وعاد كثيرة إلا أنها تشتمل على أمور لا سبيل إلى تصحيحها من طريق الكتاب ولا إلى تأييدها بالاعتبار ولذلك طوينا ذكرها.

ج. وورد أيضا أخبار أخر من طرق الشيعة وأهل السنة في وصف جنة عاد التي تنسب إلى شداد الملك وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر: ٨]، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الفجر.

١٠. وضع هنا مبحثا حول [قصة هود عليه السلام]، خلاصته:

أ. عاد قوم هود هم من بشر ما قبل التاريخ، سكنوا الأحقاف من شبه جزيرة العرب، وكانوا بعد قوم نوح، لهم أجساد طويلة وبسطة في الخلق، وكانوا ذوي تقدم ورقي في المدنية، لهم بلاد عامرة وأراض خصبة وجنات ونخيل وزروع، وبلغوا من العظمة ما وصفهم الله بـ ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾

ب. لم يزل القوم يتنعمون بنعمة الله حتى غيروا ما بأنفسهم، فتعرقت فيهم الوثنية، وبنوا المصانع، وأطاعوا طغاتهم، فبعث الله إليهم أخاهم هوداً يدعوهم إلى التوحيد والعدل والرحمة، فبالغ في وعظهم، فقابلوه بالآباء والإنكار، ورموه بالسفه والجنون، ولم يؤمن به إلا شرذمة قليلة.

ج. أنزل الله عليهم العذاب: ريحاً صرصراً عقيماً في أيام نحسات، سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، كانت تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر، فدمرت كل شيء، وأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وأنجى الله هوداً والذين آمنوا معه.

د. هود عليه السلام من قوم عاد، وهو ثاني الأنبياء الذين انتهضوا للدفاع عن الحق ودحض الوثنية ممن ذكر الله قصته، وأثنى عليه بما أثنى على رسله الكرام، وأشركه بهم في جميل الذكر، عليه سلام الله.

٣١. قوم عاد يردون على هود بأنه لم يأتهم ببينة:

المقطع [٣١] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٣-٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٠٠»:

١. ﴿قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ سألهم هود في قوله: ﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث أمرين هما أن يتركوا آلهتهم ويعودوا إلى عبادة الله وحده وأن يؤمنوا به ويطيعوه فيما ينصح لهم فردوا عليه القول بها في هذه الآية إجمالا وتفصيلا:

أ. أما إجمالا فبقولهم: ﴿ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ﴾ يعنون أن دعوتك خالية عن الحجة والآية المعجزة ولا موجب للإصغاء إلى ما هذا شأنه.

ب. وأما تفصيلا فقد أجابوا عن دعوته إياهم إلى رفض الشركاء بقولهم: ﴿وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ﴾ وعن دعوته إياهم إلى الإيمان والطاعة بقولهم: ﴿وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فآيسوه في كلتا المسألتين.

٢. ثم ذكروا له ما ارتأوا فيه من الرأي ليبأس من إجابتهم بالمرة فقالوا: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ﴾ والاعتراء الاعتراض والإصابة يقولون: إنما نعتقد في أمرك أن بعض آلهتنا أصابك بسوء كالخبل والجنون لشتمك إياها وذكرك لها بسوء فذهب بذلك عقلك فلا يعبأ بما تفوهت به في صورة الدعوة.

٣٢. هود يتبرأ من شركهم ويتوكل على الله:

المقطع [٣٢] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَّ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهَّ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٠٢»:

١. ﴿قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾:

أ. أجاب هود عليه السلام عن قولهم بإظهار البراءة من شركائهم من دون الله ثم التحدي عليهم بأن يكيدوا به جميعا ولا ينظروه.

ب. فقوله: ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إنشاء وليس بإخبار كما هو المناسب لمقام التبري، ولا ينافي ذلك كونه بريئا من أول أمره فإن التبرز بالبراءة لا ينافي تحققها من قبل، وقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾ أمر ونهي تعجيزيان.

ج. وإنما أجاب عليه السلام بما أجاب ليشاهد القوم من آلهتهم أنها لا تمسه عليه السلام بسوء مع تبرزه بالبراءة، ولو كانت آلهة ذات علم وقدرة لقهرته وانتقمت منه لنفسها كما ادعوا أن بعض آلهتهم اعتراه بسوء وهذه حجة بينة على أنها ليست بآلهة وعلى أنها لم تعتره بسوء كما ادعوه، ثم يشاهدوا من أنفسهم أنهم لا يقدرون عليه بقتل أو تنكيل مع كونهم ذوي شدة وقوة لا يعادلهم غيرهم في الشدة والبطش، ولو لا أنه نبي من عند الله صادق في ما يقوله مصون من عند ربه لقدروا عليه بكل ما أرادوه من عذاب أو دفع.

د. ومن هنا يظهر وجه إشهاده عليه السلام في تبريه ربه سبحانه وقومه أما إشهاده الله فليكون تبريه على حقيقته وعن ظهر القلب من غير تزويق ونفاق، وأما إشهاده إياهم فليعلموا به ثم يشاهدوا ما يجري عليه الأمر من سكوت آلهتهم وعجز أنفسهم من الانتقام منه ومن تنكيله، وظهر أيضا صحة ما احتمله بعضهم أن هذا التعجيز هو معجزة هود عليه السلام وذلك أن ظاهر الجواب أن يقطع به ما ذكر من الرد في صورة الحجة، وفيها قولهم: ﴿ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ﴾ ومن المستبعد جدا أن يهمل النبي هود عليه السلام في دعوته وحجته التعرض للجواب عنه مع كون هذا التحدي والتعجيز صالحا في نفسه لأن يتخذ آية معجزة كما أن التبري من الشركاء من دون الله صالح لأن يكشف عن عدم كونهم آلهة من دون الله وعن أن بعض آلهتهم لم يعتره بسوء.

هـ. فالحق أن قوله: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا﴾ إلى آخر الآيتين مشتمل على حجة عقلية على بطلان ألوهية الشركاء، وعلى آية معجزة لصحة رسالة هود عليه السلام.

و. وفي قوله: ﴿جَمِيعاً﴾ إشارة إلى أن مراده تعجيزهم وتعجيز آلهتهم جميعا فيكون أتم دلالة على كونه على الحق وكونهم على الباطل.

٢. ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. لما كان الأمر الذي في صورة التعجيز صالحا لأن يكون بداعي إظهار عجز الخصم وعدم قدرته، وصالحا لأن يصدر بداعي أن الآمر لا يخاف الخصم وإن كان الخصم قادرا على الإتيان بما يؤمر به لكنه غير

قادر على تخويفه وإكراهه على الطاعة وحمله على ما يريد منه كقول السحرة لفرعون: ﴿فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا﴾ [طه: ٧٢]

ب. وكان قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾ محتملا لأن يكون المراد به إظهار أنه لا يخافهم وإن فعلوا به ما فعلوا، عقبه لدفع هذا الاحتمال بقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ فذكر أنه متوكل في أمره على الله الذي هو يدبر أمره وأمرهم ثم عقبه بقوله: ﴿ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فذكر أنه ناجح في توكله هذا فإن الله محيط بهم جميعا قاهر لهم يحكم على سنة واحدة هي نصرة الحق وإظهاره على الباطل إذا تقابلا وتغالبا.

ج. فتبريه من أصنامهم وتعجيزهم على ما هم عليه من الحال بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾ ثم لبثه بينهم في عافية وسلامة لا يمسونه بسوء ولا يستطيعون أن ينالوه بشر آية معجزة وحجة سماوية على أنه رسول الله إليهم.

٣. ﴿ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

أ. الدابة كل ما يدب في الأرض من أصناف الحيوان، والأخذ بالناصية كناية عن كمال السلطة ونهاية القدرة، وكونه تعالى على صراط مستقيم هو كون سنته في الخليقة واحدة ثابتة غير متغيرة وهو تدبير الأمور على منهاج العدل والحكمة فهو يحق الحق ويبطل الباطل إذا تعارضا، فالمعنى أني توكلت على الله ربي وربكم في نجاة حجتي التي ألقيتها إليكم وهو التبرز بالبراءة من آلهتكم وأنكم وآلهتكم لا تضرونني شيئا فإنه المالك ذو السلطنة علي وعليكم وعلى كل دابة، وسنته العادلة ثابتة غير متغيرة فسوف ينصر دينه ويحفظني من شركم.

ب. ولم يقل: (إن ربي وربكم على صراط مستقيم) على وزان قوله: ﴿عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ فإنه في مقام الدعاء لنفسه على قومه يتوقع أن يحفظه الله من شرهم، وهو يأخذه تعالى ربا بخلاف القوم فكان الأنسب أن يعده ربا لنفسه ويستمسك برابطة العبودية التي بينه وبين ربه حتى ينجح طلبته، وهذا بخلاف مقام قوله: ﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ فإنه يريد هناك بيان عموم السلطة والإحاطة.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي، عن أبي عمرو السعدي قال: قال علي بن أبي طالب عليه السلام: في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني أنه على حق يجزي بالإحسان إحسانا، وبالسيئ

سيئا، ويعفو عمن يشاء ويغفر، سبحانه وتعالى.

• أقول: وقد تقدم توضيحه، وقد ورد في الرواية عنهم عليه السلام: أن عادا كانت بلادهم في البادية، وكان لهم زرع ونخيل كثيرة، ولهم أعمار طويلة وأجساد طويلة فعبدوا الأصنام، وبعث الله إليهم هودا يدعوهم إلى الإسلام وخلع الأنداد، فأبوا ولم يؤمنوا بهود وآذوه، فكفت عنهم السماء سبع سنين حتى قحطوا، الحديث.

٣٣. التولي والبلاغ والاستخلاف:

المقطع [٣٣] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٠٣»:

١. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ وهذه الجملة من كلامه عليه السلام ناظر إلى قولهم في آخر جدالهم: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ﴾ الدال على أنهم قاطعون على أن لا يؤمنوا به ودائمون على الجحد، والمعنى إن تتولوا وتعرضوا عن الإيمان بي والإطاعة لأمري فقد أبلغتكم رسالة ربي وتمت عليكم الحجة ولزمتكم البلية.

٢. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ هذا وعيد وإخبار بالتبعة التي يستتبعها إجرامهم، فإنه كان وعدهم إن يستغفروا الله ويتوبوا إليه أن يرسل السماء عليهم مدرارا ويزيد قوة إلى قوتهم، ونهاهم أن يتولوا مجرمين ففيه العذاب الشديد.

٣. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾:

أ. أي يجعل قوما غيركم خلفاء في الأرض مكانكم فإن الإنسان خليفة منه في الأرض كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقد كان عليه السلام بين لهم أنهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح كما قال تعالى حكاية عن قوله لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ الآية، [الأعراف: ٦٩]

ب. وظاهر السياق أن الجملة الخبرية معطوفة على أخرى مقدرة، والتقدير: وسيذهب بكم ربي ويستخلف قوما غيركم على حد قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ﴾ [الأنعام: ١٣٣]

٤. ﴿وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾ ظاهر السياق أنه تتمة لما قبله أي لا تقدرون على إضراره بشيء من الفوت وغيره إن أراد أن يهلككم ولا أن تعذيبكم وإهلاككم يفوت منه شيئا مما يريده فإن ربي على كل شيء حفيظ لا يعزب عن علمه عازب ولا يفوت من قدرته فائت، وللمفسرين في الآية وجوه أخر بعيدة عن الصواب أعرضنا عنها.

٣٤. نجاة هود ومن آمن معه وهلاك عاد باللعنة:

المقطع [٣٤] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٨-٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٠٤»:

١. ﴿وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ﴾:

أ. المراد بمجيء الأمر نزول العذاب وبوجه أدق صدور الأمر الإلهي الذي يستتبع القضاء الفاصل بين الرسول وبين قومه كما قال تعالى: ﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله فَإِذا جاءَ أَمْرُ الله قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨]

ب. ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ الظاهر أن المراد بها الرحمة الخاصة بالمؤمنين المستوجبة نصرهم في دينهم وإنجاءهم من شمول الغضب الإلهي وعذاب الاستئصال، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ [غافر: ٥١]

٢. ﴿وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ ظاهر السياق أنه العذاب الذي شمل الكفار من القوم فيكون من قبيل عطف التفسير بالنسبة إلى ما قبله، وقيل: المراد به عذاب الآخرة وليس بشيء.

٣. ﴿وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾:

أ. الآية وما بعدها تلخيص بعد تلخيص لقصة عاد فأول التلخيصين قوله: ﴿وَتِلْكَ عادٌ﴾إلى قوله ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ يذكر فيه أنهم جحدوا بآيات ربهم من الحكمة والموعظة والآية المعجزة التي أبانت لهم طريق الرشد وميزت لهم الحق من الباطل فجحدوا بها بعد ما جاءهم من العلم، وعصوا رسل ربهم وهم هود ومن قبله من الرسل فإن عصيان الواحد منهم عصيان للجميع فكلهم يدعون إلى دين واحد فهم إنما

عصوا شخص هود وعصوا بعصيانه سائر رسل الله وهو ظاهر قوله في موضع آخر: ﴿كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤]، ويشعر به أيضا قوله: ﴿وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١]

ب. ومن الممكن أن يكون لهم رسل آخرون بعثوا إليهم فيما بين هود ونوح عليه السلام لم يذكروا في الكتاب العزيز لكن سياق الآيات لا يساعد على ذلك.

ج. واتبعوا أمر كل جبار عنيد من جبابرتهم فألهاهم ذلك عن اتباع هود وما كان يدعو إليه، والجبار العظيم الذي يقهر الناس بإرادته ويكرههم على ما أراد والعنيد الكثير العناد الذي لا يقبل الحق، فهذا ملخص حالهم وهو الجحد بالآيات وعصيان الرسل وطاعة الجبابرة.

٤. ثم ذكر الله وبال أمرهم بقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ﴾:

أ. أي وأتبعهم الله في هذه الدنيا لعنة وإبعادا من الرحمة، ومصداق هذا اللعن العذاب الذي عقبهم فلحق بهم، أو الآثام والسيئات التي تكتب عليهم ما دامت الدنيا فإنهم سنوا سنة الإشراك والكفر لمن بعدهم، قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾ [يس: ١٢]، وقيل: المعنى لحقت بهم لعنة في هذه الدنيا فكان كل من علم بحالهم من بعدهم، ومن أدرك آثارهم، وكل من بلغهم الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم، وأما اللعنة يوم القيامة فمصداقه العذاب الخالد الذي يلحق بهم يومئذ فإن يوم القيامة يوم جزاء لا غير.

ب. وفي تعقيب قوله في الآية: ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ بقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ لطف ظاهر.

٥. ﴿أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾:

أ. أي كفروا بربهم فهو منصوب بنزع الخافض وهذا هو التلخيص الثاني الذي أشرنا إليه لخص به التلخيص الأول فقوله: ﴿أَلا إِنَّ عاداً﴾ الآية، يحاذي به وصف حالهم المذكور في قوله: ﴿وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا﴾ الآية، وقوله: ﴿أَلا بُعْداً لِعادٍ﴾ الآية، يحاذي به قوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً﴾ الآية.

ب. ويتأيد من هذه الجملة أن المراد باللعنة السابقة اللعنة الإلهية دون لعن الناس، والأنسب به أحد الوجهين الأولين من الوجوه الثلاثة السابقة وخاصة الوجه الثاني دون الوجه الثالث.

٣٥. صالح يدعو ثمود للاستغفار:

المقطع [٣٥] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦١-٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٠٩»:

١. ﴿وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ تقدم الكلام في نظيرة الآية في قصة هود.

٢. ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال الراغب: (الإنشاء إيجاد الشيء وتربيته وأكثر ما يقال ذلك في الحيوان قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ﴾)، وقال: (العمارة ضد الخراب يقال: عمر أرضه يعمرها عمارة قال: ﴿وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ يقال: عمرته فعمر فهو معمور قال: ﴿وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها﴾ ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ وأعمرته الأرض واستعمرته إذا فوضت إليه العمارة قال: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾)

ب. فالعمارة تحويل الأرض إلى حال تصلح بها أن ينتفع من فوائدها المترقبة منها كعمارة الدار للسكنى والمسجد للعبادة والزرع للحرث والحديقة لاجتناء فاكهتها والتنزه فيها والاستعمار هو طلب العمارة بأن يطلب من الإنسان أن يجعل الأرض عامرة تصلح لأن ينتفع بها يطلب من فوائدها.

ج. وعلى ما مر يكون معنى قوله: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ والكلام يفيد الحصر، أنه تعالى هو الذي أوجد على المواد الأرضية هذه الحقيقة المسماة بالإنسان ثم كملها بالتربية شيئا فشيئا وأفطره على أن يتصرف في الأرض بتحويلها إلى حال ينتفع بها في حياته، ويرفع بها ما يتنبه له من الحاجة والنقيصة أي إنكم لا تفتقرون في وجودكم وبقائكم إلا إليه تعالى وتقدس.

د. فقول صالح: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ في مقام التعليل وحجة يستدل بها على ما ألقاه إليهم من الدعوة بقوله: ﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ ولذلك جيء بالفصل كأنه قيل له: لم نعبده وحده؟ فقال: لأنه هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها.

هـ. وذلك لأنهم إنما كانوا يعبدون الأوثان ويتخذونها شركاء لله تعالى لأنهم كانوا يقولون، على مزعمتهم، إن الله سبحانه أعظم من أن يحيط به فهم وأرفع وأبعد من أن تناله عبادة أو ترتفع إليه مسألة،

ولا بد للإنسان من ذلك فمن الواجب أن نعبد بعض مخلوقاته الشريفة التي فوض إليه أمر هذا العالم الأرضي وتدبير النظام الجاري فيه ونتقرب بالتضرع إليه حتى يرضى عنا فينزل علينا الخيرات، ولا يسخط علينا ونأمن بذلك الشرور، وهذا الإله الرب بالحقيقة شفيعنا عند الله لأنه إله الآلهة ورب الأرباب، وإليه يرجع الأمر كله.

و. فدين الوثنية مبني على انقطاع النسبة بين الله سبحانه وبين الإنسان واستقرارها بينه وبين تلك الوسائط الشريفة التي يتوجهون إليها مع استقلال هذه الوسائط في التأثير، وشفاعتها عند الله.

ز. ولما كان الله تعالى هو الذي أنشأ الإنسان من الأرض واستعمره فيها فهو تعالى ذو نسبة إلى الإنسان قريب منه، ولا استقلال لشيء من هذه الأسباب التي نظمها وأجراها في هذا العالم حتى يرجى منها خير بالإرضاء أو يترقب شر بالإسخاط.

ح. فالله سبحانه هو الذي يجب أن يعبد فيرجى بذلك رضاه، ويتقى بذلك سخطه لمكان أنه هو الخالق للإنسان ولكل شيء المدبر أمره وأمر كل شيء فقوله: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ مسوق لتعليل سابقه والاحتجاج عليه من طريق إثبات النسبة بينه تعالى وبين الإنسان ونفي الاستقلال من الأسباب.

٣. ولذلك عقبه بقوله: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ على وجه التفريع أي فإذا كان الله تعالى هو الذي يجب عليكم أن تعبدوه وتتركوا غيره لكونه هو خالقكم المدبر لأمر حياتكم فاسألوه أن يغفر لكم معصيتكم بعبادة غيره، وارجعوا إليه بالإيمان به وعبادته، إنه قريب مجيب.

٤. وقد علل قوله: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ الآية، بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ لأنه استنتج من حجته المذكورة أنه تعالى يقوم بإيجاد الإنسان وتربيته وتدبير أمر حياته، وأنه لا استقلال لشيء من الأسباب العمالة في الكون بل الله تعالى هو الذي يسوق هذا إلى هنا، ويصرف ذاك عن هناك فهو تعالى الحائل بين الإنسان وبين حوائجه وجميع الأسباب العمالة فيها، القريب منه لا كما يزعمون أنه لا يدركه فهم ولا يناله عبادة وقربان، وإذا كان قريبا فهو مجيب، وإذا كان قريبا مجيبا وهو الله لا إله غيره فمن الواجب أن يستغفروه ثم يتوبوا إليه.

٥. ﴿قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ الآية:

أ. الرجاء إنما يتعلق بالإنسان لا من جهة ذاته بل من جهة أفعاله وآثاره، ولا يرجى منها إلا الخير والنفع فكونه مرجوا هو أن يوجد ذا رشد وكمال في شخصه وبيته فيستهل منه الخير ويترقب منه النفع، وقوله: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينا﴾ دليل على كونه مرجوا لعامتهم وجمهورهم.

ب. فقولهم: ﴿يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا﴾ معناه أن ثمود كانت ترجو منك أن تكون من أفرادها الصالحة تنفع بخدماتك مجتمعهم وتحمل الأمة على صراط الترقي والتعالي لما كانت تشاهد فيك من أمارات الرشد والكمال لكنهم يئسوا منك ومن رزانة رأيك اليوم بما أبدعت من القول وأقمت من الدعوة.

ج. وقولهم: ﴿أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ استفهام إنكاري بداعي المذمة والملامة، والاستفهام في مقام التعليل لما قبله محصله أن سبب يأسهم منك اليوم أنك تنهاهم من إقامة سنة من سنن مليتهم وتمحو أظهر مظاهر قوميتهم فإن اتخاذ الأوثان من سنن هذا المجتمع المقدسة، واستمرار إقامة السنن المقدسة من المجتمع دليل على أنهم ذوو أصل عريق ثابت، ووحدة قومية لها استقامة في الرأي والإرادة.

د. والدليل على ما ذكرنا قوله: ﴿أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ الدال على معنى العبادة المستمرة باتصال عبادة الأبناء بعبادة الآباء ولم يقل: أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا؟ والفرق بين التعبيرين من جهة المعنى واضح، ومن هنا يظهر أن تفسير بعض المفسرين كصاحب المنار وغيره قوله: ﴿أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ بقولهم: (أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا) من الخطإ.

٦. ﴿وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾:

أ. حجة ثانية لهم في رد دعوة صالح عليه السلام، وحجتهم الأولى ما يتضمنه صدر الآية ومحصلها أن ما تدعو إليه من رفض عبادة الأصنام بدعة منكرة تذهب بسنة ثمود المقدسة وتهدم بنيان مليتهم، وتميت ذكرهم فعلينا أن نرده، والثانية أنك لم تأت بحجة بينة على ما تدعو إليه تورث اليقين وتميط الشك عنا فنحن في شك مريب مما تدعونا إليه وليس لنا أن نقبل ما تندب إليه على شك منا فيه.

ب. والإرابة الاتهام وإساءة الظن يقال: رابني منه كذا إذا أوجب فيه الشك وأرابني كذا إرابة إذا حملك على اتهامه وسوء الظن به.

٧. وضع هنا مبحثا حول [قصة صالح عليه السلام]، خلاصته:

أ. ثمود قوم من العرب العاربة، سكنوا وادي القرى بين المدينة والشام، نشئوا بعد قوم عاد، ولهم حضارة ومدنية، يعمرون الأرض ويتخذون من سهولها قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً، ومن شغلهم الفلاحة بإجراء العيون وإنشاء الجنات والنخيل.

ب. طغت ثمود في الأرض وعبدت الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً النبي عليه السلام، وكان من بيت الشرف والفخار معروفاً بالعقل والكفاية، فدعاهم إلى التوحيد والعدل والإحسان، وأنذرهم بالعذاب، فلم يؤمن به إلا جماعة قليلة من ضعفائهم، واستكبر الطغاة ورموه بالسفاهة والسحر.

ج. طلبوا منه آية معجزة، فاقترحوا أن يخرج لهم من صخر الجبل ناقة، فأتاهم بها، وأمرهم أن يشربوا من عين مائهم يوماً وتكفوا عنها يوماً لتشرب الناقة، وأن لا يمسوها بسوء، فطغوا وبعثوا أشقاهم لعقرها، فقال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيّامٍ﴾

د. مكروا بصالح ليقتلوه، فأخذتهم الصاعقة والرجفة والصيحة، فأصبحوا في دارهم جاثمين، وأنجى الله الذين آمنوا وكانوا يتقون.

هـ. صالح عليه السلام هو ثالث الأنبياء المذكورين في القرآن بالقيام بأمر الله والنهضة للتوحيد على الوثنية، يذكره الله بعد نوح وهود، ويحمده ويثني عليه بما أثنى به على أنبيائه ورسله، وليس له ذكر في التوراة الحاضرة.

٨. أحاديث وآثار: في الكافي، مسندا عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقالُوا أَبَشَراً مِنّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ قال: هذا فيما كذبوا صالحا، وما أهلك الله عز وجل قوما قط حتى يبعث قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم، فبعث الله إليهم صالحا فلم يجيبوه وعتوا عليه، وقالوا لن نؤمن لك حتى تخرج إلينا من هذه الصخرة ناقة عشراء، وكانت الصخرة يعظمونها ويعبدونها، ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويجتمعون عندها، فقالوا: إن كنت كما تزعم نبيا رسولا فادع لنا إلهك، حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء، فأخرجها الله كما طلبوا منه، ثم أوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يا صالح قل لهم: إن الله قد جعل لهذه الناقة لها شرب يوم ولكم شرب يوم، فكانت الناقة إذا كان يومها شربت الماء ذلك اليوم، فيحبسونها فلا يبقى صغير وكبير، إلا شرب من لبنها

يومهم ذلك، فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى مائهم، فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم، فمكثوا بذلك ما شاء الله، ثم إنهم عتوا على الله ومشى بعضهم إلى بعض قال: اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها، لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم، ثم قالوا: من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلا ما أحب؟ فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا، لا يعرف له أب يقال له: قدار، شقي من الأشقياء مشئوم عليهم فجعلوا له جعلا، فلما توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترده تركها، حتى شربت وأقبلت راجعة فقعد لها في طريقها، فضربها بالسيف ضربة فلم يعمل شيئا، فضربها ضربة أخرى فقتلها، وخرت على الأرض على جنبها، وهرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل، فرغا ثلاث مرات إلى السماء، وأقبل قوم صالح، فلم يبق منهم أحد إلا شركه في ضربته، واقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير، إلا أكل منها، فلما رأى ذلك صالح أقبل إليهم وقال: يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم؟أعصيتم أمر ربكم؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صالح عليه السلام: إن قومك قد طغوا وبغوا وقتلوا ناقة، بعثها الله إليهم حجة عليهم ولم يكن لهم فيها ضرر، وكان لهم أعظم المنفعة فقل لهم: إني مرسل إليهم عذابي إلى ثلاثة أيام، فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم وصددت عنهم، وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا، بعثت إليهم عذابي في اليوم الثالث، فأتاهم صالح وقال: يا قوم إني رسول ربكم إليكم، وهو يقول لكم: إن تبتم ورجعتم واستغفرتم، غفرت لكم وتبت عليكم، فلما قال لهم ذلك.، كانوا أعتى ما قالوا وأخبث، وقالوا: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، قال: يا قوم إنكم تصبحون غدا ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني وجوهكم محمرة واليوم الثالث وجوهكم مسودة، فلما أن كان أول يوم أصبحوا وجوههم مصفرة، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: قد جاءكم ما قال صالح فقال العتاة منهم: لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيما، فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرة، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم لو أهلكنا جميعا ما سمعنا قول صالح، ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها، ولم يتوبوا ولم يرجعوا فلما كان اليوم الثالث، أصبحوا ووجوههم مسودة، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح فقال العتاة منهم: قد أتانا ما قال لنا صالح، فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل، فصرخ لهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم، وفلقت قلوبهم وصدعت أكبادهم، وقد كانوا في تلك الثلاثة الأيام قد تحنطوا، وتكفنوا وعلموا أن العذاب نازل بهم، فماتوا جميعا في طرفة عين: صغيرهم

وكبيرهم، فلم يبق لهم ناعقة ولا راعية ولا شيء إلا أهلكه الله، فأصبحوا في ديارهم ومضاجعهم موتى، فأرسل الله إليهم مع الصيحة النار من السماء، فأحرقهم أجمعين، وكانت هذه قصتهم.

• أقول: واشتمال الحديث على أمور خارقة للعادة كشرب الناس جميعا من لبن الناقة وكذا تغير ألوان وجوههم يوما فيوما لا ضير فيه بعد ما كان أصل وجودها عن إعجاز، وقد نص القرآن الكريم بذلك، وبأنها كانت لها شرب يوم ولأهل المدينة كلهم شرب يوم معلوم.

• وأما كون الصيحة من جبرئيل فلا ينافي كونها صاعقة سماوية نازلة عليهم إماتتهم بصوتها وأحرقتهم بنارها إذ لا مانع من نسبة حادث من الحوادث الكونية خارق للعادة أو جار عليها إلى ملك روحاني إذا كان هو في مجرى صدوره كما أن سائر الحوادث الكونية من الموت والحياة والرزق وغيرها منسوبة إلى الملائكة العمالة.

• وقوله عليه السلام: إنهم قد كانوا في الثلاثة الأيام قد تحنطوا وتكفنوا كأنه كناية عن تهيئهم للموت، وقد وقع في بعض الروايات في وصف الناقة أنه كانت بين جنبيها مسافة ميل وهو مما يوهن الرواية لا لاستحالة وقوعه فإن ذلك ممكن الدفع من جهة أن كينونتها كانت عن إعجاز بل لأن اعتبار النسبة بين أعضائها حينئذ يوجب بلوغ ارتفاع سنامها مما يقرب من ثلاثة أميال ولا يتصور مع ذلك أن يتمكن واحد من الناس من قتله بسيفه ولم يقع ذلك عن إعجاز من عاقر الناقة قطعا، ومع ذلك لا يخلو قوله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ من دلالة أو إشعار على كون جثتها عظيمة جدا.

٣٦. صالح يحذّر قومه من إيذاء الناقة وعقرهم لها:

المقطع [٣٦] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٣-٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣١٢»:

١. ﴿قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ إلى آخر الآية، المراد بالبينة الآية المعجزة وبالرحمة النبوة، وقد تقدم الكلام في نظير الآية من قصة نوح عليه السلام في السورة.

٢. ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ جواب الشرط، وحاصل المعنى: أخبروني إن كنت مؤيدا

بآية معجزة تنبئ عن صحة دعوتي وأعطاني الله الرسالة فأمرني بتبليغ رسالته فمن ينجني من الله ويدفع عني إن أطعتكم فيما تسألون ووافقتكم فيما تريدونه مني وهو ترك الدعوة، ففي الكلام جواب عن كلتا حجتيهم واعتذار عما لاموه عليه من الدعوة المبتدعة.

٣. ﴿فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾:

أ. تفريع على قوله السابق الذي ذكره في مقام دحض الحجتين والاعتذار عن مخالفتهم والقيام بدعوتهم إلى خلاف سنتهم القومية فالمعنى فما تزيدونني في حرصكم على ترك الدعوة والرجوع إليكم واللحوق بكم غير أن تخسروني فما مخالفة الحق إلا خسارة.

ب. وقيل: المراد أنكم ما تزيدونني في قولكم: ﴿أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا﴾؟ غير نسبتي إياكم إلى الخسارة، وقيل: المعنى ما تزيدونني إلا بصيرة في خسارتكم والوجه الأول أوجه.

٤. ﴿وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ﴾ إضافة الناقة إلى الله إضافة تشريف كبيت الله وكتابة الله، وكانت الناقة آية معجزة له عليه السلام تؤيد نبوته، وقد أخرجها عن مسألتهم من صخر الجبل بإذن الله، وقال لهم: أنها تأكل في أرض الله محررة، وحذرهم أن يمسوها بسوء أي يصيبوها بضرب أو جرح أو قتل، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك أخذهم عذاب قريب معجل، وهذا معنى الآية.

٥. ﴿فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾:

أ. عقر الناقة نحرها، والدار هي المكان الذي يبنيه الإنسان فيسكن فيه ويأوي إليه هو وأهله، والمراد بها في الآية المدينة سميت دارا لأنها تجمع أهلها كما تجمع الدار أهلها، وقيل المراد بالدار الدنيا، وهو بعيد.

ب. والمراد بتمتعهم في مدينتهم العيش والتنعم بالحياة لأن الحياة الدنيا متاع يتمتع به، أو الالتذاذ بأنواع النعم التي هيئوها فيها من مناظر ذات بهجة والأثاث والمأكول والمشروب والاسترسال في أهواء أنفسهم.

٦. ﴿ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ الإشارة إلى قوله: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ الآية، و﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ بيان له.

٣٧. نجاة صالح والمؤمنين وهلاك المعاندين:

المقطع [٣٧] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود: ٦٦-٦٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣١٣»:

١. ﴿فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً﴾ إلى آخر الآية، أما قوله: ﴿فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ فقد تقدم الكلام في مثله في قصة هود.

٢. وأما قوله: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ فمعطوف على محذوف والتقدير نجيناهم من العذاب ومن خزي يومئذ، والخزي العيب الذي تظهر فضيحته ويستحيي من إظهاره أو أن التقدير: نجيناهم من القوم ومن خزي يومئذ على حد قوله: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

٣. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ في موضع التعليل لمضمون صدر الآية وفيه التفات من التكلم بالغير إلى الغيبة، وقد تقدم نظيره في آخر قصة هود في قوله: ﴿أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ والوجه فيه ذكر صفة الربوبية ليدل به على خروجهم من زي العبودية وكفرهم بالربوبية وكفرانهم نعم ربهم.

٤. ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ يقال: جثم جثوما إذا وقع على وجهه، والباقي ظاهر.

٥. ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها﴾ غني بالمكان أي أقام فيه والضمير راجع إلى الديار.

٦. ﴿أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ الجملتان تلخيص ما تقدم تفصيله من القصة فالجملة الأولى تلخيص ما انتهى إليه أمر ثمود ودعوة صالح عليه السلام، والثانية تلخيص ما جازاهم الله به، وقد تقدم نظيرة الآية في آخر قصة هود.

٣٨. رسل الله يأتون إبراهيم بالبشرى فيستأنس بهم:

المقطع [٣٨] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٦٩-٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣١٩»:

١. ﴿وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى﴾ إلى آخر الآية:

أ. البشرى هي البشارة، والعجل ولد البقرة، والحنيذ فعيل بمعنى المفعول أي المحنوذ وهو اللحم المشوي على حجارة محماة بالنار كما أن القديد هو المشوي على حجارة محماة بالشمس على ما ذكره بعض اللغويين، وذكر بعضهم أنه المشوي الذي يقطر ماء وسمنا، وقيل: هو مطلق المشوي، وقوله تعالى في سورة الذاريات في القصة: ﴿فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ لا يخلو من تأييد ما للمعنى الثاني.

ب. ﴿وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى﴾ معطوف على قوله سابقا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ﴾ قال في المجمع: (وإنما دخلت اللام لتأكيد الخبر ومعنى قد هاهنا أن السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصة بعد قصة، وقد للتوقع فجاءت لتؤذن أن السامع في حال توقع)

ج. والرسل هم الملائكة المرسلون إلى إبراهيم للبشارة وإلى لوط لإهلاك قومه وقد اختلفت كلمات المفسرين في عددهم مع القطع بكونهم فوق الاثنين لدلالة لفظ الجمع، الرسل، على ذلك، وفي بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليه السلام أنهم كانوا أربعة من الملائكة الكرام، وسيأتي نقلها إن شاء الله في البحث الروائي.

د. والبشرى التي جاءت بها الرسل إبراهيم عليه السلام لم يذكر بلفظها في القصة، والتي ذكرت فيها منها هي البشارة لامرأته، وإنما ذكرت بشارة إبراهيم نفسه في غير هذا المورد كسورتي الحجر والذاريات، ولم يصرح فيهما باسم من بشر به إبراهيم أهو إسحاق أم إسماعيل عليه السلام أو أنهم بشروه بكليهما؟ وظاهر سياق القصة في هذه السورة أنها البشارة بإسحاق، وسيأتي البحث المستوفى عن ذلك في آخر القصة.

٢. ﴿قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ﴾:

أ. أي تسالموا هم وإبراهيم فقالوا: سلاما أي سلمنا عليك سلاما، وقال إبراهيم: سلام أي عليكم سلام.

ب. والسلام الواقع في تحية إبراهيم عليه السلام نكرة ووقوعه نكرة في مقام التحية دليل على أن المراد به الجنس أو أن له وصفا محذوفا للتفخيم ومزيد التكريم والتقدير: عليكم سلام زاك طيب أو ما في معناه، ولذا ذكر بعض المفسرين: أن رفع السلام أبلغ من نصبه فقد حياهم بأحسن تحيتهم فبالغ في إكرامهم

ظنا منه أنهم ضيف.

٣. ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي ما أبطأ في أن قدم إليهم عجلا مشويا يقطر ماء وسمنا وأسرع في ذلك.

٤. ﴿فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾:

أ. عدم وصول أيديهم إليه كناية عن أنهم ما كانوا يمدون أيديهم إلى الطعام، وذلك أمارة العداوة وإضمار الشر، ونكرهم وأنكرهم بمعنى واحد وإنما كان أنكرهم لإنكاره ما شاهد منهم من فعل غير معهود.

ب. والإيجاس الخطور القلبي، قال الراغب: (الوجس الصوت الخفي، والتوجس التسمع، والإيجاس وجود ذلك النفس قال: وأوجس منهم خيفة، والواجس قالوا: هو حالة تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الواجس الخاطر) فالجملة من الكناية كان لطروق الخيفة، وهو النوع من الخوف، وخطوره في النفس صوتا تسمع بالسمع القلبي، والمراد أنه استشعر في نفسه خوفا ولذلك أمنوه وطيبوا نفسه بقولهم: ﴿لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ﴾

٥. ومعنى الآية أن إبراهيم عليه السلام لما قدم إليهم العجل المشوي رآهم لا يأكلون منه كالممتنع من الأكل، وذلك أمارة الشر، استشعر في نفسه منهم خوفا قالوا تأمينا له وتطييبا لنفسه: لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط فعلم أنهم من الملائكة الكرام المنزهين من الأكل والشرب وما يناظر ذلك من لوازم البدن المادية، وأنهم مرسلون لخطب جليل:

أ. ونسبة استشعار الخوف إلى إبراهيم عليه السلام لا ينافي ما كان عليه من مقام النبوة الملازم للعصمة الإلهية من المعصية والرذائل الخلقية فإن مطلق الخوف وهو تأثر النفس عن مشاهدة المكروه التي تبعثها إلى التحذر منه والمبادرة إلى دفعه ليس من الرذائل، وإنما الرذيلة هي التأثر الذي يستوجب بطلان مقاومة النفس وظهور العي والفزع والذهول عن التدبير لدفع المكروه وهو المسمى بالجبن كما أن عدم التأثر عن مشاهدة المكروه مطلقا وهو المسمى تهورا ليس من الفضيلة في شيء.

ب. وذلك أن الله سبحانه لم يخلق هذه الحالات النفسانية التي تظهر في النفوس ومنها التأثر والانفعال عند مشاهدة المكروه والشر كالشوق والميل والحب وغير ذلك عند مشاهدة المحبوب والخير

عبثا باطلا فإن جلب الخير والنفع ودفع الشر والضرر مما فطر على ذلك أنواع الموجودات على كثرتها وعليه يدور رحى الوجود في نظامه العام.

ج. ولما كان هذا النوع المسمى بالإنسان إنما يسير في مسير بقائه بالشعور والإرادة كان عمل الجلب والدفع فيه مترشحا عن شعوره وإرادته، ولا يتم إلا عن تأثر نفساني يسمى في جانب الحب ميلا وشهوة وفي جانب البغض والكراهة خوفا ووجلا.

د. ثم لما كانت هذه الأحوال النفسانية الباطنة ربما ساقت الإنسان إلى أحد جانبي الإفراط والتفريط كان من الواجب على الإنسان أن يقوم من الدفع على ما ينبغي وهو فضيلة الشجاعة كما أن من الواجب عليه أن يبادر من الجلب إلى ما ينبغي على ما ينبغي وهو فضيلة العفة وهما حدا الاعتدال بين الإفراط والتفريط، وأما انتفاء التأثر بأن يلقي الإنسان بنفسه إلى التهلكة الصريحة في باب الدفع وهو التهور، أولا تنزع نفسه إلى شيء مطلوب قط في باب الجلب والشهوة وهو الخمول وكذا بلوغ التأثر من القوة إلى حيث ينسى الإنسان نفسه ويذهل عن واجب رأيه وتدبيره فيجزع عن كل شبح يتراءى له في باب الدفع وهو الجبن أو ينكب على كل ما تهواه نفسه وتشتهيه كالبهيمة على عليقها في باب الشهوة وهو الشره فجميع هذه من الرذائل.

هـ. والذي آثر الله سبحانه به أنبياءه من العصمة إنما يثبت في نفوسهم فضيلة الشجاعة دون التهور، وليست الشجاعة تقابل الخوف الذي هو مطلق التأثر عن مشاهدة المكروه، وهو الذي يدعو النفس إلى القيام بواجب الدفع، وإنما تقابل الجبن الذي هو بلوغ التأثر النفساني إلى حيث يبطل الرأي والتدبير ويستتبع العي والانهزام، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقال مخاطبا لموسى عليه السلام: ﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى﴾ [طه: ٦٨]، وقال حكاية عن قول شعيب له عليه السلام: ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، وقال مخاطبا لنبيه ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]

و. والخليل عليه السلام هو النبي الكريم الذي قام بالدعوة الحقة إذ لا يذكر اسم الله وحده، ونازع وثنية قومه فحاج أباه آزر وقومه وحاج الملك الجبار نمرود وكان يدعي الألوهية، وكسر أصنام القوم حتى ألقوه في النار فأنجاه الله من النار فلم يجبنه شيء من تلك المهاول، ولا هزمه في جهاده في سبيل الله هازم،

ومثل هذا النبي على ما له من الموقف الروحي إن خاف من شيء أو وجل من أحد أو ارتاعه أمر، على اختلاف تعبير الآيات، فإنما يخافه خوف حزم ولا يخافه خوف جبن، وإذا خاف من شيء على نفسه أو عرضه أو ماله فإنما يخاف لله لا لهوى من نفسه.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبي يزيد الحمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله بعث أربعة أملاك في إهلاك قوم لوط: جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وكروبيل، فمروا بإبراهيم فسلموا عليه وهم معتمون فلم يعرفهم، ورأى هيئة حسنة فقال: لا يخدم هؤلاء إلا أنا بنفسي، وكان صاحب ضيافة فشوى لهم عجلا سمينا، حتى أنضجه فقربه إليهم فلما وضع بين أيديهم، رأى أيديهم لا تصل إليه فنكرهم، وأوجس منهم خيفة فلما رأى ذلك جبرئيل، حسر العمامة عن وجهه فعرفه إبراهيم فقال: أنت هو؟ قال: نعم فمرت به امرأته، فبشرها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فقالت: ما قال الله عز وجل وأجابوها بما في الكتاب، فقال لهم إبراهيم: لما ذا جئتم؟ فقالوا في إهلاك قوم لوط، قال: إن كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونها؟ قال جبرئيل: لا، قال: وإن كان فيهم خمسون؟ قال: لا، قال: وإن كان فيهم ثلاثون؟ قال: لا، قال: وإن كان فيهم عشرون؟ قال: لا، قال: وإن كان فيهم عشرة؟ قال: لا، قال: وإن كان فيهم خمسة؟ قال: لا، قال: وإن كان فيهم واحد؟ قال: لا، قال: فإن فيها لوطا، قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، ثم مضوا، قال: وقال الحسن بن علي: لا أعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم وهو قول الله عز وجل: ﴿يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ الحديث وله تتمة ستوافيك في قصة لوط.

• أقول: وقوله: (لا أعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم) يمكن استفادته من قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ فإنه أنسب بكون غرضه استبقاء القوم لا استبقاء نبي الله لوط، على أن قوله: ﴿يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ إنما يناسب استبقاء القوم.

ب. وفي تفسير العياشي، عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: جاء بعجل حنيذ مشويا نضيجا.

٣٩. بشارة الملائكة لامرأة إبراهيم بإسحاق ويعقوب وتعجبها:

المقطع [٣٩] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا

بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧١-٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٢٣»:

١. ﴿وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ﴾:

أ. ضحكت من الضحك بفتح الضاد أي حاضت، ويؤيده تفريع البشارة عليه في قوله عقيبه: ﴿فَبَشَّرْناها﴾ الآية، ويكون ضحكها أمارة تقرب البشرى إلى القبول، وآية تهيئ نفسها للإذعان بصدقهم فيما يبشرون به، ويكون ذكر قيامها لتمثيل المقام وأنها ما كانت تخطر ببالها أنها ستحيض وهي عجوز، وإنما كانت قائمة تنظر ما يجري عليه الأمر بين بعله وبين الضيفان النازلين به وتحادثهم.

ب. والمعنى أن إبراهيم عليه السلام كان يكلمهم ويكلمونه في أمر الطعام والحال أن امرأته قائمة هناك تنظر إلى ما يجري بين الضيفان وبين إبراهيم وما كان يخطر ببالها شيء دون ذلك ففاجأها أنها حاضت فبشرته الملائكة بالولد.

ج. وأكثر المفسرين أخذوا الكلمة من الضحك بكسر الضاد ضد البكاء ثم اختلفوا في توجيه سببه، وأقرب الوجوه هو أن يقال: إنها كانت قائمة هناك وقد ذعرت من امتناع الضيوف من الأكل وهو يهتف بالشر فلما لاحت لها أنهم ملائكة مكرمون نزلوا ببيتهم وأن لا شر في ذلك يتوجه إليهم سرت وفرحت فضحكت فبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

د. وهناك وجوه أخر ذكروها خالية عن الدليل كقولهم إنها ضحكت تعجبا من غفلة قوم لوط، وقولهم: إنها ضحكت تعجبا من امتناع الضيوف من الأكل والحال أنها تخدمهم بنفسها، وقولهم: إنها كانت أشارت إلى إبراهيم أن يضم إليه لوطا لأن فحشاء قومه سيعقبهم العذاب والهلاك فلما سمعت من الملائكة قولهم: إنا أرسلنا إلى قوم لوط سرت وضحكت لإصابتها في الرأي، وقولهم: إنها ضحكت تعجبا مما بشروها به من الولد وهي عجوز عقيم، وعلى هذا ففي الكلام تقديم وتأخير والتقدير: فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت.

٢. ﴿فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ﴾:

أ. إسحاق هو ابنها من إبراهيم، ويعقوب هو ابن إسحاق عليه السلام فالمراد أن الملائكة بشروها

بأنها ستلد إسحاق وإسحاق سيولد له يعقوب ولد بعد ولد، هذا على قراءة يعقوب بالفتح وهو منزوع الخافض وقرئ برفع يعقوب وهو بيان لتتمة البشارة، والأولى أرجح.

ب. وكان في هذا التعبير: ﴿وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ﴾ إشارة إلى وجه تسمية يعقوب عليه السلام بهذا الاسم، وهو أنه كان يعقب بحسب هذه البشارة أباه إسحاق وقد ذكر فيها أنه وراءه، ويكون فيها تخطئة لما في التوراة من السبب في تسمية يعقوب به، قال في التوراة الحاضرة: وكان إسحاق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجه (رفقة) بنت بنوئيل الأرامي أخت لابان الأرامي من فدان الأرام، وصلى إسحاق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقرا فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته وتزاحم الولدان في بطنها فقالت: إن كان هكذا فلما ذا أنا، فمضت لتسأل الرب فقال لها الرب: في بطنك أمتان، ومن أحشائك يفترق شعبان: شعب يقوى على شعب، وكبير يستعبد لصغير، فلما كملت أيامها لتلد إذا في بطنها توأمان فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر فدعي اسمه عيسو، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه يعقوب) موضع الحاجة وهذا من لطائف القرآن الكريم.

٣. ﴿قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾:

أ. الويل القبح وكل مساءة توجب التحسر من هلكة أو مصيبة أو فجيعة، أو فضيحة ونداؤه كناية عن حضوره وحلوله يقال: يا ويلي أي حضرني وحل بي ما فيه تحسري، ويا ويلتا بزيادة التاء عند النداء مثل يا أبتا.

ب. والعجوز الشيخة من النساء، والبعل زوج المرأة والأصل في معناه القائم بالأمر المستغني عن الغير يقال للنخل الذي يستغني بماء السماء عن سقي الأنهار والعيون بعل، ويقال للصاحب وللرب: بعل، ومنه بعلبك لأنه كان فيه هيكل بعض أصنامهم.

ج. والعجيب صفة مشبهة من العجب وهو الحال العارض للإنسان من مشاهدة ما لا يعلم سببه، ولذا يكثر في الأمور الشاذة النادرة للجهل بسببها عادة وقولها: ﴿يا وَيْلَتى أَأَلِدُ﴾ الآية، وارد مورد التعجب والتحسر فإنها لما سمعت بشارة الملائكة تمثل لها الحال بتولد ولد من عجوز عقيم وشيخ هرم بالغين في الكبر لا يعهد من مثلهما الاستيلاد فهو أمر عجيب على ما فيه من العار والشين عند الناس فيضحكون منهما ويهزءون بهما وذلك فضيحة.

٤. ﴿قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾:

أ. المجد هو الكرم والمجيد الكريم كثير النوال وقد تقدم معنى بقية مفردات الآية.

ب. وقولهم: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ استفهام إنكاري أنكرت الملائكة تعجبها عليها لأن التعجب إنما يكون للجهل بالسبب واستغراب الأمر، والأمر المنسوب إلى الله سبحانه وهو الذي يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير لا وجه للتعجب منه، على أنه تعالى خص بيت إبراهيم بعنايات عظيمة ومواهب عالية يتفردون بها من بين الناس فلا ضير إن ضم إلى ما مضى من نعمه النازلة عليهم نعمة أخرى مختصة بهم من بين الناس وهو ولد من زوجين شائخين لا يولد من مثلهما ولد عادة.

٥. ولهذا الذي ذكرنا قالت الملائكة لها في إنكار ما رأوا من تعجبها:

أ. أولا: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ فأضافوا الأمر إلى الله لينقطع بذلك كل استعجاب واستغراب لأن ساحة الألوهية لا يشق شيء عليها وهو الخالق لكل شيء.

ب. وثانيا: ﴿رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فنبهوها بذلك أن الله أنزل رحمته وبركاته عليهم أهل البيت، وألزمهم ذلك فليس من البعيد أن يكون من ذلك تولد مولود من والدين في غير سنهما العادي المألوف لذلك، وقوله: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ في مقام التعليل لقوله: ﴿رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي إنه تعالى مصدر كل فعل محمود ومنشأ كل كرم وجود يفيض من رحمته وبركاته على من يشاء من عباده.

٦. وضع هنا مبحثا حول [قصة البشرى]، خلاصته:

أ. قصة البشرى ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وقعت في خمس سور قرآنية كلها مكية: هود، الحجر، العنكبوت، الصافات، الذاريات، وتختلف في تفاصيلها بحسب السياق.

ب. البحث الأول: هل هي بشرى واحدة (بإسحاق ويعقوب) وقعت قبيل هلاك قوم لوط، أم قصتان (بشرى بإسماعيل وأخرى بإسحاق ويعقوب)؟ والحق أنها بشرى واحدة في السور الأربع (هود، الحجر، العنكبوت، الذاريات) تشمل البشرى بإسحاق ويعقوب، ولا تتضمن البشرى بإسماعيل.

ج. آيات سورة الصافات تشتمل على بشرتين: الأولى بغلام حليم (وهو إسماعيل)، والثانية بإسحاق نبياً من الصالحين، والسياق يدل على أن الغلام الحليم غير إسحاق، وليس إلا إسماعيل.

د. جدال إبراهيم للملائكة في قوم لوط لم يكن اعتراضاً، بل حرصاً منه على نجاة عباد الله رجاء أن يهتدوا إلى الإيمان، ووصفه بالحليم الأواه المنيب يؤكد ذلك.

٤٠. ذهاب الرعب عن إبراهيم ومجادلته في قوم لوط:

المقطع [٤٠] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤-٧٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٢٦»:

١. ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾:

أ. الروع الخوف والرعب والمجادلة في الأصل الإلحاح في البحث والمساءلة للغلبة في الرأي، والمعنى أنه لما ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من الخيفة بتبين أن النازلين به لا يريدون به سوءا ولا يضمرون له شرا، وجاءته البشرى بأن الله سيرزقه وزوجه إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب أخذ يجادل الملائكة في قوم لوط يريد بذلك أن يصرف عنهم العذاب.

ب. فقوله: ﴿يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ لحكاية الحال الماضية أو بتقدير فعل ماض قبله وتقديره: أخذ يجادلنا إلخ، لأن الأصل في جواب لما أن يكون فعلا ماضيا.

ج. ويظهر من الآية أن الملائكة أخبروه أولا: بأنهم مرسلون إلى قوم لوط ثم ألقوا إليه البشارة ثم جرى بينهم الكلام في خصوص عذاب قوم لوط فأخذ إبراهيم عليه السلام يجادلهم ليصرف عنهم العذاب فأخبروه بأن القضاء حتم، والعذاب نازل لا مرد له.

د. والذي ذكره الله من مجادلته عليه السلام الملائكة هو قوله في موضع آخر: ﴿وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]

٢. ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾:

أ. الحليم هو الذي لا يعاجل العقوبة والانتقام، والأواه كثير التأوه مما يصيبه أو يشاهده من السوء، والمنيب من الإنابة وهو الرجوع والمراد الرجوع في كل أمر إلى الله.

ب. والآية مسوقة لتعليل قوله في الآية السابقة: ﴿يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ وفيه مدح بالغ لإبراهيم

عليه السلام وبيان أنه إنما كان يجادل فيهم لأنه كان حليما لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا ويستقيموا، وكان كثير التأثر من ضلال الناس وحلول الهلاك بهم مراجعا إلى الله في نجاتهم، لا أنه عليه السلام كان يكره عذاب الظالمين وينتصر لهم بما هم ظالمون وحاشاه عن ذلك.

٣. ﴿يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾:

أ. هذا حكاية قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام وبذلك قطعوا عليه جداله فانقطع حيث علم أن الإلحاح في صرف العذاب عنهم لن يثمر ثمرا فإن القضاء حتم والعذاب واقع لا محالة، فقولهم: ﴿يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا﴾ أي انصرف عن هذا الجدال ولا تطمع في نجاتهم فإنه طمع فيما لا مطمع فيه.

ب. وقولهم: ﴿إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي بلغ أمره مبلغا لا يدفع بدافع ولا يتبدل بمبدل ويؤيده قوله في الجملة التالية: ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فإن ظاهره المستقبل ولو كان الأمر صادرا لم يتخلف القضاء عن المقضي البتة ويؤيده أيضا قوله في ما سيأتي من آيات قصة قوم لوط: ﴿فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها﴾ الآية، [آية: ٨٢] من السورة.

ج. وقولهم: ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أي غير مدفوع عنهم بدافع فلله الحكم لا معقب لحكمه، والجملة بيان لما أمر به جيء بها تأكيدا للجملة السابقة والمقام مقام التأكيد، ولذلك جيء في الجملة الأولى بضمير الشأن وقد المفيد للتحقيق، وصدرت الجملتان معا بأن، وأضافوا الأمر إلى رب إبراهيم عليه السلام دون أمر الله ليعينهم ذلك على انقطاعه عن الجدال.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في معاني الأخبار، بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ﴾ قال: حاضت.

ب. أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: لما رأى إبراهيم أنه لا تصل إلى العجل أيديهم، نكرهم وخافهم، وإنما كان خوف إبراهيم أنهم كانوا في ذلك الزمان، إذا هم أحدهم بامرئ سوء لم يأكل عنده، يقول: إذا أكرمت بطعامه حرم على أذاه، فخاف إبراهيم أن يريدوا به سوء فاضطربت مفاصله، وامرأته سارة قائمة تخدمهم، وكان إذا أراد أن يكرم ضيفا أقام سارة ليخدمهم فضحكت سارة، وإنما ضحكت أنها قالت: يا إبراهيم وما تخاف؟ إنهم ثلاثة نفر وأنت وأهلك

وغلمانك، قال لها جبرئيل: أيتها الضاحكة، أما إنك ستلدين غلاما يقال له: إسحاق، ومن ورائه غلام يقال له: يعقوب، فأقبلت في صرة فصكت وجهها فأقبلت والهة تقول: وا ويلتاه ووضعت يدها على وجهها استحياء، فذلك قوله: فصكت وجهها، وقالت: أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا، قال: لما بشر إبراهيم يقول الله: فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى بإسحاق، يجادلنا في قوم لوط، وكان جداله أنه قال: يا جبرئيل أين تريدون؟ وإلى من بعثتم؟ قال: إلى قوم لوط وقد أمرنا بعذابهم، فقال إبراهيم إن فيها لوطا، قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته، وكانت فيما زعموا تسمى والقة، فقال إبراهيم: إن كان فيهم مائة مؤمن أتعذبونهم؟ قال جبرئيل: لا، قال: فإن كان فيهم تسعون مؤمنون تعذبونهم؟ قال جبرئيل: لا، قال: فإن كان فيهم ثمانون مؤمنون، تعذبونهم؟ قال جبرئيل: لا، حتى انتهى في العدد إلى واحد مؤمن قال جبرئيل: لا، فلما لم يذكروا لإبراهيم أن فيها مؤمنا واحدا، قال: إن فيها لوطا، قالوا نحن أعلم بمن فيها، لننجينه وأهله إلا امرأته.

• أقول: وفي متن الحديث اضطراب ما من حيث ذكره قول إبراهيم: إن فيها لوطا أولا وثانيا لكن المراد واضح.

ج. وفي تفسير العياشي، عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى لما قضى عذاب قوم لوط وقدره، أحب أن يعوض إبراهيم من عذاب قوم لوط بغلام عليم، يسلي به مصابه بهلاك قوم لوط، قال: فبعث الله رسلا إلى إبراهيم يبشرونه بإسماعيل، قال: فدخلوا عليه ليلا ففزع منهم، وخاف أن يكونوا سراقا، فلما رأته الرسل فزعا مذعورا قالوا: سلاما، قال: سلام إنا منكم وجلون، قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم، قال أبو جعفر عليه السلام: والغلام العليم إسماعيل من هاجر، فقال إبراهيم للرسل: أبشرتموني، على أن مسني الكبر فبم تبشرون، قالوا: بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين، قال إبراهيم للرسل: فما خطبكم بعد البشارة؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين قوم لوط، إنهم كانوا قوما فاسقين لننذرهم عذاب رب العالمين، قال أبو جعفر عليه السلام: قال إبراهيم: إن فيها لوطا، قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله، إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين، فلما عذبهم الله أرسل الله إلى إبراهيم رسلا، يبشرونه بإسحاق ويعزونه بهلاك قوم لوط، وذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ﴾ قوم منكرون، ﴿فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ يعني زكيا مشويا نضيجا، فلما رأى

أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة، قال أبو جعفر عليه السلام: إنما عنوا سارة قائمة، فبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فضحكت يعني فعجبت من قولهم.

• أقول: والرواية، كما ترى، تجعل قصة البشارة قصتين: البشارة بإسماعيل والبشارة بإسحاق وقد ولد بعد إسماعيل بسنين، ثم تحمل آيات سورة الحجر، ولم يذكر فيها تقديم العجل المشوي إلى الضيوف، على البشرى بإسماعيل ولما يقع العذاب على قوم لوط حين ذاك، وتحمل آيات سورتي الذاريات وهود، وقد اختلطتا في الرواية، على البشرى لسارة بإسحاق ويعقوب، وأنها إنما كانت بعد هلاك قوم لوط فراجعوا إبراهيم وأخبروه بوقوع العذاب وبشروه البشارة الثانية.

• أما آيات سورة الحجر فإنها في نفسها تحتمل الحمل على البشارة بإسماعيل وكذا الآيات الواقعة في سورة الذاريات تحتمل أن تقص عما بعد هلاك قوم لوط وتكون البشرى بإسحاق ويعقوب عند ذلك.

• وأما آيات سورة هود فإنها صريحة في البشرى بإسحاق ويعقوب، ولكن ما في ذيلها من قوله: ﴿يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ إلى آخر الآيات تأبى أن تنطبق على ما بعد هلاك قوم لوط، وإن كان ما في صدرها من قوله: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ﴾ لا يأبى وحدة الحمل على ما بعد الهلاك، وكذا جملة ﴿إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ لولا ما يحفها من قيود الكلام.

• وبالجملة مفاد الآيات في سورة هود هو وقوع البشرى بإسحاق قبل هلاك قوم لوط، وعند ذلك كان جدال إبراهيم عليه السلام، ومقتضى ذلك أن تكون ما وقع من القصة في سورة الذاريات هي الواقعة قبل هلاك القوم لا بعد الهلاك، وكذا كون ما وقع من القصة في سورة الحجر وفيه التصريح بكونه قبل هلاكهم وفيه جدال إبراهيم عليه السلام خاليا عن بشرى إسحاق ويعقوب لا بشرى إسماعيل.

• والحاصل أن اشتمال آيات هود على بشرى إسحاق وجدال إبراهيم عليه السلام الظاهر في كونها قبل هلاك قوم لوط يوجب أن يكون المذكور من البشرى في جميع السور الثلاث: هود والحجر والذاريات قصة واحدة هي قصة البشرى بإسحاق قبل وقوع العذاب، وهذا مما يوهن الرواية جدا.

• وفي الرواية شيء آخر وهو أنها أخذت الضحك بمعنى العجب وأخذت قوله: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ﴾ من التقديم والتأخير، وأن التقدير: فبشرناها بإسحاق

ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت) وهو خلاف الظاهر من غير نكتة ظاهرة.

د. وفي تفسير العياشي، أيضا عن الفضل بن أبي قرة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أوحى الله إلى إبراهيم أنه سيلد لك، فقال لسارة فقالت: أألد وأنا عجوز؟ فأوحى الله إليه: أنها ستلد، ويعذب أولادها أربعمائة سنة بردها الكلام علي، قال: فلما طال على بني إسرائيل العذاب، ضجوا وبكوا إلى الله أربعين صباحا، فأوحى الله إلى موسى وهارون أن يخلصهم من فرعون، فحط عنهم سبعين ومائة سنة، قال: وقال أبو عبد الله عليه السلام: هكذا أنتم، لو فعلتم فرج الله عنا فأما إذا لم تكونوا، فإن الأمر ينتهي إلى منتهاه.

• أقول: وجود الرابطة بين أحوال الإنسان وملكاته وبين خصوصيات تركيب بدنه مما لا شك فيه فلكل من جانبي الربط استدعاء وتأثير خاص في الآخرة ثم النطفة مأخوذة من المادة البدنية حاملة لما في البدن من الخصوصيات المادية والروحية طبعا فمن الجائز أن يرث الأخلاف بعض خصوصيات أخلاق أسلافهم المادية والروحية.

• وقد تقدم كرارا في المباحث السابقة أن بين صفات الإنسان الروحية وأعماله وبين الحوادث الخارجية خيرا وشرا رابطة تامة كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]

• فمن الجائز أن يصدر عن فرد من أفراد الإنسان أو عن مجتمع من المجتمعات الإنسانية عمل من الأعمال صالح أو طالح أو تظهر صفة من الصفات فضيلة أو رذيلة ثم يظهر أثره الجميل أو وباله السيئ في أعقابه، والملاك في ذلك نوع من الوراثة كما مر، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٩] كلام في هذا المعنى.

٤١. لوط يضيق بالرسل ويأمر قومه بتقوى الله:

المقطع [٤١] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ

مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٧٧-٨٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٣٧»:

١. ﴿وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾:

أ. يقال: ساءه الأمر مساءة أي أوقع عليه السوء، وسيء بالأمر بالبناء للمجهول أي أوقع عليه من ناحيته وبسببه.

ب. والذرع مقايسة الأطوال مأخوذ من الذراع العضو المعروف لأنهم كانوا يقيسون بها، ويطلق على نفس المقياس أيضا، ويقال: ضاق بالأمر ذرعا وهو كناية عن انسداد طريق الحيلة والعجز عن الاهتداء إلى مخلص ينجو به الإنسان من النائبة كالذي يذرع ما لا ينطبق عليه ذرعه.

ج. والعصيب فعيل بمعنى المفعول من العصب بمعنى الشد واليوم العصيب هو اليوم الذي شد بالبلاء شدا لا يقبل الانحلال ولا بعض أجزائه ينفك عن بعض.

د. والمعنى لما جاءت رسلنا لوطا وهم الملائكة النازلون بإبراهيم عليه السلام ساء مجيئهم لوطا، وعجز عن الاحتيال لنجاتهم من شر القوم فإنهم دخلوا عليه في صور غلمان مرد صبيحي المنظر وكان قومه ذوي حرص شديد على إتيان الفحشاء ما كان من المترقب أن يعرضوا عنهم ويتركوهم على حالهم، ولذلك لم يملك لوط نفسه دون أن قال: ﴿هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي شديد ملتف بعض شره ببعض.

٢. ﴿وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ﴾ قال الراغب: (يقال: هرع وأهرع ساقه سوقا بعنف وتخويف»)، وعن كتاب العين، (الإهراع السوق الحثيث)

٣. ﴿وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ﴾:

أ. أي ومن قبل ذلك كانوا يقترفون المعاصي ويأتون بالمنكرات فكانوا مجترئين على إيقاع الفحشاء معتادين بذلك لا ينصرفون عنه بصارف، ولا يحجبهم عن ذلك استحياء أو استشناع، ولا ينزجرون بموعظة أو ملامة أو مذمة لأن العادة تسهل كل صعب وتزين كل قبيح ووقيح.

ب. والجملة كالمعترضة بين قوله: ﴿وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي﴾ إلخ، وهي نافعة في مضمون طرفيها أما فيما قبلها فإنها توضح أن الذي كان يهرعهم ويسوقهم إلى لوط عليه السلام هو أنهم كانوا يعملون السيئات وصاروا بذلك معتادين على إتيان الفحشاء ولعين به فساقهم

ذلك إلى المجيء إليه وقصد السوء بأضيافه.

ج. وأما فيما بعدها فإنها تفيد أنهم لرسوخ الملكة واستقرار العادة سلبوا سمع القبول وأن يزجرهم زاجر من عظة أو نصيحة، ولذلك بدأ لوط في تكليمهم بعرض بناته عليهم ثم قال لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ إلخ.

٤. ﴿قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. لما رآهم تجمعوا على الشر لا يصرفهم عن ذلك مجرد القول بعظة أو أغلاظ في الكلام أراد أن يصرفهم عنه بتبديل ما يريدون من الفحشاء مما لا معصية فيه من الحلال فعرض بناته عليهم ورجحه لهم بأنهن أطهر لهم.

ب. وإنما المراد بصيغة التفضيل، أطهر، مجرد الاشتمال على الطهارة من غير شوب بقذارة، والمراد هي طهارة محضا، وهو استعمال شائع، قال تعالى: ﴿ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللهْوِ﴾، وقال ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، وتفيد معنى الأخذ بالمتيقن.

ج. وتقييد قوله: ﴿هؤُلاءِ بَناتِي﴾ بقوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ شاهد صدق على أنه إنما عرض لهم مسهن عن نكاح لا عن سفاح وحاشا مقام نبي الله عن ذلك، وذلك لأن السفاح لا طهارة فيه أصلا وقد قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً﴾، وقال: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ﴾، وقد تقدم في تفسير هذه الآية أن ما تتضمنه هو من الأحكام العامة المشرعة في جميع الشرائع الإلهية النازلة على أنبيائه.

د. ومن هنا يظهر فساد قول من يقول: إنه عرض عليهم بناته من غير تقييده بنكاح، ولست أدري ما معنى علاج فحشاء بفحشاء غيرها؟ وما معنى قوله حينئذ: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾؟ ولو كان يريد دفع الفضيحة والعار عن نفسه فقط لاكتفى بقوله: ﴿وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾

هـ. وربما قيل: إن المراد بقوله: ﴿هؤُلاءِ بَناتِي﴾ الإشارة إلى نساء القوم لأن النبي أبو أمته فنساؤهم بناته كما أن رجالهم بنوه، يريد أن قصد الإناث وهو سبيل فطري خير لكم وأطهر من قصد الذكور من طريق الفحشاء:

• وهو تحكم لا دليل عليه من جهة اللفظ البتة، وأما كونهم كفارا وبناته مسلمات ولا يجوز إنكاح

المسلمة من الكافر فليس من المعلوم أن ذلك من شريعة إبراهيم حتى يتبعه لوط عليه السلام فمن الجائز أن يكون تزويج المؤمنة بالكافر جائزا في شرعه كما أنه كان جائزا في صدر الإسلام، وقد زوج النبي ﷺ بنته من أبي العاص بن الربيع وهو كافر قبل الهجرة ثم نسخ ذلك.

• على أن قولهم في جوابه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍ﴾ لا يلائم كون المراد بالبنات في كلامه إنما هي نساؤهم لا بناته من صلبه فإنهم ما كانوا مؤمنين به حتى يعترفوا بكون نسائهم بناته إلا أن يكون المراد التهكم ولا قرينة عليه.

• لا يقال تعبيره عليه السلام بالبنات وليس له عندئذ إلا بنتان يدل على أن مراده بناته من نساء أمته لا بنتاه غير الصادق عليه لفظ الجمع، لأنا نقول: لا دليل على ذلك من كلامه تعالى ولا وقع ذلك في نقل يعتمد عليه، نعم وقع في التوراة الحاضرة أنه كان للوط بنتان فقط، ولا اعتماد على ما تتضمنه.

٥. ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾:

أ. بيان للمطلوب، وقوله: ﴿وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ عطف تفسيري لقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ فإنه عليه السلام إنما كان يطلب منهم أن لا يتعرضوا لضيفه لتقوى الله لا لهوى نفسه وعصبية جاهلية منه، ولم يكن عنده فرق بين ضيفه وغيرهم فيما كان يردعهم، وقد وعظهم بالردع عن هذا الذنب الشنيع وألح على ذلك سنين متمادية.

ب. وإنما علق الردع على معنى الضيافة وإضافة الضيف إلى نفسه وذكر الخزي الوارد عليه من التعرض لهم كل ذلك رجاء أن يهيج صفة الفتوة والكرامة فيهم ولذلك عقب ذلك بالاستغاثة والاستنصار بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ لعله يجد فيهم ذا رشد إنساني فينتصر له وينجيه وضيوفه من أيدي أولئك الظالمين لكن القوم كانوا كما قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الحجر: ولم يؤثر ذلك فيهم أثرا ولم ينتهوا عن قوله بل أجابوا بما أيأسوه به من أي إلحاح في ذلك.

٦. ﴿قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ﴾:

أ. هذا جواب القوم عما دعاهم إليه لوط من النكاح المباح أجابوا بنفي أن يكون لهم في بناته من حق وأنه يعلم ذلك ويعلم ما هو بغيتهم في هذا الهجوم وما ذا يريدون، وقد قيل في معنى نفيهم الحق:

• قيل: إن معناه ما لنا في بناتك من حاجة وما ليس للإنسان فيه حاجة فكأنه لا حق له فيه ففي

الكلام نوع استعارة.

• وقيل: إن المراد ليس لنا في بناتك من حق لأنا لا نتزوجهن ومن لم يتزوج بامرأة فلا حق له فيها فالمراد بنفي الحق نفي سببه وهو الازدواج.

• وقيل: المراد بالحق هو الحظ والنصيب دون الحق الشرعي أو العرفي أي لا رغبة لنا فيهن لأنهن نساء ولا ميل لنا إليهن.

ب. والذي يجب الالتفات إليه أنهم لم يقولوا: ما لنا في بناتك من حق بل قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍ﴾ فلم يجيبوا عنه بذلك بل بعلمه بذلك وبين القولين فرق فالظاهر أنهم ذكروه بما كان يعلم من السنة القومية الجارية بينهم، وهو المنع من التعرض لنساء الناس وخاصة بالقهر والغلبة أو ترك إتيان النساء بالمرة واستباحة التعرض للغلمان وقضاء الوطر منهم، وقد كان لوط يردعهم عن سنتهم ذلك إذ يقول لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ﴾، ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ﴾ [الشعراء: ٦٥] ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، ولا شك أن السنة القومية الجارية على فعل شيء يثبت حقا فيه، والجارية على تركه ينفي الحق.

ج. وبالجملة هم يلفتون نظره عليه السلام إلى ما يعلم من انتفاء حقهم عن بناته بما هن نساء بحسب السنة القومية وما يعلم من إرادتهم في الهجوم على داره هذا ولعل هذا أحسن الوجوه، وبعده الوجه الثالث.

٧. ﴿قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾:

أ. يقال: أوى إلى كذا يأوي أويا ومأوى أي انضم إليه، وآواه إليه يؤويه إيواء أي ضمه إليه، والركن هو ما يعتمد عليه البناء بعد الأساس.

ب. الظاهر أنه لما وعظهم لوط عليه السلام بالأمر بتقوى الله وتهييج فتوتهم في حفظ موقعه ورعاية حرمته في عدم التعرض لضيفه بما يجلب إليه العار والخزي، وقد قطع عذرهم بعرض بناته عليهم بالنكاح ثم استغاث بالاستنصار من أولي الرشد منهم رجاء أن يوجد فيهم رجل رشيد ينصره عليهم ويدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل ولا انماز من بينهم ذو رشد ينصره ويدفع عنه بل أيأسوه بقولهم:

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ﴾ لم يبق له إلا أن يظهر ما به من البث والحزن في صورة التمني فتمنى أن يكون له منهم قوة يقوى به على دفع عتاتهم الظالمين، وهو الرجل الرشيد الذي كان يسأل عنه في استغاثته، أو يكون له ركن شديد وعشيرة منيعة ينضم إليهم فيدفعهم بهم.

ج. فقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي ليت لي قدرة بسببكم بانضمام رجل منكم رشيد إلي يقوم بنصرتي فأدفعكم به، وقوله: ﴿أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي أو كنت أنضم إلى ركن شديد أي عشيرة منيعة يمنعكم مني هذا ما يعطيه ظاهر السياق:

د. وقيل: إن معنى قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أتمنى أن يكون لي منعة وقدرة وجماعة أتقوى بها عليكم فأدفعكم عن أضيافي، وفيه أن فيه تبديل قوله: ﴿بِكُمْ﴾ إلى قولنا: بهم عليكم، وهو كما ترى.

هـ. وقيل: إن معنى ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لو قويت عليكم بنفسي، وفيه أنه أبعد من لفظ الآية.

و. وقيل: إن الخطاب في الآية للأضياف دون القوم، ومعنى الآية أنه قال لأضيافه: أتمنى أن يكون لي بسببكم قوة ألقاهم بها، وفيه أن الانتقال من خطاب القوم إلى خطاب الأضياف ولا دليل من اللفظ ظاهرا يدل عليه إبهام وتعقيد من غير موجب، وكلامه تعالى أجل من ذلك.

٨. وضع هنا مبحثا حول [قصة لوط وقومه]، خلاصته:

أ. لوط عليه السلام من كلدان في أرض بابل، آمن بإبراهيم وهاجر معه إلى الأرض المقدسة، ونزل في مدينة سدوم، كان أهلها يعبدون الأصنام ويأتون الفاحشة (اللواط) علناً، وهم أول قوم شاع فيهم ذلك، حتى تركوا النساء وقطعوا السبيل.

ب. أرسل الله لوطاً إليهم يدعوهم إلى تقوى الله وترك الفحشاء، فلم يزدهم إلا عتواً، وطلبوا منه العذاب، وهددوه بالإخراج.

ج. بعث الله ملائكة لإهلاكهم، فنزلوا على إبراهيم أولاً وأخبروه، ثم مضوا إلى لوط في صورة غلمان، فجاء القوم يهرعون إلى داره، فخرج إليهم لوط وعرض عليهم بناته، فقالوا: ليس لنا في بناتك إربة، وأرادوا أضيافه، فطمس الملائكة أعينهم، وأمروا لوطاً أن يسري بأهله ليلاً، وأخبروه أنهم مهلكون مصبحين، فأخذتهم الصيحة وأمطر عليهم حجارة من سجيل، وقلبت مدائنهم.

د. اختص الإيمان والإسلام ببيت لوط، ونساء القوم كن مشاركات في الفحشاء (السحق)، فلم

يتبعن لوطاً.

هـ. لوط عليه السلام رسول من الله، آتاه حكماً وعلماً، وأدخله في رحمته، وهو من الصالحين.

و. التوراة تخالف القرآن في عدة وجوه: ذكرت ملكين اثنين (والقرآن يقول رسلاً جمعاً)، وأثبتت أن الأضياف أكلوا (والقرآن ينفي ذلك)، وأثبتت بنتين للوط (والقرآن يعبر بلفظ البنات)، وذكرت صيرورة المرأة عمود ملح، ونسبت التجسم إلى الله، وذكرت قصة لوط مع بنتيه، وكل ذلك ينزهه القرآن.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن زكريا بن محمد عن أبيه عن عمرو عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله، فطلبهم إبليس الطلب الشديد، وكان من فضلهم وخيرتهم أنهم إذا خرجوا إلى العمل، خرجوا بأجمعهم وتبقى النساء خلفهم، فلم يزل إبليس يعتادهم فكانوا إذا رجعوا، خرب إبليس ما يعملون، فقالوا بعضهم لبعض: تعالوا نرصد هذا الذي يخرب متاعنا، فرصدوه فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان، فقالوا له: أنت الذي تخرب متاعنا مرة بعد أخرى، فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه فبيتوه عند رجل، فلما كان الليل صاح له فقال له: ما لك؟ فقال فإن: أبي ينومني على بطنه فقال له: تعال فنم على بطني ـ، قال: فلم يزل يدلك الرجل، حتى علمه أن يفعل بنفسه فأولا علمه إبليس، والثاني علمه هو ثم انسل يفر منهم، فأصبحوا فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام، ويعجبهم منه وهم لا يعرفونه، فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتفى الرجال بعضهم ببعض، ثم جعلوا يرصدون مارة الطريق فيفعلون بهم، حتى تنكب مدينتهم الناس ثم تركوا نسائهم، وأقبلوا على الغلمان، فلما رأى أنه قد أحكم أمره في الرجال جاء إلى النساء، فصير نفسه امرأة فقال لهن: إن رجالكن يفعل بعضهم ببعض؟ قلن: نعم رأينا ذلك وكل ذلك يعظهم لوط ويوصيهم، وإبليس يغويهم حتى استغنى النساء بالنساء، فلما كملت عليهم الحجة بعث الله، جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في زي غلمان، عليهم أقبية فمروا بلوط وهو يحرث، قال: أين تريدون؟ ما رأيت أجمل منكم قط، فقالوا: إنا رسل سيدنا إلى رب هذه البلدة، قال: أولم يبلغ سيدكم ما يفعل أهل هذه القرية؟ إنهم والله يأخذون الرجال فيفعلون بهم حتى يخرج الدم، قالوا: أمرنا سيدنا أن نمر وسطها، قال: فلي إليكم حاجة، قالوا: وما هي؟ قال: تصبرون هنا إلى اختلاط الظلام، قال: فجلسوا، قال: فبعث ابنته، قال: فجيئي لهم بخبز وجيئي لهم بماء في القرعة، وجيئي لهم بعباء يتغطون بها

من البرد، فلما أن ذهبت الابنة أقبل المطر والوادي فقال لوط: الساعة تذهب بالصبيان الوادي قال: قوموا حتى نمضي، وجعل لوط يمشي في أصل الحائط، وجعل جبرئيل وميكائيل وإسرافيل يمشون وسط الطريق، قال: يا بني امشوا هاهنا فقالوا: أمرنا سيدنا أن نمر في وسطها وكان لوط يستغنم الظلام، ومر إبليس فأخذ من حجر امرأة صبيا فطرحه في البئر، فتصايح أهل المدينة كلهم على باب لوط، فلما أن نظروا إلى الغلمان في منزل لوط قالوا: يا لوط قد دخلت في عملنا؟ فقال: هؤلاء ضيفي فلا تفضحون في ضيفي، قالوا: هم ثلاثة خذ واحدا وأعطنا اثنين، قال: وأدخلهم الحجرة وقال: لو أن لي أهل بيت تمنعوني منكم، قال: وتدافعوا على الباب، وكسروا باب لوط وطرحوا لوطا، فقال له جبرئيل: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، فأخذ كفا من بطحاء فضرب بها وجوههم وقال: شاهت الوجوه فعمي أهل المدينة كلهم فقال لهم لوط: يا رسل ربي فما أمركم ربي فيهم؟ قالوا: أمرنا أن نأخذهم بالسحر، قال: فلي إليكم حاجة، قالوا: وما حاجتك؟ قال: تأخذوهم الساعة فإني أخاف أن يبدو لربي فيهم، فقالوا: يا لوط إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب، لمن يريد أن يأخذ فخذ أنت بناتك وامض ودع امرأتك، فقال أبو جعفر عليه السلام: رحم الله لوطا، لو علم من معه في الحجرة لعلم أنه منصور حيث يقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي ركن أشد من جبرئيل معه في الحجرة؟ فقال عز وجل لمحمد ﷺ: ﴿وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ من ظالمي أمتك إن عملوا ما عمل قوم لوط، وقال رسول الله ﷺ: من ألح في وطي الرجال لم يمت، حتى يدعو الرجال إلى نفسه.

• أقول: والرواية لا تخلو من تشويش ما في اللفظ، وقد ذكر فيها الملائكة المرسلون ثلاثة، وفي بعض الروايات، كالرواية المذكورة في الباب السابق عن أبي يزيد الحمار عن أبي عبد الله عليه السلام، أنهم كانوا أربعة بزيادة كروبيل، وفي بعض الروايات من طرق أهل السنة أنهم كانوا ثلاثة وهم جبرئيل وميكائيل ورفائيل، والظاهر من الرواية أنها تأخذ قول لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ إلخ خطابا منه للملائكة لا للقوم، وقد تقدمت الإشارة إليه في بيان الآيات.

• وقوله عليه السلام: رحم الله لوطا لو علم.، في معنى قول النبي ﷺ، على ما روي عنه، رحم الله لوطا إن كان ليأوي إلى ركن شديد، وقوله عليه السلام: فقال عز وجل لمحمد ﷺ إلخ إشارة إلى ما تقدم من احتمال كون الآية، مسوقا لتهديد قريش.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول لوط: ﴿هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال: عرض عليهم التزويج.

ج. وفي التهذيب عن الرضا عليه السلام: عن إتيان الرجل المرأة من خلفها فقال: أحلتها آية من كتاب الله عز وجل: قول لوط: ﴿هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قد علم أنهم لا يريدون الفرج.

د. أخرج أبو الشيخ عن علي أنه خطب فقال: عشيرة الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته، إنه إن كف يده عنهم كف يدا واحدة، وكفوا عنه أيدي كثيرة مع مودتهم وحفاظتهم ونصرتهم، حتى لربما غضب الرجل للرجل وما يعرفه إلا بحسبه، وسأتلو عليكم بذلك آيات من كتاب الله تعالى فتلا هذه الآية: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، قال علي: والركن الشديد العشيرة، فلم يكن للوط عشيرة، فوالذي لا إله غيره ما بعث الله نبيا بعد لوط، إلا في ثروة من قومه.

• أقول: وآخر الرواية مروي من طرق أهل السنة والشيعة.

هـ. وفي الكافي، في حديث أبي يزيد الحمار عن أبي جعفر عليه السلام المنقول في البحث الروائي السابق، قال: فأتوا يعني الملائكة لوطا وهو في زراعة قرب القرية، فسلموا عليه وهم معتمون فلما رأى هيئة حسنة، عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قال لهم: المنزل فقالوا: نعم فتقدمهم ومشوا خلفه، فندم على عرضه المنزل عليهم فقال: أي شيء صنعت؟ آتي بهم قومي وأنا أعرفهم؟ فقال: إنكم لتأتون شرارا من خلق الله، قال جبرئيل: لا نعجل عليهم حتى يشهد عليهم ثلاث مرات، فقال جبرئيل: هذه واحدة فمشى ساعة ثم التفت إليهم فقال: إنكم لتأتون شرارا من خلق الله فقال جبرئيل: هذه ثنتان، ثم مشى فلما بلغ باب المدينة التفت إليهم ثم قال: إنكم لتأتون شرارا من خلق الله، فقال جبرئيل: هذه الثالثة، ثم دخل ودخلوا معه حتى دخل منزلة، فلما رأتهم امرأته رأت هيئة حسنة فصعدت فوق السطح، فصفقت فلم يسمعوا فدخنت فلما رأوا الدخان، أقبلوا إلى الباب يهرعون حتى جاءوا على الباب، فنزلت إليهم فقالت: عندنا قوم ما رأيت قط قوما أحسن منهم هيئة، فجاءوا إلى الباب ليدخلوا، فلما رآهم لوط قام إليهم فقال لهم: يا قوم اتقوا الله ولا تخزون في ضيفي، أليس منكم رجل رشيد؟ ثم قال: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فدعاهم كلهم إلى الحلال فقالوا: ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد، فقال لهم: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، فقال جبرئيل: لو يعلم أي قوة له، فتكاثروه حتى دخلوا الباب فصاح بهم جبرئيل

فقال: يا لوط دعهم يدخلون فلما دخلوا، أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم، وهو قول الله عز وجل: ﴿فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ﴾ ثم ناداه جبرئيل فقال له: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، فأسر بأهلك بقطع من الليل، وقال له جبرئيل: إنا بعثنا في إهلاكهم فقال: يا جبرئيل عجل فقال: إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب، فأمره يتحمل ومن معه إلا امرأته، ثم اقتلعها يعني المدينة جبرئيل بجناحه من سبع أرضين، ثم رفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح الكلاب، وصراخ الديوك ثم قلبها وأمطر عليها، وعلى من حول المدينة بحجارة من سجيل.

• أقول: وما اشتمل عليه آخر الرواية من اقتلاعها من سبع أرضين ثم رفعها إلى حيث سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وصراخ ديوكهم أمر خارق للعادة، وهو وإن كان لا يستبعد من قدرة الله سبحانه لكنه مما لا يكفي في ثبوته أمثال هذه الرواية وهي من الآحاد.

• على أن السنة الإلهية جارية على أن تقتفي في الكرامات والمعجزات الحكمة وأي حكمة في رفعهم إلى هذا الحد ولا أثر له في عذابهم ولا في تشديده؟

• وقول بعض أهل الكلام: من الجائز أن يكون هذا الفعال العجيب الخارق للعادة لطفا من الله ليكون الإخبار بذلك من طريق المعصومين مقربا للمؤمنين إلى الطاعة مبعدا لهم من المعصية كلام مدخول فإن خلق الأمور العظيمة المعجبة والحوادث الخارقة للعادة ليتأكد بها إيمان المؤمنين ويعتبر بها المعتبرون وإن كان لا يخلو من لطف إلا أنه إنما يكون لطفا فيما كان بلوغه لهم من طريق الحس أو أي طريق علمي آخر، وأما رواية واحدة أو ضعيفة وهي خالية عن الحجية لا يعبأ بها فلا معنى لإيجاد الأمور الخارقة والحوادث العجيبة لأجل حصول اعتبار أو مخافة من طريقها، ولا وجه لتشديد عذاب قوم ليعتبر به قوم آخرون إلا في سنة الجهال من طغاة البشر وجبابرتهم.

• قال صاحب المنار في تفسيره: (وفي خرافات المفسرين المروية عن الإسرائيليات أن جبرئيل قلعها من تخوم الأرض بجناحه وصعد بها إلى عنان السماء حتى سمع أهل السماء أصوات الكلاب والدجاج فيها ثم قلبها قلبا مستويا فجعل عاليها سافلها، وهذا تصور مبني على اعتقاد متصوره إن الأجرام السماوية المأهولة بالسكان مما يمكن أن يقرب منهم سكان الأرض وما فيها من الحيوان ويبقون أحياء، وقد ثبت بالمشاهدة والاختبار الفعلي في هذه الأيام التي يكتب هذا فيها أن الطيارات والمناطيد التي تحلق في الجو

تصل إلى حيث يخف ضغط الهواء ويستحيل حياة الناس فيها، وهم يصنعون أنواعا منها يصنعون فيها من أكسجين الهواء ما يكفي استنشاقه وتنفسه للحياة في طبقات الجو العليا ويصعدون فيها، وقد أشير في الكتاب العزيز إلى ما يكون للتصعيد في جو السماء من التأثير في ضيق الصدر من عسر التنفس بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ﴾، فإن قيل: إن هذا الفعل المروي عن جبرئيل من الممكنات العقلية وكان وقوعه من خوارق العادات فلا يصح أن يجعل تصديقه موقوفا على ما عرف من سنن الكائنات، قلت: نعم ولكن الشرط الأول لقبول الرواية في أمر جاء على غير السنن والنواميس التي أقام الله بها نظام العالم من عمران وخراب أن تكون الرواية عن وحي إلهي نقل بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الإسناد لا شذوذ فيه ولا علة على الأقل، ولم يذكر في كتاب الله تعالى، ولم يرد فيه حديث مرفوع إلى نبيه ﷺ، ولا تظهر حكمة الله فيه، وإنما روي عن بعض التابعين دون الصحابة، ولا شك أنه من الإسرائيليات، ومما قالوه فيها: أن عدد أهلها كان أربعة آلاف ألف وبلاد فلسطين كلها لا تسع هذا العدد فأين كان هؤلاء الملايين يسكنون من تلك القرى الأربع؟)

• والذي ذكره أن الحديث إنما روي عن التابعين دون الصحابة فإنه أن هذا المعنى مروي عن ابن عباس وعن الحذيفة بن اليمان، ففي رواية ابن عباس، كما في الدر المنثور، عن إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر ومقاتل عن الضحاك: (فلما كان عند وجه الصبح عمد جبريل إلى قرى لوط، بما فيها من رجالها ونسائها وثمارها وطيرها، فحواها وطواها ثم قلعها من تخوم الثرى، ثم احتملها تحت جناحه ثم رفعها إلى السماء الدنيا، فسمع سكان سماء الدنيا أصوات الكلاب والطير، والنساء والرجال من تحت جناح جبرئيل، ثم أرسلها منكوسة ثم أتبعها بالحجارة، وكانت الحجارة للرعاة والتجار، ومن كان خارجا عن مدائنهم) الحديث، وفي رواية حذيفة بن اليمان، على ما في الدر المنثور، عن عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه: (فاستأذن جبرئيل في هلاكهم، فأذن له فاحتمل الأرض التي كانوا عليها، وأهوى بها حتى سمع أهل سماء الدنيا صغاء كلابهم، وأوقد تحتهم نارا ثم قلبها بهم، فسمعت امرأة لوط الوجبة وهي معهم، فالتفتت فأصابها العذاب، وتبعت سفارهم الحجارة) الحديث، وأما من التابعين فقد روي هذا المعنى عن سعيد بن جبير ومجاهد وأبي صالح ومحمد بن كعب القرظي وعن السدي ما هو أغلظ

من ذلك قال: (لما أصبحوا نزل جبرئيل فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ السماء الدنيا، ثم أهوى بها جبرئيل إلى الأرض) الحديث.

• وأما ما ذكره من أنه (يشترط في قبول الرواية أن تكون منقولة بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الإسناد لا شذوذ فيه ولا علة) فمسألة أصولية، والذي استقر عليه النظر اليوم في المسألة أن الخبر إن كان متواترا أو محفوفا بقرينة قطعية فلا ريب في حجيتها، وأما غير ذلك فلا حجية فيه إلا الأخبار الواردة في الأحكام الشرعية الفرعية إذا كان الخبر موثوق الصدور بالظن النوعي فإن لها حجية، وذلك أن الحجية الشرعية من الاعتبارات العقلائية فتتبع وجود أثر شرعي في المورد يقبل الجعل والاعتبار الشرعي والقضايا التاريخية والأمور الاعتقادية لا معنى لجعل الحجية فيها لعدم أثر شرعي ولا معنى لحكم الشارع بكون غير العلم علما وتعبيد الناس بذلك، والموضوعات الخارجية وإن أمكن أن يتحقق فيها أثر شرعي إلا أن آثارها جزئية والجعل الشرعي لا ينال إلا الكليات وليطلب تفصيل القول في المسألة من علم الأصول.

و. أخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: رحم الله لوطا إن كان ليأوي إلى ركن شديد.

• أقول: مقتضى المقام الذي كان يجاري فيه لوط قومه ويأمرهم بتقوى الله والاجتناب عن الفجور، وظاهر سياق الآيات الحاكية للمشاجرة بينه وبين قومه أن لوطا إنما كان يتمنى أنصارا أولي رشد من بين قومه أو من غيرهم فقوله: ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ يريد به أنصارا من غير القوم من عشيرة أو أخلاء وأصدقاء في الله ينصرونه في الدفع عن أضيافه هذا والركن الشديد معه في داره وهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ولذلك لبوه من غير فصل وقالوا: ﴿يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾

• ولم يكن ليغفل في حال من تلك الأحوال عن ربه وأن كل النصر من عنده حتى ينساه ويتمنى ناصرا غيره، وحاشا مقام هذا النبي الكريم عن مثل هذا الجهل المذموم وقد قال الله تعالى في حقه: ﴿آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

• فقول النبي ﷺ: (إن كان ليأوي إلى ركن شديد) معناه أن معه جبرئيل وسائر الملائكة وهو لا يعلم بذلك، وليس معناه أن معه الله سبحانه وهو جاهل بمقام ربه.

• فما في بعض الروايات الناقلة للفظة رسول الله ﷺ من الإشعار بأن مراده بالركن الشديد هو الله سبحانه دون الملائكة إنما نشأ عن فهم بعض رواة الحديث كما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: رحم الله لوطا، كان يأوي إلى ركن شديد يعني الله تعالى، الحديث.

• وكما عنه من طريق آخر قال: إن النبي ﷺ قال: (يغفر الله للوط، إن كان ليأوي إلى ركن شديد) ولعل فيه نقلا بالمعنى وأن النبي ﷺ قال: رحم الله لوطا فغيره الراوي إلى قوله: يغفر الله للوط المشعر بكون لوط أهمل أدبا من آداب العبودية أو أذنب ذنبا بجهله مقام ربه ونسيانه ما لم يكن له أن ينساه.

٤٢. إسراء لوط وإمطار قومه بحجارة من سجيل:

المقطع [٤٢] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨١-٨٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٤٢»:

١. ﴿قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ إلى آخر الآية عدم وصولهم إليه كناية عن عدم قدرتهم على ما يريدون، والمعنى لما بلغ الأمر هذا المبلغ قالت الملائكة مخاطبين للوط: إنا رسل ربك فأظهروا له أنهم ملائكة وعرفوه أنهم مرسلون من عند الله، وطيبوا نفسه أن القوم لن يصلوا إليه ولن يقدروا أن يصيبوا منه ما يريدون فكان ما ذكره الله تعالى في موضع آخر من كلامه: ﴿وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ﴾ القمر:، فأذهب الله بأبصار الذين تابعوا على الشر وازدحموا على بابه فصاروا عميانا يتخبطون.

٢. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾:

أ. الإسراء والسري بالضم السير بالليل فيكون قوله: ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ نوع توضيح له، والباء للمصاحبة أو بمعنى في، والقطع من الشيء طائفة منه وبعضه، والالتفات افتعال من اللفت، قال الراغب: (يقال: لفته عن كذا صرفه عنه، قال تعالى: ﴿قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا﴾ أي تصرفنا، ومنه التفت فلان إذا عدل عن قبله بوجهه، وامرأة لفوت تلفت من زوجها إلى ولدها من غيره)

ب. والقول دستور من الملائكة للوط عليه السلام إرشادا له إلى النجاة من العذاب النازل بالقوم

صبيحة ليلتهم هاتيك، وفيه معنى الاستعجال كما يشعر به قوله بعد: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾، والمعنى أنا مرسلون لعذاب القوم وهلاكهم فانج أنت بنفسك وأهلك وسيروا أنت وأهلك بقطع من هذا الليل وأخرجوا من ديارهم فإنهم هالكون بعذاب الله صبيحة ليلتهم هذه، ولا كثير وقت بينك وبين الصبح ولا ينظر أحدكم إلى وراء.

ج. وما ذكره بعضهم أن المراد بالالتفات الالتفات إلى مال أو متاع في المدينة يأخذه معه أو الالتفات بمعنى التخلف عن السري مما لا يلتفت إليه.

٣. ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ﴾ ظاهر السياق أنه استثناء من قوله: ﴿بِأَهْلِكَ﴾ لا من قوله: ﴿أَحَدٌ﴾ وفي قوله: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ﴾ بيان السبب لاستثنائها، وقال تعالى في غير هذا الموضع: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ﴾ الحجر:.

٤. ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾:

أ. أي موعد هلاكهم الصبح وهو صدر النهار بعد طلوع الفجر حين الشروق، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ الحجر:.

ب. والجملة الأولى تعليل لقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ وفيه نوع استعجال كما تقدم، ويؤكده قوله: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ومن الجائز أن يكون لوط عليه السلام يستعجلهم في عذاب القوم فيجيبوه بقولهم: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ أي إن من المقدر أن يهلكوا بالصبح وليس موعدا بعيدا أو يكون الجملة الأولى استعجالا من الملائكة، والثانية تسلية منهم للوط في استعجاله.

ج. ولم يذكر في الآيات ما هي الغاية لسراهم والمحل الذي يتوجهون إليه، وقد قال تعالى في موضع آخر من كلامه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ الحجر:، وظاهره أن الملائكة لم يذكروا له المقصد وأحالوا ذلك إلى ما سيأتيه من الدلالة بالوحي الإلهي.

٥. ﴿فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾:

أ. ضمائر التأنيث الثلاث راجعة إلى أرض القوم أو القرية أو بلادهم المعلومة من السياق،

والسجيل على ما في المجمع: (بمعنى السجين وهو النار، وقال الراغب: (السجين حجر وطين مختلط، وأصله فيما قيل فارسي معرب)، يشير إلى ما قيل إن أصله سنك كل، وقيل: إنه مأخوذ من السجل بمعنى الكتاب كأنها كتب فيها ما فيها من عمل الإهلاك، وقيل: مأخوذ من أسجلت بمعنى أرسلت، والظاهر أن الأصل في جميع هذه المعاني هو التركيب الفارسي المعرب المفيد معنى الحجر والطين، والسجل بمعنى الكتاب أيضا منه فإنهم على ما قيل كانوا يكتبون على الحجر المعمول ثم توسع فسمي كل كتاب سجلا وإن كان من قرطاس، والإسجال بمعنى الإرسال مأخوذ من ذلك، والنضد هو النظم والترتيب، والتسويم جعل الشيء ذا علامة من السيماء بمعنى العلامة.

ب. والمعنى: ولما جاء أمرنا بالعذاب وهو أمره تعالى الملائكة بعذابهم وهو كلمة ﴿كُنْ﴾ التي أشار إليها في قوله: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ﴾ يس:، جعلنا عالي أرضهم وبلادهم سافلها بتقليبها عليهم وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود معلمة عند ربك وفي علمه ليس لها أن تخطئ هدفها الذي رميت لأجل إصابته.

ج. وذكر بعضهم أن القلب وقع على بلادهم والإمطار بالسجيل عذب به الغائبون منهم، وقيل: إن القرية هي التي أمطرت حين رفعها جبرئيل ليخسفها، وقيل: إنما أمطرت عليهم الحجارة بعد ما قلبت قريتهم تغليظا في العقوبة، والأقوال جميعا من التحكم من غير دليل من اللفظ.

د. وفي قوله تعالى في غير هذا الموضع: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ فقد كان هناك قلب وصيحة وإمطار بالحجارة ومن الممكن أن يكون ذلك بحدوث بركان من البراكين بالقرب من بلادهم وتحدث به زلزلة في أرضهم وانفجار أرضي بصيحة توجب قلب مدنهم، ويمطر البركان عليهم من قطعات الحجارة التي يثيرها ويرميها، والله أعلم.

٦. ﴿وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾:

أ. قيل المراد بالظالمين ظالمو أهل مكة أو المشركون من قوم النبي ﷺ والكلام مسوق للتهديد، والمعنى وليست هذه الحجارة من ظالمي مكة ببعيد أو المعنى: ليست هذه القرى المخسوفة من ظالمي قومك ببعيد فإنه في طريقهم بين مكة والشام، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾، وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾

ب. ويؤيده العدول من سياق التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فكأنه تعالى عدل عن مثل قولنا: مسومة عندنا إلى هذا التعبير ليتعرض لقومه ﷺ بالتهديد أو بإنهاء الحديث إلى حسهم ليكون أقوى تأثيرا في الحجاج عليهم.

ج. وربما احتمل أن المراد تهديد مطلق الظالمين والمراد أنه ليست الحجارة أي أمطارها من عند الله من معشر الظالمين ومنهم قوم لوط الظالمون ببعيد، ويكون وجه الالتفات في قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أيضا التعريض لقوم النبي الظالمين المشركين.

٧. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ قال: ما من عبد يخرج من الدنيا يستحل عمل قوم لوط، إلا رماه الله جندلة من تلك الحجارة تكون منيته فيه، ولكن الخلق لا يرونه.

• أقول: وروي في الكافي، بإسناده عن ميمون البان عنه عليه السلام مثله، وفيه: من بات مصرا على اللواط لم يمت، حتى يرميه الله بحجارة تكون فيه منيته، ولا يراه أحد، وفي الحديثين إشعار بكون قوله: ﴿وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ غير خاص بقريش، وإشعار بكون العذاب المذكور روحانيا غير مادي.

٤٣. شعيب يدعو مدين إلى إيفاء الكيل والميزان والقسط:

المقطع [٤٣] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٤-٨٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٦١»:

١. ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً﴾ إلى آخر الآية عطف على ما تقدمه من قصص الأنبياء وأممهم، ومدين اسم مدينة كان يسكنها قوم شعيب ففي نسبة إرسال شعيب إلى مدين وكان مرسلا إلى أهله نوع من المجاز في الإسناد كقولنا: جرى الميزاب، وفي عد شعيب عليه السلام أخا لهم دلالة على أنه كان ينتسب إليهم.

٢. ﴿قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ تقدم تفسيره في نظائره.

٣. ﴿وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ﴾ المكيال والميزان اسما آلة بمعنى ما يكال به وما يوزن به، ولا يوصفان بالنقص وإنما يوصف بالنقص كالزيادة والمساواة المكيل والموزون فنسبة النقص إلى المكيال والميزان من المجاز العقلي، وفي تخصيص نقص المكيال والميزان من بين معاصيهم بالذكر دلالة على شيوعه بينهم وإقبالهم عليه وإفراطهم فيه بحيث ظهر فساده وبان سيئ أثره فأوجب ذلك شدة اهتمام به من داعي الحق فدعاهم إلى تركه بتخصيصه بالذكر من بين المعاصي.

٤. ﴿إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ﴾:

أ. أي أشاهدكم في خير، وهو ما أنعم الله تعالى عليكم من المال وسعة الرزق والرخص والخصب فلا حاجة لكم إلى نقص المكيال والميزان، واختلاس اليسير من أشياء الناس طمعا في ذلك من غير سبيله المشروع وظلما وعتوا، وعلى هذا فقوله: ﴿إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ﴾

ب. ويمكن تعميم الخير بأن يراد به أنكم مشمولون لعناية الله معنيون بنعمه آتاكم عقلا ورشدا ورزقكم رزقا فلا مسوغ لأن تعبدوا الآلهة من دونه وتشركوا به غيره، وأن تفسدوا في الأرض بنقص المكيال والميزان، وعلى هذا يكون تعليلا لما تقدمه من الجملتين أعني قوله: ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ إلخ، وقوله: ﴿وَلا تَنْقُصُوا﴾ إلخ، كما أن قوله: ﴿وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ كذلك.

ج. فمحصل قوله: ﴿إِنِّي أَراكُمْ﴾ إلى آخر الآية أن هناك رادعين يجب أن يردعاكم عن معصية الله:

- أحدهما: أنكم في خير ولا حاجة لكم إلى بخس أموال الناس من غير سبيل حلها.
- وثانيهما: أن وراء مخالفة أمر الله يوما محيطا يخاف عذابه.

د. وليس من البعيد أن يراد بقوله: ﴿إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ﴾ إني أراكم برؤية خير أي أنظر إليكم نظر الناصح المشفق الذي لا يصاحب نظره إلا الخير ولا يريد بكم غير السعادة، وعلى هذا يكون قوله: ﴿وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ كعطف التفسير بالنسبة إليه.

٥. ﴿وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ يشير به إلى يوم القيامة أو يوم نزول عذاب الاستئصال ومعنى كون اليوم، وهو يوم القضاء بالعذاب، محيطا أنه لا مخرج منه ولا مفر ولا ملاذ من دون الله فلا يدفع فيه ناصر ولا معين، ولا ينفع فيه توبة ولا شفاعة، ويئول معنى الإحاطة إلى كون العذاب قطعيا لا

مناص منه ومعنى الآية أن للكفر والفسوق عذابا غير مردود أخاف أن يصيبكم ذلك.

٦. ﴿وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ﴾، الإيفاء إعطاء الحق بتمامه والبخس النقص كرر القول في المكيال والميزان بالأخذ بالتفصيل بعد الإجمال مبالغة في الاهتمام بأمر لا غنى لمجتمعهم عنه، وذلك أنه دعاهم أولا إلى الصلاح بالنهي عن نقص المكيال والميزان، وعاد ثانيا فأمر بإيفاء المكيال والميزان ونهى عن بخس الناس أشياءهم إشارة إلى أن مجرد التحرز عن نقص المكيال والميزان لا يكفي في إعطاء هذا الأمر حقه، وإنما نهى عنه أولا لتكون معرفة إجمالية هي كالمقدمة لمعرفة التكليف تفصيلا، بل يجب أن يوفي الكائل والوازن مكياله وميزانه ويعطياهما حقهما ولا يبخسا ولا ينقصا الأشياء المنسوبة إلى الناس بالمعاملة حتى يعلما أنهما أديا إلى الناس أشياءهم وردا إليهم مالهم على ما هو عليه.

٧. ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

أ. قال الراغب: (العيث والعثي يتقاربان نحو جذب وجبذ إلا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حسا والعثي فيما يدرك حكما يقال: عثي يعثى عثيا، وعلى هذا ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وعثا يعثو عثوا) وعلى هذا فقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿لا تَعْثَوْا﴾ لإفادة التأكيد نظير ما يفيده قولنا: لا تفسدوا إفسادا.

ب. والجملة أعني قوله: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

• نهي مستأنف عن الفساد في الأرض من قتل أو جرح أو أي ظلم مالي أو جاهي أو عرضي لكن لا يبعد أن يستفاد من السياق كون الجملة عطفا تفسيريا للنهي السابق فيكون نهيا تأكيديا عن التطفيف ونقص المكيال والميزان لأنه من الفساد في الأرض.

• بيان ذلك: أن الاجتماع المدني الدائر بين أفراد النوع الإنساني مبني على المبادلة حقيقة فما من مواصلة ومرابطة بين فردين من أفراد النوع إلا وفيه إعطاء وأخذ فلا يزال المجتمعون يتعاونون في شئون حياتهم يفيد فيه الواحد غيره ليستفيد منه ما يماثله أو يزيد عليه ويدفع إليه نفعا ليجذب منه إلى نفسه نفعا وهو المعاملة والمبادلة.

• ومن أظهر مصاديق هذه المبادلة المعاملات المالية وخاصة في الأمتعة التي لها حجم أو وزن مما

يكتال أو يوزن فإن ذلك من أقدم ما تنبه الإنسان لوجوب إجراء سنة المبادلة فيه.

• فالمعاملات المالية وخاصة البيع والشري من أركان حياة الإنسان الاجتماعية يقدر الواحد منهم ما يحتاج إليه في حياته الضرورية بالكيل أو الوزن، وما يجب عليه أن يبذله في حذائه من الثمن ثم يسير في حياته بانيا لها على هذا التقدير والتدبير.

• فإذا خانه معامله ونقص المكيال والميزان من حيث لا يشعر هو فقد أفسد تدبيره وأبطل تقديره، واختل بذلك نظام معيشته من الجهتين معا من جهة ما يقتنيه من لوازم الحياة بالاشتراء ومن جهة ما يبذله من الثمن الزائد الذي يتعب نفسه في تحصيله بالاكتساب فيسلب إصابة النظر وحسن التدبير في حياته ويتخبط في مسيرها خبط العشواء وهو الفساد.

• وإذا شاع ذلك في مجتمع فقد شاع الفساد فيما بينهم ولم يلبثوا دون أن يسلبوا الوثوق والاطمئنان واعتماد بعضهم على بعض ويرتحل بذلك الأمن العام من بينهم وهو النكبة الشاملة التي تحيط بالصالح والطالح والمطفف والذي يوفي المكيال والميزان على حد سواء، وعاد بذلك اجتماعهم اجتماعا على المكر وإفساد الحياة لا اجتماعا على التعاون لسعادتها، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾

٨. ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾:

أ. البقية بمعنى الباقي والمراد به الربح الحاصل للبائع وهو الذي يبقى له بعد تمام المعاملة فيضعه في سبيل حوائجه، وذلك أن المبادلة وإن لم يوضع بالقصد الأول على أساس الاسترباح، وإنما كان الواحد منهم يقتني شيئا من متاع الحياة، فإذا كان يزيد على ما يحتاج إليه بدل الزائد المستغنى عنه من متاع آخر يحتاج إليه ولا يملكه ثم أخذت نفس التجارة وتبديل الأمتعة من الأثمان حرفة يكتسب بها المال ويقتني بها الثروة فأخذ الواحد منهم متاعا من نوع واحد أو أنواع شتى وعرضه على أرباب الحاجة للمبادلة، وأضاف إلى رأس ماله فيه شيئا من الربح بإزاء عمله في الجمع والعرض ورضي بذلك الناس المشترون لما فيه من تسهيل أمر المبادلة عليهم فللتاجر في تجارته ربح مشروع يرتضيه المجتمع بحسب فطرتهم يقوم معيشته ويحول إليه ثروة يقتنيها ويقيم بها صلب حياته، فالمراد أن الربح الذي هو بقية إلهية هداكم الله إليه من طريق فطرتكم هو خير لكم من المال الذي تقتنونه من طريق التطفيف ونقص المكيال والميزان إن كنتم

مؤمنين فإن المؤمن إنما ينتفع من المال بالمشروع الذي ساقه الله إليه من طريق حله، وأما غير ذلك مما لا يرتضيه الله ولا يرتضيه الناس بحسب فطرتهم فلا خير له فيه ولا حاجة له إليه.

ب. وقيل: إن الاشتراط بالإيمان في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ للدلالة على اشتراط الإيمان للعلم بذلك لا لأصله والمعنى إن كنتم مؤمنين علمتم صحة قولي: إن بقية الله خير لكم.

ج. وقيل معنى الآية ثواب طاعة الله، بكون البقية بمعنى ثواب الطاعة الباقي، خير لكم إن كنتم مؤمنين، وقيل غير ذلك.

٩. ﴿وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي وما يرجع إلى قدرتي شيء مما عندكم من نفس أو عمل أو طاعة أو رزق ونعمة فإنما أنا رسول ليس عليه إلا البلاغ، لكم أن تختاروا ما فيه رشدكم وخيركم أو تسقطوا في مهبط الهلكة من غير أن أقدر على جلب خير إليكم أو دفع شر منكم فهو كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾

١٠. وضع هنا مبحثا حول [قصة شعيب عليه السلام]، خلاصته:

أ. شعيب عليه السلام هو ثالث الرسل من العرب الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن (هود، صالح، شعيب، محمد)، وردت قصته في سور: الأعراف، هود، الشعراء، القصص، والعنكبوت.

ب. كان من أهل مدين (مدينة في طريق الشام من الجزيرة)، وكان معاصراً لموسى عليه السلام، وقد زوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثماني حجج، فخدمه موسى عشر سنين ثم ودعه وسار بأهله إلى مصر.

ج. كان قومه يعبدون الأصنام، وكانوا منعمين بالأمن والرفاهية، فشاع الفساد والتطفيف في المكيال والميزان، فأرسل الله شعيباً ينهاهم عن عبادة الأصنام وعن الفساد ونقص المكيال والميزان، فلم يزدهم إلا طغياناً، ولم يؤمن به إلا قليل.

د. هددوه بالإخراج والرجم، فدعا الله بالفتح، فأرسل الله عليهم عذاب يوم الظلة، والصيحة والرجفة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ونجى شعيباً ومن معه من المؤمنين.

هـ. شعيب عليه السلام من زمرة الرسل المكرمين، حكى الله عنه في كلامه لقومه شيئاً كثيراً من حقائق المعارف والعلوم الإلهية والأدب البارع، وقد سمى نفسه الرسول الأمين والمصلح، وأنه من

الصالحين.

و. التوراة لم تقص قصته مع قومه، وإنما أشارت إليه في ضمن قصة فرار موسى إلى مديان، وسمته (رعوئيل كاهن مديان)

١١. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، قال: قال: بعث الله شعيبا إلى مدين، وهي قرية على طريق الشام فلم يؤمنوا به.

ب. وفي تفسير العياشي، عن أحمد بن محمد بن عيسى عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله: ﴿إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ﴾ قال: كان سعرهم رخيصا.

٤٤. شعيب يرد على قومه بأنه يريد الإصلاح والتوفيق من الله:

المقطع [٤٤] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٨٧ـ٩٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٦٥»:

١. ﴿قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ إلى آخر الآية:

أ. رد منهم لحجة شعيب عليه السلام، وهو من ألطف التركيب، ومغزى مرادهم أنا في حرية فيما نختاره لأنفسنا من دين أو نتصرف به في أموالنا من وجوه التصرف ولست تملكنا حتى تأمرنا بكل ما أحببت أو تنهانا عن كل ما كرهت فإن ساءك شيء مما تشاهد منا بما تصلي وتتقرب إلى ربك وأردت أن تأمر وتنهى فلا تتعد نفسك لأنك لا تملك إلا إياها.

ب. وقد أدوا مرادهم هذا في صورة بديعة مشوبة بالتهكم واللوم معا ومسبوكة في قالب الاستفهام الإنكاري وهو أن الذي تريده منا من ترك عبادة الأصنام، وترك ما شئنا من التصرف في أموالنا هو الذي بعثتك إليه صلاتك وشوهته في عينك فأمرتك به لما أنها ملكتك لكنك أردت منا ما أرادته منك

صلاتك ولست تملكنا أنت ولا صلاتك لأننا أحرار في شعورنا وإرادتنا لنا أن نختار أي دين شئنا ونتصرف في أموالنا أي تصرف أردنا من غير حجر ولا منع ولم ننتحل إلا ديننا الذي هو دين آبائنا ولم نتصرف إلا في أموالنا ولا حجر على ذي مال في ماله.

ج. فما معنى أن تأمرك إياك صلاتك بشيء ونكون نحن الممتثلون لما أمرتك به؟وبعبارة أخرى ما معنى أن تأمرك صلاتك بفعلنا القائم بنا دونك؟ فهل هذا إلا سفها من الرأي؟ وإنك لأنت الحليم الرشيد والحليم لا يعجل في زجر من يراه مسيئا وانتقام من يراه مجرما حتى ينجلي له وجه الصواب، والرشيد لا يقدم على أمر فيه غي وضلال فكيف أقدمت على مثل هذا الأمر السفهي الذي لا صورة له إلا الجهالة والغي؟

٢. وقد ظهر بهذا البيان:

أ. أولا: أنهم إنما نسبوا الأمر إلى الصلاة لما فيها من البعث والدعوة إلى معارضة القوم في عبادتهم الأصنام ونقصهم المكيال والميزان، وهذا هو السر في تعبيرهم عن ذلك بقولهم: ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ﴾ إلخ، دون أن يقولوا: أصلاتك تنهاك أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ مع أن التعبير عن المنع بالنهي عن الفعل أقرب إلى الطبع من التعبير بالأمر بالترك ولذلك عبر عنه شعيب بالنهي في جوابه عن قولهم إذ قال: ﴿وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ﴾ ولم يقل إلى ما آمركم بتركه، والمراد، على أي حال، منعه إياهم عن عبادة الأصنام والتطفيف فافهم ذلك فإنه من لطائف هذه الآية التي ملئت لطافة وحسنا.

ب. وثانيا: أنهم إنما قالوا: ﴿أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ دون أن يقولوا: أن نترك آلهتنا أو أن نترك الأوثان ليشيروا بذلك إلى الحجة في ذلك وهي أن هذه الأصنام دام على عبادتها آباؤنا فهي سنة قومية لنا، ولا ضير في الجري على سنة قومية ورثها الخلف من السلف، ونشأ عليها الجيل بعد الجيل فإنا نعبد آلهتنا وندوم على ديننا وهو دين آبائنا ونحفظ رسما مليا عن الضيعة.

ج. وثالثا: أنهم إنما قالوا: ﴿أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا﴾ فذكروا الأموال مضافة إلى أنفسهم ليكون في ذلك إيماء إلى الحجة فإن الشيء إذا صار مالا لأحد لم يشك ذو ريب في أن له أن يتصرف فيه وليس لغيره ممن يعترف بماليته له أن يعارضه في ذلك، وللمرء أن يسير في مسير الحياة ويتدبر في أمر المعيشة بما يستطيعه من الحذق والاحتيال، ويهديه إليه الذكاء والكياسة.

د. ورابعا: أن قولهم: ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ مبني على التهكم والاستهزاء إلا أن التهكم في تعليقهم أمر الصلاة شعيبا على تركهم ما يعبد آباؤهم، وكذا في نسبة الأمر إلى الصلاة لا غير، وأما نسبة الحلم والرشد إليه فليس فيها تهكم واستهزاء، ولذلك أكد قوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ بإن واللام وإتيان الخبر جملة اسمية ليكون أقوى في إثبات الحلم والرشد له فيصير أبلغ في ملامته والإنكار عليه، وأن الذي لا شك في حلمه ورشده قبيح عليه أن يقدم على مثل هذا الأمر السفهي، وينتهض على سلب حرية الناس واستقلالهم في الشعور والإرادة، وظهر بذلك أن ما ذكره كثير منهم أنهم وصفوه بالحلم والرشد على سبيل الاستهزاء يعنون به أنه موصوف بضدهما وهو الجهالة والغي، ليس بصواب.

٣. ﴿قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ إلى آخر الآية:

أ. المراد بكونه على بينة من ربه كونه على آية بينة وهي آية النبوة والمعجزة الدالة على صدق النبي في دعوى النبوة، والمراد بكونه رزق من الله رزقا حسنا أن الله آتاه من لدنه وحي النبوة المشتمل على أصول المعارف والشرائع، وقد مر توضيح نظير هاتين الكلمتين فيما تقدم.

ب. والمعنى: أخبروني إن كنت رسولا من الله إليكم وخصني بوحي المعارف والشرائع وأيدني بآية بينة يدل على صدق دعواي فهل أنا سفيه في رأيي؟ وهل ما أدعوكم إليه دعوة سفهية؟ وهل في ذلك تحكم مني عليكم أو سلب مني لحريتكم؟ فإنما هو الله المالك لكل شيء ولستم بأحرار بالنسبة إليه بل أنتم عباده يأمركم بما شاء، وله الحكم وإليه ترجعون.

٤. ﴿وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ﴾:

أ. تعدية المخالفة بإلى لتضمينه معنى ما يتعدى بها كالميل ونحوه؟ والتقدير: أخالفكم مائلا إلى ما أنهاكم عنه أو أميل إلى ما أنهاكم عنه مخالفا لكم.

ب. والجملة جواب عن ما اتهموه به أنه يريد أن يسلب عنهم الحرية في أعمالهم ويستعبدهم ويتحكم عليهم، ومحصله أنه لو كان مريدا ذلك لخالفهم فيما ينهاهم عنه، وهو لا يريد مخالفتهم فلا يريد ما اتهموه به وإنما يريد الإصلاح ما استطاع.

ج. توضيحه: أن الصنع الإلهي وإن أنشأ الإنسان مختارا في فعله حرا في عمله له أن يميل في مظان

العمل إلى كل من جانبي الفعل والترك فله بحسب هذه النشأة حرية تامة بالقياس إلى بني نوعه الذين هم أمثاله وأشباهه في الخلقة لهم ما له وعليهم ما عليه فليس لأحد أن يتحكم على آخر عن هوى من نفسه، إلا أنه أفطره على الاجتماع فلا تتم له الحياة إلا في مجتمع من أفراد النوع يتعاون فيه الجميع على رفع حوائج الجميع ثم يختص كل منهم بما له من نصيب بمقدار ما له من الزنة الاجتماعية، ومن البديهي أن الاجتماع لا يقوم على ساق إلا بسنن وقوانين تجري فيها، وحكومة يتولاها بعضهم تحفظ النظم وتجري القوانين كل ذلك على حسب ما يدعو إليه مصالح المجتمع، فلا مناص من أن يفدي المجتمعون بعض حريتهم قبال القانون والسنة الجارية بالحرمان من الانطلاق والاسترسال ليسعدوا لذلك بنيل بعض مشتهياتهم وإحياء البعض الباقي من حريتهم.

د. فالإنسان الاجتماعي لا حرية له قبال المسائل الحيوية التي تدعو إليه مصالح المجتمع ومنافعه، والذي يتحكمه الحكومة في ذلك من الأمر والنهي ليس من الاستعباد والاستكبار في شيء إذ إنها إنما يتحكم فيما لا حرية للإنسان الاجتماعي فيه، وكذا الواحد من الناس المجتمعين إذا رأى من أعمال إخوانه المجتمعين ما يضر بحال المجتمع أو لا ينفع لإبطاله ركنا من أركان المصالح الأساسية فيها فبعثه ذلك إلى وعظهم بما يرشدهم إلى اتباع سبيل الرشد فأمرهم بما يجب عليهم العمل به ونهاهم عن اقتراف ما يجب عليهم الانتهاء عنه لم يكن هذا الواحد متحكما عن هوى النفس مستعبدا للأحرار المجتمعين من بني نوعه فإنه لا حرية لهم قبال المصالح العالية والأحكام اللازمة المراعاة في مجتمعهم، وليس ما يلقيه إليهم من الأمر والنهي في هذا الباب أمرا أو نهيا له في الحقيقة بل كان أمرا ونهيا ناشئين عن دعوة المصالح المذكورة قائمين بالمجتمع من حيث هو مجتمع بشخصيته الوسيعة، وإنما الواحد الذي يلقي إليهم الأمر والنهي بمنزلة لسان ناطق لا يزيد على ذلك.

هـ. وأمارة ذلك أن يأتمر هو نفسه بما يأمر به وينتهي هو نفسه عما ينهى عنه من غير أن يخالف قوله فعله ونظره عمله، إذ الإنسان مطبوع على التحفظ على منافعه ورعاية مصالحه فلو كان فيما يدعو إليه غيره من العمل خير وهو مشترك بينهما لم يخالفه بشخصه، ولم يترك لنفسه ما يستحسنه لغيره، ولذلك قال عليه السلام فيما ألقاه إليهم من الجواب: ﴿وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ﴾ وقال أيضا كما حكاه الله تتميما للفائدة ودفعا لأي تهمة تتوجه إليه: ﴿وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ﴾

و. فهو عليه السلام يشير بقوله: ﴿وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ﴾، إلى أن الذي ينهاهم عنه من الأمور التي فيها صلاح مجتمعهم الذي هو أحد أفراده، ويجب على الجميع مراعاتها وملازمتها، وليس اقتراحا استعباديا عن هوى من نفسه، ولذلك عقبه بقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾

٥. وملخص المقام أنهم لما سمعوا من شعيب عليه السلام الدعوة إلى ترك عبادة الأصنام والتطفيف ردوه بأن ذلك اقتراح منه مخالف لما هم عليه من الحرية الإنسانية التي تسوغ لهم أن يعبدوا من شاءوا ويفعلوا في أموالهم ما شاءوا، فرد عليهم شعيب عليه السلام بأن الذي يدعوهم إليه ليس من قبل نفسه حتى ينافي مسألتهم ذلك حريتهم ويبطل به استقلالهم في الشعور والإرادة بل هو رسول من ربهم إليهم وله على ذلك آية بينة، والذي أتاهم به من عند الله الذي يملكهم ويملك كل شيء وهم عباده لا حرية لهم قباله، ولا خيرة لهم فيما يريده منهم، على أن الذي ألقاه إليهم من الأمور التي فيها صلاح مجتمعهم وسعادة أنفسهم في الدنيا والآخرة، وأمارة ذلك أنه لا يريد أن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه بل هو مثلهم في العمل به، وإنما يريد الإصلاح ما استطاع، ولا يريد منهم على ذلك أجرا إن أجره إلا على رب العالمين.

٦. ﴿وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾:

أ. في مقام الاستثناء من الاستطاعة فإنه عليه السلام لما ذكر لهم أنه يريد إصلاح مجتمعهم بالعلم النافع والعمل الصالح على مقدار ما له من الاستطاعة وفي ضوئها أثبت لنفسه استطاعة وقدرة وليست للعبد باستقلاله وحيال نفسه استطاعة دون الله سبحانه أتم ما في كلامه من النقص والقصور بقوله: ﴿وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ﴾ أي إن الذي يترشح من إرادتي باستطاعة مني من تدبير أمور مجتمعكم وتوفيق الأسباب بعضها ببعض الناتجة لسعادته إنما هو بالله سبحانه لا غنى عنه ولا مخرج من إحاطته ولا استقلال في أمر دونه فهو الذي أعطاني ما هو عندي من الاستطاعة، وهو الذي يوفق الأسباب من طريق استطاعتي فاستطاعتي منه وتوفيقي به.

ب. بين عليه السلام هذه الحقيقة، واعترف بأن توفيقه بالله، وذلك من فروع كونه تعالى هو الفاطر لكل نفس والحافظ عليها والقائم على كل نفس بما كسبت كما قال: ﴿الْحَمْدُ للهِّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ الفاطر:، وقال: ﴿وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ السبأ:، وقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ الرعد:، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ الفاطر: ومحصله أنه تعالى هو الذي أبدع

الأشياء وأعمالها والروابط التي بينها وأظهرها بالوجود، وهو الذي قبض على كل شيء فأمسكه وأمسك آثاره والروابط التي بينها أن تزول وتغيب وراء ستر البطلان.

ج. ولازم ذلك أنه تعالى وكيل كل شيء في تدبير أموره فهي منسوبة إليه تعالى في تحققها وتحقق الروابط التي بينها لما أنه محيط بها قاهر عليها ولها مع ذلك نسبة إلى ذلك الشيء بإذنه تعالى.

د. ومن الواجب للعبد العالم بمقام ربه العارف بهذه الحقيقة أن يمثلها بإنشاء التوكل على ربه والإنابة والرجوع إليه، ولذلك لما ذكر شعيب عليه السلام أن توفيقه بالله عقبه بإنشاء التوكل والإنابة فقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

٧. وضع هنا مبحثا حول [معنى حرية الإنسان في عمله]، خلاصته:

أ. الحرية التكوينية للإنسان تعني أنه موجود ذو شعور وإرادة، له أن يختار لنفسه ما يشاء من الفعل أو الترك، وهو مطلق العنان بحسب الفطرة غير مقيد بشيء من الجانبين، وهذا هو معنى الحرية التكوينية.

ب. الحرية التشريعية هي أن له أن يختار لنفسه ما شاء من طرق الحياة، وليس لأحد من بني نوعه أن يستعبده ويتملك إرادته وعمله، لأن أفراد النوع أمثال، قال تعالى: ﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]

ج. لا حرية للإنسان قبال العلل والأسباب الكونية التي أوجدت الطبيعة الإنسانية، فإنها تملكه وتحيط به من جميع الجهات، وأعماله الاختيارية إنما تطيع الإنسان فيما أذنت فيه هذه العلل والأسباب.

د. الاجتماع الإنساني يضطر الإنسان إلى الحرمان من بعض حريته من جهتين: إعطاء حقوق متقابلة للآخرين، وجريان سنن وقوانين تضمن منافعهم العامة، فالقانون يحرم الناس بعض حريتهم ليحفظ بها البعض الآخر.

هـ. الإنسان حر بالقياس إلى أبناء نوعه فيما يقترحونه لهوى أنفسهم، وأما بالنسبة إلى ما تقتضيه مصالحه الملزمة والاجتماعية فلا حرية له البتة، والدعوة إلى سنة توافق المصالح الإنسانية ليست تحكماً باطلاً ولا سلباً للحرية المشروعة.

و. الله سبحانه هو المالك على الإطلاق، وليس لغيره إلا المملوكية محضاً، فمالكيته المطلقة تسلب أي حرية متوهمة للإنسان بالنسبة إلى ربه، كما أنها تعطيه الحرية بالقياس إلى سائر بني نوعه، وقد أعطى حق

الأمر والنهي والطاعة لرسله ولأولي الأمر وللمؤمنين، فلا حرية لأحد قبال كلمة الحق التي يدعون إليها.

٨. ﴿وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ الجرم بالفتح فالسكون، على ما ذكره الراغب، قطع الثمرة عن الشجر وقد أستعير لكل اكتساب مكروه، والشقاق المخالفة والمعاداة، والمعنى: احذروا أن يكتسب لكم مخالفتي ومعاداتي بسبب ما أدعوكم إليه أصابه مصيبة مثل مصيبة قوم نوح وهي الغرق أو قوم هود وهي الريح العقيم أو قوم صالح وهي الصيحة والرجفة.

٩. ﴿وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ أي لا فصل كثيرا بين زمانهم وزمانكم وقد كانت الفاصلة الزمانية بين القومين أقل من ثلاثة قرون، وقد كان لوط معاصرا لإبراهيم عليه السلام وشعيب معاصرا لموسى عليه السلام، وقيل: المراد به نفي البعد المكاني، والإشارة إلى أن بلادهم الخربة قريبة منكم لقرب مدين من سدوم وهو بالأرض المقدسة، فالمعنى: وما مكان قوم لوط منكم ببعيد تشاهدون مدائنهم المخسوفة وآثارهم الباقية الظاهرة، والسياق لا يساعد عليه والتقدير خلاف الأصل لا يصار إليه إلا بدليل.

١٠. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾:

أ. قد تقدم الكلام في معنى قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي استغفروا الله من ذنوبكم وارجعوا إليه بالإيمان به وبرسوله إن الله ذو رحمة ومودة يرحم المستغفرين التائبين ويحبهم.

ب. وقد قال أولا: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ فأضاف الرب إليهم ثم قال في مقام تعليله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ولعل الوجه فيه أنه ذكر في مرحلة الأمر بالاستغفار والتوبة من الله سبحانه صفة ربوبيته لأنها الصفة التي ترتبط بها العبادة ومنها الاستغفار والتوبة، وأضاف ربوبيته إليهم بقوله: ﴿رَبَّكُمْ﴾ لتأكيد الارتباط وللإشعار بأنه هو ربهم لا ما يتخذونها من الأرباب من دون الله، وكان من حق الكلام أن يقول في تعليله: إن ربكم رحيم ودود لكنه لما كان مع كونه تعليلا ثناء على الله سبحانه، وقد أثبت سابقا أنه رب القوم إضافة ثانيا إلى نفسه ليفيد الكلام بمجموعه معنى أن ربكم وربي رحيم ودود، على أن في هذه الإضافة معنى المعرفة والخبرة فتفيد تأييدا لصحة القول فإنه في معنى أنه تعالى رحيم ودود وكيف لا؟ وهو ربي أعرفه بهذين الوصفين.

ج. والودود من أسماء الله تعالى، وهو فعول من الود بمعنى الحب إلا أن المستفاد من موارد

استعماله أنه نوع خاص من المحبة وهو الحب الذي له آثار وتبعات ظاهرة كالألفة والمراودة والإحسان، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، والله سبحانه يحب عباده ويظهر آثار حبه بإفاضة نعمه عليهم ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾ إبراهيم: فهو تعالى ودود لهم.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في المعاني، بإسناده عن عبد الله بن الفضل الهاشمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: فقوله عز وجل: ﴿وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ﴾ وقوله عز وجل: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾؟ فقال: إذا فعل العبد ما أمر الله عز وجل به من الطاعة، كان فعله وفقا لأمر الله عز وجل وسمي العبد موفقا، وإذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله، فحال الله تبارك وتعالى بينه وبين تلك المعصية فتركها، كان تركه لها بتوفيق الله تعالى، ومتى خلى بينه وبين المعصية فلم يحل بينه وبينها، حتى يتركها فقد خذله ولم ينصره ولم يوفقه.

• أقول: محصل بيانه عليه السلام أن توفيقه تعالى وخذلانه من صفاته الفعلية فالتوفيق هو نظمه الأسباب بحيث تؤدي العبد إلى العمل الصالح أو عدم إيجاده بعض الأسباب التي يستعان بها على المعصية، والخذلان خلاف ذلك، وعلى ذلك فمتعلق التوفيق الأسباب لأنه إيجاد التوافق بينها وهي المتصفة بها، وأما توصيف العبد به فمن قبيل الوصف بحال المتعلق.

ب. أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي قال: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: قل: ربي الله ثم استقم، قلت: ربي الله وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، قال: ليهنئك العلم أبا الحسن، لقد شربت العلم شربا ونهلته نهلا.

• أقول: وقد تقدمت الإشارة إلى نبذة من معنى الجملة.

٤٥. قوم شعيب يستهينون به وبعشيرته ويهددونه بالرجم:

المقطع [٤٥] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ

مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩١-٩٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٧٤»:

١. ﴿قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً﴾ إلى آخر الآية، الفقه أبلغ من الفهم وأقوى، ورهط الرجل عشيرته وقومه، وقيل: إنه من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة وعلى هذا ففي قولهم: رهطك، إشارة إلى قلتهم وهوان أمرهم، والرجم هو الرمي بالحجارة.

٢. لما حاجهم شعيب عليه السلام وأعياهم بحجته لم يجدوا سبيلا دون أن يقطعوا عليه كلامه من غير طريق الحجة فذكروا له:

أ. أولا: أن كثيرا مما يقوله غير مفهوم لهم فيذهب كلامه لغي لا أثر له، وهذا كناية عن أنه يتكلم بما لا فائدة فيه.

ب. ثم عقبوه بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً﴾ أي لا نفهم ما تقول ولست قويا فينا حتى تضطرنا قوتك على الاجتهاد في فهم كلامك والاهتمام بأخذه، والسمع والقبول له فإنا لا نراك فينا إلا ضعيفا لا يعبأ بأمره ولا يلتفت إلى قوله.

ج. ثم هددوه بقولهم: ﴿وَلَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ﴾ أي ولو لا هذا النفر القليل الذين هم عشيرتك لرجمناك لكنا نراعي جانبهم فيك، وفي تقليل العشيرة إيماء إلى أنهم لو أرادوا قتله يوما قتلوه من غير أن يبالوا بعشيرته، وإنما كفهم عن قتله نوع احترام وتكريم منهم لعشيرته.

د. ثم عقبوه بقولهم: ﴿وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ﴾ تأكيدا لقولهم: ﴿لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ﴾ أي لست بقوي منيع جانبا علينا حتى يمنعنا ذلك من قتلك بشر القتل، وإنما يمنعنا رعاية جانب رهطك، فمحصل قولهم إهانة شعيب وأنهم لا يعبئون به ولا بما قال، وإنما يراعون في ترك التعرض له جانب رهطه.

٣. ﴿قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ الظهري نسبة إلى الظهر بفتح الظاء المعجمة وإنما غير بالنسب وهو الشيء الذي وراء الظهر فيترك نسيا منسيا يقال: اتخذه وراءه ظهريا أي نسيه ولم يذكره ولم يعتن به.

٤. وهذا نقض من شعيب لقولهم: ﴿وَلَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ﴾ أي كيف تعززون رهطي وتحترمون جانبهم، ولا تعززون الله سبحانه ولا تحترمون جانبه وإني أنا الذي أدعوكم إليه من جانبه؟ فهل رهطي

أعز عليكم من الله؟ وقد جعلتموه نسيا منسيا وليس لكم ذلك وما كان لكم أن تفعلوه إن ربي بما تعملون محيط بما له من الإحاطة بكل شيء وجودا وعلما وقدرة، وفي الآية طعن في رأيهم بالسفه كما طعنوا في الآية السابقة في رأيه بالهوان.

٥. ﴿وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ﴾ إلى آخر الآية، قال في المجمع: (المكانة الحال التي يتمكن بها صاحبها من عمل) وهو في الأصل، كما قيل، من مكن مكانة كضخم ضخامة إذا قوي على العمل كل القوة ويقال، تمكن من كذا أي أحاط به قوة، وهذا تهديد من شعيب لهم أشد التهديد فإنه يشعر بأنه على وثوق مما يقول لا يأخذه قلق ولا اضطراب من كفرهم به وتمردهم عن دعوته فليعملوا على ما لهم من القوة والتمكن فلهم عملهم وله عمله فسوف يفاجئهم عذاب مخز يعلمون عند ذلك من هو الذي يأخذه العذاب، هم أو هو؟ ويعلمون من هو كاذب؟ فليرتقبوا وهو معهم رقيب لا يفارقهم.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن محمد بن الفضيل عن الرضا عليه السلام قال: سألته عن انتظار الفرج فقال: أوليس تعلم أن انتظار الفرج من الفرج؟ ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾

• أقول: قوله: ليس تعلم بمعنى لا تعلم وهي لغة مولدة.

ب. أخرج الواحدي وابن عساكر عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمي، فرد الله عليه بصره، وأوحى الله إليه: يا شعيب ما هذا البكاء؟ أشوقا إلى الجنة أم خوفا من النار؟ فقال: لا ولكن اعتقدت حبك بقلبي، فإذا نظرت إليك فما أبالي ما الذي تصنع بي؟ فأوحى الله إليه: يا شعيب إن يكن ذلك حقا، فهنيئا لك لقائي، يا شعيب لذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي.

• أقول: المراد بالنظر إليه تعالى هو النظر القلبي دون النظر الحسي المستلزم للجسمية، تعالى عن ذلك، وقد تقدم توضيحه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا﴾ الأعراف: في الجزء الثامن من الكتاب.

ج. أخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب، أنه خطب فتلا هذه الآية في شعيب: ﴿وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا

ضَعِيفاً﴾ قال: كان مكفوفا فنسبوه إلى الضعف، ﴿وَلَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ﴾ قال علي: فوالله الذي لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم، ما هابوا إلا العشيرة.

٤٦. نجاة شعيب والمؤمنين وأخذ الذين ظلموا بالصيحة:

المقطع [٤٦] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤-٩٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٧٦»:

١. ﴿وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً﴾ إلى قوله: ﴿جاثِمِينَ﴾ تقدم ما يتضح به معنى الآية.

٢. ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ غني في المكان إذا أقام فيه، وقوله: ﴿أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ﴾، فيه لعنهم كما لعنت ثمود، وقد تقدم بعض الكلام فيه في القصص السابقة.

٤٧. إرسال موسى إلى فرعون وقومه:

المقطع [٤٧] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦-٩٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٠/ ٣٧٩»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾:

أ. الباء في قوله: ﴿بِآياتِنا﴾ للمصاحبة أي ولقد أرسلنا موسى مصحوبا لآياتنا وذلك أن الذين بعثهم الله من الأنبياء والرسل وأيدهم بالآيات المعجزة طائفتان منهم من أوتي الآية المعجزة على حسب ما اقترحه قومه كصالح عليه السلام المؤيد بآية الناقة، وطائفة أيدوا بآية من الآيات في بدء بعثتهم كموسى وعيسى ومحمد عليه السلام، كما قال تعالى خطابا لموسى عليه السلام: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي﴾، وقال في عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وقال في محمد ﷺ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى﴾، والهدى القرآن بدليل قوله: ﴿ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾

ب. فموسى عليه السلام مرسل مع آيات وسلطان مبين، وظاهر أن المراد بهذه الآيات الأمور

الخارقة التي كانت تجري على يده، ويدل على ذلك سياق قصصه عليه السلام في القرآن الكريم.

ج. وأما السلطان وهو البرهان والحجة القاطعة التي يتسلط على العقول والأفهام فيعم الآية المعجزة والحجة العقلية، وعلى تقدير كونه بهذا المعنى يكون عطفه على الآيات من قبيل عطف العام على الخاص.

د. وليس من البعيد أن يكون المراد بإرساله بسلطان مبين أن الله سبحانه سلطه على الأوضاع الجارية بينه وبين آل فرعون ذاك الجبار الطاغي الذي ما ابتلي بمثله أحد من الرسل غير موسى عليه السلام لكن الله تعالى أظهر موسى عليه حتى أغرقه وجنوده ونجى بني إسرائيل بيده، ويشعر بهذا المعنى قوله: ﴿قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾، وقوله لموسى عليه السلام: ﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى﴾

هـ. وفي هذه الآية ونظائرها دلالة واضحة على أن رسالة موسى عليه السلام ما كانت تختص بقومه من بني إسرائيل بل كانت تعمهم وغيرهم.

٢. ﴿إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ نسبة رسالته إلى فرعون وملئه، والملأ هم أشراف القوم وعظماؤهم الذين يملئون القلوب هيبة، دون جميع قومه لعلها للإشارة إلى أن عامتهم لم يكونوا إلا أتباعا لا رأي لهم إلا ما رآه لهم عظماؤهم.

٣. ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بالأمر ما هو الأعم من القول والفعل كما حكى الله عن فرعون في قوله: ﴿قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ المؤمن:، فينطبق على السنة والطريقة التي كان يتخذها ويأمر بها، وكان الآية محاذاة لقول فرعون هذا فكذبه الله تعالى بقوله: ﴿وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، والرشيد فعيل من الرشد خلاف الغي أي وما أمر فرعون بذي رشد حتى يهدي إلى الحق بل كان ذا غي وجهالة، وقيل: الرشيد بمعنى المرشد.

ب. وفي الجملة أعني قوله: ﴿وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر والأصل (أمره) ولعل الفائدة فيه ما يفيده اسم فرعون من الدليل على عدم رشد الأمر ولا يستفاد ذلك من الضمير البتة.

٤. ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي يقدم فرعون قومه فإنهم اتبعوا أمره فكان إماما لهم من أئمة الضلال، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ القصص:.

٥. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ تفريع على سابقه أي يقدمهم فيوردهم النار، والتعبير بلفظ الماضي لتحقق الوقوع، وربما قيل: تفريع على قوله: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي اتبعوه فأوردهم الاتباع النار، وقد استدل لتأييد هذا المعنى بقوله: ﴿وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ المؤمن: حيث تدل الآيات على تعذيبهم من حين الموت قبل يوم القيامة هذا، ولا يخفى أن الآيات ظاهرة في خلاف ما استدل بها عليه لتعبيرها في العذاب قبل يوم القيامة بالعرض غدوا وعشيا، وفي يوم القيامة بالدخول في أشد العذاب الذي سجل فيها أنه النار.

٦. ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾:

أ. الورد هو الماء الذي يرده العطاش من الحيوان والإنسان للشرب، قال الراغب في المفردات: (الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره يقال: وردت الماء أرد ورودا فأنا وارد والماء مورود، وقد أوردت الإبل الماء قال: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ﴾ والورد الماء المرشح للورود)

ب. وعلى هذا ففي الكلام استعارة لطيفة بتشبيه الغاية التي يقصدها الإنسان في الحياة لمساعيه المبذولة بالماء الذي يقصده العطشان فعذب السعادة التي يقصدها الإنسان بأعماله ورد يرده، وسعادة الإنسان الأخيرة هي رضوان الله والجنة لكنهم لما غووا باتباع أمر فرعون وأخطئوا سبيل السعادة الحقيقية تبدلت غايتهم إلى النار فكانت النار هو الورد الذي يردونه، وبئس الورد المورود لأن الورد، هو الذي يخمد لهيب الصدر ويروي الحشا العطشان وهو عذب الماء ونعم المنهل السائغ وأما إذا تبدل إلى عذاب النار فبئس الورد المورود.

٧. ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ أي هم اتبعوا أمر فرعون فأتبعتهم لعنة من الله في هذه الدنيا وإبعاد من رحمته وطرد من ساحة قربه، ومصداق اللعن الذي أتبعوه هو الغرق، أو أنه الحكم منه تعالى بإبعادهم من الرحمة المكتوب في صحائف أعمالهم الذي من آثاره الغرق وعذاب الآخرة.

٨. ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾:

أ. الرفد هو العطية والأصل في معناه العون، وسميت العطية رفدا ومرفودا لأنه عون للآخذ على حوائجه والمعنى وبئس الرفد رفدهم يوم القيامة وهو النار التي يسجرون فيها، والآية نظيرة قوله في موضع آخر: ﴿وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾

ب. وربما أخذ: ﴿يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ ظرفا فالآية متعلقا بقوله: ﴿أُتْبِعُوا﴾ أو بقوله: ﴿لَعْنَةً﴾ نظير قوله: ﴿فِي هذِهِ﴾، والمعنى: وأتبعهم الله في الدنيا والآخرة لعنة أو فأتبعهم الله لعنة الدنيا والآخرة ثم استؤنف فقيل: بئس الرفد المرفود اللعن الذي أتبعوه أو الإتباع باللعن.

٤٨. قصص القرى والعبر:

المقطع [٤٨] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠ـ١٠٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٥»:

١. ﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من القصص، ومن تبعيضية أي الذي قصصناه عليك هو بعض أخبار المدائن والبلاد أو أهلهم نقصه عليك.

٢. ﴿مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾:

أ. الحصد قطع الزرع، شبهها بالزرع يكون قائما ويكون حصيدا، والمعنى إن كان المراد بالقرى نفسها أن من القرى التي قصصنا أنباءها عليك ما هو قائم لم تذهب بقايا آثارها التي تدل عليها بالمرة كقرى قوم لوط حين نزول قصتهم في القرآن كما قال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥] وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٨]، ومنها ما انمحت آثاره وانطمست أعلامه كقرى قوم نوح وعاد.

ب. وإن كان المراد بالقرى أهلها فالمعنى أن من تلك الأمم والأجيال من هو قائم لم يقطع دابرهم البتة كأمة نوح وصالح، ومنهم من قطع الله دابرهم كقوم لوط لم ينج منهم إلا أهل بيت لوط ولم يكن لوط منهم.

٣. ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. أي ما ظلمناهم في إنزال العذاب عليهم وإهلاكهم إثر شركهم وفسوقهم ولكن ظلموا أنفسهم حين أشركوا وخرجوا عن زي العبودية، وكلما كان عمل وعقوبة عليه كان أحدهما ظلما إما العمل وإما العقوبة عليه فإذا لم تكن العقوبة ظلما كان الظلم هو العمل استتبع العقوبة.

ب. فمحصل القول أنا عاقبناهم بظلمهم ولذا عقبه بقوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ إلخ،، لأن محصل النظم أخذناهم فما أغنت عنهم آلهتهم، فالمفرع عليه هو الذي يدل عليه قوله: ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ﴾ إلخ، والمعنى أخذناهم فلم يكفهم في ذلك آلهتهم، التي كانوا يدعونها من دون الله لتجلب إليهم الخير وتدفع عنهم الشر، ولم تغنهم شيئا لما جاء أمر ربك وحكمه بأخذهم أو لما جاء عذاب ربك.

٤. ﴿وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ التتبيب التدمير والإهلاك من التب وأصله القطع لأن عبادتهم الأصنام كان ذنبا مقتضيا لعذابهم ولما أحسوا بالعذاب والبؤس فالتجئوا إلى الأصنام ودعوها لكشفه ودعاؤها ذنب آخر زاد ذلك في تشديد العذاب عليهم وتغليظ العقاب لهم فما زادوهم غير هلاك، ونسبة التتبيب إلى آلهتهم مجاز وهو منسوب في الحقيقة إلى دعائهم إياها، وهو عمل قائم بالحقيقة بالداعي لا بالمدعو.

٥. ﴿وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾:

أ. الإشارة إلى ما تقدم من أنباء القرى، وذلك بعض مصاديق أخذه تعالى بالعقوبة قاس به مطلق أخذه القرى في أنه أليم شديد، وهذا من قبيل التشبيه الكلي ببعض مصاديقه في الحكم للدلالة على أن الحكم عام شامل لجميع الأفراد وهو نوع من فن التشبيه شائع وقوله: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ بيان لوجه الشبه وهو الألم والشدة.

ب. والمعنى كما أخذ الله سبحانه هؤلاء الأمم الظالمة: قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون أخذا أليما شديدا، كذلك يأخذ سائر القرى الظالمة إذا أخذها فليعتبر بذلك المعتبرون.

٦. أحاديث وآثار: أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله سبحانه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾

٤٩. الآيات تنفع من خاف عذاب الآخرة:

المقطع [٤٩] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٣ـ١٠٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٧»:

١. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ﴾ إلى آخر الآية الإشارة إلى ما أنبأه الله من قصص تلك القرى الظالمة التي أخذها بظلمها أخذا أليما شديدا، وأنبأ أن أخذه كذلك يكون، وفي ذلك آية لمن خاف عذاب الحياة الآخرة وعلامة تدل على أن الله سبحانه وتعالى سيأخذ في الآخرة المجرمين بأجرامهم، وإن أخذه سيكون أليما شديدا فيوجب اعتباره بذلك وتحرزه مما يستتبع سخط الله تعالى.

٢. ﴿ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أي ذلك اليوم الذي يقع فيه عذاب الآخرة يوم مجموع له الناس فالإشارة إلى اليوم الذي يدل عليه ذكر عذاب الآخرة، (ولذلك أتي بلفظ المذكر) كما قيل، ويمكن أن يكون تذكير الإشارة ليطابق المبتدأ الخبر.

٣. ووصف اليوم الآخر بأنه مجموع له الناس دون أن يقال: (سيجمع أو يجمع له الناس):

أ. إنما هو للدلالة على أن جمع الناس له من أوصافه المقضية له التي تلزمه ولا تفارقه من غير أن يحتاج إلى الإخبار عنه بخبر، فمشخص هذا اليوم أن الناس مجموعون لأجله، واللام للغاية، فلليوم شأن من الشأن لا يتم إلا بجمع الناس بحيث لا يغادر منهم أحد ولا يتخلف عنه متخلف: وللناس شأن من الشأن يرتبط به كل واحد منهم بالجميع، ويمتزج فيه الأول مع الآخر والآخر مع الأول ويختلط فيه الكل بالبعض والبعض بالكل، وهو حساب أعمالهم من جهة الإيمان والكفر والطاعة والمعصية، وبالجملة من حيث السعادة والشقاوة.

ب. فإن من الواضح أن العمل الواحد من إنسان واحد يرتضع من جميع أعماله السابقة المرتبطة بأحواله الباطنة، ويرتضع منه جميع أعماله اللاحقة المرتبطة أيضا بما له من الأحوال القلبية، وكذلك عمل الواحد بالنسبة إلى أعمال من معه من بني نوعه من حيث التأثير والتأثر، وكذلك أعمال الأولين بالنسبة إلى أعمال الآخرين وأعمال اللاحقين بالنسبة إلى أعمال السابقين، وفي المتقدمين أئمة الهدى والضلال المسئولون عن أعمال المتأخرين، وفي المتأخرين الأتباع والأذناب المسئولون عن غرور متبوعيهم المتقدمين، قال تعالى:

﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وقال: ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، ثم الجزاء لا يتخلف الحكم الفصل، وهذا الشأن على هذا النعت لا يتم إلا باجتماع من الناس بحيث لا يشذ منهم شاذ.

ج. ومن هنا يظهر أن مسألة الآحاد من الناس في قبورهم وجزاءهم فيها بشيء من الثواب والعقاب على ما تشير إليه آيات البرزخ وتذكره بالتفصيل الأخبار الواردة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام غير ما أخبر الله تعالى به من حساب يوم القيامة والجزاء المقضي به هناك من الجنة والنار الخالدتين فإن الذي يستقبل الإنسان في البرزخ هو المسألة لتكميل صحيفة أعماله ليدخر لفصل القضاء يوم القيامة، وما يسكن فيه في البرزخ من جنة أو نار إنما هو كالنزل المعجل للنازل المتهيئ للقاء والحكم، وليس ما هناك حسابا تاما ولا حكما فصلا ولا جزاء قاطعا كما يشير إليه نظائر قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقوله: ﴿يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢] فترى الآية تعبر عن عذابهم بالعرض على النار ثم يوم القيامة بدخولها وهو أشد العذاب، وتعبر عن عذابهم بالسحب في الحميم ثم بالسجر في النار وهو الاشتعال وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: [آل عمران: ١٧٠] فالآية صريحة في عالم القبر ولم تذكر حسابا ولا جنة الخلد وإنما ذكرت شيئا من التنعم إجمالا، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] تذكر الآية أنهم بعد الموت في حياة برزخية متوسطة بين الحياة الدنيوية التي هي لعب ولهو والحياة الأخروية التي هي حقيقة الحياة كما قال: ﴿وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]

د. وبالجملة الدنيا دار عمل والبرزخ دار تهيؤ للحساب والجزاء، والآخرة دار حساب وجزاء، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا﴾ [التحريم: ٨] فهم يحضرونه بما كسبوه في الدنيا من النور وهيئوه في البرزخ ثم يسألونه يوم القيامة إتمام نورهم وإذهاب ما معهم من بقايا عالم اللهو واللعب.

٤. ﴿وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ كالمتفرع بظاهره على الجملة السابقة، ﴿ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ إذ الجمع يوجب المشاهدة غير أن اللفظ غير مقيد بالناس وإطلاقه يشعر بأنه مشهود لكل من له أن يشهد كالناس والملائكة والجن، والآيات الكثيرة الدالة على حشر الجن والشياطين وحضور الملائكة هناك يؤيد إطلاق الشهادة كما ذكر.

٥. ﴿وما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ أي إن لذلك اليوم أجلا قضى الله أن لا يقع قبل حلول أجله والله يحكم لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، ولا يؤخر اليوم إلا لأجل يعده فإذا تم العدد وحل الأجل حق القول ووقع اليوم.

٥٠. يوم القيامة والشقاوة والسعادة والخلود:

المقطع [٥٠] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٥ـ١٠٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٩»:

١. ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فاعل ﴿يَأْتِ﴾ ضمير راجع إلى الأجل السابق الذكر أي يوم يأتي الأجل الذي تؤخر القيامة إليه لا تتكلم نفس إلا بإذنه، قال تعالى: ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]:

أ. وذكر بعضهم كما في المجمع أن المعنى يوم يأتي القيامة والجزاء، ولازمه إرجاع الضمير إلى القيامة والجزاء لدلالة سابق الكلام إليه بوجه، وهو تكلف لا حاجة إليه.

ب. وذكر آخرون، كما في تفسير صاحب المنار، أن المعنى في الوقت الذي يجيء فيه ذلك اليوم المعين لا تتكلم نفس من الأنفس الناطقة إلا بإذن الله تعالى فالمراد باليوم في الآية مطلق الوقت أي غير المحدود لأنه ظرف لليوم المحدود الموصوف بما ذكر الذي هو فاعل يأتي، وهو خطأ لاستلزامه ظرفية اليوم لليوم لعود المعنى حقيقة إلى قولنا: في الوقت الذي يجيء فيه ذلك الوقت المعين أو اليوم الذي يجيء فيه ذلك اليوم المعين، والتفرقة بين اليومين بجعل أحدهما خاصا ومعينا والآخر عاما ومرسلا لا ينفع في دفع

محذور ظرفية الشيء لنفسه ومظروفية الزمان، وهو ظرف بذاته، لزمان آخر وهو محال لا ينقلب ممكنا بتغيير اللفظ.

ج. وما ذكره من التفرقة بين اليومين بالإطلاق والتحديد مجرد تصوير لا تغني شيئا فإن اليوم الذي يأتي فيه ذلك اليوم الموصوف وذلك اليوم الموصوف متساويان إطلاقا وتحديدا وسعة وضيقا، نعم ربما يؤخذ الزمان متحدا بما يقع فيه من الحوادث فيصير حادثا من الحوادث وتلغى ظرفيته فيجعل مظروفا لزمان آخر كما يقال يوم الأضحى في شهر ذي الحجة ويوم عاشوراء في المحرم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الجاثية: ٢٧] فإن صحت هذه العناية في الآية أمكن به أن يعود ضمير يأتي إلى اليوم.

٢. ﴿لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾:

أ. أي لا تتكلم نفس ممن حضر إلا بإذن الله سبحانه، وحذف أحد التاءين المجتمعين في المستقبل من باب التفعل شائع قياسي.

ب. والباء في قوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ للمصاحبة فالاستثناء في الحقيقة من الكلام لا من المتكلم كما في قوله: ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ﴾ [النبأ: ٣٨] والمعنى لا تتكلم نفس بشيء من الكلام إلا بالكلام الذي يصاحب إذنه لا كالدنيا يتكلم فيها الواحد منهم بما اختاره وأراده، أذن فيه الله إذن تشريع أم لم يأذن.

ج. وقد ذكرت الصفة أعني عدم تكلم نفس إلا بإذنه من خواص يوم القيامة المعرفة له، وليست بمختصة به فإنه لا تتكلم أي نفس من النفوس ولا يحدث أي حادث من الحوادث دائما إلا بإذنه من غير أن يختص ذلك بيوم القيامة.

٣. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وبيان حقيقة الكلام في يوم القيامة]، خلاصته:

أ. بيان أن يوم القيامة هو يوم انكشاف الحقائق وظهور الغيب شهادة، وحينئذ لا يبقى للكلام الاختياري الدنيوي معنى، لأن الحساب يكون بما في النفوس لا بالأقوال.

ب. توضيح أن التكلم في الدنيا إنما هو وسيلة لكشف ما في الضمير لامتناع تعلق الحس به، وأما في الآخرة فالأمور مكشوفة فلا حاجة إلى التكلم.

ج. إثبات أن قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يعني أن التكلم هناك ليس اختيارياً كما في الدنيا، بل هو منوط بإذن الله ومشيئته، لأن دار الآخرة دار جزاء لا دار عمل.

د. بيان أن ما يظهر من كذب المنافقين والمشركين يوم القيامة إنما هو ظهور للملكات والعادات النفسانية، لا تكلم اختياري.

هـ. الرد على الأقوال التي جعلت الإذن بمعنى الإذن الشرعي في الكلام الحسن، أو بمعنى عدم النطق بحجة، أو باختلاف المواقف والأزمنة، وبيان أنها لا تفي بالمعنى القرآني.

و. توضيح أن معنى الإذن في الآية هو ارتفاع الاختيار عن الإنسان وإحاطة الاضطرار بالجميع يومئذ، لأن الظرف ظرف جزاء لا عمل.

٤. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ودلالته على السعادة والشقاوة والاختيار والقضاء الإلهي]، خلاصته:

أ. بيان أن السعادة هي نيل الخير المناسب للوجود، والشقاوة هي الحرمان منه، وأن الآية تقسم أهل الجمع إلى فريقين: سعيد وشقي، ولا تفيد حصراً مطلقاً بل بحسب سياق يوم القيامة.

ب. إثبات أن المستضعفين ومن لم تتم عليهم الحجة ملحقون بأحد الفريقين، وأن الآية لا تنظر إلى كيفية ثبوت السعادة والشقاوة، بل إلى وقوعها في يوم القيامة.

ج. الرد على من زعم أن الآية تدل على الجبر وأن السعيد لا ينقلب شقياً والعكس، وبيان أن الحكم بصفة في المستقبل لا يستلزم ثبوتها في زمن الحكم.

د. توضيح أن قوله: (كُلٌّ مَيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ) لا يدل على الجبر، بل على أن كل إنسان ميسر للطريق الذي يناسبه بحسب اختياره واستعداده.

هـ. بيان أن العمل اختياري للإنسان مع كونه واقعاً تحت القضاء الإلهي، وأن نسبة العمل إلى الإنسان هي نسبة الإمكان، ونسبته إلى العلة التامة هي نسبة الوجوب، ولا تنافي بينهما.

و. توضيح أن علم الله بالأعمال لا يبطل الاختيار، لأن العلم يتعلق بالفعل المقيد بوقوعه عن اختيار، لا بالفعل المطلق.

٥. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾:

أ. قال في المجمع: (الزفير أول نهاق الحمار والشهيق آخر نهاقه)، وقال في الكشاف: (الزفير إخراج النفس والشهيق رده)، وقال الراغب في المفردات: (الزفير تردد النفس حتى ينتفخ الضلوع منه، وقال: الشهيق طول الزفير وهو رده والزفير مده، قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) وقال تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً﴾ وأصله من جبل شاهق أي متناهي الطول) والمعاني، كما ترى، متقاربة وكان في الكلام استعارة، والمراد أنهم يردون أنفاسهم إلى صدورهم ثم يخرجونها فيمدونها برفع الصوت بالبكاء والأنين من شدة حر النار وعظم الكربة والمصيبة كما يفعل الحمار ذلك عند نهيقه.

ب. وكان الظاهر من سياق قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أن يقال بعده: فأما الذي شقي ففي النار له فيها زفير وشهيق.، لكن السياق السابق عليه الذي افتتح به وصف يوم القيامة أعني قوله: ﴿ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ مبني على الكثرة والجماعة، ومقتضاها المضي على هيئة الجمع: الذين شقوا والذين سعدوا، وإنما عبر بقوله، شقي وسعيد لما قيل قبله: ﴿لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ فاختير المفرد المنكر ليفيد النفي بذلك الاستغراق والعموم فلما حصل الغرض بقوله: ﴿لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ عاد السياق السابق المبني على الكثرة والجماعة فقيل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ بلفظ الجمع إلى آخر الآيات الثلاث.

٦. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى الخلود في النار والجنة في قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾]، خلاصته:

أ. بيان أن الخلود في الآية يعني البقاء الدائم، وأن تحديده بمدة دوام السماوات والأرض نوع من التأكيد، لكن الآيات تدل على أن السماوات والأرض الدنيوية فانية، بينما الجنة والنار باقيتان أبداً.

ب. إثبات أن للآخرة سماوات وأرضاً غير السماوات والأرض الدنيوية، بدليل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾، وأن تحديد الخلود بها يعود إلى السماوات والأرض الآخروية الدائمة.

ج. توضيح أن الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ليس لنقض الخلود، بل لإثبات قدرة الله المطلقة، وأن مشيئته لا تتعلق بإخراجهم، أو استثناء العصاة من المؤمنين الذين يخرجون من النار بالشفاعة.

د. عرض الأقوال العشرة في تفسير الاستثناء والرد عليها، وبيان أن المعتمد هو أن الاستثناء في آية

النار والجنة مسوق لإثبات القدرة الإلهية المطلقة، وأن الله لا يشاء إخراجهم من الجنة، وقد يشاء إخراج بعض العصاة من النار.

هـ. بيان أن قوله في أهل الجنة: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ يؤكد دوام العطاء، وأن الاستثناء هناك ليس لنقض الخلود بل لبيان أن الأمر بيد الله، ولا يخرجهم منه أبداً.

٧. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾:

أ. قرئ سعدوا بالبناء للمجهول وبالبناء للمعلوم والثاني أوفق باللغة لأن مادة سعد لازمة في المعروف من استعمالهم لكن الأول وهو سعدوا بالبناء للمجهول مع كون ﴿شَقُوا﴾ في الآية السابقة بالبناء للمعلوم لا يخلو عن إشارة لطيفة إلى أن السعادة والخير من الله سبحانه والشر الملحق بهم هو من عندهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾ [النور: ٢١]

ب. والجذ: هو القطع وعطاء غير مجذوذ أي غير مقطوع، وعده تعالى الجنة عطاء غير مجذوذ مع سبق الاستثناء من الخلود بقوله: ﴿إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ﴾ من أحسن الشواهد على أن مراده باستثناء المشية إثبات بقاء إطلاق قدرته وأنه مالك الأمر لا يخرج زمامه من يده قط.

٨. ويجري في هذه الآية جميع ما تقدم من الأبحاث المشابهة في الآية السابقة إلا ما كان من الوجوه مبنيا على كون المستثنى في قوله: ﴿إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ﴾ من دخل النار أولا ثم خرج منها إلى الجنة ثانيا، وذلك أن من الجائز أن يخرج من نار الآخرة بعض من دخله لكن لا يخرج من جنة الآخرة وهي جنة الخلد أحد ممن دخلها جزاء أبدا، وهو كالضروري من الكتاب والسنة، وقد تكاثرت الآيات والروايات في ذلك بحيث لا يرتاب في دلالتها على ذلك ذو ريب، وإن كانت دلالة الكتاب على خروج بعض من في النار منها ليس بذاك الوضوح، قال في مجمع البيان، في وجوب دخول أهل الطاعة الجنة وعدم جواز خروجهم منها: (لإجماع الأمة على أن من استحق الثواب فلا بد أن يدخل الجنة، وأنه لا يخرج منها بعد دخوله فيها) مسألة (وجوب دخول أهل الثواب الجنة) مبنية على قاعدة عقلية مسلمة وهي أن الوفاء بالوعد واجب دون الوفاء بالوعيد لأن الذي تعلق به الوعد حق للموعود له، وعدم الوفاء به إضاعة لحق الغير وهو من الظلم وأما الوعيد فهو جعل حق للموعد على التخلف الذي يوعد به له، وليس من الواجب لصاحب الحق أن

يستوفي حقه بل له أن يستوفي وله أن يترك والله سبحانه وعد عباده المطيعين الجنة بإطاعتهم، وأوعد العاصين النار بعصيانهم فمن الواجب أن يدخل أهل الطاعة الجنة توفية للحق الذي جعله لهم على نفسه، وأما عقاب العاصين فهو حق جعله لنفسه عليهم فله أن يعاقبهم فيستوفي حقه وله أن يتركهم بترك حق نفسه، وأما مسألة عدم الخروج من الجنة بعد دخولها فهو مما تكاثرت عليه الآيات والروايات، والإجماع الذي ذكره مبني على الذي تسلموه من دلالة الكتاب والسنة أو العقل على ذلك، وليس بحجة مستقلة.

٩. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى حديث (كل ميسر لما خلق له) وعلاقته بالقضاء والقدر والاختيار]، خلاصته:

أ. بيان أن الأحاديث الواردة في القضاء والقدر تدل على أن لكل إنسان غاية كتبها الله له، وأن السبيل إلى تلك الغاية ميسر له، لا أن الغاية مكتوبة بقطع النظر عن العمل.

ب. توضيح أن للكون وجهين: وجه ضرورة وفعلية يتعين فيه كل شيء بحسب علله التامة، ووجه إمكان واستعداد تقوم عليه الاختيار والتكليف، ولا تنافي بينهما.

ج. إثبات أن قوله: (كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ) يعني أن الله ييسر لكل إنسان الطريق الذي يناسبه بحسب استعداده واختياره، لا أنه يجبره على سلوكه.

د. بيان أن السؤال الوارد في الأحاديث كان عن توهم أن القضاء يلغي العمل، فأجاب النبي ﷺ بأن العمل طريق لازم للوصول إلى الغاية المقدرة.

هـ. توضيح أن التيسير لا يتحقق إلا في أمر غير حتمي، مما يدل على أن للفعل وجهاً إمكانياً يقوم عليه الاختيار، ووجهاً ضرورياً يقوم عليه القضاء.

و. الرد على من توهم أن القضاء الإلهي يبطل الاختيار، وأن نسبة العمل إلى الإنسان هي نسبة الإمكان دائماً، ونسبته إلى العلة التامة هي نسبة الوجوب.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن قتادة:، أنه تلا هذه الآية، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ فقال: حدثنا أنس أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج قوم من النار) ولا نقول كما قال أهل حروراء.

• أقول: وقوله: (ولا نقول كما قال أهل حروراء) هو من كلام قتادة، وأهل حروراء قوم من

الخوارج، وهم يقولون بخلود من دخل النار فيها.

ب. وفيه: أخرج ابن مردويه عن جابر قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ﴾ قال رسول الله ﷺ: إن شاء الله أن يخرج أناسا، من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل.

ج. وفي تفسير البرهان، عن الحسين بن سعيد الأهوازي في كتاب الزهد بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الجهنميين، فقال: كان أبو جعفر يقول: يخرجون منها فينتهي بهم إلى عين عند باب الجنة، تسمى عين الحيوان فينضح عليهم من مائها فينبتون، كما ينبت الزرع تنبت لحومهم وجلودهم وشعورهم.

• أقول: ورواه أيضا بإسناده عن عمر بن أبان عنه عليه السلام: والمراد بالجهنميين طائفة خاصة من أهل النار وهم أهل التوحيد الخارجون منها بالشفاعة، ويسمون الجهنميين، لا عامة أهل النار كما يدل عليه ما سيأتي.

د. وفيه: عنه بإسناده عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن أناسا يخرجون من النار، حتى إذا صاروا حمما أدركتهم الشفاعة، قال: فينطلق بهم إلى نهر يخرج من مرشح أهل الجنة، فيغتسلون فيه فتنبت لحومهم ودماؤهم، ويذهب عنهم قشف النار، ويدخلون الجنة يقولون، أهل الجنة، الجهنميين، فينادون بأجمعهم: اللهم أذهب عنا هذا الاسم، قال: فيذهب عنهم، ثم قال يا أبا بصير إن أعداء علي هم المخلدون في النار، ولا تدركهم الشفاعة.

هـ. وفيه: عنه بإسناده عن عمر بن أبان قال: سمعت عبدا صالحا يقول في الجهنميين: إنهم يدخلون النار بذنوبهم، ويخرجون بعفو الله.

و. وفيه: عنه بإسناده عن حمران قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام إنهم يقولون: لا تعجبون من قوم يزعمون أن الله يخرج قوما من النار، ليجعلهم من أهل الجنة مع أولياء الله؟ فقال: أما يقرءون قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ﴾ أنها جنة دون جنة ونار دون نار، إنهم لا يساكنون أولياء الله فقال: بينهما والله منزلة، ولكن لا أستطيع أن أتكلم، إن أمرهم لأضيق من الحلقة، إن القائم إذا قام بدأ بهؤلاء.

• أقول: قوله: (إن القائم)، أي إذا ظهر بدأ بهؤلاء المستهزءين بأهل الحق انتقاما.

ز. وفي تفسير العياشي، عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قوله: ﴿خالِدِينَ فِيها

ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ، إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ﴾ قال: هذه في الذين يخرجون من النار.

ح. وفيه: عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ قال: في ذكر أهل النار استثنى، وليس في ذكر أهل الجنة استثنى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ، إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾

• أقول: يشير عليه السلام إلى أن الاستثناء بالمشية في أهل الجنة لما عقبه الله بقوله: ﴿عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ لم يكن استثناء دالا على إخراج بعض أهل الجنة منها، وإنما يدل على إطلاق القدرة بخلاف الاستثناء في أهل النار فإنه معقب بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ﴾ المشعر بوقوع الفعل، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

ط. أخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ الآية قال: فجاء بعد ذلك من مشية الله فنسخها فأنزل الله بالمدينة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً﴾ إلى آخر الآية فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها، وأوجب لهم خلود الأبد، وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ الآية قال: فجاء بعد ذلك من مشية الله ما نسخها فأنزل بالمدينة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾ إلى قوله: ﴿ظِلًّا ظَلِيلاً﴾ فأوجب لهم خلود الأبد.

• أقول: ما ذكره من نسخ الآيتين زعما منه أنهما تدلان على الانقطاع قد عرفت خلافه، على أن النسخ في مثل الموردين لا ينطبق على عقل ولا نقل، على أن ذلك لا يوافق الصريح من آية الجنة، على أن خلود الفريقين مذكور في كثير من السور المكية كالأنعام والأعراف وغيرهما.

ي. أخرج ابن المنذر عن الحسن عن عمر قال: لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج، لكان لهم يوم على ذلك يخرجون فيه.

ك. أخرج إسحاق بن راهويه عن أبي هريرة قال: سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد، وقرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾

ل. أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن إبراهيم قال (: ما في القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية: ﴿خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ﴾ قال: وقال ابن مسعود: ليأتين عليها زمان تخفق أبوابها.

• أقول: ما ورد في الروايات الثلاث من أقوال الصحابة ولا حجة فيها على غيرهم، ولو فرضت روايات موقوفة لكانت مطروحة بمخالفة الكتاب وقد قال تعالى في الكفار: ﴿وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]

م. وفي تفسير البرهان، عن الحسين بن سعيد في كتاب الزهد بإسناده عن حمران قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنه بلغنا أنه يأتي على جهنم حتى، يصفق أبوابها، فقال: لا والله إنه الخلود، قلت: ﴿خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ، إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ﴾ فقال: هذه في الذين يخرجون من النار.

• أقول: والروايات الدالة على خلود الكفار في النار من طرق أئمة أهل البيت كثيرة جدا، وقد قدمنا بحثا فلسفيا في خلود العذاب وانقطاعه في ذيل قوله: ﴿وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] في الجزء الأول من الكتاب.

٥١. العبادة والكتاب والاختلاف:

المقطع [٥١] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠٩ـ١١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٤٣»:

١. ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ﴾:

أ. تفريع لما تقدم من تفصيل قصص الأمم الماضية التي ظلموا أنفسهم باتخاذ الشركاء والفساد في الأرض فأخذهم الله بالعذاب، والمشار إليهم بقوله: ﴿هؤُلاءِ﴾ هم قوم النبي ﷺ، وقوله: ﴿ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ﴾ أي إنهم يعبدونها تقليدا كآبائهم فالآخرون يسلكون الطريق الذي سلكه الأولون من غير حجة، والمراد بنصيبهم ما هو حظهم قبال شركهم وفسقهم.

ب. ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ حال من النصيب وفيه تأكيد لقوله: ﴿لَمُوَفُّوهُمْ﴾ فإن التوفية تأدية حق الغير بالتمام والكمال، وفيه إيئاس الكافرين من العفو الإلهي.

ج. ومعنى الآية: فإذا سمعت قصص الأولين وأنهم كانوا يعبدون آلهة من دون الله ويكذبون بآياته، وعلمت سنة الله تعالى فيهم وأنها الهلاك في الدنيا والمصير إلى النار الخالدة في الآخرة لا تكن في شك

ومرية من عبادة هؤلاء الذين هم قومك ما يعبدون إلا كعبادة آبائهم على التقليد من غير حجة ولا بينة، وإنا سنعطيهم ما هو نصيبهم من جزاء أعمالهم من غير أن ننقص من ذلك شيئا بشفاعة أو عفو كيفما كان.

د. ويمكن أن يكون المراد بآبائهم، الأمم الماضية الهالكة دون آباء العرب بعد إسماعيل مثلا وذلك أن الله سماهم آباء لهم أولين كما في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] وهذا أنسب وأحسن والمعنى، على هذا، فلا تكن في شك من عبادة قومك ما يعبد هؤلاء إلا كمثل عبادة أولئك الأمم الهالكة الذين هم آباؤهم، ولا شك أنا سنعطيهم حظهم من الجزاء كما فعلنا ذلك بآبائهم.

٢. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾:

أ. لما كانت هذه الآيات مسوقة للاعتبار بالقصص المذكورة في السورة، وكانت القصص نفسها سردت ليتعظ بها القوم ويقضوا بالحق في اتخاذهم شركاء لله سبحانه، وتكذيبهم بآيات الله ورمي القرآن بأنه افتراء على الله تعالى.

ب. تعرض في هذه الآيات، المسوقة للاعتبار، لأمر اتخاذهم الآلهة وتكذيب القرآن فذكر تعالى أن عبادة القوم للشركاء كعبادة أسلافهم من الأمم الماضية لها وسينالهم العذاب كما نال أسلافهم وإن اختلافهم في كتاب الله كاختلاف أمة موسى عليه السلام فيما آتاه الله من الكتاب وأن الله سيقضي بينهم فيما اختلفوا فيه، فقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ إشارة إلى اختلاف اليهود في التوراة بعد موسى.

٣. ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾:

أ. كرر سبحانه في كتابه ذكر أن اختلاف الناس في أمر الدنيا أمر فطروا عليها لكن اختلافهم في أمر الدين لا منشأ له إلا البغي بعد ما جاءهم العلم، قال تعالى: ﴿وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩] وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً

بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]

ب. وقد قضى الله سبحانه أن يوفي الناس أجر ما عملوه وجزاء ما اكتسبوه، وكان مقتضاه أن يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه حينما اختلفوا لكنه تعالى قضى قضاء آخر أن يمتعهم في الأرض إلى يوم القيامة ليعمروا به الدنيا، ويكتسبوا في دنياهم لأخراهم كما قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، ومقتضى هذين القضاءين أن يؤخر القضاء بين المختلفين في دين الله وكتابه بغيا، إلى يوم القيامة.

ج. سؤال وإشكال: فإن قلت: فما بال الأمم الماضية أهلكهم الله لظلمهم فهلا أخرهم إلى يوم القيامة لكلمة سبقت منه، والجواب: ليس منشأ إهلاكهم كفرهم ولا معاصيهم وبالجملة مجرد اختلافهم في أمر الدين حتى يعارضه القضاء الآخر ويؤخره إلى يوم القيامة، بل قضاء آخر ثالث يشير إليه قوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]

د. وبالجملة قوله: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ يشير إلى أن اختلاف الناس في الكتاب ملتقى قضاءين من الله سبحانه يقتضي أحدهما الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويقتضي الآخر أن يمتعهم الله إلى يوم القيامة فلا يجازيهم بأعمالهم، ومقتضى ذلك كله أن يتأخر عذابهم إلى يوم القيامة.

٤. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾:

أ. الإرابة إلقاء الشك في القلب، فتوصيف الشك بالمريب من قبيل قوله: ﴿ظِلًّا ظَلِيلاً﴾ و﴿حِجاباً مَسْتُوراً﴾ و﴿حِجْراً مَحْجُوراً﴾ وغير ذلك، ويفيد تأكدا لمعنى الشك.

ب. والظاهر أن مرجع الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أمة موسى وهم اليهود، وحق لهم أن يشكوا فيه فإن سند التوراة الحاضرة ينتهي إلى ما كتبه لهم رجل من كهنتهم يسمى عزراء عند ما أرادوا أن يرجعوا من بابل بعد انقضاء السبي إلى الأرض المقدسة، وقد أحرقت التوراة قبل ذلك بسنين عند إحراق الهيكل فانتهاء سندها إلى واحد يوجب الريب فيها طبعا ونظيرها الإنجيل من جهة سنده، على أن التوراة الحاضرة يوجد فيها أشياء لا ترضى الفطرة الإنسانية أن تنسبها إلى كتاب سماوي ومقتضاه الشك فيها.

ج. وأما إرجاع الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ إلى مشركي العرب، وفي قوله: ﴿مِنْهُ﴾ إلى القرآن كما فعله بعض المفسرين فبعيد من الصواب لأن الله سبحانه قد أتم الحجة عليهم في صدر السورة أنه كتابه

المنزل من عنده على نبيه ﷺ وتحدى بمثل قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ ولا معنى مع ذلك لإسناد شك إليهم.

٥. ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾:

أ. لفظة إن هي المشبهة بالفعل واسمها قوله: ﴿كُلًّا﴾ منونا مقطوعا عن الإضافة والتقدير كلهم أي المختلفين، وخبرها قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ واللام والنون لتأكيد الخبر، وقوله: ﴿لَمَّا﴾ مؤلف من لام تدل على القسم وما مشددة تفصل بين اللامين، وتفيد مع ذلك تأكيدا، وجواب القسم محذوف يدل عليه خبر إن.

ب. والمعنى، والله أعلم، وإن كل هؤلاء المختلفين أقسم ليوفينهم ويعطينهم ربك أعمالهم أي جزاءها أنه بما يعملون من أعمال الخير والشر خبير.

ج. ونقل في روح المعاني، عن أبي حيان عن ابن الحاجب أن ﴿لَمَّا﴾ في الآية هي لما الجازمة وحذف مدخولها شائع في الاستعمال يقال: خرجت ولما، وسافرت ولما، ثم قال: والأولى على هذا أن يقدر: لما يوفوها أي وإن كلا منها لما يوفوا أعمالهم ليوفينهم ربك إياها، وهذا وجه وجيه.

٦. ولأهل التفسير في مفردات الآية ونظمها أبحاث أدبية طويلة لا يهمنا منها أزيد مما أوردناه، ومن شاء الوقوف عليها فليراجع مطولات التفاسير.

٥٢. الاستقامة والطغيان:

المقطع [٥٢] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٤٧»:

١. ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

أ. يقال: قام كذا وثبت وركز بمعنى واحد كما ذكره الراغب وغيره، والظاهر أن الأصل المأخوذ به في ذلك قيام الإنسان وذلك أن الإنسان في سائر حالاته وأوضاعه غير القيام كالقعود والانبطاح والجثو والاستلقاء والانكباب لا يقوى على جميع ما يرومه من الأعمال كالقبض والبسط والأخذ والرد وسائر ما الإنسان مهيمن عليه بالطبع لكنه إذا قام على ساقه قياما كان على أعدل حالاته الذي يسلطه على عامة أعماله من ثبات وحركة وأخذ ورد وإعطاء ومنع وجلب ودفع، وثبت مهيمنا على ما عنده من القوى

وأفعالها، فقيام الإنسان يمثل شخصيته الإنسانية بما له من الشئون.

ب. ثم أستعير في كل شيء لأعدل حالاته الذي يسلط معه على آثاره وأعماله فقيام العمود أن يثبت على طوله وقيام الشجر أن يركز على ساقه متعرقا بأصله في الأرض، وقيام الإناء المحتوي على مائع أن يقف على قاعدته فلا يهراق ما فيه وقيام العدل أن ينبسط على الأرض، وقيام السنة والقانون أن تجري في البلاد.

ج. والإقامة جعل الشيء قائما أي جعله بحال يترتب عليه جميع آثاره بحيث لا يفقد شيئا منها كإقامة العدل وإقامة السنة وإقامة الصلاة وإقامة الشهادة، وإقامة الحدود، وإقامة الدين ونحو ذلك.

د. والاستقامة طلب القيام من الشيء واستدعاء ظهور عامة آثاره ومنافعه فاستقامة الطريق اتصافه بما يقصد من الطريق كالاستواء والوضوح وعدم إضلاله من ركبه، واستقامة الإنسان في أمر أن يطلب من نفسه القيام به وإصلاحه بحيث لا يتطرق إليه فساد ولا نقص، ويأتي تاما كاملا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦] أي قوموا بحق توحيده في ألوهيته، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ [فصلت: ٣٠] أي ثبتوا على ما قالوا في جميع شئون حياتهم لا يركنون في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم إلا إلى ما يوافق التوحيد ويلائمه أي يراعونه ويحفظونه في عامة ما يواجههم في باطنهم وظاهرهم، وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ [الروم: ٣٠] فإن المراد بإقامة الوجه إقامة النفس من حيث تستقبل العمل وتواجهه، وإقامة الإنسان نفسه في أمر هي استقامته فيه فافهم.

هـ. فقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ﴾ أي كن ثابتا على الدين موفيا حقه طبق ما أمرت بالاستقامة، وقد أمر به في قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]

٢. قال في روح المعاني: (أمر رسوله ﷺ بالاستقامة مثل الاستقامة التي أمر بها وهذا يقتضي أمره ﷺ بوحي آخر ولو غير متلو كما قاله غير واحد، والظاهر أن هذا أمر بالدوام على الاستقامة، وهي لزوم المنهج المستقيم وهو المتوسط بين الإفراط والتفريط، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل

وسائر الأخلاق):

أ. أما احتماله أن يكون هناك وحي آخر غير متلو يشير إليه قوله تعالى: ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي استقم كما أمرت سابقا بالاستقامة فبعيد عن سنة القرآن وحاشا أن يعتمد بالبيان القرآني على أمر مجهول أو أصل مستور غير مذكور، وقد عرفت أن الإشارة بذلك على ما أمره الله به من إقامة وجهه للدين حنيفا، وإقامة الوجه للدين هو الاستقامة في الدين، وقد ورد قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، كما عرفت، في سورتين كلتاهما مكيتان، وسورة يونس التي هي إحداهما نازلة قبل هذه السورة قطعا وإن لم يسلم ذلك في السورة الأخرى التي هي سورة الروم.

ب. وأما قوله: (إن المراد بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ الدوام على الاستقامة وهي لزوم المنهج المستقيم المتوسط بين الإفراط والتفريط) فقد عرفت أن معنى استقامة الإنسان في أمر ثبوته على حفظه وتوفية حقه بتمامه وكماله، واستقامة الإنسان مطلقا ركوزه وثبوته لما يرد عليه من الوظائف بتمام قواه وأركانه بحيث لا يترك شيئا من قدرته واستطاعته لغي لا أثر له.

ج. ولو كان المراد بالأمر بالاستقامة هو الأمر بلزوم الاعتدال بين الإفراط والتفريط لكان الأنسب أن يردف هذا الأمر بالنهي عن الإفراط والتفريط معا مع أنه تعالى عقبه بقوله: ﴿وَلا تَطْغَوْا﴾ فنهى عن الإفراط فقط، وهو بمنزلة عطف التفسير لقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ﴾ وهذا أحسن شاهد على أن المراد بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ الأمر بإظهار الثبات على العبودية ولزوم القيام بحقها، ثم نهى عن تعدي هذا الطور والاستكبار عن الخضوع لله والخروج بذلك عن زي العبودية فقيل: ﴿وَلا تَطْغَوْا﴾ كما فعل ذلك الأمم الماضية، ولم يكونوا مبتلين إلا بالإفراط دون التفريط والاستكبار دون التذلل.

٣. ﴿وَمَنْ تابَ مَعَكَ﴾:

أ. عطف على الضمير المستكن في ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ أي استقم أنت ومن تاب معك أي استقيموا جميعا وإنما أخرج النبي ﷺ من بينهم وأفرده بالذكر معهم تشريفا لمقام النبوة، وعلى ذلك تجري سنته تعالى في كلامه كقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقوله: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨]

ب. على أن الأمر الذي تقيد به قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ أعني قوله: ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ يختص بالنبي ﷺ ولا

يشاركه فيه غيره فإن ما ذكر من مثل قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ خاص به فلو قيل: فاستقيموا لم يصح تقييده بالأمر السابق.

ج. والمراد بمن تاب مع النبي المؤمنون الذين رجعوا إلى الله بالإيمان وإطلاق التوبة على أصل الإيمان، وهو رجوع من الشرك، كثير الورود في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧] إلى غير ذلك.

٤. ﴿وَلا تَطْغَوْا﴾ أي لا تتجاوزوا حدكم الذي خطته لكم الفطرة والخلقة وهو العبودية لله وحده كما تجاوزه الذين قبلكم فأفضاهم إلى الشرك وساقهم إلى الهلكة، والظاهر أن الطغيان بهذا المعنى مأخوذ من طغى الماء إذا جاوز حده، ثم أستعير لهذا الأمر المعنوي الذي هو طغيان الإنسان في حياته لتشابه الأثر وهو الفساد.

٥. ﴿إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تعليل لمضمون ما تقدمه، ومعنى الآية اثبت على دين التوحيد والزم طريق العبودية من غير تزلزل وتذبذب، وليثبت الذين آمنوا معك، ولا تتعدوا الحد الذي حد لكم لأن الله بصير بما تعملون فيؤاخذكم لو خالفتم أمره.

٦. وفي الآية الكريمة من لحن التشديد ما لا يخفى فلا يحس فيها بشيء من آثار الرحمة وأمارات الملاطفة وقد تقدمها من الآيات ما يتضمن من حديث مؤاخذة الأمم الماضية والقرون الخالية بأعمالهم واستغناء الله سبحانه عنهم ما تصعق له النفوس وتطير القلوب، غير ما في قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ﴾ من أفراد النبي ﷺ بالذكر وإخراجه من بين المؤمنين تشريفا لمقامه لكن ذلك يفيد بلوغ التشديد في حقه فإن تخصيصه قبلا بالذكر يوجب توجه هول الخطاب وروع التكليم من مقام العزة والكبرياء إليه وحده عدل ما يتوجه إلى جميع الأمة إلى يوم القيامة كما وقع نظير التشديد في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ﴾ [الإسراء: ٧٥]

٧. ولذلك ذكر أكثر المفسرين أن قوله ﷺ: (شيبتني سورة هود) ناظر إلى هذه الآية، وسيوافيك الكلام فيه في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

٨. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ

تابَ مَعَكَ﴾ قال: شمروا شمروا فما رؤي ضاحكا.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ الآية قال ابن عباس: ما نزل على رسول الله ﷺ آية كانت أشد عليه ولا أشق من هذه الآية، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: أسرع إليك الشيب يا رسول الله، شيبتني هود والواقعة.

• أقول: والحديث مشهور في بعض الألفاظ شيبتني هود وأخواتها، وعدم اشتمال الواقعة على ما يناظر قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ الآية يبعد أن تكون إليه الإشارة في الحديث، والمشترك فيه بين السورتين حديث القيامة والله أعلم.

٥٣. النهي عن الركون للذين ظلموا:

المقطع [٥٣] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٥٠»:

١. لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وبيان حقيقة الركون المنهي عنه]، خلاصته:

أ. بيان أن الركون في الآية يعني الاعتماد على الظالمين مع الميل إليهم، لا مجرد الاعتماد المطلق، وأنه يتعدى بـ ﴿إِلَى﴾ لا بـ ﴿عَلَى﴾ للدلالة على الميل.

ب. إثبات أن المنهي عنه هو الركون إلى الظالمين في أمر الدين أو الحياة الدينية، كالسكوت عن بيان الحقائق، أو توليتهم الأمور العامة، أو إجراء الأمور الدينية بأيديهم.

ج. توضيح أن الركون المنهي عنه أخص من الولاية المنهي عنها في آيات أخرى، وأن كل مورد ركون فيه ولاية، من غير عكس.

د. الرد على من خص الآية بالمشركين أو بمن وقع منه ظلم قليل، وبيان أنها تشمل كل من اتسم بسمة الظلم، من مشركين وأهل كتاب ومسلمين ظالمين.

هـ. بيان أن النهي عن الركون لا يعني النهي عن التعامل مع الظالمين في الأمور الدنيوية كالبيع

والشراء والثقة، بدليل فعل النبي ﷺ مع المشركين.

و. توضيح أن الركون إلى شيء من ظلمهم وإدخاله في الدين هو دخول في زمرة الظالمين، لا مجرد ركون إليهم.

ز. الرد على من زعم أن المخاطبين الأولين بالآية لم يكونوا مظنة للركون، وبيان أن النهي التشريعي لا يتوقف على توهم المعصية من المخاطب.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾ الآية قال: قال عليه السلام: ركون مودة ونصيحة وطاعة.

• أقول: ورواه أيضا في المجمع مرسلا عنهم عليهم السلام.

ب. وفي تفسير العياشي، عن عثمان بن عيسى عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ قال: أما إنه لم يجعلها خلودا ولكن ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ فلا تركنوا إليهم.

• أقول: أي ولكن قال: تمسكم النار فجعله مسا.

٥٤. الصلاة طرفا النهار وزلفاً من الليل والحسنات والسيئات:

المقطع [٥٤] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٥٨»:

١. ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾:

أ. طرفا النهار هو الصباح والمساء والزلف جمع زلفى كقرب جمع قربى لفظا ومعنى على ما قيل، وهو وصف ساد مسد موصوفه كالساعات ونحوها، والتقدير وساعات من الليل أقرب من النهار.

ب. والمعنى أقم الصلاة في الصباح والمساء وفي ساعات من الليل هي أقرب من النهار، وينطبق من الصلوات الخمس اليومية على صلاة الصبح والعصر وهي صلاة المساء والمغرب والعشاء الآخرة، ووقتها زلف من الليل كما قاله بعضهم، أو على الصبح والمغرب ووقتهما طرفا النهار والعشاء الآخرة ووقتها زلف من الليل كما قاله آخرون، وقيل غير ذلك.

ج. لكن البحث لما كان فقهيا كان المتبع فيه ما ورد عن النبي ﷺ وأئمة أهل بيته عليه السلام من البيان، وسيجيء في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

٢. ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ وبيان أن الصلوات حسنات واردة على نفوس المؤمنين تذهب بآثار المعاصي وهي ما تعتريها من السيئات، وقد تقدم كلام في هذا الباب في مسألة الحبط في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

٣. ﴿ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ﴾ أي هذا الذي ذكر وهو أن الحسنات يذهبن السيئات على رفعة قدرة تذكار للمتلبسين بذكر الله تعالى من عباده.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن جرير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ﴾ وطرفاه المغرب والغداة ﴿وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ وهي صلاة العشاء الآخرة.

ب. وفي التهذيب، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: في حديث في الصلوات الخمس اليومية: وقال تعالى في ذلك ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ وهي صلاة العشاء الآخرة.

• أقول: الحديث لا يخلو من ظهور في تفسير طرفي النهار بما قبل الظهر وما بعدها ليشمل أوقات الخمس.

ج. وفي المعاني، بإسناده عن إبراهيم بن عمر عمن حدثه عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال: صلاة المؤمن بالليل تذهب بما عمل من ذنب النهار.

• أقول: والحديث مروي في الكافي، وتفسير العياشي، وأمالي المفيد، وأمالي الشيخ

د. وفي المجمع: (عن الواحدي بإسناده عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان تحت شجرة فأخذ غصنا يابسا منها، فهزه حتى تحات ورقه ثم قال: يا أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله قال هكذا فعله رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة فأخذ منها غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقه، ثم قال: ألا تسألني يا سلمان لم أفعل هذا؟ قلت: ولم فعلته؟ قال: إن المسلم إذا توضأ، فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس، تحاتت خطاياه كما تحات هذا الورق، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ إلى آخرها.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن الطيالسي وأحمد والدارمي وابن جرير والطبراني والبغوي في معجمه، وابن مردويه غير مسلسل.

هـ. وفيه، عنه بإسناده عن الحارث عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد ننتظر الصلاة، فقام رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت ذنبا، فأعرض عنه فلما قضى النبي ﷺ الصلاة، قام الرجل فأعاد القول فقال النبي ﷺ: أليس قد صليت معنا هذه الصلاة وأحسنت لها الطهور؟ قال: بلى، قال: فإنها كفارة ذنبك.

• أقول: والرواية مروية بطرق كثيرة عن ابن مسعود وأبي أمامة ومعاذ بن جبل وابن عباس وبريدة وواثلة بن الأسقع وأنس وغيرهم وفي سرد القصة اختلاف ما في ألفاظهم، ورواه الترمذي وغيره عن أبي اليسر وهو صاحب القصة.

و. وفي تفسير العياشي، عن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أحدهما عليهماالسلام يقول: إن عليا عليه السلام أقبل على الناس فقال: أي آية في كتاب الله أرجى عندكم؟ فقال بعضهم: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ قال: حسنة وليست إياها، فقال بعضهم: ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ قال: حسنة وليست إياها، وقال بعضهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ قال: حسنة وليست إياها، قال: ثم أحجم الناس، فقال: ما لكم يا معشر المسلمين؟ قالوا: لا والله ما عندنا شيء، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: أرجى آية في كتاب الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ وقرأ الآية كلها، وقال: يا علي والذي بعثني بالحق بشيرا ونذيرا، إن أحدكم ليقوم إلى وضوئه فتساقط من جوارحه الذنوب، فإذا استقبل بوجهه وقلبه لم ينفتل عن صلاته وعليه من ذنوبه شيء، كما ولدته أمه فإذا أصاب شيئا بين الصلاتين كان له مثل ذلك، حتى عد الصلوات الخمس، ثم قال: يا علي إنما منزلة الصلوات الخمس لأمتي، كنهر جار على باب أحدكم، فما ظن أحدكم لو كان في جسده درن، ثم اغتسل في ذلك النهر خمس مرات في اليوم؟ أكان يبقى في جسده درن؟ فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتي.

• أقول: وقد روي المثل المذكور في آخر الحديث من طرق أهل السنة عن عدة من الصحابة كأبي هريرة وأنس وجابر وأبي سعيد الخدري عنه ﷺ.

ز. وفيه، عن إبراهيم الكرخي قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل عليه رجل من أهل المدينة، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: يا فلان من أين جئت؟ قال: ولم يقل في جوابه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: جئت من هنا وهاهنا، انظر بما تقطع به يومك، فإن معك ملكا موكلا يحفظ ويكتب ما تعمل، فلا تحتقر سيئة وإن كانت صغيرة فإنها ستسوؤك يوما، ولا تحتقر حسنة فإنه ليس شيء أشد طلبا من الحسنة، أنها تدرك الذنب العظيم القديم، فتحذفه وتسقطه وتذهب به بعدك، وذلك قول الله ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ﴾

ح. وفيه، عن سماعة بن مهران قال: سأل أبا عبد الله عليه السلام رجل من أهل الجبال، عن رجل أصاب مالا من أعمال السلطان، فهو يتصدق منه ويصل قرابته ويحج ليغفر له ما اكتسب، وهو يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن الخطيئة لا تكفر الخطيئة، ولكن الحسنة تكفر الخطيئة، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: إن خلط الحلال حراما، فاختلطا جميعا، فلم يعرف الحلال من الحرام فلا بأس.

ط. أخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيقوم فيتوضأ فيحسن الوضوء، ويصلي فيحسن الصلاة إلا غفرت له، ما بينها وبين الصلاة التي كانت قبلها من ذنوبه.

• أقول: والروايات في هذا الباب كثيرة من أراد استقصاءها فليراجع جوامع الحديث.

٥٥. الصبر والإحسان والأجر:

المقطع [٥٥] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٥٨»:

١. ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾:

أ. ثم أمره ﷺ بالصبر بعد ما أمره بالصلاة كما جمع بينهما في قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] وذلك أن كلا منهما في بابه من أعظم الأركان أعني الصلاة في العبادات، والصبر في الأخلاق وقد قال تعالى في الصلاة: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقال في الصبر: ﴿إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]

ب. واجتماعهما أحسن وسيلة يستعان بها على النوائب والمكاره فالصبر يحفظ النفس عن القلق والجزع والانهزام، والصلاة توجهها إلى ناحية الرب تعالى فتنسى ما تلقاه من المكاره، وقد تقدم بيان في ذلك في تفسير [الآية: ٤٥] من سورة البقرة في الجزء الأول من الكتاب.

ج. وإطلاق الأمر بالصبر يعطي أن المراد به الأعم من الصبر على العبادة والصبر عن المعصية والصبر عند النائبة، وعلى هذا يكون أمرا بالصبر على جميع ما تقدم من الأوامر والنواهي أعني قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ ﴿وَلا تَطْغَوْا﴾ ﴿وَلا تَرْكَنُوا﴾ ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾

د. لكن أفراد الأمر وتخصيصه بالنبي ﷺ يفيد أنه صبر في أمر يختص به وإلا قيل: و(اصبروا) جريا على السياق، وهذا يؤيد قول من قال: إن المراد اصبر على أذى قومك في طريق دعوتك إلى الله سبحانه وظلم الظالمين منهم، وأما قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ فإنه ليس أمرا بما يخصه ﷺ من الصلاة بل أمر بإقامته الصلاة بمن تبعه من المؤمنين جماعة فهو أمر لهم جميعا بالصلاة فافهم ذلك.

٢. ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالصبر.

٥٦. القرون والفساد والإصلاح:

المقطع [٥٦] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٥٩»:

١. ﴿فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ﴾ لولا بمعنى هلا وإلا يفيد التعجيب والتوبيخ، والمعنى هلا كان من القرون التي كانت من قبلكم وقد أفنيناها بالعذاب والهلاك أولوا بقية أي قوم باقون ينهون عن الفساد في الأرض ليصلحوا بذلك فيها ويحفظوا أمتهم من الاستئصال.

٢. ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ﴾ استثناء من معنى النفي في الجملة السابقة فإن المعنى: من العجب أنه لم يكن من القرون الماضية مع ما رأوا من آيات الله وشاهدوا من عذابه بقايا ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا من العذاب والهلاك منهم فإنهم كانوا ينهون عن الفساد.

٣. ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ﴾ بيان حال الباقي منهم بعد الاستثناء وهم

أكثرهم وعرفهم بأنهم الذين ظلموا وبين أنهم اتبعوا لذائذ الدنيا التي أترفوا فيها وكانوا مجرمين.

٤. وقد تحصل بهذا الاستثناء وهذا الباقي الذي ذكر حالهم تقسيم الناس إلى صنفين مختلفين: الناجون بإنجاء الله والمجرمون ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾

٥٧. الإهلاك والإصلاح والاختلاف:

المقطع [٥٧] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٧ـ١١٩)﴾ [هود: ١١٧ـ١١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٦٠»:

١. ﴿وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ﴾ أي لم يكن من سنته تعالى إهلاك القرى التي أهلها مصلحون لأن ذلك ظلم ولا يظلم ربك أحدا فقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ قيد توضيحي لا احترازي، ويفيد أن سنته تعالى عدم إهلاك القرى المصلحة لكونه من الظلم ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

٢. ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾:

أ. الخلف خلاف القدام وهو الأصل فيما اشتق من هذه المادة من المشتقات يقال: خلف أباه أي سد مسده لوقوعه بعده، وأخلف وعده أي لم يف به كأنه جعله خلفه، ومات وخلف ابنا أي تركه خلفه، واستخلف فلانا أي طلب منه أن ينوب عنه بعد غيبته أو موته أو بنوع من العناية كاستخلاف الله تعالى آدم وذريته في الأرض، وخالف فلان فلانا وتخالفا إذا تفرقا في رأي أو عمل كأن كلا منهما يجعل الآخر خلفه، وتخلف عن أمره إذا أدبر ولم يأتمر به، واختلف القوم في كذا إذا خالف بعضهم بعضا فيه فجعله خلفه، واختلف القوم إلى فلان إذا دخلوا عليه واحدا بعد واحد، واختلف فلان إلى فلان إذا دخل عليه مرات كل واحدة بعد أخرى.

ب. ثم الاختلاف ويقابله الاتفاق من الأمور التي لا يرتضيها الطبع السليم لما فيه من تشتيت القوى وتضعيفها وآثار أخرى غير محمودة من نزاع ومشاجرة وجدال وقتال وشقاق كل ذلك يذهب

بالأمن والسلام غير أن نوعا منه لا مناص منه في العالم الإنساني وهو الاختلاف من حيث الطبائع المنتهية إلى اختلاف البنى فإن التركيبات البدنية مختلفة في الأفراد وهو يؤدي إلى اختلاف الاستعدادات البدنية والروحية وبانضمام اختلاف الأجواء والظروف إلى ذلك يظهر اختلاف السلائق والسنن والآداب والمقاصد والأعمال النوعية والشخصية في المجتمعات الإنسانية، وقد أوضحت الأبحاث الاجتماعية أن لولا ذلك لم يعش المجتمع الإنساني ولا طرفة عين.

ج. وقد ذكره الله تعالى في كتابه ونسبه إلى نفسه حيث قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، ولم يذمه تعالى في شيء من كلامه إلا إذا صحب هوى النفس وخالف هدى العقل، وليس منه الاختلاف في الدين فإن الله سبحانه يذكر أنه فطر الناس على معرفته وتوحيده وسوى نفس الإنسان فألهمها فجورها وتقواها، وأن الدين الحنيف هو من الفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ولذلك نسب الاختلاف في الدين في مواضع من كلامه إلى بغي المختلفين فيه وظلمهم ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾

د. وقد جمع الله الاختلافين في قوله: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، وهذا هو الاختلاف الأول في الحياة والمعيشة، وما اختلف فيه، وهذا هو الاختلاف الثاني في الدين، ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] فهذا ما يعطيه كلامه تعالى في معنى الاختلاف.

هـ. والذي ذكره بقوله: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً﴾ يريد به رفع الاختلاف من بينهم وتوحيدهم على كلمة واحدة يتفقون فيه، ومن المعلوم أنه ناظر إلى ما ذكره تعالى في الآيات السابقة على هذه الآية من اختلافهم في أمر الدين وانقسامهم إلى طائفة أنجاهم الله وهم قليل وطائفة أخرى وهم الذين ظلموا.

و. فالمعنى أنهم وإن اختلفوا في الدين فإنهم لم يعجزوا الله بذلك ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة لا يختلفون في الدين فهو نظير قوله: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩] وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [الرعد: ٣١]

٣. وعلى هذا فقوله: ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ إنما يعني به الاختلاف في الدين فحسب فإن ذلك هو الذي يذكر لنا أن لو شاء لرفعه من بينهم، والكلام في تقدير: لو شاء الله لرفع الاختلاف من بينهم لكنه لم يشأ ذلك فهم مختلفون دائما.

٤. على أن قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ يصرح أنه رفعه عن طائفة رحمهم، والاختلاف في غير الدين لم يرفعه الله تعالى حتى عن الطائفة المرحومة، وإنما رفع عنهم الاختلاف الديني الذي يذمه وينسبه إلى البغي بعد العلم بالحق.

٥. ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ استثناء من قوله: ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي الناس يخالف بعضهم بعضا في الحق أبدا إلا الذين رحمهم الله فإنهم لا يختلفون في الحق ولا يتفرقون عنه، والرحمة هي الهداية الإلهية كما يفيده قوله: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]

٦. سؤال وإشكال: فإن قلت: معنى اختلاف الناس أن يقابل بعضهم بعضا بالنفي والإثبات فيصير معنى قوله: ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أنهم منقسمون دائما إلى محق ومبطل، ولا يصح حينئذ ورود الاستثناء عليه إلا بحسب الأزمان دون الأفراد وذلك أن انضمام قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ إليه يئول المعنى إلى مثل قولنا: إنهم منقسمون دائما إلى مبطلين ومحقين إلا من رحم ربك منهم فإنهم لا ينقسمون إلى قسمين، بل يكونون محقين فقط، ومن المعلوم أن المستثنين منهم هم المحقون فيرجع معنى الكلام إلى مثل قولنا: إن منهم مبطلين ومحقين والمحقون محقون لا مبطل فيهم، وهذا كلام لا فائدة فيه، على أنه لا معنى لاستثناء المحقين من حكم الاختلاف أصلا وهم من الناس المختلفين، والاختلاف قائم بهم وبالمبطلين معا، والجواب:

أ. الاختلاف المذكور في هذه الآية وسائر الآيات المتعرضة له الذامة لأهله إنما هو الاختلاف في الحق ومخالفة البعض للبعض في الحق وإن كانت توجب كون بعض منهم على الحق وعلى بصيرة من الأمر لكنه إذا نسب إلى المجموع وهو المجتمع كان لازمه ارتياب المجتمع وتفرقهم عن الحق وعدم اجتماعهم عليه وتركهم إياه بحياله، ومقتضاه اختفاء الحق عنهم وارتيابهم فيه.

ب. والله سبحانه إنما يذم الاختلاف من جهة لازمة هذا وهو التفرق والإعراض عن الحق والآيات تشهد بذلك فإنه تعالى يذم فيها جميع المختلفين باختلافهم لا المبطلين من بينهم فلو لا أن المراد

بالمختلفين أهل الآراء أو الأعمال المختلفة التي تفرقهم عن الحق لم يصح ذلك.

ج. ومن أحسن ما يؤيده قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] حيث عبر عن الاختلاف بالتفرق، وكذا قوله: ﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وهذا أوضح دلالة من سابقه فإنه يجعل أهل الحق الملازمين لسبيله خارجا من أهل التفرق والاختلاف.

د. ولذلك ترى أنه سبحانه في غالب ما يذكر اختلافهم في الكتاب يردفه بارتيابهم فيه كقوله فيما مرت من الآيات: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [آية: ١١٠] من السورة وقد كرر هذا المعنى في مواضع من كلامه، وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٣] أي يأتي فيه كل بقول يبعدهم من الحق فيتفرقون وقال: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠] أي قول لا يقف على وجه ولا يبتني على علم بل الخرص والظن هو الذي أوجده فيكم، وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١] فإن هذا اللبس المذموم منهم إنما كان بإظهار قول يشبه الحق وليس به وهو إلقاء التفرق الذي يختفي به الحق، فالمراد باختلافهم إيجادهم أقوالا وآراء يتفرقون بها عن الحق ويظهر بها الريب فهم لاتباعهم أهواءهم المخالفة للحق يظهرون آراءهم الباطلة في صور متفرقة تضاهي صورة الحق ليحجبوه عن أفهام الناس بغيا وعدوانا بعد علمهم بالحق فهو اختلافهم في الحق بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم.

٧. ويتبين بما تقدم على طوله أن الإشارة بقوله: ﴿وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إلى الرحمة المدلول عليه بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ والتأنيث اللفظي في لفظ الرحمة لا ينافي تذكير اسم الإشارة لأن المصدر جائز الوجهين، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] وذلك لأنك عرفت أن هذا الاختلاف بغي منهم يفرقهم عن الحق ويستره ويظهر الباطل ولا يجوز كون الباطل غاية حقيقية للحق تعالى في خلقه، ولا معنى لأن يوجد الله سبحانه العالم الإنساني ليبغوا ويميتوا الحق ويحيوا الباطل فيهلكهم ثم يعذبهم بنار خالدة، فالقرآن الكريم يدفع هذا بجميع بياناته.

٨. على أن سياق الآيات، مع الغض عما ذكر، يدفع ذلك فإنها في مقام بيان أن الله تعالى يدعو الناس برأفته ورحمته إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم من غير أن يريد بهم ظلما ولا شرا، ولكنهم بظلمهم واختلافهم في الحق يستنكفون عن دعوته، ويكذبون بآياته، ويعبدون غيره، ويفسدون في الأرض فيستحقون العذاب، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، ولا أن يخلقهم ليبغوا ويفسدوا فيهلكهم فالذي منه هو الرحمة والهداية، والذي من بغيهم واختلافهم وظلمهم يرجع إليهم أنفسهم، وهذا هو الذي يعطيه سياق الآيات.

٩. وكون الرحمة أعني الهداية غاية مقصودة في الخلقة إنما هو لاتصالها بما هو الغاية الأخيرة وهو السعادة كما في قوله حكاية عن أهل الجنة: ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدانا لِهذا﴾ [الأعراف: ٤٣] وهذا نظير عد العبادة غاية لها لاتصالها بالسعادة في قوله: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]

١٠. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾:

أ. أي حقت كلمته تعالى وأخذت مصداقها منهم بما ظلموا واختلفوا في الحق من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، والكلمة هي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾

ب. والآية نظيره قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: [السجدة: ١٣] والأصل في هذه الكلمة ما ألقاه الله تعالى إلى إبليس لعنه الله إذ قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾:، [ص: ٨٥] والآيات متحدة المضمون يفسر بعضها بعضا.

١١. هذه جملة ما يعطيه التدبر في معنى الآيتين وقد تلخص بذلك:

أ. أولا: أن المراد بقوله: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً﴾ توحيدهم برفع التفرق والخلاف من بينهم وقيل: إن المراد هو الإلجاء إلى الإسلام ورفع الاختيار لكنه ينافي التكليف ولذلك لم يفعل ونسب إلى قتادة، وقيل: المعنى لو شاء لجمعكم في الجنة لكنه أراد بكم أعلى الدرجتين لتدخلوه بالاكتساب ثوابا لأعمالكم، ونسب إلى أبي مسلم، وأنت خبير بأن سياق الآيات لا يساعد على شيء من المعنيين.

ب. وثانيا: أن المراد بقوله: ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ دوامهم على الاختلاف في الدين ومعناه التفرق عن الحق وستره بتصويره في صور متفرقة باطلة تشبه الحق، وقال بعضهم: هو الاختلاف في الأرزاق والأحوال وبالجملة الاختلاف غير الديني ونسب إلى الحسن، وقد عرفت أنه أجنبي من سياق الآيات السابقة، وقال آخرون: إن معنى ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ يخلف بعضهم بعضا في تقليد أسلافهم وتعاطي باطلهم، وهو كسابقه أجنبي من مساق الآيات وفيها قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ الآية.

ج. وثالثا: أن المراد بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ إلا من هداه الله من المؤمنين.

د. ورابعا: أن الإشارة بقوله: ﴿وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إلى الرحمة وهي الغاية التي أرادها الله من خلقه ليسعدوا بذلك سعادتهم، وذكر بعضهم، أن المعنى خلقهم للاختلاف ونسب إلى الحسن وعطاء، وقد عرفت أنه سخيف ردي جدا نعم لو جاز عود ضمير (خلقهم) إلى الباقي من الناس بعد الاستثناء جاز عد الاختلاف غاية لخلقهم وكانت الآية قريبة المضمون من قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾: الآية [الأعراف: ١٧٩]، وذكر آخرون: أن الإشارة إلى مجموع ما يدل عليه الكلام من مشيته تعالى في خلقهم مستعدين للاختلاف والتفرق في علومهم ومعارفهم وآرائهم وشعورهم وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم في أعمالهم ومن ذلك الدين والإيمان والطاعة والعصيان، وبالجملة الغاية هو مطلق الاختلاف أعم مما في الدين أو في غيره، ونسب إلى ابن عباس بناء على ما روي عنه أنه قال: خلقهم فريقين فريقا يرحم فلا يختلف، وفريقا لا يرحم فيختلف، وإلى مالك بن أنس إذ قال في معنى الآية: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير، وقد عرفت ما فيه من وجوه السخافة فلا نطيل بالإعادة.

هـ. وخامسا: أن المراد بتمام الكلمة هو تحققها وأخذها مصداقها.

١٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جرير قال: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عن تفسير هذه الآية: ﴿وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: وأهلها ينصف بعضهم بعضا.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ فقال: كانوا أمة

واحدة، فبعث الله النبيين ليتخذ عليهم الحجة.

• أقول: ورواه الصدوق في المعاني، عنه عليه السلام مثله.

ج. وفي المعاني، بإسناده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: خلقهم ليأمرهم بالعبادة، قال: وسألته عن قوله عز وجل: ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون به رحمته فيرحمهم.

د. وفي تفسير القمي، عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ يعني آل محمد وأتباعهم يقول الله: ﴿وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعني أهل الرحمة لا يختلفون في الدين.

هـ. وفي تفسير العياشي، عن يعقوب بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: خلقهم للعبادة، قال: قلت: قوله: ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: نزلت هذه بعد تلك.

• أقول: يشير إلى كون الآية الثانية أعني قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ لكونها خاصة ناسخة للآية الأولى العامة، وقد تقدم في الكلام على النسخ أنه في عرفهم عليه السلام أعم مما اصطلح عليه علماء الأصول، والآيات الخاصة التكوينية ظاهرة في حكمها على الآيات العامة فإن العوامل والأسباب الخاصة أنفذ حكما من العامة فافهمه.

٥٨. قصص الأنبياء تثبيت للفؤاد وموعظة للمؤمنين:

المقطع [٥٨] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٧٠»:

١. ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ﴾ إلى آخر الآية، أي وكل القصص نقص عليك تفصيلا أو إجمالا، وقوله: ﴿مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ﴾ بيان لما أضيف إليه كل، وقوله: ﴿ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ﴾ عطف بيان للأنباء أشير به إلى فائدة القصص بالنسبة إليه ﷺ وهو تثبيت فؤاده وحسم مادة القلق

والاضطراب منه، والمعنى نقص عليك أنباء الرسل لنثبت به فؤادك ونربط جأشك في ما أنت عليه من سلوك سبيل الدعوة إلى الحق، والنهضة على قطع منابت الفساد، والمحنة من أذى قومك.

٢. ثم ذكر تعالى من فائدة السورة ما يعمه ﷺ وقومه مؤمنين وكافرين فقال فيما يرجع إلى النبي ﷺ من فائدة نزول السورة: ﴿وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ﴾ والإشارة إلى السورة أو إلى الآيات النازلة فيها أو الإنباء على وجه، ومجيء الحق فيها هو ما بين الله تعالى في ضمن القصص وقبلها وبعدها من حقائق المعارف في المبدأ والمعاد وسنته تعالى الجارية في خلقه بإرسال الرسل ونشر الدعوة ثم إسعاد المؤمنين في الدنيا بالنجاة، وفي الآخرة بالجنة، وإشقاء الظالمين بالأخذ في الدنيا والعذاب الخالد في الآخرة.

٣. وقال فيما يرجع إلى المؤمنين: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن فيما ذكر فيها من حقائق المعارف تذكرة للمؤمنين يذكرون بها ما نسبوه من علوم الفطرة في المبدأ والمعاد وما يرتبط بهما، وفيما ذكر فيها من القصص والعبر موعظة يتعظون بها.

٥٩. الأعمال والانتظار والجزاء:

المقطع [٥٩] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢١-١٢٢)﴾ [هود: ١٢١-١٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٧١»:

١. ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ وهذا فيما يرجع إلى غير المؤمنين يأمر نبيه ﷺ أن يختم الحجاج معهم ويقطع خصامهم بعد ما تلا القصص عليهم بهذه الجمل فيقول لهم: أما إذا لم تؤمنوا ولم تنقطعوا عن الشرك والفساد بما ألقيت إليكم من التذكرة والعبر ولم تصدقوا بما قصه الله من أنباء الأمم وأخبر به من سنته الجارية فيهم فاعملوا على ما أنتم عليه من المكانة والمنزلة، وبما تحسبونه خيرا لكم إنا عاملون، وانتظروا ما سيستقبلكم من عاقبة عملكم إنا منتظرون فسوف تعرفون صدق النبإ الإلهي وكذبه.

٢. وهذا قطع للخصام ونوع تهديد أورده الله في القصص الماضية قصة نوح وهود وصالح عليه السلام، وفي قصة شعيب عليه السلام حاكيا عنه: ﴿وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾

٦٠. لله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله:

المقطع [٦٠] من سورة هود، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٧٢»:

١. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾:

أ. لما كان أمره تعالى نبيه ﷺ أن يأمرهم بالعمل بما تهوى أنفسهم والانتظار، وإخبارهم بأنه ومن آمن معه عاملون ومنتظرون، في معنى أمره ومن تبعه بالعمل والانتظار عقبه بهاتين الجملتين ليكون على طيب من النفس وثبات من القلب من أن الدائرة ستكون له عليهم.

ب. والمعنى فاعمل وانتظر أنت ومن تبعك فغيب السماوات والأرض الذي يتضمن عاقبة أمرك وأمرهم إنما يملكه ربك الذي هو الله سبحانه دون آلهتهم التي يشركون بها ودون الأسباب التي يتوكلون عليها حتى يديروا الدائرة لأنفسهم ويحولوا العاقبة إلى ما ينفعهم، وإلى ربك الذي هو الله يرجع الأمر كله فيظهر من غيبه عاقبة الأمر على ما شاءه وأخبر به، فالدائرة لك عليهم، وهذا من عجيب البيان.

ج. ومن هنا يظهر وجه تبديل قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ المكرر في هذه الآيات بلفظ الجلالة (الله) لأن فيه من الإشعار بالإحاطة بكل ما دق وجل ما ليس في غيره، والمقام يقتضي الاعتماد والالتجاء إلى ملجإ لا يقهره قاهر ولا يغلب عليه غالب، وهو الله سبحانه ولذلك ترى أنه يعود بعد انقضاء هذه الجمل إلى ما كان يكرره من صفة الرب، وهو قوله: ﴿وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

٢. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ الظاهر أنه تفريع لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أي إذا كان الأمر كله مرجوعا إليه تعالى فلا يملك غيره شيئا ولا يستقل بشيء فاعبده سبحانه واتخذه وكيلا في جميع الأمور ولا تتوكل على شيء من الأسباب دونه لأنها أسباب بتسبيبه غير مستقلة دونه، فمن الجهل الاعتماد على شيء منها، وما ربك بغافل عما تعملون فلا يجوز التساهل في عبادته والتوكل عليه.

سورة يوسف

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٤٣] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة بيان ولاية الله لعبده الذي أخلص إيمانه له تعالى إخلاصاً وامتلأ بمحبته تعالى، لا يبتغي له بدلاً ولم يلو إلى غيره تعالى من شيء، وأن الله تعالى يتولى هو أمره فيربيه أحسن تربية، فيورده مورد القرب ويسقيه فيرويه من مشرعه الزلفى، فيخلصه لنفسه ويحييه حياة إلهية وإن كانت الأسباب الظاهرة أجمعت على هلاكه، ويرفعه وإن توفرت الحوادث على ضعته، ويعزه وإن دعت النوائب ورزايا الدهر إلى ذلته وحط قدره.

ب. وقد بين تعالى ذلك بسرد قصة يوسف الصديق عليه السلام، ولم يرد في سور القرآن الكريم تفصيل قصة من القصص باستقصائها من أولها إلى آخرها غير قصته عليه السلام، وقد خصت السورة بها من غير شركة ما من غيرها.

ج. فقد كان عليه السلام عبداً مخلصاً في عبوديته، فأخلصه الله لنفسه وأعزه بعزته، وقد تجمعت الأسباب على إذلاله وضعته، فكلما ألقته في إحدى المهالك أحياه الله تعالى من نفس السبيل التي كانت تسوقه إلى الهلاك:

- حسده إخوته فألقوه في غيابة الجب، ثم شروه بثمن بخس دراهم معدودة، فذهب به ذلك إلى مصر وأدخله في بيت الملك والعزة.
- راودته التي هو في بيتها عن نفسه واتهمته عند العزيز، ولم تلبث دون أن اعترفت عند النسوة ببراءته، ثم اتهمته وأدخلته السجن، فكان ذلك سبب قربه عند الملك.
- وكان قميصه الملطخ بالدم الذي جاءوا به إلى أبيه يعقوب أول يوم هو السبب الوحيد في ذهاب بصره، فصار قميصه بعينه وقد أرسله بيد إخوته من مصر إلى أبيه آخر يوم هو السبب في عود بصره إليه، وعلى هذا القياس.

د. وبالجملة كلما نازعه شيء من الأسباب المخالفة أو اعترضه في طريق كماله، جعل الله تعالى ذلك

هو السبب في رشد أمره ونجاح طلبته، ولم يزل سبحانه يحوله من حال إلى حال حتى آتاه الحكم والملك واجتباه وعلمه من تأويل الأحاديث وأتم نعمته عليه كما وعده أبوه.

هـ. وقد بدأ الله سبحانه قصته بذكر رؤيا رآها في بادئ الأمر وهو صبي في حجر أبيه، والرؤيا من المبشرات، ثم حقق بشارته وأتم كلمته فيه بما خصه به من التربية الإلهية، وهذا هو شأنه تعالى في أوليائه، كما قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللهِ، ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤]

و. وفي قوله تعالى بعد ذكر رؤيا يوسف وتعبير أبيه عليه السلام لها: ﴿لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ إشعار بأنه كان هناك قوم سألوا النبي ﷺ عما يرجع إلى هذه القصة، وهو يؤيد ما ورد أن قوماً من اليهود بعثوا مشركي مكة أن يسألوا النبي ﷺ عن سبب انتقال بني إسرائيل إلى مصر، وقد كان يعقوب عليه السلام ساكناً في أرض الشام فنزلت السورة.

ز. وعلى هذا فالغرض بيان قصته عليه السلام وقصة آل يعقوب، وقد استخرج تعالى ببيانه ما هو الغرض العالي منها وهو طور ولاية الله لعباده المخلصين، كما هو اللائح من مفتتح السورة ومختتمها.

ح. والسورة مكية على ما يدل عليه سياق آياتها، وما ورد في بعض الروايات عن ابن عباس أن أربعاً من آياتها مدنية، وهي الآيات الثلاث التي في أولها، وقوله: ﴿لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ مدفوع بما تشتمل عليه من السياق الواحد.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٣] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن القرآن كتاب مبين، وأنه عربي لعلهم يعقلون، وتشير إلى أن الله يقص على النبي أحسن القصص بوحيه إليه.

٢. الآيات [٤ ـ ٦] تذكر الآيات رؤيا رآها يوسف وقصها على أبيه يعقوب عليه السلام، فعبرها أبوه له ونهاه أن يقصها على إخوته، وهذه الرؤيا بشرى بشر الله سبحانه يوسف بها ليكون مادة روحية لتربيته تعالى عبده في صراط الولاية والقرب من ربه، وهي بمنزلة المدخل في قصته عليه السلام.

٣. الآيات [٧ ـ ٢١]:

أ. شروع في القصة بعد ذكر البشارة التي هي كالمقدمة الملوحة إلى إجمال الغاية التي تنتهي إليها

القصة.

ب. والآيات تتضمن الفصل الأول من فصول القصة، وفيه مفارقة يوسف ليعقوب عليه السلام وخروجه من بيت أبيه إلى استقراره في بيت العزيز بمصر، وقد حدث خلال هذه الأحوال أن ألقاه إخوته في البئر، وأخرجته السيارة منها، وباعه إخوته من السيارة، وهم حملوه إلى مصر وباعوه من العزيز فبقي عنده.

٤. الآيات [٢٢ ـ ٣٤]:

أ. تتضمن الآيات قصته عليه السلام أيام لبثه في بيت العزيز، وقد ابتلي فيها بحب امرأة العزيز له ومراودتها إياه عن نفسه، ومني بتعلق نساء المدينة به ومراودتهن إياه عن نفسه، وكان ذلك بلوى.

ب. وقد ظهر خلال ذلك من عفة نفسه وطهارة ذيله أمر عجيب، ومن توله في محبة ربه ما هو أعجب.

٥. الآيات [٣٥ ـ ٤٢]:

أ. تتضمن الآيات شطراً من قصته عليه السلام وهو دخوله السجن ومكثه فيه بضع سنين، وهو مقدمة تقربه التام عند الملك ونيله عزة مصر.

ب. وفيه دعوته في السجن إلى دين التوحيد، وقد جاء ببيان عجيب، وإظهاره لأول مرة أنه من أسرة إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

٦. الآيات [٤٣ ـ ٥٧] تتضمن الآيات قصة خروجه عليه السلام من السجن ونيله عزة مصر والأسباب المؤدية إلى ذلك، وفيها تحقيق الملك ثانياً في اتهامه وظهور براءته التام.

٧. الآيات [٥٨ ـ ٦٢]:

أ. فصل آخر مختار من قصة يوسف عليه السلام، يذكر الله تعالى فيه مجيء إخوته إليه في خلال سني الجدب لاشتراء الطعام لبيت يعقوب، وكان ذلك مقدمة لضم يوسف عليه السلام أخاه من أمه ـ وهو المحسود المذكور في قوله تعالى حكاية عن الإخوة ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ ـ إليه، ثم تعريفهم نفسه ونقل بيت يعقوب عليه السلام من البدو إلى مصر.

ب. وإنما لم يعرفهم نفسه ابتداء لأنه أراد أن يلحق أخاه من أمه إلى نفسه، ويرى إخوته من أبيه عند

تعريفهم نفسه صنع الله بهما ومن الله عليهما أثر تقواهما وصبرهما على ما آذوهما عن الحسد والبغي، ثم يشخصهم جميعاً.

ج. والآيات الخمس تتضمن قصة دخولهم مصر واقتراحه أن يأتوا بأخيهم من أبيهم إليه إن عادوا إلى اشتراء الطعام والميرة، وتقبلهم ذلك.

٨. الآيات [٦٣ ـ ٨٢] الآيات تقتص رجوع إخوة يوسف عليه السلام من عنده إلى أبيهم، وإرضاءهم أباهم أن يرسل معهم أخا يوسف من أمه للاكتيال، ثم مجيئهم ثانياً إلى يوسف وأخذ يوسف أخاه إليه عن حيلة احتالها لذلك.

٩. الآيات [٨٣ـ ٩٢] الآيات تتضمن محاورة يعقوب بنيه بعد رجوعهم ثانياً من مصر، وإخبارهم إياه خبر أخي يوسف وأمره برجوعهم ثالثاً إلى مصر وتحسسهم من يوسف وأخيه، إلى أن عرفهم يوسف عليه السلام نفسه.

١٠. الآيات [٩٣ ـ ١٠٢] ختام قصة يوسف عليه السلام، وتتضمن الآيات أمر يوسف إخوته بحمل قميصه إلى أبيه وإتيانهم إليه بأهلهم أجمعين، ثم دخولهم مصر ولقاؤه أبويه.

١١. الآيات [١٠٣ـ ١١١]:

أ. الآيات خاتمة السورة يذكر فيها أن الإيمان الكامل وهو التوحيد الخالص عزيز المنال، لا يناله إلا أقل قليل من الناس، وأما الأكثرون فليسوا بمؤمنين ولو حرصت بإيمانهم واجتهدت في ذلك جهدك.

ب. والأقلون وهم المؤمنون ما لهم إلا إيمان مشوب بالشرك، فلا يبقى للإيمان المحض والتوحيد الخالص إلا أقل قليل.

ج. وهذا التوحيد الخالص هو سبيل النبي ﷺ الذي يدعو إليه على بصيرة هو ومن اتبعه، وأن الله ناصره ومنجي من اتبعه من المؤمنين من المهالك التي تهدد توحيدهم وإيمانهم، وعذاب الاستئصال الذي سيصيب المشركين، كما كان ذلك عادة الله في أنبيائه الماضين كما يظهر من قصصهم.

د. وفي قصصهم عبرة وبيان للحقائق وهدى ورحمة للمؤمنين.

١. القرآن والعربية والقصص:

المقطع [١] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا

أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٧٣»:

١. ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾:

أ. الإشارة بلفظ البعيد للتعظيم والتفخيم، والظاهر أن يكون المراد بالكتاب المبين هذا القرآن المتلو وهو مبين واضح في نفسه ومبين موضح لغيره ما ضمنه الله تعالى من المعارف الإلهية وحقائق المبدأ والمعاد.

ب. وقد وصف الكتاب في الآية بالمبين لا كما في قوله في أول سورة يونس: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ لكون هذه السورة نازلة في شأن قصة آل يعقوب وبيانها، ومن المحتمل أن يكون المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ.

٢. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

أ. الضمير للكتاب بما أنه مشتمل على الآيات الإلهية والمعارف الحقيقية، وإنزاله قرآنا عربيا هو إلباسه في مرحلة الإنزال لباس القراءة والعربية، وجعله لفظا متلوا مطابقا لما يتداوله العرب من اللغة كما قال تعالى في موضع آخر ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]

ب. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ من قبيل توسعة الخطاب وتعميمه فإن السورة مفتتحة بخطاب النبي ﷺ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، وعلى ذلك يجري بعد كما في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إلخ.

٣. فمعنى الآية، والله أعلم:

أ. أنا جعلنا هذا الكتاب المشتمل على الآيات في مرحلة النزول ملبسا بلباس اللفظ العربي محلى بحليته ليقع في معرض التعقل منك ومن قومك أو أمتك، ولو لم يقلب في وحيه في قالب اللفظ المقرو أو لم يجعل عربيا مبينا لم يعقل قومك ما فيه من أسرار الآيات بل اختص فهمه بك لاختصاصك بوحيه وتعليمه.

ب. وفي ذلك دلالة ما على أن لألفاظ الكتاب العزيز من جهة تعينها بالاستناد إلى الوحي وكونها عربية دخلا في ضبط أسرار الآيات وحقائق المعارف، ولو أنه أوحى إلى النبي ﷺ بمعناه وكان اللفظ الحاكي

له لفظه ﷺ كما في الأحاديث القدسية مثلا أو ترجم إلى لغة أخرى خفي بعض أسرار آياته البينات عن عقول الناس ولم تنله أيدي تعقلهم وفهمهم.

ج. وعنايته تعالى فيما أوحى من كتابه باللفظ مما لا يرتاب فيه المتدبر في كلامه كيف؟ وقد قسمه إلى المحكمات والمتشابهات وجعل المحكمات أم الكتاب ترجع إليها المتشابهات قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] وقال تعالى أيضا: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]

٤. ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (القص تتبع الأثر يقال: قصصت أثره، والقصص الأثر قال: فارتدا على آثارهما قصصا، وقالت لأخته قصيه، قال: والقصص الأخبار المتتبعة قال تعالى: ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾، ﴿فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾، ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾) فالقصص هو القصة وأحسن القصص أحسن القصة والحديث، وربما قيل: إنه مصدر بمعنى الاقتصاص:

- فإن كان اسم مصدر فقصة يوسف عليه السلام أحسن قصة لأنها تصف إخلاص التوحيد في العبودية، وتمثل ولاية الله سبحانه لعبده وأنه يربيه بسلوكه في صراط الحب ورفعه من حضيض الذلة إلى أوج العزة، وأخذه من غيابة جب الإسارة ومربط الرقية وسجن النكال والنقمة إلى عرش العزة وسرير الملك.

- وإن كان مصدرا فالاقتصاص عن قصته بالطريق الذي اقتص سبحانه به أحسن الاقتصاص لأنه اقتصاص لقصة الحب والغرام بأعف ما يكون وأستر ما يمكن.

ب. والمعنى، والله أعلم، نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب وحينا هذا القرآن إليك وأنك كنت قبل اقتصاصنا عليك هذه القصة من الغافلين عنها.

٢. رؤيا يوسف:

المقطع [٢] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي

رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٧٧»:

١. ﴿إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾:

أ. لم يذكر يعقوب عليه السلام باسمه بل كنى عنه بالأب للدلالة على ما بينهما من صفة الرحمة والرأفة والشفقة كما يدل عليه ما في الآية التالية: ﴿قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ﴾ إلخ.

ب. ﴿رَأَيْتُ﴾ و﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ من الرؤيا وهي ما يشاهده النائم في نومته أو الذي خمدت حواسه الظاهرة بإغماء أو ما يشابهه، ويشهد به قوله في الآية التالية: ﴿لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ﴾ وقوله في آخر القصة: ﴿يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ﴾

ج. وتكرار ذكر الرؤية لطول الفصل بين قوله: ﴿رَأَيْتُ﴾ وقوله: ﴿لِي ساجِدِينَ﴾ ومن فائدة التكرير الدلالة على أنه إنما رآهم مجتمعين على السجود جميعا لا فرادى، على أن ما حصل له من المشاهدة نوعان مختلفان فمشاهدة أشخاص الكواكب والشمس والقمر مشاهدة أمر صوري ومشاهدة سجدتهم وخضوعهم وتعظيمهم له مشاهدة أمر معنوي.

د. وقد عبر عن الكواكب والنيرين في قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ بما يختص بأولى العقل، ضمير الجمع المذكر وجمع المذكر السالم، للدلالة على أن سجدتهم كانت عن علم وإرادة كما يسجد واحد من العقلاء لآخر.

٢. وقد افتتح سبحانه قصته عليه السلام بذكر هذه الرؤيا التي أراها له وهي بشرى له تمثل له ما سيناله من الولاية الإلهية ويخص به من اجتباء الله إياه وتعليمه تأويل الأحاديث وإتمام نعمته عليه، ومن هناك تبتدئ التربية الإلهية له لأن الذي بشر به في رؤياه لا يزال نصب عينيه في الحياة لا يتحول من حال إلى حال، ولا ينتقل من شأن إلى شأن، ولا يواجه نائبة، ولا يلقى مصيبة، إلا وهو ذاكر لها مستظهر بعناية الله سبحانه عليها موطن نفسه على الصبر عليها.

٣. وهذه هي الحكمة في أن الله سبحانه يخص أولياءه بالبشرى بجمل ما سيكرمهم به من مقام القرب ومنزلة الزلفى كما في قوله: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿لَهُمُ

الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: تأويل هذه الرؤيا أنه سيملك مصر، ويدخل عليه أبواه وإخوته، فأما الشمس فأم يوسف راحيل، والقمر يعقوب، وأما أحد عشر كوكبا فإخوته، فلما دخلوا عليه سجدوا شكرا لله وحده حين نظروا إليه، وكان ذلك السجود لله.

ب. أخرج ابن المنذر عن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾ قال: إخوته (والشمس) قال: أمه (والقمر) قال: أبوه، ولأمه راحيل ثلث الحسن.

• أقول: والروايتان، كما ترى، تفسران الشمس بأمه والقمر بأبيه ولا تخلوان من ضعف، وربما روي أن التي دخلت عليه بمصر هي خالته دون أمه فقد ماتت أمه قبل ذلك، وكذلك وردت في التوراة.

٣. يعقوب يحذّر يوسف من إخوته ويبشره بالاجتباء:

المقطع [٣] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٥-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٧٨»:

١. ﴿قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾:

أ. ذكر في المفردات: (أن الكيد ضرب من الاحتيال، وقد يكون مذموما وممدوحا وإن كان يستعمل في المذموم أكثر وكذلك الاستدراج والمكر)، وقد ذكروا أن الكيد يتعدى بنفسه وباللام.

ب. والآية تدل على أن يعقوب لما سمع ما قصة عليه يوسف من الرؤيا أيقن بما يدل عليه أن يوسف عليه السلام سيتولى الله أمره ويرفع قدره، يسنده على أريكة الملك وعرش العزة، ويخصه من بين آل يعقوب بمزيد الكرامة فأشفق على يوسف عليه السلام وخاف من إخوته عليه وهم عصبة أقوياء أن لو سمعوا الرؤيا، وهي ظاهرة الانطباق على يعقوب عليه السلام وزوجه وأحد عشر من ولده غير يوسف، وظاهرة الدلالة على أنهم جميعا سيخضعون ويسجدون ليوسف، حملهم الكبر والأنفة أن يحسدوه

فيكيدوا له كيدا ليحولوا بينه وبين ما تبشره به رؤياه.

ج. ولذلك خاطب يوسف عليه السلام خطاب الإشفاق كما يدل عليه قوله: ﴿يا بُنَيَ﴾ بلفظ التصغير، ونهاه عن اقتصاص رؤياه على إخوته قبل أن يعبرها له وينبئه بما تدل عليه رؤياه من الكرامة الإلهية المقضية في حقه، ولم يقدم النهي على البشارة إلا لفرط حبه له وشدة اهتمامه به واعتنائه بشأنه، وما كان يتفرس من إخوته أنهم يحسدونه وأنهم امتلئوا منه بغضا وحنقا.

د. والدليل على بلوغ حسدهم وظهور حنقهم وبغضهم قوله: ﴿لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾ فلم يقل: إني أخاف أن يكيدوا، أو لا آمنهم عليك بتفريع الخوف من كيدهم أو عدم الأمن من جهتهم بل فرع على اقتصاص الرؤيا نفس كيدهم وأكد تحقق الكيد منهم بالمصدر، المفعول المطلق، إذ قال: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾

هـ. ثم أكد ذلك بقوله ثانيا في مقام التعليل: ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي إن لكيدهم سببا آخر منفصلا يؤيد ما عندهم من السبب الذي هو الحسد ويثيره ويهيجه ليؤثر أثره السيئ وهو الشيطان الذي هو عدو للإنسان مبين لا خلة بينه وبينه أبدا يحمل الإنسان بوسوسته وتسويله على أن يخرج من صراط الاستقامة والسعادة إلى سبيل عوج فيه شقاء دنياه وآخرته فيفسد ما بين الوالد وولده وينزع بين الشقيق وشقيقه ويفرق بين الصديق وصديقه ليضلهم عن الصراط.

و. فكأن المعنى: قال يعقوب ليوسف عليه السلام: يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فإنهم يحسدونك ويغتاظون من أمرك فيكيدونك عندئذ بنزغ وإغراء من الشيطان وقد تمكن من قلوبهم ولا يدعهم يعرضوا عن كيدك فإن الشيطان للإنسان عدو مبين.

٢. ﴿وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ﴾ إلى آخر الآية الاجتباء من الجباية وهي الجمع يقال: جبيت الماء في الحوض إذا جمعته فيه، ومنه جباية الخراج أي جمعه قال تعالى: ﴿يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧] ففي معنى الاجتباء جمع أجزاء الشيء وحفظها من التفرق والتشتت، وفيه سلوك وحركة من الجابي نحو المجبي فاجتباه الله سبحانه عبدا من عباده هو أن يقصده برحمته ويخصه بمزيد كرامته فيجمع شمله ويحفظه من التفرق في السبل المتفرقة الشيطانية المفرقة للإنسان ويركبه صراطه المستقيم وهو أن يتولى أمره ويخصه بنفسه فلا يكون لغيره فيه

نصيب كما أخبر تعالى بذلك في يوسف عليه السلام إذ قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [الآية: ٢٤] من السورة.

٣. ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ﴾ التأويل هو ما ينتهي إليه الرؤيا من الأمر الذي تتعقبه، وهو الحقيقة التي تتمثل لصاحب الرؤيا في رؤياه بصورة من الصور المناسبة لمداركه ومشاعره كما تمثل سجدة أبوي يوسف وإخوته الأحد عشر في صورة أحد عشر كوكبا والشمس والقمر وخرورها أمامه ساجدة له، وقد تقدم استيفاء البحث عن معنى التأويل في تفسير قوله تعالى، ﴿فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ﴾

٤. والأحاديث:

أ. جمع الحديث وربما أريد به الرؤى لأنها من حديث النفس فإن نفس الإنسان تصور له الأمور في المنام كما يصور المحدث لسماعه الأمور في اليقظة فالرؤيا حديث مثله ومنه يظهر ما في قول بعضهم: إن الرؤى سميت أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها وهو كما ترى، وكذا ما قيل: (إنها سميت أحاديث لأنها من حديث الملك إن كانت صادقة ومن حديث الشيطان إن كانت كاذبة):

• وفيه أنها ربما لم تستند إلى ملك ولا إلى شيطان كالرؤيا المستندة إلى حالة مزاجية عارضة لنائم تأخذه حمى أو سخونة اتفاقية فتحكيها نفسه في صورة حمام يستحم فيه أو حر قيظ ونحوهما أو يتسلط عليه برد فتحكيه نفسه بتصوير الشتاء ونزول الثلج ونحوهما.

• ورده بعضهم بأنه يخالف الواقع فإن رؤيا يوسف ليس فيها حديث وكذا رؤيا صاحبيه في السجن ورؤيا ملك مصر.

• وقد اشتبه عليه معنى الحديث وظن أن المراد بقولهم: إن الرؤيا من حديث الملك أو الشيطان، الحديث على نحو التكليم باللفظ، وليس كذلك بل المراد أن المنام يصور له القصة أو حادثا من الحوادث بصورة مناسبة كما أن تصوره المتكلم اللافظ يصور ذلك بصورة لفظية يستدل بها السامع على الأصل المراد وهذا كما يقال لمن يقصد أمرا ويعزم على فعل أو ترك أنه حدثه نفسه أن يفعل كذا أو يترك كذا أي أنه يصوره فأراد فعله أو تركه كأن نفسه حدثته بأنه يجب عليك كذا أو لا يجوز لك كذا، وبالجملة معنى كون الرؤيا من الأحاديث أنها من قبيل تصور الأمور للنائم كما يتصور الأنباء والقصص بالتحديث اللفظي

فهي حديث إما ملكي أو شيطاني أو نفسي كما تقدم لكن الحق أنها من أحاديث النفس بالمباشرة، وسيجيء استيفاء البحث في ذلك إن شاء الله تعالى، هذا.

ب. لكن الظاهر المتحصل من قصته عليه السلام المسرودة في هذه السورة أن الأحاديث التي علمه الله تعالى تأويلها أعم من أحاديث الرؤيا، وإنما هي الأحاديث أعني الحوادث والوقائع التي تتصور للإنسان أعم من أن تتصور له في يقظة أو منام فإن بين الحوادث والأصول التي تنشأ هي منها والغايات التي تنتهي إليها اتصالا لا يسع إنكاره، وبذلك يرتبط بعضها ببعض فمن الممكن أن يهتدي عبد بإذن الله تعالى إلى هذه الروابط فينكشف له تأويل الأحاديث والحقائق التي تنتهي هي إليها.

ج. ويؤيده فيما يرجع إلى المنام ما حكاه الله تعالى من بيان يعقوب تأويل رؤيا يوسف عليه السلام، وتأويل يوسف لرؤيا نفسه ورؤيا صاحبيه في السجن ورؤيا عزيز مصر وفيما يرجع إلى اليقظة ما حكاه عن يوسف في السجن بقوله: ﴿قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [الآية: ٣٧] من السورة، وكذا قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [الآية: ١٥] من السورة وسيوافيك توضيحه إن شاء الله تعالى.

٥. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (النعمة (بالكسر فالسكون) الحالة الحسنة، وبناء النعمة بناء الحالة التي يكون عليها الإنسان كالجلسة والركبة، والنعمة بالفتح فالسكون التنعم وبناؤها بناء المرة من الفعل كالضربة والشتمة، والنعمة للجنس تقال للقليل والكثير)، قال: والإنعام إيصال الإحسان إلى الغير، ولا يقال إلا إذا كان الموصل إليه من جنس الناطقين فإنه لا يقال: أنعم فلان على فرسه، قال تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ والنعماء بإزاء الضراء، قال: والنعيم النعمة الكثيرة قال تعالى: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وقال تعالى: ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، وتنعم تناول ما فيه النعمة وطيب العيش، يقال: نعمه تنعيما فتنعم أي لين عيش وخصب قال تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ وطعام ناعم وجارية ناعمة)

ب. ففي الكلمة، كما ترى شيء، من معنى اللين والطيب والملاءمة فكأنها مأخوذة من النعومة وهي الأصل في معناها، وقد اختص استعمالها بالإنسان لأن له عقلا يدرك به النافع من الضار فيستطيب

النافع ويستلئمه ويتنعم به بخلاف غيره الذي لا يميز ما ينفعه مما يضره، كما أن المال والأولاد وغيرهما مما يعد نعمة يكون نعمة لواحد ونقمة لآخر ونعمة للإنسان في حال ونقمة في أخرى.

ج. ولذا كان القرآن الكريم لا يعد هذه العطايا الإلهية كالمال والجاه والأزواج والأولاد وغير ذلك نعمة بالنسبة إلى الإنسان إلا إذا وقعت في طريق السعادة ومنصبغة بصبغة الولاية الإلهية تقرب الإنسان إلى الله زلفى، وأما إذا وقعت في طريق الشقاء وتحت ولاية الشيطان فإنما هي نقمة وليست بنعمة، والآيات في ذلك كثيرة.

د. نعم إذا نسبت إلى الله سبحانه فهي نعمة منه وفضل ورحمة لأنه خير يفيض الخير ولا يريد في موهبته شرا ولا سوء، وهو رءوف رحيم غفور ودود، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ الله لا تُحْصُوها﴾ [إبراهيم: ٣٤] والخطاب في الآية لعامة الناس، وقال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩] فهذه وأمثالها نعمة إذا نسبت إليه تعالى لكنها نقمة إذا نسبت إلى الكافر بها قال تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]

هـ. وبالجملة إذا كان الإنسان في ولاية الله كان جميع الأسباب التي يتسبب بها في استبقاء الحياة والتوصل إلى السعادة نعما إلهية بالنسبة إليه، وإن كان في ولاية الشيطان تبدلت الجميع نقما وهي جميعا من الله سبحانه نعم وإن كانت مكفورا بها.

و. ثم إن وسائل الحياة إن كانت ناقصة لا تفي بجميع جهات السعادة في الحياة كانت نعمة كمن أوتي مالا وسلب الأمن والسلام فلا يتمكن من أن يتمتع به كما يريده ومتى وأينما يريده، وإذا كان له من ذلك ما يمكنه التوصل به إلى سعادة الحياة من غير نقص فيه فذلك تمام النعمة.

٦. فقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ﴾ يريد أن الله أنعم عليكم بما تسعدون به في حياتكم لكنه يتم ذلك في حقك وفي حق آل يعقوب وهم يعقوب وزوجه وسائر بنيه كما كان رآه في رؤياه.

٧. وقد جعل يوسف عليه السلام أصلا وآل يعقوب معطوفا عليه إذ قال: ﴿عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ﴾ كما يدل عليه الرؤيا إذ رأى يوسف نفسه مسجودا له ورأى آل يعقوب في هيئة الشمس معها القمر وأحد عشر كوكبا سجدا له.

٨. وقد ذكر الله تعالى مما أتم به النعمة على يوسف عليه السلام أنه آتاه الحكم والنبوة والملك والعزة في مصر مضافا إلى أن جعله من المخلصين وعلمه من تأويل الأحاديث، ومما أتم به النعمة على آل يعقوب أنه أقر عين يعقوب بابنه يوسف عليه السلام، وجاء به وبأهله جميعا من البدو ورزقهم الحضارة بنزول مصر.

٩. ﴿كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ﴾ أي نظير ما أتم النعمة من قبل على إبراهيم وإسحاق وهما أبواك فإنه آتاهما خير الدنيا والآخرة فقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلق بقوله: ﴿أَتَمَّها﴾ وربما احتمل كونه ظرفا مستقرا وصفا لقوله: ﴿أَبَوَيْكَ﴾ والتقدير كما أتمها على أبويك الكائنين من قبل.

١٠. و﴿إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ﴾ بدل أو عطف بيان لقوله: ﴿أَبَوَيْكَ﴾ وفائدة هذا السياق الإشعار بكون النعمة مستمرة موروثة في بيت إبراهيم من طريق إسحاق حيث أتمها الله على إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليه السلام وسائر آل يعقوب.

١١. ومعنى الآية: وكما رأيت في رؤياك يخلصك ربك لنفسه بإنقائك من الشرك فلا يكون فيك نصيب لغيره، ويعلمك من تأويل الأحاديث وهو ما يئول إليه الحوادث المصورة في نوم أو يقظة ويتم نعمته هذه وهي الولاية الإلهية بالنزول في مصر واجتماع الأهل والملك والعزة عليك وعلى أبويك وإخوتك وإنما يفعل ربك بك ذلك لأنه عليم بعباده خبير بحالهم حكيم يجري عليهم ما يستحقونه فهو عليم بحالك وما يستحقونه من غضبه.

١٢. والتدبر في الآية الكريمة يعطي:

أ. أولا: أن يعقوب أيضا كان من المخلصين وقد علمه الله من تأويل الأحاديث فإنه عليه السلام أخبر كما في هذه الآية بتأويل رؤيا يوسف وما كان ليخبر عن خرص وتخمين دون أن يعلمه الله ذلك، على أن الله بعد ما حكى عنه لبنيه ﴿يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ إلخ قال في حقه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾، على أنه بعد ما حكى عن يوسف في السجن فيما يحاور صاحبيه أنه قال: ﴿لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ فأخبر أنه من تأويل الحديث وقد علمه ذلك ربه ثم علل التعليم بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ

بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فأخبر أنه مخلص، بفتح اللام، لله كآبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب نقي الوجود سليم القلب من الشرك مطلقا ولذلك علمه ربه فيما علمه تأويل الأحاديث، والاشتراك في العلة، كما ترى، يعطي أن آباءه الكرام إبراهيم وإسحاق ويعقوب كهو مخلصون لله معلمون من تأويل الأحاديث، ويؤيده قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾، [ص: ٤٦] ويعطي أن العلم بتأويل الأحاديث من فروع الإخلاص لله سبحانه.

ب. وثانيا: أن جميع ما أخبر به يعقوب عليه السلام منطبق على متن ما رآه يوسف عليه السلام من الرؤيا وهو سجدة الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا له وذلك أن سجدتهم له وفيهم يعقوب الذي هو من المخلصين ولا يسجد إلا لله وحده تكشف عن أنهم إنما سجدوا أمام يوسف لله ولم يأخذوا يوسف إلا قبلة كالكعبة التي يسجد إليها ولا يقصد بذلك إلا الله سبحانه فلم يكن عند يوسف ولا له إلا الله تعالى، وهذا هو كون العبد مخلصا، بفتح اللام، لربه مخصوصا به لا يشاركه تعالى فيه شيء كما يومئ إليه يوسف بقوله: ﴿ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقد تقدم آنفا أن العلم بتأويل الأحاديث متفرع على الإخلاص، ومن هنا قال يعقوب في تعبير رؤياه: ﴿وَكَذلِكَ﴾، أي كما رأيت نفسك مسجودا لها، ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، أي يخلصك لنفسه، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ﴾، وكذلك رؤية آل يعقوب في صورة الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا وهي أجرام سماوية رفيعة المكان ساطعة الأنوار واسعة المدارات تدل على أنهم سترتفع مكانتهم ويعلوا كعبهم في حياتهم الإنسانية السعيدة، وهي الحياة الدينية العامرة للدنيا والآخرة ويمتازون في ذلك من غيرهم، ومن هنا مضى يعقوب في حديثه وقال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾، أي وحدك متميزا من غيرك كما رأيت نفسك كذلك، ﴿وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ﴾، أي علي وعلى زوجي وولدي جميعا كما رأيتنا مجتمعين متقاربي الصور، ﴿كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

ج. وثالثا: أن المراد بإتمام النعمة تعقيب الولاية برفع سائر نواقص الحياة السعيدة وضم الدنيا إلى الآخرة، ولا تنافي بين نسبة إتمام النعمة إلى الجميع وبين اختصاص الاجتباء وتعليم تأويل الأحاديث بيعقوب ويوسف عليه السلام من بينهم لأن النعمة وهي الولاية مختلفة الدرجات متفاوتة المراتب، وحيث نسبت إلى الجميع يأخذ كل منهم نصيبه منها، على أن من الجائز أن ينسب أمر إلى المجموع باعتبار اشتماله

على أجزاء بعضها قائم بمعنى ذلك الأمر كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ [الجاثية: ١٦] وإيتاء الكتاب والحكم والنبوة مختص ببعضهم دون جميعهم بخلاف الرزق من الطيبات.

د. ورابعا: أن يوسف كان هو الوسيلة في إتمام الله سبحانه نعمته على آل يعقوب ولذلك جعله يعقوب أصلا في الحديث وعطف عليه غيره حتى ميزه من بين آله وأفرده بالذكر حيث قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ﴾، ولذلك أيضا نسب هذه العناية والرحمة إلى ربه حيث قال مرة بعد مرة: ﴿رَبُّكَ﴾ ولم يقل: (يجتبيك الله) ولا (أن الله عليم حكيم فهذا كله يشهد بأنه هو الأصل في إتمام النعمة على آل يعقوب، وأما أبواه إبراهيم وإسحاق فإن التعبير بما يشعر بالتنظير: ﴿كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ﴾ يخرجهما من تحت أصالة يوسف فافهم ذلك.

١٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، عن الباقر عليه السلام: كان له أحد عشر أخا، وكان له من أمه أخ واحد يسمى بنيامين، قال: فرأى يوسف هذه الرؤيا وله تسع سنين فقصها على أبيه، فقال: ﴿يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ﴾ الآية.

• أقول: وفي بعض الروايات أنه كان يومئذ ابن سبع سنين وفي التوراة أنه كان ابن ست عشر سنة، وهو بعيد.

٤. إخوة يوسف يتشاورون في قتله أو طرحه في الجب:

المقطع [٤] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ٧-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٨٧»:

١. ﴿لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾:

أ. شروع في القصة وفيه التنبيه على أن القصة مشتملة على آيات إلهية دالة على توحيد الله سبحانه، وأنه هو الولي يلي أمور عباده المخلصين حتى يرفعهم إلى عرش العزة، ويثبتهم في أريكة الكمال فهو تعالى

الغالب على أمره يسوق الأسباب إلى حيث يشاء لا إلى حيث يشاء غيره ويستنتج منها ما يريد لا ما هو اللائح الظاهر منها.

ب. فهذه إخوة يوسف عليه السلام حسدوا أخاهم وكادوه وألقوه في قعر بئر ثم شروه من السيارة عبدا يريدون بذلك أن يسوقوه إلى الهلاك فأحياه الله بعين هذا السبب اللائح منه الهلاك، وأن يذللوه فأعزه الله بعين سبب التذليل، ووضعوه فرفعه الله بعين سبب الوضع والخفض، وأن يحولوا حب أبيهم إلى أنفسهم فيخلوا لهم وجه أبيهم فعكس الله الأمر، وذهبوا ببصر أبيهم حيث نعوا إليه يوسف بقميصه الملطخ بالدم فأعاد الله إليه بصره بقميصه الذي جاء به إليه البشير وألقاه على وجهه.

ج. ولم يزل يوسف عليه السلام كلما قصده قاصد بسوء أنجاه الله منه وجعل فيه ظهور كرامته وجمال نفسه، وكلما سير به في مسير أو ركب في سبيل يهديه إلى هلكة أو رزية هداه الله بعين ذلك السبيل إلى غاية حسنة ومنقبة شريفة ظاهرة، وإلى ذلك يشير يوسف عليه السلام حيث يعرف نفسه لإخوته ويقول: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ٩١] من السورة، ويقول لأبيه بحضرة من إخوته: ﴿يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ ثم تأخذه الجذبية الإلهية فيقبل بكلية نفسه الواهلة إلى ربه ويعرض عن غيره فيقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾ [الآية: ١٠١] من السورة.

٢. وفي قوله تعالى: ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ دلالة على أنه كان هناك جماعة سألوا النبي ﷺ عن القصة أو عما يرجع بوجه إلى القصة فأنزلت في هذه السورة.

٣. ﴿إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ ذكر في المجمع: (أن (العصبة هي الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض، ويقع على جماعة من عشرة إلى خمسة عشر، وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين، ولا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والنفر)

٤. ﴿إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا﴾:

أ. القائلون هم أبناء يعقوب ما خلا يوسف وأخاه الذي ذكروه معه، وكانت عدتهم عشرة وهم

رجال أقوياء بيدهم تدبير بيت أبيهم يعقوب وإدارة مواشيه وأمواله كما يدل عليه قولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾

ب. وقولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنسبته إلى يوسف مع أنهم جميعا أبناء ليعقوب وإخوة فيما بينهم يشعر بأن يوسف وأخاه هذا كانا أخوين لأم واحدة وأخوين لهؤلاء القائلين لأب فقط، الروايات تذكر أن اسم أخي يوسف هذا (بنيامين)، والسياق يشهد أنهما كانا صغيرين لا يقومان بشيء من أمر بيت يعقوب وتدبير مواشيه وأمواله.

٥. وقولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي عشرة أقوياء مشدود ضعف بعضنا بقوة بعض، وهو حال عن الجملة السابقة يدل على حسدهم وحنقهم لهما وغيظهم على أبيهم يعقوب في حبه لهما أكثر منهم، وهو بمنزلة تمام التعليل لقولهم بعده: ﴿إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾

٦. وقولهم: ﴿إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ قضاء منهم على أبيهم بالضلال ويعنون بالضلال الاعوجاج في السليقة وفساد السيرة دون الضلال في الدين:

أ. أما أولا: فلأن ذلك هو مقتضى ما تذاكروا فيما بينهم إنهم جماعة إخوان أقوياء متعاضدون متعصب بعضهم لبعض يقومون بتدبير شئون أبيهم الحيوية وإصلاح معاشه ودفع كل مكروه يواجهه، ويوسف وأخوه طفلان صغيران لا يقويان من أمور الحياة على شيء، وليس كل منهما إلا كلا عليه وعليهم، وإذا كان كذلك كان توغل أبيهم في حبهما واشتغاله بكليته بهما دونهم وإقباله عليهما بالإعراض عنهم طريقة معوجة غير مرضية فإن حكمة الحياة تستدعي أن يهتم الإنسان بكل من أسبابه ووسائله على قدر ما له من التأثير، وقصر الإنسان اهتمامه على من هو كل عليه ولا يغني عنه طائلا، والإعراض عمن بيده مفاتيح حياته وأزمة معاشه ليس إلا ضلالا من صراط الاستقامة واعوجاجا في التدبير، وأما الضلال في الدين فله أسباب أخر كالكفر بالله وآياته ومخالفة أوامره ونواهيه.

ب. وأما ثانيا: فلأنهم كانوا مؤمنين بالله مذعنين بنبوة أبيهم يعقوب كما يظهر من قولهم: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ﴾ وقولهم أخيرا: ﴿يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا﴾ [الآية: ٩٧] من السورة وقولهم ليوسف أخيرا: ﴿تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا﴾ وغير ذلك، ولو أرادوا بقولهم: ﴿إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ ضلاله في الدين لكانوا بذلك كافرين، وهم مع ذلك كانوا يحبون أباهم ويعظمونه ويوقرونه، وإنما فعلوا بيوسف ما فعلوا ليخلص لهم حب أبيهم كما قالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ

أَبِيكُمْ﴾ فهم، كما يدل عليه هذا السياق، كانوا يحبونه ويحبون أن يخلص لهم حبه، ولو كان خلاف ذلك لانبعثوا بالطبع إلى أن يبدءوا بأبيهم دون أخيهم وأن يقتلوا يعقوب أو يعزلوه أو يستضعفوه حتى يخلو لهم الجو ويصفو لهم الأمر ثم الشأن في يوسف عليهم أهون، ولقد جبهوا أباهم أخيرا بمثل قولهم هذا حين قال لهم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ قالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [الآية: ٩٥] من السورة، ومن المعلوم أن ليس المراد به الضلال في الدين بل الإفراط في حب يوسف والمبالغة في أمره بما لا ينبغي.

٧. ويظهر من الآية وما يرتبط بها من الآيات:

أ. أنه كان يعقوب عليه السلام يسكن البدو وكان له اثنا عشر ابنا وهم أولاد علة، وكان عشرة منهم كبارا هم عصبة أولو قوة وشدة يدور عليهم رحى حياته ويدبر بأيديهم أمور أمواله ومواشيه، وكان اثنان منهم صغيرين أخوين لأم واحدة في حجر أبيهما وهما يوسف وأخوه لأمه وأبيه، وكان يعقوب عليه السلام مقبلا إليهما يحبهما حبا شديدا لما يتفرس في ناصيتهما من آثار الكمال والتقوى لا لهوى نفساني فيهما كيف؟

ب. وهو من عباد الله المخلصين الممدوح بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾:، [ص: ٤٦] وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

ج. فكان هذا الحب والإيثار يثير حسد سائر الإخوة لهما ويؤجج نائرة الأضغان منهم عليهما ويعقوب عليه السلام يتفرس ذلك ويبالغ في حبهما وخاصة في حب يوسف وكان يخافهم عليه ولا يرضى بخلوتهم به ولا يأمنهم عليه وذلك يزيد في حسدهم وغيظهم فصار يتفرس من وجوههم الشر والمكر كما مرت استفادته من قوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾ حتى رأى يوسف الرؤيا وقصها لأبيه فزاد بذلك إشفاق أبيه عليه وازداد حبه له ووجده فيه، وأوصاه أن يكتم رؤياه ولا يخبر إخوته بها لعله يأمن بذلك كيدهم لكن التقدير غلب تدبيره.

د. فاجتمع الكبار من بني يعقوب وتذاكروا فيما بينهم ما كانوا يشاهدونه من أمر أبيهم وما يصنعه بيوسف وأخيه حيث يشتغل بهما عنهم ويؤثرهما عليهم وهما طفلان صغيران لا يغنيان عنه بطائل وهم عصبة أولو قوة وشدة أركان حياته وأياديه الفعالة في دفع كل رزية عادية وجلب منافع المعيشة وإدارة

الأموال والمواشي، وليس من حسن السيرة واستقامة الطريقة إيثار هذين الضعيفين على ضعفهما على أولئك العصبة القوية على قوتهم فذموا سيرة أبيهم وحكموا بأنه في ضلال مبين من جهة طريقته هذه.

هـ. ولم يريدوا برمي أبيهم بالضلال الضلال في الدين حتى يكفروا بذلك بل الضلال في مشيته الاجتماعية كما توفرت بذلك شواهد الآيات وقد تقدمت الإشارة إليها.

٨. وبذلك يظهر ما في مختلف التفاسير من الانحراف في تقرير معنى الآية:

أ. منها: ما ذكره بعضهم أن (هذا الحكم منهم بضلال أبيهم عن طريق العدل والمساواة جهل مبين وخطأ كبير لعل سببه اتهام إياه بإفراطه في حب أمهما من قبل فيكون مثاره الأول اختلاف الأمهات بتعدد الزوجات ولا سيما الإماء منهن وهو الذي أضلهم من غريزة الوالدين في زيادة العطف على صغار الأولاد وضعافهم وكانا أصغر أولاده، قال: ومن فوائد القصة وجوب عناية الوالدين بمداراة الأولاد وتربيتهم على المحبة والعدل، وإنقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى، وقد نهى عنه النبي ﷺ مطلقا، ومنه سلوك سبيل الحكمة في تفضيل من فضل الله تعالى بالمواهب الفطرية كمكارم الأخلاق والتقوى والعلم والذكاء، وما كان يعقوب بالذي يخفى عليه هذا وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم إلا من علمه بما يجب فيه، ولكن ما يفعل الإنسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه؟ كلا)

• أما قوله: إن منشأ حسدهم وبغيهم اختلاف الأمهات وخاصة الإماء منهن.، ففيه: أن استدعاء اختلاف الأمهات اختلاف الأولاد وإن كان مما لا يسوغ إنكاره، ووجود ذلك في المورد محتمل، لكن السبب المذكور في كلامه تعالى لذلك غير هذا، ولو كان هو السبب الوحيد لفعلوا بأخي يوسف ما فعلوا به ولم يقنعوا به.

• وأما قوله: (وهو الذي أضلهم من غريزة الوالدين في زيادة العطف على صغار الأولاد وضعافهم) ومفاده أن محبة يعقوب ليوسف إنما كانت رقة وترحما غريزيا منه لصغرهما كما هو المشهود من الآباء بالنسبة إلى صغار أولادهم ما داموا صغارا فإذا كبروا انتقلت إلى من هو أصغر منهم، ففيه: أن هذا النوع من الحب المشوب بالرقة والترحم مما يسلمه الكبار للصغار وينقطعون عن مزاحمتهم ومعارضتهم في ذلك، ترى كبراء الأولاد إذا شاهدوا زيادة اهتمام الوالدين بصغارهم وضعفائهم واعترضوا بأن ذلك

خلاف التعديل والتسوية فأجيبوا بأنهم صغار ضعفاء يجب أن يرق لهم ويرحموا ويعانوا حتى يصلحوا للقيام على ساقهم في أمر الحياة سكتوا وانقطعوا عن الاعتراض وأقنعهم ذلك، فلو كانت صورة حب يعقوب ليوسف وأخيه صورة الرقة والرأفة والرحمة لهما لصغرهما وهي التي يعهدها كل من العصبة في نفسه ويذكرها من أبيه له في حال صغره لم يعيبوها ولم يذموا أباهم عليها ولكان قولهم ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ دليلا عليهم يدل على ضلالهم في نسبة أبيهم إلى الضلال لا دليلا لهم يدل على ضلال أبيهم في زيادة حبه لهما، على أنهم قالوا لأبيهم حينما كلموا أباهم في أمر يوسف: ﴿ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ﴾ ومن المعلوم أن إكرامه ليوسف وضمه إليه ومراقبته له وعدم أمن أحد منهم عليه، أمر وراء المحبة بالرقة والرحمة له ولصغره وضعفه.

• وأما قوله: وما كان يعقوب يخفى عليه هذا إلى آخر ما قال ومعناه أن هوى يعقوب في ابنه صرفه عن الواجب في تربية أولاده على علم منه بأن ذلك خلاف العدل والإنصاف وأنه سيدفعه إلى بلوى في أولاده ثم تعذيره بأن مخالفة هوى القلب وعلقة الروح مما لا يستطيعه الإنسان، ففيه أنه إفساد للأصول المسلمة العقلية والنقلية التي يستنتج منها حقائق مقامات الأنبياء والعلماء بالله من الصديقين والشهداء والصالحين وما بني عليه البحث عن كرائم الأخلاق أن الإنسان بحسب فطرته في سعة من التخلق بها ومحق الرذائل النفسانية التي أصلها وأساسها اتباع هوى النفس وإيثار مرضاة الله سبحانه على كل مرضاة وبغية، وهذا أمر نرجوه من كل من ارتاض بالرياضات الخلقية من أهل التقوى والورع فما الظن بالأنبياء ثم بمثل يعقوب عليه السلام منهم.

• وليت شعري إذا لم يكن في استطاعة الإنسان أن يخالف هوى نفسه في أمثال هذه الأمور فما معنى هذه الأوامر والنواهي الجمة في الدين المتعلقة بها وهل هي إلا مجازفة صريحة.

• على أن فيما ذكره إزراء لمقامات أنبياء الله وأوليائه وحطا لمواقفهم العبودية إلى درجة المتوسطين من الناس أسراء هوى أنفسهم الجاهلين بمقام ربهم، وقد عرف سبحانه الأنبياء بمثل قوله: ﴿وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] وقال في يعقوب وأبويه إبراهيم وإسحاق عليه السلام: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال فيهم أيضا: ﴿إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾

[ص: ٤٦]

• فأخبر أنه هداهم إلى مستقيم صراطه ولم يقيد ذلك بقيد، وأنه اجتباهم وجمعهم وأخلصهم لنفسه فهم مخلصون، بفتح اللام، لله سبحانه لا يشاركه فيهم مشارك، فلا يبتغون إلا ما يريده من الحق ولا يؤثرون على مرضاته مرضاة غيره سواء كان ذلك الغير أنفسهم أو غيره، وقد كرر سبحانه في كلامه حكاية إغواء بني آدم عن الشيطان واستثنى المخلصين: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣]

• فالحق أن يعقوب إنما كان يحب يوسف وأخاه في الله سبحانه لما كان يتفرس منهما التقوى والكمال ومن يوسف خاصة ما كانت تدل عليه رؤياه أن الله سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب، ولم يكن حبه هوى البتة.

ب. ومنها ما ذكره بعضهم أن مرادهم من قولهم: ﴿إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ ضلاله في الدين، وقد عرفت أن سياق الآيات الكريمة يدفعه.

ج. ويقابل هذا القول بوجه قول آخرين: إن إخوة يوسف كانوا أنبياء وإنما نسبوا أباهم إلى الضلال في سيرته والعدول في أمرهم عن العدل والاستقامة، وإذا اعترض عليهم بما ارتكبوه من المعصية والظلم في أخيهم وأبيهم، أجابوا عنه بأن ذلك كانت معصية صغيرة صدرت عنهم قبل النبوة أو لا بأس به بناء على جواز صدور الصغائر عن الأنبياء قبل النبوة وربما أجيب بجواز أن يكونوا حين صدور المعصية صغارا مراهقين ومن الجائز صدور أمثال هذه الأمور عن الأطفال المراهقين، وهذه أوهام مدفوعة، وليس قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ﴾ [النساء: ١٦٣] الظاهر في نبوة الأسباط صريحا في إخوة يوسف.

• والحق أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء بل كانوا أولاد أنبياء حسدوا يوسف وأذنبوا بما ظلموا يوسف الصديق ثم تابوا إلى ربهم وأصلحوا وقد استغفر لهم يعقوب ويوسف عليه السلام كما حكى الله عن أبيهم قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [الآية: ٩٨] من السورة بعد قولهم: ﴿يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ﴾ وعن يوسف قوله: ﴿يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الآية: ٩٢] من السورة بعد اعترافهم له بقولهم: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ﴾

د. ومنها: قول بعضهم: إن إخوة يوسف إنما حسدوه بعد ما قص عليهم رؤياه وقد كان يعقوب نهاه أن يقص رؤياه على إخوته والحق أن الرؤيا إنما أوجبت زيادة حسدهم وقد لحق بهم الحسد قبل ذلك كما مر بيانه.

٩. ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ﴾ تتمة قول إخوة يوسف والآية تتضمن الفصل الثاني من مؤامرتهم في مؤتمرهم الذي عقدوه في أمر يوسف ليرسموا بذلك خطة تريح نفوسهم منه كما ذكره تعالى بقوله: ﴿وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [الآية: ١٠٢] من السورة.

١٠. وقد ذكر الله سبحانه متن مؤامرتهم في هذه الآيات الثلاث: ﴿قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾:

أ. فأوردوا أولا ذكر مصيبتهم في يوسف وأخيه إذ صرفا وجه يعقوب عنهم إلى أنفسهما وجذبا نفسه إليهما عن سائر الأولاد فصار يلتزمها ولا يعبأ بغيرهما ما فعلوا، وهذه محنة حالة بهم توعدهم بخطر عظيم في مستقبل الأمر فيه سقوط شخصيتهم وخيبة مسعاهم وذلتهم بعد العزة وضعفهم بعد القوة، وهو انحراف من يعقوب في سيرته وطريقته.

ب. ثم تذاكروا ثانيا في طريق التخلص من الرزية بطرح كل منهم ما هيأه من الخطة ويراه من الرأي فأشار بعضهم إلى لزوم قتل يوسف، وآخرون إلى طرحه أرضا بعيدة لا يستطيع معه العود إلى أبيه واللحوق بأهله فينسى بذلك اسمه ويمحو رسمه فيخلو وجه أبيهم لهم وينبسط حبه وحبائه فيهم.

ج. ثم اتفقوا على ما يقرب من الرأي الثاني وهو أن يلقوه في قعر بئر ليلتقطه بعض السيارة ويذهبوا به إلى بعض البلاد النائية البعيدة فينقطع بذلك خبره ويعفى أثره.

١١. فقوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ حكاية لأحد الرأيين منهم في أمره، وفي ذكرهم يوسف وحده، وقد ذكروا في مفتتح كلامهم في المؤامرة يوسف وأخاه معا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا﴾، دليل على أنه كان مخصوصا بمزيد حب يعقوب وبلوغ عنايته واهتمامه وإن كان أخوه أيضا محبوا بالحب والإكرام من بينهم وكيف لا؟ ويوسف هو الذي رأى الرؤيا وبشر بأخص العنايات الإلهية والكرامات الغيبية، وقد كان أكبرهما والخطر المتوجه من قبله إليهم أقرب مما من قبل أخيه، ولعل في ذكر الأخوين معا

إشارة إلى حب يعقوب لأمها الموجب لحبه بالطبع لهما وتهييج حسد الإخوة وغيظهم وحقدهم بالنسبة إليهما.

١٢. ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾ حكاية رأيهم الثاني فيه، والمعنى صيروه أو غربوه في أرض لا يقدر معه على العود إلى بيت أبيه فيكون كالمقتول ينقطع أثره ويستراح من خطره كإلقائه في بئر أو تغريبه إلى مكان ناء ونظير ذلك، والدليل عليه تنكير (أرض) ولفظ الطرح الذي يستعمل في إلقاء الإنسان المتاع أو الأثاث الذي يستغني عنه ولا ينتفع به للإعراض عنه.

١٣. وفي نسبة الرأيين بالترديد إليهم، دليل على أن مجموع الرأيين كان هو المرضي عند أكثر الإخوة حتى قال قائل منهم: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾

١٤. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي افعلوا به أحد الأمرين حتى يخلو لكم وجه أبيكم وهو كناية عن خلوص حبه لهم بارتفاع المانع الذي يجلب الحب والعطف إلى نفسه كأنهم ويوسف إذا اجتمعوا وأباهم حال يوسف بينه وبينهم وصرف وجهه إلى نفسه فإذا ارتفع خلا وجه أبيهم لهم واختص حبه بهم وانحصر إقباله عليهم.

١٥. ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ﴾:

أ. أي وتكونوا من بعد يوسف أو من بعد قتله أو نفيه، والمال واحد، قوما صالحين بالتوبة من هذه المعصية.

ب. وفي هذا دليل على أنهم كانوا يرونه ذنبا، وإثما، وكانوا يحترمون أمر الدين ويقدسونه لكن غلبهم الحسد وسولت لهم أنفسهم اقتراف الذنب وارتكاب المظلمة وآمنهم من عقوبة الذنب بتلقين طريق يمكنهم من الاقتراف من غير لزوم العقوبة الإلهية وهو أن يقترفوا الذنب ثم يتوبوا.

ج. وهذا من الجهل فإن التوبة التي شأنها هذا الشأن غير مقبولة البتة فإن من يوطن نفسه من قبل على المعصية ثم التوبة منها لا يقصد بتوبته الرجوع إلى الله والخضوع لمقامه حقيقة بل إنما يقصد المكر بربه في دفع ما أوعده من العذاب والعقوبة مع المخالفة لأمره أو نهيه، فتوبته ذيل لما وطن عليه نفسه أولا: أن يذنب فيتوب فهي في الحقيقة تتمة ما رامه أولا من نوع المعصية وهو الذنب الذي تعقبه توبة وليست رجوعا إلى ربه بالندم على ما فعل، وقد تقدم البحث عن معنى التوبة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى

اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ﴾ [النساء: ١٧]

د. وقيل المراد بالصلاح في الآية صلاح الأمر من حيث سعادة الحياة الدنيا وانتظام الأمور فيها والمعنى وتكونوا من بعده قوما صالحين بصلاح أمركم مع أبيكم.

١٦. ﴿قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾:

أ. الجب هو البئر التي لم يطو أي لم يبن داخلها بالحجارة، وإن بني بها سميت البئر طويا، والغيابة بفتح الغين المنهبط من الأرض الذي يغيب ما فيه من الأنظار وغيابة الجب قعره الذي لا يرى لما فيه من الظلمة.

ب. وقد اختار هذا القائل الرأي الثاني المذكور في الآية السابقة الذي يشير إليه قوله: ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾ إلا أنه قيده بما يؤمن معه القتل أو أمر آخر يؤدي إلى هلاكه كأن يلقى في بئر ويترك فيها حتى يموت جوعا أو ما يشاكل ذلك، فما أبداه من الرأي يتضمن نفي يوسف من الأرض من غير أن يتسبب إلى هلاكه بقتل أو موت أو نقص يشبهه فيكون إهلاكا لذي رحم، وهو أن يلقى في بعض الآبار التي على طريق المارة حتى يعثروا به عند الاستقاء فيأخذوه ويسيروا به إلى بلاد نائية تعفو أثره وتقطع خبره، والسياق يشهد بأنهم ارتضوا هذا الرأي إذ لم يذكر رد منهم بالنسبة إليه وقد جرى عملهم عليه كما هو مذكور في الآيات التالية.

ج. واختلف المفسرون في اسم هذا القائل بعد القطع بأنه كان أحد إخوته لقوله تعالى ﴿قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ﴾ فقيل: هو روبين ابن خالة يوسف، وقيل: هو يهوذا، وقد كان أسنهم وأعقلهم، وقيل: هو لاوى، ولا يهمنا البحث فيه بعد ما سكت القرآن عن تعريفه باسمه لعدم ترتب فائدة هامة عليه، وذكر بعضهم: أن تعريف الجب باللام يدل على أنه كان جبا معهودا فيما بينهم، وهو حسن لو لم يكن اللام للجنس، وقد اختلفوا أيضا في أن هذا الجب أين كان؟ هو على أقوال مختلفة لا يترتب على شيء منها فائدة طائلة.

١٧. أحاديث وآثار:

أ. في المعاني، بإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال: صليت مع علي بن الحسين عليه السلام الفجر بالمدينة يوم الجمعة، فلما فرغ من صلاته وتسبيحه نهض إلى منزله وأنا معه، فدعا مولاة له تسمى سكينة فقال لها:

لا يعبر على بابي سائل إلا أطعمتموه فإن اليوم يوم الجمعة،قلت: ليس كل من يسأل مستحقا فقال: يا ثابت أخاف أن يكون بعض من يسألنا محقا، فلا نطعمه ونرده فينزل بنا أهل البيت ما نزل بيعقوب وآله، أطعموهم، إن يعقوب كان يذبح كل يوم كبشا، فيتصدق به ويأكل هو وعياله منه، وإن سائلا مؤمنا صواما محقا له عند الله منزلة، وكان مجتازا غريبا اعتر على باب يعقوب عشية جمعة عند أوان إفطاره، يهتف على بابه: أطعموا السائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم، يهتف بذلك على بابه مرارا قد جهلوا حقه ولم يصدقوا قوله، فلما أيس أن يطعموه وغشيه الليل استرجع، واستعبر وشكى جوعه إلى الله، وبات طاويا وأصبح صائما جائعا صابرا حامدا لله، وبات يعقوب وآل يعقوب شباعا بطانا، وأصبحوا وعندهم من فضل طعامهم، قال: فأوحى الله عز وجل إلى يعقوب في صبيحة تلك الليلة: لقد أذللت يا يعقوب عبدي ذلة استجررت بها غضبي، واستوجبت بها أدبي، ونزول عقوبتي وبلواي عليك وعلى ولدك، يا يعقوب إن أحب أنبيائي إلي وأكرمهم علي من رحم مساكين عبادي، وقربهم إليه وأطعمهم وكان لهم مأوى وملجأ، يا يعقوب ما رحمت دميال عبدي المجتهد في عبادته، القانع باليسير من ظاهر الدنيا عشاء أمس، لما اعتر ببابك عند أوان إفطاره، ويهتف بكم أطعموا السائل الغريب المجتاز القانع، فلم تطعموه شيئا فاسترجع واستعبر وشكى ما به إلي، وبات جائعا وطاويا حامدا وأصبح لي صائما، وأنت يا يعقوب وولدك شباع وأصبحت وعندكم فضل من طعامكم، أوما علمت يا يعقوب، إن العقوبة والبلوى إلى أوليائي أسرع منها إلى أعدائي؟ وذلك حسن النظر مني لأوليائي واستدراج مني لأعدائي، أما وعزتي لأنزلن بك بلواي، ولأجعلنك وولدك غرضا لمصابي، ولأؤدبنك بعقوبتي فاستعدوا لبلواي، وارضوا بقضائي واصبروا للمصائب، فقلت لعلي بن الحسين عليه السلام: جعلت فداك، متى رأى يوسف الرؤيا؟ فقال: في تلك الليلة التي بات فيها يعقوب وآل يعقوب شباعا، وبات فيها دميال طاويا جائعا، فلما رأى يوسف الرؤيا وأصبح يقصها على أبيه يعقوب، اغتم يعقوب لما سمع من يوسف وبقي مغتما، فأوحى الله إليه أن استعد للبلاء فقال يعقوب ليوسف: لا تقصص رؤياك على إخوتك، فإني أخاف أن يكيدوا لك كيدا، فلم يكتم يوسف رؤياه، وقصها على إخوته.

ب. قال علي بن الحسين عليه السلام: إن أول بلوى نزل، بيعقوب وآل يعقوب الحسد ليوسف لما سمعوا منه الرؤيا، قال: فاشتدت رقة يعقوب على يوسف، وخاف أن يكون ما أوحى الله عز وجل إليه

من الاستعداد للبلاء، إنما هو في يوسف خاصة فاشتدت رقته عليه من بين ولده، فلما رأى إخوة يوسف ما يصنع يعقوب بيوسف، وتكرمته إياه، وإيثاره إياه عليهم، اشتد ذلك عليهم وبدا البلاء فيهم، فتأمروا فيما بينهم و﴿قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ، اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ، وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ﴾ أي تتوبون، فعند ذلك ﴿قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ﴾ فقال يعقوب ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ﴾ فانتزعه مقدرا حذرا عليه منه، أن يكون البلوى من الله عز وجل على يعقوب من يوسف خاصة، لموقعه في قلبه وحبه له، قال: فغلب قدرة الله وقضاؤه، ونافذ أمره في يعقوب ويوسف وإخوته، فلم يقدر يعقوب على دفع البلاء عن نفسه ولا يوسف وولده، فدفعه إليهم وهو لذلك كاره، متوقع البلوى من الله في يوسف، فلما خرجوا من منزلهم لحقهم مسرعا فانتزعه من أيديهم، وضمه إليه واعتنقه وبكى ودفعه إليهم، فانطلقوا به مسرعين مخافة أن يأخذه منهم، ولا يدفعه إليهم فلما أمعنوا به أتوا به غيضة أشجار، فقالوا: نذبحه ونلقيه تحت هذه الشجرة، فيأكله الذئب الليلة فقال كبيرهم: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ولكن ﴿أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ، يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾، فانطلقوا به إلى الجب فألقوه فيه، وهم يظنون أنه يغرق فيه فلما صار في قعر الجب، ناداهم: يا ولد رومين أقرءوا يعقوب السلام مني، فلما رأوا كلامه، قال بعضهم لبعض: لا تزولوا من هاهنا حتى تعلموا أنه قد مات، فلم يزالوا بحضرته حتى أيسوا (ورجعوا إلى أبيهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا، إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا، فأكله الذئب)، فلما سمع مقالتهم استرجع واستعبر، وذكر ما أوحى الله عز وجل إليه من الاستعداد للبلاء، فصبر وأذعن للبلوى وقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ وما كان الله ليطعم لحم يوسف الذئب، من قبل أن أرى تأويل رؤياه الصادقة، قال أبو حمزة: ثم انقطع حديث علي بن الحسين عليه السلام عند هذا، قال أبو حمزة: فلما كان من الغد غدوت إليه وقلت له: جعلت فداك إنك حدثتني أمس بحديث ليعقوب وولده، ثم قطعته فيما كان من قصة إخوة يوسف وقصة يوسف بعد ذاك؟ فقال: إنهم لما أصبحوا قالوا: انطلقوا بنا حتى ننظر ما حال يوسف: أمات أم هو حي؟، فلما انتهوا إلى الجب وجدوا بحضرة الجب سيارة، وقد أرسلوا واردهم فأدلى دلوه، فإذا جذب دلوه فإذا هو غلام معلق بدلوه، فقال لأصحابه: يا بشرى هذا غلام، فلما أخرجوه أقبل إليهم إخوة يوسف، فقالوا: هذا عبدنا سقط منا

أمس في هذا الجب، وجئنا اليوم لنخرجه، فانتزعوه من أيديهم ونحوا به ناحية، فقالوا له: إما أن تقر لنا أنك عبد لنا، فنبيعك بعض السيارة أو نقتلك، فقال لهم يوسف: لا تقتلوني واصنعوا ما شئتم، فأقبلوا به إلى السيارة فقالوا: من يشتري منكم هذا العبد منا؟ فاشتراه رجل منهم بعشرين درهما، وكان إخوته فيه من الزاهدين، وسار به الذي اشتراه من البدو حتى أدخله مصر، فباعه الذي اشتراه من البدو من ملك مصر، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ، أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾، قال أبو حمزة: فقلت لعلي بن الحسين عليه السلام: ابن كم كان يوسف يوم ألقوه في الجب؟ فقال: ابن تسع سنين، فقلت: كم كان بين منزل يعقوب يومئذ وبين مصر، فقال: مسيرة اثنا عشر يوما، الحديث.

• أقول: وللحديث ذيل سنورده في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى وفيه نكات ربما لم تلائم ظاهر ما تقدم من بيان الآيات لكنها ترتفع بأدنى تأمل.

ج. أخرج أحمد والبخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

د. وفي تفسير العياشي، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: الأنبياء على خمسة أنواع، منهم من يسمع الصوت، مثل صوت السلسلة فيعلم ما عني به، ومنهم من ينبأ في منامه، مثل يوسف وإبراهيم عليه السلام، ومنهم من يعاين، ومنهم من نكت في قلبه، ويوقر في أذنه.

هـ. وفيه، عن أبي خديجة عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنما ابتلي يعقوب بيوسف، أنه ذبح كبشا سمينا ورجل من أصحابه يدعى بيوم (بقوم) محتاج لم يجد ما يفطر عليه، فأغفله ولم يطعمه فابتلي بيوسف، وكان بعد ذلك كل صباح مناديه ينادي: من لم يكن صائما فليشهد غداء يعقوب، فإذا كان المساء نادى، من كان صائما فليشهد عشاء يعقوب.

٥. إخوة يوسف يطلبون من أبيهم أن يرسله معهم:

المقطع [٥] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [يوسف:

١١ـ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٩٧»:

١. ﴿قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ﴾:

أ. أصل ﴿لا تَأْمَنَّا﴾ لا تأمننا ثم أدغم بالإدغام الكبير.

ب. والآية تدل على أن الإخوة أجمعوا على قول القائل: لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب، وأجمعوا على أن يمكروا بأبيهم فيأخذوا يوسف ويفعلوا به ما عزموا عليه وقد كان أبوهم لا يأمنهم على يوسف ولا يخليه وإياهم فكان من الواجب قبلا أن يزكوا أنفسهم عند أبيهم ويجلوا قلبه من كدر الشبهة والارتياب حتى يتمكنوا من أخذه والذهاب به، ولذلك جاءوا أباهم وخاطبوه بقولهم: ﴿يا أَبانا﴾، وفيه إثارة للعطف والرحمة وإيثار للمودة، ﴿ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ﴾ أي والحال أنا لا نريد به إلا الخير ولا نبتغي إلا ما يرضيه ويسره، ثم سألوه ما يريدونه وهو أن يرسله معهم إلى مرتعهم الذي كانوا يخرجون إليه ماشيتهم وغنمهم ليرتع ويلعب هناك، وهم حافظون له فقالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنا﴾

٢. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾:

أ. الرتع هو توسع الحيوان في الرعي والإنسان في التنزه وأكل الفواكه ونحو ذلك، وقولهم ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ اقتراح لمسئولهم كما تقدمت الإشارة إليه.

ب. وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ أكدوه بوجوه التأكيد: إن واللام والجملة الاسمية على وزان قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ﴾ كما يدل أن كل واحدة من الجملتين تتضمن نوعا من التطيب لنفس أبيهم كأنهم قالوا: ما لك لا تأمنا على يوسف فإن كنت تخاف عليه إيانا معشر الإخوة كأن نقصده بسوء فإنا له لناصحون وإن كنت تخاف عليه غيرنا مما يصيبه أو يقصده بسوء كان يدهمه المكروه ونحن مساهلون في حفظه ومستهينون في كلاءته فإنا له لحافظون.

ج. فالكلام مسوق على ترتيبه الطبعي: ذكروا أولا أنه في أمن من ناحيتهم دائما ثم سألوا أن يرسله معهم غداة غد ثم ذكروا أنهم حافظون له ما دام عندهم، وبذلك يظهر أن قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ﴾ تأمين له دائمي من ناحية أنفسهم، وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ تأمين له موقت من غيرهم.

٣. ﴿قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ﴾ هذا ما ذكر أبوهم جوابا لما سألوه، ولم ينف عن نفسه أنه لا يأمنهم عليه وإنما ذكر ما يأخذه من الحالة النفسانية لو ذهبوا به

فقال وقد أكد كلامه: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ وقد كشف عن المانع أنه نفسه التي يحزنها ذهابهم به ولا ذهابهم به الموجب لحزنه تلطفا في الجواب معهم ولئلا يهيج ذلك عنادهم ولجاجهم وهو من لطائف النكت.

٤. واعتذر إليهم في ذلك بقوله: ﴿وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ﴾ وهو عذر موجه فإن الصحاري ذوات المراتع التي تأوي إليها المواشي وترتع فيها الأغنام لا تخلو طبعا من ذئاب أو سباع تقصدها وتكمن فيها للافتراس والاصطياد فمن الجائز أن يقبلوا على بعض شأنهم ويغفلوا عنه فيأكله الذئب.

٥. ﴿قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ﴾ تجاهلوا لأبيهم كأنهم لم يفقهوا إلا أنه يأمنهم عليه لكن يخاف أن يأكله الذئب على حين غفلة منهم فردوه رد منكر مستغرب، وذكروا لتطيب نفسه أنهم جماعة أقوياء متعاضدون ذوو بأس وشدة، وأقسموا بالله إن أكل الذئب إياه وهم عصبة يقضي بخسرانهم ولن يكونوا خاسرين البتة، وإنما أقسموا، كما يدل عليه لام القسم، ليطيبوا نفسه ويذهبوا بحزنه فلا يمنعهم من الذهاب به، وهذا شائع في الكلام (وفي الكلام وعد ضمني منهم له أنهم لن يغفلوا) لكنهم لم يلبثوا يوما حتى كذبوا أنفسهم فيما أقسموا له وأخلفوه ما وعدوه إذ قالوا: ﴿يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ الآية.

٦. إلقاء يوسف في الجب والوحي إليه وكذب إخوته:

المقطع [٦] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ وَجاءُوا أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ وَجاءُوا عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٥ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٩٩»:

١. ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ﴾:

أ. قال الراغب: (أجمعت على كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعا يتوصل إليه بالفكرة نحو ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ﴾، قال: ويقال أجمع المسلمون على كذا اتفقت آراؤهم عليه) وفي المجمع: أجمعوا أي

عزموا جميعا أن يجعلوه في غيابة الجب أي قعر البئر واتفقت دواعيهم عليه فإن من دعاه داع واحد إلى الشيء لا يقال فيه أنه أجمع عليه فكأنه مأخوذ من اجتماع الدواعي)

ب. والآية تشعر بأنهم أقنعوا أباهم بما قالوا له من القول وأرضوه أن لا يمنعهم أن يخرجوا يوسف معهم إلى الصحراء فحملوه معهم لإنفاذ ما أزمعوا عليه من إلقائه في غيابة الجب.

ج. وجواب (لما) محذوف للدلالة على فجاعة الأمر وفظاعته، وهي صنعة شائعة في الكلام ترى المتكلم يصف أمرا فظيعا كقتل فجيع يحترق به القلب ولا يطيقه السمع فيشرع في بيان أسبابه والأحوال التي تؤدي إليه فيجري في وصفه حتى إذا بلغ نفس الحادثة سكت سكوتا عميقا ثم وصف ما بعد القتل من الحوادث فيدل بذلك على أن صفة القتل بلغت من الفجاعة مبلغا لا يسع المتكلم أن يصرح به ولا يطيق السامع أن يسمعه.

د. فكأن الذي يصف القصة، عز اسمه، لما قال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ﴾ سكت مليا وأمسك عن ذكر ما فعلوا به أسى وأسفا لأن السمع لا يطيق وعي ما فعلوا بهذا الطفل المعصوم المظلوم النبي ابن الأنبياء ولم يأت بجرم يستحق به شيئا مما ارتكبوه فيه وهم إخوته وهم يعلمون مبلغ حب أبيه النبي الكريم يعقوب له فيا قاتل الله الحسد يهلك شقيقا مثل يوسف الصديق بأيدي إخوته، ويثكل أبا كريما مثل يعقوب بأيدي أبنائه، ويزين بغيا شنيعا كهذا في أعين رجال ربوا في حجر النبوة ونشئوا في بيت الأنبياء.

٢. ولما حصل الغرض بالسكوت عن جواب لما جرى سبحانه في ذيل القصة فقال: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾:

أ. الضمير ليوسف وظاهر الوحي أنه من وحي النبوة، والمراد بأمرهم هذا إلقاؤهم إياه في غيابة الجب، وكذا الظاهر أن جملة ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ حال من الإيحاء المدلول عليه بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنا﴾ ومتعلق ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾ هو الأمر أي لا يشعرون بحقيقة أمرهم هذا أو الإيحاء أي وهم لا يشعرون بما أوحينا إليه.

ب. والمعنى، والله أعلم، وأوحينا إلى يوسف أقسم لتخبرنهم بحقيقة أمرهم هذا وتأويل ما فعلوا بك فإنهم يرونه نفيا لشخصك وإنساء لاسمك وإطفاء لنورك وتذليلا لك وحطا لقدرك وهو في الحقيقة

تقريب لك إلى أريكة العزة وعرش المملكة وإحياء لذكرك وإتمام لنورك ورفع لقدرك وهم لا يشعرون بهذه الحقيقة وستنبئهم بذلك وهو قوله لهم وقد اتكى على أريكة العزة وهم قيام أمامه يسترحمونه بقولهم: ﴿يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ إذ قال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا﴾ إلخ.

ج. انظر إلى موضع قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾ فإنه إشارة إلى أن هذا الذي تشاهدونه اليوم من الحال هو حقيقة ما فعلتم بيوسف، وقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ﴾ فإنه يحاذي من هذه الآية التي نحن فيها قوله: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾

٣. وقيل: في معنى الآية وجوه أخر:

أ. منها: أنك ستخبر إخوتك بما فعلوا بك في وقت لا يعرفونك، وهو الذي أخبرهم به في مصر وهم لا يعرفونه ثم عرفهم نفسه.

ب. ومنها: أن المراد بإنبائه إياهم مجازاتهم بسوء ما فعلوا كمن يتوعد من أساء إليه فيقول: لأنبئنك ولأعرفنك.

ج. ومنها: قول بعضهم كما روي عن ابن عباس أن المراد بإنبائه إياهم بأمرهم ما جرى له مع إخوته بمصر حيث رآهم فعرفهم وهم له منكرون فأخذ جاما فنقره فطن فقال: إن هذا الجام يخبرني أنكم كان لكم أخ من أبيكم ألقيتموه في الجب وبعتموه بثمن بخس.

• وهذه وجوه لا تخلو من سخافة والوجه ما قدمناه، وقد كثر ورود هذه اللفظة في كلامه تعالى في معنى بيان حقيقة العمل كقوله تعالى: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥] وقوله: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا﴾ [المجادلة: ٦] إلى غير ذلك من الآيات وهي كثيرة.

د. ومنها: قول بعضهم إن المعنى وأوحينا إليه ستخبرهم بما فعلوا بك وهم لا يشعرون بهذا الوحي، وهذا الوجه غير بعيد لكن الشأن في بيان نكتة لتقييد الكلام بهذا القيد ولا حاجة إليه ظاهرا.

هـ. ومنها: قول بعضهم: إن معنى الآية لتخبرنهم برقي حياتك وعزتك وملكك بأمرهم هذا إذ

يظهرك الله عليهم ويذلهم لك ويجعل رؤياك حقا وهم لا يشعرون يومئذ بما آتاك الله.

• وعمدة الفرق بين هذا القول وما قدمناه من الوجه أن في هذا القول صرف الإنباء عن الإنباء الكلامي إلى الإنباء بالحال الخارجي والوضع العيني، ولا موجب له بعد ما حكاه سبحانه عنه قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾

٤. ﴿وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ﴾ العشاء آخر النهار، وقيل: من صلاة المغرب إلى العتمة، وإنما كانوا يبكون ليلبسوا الأمر على أبيهم فيصدقهم فيما يقولون ولا يكذبهم.

٥. ﴿قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال الراغب في المفردات: (أصل السبق التقدم في السير نحو ﴿فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً﴾ والاستباق التسابق وقال: ﴿إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ﴾ ﴿وَاسْتَبَقَا الْبابَ﴾)

ب. وقال الزمخشري في الكشاف: (نستبق أي نتسابق، والافتعال والتفاعل يشتركان كالانتضال والتناضل والارتماء والترامي وغير ذلك، والمعنى نتسابق في العدو أو في الرمي)

ج. وقال صاحب المنار في تفسيره: (﴿إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ﴾ أي ذهبنا من مكان اجتماعنا إلى السباق يتكلف كل منا أن يسبق غيره فالاستباق تكلف السبق وهو الغرض من المسابقة والتسابق بصيغتي المشاركة التي يقصد بها الغلب، وقد يقصد لذاته أو لغرض آخر في السبق، ومنه ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ﴾ فهذا يقصد به السبق لذاته لا للغلب، وقوله الآتي في هذه السورة ﴿وَاسْتَبَقَا الْبابَ﴾ كان يقصد به يوسف الخروج من الدار هربا من حيث تقصد امرأة العزيز باتباعه إرجاعه، وصيغة المشاركة لا تؤدي هذا المعنى، ولم يفطن الزمخشري علامة اللغة ومن تبعه لهذا الفرق الدقيق)

• أقول: والذي مثل به من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ﴾ من موارد الغلب فإن من المندوب شرعا أن لا يؤثر الإنسان غيره على نفسه في الخيرات والمثوبات والقربات وأن يتقدم على من دونه في حيازة البركات فينطبق الاستباق حينئذ قهرا على التسابق وكذا قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبابَ﴾ فإن المراد به قطعا أن كلا منهما كان يريد أن يسبق الآخر إلى الباب هذا ليفتحه وهذه لتمنعه من الفتح وهو معنى التسابق فالحق أن معنيي الاستباق والتسابق متحدان صدقا على المورد، وفي الصحاح: (سابقته فسبقته سبقا واستبقنا في العدو أي تسابقنا)، وفي لسان العرب: (سابقته فسبقته، واستبقنا في العدو، أي تسابقنا)

• ولعل الوجه في تصادق استبق وتسابق أن نفس السبق معنى إضافي في نفسه، وزنة (افتعل) تفيد تأكد معنى (فعل) وإمعان الفاعل في فعله وأخذه حلية لنفسه كما يشاهد في مثل كسب واكتسب وحمل واحتمل وصبر واصطبر وقرب واقترب وخفي واختفى وجهد واجتهد ونظائرها، وطرو هذه الخصوصية على معنى السبق على ما به من الإضافة يفيد جهد الفاعل أن يخص السبق لنفسه ولا يتم إلا مع تسابق في المورد.

٦. ﴿بِمُؤْمِنٍ لَنا﴾:

أ. أي بمصدق لقولنا، والإيمان يتعدى باللام كما يتعدى بالباء قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، والمعنى، أنهم حينما جاءوا أباهم عشاء يبكون، قالوا لأبيهم: يا أبانا إنا معشر الإخوة ذهبنا إلى البيداء نتسابق في عدو أو رمي، ولعله كان في عدو، فإن ذلك أبلغ في إبعادهم من رحلهم ومتاعهم وكان عنده يوسف على ما ذكروا، وتركنا يوسف عند رحلنا ومتاعنا فأكله الذئب، ومن خيبتنا ومسكنتنا أنك لست بمصدق لنا فيما نقوله ونخبر به ولو كنا صادقين فيه.

ب. وقولهم: ﴿وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ﴾ كلام يأتي بمثله المعتذر إذا انقطع عن الأسباب وانسدت عليه طرق الحيلة، للدلالة على أن كلامه غير موجه عند من يعتذر إليه وعذره غير مسموع وهو يعلم بذلك لكنه مع ذلك مضطر أن يخبر بالحق ويكشف عن الصدق وإن كان غير مصدق فيه، فهو كناية عن الصدق في المقال.

٧. ﴿وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ الكذب بالفتح فالكسر مصدر أريد به الفاعل للمبالغة أي بدم كاذب بين الكذب، وفي الآية إشعار بأن القميص وعليه دم، وقد نكر الدم للدلالة على هوان دلالته وضعفها على ما وصفوه، كان على صفة تكشف عن كذبهم في مقالهم فإن من افترسته السباع وأكلته لم تترك له قميصا سالما غير ممزق، وهذا شأن الكذب لا يخلو الحديث الكاذب ولا الأحدوثة الكاذبة من تناف بين أجزائه وتناقض بين أطرافه أو شواهد من أوضاع وأحوال خارجية تحف به وتنادي بالصدق وتكشف القناع عن قبيح سريرته وباطنه وإن حسنت صورته.

٨. وضع هنا مبحثا حول [أن الكذب لا يفلح]، خلاصته:

أ. من المجرب أن الكذب لا يدوم على اعتباره، وأن الكاذب لا يلبث دون أن يأتي بما يكذبه أو

يظهر ما يكشف القناع عن بطلان ما أخبر به أو ادعاه.

ب. الكون يجري على نظام يرتبط به بعض أجزائه ببعض بنسب وإضافات غير متغيرة ولا متبدلة، فلكل حادث لوازم وملزومات متناسبة لا ينفك بعضها من بعض، وسلامة الواحد تدل على سلامة السلسلة.

ج. ليس في وسع الإنسان إذا ستر شيئاً من الحقائق الكونية أن يستر جميع اللوازمات والملزومات المرتبطة به، فإن ألقى ستراً على واحدة ظهرت الأخرى، وإلا فالثالثة، وهكذا.

د. من هنا كانت الدولة للحق وإن كانت للباطل جولة، وكانت القيمة للصدق وإن تعلقت الرغبة أحياناً بالكذب.

هـ. الآيات القرآنية تؤكد أن الكاذب لا يفلح، وأن المفتري على الله الكذب لا يفلح، وأن الذين كذبوا بالحق وقعوا في أمر مريج مختل، لأنهم بنوا على الباطل واعتمدوا عليه، فوقعوا في نظام يناقض بعض أجزائه بعضاً.

٩. ﴿قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾:

أ. هذا جواب يعقوب وقد فوجئ بنعي ابنه وحبيبه يوسف دخلوا عليه وليس معهم يوسف وهم يبكون يخبرونه أن يوسف قد أكله الذئب وهذا قميصه الملطخ بالدم، وقد كان يعلم بمبلغ حسدهم له وهم قد انتزعوه من يده بإلحاح وإصرار وجاءوا بقميصه وعليه دم كذب ينادي بكذبهم فيما قالوه وأخبروا به.

ب. فأضرب عن قولهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ﴾ بقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ والتسويل الوسوسة أي ليس الأمر على ما تخبرون بل وسوست لكم أنفسكم فيه أمرا، وأبهم الأمر ولم يعينه ثم أخبر أنه صابر في ذلك من غير أن يؤاخذهم وينتقم منهم لنفسه انتقاما وإنما يكظم ما هجم نفسه كظما.

ج. فقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ تكذيب لما أخبروا به من أمر يوسف وبيان أنه على علم من أن فقد يوسف لا يستند إلى ما ذكروه من افتراس السبع وإنما يستند إلى مكر مكروه وتسويل من أنفسهم لهم، والكلام بمنزلة التوطئة لما ذكره بعد من قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ إلى آخر الآية.

١٠. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾:

أ. مدح للصبر وهو من قبيل وضع السبب موضع المسبب والتقدير: سأصبر على ما أصابني فإن

الصبر جميل وتنكير الصبر وحذف صفته وإبهامها للإشارة إلى فخامة أمره وعظم شأنه أو مرارة طعمه وصعوبة تحمله.

ب. وقد فرع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ على ما تقدم للإشعار بأن الأسباب التي أحاطت به وأفرغت عليه هذه المصيبة هي بحيث لا يسمع له معها إلا أن يسلك سبيل الصبر، وذلك أنه عليه السلام فقد أحب الناس إليه يوسف وهو ذا يذكر له أنه صار أكلة للذئب وهذا قميصه ملطخا بالدم وهو يرى أنهم كاذبون فيما يخبرونه به، ويرى أن لهم صنعا في افتقاده ومكرا في أمره ولا طريق له إلى التحقيق فيما جرى على يوسف والتجسس مما آل إليه أمره وأين هو؟ وما حاله؟ فإنما أعوانه على أمثال هذه النوائب وأعضاده لدفع ما يقصده من المكاره إنما هم أبناؤه وهم عصبة أولوا قوة وشدة فإذا كانوا هم الأسباب لنزول النائبة ووقوع المصيبة فبمن يقع فيهم؟ وبما ذا يدفعهم عن نفسه؟ فلا يسعه إلا الصبر.

ج. غير أن الصبر ليس هو أن يتحمل الإنسان ما حمله من الرزية وينقاد لمن يقصده بالسوء انقيادا مطلقا كالأرض الميتة التي تطؤها الأقدام وتلعب بها الأيدي فإن الله سبحانه طبع الإنسان على دفع المكروه عن نفسه وجهزه بما يقدم به على النوائب والرزايا ما استطاع، ولا فضيلة في إبطال هذه الغريزة الإلهية بل الصبر هو الاستقامة في القلب وحفظ النظام النفساني الذي به يستقيم أمر الحياة الإنسانية من الاختلال، وضبط الجمعية الداخلية من التفرق والتلاشي ونسيان التدبير واختباط الفكر وفساد الرأي فالصابرون هم القائمون في النوائب على ساق لا تزيلهم هجمات المكاره، وغيرهم المنهزمون عند أول هجمة ثم لا يلوون على شيء.

د. ومن هنا يعلم أن الصبر نعم السبيل على مقاومة النائبة وكسر سورتها إلا أنه ليس تمام السبب في إعادة العافية وإرجاع السلامة فهو كالحصن يتحصن به الإنسان لدفع العدو المهاجم، وأما عود نعمة الأمن والسلامة وحرية الحياة فربما احتاج إلى سبب آخر يجر إليه الفوز والظفر، وهذا السبب في ملة التوحيد هو الله عز سلطانه فعلى الإنسان الموحد إذا نابته نائبة ونزلت عليه مصيبة أن يتحصن أولا بالصبر حتى لا يختل ما في داخله من النظام العبودي ولا يتلاشى معسكر قواه ومشاعره ثم يتوكل على ربه الذي هو فوق كل سبب راجيا أن يدفع عنه الشر ويوجه أمره إلى غاية صلاح حاله، والله سبحانه غالب على أمره، وقد تقدم شيء من هذا البحث في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]

في الجزء الأول من الكتاب.

١١. ولهذا كله لما قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ عقبه بقوله: ﴿وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾ فتمم كلمة الصبر بكلمة التوكل نظير ما أتى به في قوله في الآيات المستقبلة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [الآية: ٨٣] من السورة:

أ. فقوله: ﴿وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾، وهو من أعجب الكلام، بيان لتوكله على ربه يقول: إني أعلم أن لكم في الأمر مكرا وإن يوسف لم يأكله ذئب لكنني لا أركن في كشف كذبكم والحصول على يوسف بالأسباب الظاهرة التي لا تغني طائلا بغير إذن من الله ولا أتشحط بينها بل أضبط استقامة نفسي بالصبر وأوكل ربي أن يظهر على ما تصفون أن يوسف قد قضى نحبه وصار أكلة لذئب.

ب. فظهر أن قوله: ﴿وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾ دعاء في موقف التوكل ومعناه: اللهم إني توكلت عليك في أمري هذا فكن عونا لي على ما يصفه بني هؤلاء، والكلمة مبنية على توحيد الفعل فإنها مسوقة سوق الحصر ومعناها أن الله سبحانه هو المستعان لا مستعان لي غيره فإنه عليه السلام كان يرى أن لا حكم حقا إلا حكم الله كما قال فيما سيأتي من كلامه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، ولتكميل هذا التوحيد بما هو أعلى منه لم يذكر نفسه فلم يقل: سأصبر ولم يقل والله أستعين على ما تصفون بل ترك نفسه وذكر اسم ربه وإن الأمر منوط بحكمه الحق وهو من كمال توحيده وهو مستغرق في وجده وأسفه وحزنه ليوسف غير أنه ما كان يحب يوسف ولا يتوله فيه ولا يجد لفقده إلا لله وفي الله.

١٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: لا يشعرون أنك أنت يوسف، أتاه جبرئيل وأخبره بذلك.

ب. وفيه، وفي رواية أبي الجارود (: في قول الله: ﴿وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال: إنهم ذبحوا جديا على قميصه.

ج. وفي أمالي الشيخ، بإسناده: في قوله عز وجل: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: بلا شكوى.

• أقول: وكان الرواية عن الصادق عليه السلام بقرينة كونه مسبوقا بحديث عنه، وروي هذا المعنى في الدر المنثور، عن حيان بن جبلة عن النبي ﷺ، وفي المضامين السابقة روايات أخر.

٧. السيارة تلتقط يوسف وتبيعه بثمن بخس:

المقطع [٧] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ١٩-٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١٠٦»:

١. ﴿وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ﴾:

أ. قال الراغب: (الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره)، وقال: (دلوت الدلو إذا أرسلتها، وأدليتها إذا أخرجتها)، وقيل بالعكس، وقال: (الإسرار خلاف الإعلان)

ب. ﴿قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ﴾ إيراده بالفصل مع أنه متفرع وقوعا على إدلاء الدلو للدلالة على أنه كان أمرا غير مترقب الوقوع فإن الذي يترقب وقوعه عن الإدلاء هو خروج الماء دون الحصول على غلام فكان مفاجئا لهم ولذا قال: ﴿قالَ يا بُشْرى﴾ ونداء البشرى كنداء الأسف والويل ونظائرهما للدلالة على حضوره وجلاء ظهوره.

ج. ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ﴾ مفاده ذم عملهم والإبانة عن كونه معصية محفوظة عليهم سيؤاخذون بها، ويمكن أن يكون المراد به أن ذلك إنما كان بعلم من الله أراد بذلك أن يبلغ يوسف مبلغه الذي قدر له فإنه لو لم يخرج من الجب ولم يسر بضاعة لم يدخل بيت العزيز بمصر فلم يؤت ما أوتيه من الملك والعزة.

د. ومعنى الآية: وجاءت جماعة مارة إلى هناك فأرسلوا من يطلب لهم الماء فأرسل دلوه في الجب ثم لما أخرجها فاجأهم بقوله: يا بشرى هذا غلام، وقد تعلق يوسف بالحبل فخرج، فأخفوه بضاعة يقصد بها البيع والتجارة والحال أن الله سبحانه عليم بما يعملون يؤاخذهم عليه أو أن ذلك كان بعلمه تعالى وكان يسير يوسف هذا المسير ليستقر في مستقر العزة والملك والنبوة.

٢. ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾:

أ. الثمن البخس هو الناقص عن حق القيمة، ودراهم معدودة أي قليلة والوجه فيه، على ما قيل، إنهم كانوا إذا كثرت الدراهم أو الدنانير وزنوها ولا يعدون إلا القليلة منها والمراد بالدراهم النقود الفضية

الدائرة بينهم يومئذ، والشراء هو البيع، والزهد هو الرغبة عن الشيء أو هو كناية عن الاتقاء.

ب. والظاهر من السياق أن ضميري الجمع في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ ﴿وَكَانُوا﴾ للسيارة والمعنى أن السيارة الذين أخرجوه من الجب وأسروه بضاعة باعوه بثمن بخس ناقص وهي دراهم معدودة قليلة وكانوا يتقون أن يظهر حقيقة الحال فينتزع هو من أيديهم.

ج. ومعظم المفسرين على أن الضميرين لإخوة يوسف والمعنى أنهم باعوا يوسف من السيارة بعد أن ادعوا أنه غلام لهم سقط في البئر وهم إنما حضروا هناك لإخراجه من الجب فباعوه من السيارة وكانوا يتقون ظهور الحال، أو أن أول الضميرين للإخوة والثاني للسيارة والمعنى أن الإخوة باعوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانت السيارة من الراغبين عنه يظهرون من أنفسهم الزهد والرغبة لئلا يعلو قيمته أو يرغبون عن اشترائه حقيقة لما يحدسون أن الأمر لا يخلو من مكر وإن الغلام ليس فيه سيماء العبيد.

د. وسياق الآيات لا يساعد على شيء من الوجهين فضمائر الجمع في الآية السابقة للسيارة ولم يقع للإخوة بعد ذلك ذكر صريح حتى يعود ضمير ﴿وَشَرَوْهُ﴾ و﴿كانُوا﴾ أو أحدهما إليهم على أن ظاهر قوله في الآية التالية: ﴿وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ﴾ أنه اشتراه متحقق بهذا الشراء.

هـ. وأما ما ورد في الروايات (أن إخوة يوسف حضروا هناك وأخذوا يوسف منهم بدعوى أنه عبدهم سقط في البئر ثم باعوه منهم بثمن بخس) فلا يدفع ظاهر السياق في الآيات ولا أنه يدفع الروايات، وربما قيل: إن الشراء في الآية بمعنى الاشتراء وهو مسموع وهو نظير الاحتمالين السابقين مدفوع بالسياق.

٨. عزيز مصر يشتري يوسف ويوصي امرأته بإكرامه:

المقطع [٨] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/١٠٨»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾:

أ. السياق يدل على أن السيارة حملوا يوسف معهم إلى مصر وعرضوه هناك للبيع فاشتراه بعض أهل مصر وأدخله في بيته.

ب. وقد أعجبت الآيات في ذكر هذا الذي اشتراه وتعريفه فذكر فيها أولا بمثل قوله تعالى: ﴿وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ﴾ فأنبأت أنه كان رجلا من أهل مصر، وثانيا بمثل قوله: ﴿وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ﴾ فعرفته بأنه كان سيدا مصمودا إليه، وثالثا بمثل قوله: ﴿وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ﴾ فأوضحت أنه كان عزيزا في مصر يسلم له أهل المدينة العزة والمناعة، ثم أشارت إلى أنه كان له سجن وهو من شئون مصدرية الأمور والرئاسة بين الناس، وعلم بذلك أن يوسف كان ابتيع أول يوم لعزيز مصر ودخل بيت العزة.

ج. وبالجملة لم يعرف الرجل كل مرة في كلامه تعالى إلا بمقدار ما يحتاج إليه موقف الحديث من القصة، ولم يكن لأول مرة في تعريفه حاجة إلى أزيد من وصفه بأنه كان رجلا من أهل مصر وبها بيته فلذا اقتصر في تعريفه بقوله: ﴿وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ﴾

٢. وكيف كان، الآية تنبئ على إيجازها بأن السيارة حملوا يوسف معهم وأدخلوه مصر وشروه من بعض أهلها فأدخله بيته ووصاه امرأته قائلا: ﴿أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾:

أ. والعادة الجارية تقضي أن لا يهتم السادة والموالي بأمر أرقائهم دون أن يتفرسوا في وجه الرقيق آثار الأصالة والرشد، ويشاهد في سيماه الخير والسعادة، وعلى الخصوص الملوك والسلاطين والرؤساء الذين كان يدخل كل حين في بلاطاتهم عشرات ومئات من أحسن أفراد الغلمان والجواري فما كانوا ليتولعوا في كل من اقتنوه ولا ليتولهوا كل من ألفوه فكان لأمر العزيز بإكرام مثواه ورجاء الانتفاع به أو اتخاذه ولدا معنى عميق وعلى الأخص من جهة أنه أمر بذلك امرأته وسيدة بيته وليس من المعهود أن تباشر الملكات والعزيزات جزئيات الأمور وسفاسفها ولا أن تتصدى السيدات المنيعة مكانا، أمور العبيد والغلمان.

ب. نعم: إن يوسف عليه السلام كان ذا جمال بديع يبهر العقول ويوله الألباب، وكان قد أوتي مع جمال الخلق حسن الخلق صبورا وقورا لطيف الحركات مليح اللهجة حكيم المنطق كريم النفس نجيب الأصل، وهذه صفات لا تنمو في الإنسان إلا وأعراقها ناجمة فيه أيام صباوته وآثارها لائحة من سيماه من بادئ أمره.

ج. فهذه هي التي جذبت نفس العزيز إلى يوسف، وهو طفل صغير، حتى تمنى أن ينشأ يوسف

عنده في خاصة بيته فيكون من أخص الناس به ينتفع به في أموره الهامة ومقاصده العالية أو يدخل في أرومته ويكون ولدا له ولامرأته بالتبني فيعود وارثا لبيته.

د. ومن هنا يمكن أن يستظهر أن العزيز كان عقيما لا ولد له من زوجته ولذلك ترجى أن يتبنى هو وزوجته يوسف.

هـ. فقوله: ﴿وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ﴾ أي العزيز ﴿لِامْرَأَتِهِ﴾ وهي العزيزة ﴿أَكْرِمِي مَثْواهُ﴾ أي تصدي بنفسك أمره واجعلي له مقاما كريما عندك ﴿عَسى أَنْ يَنْفَعَنا﴾ في مقاصدنا العالية وأمورنا الهامة ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ بالتبني.

٣. ﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَاللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. قال في المفردات: (المكان عند أهل اللغة الموضع الحاوي للشيء قال ويقال: مكنته ومكنت له فتمكن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ﴾ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: قال الخليل: المكان مفعل من الكون، ولكثرته في الكلام أجرى مجرى فعال فقيل: تمكن وتمسكن مثل تمنزل)، فالمكان هو مقر الشيء من الأرض، والإمكان والتمكين الإقرار والتقرير في المحل، وربما يطلق المكان المكانة لمستقر الشيء من الأمور المعنوية كالمكانة في العلم وعند الناس ويقال: أمكنته من الشيء فتمكن منه أي أقدرته فقدر عليه وهو من قبيل الكناية.

ب. ولعل المراد من تمكين يوسف في الأرض إقراره فيه بما يقدر معه على التمتع من مزايا الحياة والتوسع فيها بعد ما حرم عليه إخوته القرار على وجه الأرض فألقوه في غيابة الجب ثم شروه بثمن بخس ليسير به الركبان من أرض إلى أرض ويتغرب عن أرضه ومستقر أبيه.

ج. وقد ذكر تعالى تمكينه ليوسف في الأرض في خلال قصته مرتين إحداهما بعد ذكر خروجه من غيابة الجب وتسيير السيارة إياه إلى مصر وبيعه من العزيز وهو قوله في هذه الآية ﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وثانيتهما بعد ذكر خروجه من سجن العزيز وانتصابه على خزائن أرض مصر حيث قال تعالى: ﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ﴾ [الآية: ٥٦] من السورة والعناية في الموضعين واحدة.

د. ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الإشارة إلى ما ذكره من إخراجه من الجب وبيعه واستقراره في بيت العزيز فإن كان المراد من تمكينه في الأرض هذا المقدار من التمكين الذي حصل له من دخوله في بيت العزيز واستقراره فيه على أهنإ عيش بتوصية العزيز فالتشبيه من قبيل تشبيه الشيء بنفسه ليدل به على غزارة الأوصاف المذكورة له وليس من القسم المذموم من تشبيه الشيء بنفسه كقوله:

كأننا والماء من حولنا...قوم جلوس حولهم ماء

بل المراد أن ما فعلنا به من التمكين في الأرض كان يماثل هذا الذي وصفناه وأخبرنا عنه فهو يتضمن من الأوصاف الغزيرة ما يتضمنه ما حدثناه فهو تلطف في البيان بجعل الشيء مثل نفسه بالتشبيه دعوى ليلفت به ذهن السامع إلى غزارة أوصافه وأهميتها وتعلق النفس بها كما هو شأن التشبيه.

هـ. ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] والمراد أن كل ما اتصف من الصفات بما اتصف به الله سبحانه لا يشبهه ولا يماثله شيء، وإن كل ما اشتمل من الصفات على ما اشتملت عليه الجنة وماثلها في صفاتها فليعمل العاملون لأجل الفوز به.

و. وإن كان المراد بالتمكين مطلق تمكينه في الأرض فتشبيهه بما ذكر من الوصف من قبيل تشبيه الكلي ببعض أفراده ليدل به على أن سائر الأفراد حالها حال هذا الفرد أو تشبيه الكل ببعض أجزائه للدلالة على أن الأجزاء الباقية حالها حال ذاك الجزء المذكور فيكون المعنى كان تمكيننا ليوسف في الأرض يجري على هذا النمط المذكور في قصة خروجه من الجب ودخوله مصر واستقراره في بيت العزيز على أحسن حال فإن إخوته حسدوه وحرموا عليه القرار على وجه الأرض عند أبيه فألقوه في غيابة الجب وسلبوه نعمة التمتع في وطنه في البادية وباعوه من السيارة ليغربوه من أهله فجعل الله سبحانه كيدهم هذا بعينه سببا يتوسل به إلى التمكن والاستقرار في بيت العزيز بمصر على أحسن حال ثم تعلقت به امرأة العزيز وراودته هي ونسوة مصر ليوردنه في الصبوة والفحشاء فصرف الله عنه كيدهن وجعل ذلك بعينه وسيلة لظهور إخلاصه وصدقه في إيمانه ثم بدا لهم أن يجعلوه في السجن ويسلبوا عنه حرية معاشرة الناس والمخالطة لهم فتسبب الله سبحانه بذلك بعينه إلى تمكينه في الأرض تمكينا يتبوأ من الأرض حيث يشاء لا يمنعه مانع ولا يدفعه دافع.

ز. وبالجملة الآية على هذا التقدير من قبيل قوله تعالى: ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٤] وقوله: ﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ﴾ [الرعد: ١٧] أي إن إضلاله تعالى للكافرين يجري دائما هذا المجرى، وضربه الأمثال أبدا على هذا النحو من المثل المضروب وهو أنموذج ينبغي أن يقاس إليه غيره.

٤. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ﴾ بيان لغاية التمكين المذكور واللام للغاية، وهو معطوف على مقدر والتقدير: مكنا له في الأرض لنفعل به كذا وكذا ولنعلمه من تأويل الأحاديث وإنما حذف المعطوف عليه للدلالة على أن هناك غايات أخر لا يسعها مقام التخاطب، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] ونظائره.

٥. ﴿وَاللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بالأمر الشأن وهو ما يفعله في الخلق مما يتركب منه نظام التدبير قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، وإنما أضيف إليه تعالى لأنه مالك كل أمر كما قال تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]

ب. والمعنى أن كل شأن من شئون الصنع والإيجاد من أمره تعالى وهو تعالى غالب عليه وهو مغلوب له مقهور دونه يطيعه فيما شاء، ينقاد له فيما أراد، ليس له أن يستكبر أو يتمرد فيخرج من سلطانه كما ليس له أن يسبقه تعالى ويفوته قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣]، وبالجملة هو تعالى غالب على هذه الأسباب الفعالة بإذنه يحمل عليها ما يريده فليس لها إلا السمع والطاعة ولكن أكثر الناس لا يعلمون لحسبانهم أن الأسباب الظاهرة مستقلة في تأثيرها فعاله برءوسها فإذا ساقت الحوادث إلى جانب لم يحولها عن وجهتها شيء وقد أخطئوا.

٩. يوسف يبلغ أشده ويؤتى حكماً وعلماً:

المقطع [٩] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١١٧»:

١. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾:

أ. بلوغ الأشد أن يعمر الإنسان ما تشتد به قوى بدنه وتتقوى به أركانه بذهاب آثار الصباوة، ويأخذ ذلك من ثمانية عشر من عمره إلى سن الكهولة التي عندها يكمل العقل ويتم الرشد.

ب. والظاهر أن المراد به الانتهاء إلى أول سن الشباب دون التوسط فيه أو الانتهاء إلى آخره كالأربعين، والدليل عليه قوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ [القصص: ١٤] حيث دل على التوسط فيه بقوله: ﴿اسْتَوَى﴾، وقوله: ﴿حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ الآية: [الأحقاف: ١٥] فلو كان بلوغ الأشد هو بلوغ الأربعين لم تكن حاجة إلى تكرار قوله: ﴿بَلَغَ﴾

ج. فلا مجال لما ذكره بعضهم: أن المراد ببلوغ الأشد بلوغ الثلاثين أو الثلاث والثلاثين، وكذا ما قاله آخرون إن المراد به بلوغ الأربعين وهو سن الأربعين، على أن من المضحك أن تصبر امرأة العزيز عن يوسف مدى عنفوان شبابه وريعان عمره حتى إذا بلغ الأربعين من عمره وأشرف على الشيخوخة تعلقت به وراودته عن نفسه.

٢. ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً﴾:

أ. الحكم هو القول الفصل وإزالة الشك والريب من الأمور القابلة للاختلاف، على ما يتحصل من اللغة، ولازمه إصابة النظر في عامة المعارف الإنسانية الراجعة إلى المبدإ والمعاد والأخلاق النفسانية والشرائع والآداب المرتبطة بالمجتمع البشري.

ب. وبالنظر إلى قوله عليه السلام لصاحبيه في السجن: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ [الآية: ٤٠] من السورة، وقوله بعد: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ﴾ [الآية: ٤١] من السورة يعلم أن هذا الحكم الذي أوتيه كان هو حكم الله فكان حكمه حكم الله، وهذا هو الذي سأله إبراهيم عليه السلام من ربه إذ قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]

٣. ﴿وَعِلْماً﴾ وهذا العلم المذكور المنسوب إلى إيتائه تعالى كيفما كان وأي مقدار كان علم لا يخالطه جهل كما أن الحكم المذكور معه حكم لا يخالطه هوى نفساني ولا تسويل شيطاني كيف؟ والذي آتاهما هو الله سبحانه وقد قال تعالى: ﴿وَاللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ﴾ [الآية: ٢١] من السورة، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣] فما آتاه من الحكم لا يخالطه تزلزل الريب والشك، وما يؤتيه من العلم لا يكون جهلا البتة.

٤. ثم من المعلوم أن هذه المواهب الإلهية ليست بأعمال جزافية ولا لغوا أو عبثا منه تعالى فالنفوس التي تؤتى هذا الحكم والعلم لا تستوي هي والنفوس الخاطئة في حكمها المنغمرة في جهلها، وقد قال

تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً﴾ [الأعراف: ٥٨] وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ حيث يدل على أن هذا الحكم والعلم اللذين آتاهما الله إياه لم يكونا موهبتين ابتدائيتين لا مستدعي لهما أصلا بل هما من قبيل الجزاء جزاه الله بهما لكونه من المحسنين.

٥. وليس من البعيد أن يستفاد من قوله: ﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إن الله تعالى يجزي كل محسن، على اختلاف صفات الإحسان، شيئا من الحكم والعلم يناسب موقعه في الإحسان وقد قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] وقال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

٦. وهذا العلم المذكور في الآية يتضمن ما وعد الله سبحانه تعليمه ليوسف من تأويل الأحاديث فإنه واقع بين قوله تعالى في الآيات السابقة: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ﴾ وقوله حكاية عن يوسف في قوله لصاحبيه في السجن: ﴿ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ فافهم ذلك.

١٠. امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه ويعتصم بالله:

المقطع [١٠] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١١٩»:

١. ﴿وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾:

أ. قال في المفردات: (الرود هو التردد في طلب الشيء برفق ومنه الرائد لطالب الكلاء، قال: والإرادة منقولة من راد يرود إذا سعى في طلب شيء، قال: والمراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد أو ترود غير ما يرود، وراودت فلانا عن كذا، قال تعالى: ﴿هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ وقال: ﴿تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي تصرفه عن رأيه، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ﴿سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ﴾) وفي المجمع: (المراودة المطالبة بأمر بالرفق واللين ليعمل به ومنه المرود لأنه يعمل به، ولا يقال في المطالبة بدين: راوده، وأصله من راد يرود إذا طلب المرعى، وفي المثل: الرائد لا يكذب أهله، والتغليق إطباق

الباب بما يعسر فتحه، وإنما شدد ذلك لتكثير الإغلاق أو للمبالغة في الإيثاق) وهيت لك اسم فعل بمعنى هلم، ومعاذ الله أي أعوذ بالله معاذا فهو مفعول مطلق قائم مقام فعله.

ب. والآية الكريمة ﴿وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ على ما فيها من الإيجاز تنبئ عن إجمال قصة المراودة غير أن التدبر في القيود المأخوذة فيها والسياق الذي هي واقعة فيه وسائر ما يلوح من أطراف قصته المورودة في السورة يجلي عن حقيقة الحال ويكشف القناع عن تفصيل ما خبأ من الأمر.

٢. وضع هنا مبحثا حول [يوسف وامرأة العزيز]، خلاصته:

أ. يوسف عليه السلام دخل بيت العزيز طفلاً صغيراً، كان ساكتاً مختوماً على لسانه، لا يتكلم بشيء، لكن قلبه كان مليئاً بما يشاهده من لطف صنع الله به، وما بثه إليه أبوه يعقوب من حقيقة التوحيد ومعنى العبودية.

ب. كان يوسف مملوء الحس مستغرق النفس في مشاهدة ألطاف ربه الخفية، يرى نفسه تحت ولاية الله محبوراً بصنائعه الجميلة، لا يرد إلا على خير ولا يواجه إلا جميلاً، وهذا هو الذي هون عليه النوائب والمحن فصبر عليها.

ج. تمكنت المحبة الإلهية من يوسف حتى استقر الوله والهيمان في سره، فكان همه في ربه لا يشغله عنه شاغل ولا يصرفه عنه صارف، وهذا واضح في محاوراته: ﴿مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾، ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾

د. امرأة العزيز كانت مشغوفة بحب يوسف، اجتهدت في إكرامه وتحسين مثواه، وازداد حبها له كلما مضت الأيام، حتى راودته عن نفسه بعد أن غلقت الأبواب، متوسلة بالعزة والملك والأمر المولوي.

هـ. يوسف قابل مراودتها بقوله: ﴿مَعاذَ اللهِ﴾، فلم يتوسل بسبب ظاهر (كخوف العزيز أو العفة أو الثواب والعقاب)، بل استمسك بعروة التوحيد الخالص، لأن قلبه كان متعلقاً بالله وحده، فأنساه الأسباب كلها حتى أنساه نفسه.

و. قوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾ يفيد أنه موحد لا يرى شرك الوثنية، وأنه يرى ما ينسب من جميل الآثار إلى الأسباب فعلاً جميلاً لله في عين هذا الانتساب، وأنه يعوذ بالله من الظلم لأنه لا يفلح

الظالمون، وأنه مربوب مملوك لله ليس له من الأمر شيء.

ز. الواقعة كانت تنازعاً بين حب إلهي وعشق حيواني، وكانت كلمة الله هي العليا، فأخذته الجذبة السماوية الإلهية، والله غالب على أمره.

٣. ﴿قالَ مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾ إلى آخر الآية جواب ليوسف يقابل به مسألتها بالعياذ بالله يقول: (أعوذ بالله معاذا مما تدعينني إليه لأنه ربي الذي تولى أمري وأحسن مثواي وجعلني بذلك سعيدا مفلحا ولو اقترفت هذا الظلم لتغربت به عن الفلاح وخرجت به من تحت ولايته، وقد راعى عليه السلام في كلامه هذا أدب العبودية كله كما تقدم وقد أتى أولا بلفظة (الجلالة) ثم بصفة الربوبية ليدل به على أنه لا يعبد ربا غير الله ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

٤. واحتمل عدة من المفسرين أن يكون الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾ للشأن، والمراد أن ربي ومولاي وهو العزيز، بناء على ظاهر الأمر فقد اشترى يوسف من السيارة، أحسن مثواي حيث أمركم بإكرام مثواي، ولو أجبتك على ما تسألين لكان ذلك خيانة له وما كنت لأخونه، ونظير الوجه قول بعضهم: إن الضمير عائد إلى العزيز وهو اسم إن وخبرها قوله: ﴿رَبِّي﴾، وقوله: ﴿أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾، خبر بعد خبر:

أ. وفيه أنه لو كان كذلك لكان الأنسب أن يقال: إنه لا يفلح الخائنون كما قال للرسول وهو في السجن: ﴿ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ﴾ [الآية: ٥٢] من السورة ولم: يقل إني لم أظلمه بالغيب.

ب. على أنه عليه السلام لم يكن ليعد العزيز ربا لنفسه، وهو حر غير مملوك له وإن كان الناس يزعمون ذلك بناء على الظاهر، وقد قال لأحد صاحبيه في السجن: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الآية: ٤٢] من السورة، وقال لرسول الملك: ﴿ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ﴾ [الآية: ٥١] من السورة ولم يعبر عن الملك بلفظ ربي على عادتهم في ذكر الملوك، وقال أيضا لرسول الملك: ﴿فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ حيث يأخذ الله سبحانه ربا لنفسه قبال ما يأخذ الملك ربا للرسول.

ج. ويؤيد ما ذكرنا أيضا قوله في الآية التالية: ﴿لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ﴾

٥. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لولا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ

عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ التدبر البالغ في أطراف القصة وإمعان النظر فيما محتف به الجهات والأسباب والشرائط العاملة فيها:

أ. يعطي أن نجاة يوسف منها لم تكن إلا أمرا خارقا للعادة وواقعة هي أشبه بالرؤيا منها باليقظة، فقد كان يوسف عليه السلام رجلا ومن غريزة الرجال الميل إلى النساء، وكان شابا بالغا أشده وذلك أوان غليان الشهوة وثوران الشبق، وكان ذا جمال بديع يدهش العقول ويسلب الألباب والجمال والملاحة يدعو إلى الهوى والترح، وكان مستغرقا في النعمة وهنيء العيش محبورا بمثوى كريم وذلك من أقوى أسباب التهوس والإتراف، وكانت الملكة فتاة فائقة الجمال وكذلك تكون حرم الملوك والعظماء.

ب. وكانت لا محالة متزينة بما يأخذ بمجامع كل قلب، وهي عزيزة مصر وهي عاشقة والهة تتوق إليها النفوس وتتوق نفسها إليه، وكانت لها سوابق الإكرام والإحسان والإنعام ليوسف وذلك كله مما يقطع اللسان ويصمت الإنسان، وقد تعرضت له ودعته إلى نفسها والصبر مع التعرض أصعب، وقد راودته هذه الفتانة وأتت فيها بما في مقدرتها من الغنج والدلال، وقد ألحت عليه فجذبته إلى نفسها حتى قدت قميصه والصبر معها أصعب وأشق، وكانت عزيزة لا يرد أمرها ولا يثنى رأيها، وهي ربته خصه بها العزيز، وكانا في قصر زاه من قصور الملوك ذي المناظر الرائقة التي تبهر العيون وتدعو إلى كل عيش هنيء.

ج. وكانا في خلوة وقد غلقت الأبواب وأرخت الستور، وكان لا يأمن الشر مع الامتناع، وكان في أمن من ظهور الأمر وانهتاك الستر لأنها كانت عزيزة بيدها أسباب الستر والتعمية، ولم تكن هذه المخالطة فائتة لمرة بل كان مفتاحا لعيش هنيء طويل، وكان يمكن ليوسف أن يجعل هذه المخالطة والمعاشقة وسيلة يتوسل بها إلى كثير من آمال الحياة وأمانيها كالملك والعزة والمال.

د. فهذه أسباب وأمور هائلة لو توجهت إلى جبل لهدته أو أقبلت على صخرة صماء لأذابتها ولم يكن هناك مما يتوهم مانعا إلا الخوف من ظهور الأمر أو مناعة نسب يوسف أو قبح الخيانة للعزيز.

هـ. أما الخوف من ظهور الأمر فقد مر أنه كان في أمن منه، ولو كان بدأ من ذلك شيء لكان في وسع العزيزة أن تؤوله تأويلا كما فعلت فيما ظهر من أمر مراودتها فكادت حتى أرضت نفس العزيز إرضاء فلم يؤاخذها بشيء وقلبت العقوبة ليوسف حتى سجن.

و. وأما مناعة النسب فلو كانت مانعة لمنعت إخوة يوسف عما هو أعظم من الزنا وأشد إثما فإنهم

كانوا أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب أمثال يوسف فلم تمنعهم، شرافة النسب من أن يهموا بقتله ويلقوه في غيابت الجب ويبيعوه من السيارة بيع العبيد ويثكلوا فيه أباهم يعقوب النبي عليه السلام فبكى حتى ابيضت عيناه.

ز. وأما قبح الخيانة وحرمتها فهو من القوانين الاجتماعية والقوانين الاجتماعية إنما تؤثر أثرها بما تستتبعه من التبعة على تقدير المخالفة، وذلك إنما يتم فيما إذا كان الإنسان تحت سلطة القوة المجرية والحكومة العادلة، وأما لو أغفلت القوة المجرية أو فسقت فأهملت أو خفي الجرم عن نظرها أو خرج من سلطانها فلا تأثير حينئذ لشيء من هذه القوانين كما ستتكلم فيه عن قريب.

ح. فلم يكن عند يوسف عليه السلام ما يدفع به عن نفسه ويظهر به على هذه الأسباب القوية التي كانت لها عليه إلا أصل التوحيد وهو الإيمان بالله، وإن شئت فقل المحبة الإلهية التي ملأت وجوده وشغلت قلبه فلم تترك لغيرها محلا ولا موضع إصبع فهذا هو ما يفيده التدبر في القصة، ولنرجع إلى متن الآية.

٦. فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لولا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ لا ريب أن الآية تشير إلى وجه نجاة يوسف من هذه الغائلة، والسياق يعطي أن المراد بصرف السوء والفحشاء عنه إنجاؤه مما أريد منه وسئل بالمراودة والخلوة، وأن المشار إليه بقوله: ﴿كَذلِكَ﴾ هو ما يشتمل عليه قوله: ﴿أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ﴾

٧. فيئول معنى قوله: ﴿كَذلِكَ لِنَصْرِفَ﴾ إلى آخر الآية إلى أنه عليه السلام لما كان من عبادنا المخلصين صرفنا عنه السوء والفحشاء بما رأى من برهان ربه فرؤية برهان ربه هي السبب الذي صرف الله سبحانه به السوء والفحشاء عن يوسف عليه السلام.

٨. ولازم ذلك أن يكون الجزاء المقدر لقوله: ﴿لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ﴾ هو ارتكاب السوء والفحشاء، ولازم ذلك أن يكون ﴿لَوْلا أَنْ رَأى﴾ قيدا لقوله: ﴿وَهَمَّ بِها﴾ وذلك يقتضي أن يكون المراد بهمه بها نظير همها به هو القصد إلى المعصية ويكون حينئذ همه بها داخلا تحت الشرط، والمعنى أنه لولا أن رءا برهان ربه لهم بها وأوشك أن يرتكب فإن ﴿لَوْلا﴾ وإن كانت ملحقة بأدوات الشرط وقد منع النحاة تقدم جزائها عليها قياسا على إن الشرطية إلا أن قوله: ﴿وَهَمَّ بِها﴾ ليس جزاء لها بل هو مقسم به بالعطف

على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ وهو في معنى الجزاء استغنى به عن ذكر الجزاء فهو كقولنا: والله لأضربنه إن يضربني والمعنى: والله إن يضربني أضربه.

٩. ومعنى الآية: والله لقد همت به والله لولا أن رءا برهان ربه لهم بها وأوشك أن يقع في المعصية، وإنما قلنا: أوشك أن يقع، ولم نقل: وقع لأن الهم، كما قيل، لا يستعمل إلا فيما كان مقرونا بالمانع كقوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا﴾ [التوبة: ٧٤]، وقوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وقول صخر:

أهم بأمر الحزم لا أستطيعه...وقد حيل بين العير والنزوان

فلولا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهم والاقتراب دون الارتكاب والاقتراف، وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ﴾ ولم يقل: لنصرفه من السوء والفحشاء فتدبر فيه.

١٠. ومن هنا يظهر أن الأنسب أن يكون المراد بالسوء هو الهم بها والميل إليها كما أن المراد بالفحشاء اقتراف الفاحشة وهي الزنا فهو عليه السلام لم يفعل ولم يكد، ولو لا ما أراه الله من البرهان لهم وكاد أن يفعل، وهذا المعنى هو الذي يؤيده ما قدمناه من الاعتبار والتأمل في الأسباب والعوامل المجتمعة في هذا الحين القاضية لها عليه.

١١. فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ اللام فيه للقسم، والمعنى وأقسم لقد قصدت يوسف بما تريده منه ولا يكون الهم إلا بأن تشفع الإرادة بشيء من العمل، ﴿وَهَمَّ بِها لولا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ﴾ معطوف على مدخول لام القسم من الجملة السابقة، والمعنى أقسم لولا رؤيته برهان ربه لهم بها وكاد أن يجيبها لما تريده منه.

١٢. والبرهان هو السلطان ويراد به السبب المفيد لليقين لتسلطه على القلوب كالمعجزة قال تعالى: ﴿فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ [القصص: ٣٢]، وقال: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال: ﴿أَإِلهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤] وهو الحجة اليقينية التي تجلي الحق ولا تدع ريبا لمرتاب.

١٣. والذي رآه يوسف عليه السلام من برهان ربه وإن لم يوضحه كلامه تعالى كل الإيضاح لكنه،

على أي حال، كان سببا من أسباب اليقين لا يجامع الجهل والضلال بتاتا، ويدل على أنه كان من قبيل العلم قول يوسف عليه السلام فيما يناجي ربه كما سيأتي: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الآية: ٣٣] من السورة، ويدل على أنه ليس من العلم المتعارف بحسن الأفعال وقبحها ومصلحتها ومفسدتها إن هذا النوع من العلم قد يجامع الضلال والمعصية وهو ظاهر قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]

١٤. فالبرهان الذي أراه به وهو الذي يريه الله عباده المخلصين نوع من العلم المكشوف واليقين المشهود تطيعه النفس الإنسانية طاعة لا تميل معها إلى معصية أصلا، وسنورد فيه بعض الكلام إن شاء الله تعالى.

١٥. ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ اللام في ﴿لِنَصْرِفَ﴾ للغاية أو التعليل والمآل واحد و﴿كَذَلِكَ﴾ متعلق بقوله: ﴿لِنَصْرِفَ﴾ والإشارة إلى ما ذكر من رؤية برهان ربه، والسوء هو الذي يسوء صدوره من العبد بما هو عبد وهو مطلق المعصية أو الهم بها، والفحشاء هو ارتكاب الأعمال الشنيعة كالزنا، وقد تقدم أن ظاهر السياق انطباق السوء والفحشاء على الزنا والهم به، والمعنى: الغاية، أو السبب، في أن رءا برهان ربه هي أن نصرف عنه الفحشاء والهم بها.

١٦. ومن لطيف الإشارة في الآية ما في قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ حيث أخذ السوء والفحشاء مصروفين عنه لا هو مصروفا عنهما، لما في الثاني من الدلالة على أنه كان فيه ما يقتضي اقترافهما المحوج إلى صرفه عن ذلك، وهو ينافي شهادته تعالى بأنه من عباده المخلصين وهم الذين أخلصهم الله لنفسه فلا يشاركه فيهم شيء فلا يطيعون غيره من تسويل شيطان أو تزيين نفس أو أي داع يدعو من دون الله سبحانه.

١٧. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ في مقام التعليل لقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ﴾ (إلخ) والمعنى: عاملنا يوسف كذلك لأنه من عبادنا المخلصين، وهم يعاملون هذه المعاملة.

١٨. ويظهر من الآية:

أ. أن من شأن المخلصين من عباد الله أن يروا برهان ربهم، وإن الله سبحانه يصرف كل سوء

وفحشاء عنهم فلا يقترفون معصية ولا يهمون بها بما يريهم الله من برهانه، وهذه هي العصمة الإلهية.

ب. ويظهر أيضا أن هذا البرهان سبب علمي يقيني لكن لا من العلوم المتعارفة المعهودة لنا.

١٩. لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ وبيان حقيقة هم يوسف عليه السلام]، خلاصته:

أ. بيان أن نسبة الهم بالفاحشة إلى يوسف عليه السلام باطلة، لأنها تتنافى مع عصمة الأنبياء ومع ما أثنى الله عليه من الإخلاص والعبودية.

ب. إثبات أن الهم في اللغة لا يطلق على مجرد ميل الطبع، بل هو القصد إلى الفعل مع مقارنة بعض مقدماته، وهذا لا يصح نسبته إلى نبي معصوم.

ج. توضيح أن قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ يدل على أن الهم كان مشروطاً بالبرهان، وأن جواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف تقديره: ﴿لَهَمَّ بِهَا﴾، والقرينة تدل على أن الهم لم يقع.

د. الرد على القول بأن الهم كان بضربها أو دفعها عن نفسه، وبيان أن ذلك خلاف الظاهر ولا دليل عليه.

هـ. بيان أن حمل الهم على ميل الطبع لا يصح لغوياً، لأن الهم لا يطلق على مجرد الميل، بل على العزم والقصد.

و. توضيح أن البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام ليس أمراً حسياً أو خارقاً، بل هو العلم اليقيني بحرمة الزنا وعظمته، وهو من مقام العصمة والإخلاص.

ز. بيان أن القول بتقديم وتأخير في الآية لا دليل عليه، وأن السياق يأباه.

ح. الرد على من زعم أن الهم كان في المنام، وبيان أنه تحكم لا دليل عليه.

٢٠. أحاديث وآثار:

أ. في المعاني، بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن السجاد عليه السلام في حديث تقدم صدره في البحث الروائي السابق، قال عليه السلام: وكان يوسف من أجمل أهل زمانه، فلما راهق يوسف راودته امرأة الملك عن نفسه، فقال: معاذ الله إنا أهل بيت لا يزنون، فغلقت الأبواب عليها وعليه وقالت: لا تخف وألقت

نفسها عليه، فأفلت منها هاربا إلى الباب ففتحه، فلحقته فجذبت قميصه من خلفه، فأخرجته منه فأفلت يوسف منها في ثيابه، فألفيا سيدها لدى الباب، قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءا، إلا أن يسجن أو عذاب أليم، قال: فهم الملك بيوسف ليعذبه فقال له يوسف: ما أردت بأهلك سوءا، بل هي راودتني عن نفسي، فسل هذا الصبي أينا راود صاحبه عن نفسه؟ قال: كان عندها من أهلها صبي زائر لها، فأنطق الله الصبي لفصل القضاء، فقال: أيها الملك انظر إلى قميص يوسف، فإن كان مقدودا من قدامه فهو الذي راودها، وإن كان مقدودا من خلفه فهي التي راودته، فلما سمع الملك كلام الصبي وما اقتصه، أفزعه ذلك فزعا شديدا فجيء بالقميص، فنظر إليه فلما رآه مقدودا من خلفه قال لها: إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم، وقال ليوسف: أعرض عن هذا ولا يسمعه منك أحد واكتمه، قال: فلم يكتمه يوسف وأذاعه في المدينة، حتى قلن نسوة منهن: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، فبلغها ذلك فأرسلت إليهن، وهيأت لهن طعاما ومجلسا، ثم أتتهن بأترنج وآتت كل واحدة منهن سكينا، ثم قالت ليوسف اخرج عليهن، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن، وقلن ما قلن يعني النساء فقالت لهن: هذا الذي لمتنني فيه تعني في حبه، وخرجن النسوة من تحتها، فأرسلت كل واحدة منهن إلى يوسف سرا من صاحبتها، تسأله الزيارة فأبى عليهن وقال: إلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن، وأكن من الجاهلين وصرف الله عنه كيدهن، فلما شاع أمر يوسف وامرأة العزيز والنسوة في مصر، بدا للملك بعد ما سمع قول الصبي، ليسجنن يوسف فسجنه في السجن، ودخل السجن مع يوسف فتيان، وكان من قصتهما وقصة يوسف ما قصه الله في الكتاب، قال أبو حمزة: ثم انقطع حديث علي بن الحسين عليه السلام.

• أقول وروى ما في معناه العياشي في تفسيره عن أبي حمزة عنه عليه السلام باختلاف يسير، وقوله عليه السلام: (قال معاذ الله إنا أهل بيت لا يزنون) تفسير بقرينة المحاذاة لقوله في الآية: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾ وهو يؤيد ما قدمناه في بيان الآية أن الضمير إلى الله سبحانه لا إلى عزيز مصر كما ذهب إليه أكثر المفسرين فافهم ذلك.

• وقوله: فأبى عليهن وقال: ﴿إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي﴾ ظاهر في أنه عليه السلام لم يأخذ قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ جزءا من الدعاء فيوافق ما قدمناه في بيان الآية أنه ليس بدعاء.

ب. وفي العيون، بإسناده عن حمدان عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده

الرضا علي بن موسى، فقال له المأمون: يا ابن رسول الله، أليس من قولك: إن الأنبياء معصومون: قال: بلى، وذكر الحديث إلى أن قال فيه: فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لولا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ﴾ فقال الرضا عليه السلام: لقد همت به ولو لا أن رءا برهان ربه، لهم بها لكنه كان معصوما، والمعصوم لا يهم بذنب ولا يأتيه، ولقد حدثني أبي عن أبيه الصادق عليه السلام أنه قال: همت بأن تفعل وهم بأن لا يفعل، فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن.

• أقول: تقدم أن ابن الجهم هذا لا يخلو عن شيء لكن صدر الحديث أعني جواب الرضا عليه السلام يوافق ما قدمناه في بيان الآية وأما ما نقله عن جده الصادق عليه السلام (أنها همت بأن تفعل وهم بأن لا يفعل) فلعل المراد به ما ذكره الرضا عليه السلام من الجواب لقبوله الانطباق عليه ولعل المراد به همه بقتلها كما يؤيده الحديث الآتي فينطبق على بعض الاحتمالات المتقدمة في بيان الآية.

ج. وفيه، بإسناده عن أبي الصلت الهروي قال: لما جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا، عليه السلام أهل المقالات من أهل الإسلام، ومن الديانات من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين، وسائر أهل المقالات فلم يقم أحد إلا وقد ألزمه حجته، كأنه ألقم حجرا، قام إليه علي بن محمد بن الجهم، فقال: يا ابن رسول الله أتقول بعصمة الأنبياء؟ فقال: نعم، فقال له فما تقول في قوله عز وجل في يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها﴾؟ فقال له: أما قوله تعالى في يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها﴾ فإنها همت بالمعصية وهم يوسف بقتلها، إن أجبرته لعظيم ما تداخله، فصرف الله عنه قتلها والفاحشة، وهو قوله عز وجل: ﴿كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ﴾ والسوء القتل والفحشاء الزنا.

د. أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب: في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها﴾ قال: طمعت فيه وطمع فيها، وكان من الطمع أن هم بحل التكة، فقامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت، فسترته بثوب أبيض بينها وبينه، فقال: أي شيء تصنعين؟ فقالت: أستحيي من إلهي أن يراني على هذه الصورة، فقال يوسف عليه السلام: تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب، ولا أستحيي أنا من إلهي، الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت؟ ثم قال: لا تنالينها مني أبدا، وهو البرهان الذي رأى.

• أقول: والرواية من الموضوعات كيف؟ وكلامه وكلام سائر أئمة أهل البيت عليه السلام مشحون بذكر عصمة الأنبياء ومذهبهم في ذلك مشهور.

• على أن سترها الصنم وانتقاله من ذلك إلى ما ذكره لها من الحجة لا يعد من رؤية البرهان، وقد ورد هذا المعنى في عدة روايات من طرق أهل البيت عليه السلام لكنها آحاد لا تعويل عليها، نعم لا يبعد أن تقوم المرأة إلى ستر صنم كان هناك فتنزع نفس يوسف عليه السلام إلى مشاهدة آية التوحيد عند ذلك فيرتفع الحجاب بينه وبين ساحة الكبرياء فيرى ما يصرفه عن كل سوء وفحشاء كما كان له ذلك من قبل، وقد قال تعالى في حقه: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، فإن صح شيء من هذه الروايات فليكن هذا معناه.

هـ. أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: عثر يوسف عليه السلام ثلاث عثرات: حين هم بها فسجن، وحين قال: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فلبث في السجن بضع سنين، فأنساه الشيطان ذكر ربه، وحين قال: ﴿إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾ قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل.

• أقول: والرواية تخالف صريح كلامه تعالى حيث يذكر أن الله اجتباه وأخلصه لنفسه وأن الشيطان لا سبيل له إلى من أخلصه الله لنفسه وكيف يستقيم لمن هم على أفحش معصية وأنساه الشيطان ذكر ربه ثم كذب في مقاله فعاقبه الله بالسجن ثم بلبثه فيه بضع سنين وجبه بالسرقة أن يعده الله صديقا من عباده المخلصين والمحسنين، ويذكر أنه آتاه الحكم والعلم واجتباه وأتم عليه نعمته، وعلى هذا السبيل روايات جمة رواها في الدر المنثور، وقد تقدم نقل شطر منها عند بيان الآيات، ولا تعويل على شيء منها.

١١. فرار يوسف وتمزق قميصه وحكم الشاهد:

المقطع [١١] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٥-٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١٤٠»:

١. ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ الاستباق هو التسابق وقد تقدم، والقد القط هو الشق إلا أن القد هو الشق طولا والقط هو الشق عرضا، والدبر والقبل كالخلف والأمام، والسياق يعطي أن استباقها كان لغرضين مختلفين فكان يوسف عليه السلام يريد أن يفتحه ويتخلص منها بالخروج من

البيت، وامرأة العزيز كانت تريد أن تسبقه إليه فتمنعه من الفتح والخروج لعلها تفوز بما تريده منه، وإن يوسف سبقها إلى الباب فاجتذبته من قميصه من الوراء فقدته ولم ينقد إلا لأنه كان في حال الهرب مبتعدا منها وإلا لم ينشق طولا.

٢. ﴿وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ﴾ الإلفاء الوجدان يقال: ألفيته كذا أي وجدت والمراد بسيدها زوجها، قيل: إنه جري على عرف مصر وقد كانت النساء بمصر يلقبن زوجهن بالسيد، وهو مستمر إلى هذا الزمان.

٣. ﴿قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾:

أ. لما ألفيا سيدها لدى الباب انقلب مجلس المراودة إلى موقف التحقيق، وإنما أوجد هذا الموقف وجود العزيز لدى الباب وحضورهما والهيئة هذه الهيئة عنده، ويتكفل ما جرى في هذا الموقف قوله: ﴿وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ﴾ إلى تمام خمس آيات.

ب. فبدأت امرأة العزيز تشكو يوسف إليه وتسأله أن يجازيه فذكرت أنه أراد بها سوءا وعليه أن يسجنه أو يعذبه عذابا أليما لكنها لم تصرح بذلك ولا بشيء من أطراف الواقعة بل كنت وأتت بحكم عام عقلائي يتضمن مجازاة من قصد ذوات البعل بالفحشاء فقالت: ﴿ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ فلم يصرح باسم يوسف وهو المريد، ولا باسم نفسها وهي الأهل، ولا باسم السوء وهو الزنا بذات البعل كل ذلك تأدبا في حضرة العزيز وتقديسا لساحته.

ج. ولم يتعين الجزاء بل رددته بين السجن والعذاب الأليم لأن قلبها الواله إليه المليء بحبه ما كان يساعدها على التعيين فإن في الإبهام نوعا من الفرج إلا أن في تعبيرها بقولها: ﴿بِأَهْلِكَ﴾ نوعا من التحريض عليه وتهييجه على مؤاخذته ولم يكن ذلك إلا كيدا منها للعزيز بالتظاهر بالوجد والأسى لئلا يتفطن بواقع الأمر فيؤاخذها أما إذا صرفته عن نفسها المجرمة فإن صرفه عن مؤاخذة يوسف عليه السلام لم يكن صعبا عليها تلك الصعوبة.

٤. ﴿قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾:

أ. لم يبدأ يوسف عليه السلام بالقول أدبا مع العزيز وصونا لها أن يرميها بالجرم لكن لما اتهمته بقصدها بالسوء لم ير بدا دون أن يصرح بالحق فقال: ﴿هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ وفي الكلام دلالة على

القصر وهي من قصر القلب أي لم أردها بالسوء بل هي التي أرادت ذلك فراودتني عن نفسي.

ب. وفي كلامه هذا، وهو خال عن أقسام التأكيد كالقسم ونحوه، دلالة على سكون نفسه عليه السلام وطمأنينته وأنه لم يحتشم ولم يجزع ولم يتملق حين دعوى براءته مما رمته به إذ كان لم يأت بسوء ولا يخافها ولا ما اتهمته وقد استعاذ بربه حين قال: ﴿مَعاذَ اللهِ﴾

٥. ﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. لما كانت الشهادة في معنى القول كان قوله: ﴿إِنْ كانَ قَمِيصُهُ﴾ بمنزلة مقول القول بالنسبة إليه فلا حاجة إلى تقدير القول قبل قوله: ﴿إِنْ كانَ قَمِيصُهُ﴾، وقد قيل: إن هذا القول لما أدى مؤدى الشهادة عبر عنه بلفظ الشهادة.

ب. وقد أشار هذا الشاهد إلى دليل ينحل به العقدة ويتضح طريق القضية فتكلم فقال: ﴿إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾ فإن من البين أن أحدهما صادق في دعواه والآخر كاذب، وكون القد من قبل يدل على منازعتها ومصارعتها بالمواجهة فالقضاء لها عليه، ﴿وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فإن كون القد من دبر يدل على هربه منها وتعقيبها إياه واجتذابها له إلى نفسها فالقضاء له عليها، وهو ظاهر.

ج. وأما من هذا الشاهد؟ فقد اختلف فيه المفسرون:

- فقال بعضهم: كان رجلا حكيما أشار للعزيز بها أشار كما عن الحسن وقتادة وعكرمة.
- وقيل: كان رجلا وهو ابن عم المرأة وكان جالسا مع زوجها لدى الباب.
- وقيل: لم يكن من الإنس ولا الجن بل خلقا من خلق الله كما عن مجاهد، ورد بمنافاته الصريحة لقوله تعالى: (من أهلها)
- ومن طرق أهل البيت عليه السلام وبعض طرق أهل السنة أنه كان صبيا في المهد من أهلها، وسيجيء في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

د. والذي ينبغي أن ينظر فيه أن الذي أتى به هذا الشاهد بيان عقلي ودليل فكري يؤدي إلى نتيجة هي القاضية لأحد هذين المتداعيين على الآخر، ومثل هذا لا يسمى شهادة عرفا فإنها هي البيان المتعمد

على الحس أو ما في حكمه وبالجملة القول الذي لا يعتمد على التفكير والتعقل كما في قوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ [فصلت: ٢٠]، وقوله: ﴿قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾ [المنافقون: ١] فإن الحكم بصدق الرسالة وإن كان في نفسه مستندا إلى التفكر والتعقل لكن المراد بالشهادة تأدية ما عنده من الحق المعلوم قطعا من غير ملاحظة كونه عن تفكر وتعقل كما في موارد يعبر عنه فيها بالقول ونحوه.

هـ. فليس من البعيد أن يكون في التعبير عن قول هذا القائل بمثل ﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ﴾ إشارة إلى كون ذلك كلاما صدر عنه من غير ترو وفكر فيكون شهادة لعدم اعتماده على تفكر وتعقل لا قولا يعبر به عرفا عن البيان الذي يبتني على ترو وتفكر، وبهذا يتأيد ما ورد من الرواية أنه كان صبيا في المهد فقد كان ذلك بنوع من الإعجاز أيد الله سبحانه به قول يوسف عليه السلام.

٦. ﴿فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾:

أ. أي فلما رأى العزيز قميص يوسف والحال أنه مقدود مشقوق من خلف، قال إن الأمر من كيدكن معاشر النساء إن كيدكن عظيم فمرجع الضمائر معلوم من السياق.

ب. ونسبة الكيد إلى جماعة النساء مع كونه من امرأته للدلالة على أنه إنما صدر منها بما أنها من النساء، وكيدهن معهود معروف، ولذا استعظمه وقال ثانيا: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وذلك أن الرجال أوتوا من الميل والانجذاب إليهن ما ليس يخفى وأوتين من أسباب الاستمالة والجلب ما في وسعهن أن يأخذن بمجامع قلوب الرجال ويسخرن أرواحهم بجلوات فتانة وأطوار سحارة تسلب أحلامهم، وتصرفهم إلى إرادتهن من حيث لا يشعرون وهو الكيد وإرادة الإنسان بالسوء ومفاد الآية أن العزيز لما شاهد أن قميصه مقدود من خلف قضى ليوسف عليه السلام على امرأته.

٧. ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ﴾:

أ. من مقول قول العزيز أي إنه بعد ما قضى له عليها أمر يوسف أن يعرض عن الأمر وأمر امرأته أن تستغفر لذنبها ومن خطيئتها.

ب. فقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا﴾ يشير إلى ما وقع من الأمر ويعزم على يوسف أن يعرض عنه ويفرضه كأن لم يكن فلا يحدث به ولا يذيعه، ولم يرد في كلامه تعالى ما يدل على أن يوسف عليه السلام حدث به أحدا وهو الظن به عليه السلام كما نرى أنه لم يظهر حديث المراودة للعزيز حتى اتهمته بسوء

القصد فذكر الحق عند ذلك لكن كيف يخفى حديث استمر عهدا ليس بالقصير، وقد استولى عليها الوله وسلب منها الغرام كل حلم وحزم، ولم تكن المراودة مرة أو مرتين والدليل على ذلك ما سيأتي من قول النسوة: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾

٨. ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾:

أ. يقرر لها الذنب ويأمرها أن تستغفر ربها لذلك الذنب لأنها كانت بذلك من أهل الخطيئة، ولذلك قيل: ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ولم يقل من الخاطئات.

ب. وهذا كله من كلام العزيز على ما يعطيه السياق لا من كلام الشاهد لأنه قضاء وحكم والقضاء للعزيز لا للشاهد.

ج. ومن الخطإ قول بعضهم: (إن معنى ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ سلي زوجك أن لا يعاقبك على ذنبك)، بناء على أن الجملة من كلام الشاهد لا من كلام العزيز وكذا قول آخر: معناه: استغفري الله من ذنبك وتوبي إليه فإن الذنب كان منك لا من يوسف فإنهم كانوا يعبدون الله تعالى مع عبادة الأصنام) وذلك أن الوثنيين يقرون بالله سبحانه في خالقيته لكنهم لا يعبدون إلا الآلهة والأرباب من دون الله سبحانه، وقد تقدم الكلام في ذلك في الجزء السابق من الكتاب، على أن الآية لا تشتمل إلا على قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾ من دون أن يذكر المتعلق، وهو ربها المعبود لها في مذهبها.

د. وربما قيل: إن الآية تدل على أن العزيز كان فاقدا للغيرة، والحق أن الذي تدل عليه أنه كان شديد الحب لامرأته.

١٢. نسوة المدينة يتحدثن عن امرأة العزيز ومراودتها ليوسف:

المقطع [١٢] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٠-٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١٤٤»:

١. ﴿وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ قصة نسوة مصر مع يوسف في بيت العزيز تتضمنها الآية إلى تمام ست آيات، والذي يعطيه التدبر فيها بما ينضم إليها من قرائن الأحوال وما يستوجبه طبع القصة:

أ. أنه لما كان من أمر يوسف والعزيزة ما كان، شاع الخبر في المدينة تدريجا، وصارت النساء وهن سيدات المدينة يتحدثن به في مجامعهن ومحافلهم فيما بينهن ويعيرن بذلك عزيزة مصر ويعبنها أنها تولهت إلى فتاها وافتتنت به وقد أحاط بها حبا فظلت تراوده عن نفسه، وضلت به ضلالا مبينا.

ب. وكان ذلك مكرا منهن بها على ما في طبع أكثر النساء من الحسد والعجب فإن المرأة تغلبه العواطف الرقيقة والإحساسات اللطيفة وركوز لطف الخلقة وجمال الطبيعة فيها مشعوفة القلب بالزينة والجمال متعلقة الفؤاد برسوم الدلال، ويورث ذلك فيها وخاصة في الفتيات إعجابا بالنفس وحسدا للغير.

ج. وبالجملة كان تحديثهن بحديث الحب والمراودة مكرا منهن بالعزيزة، وفيه بعض السلوة لنفوسهن والشفاء لغليل صدورهن، ولما يرين يوسف، ولا شاهدن منه ما شاهدته العزيزة فولها وهتك سترها وإنما كن يتخيلن شيئا ويقايسن قياسا، وأين الرواية من الدراية والبيان من العيان.

د. وشاع التحديث به في المسامرات حتى بلغ الخبر امرأة العزيز تلك التي لا هم لها إلا أن تفوز في طلب يوسف وبلوغ ما تريد منه ولا تعبأ في حبه بشيء من الملك والعزة إلا لأن تتوصل به إلى حبه لها وميله إليها وإنجاحه لطلبتها فاستيقظت من رقدتها وعلمت بمكرهن بها فأرسلت إليهن للحضور لديها وأنهن سيدات ونساء أشراف المدينة وأركان البلاد ممن له رابطة المعاشرة مع بيت العزيز أو لياقة الحضور فيه.

هـ. فتهيأن للحضور وتبرزن بأحسن الجمال وأوقع الزينة على ما هو الدأب في أمثال هذه الاحتفالات من أمثال هؤلاء السيدات، وكل تتمنى أن ترى يوسف وتشاهد ما عنده من الحسن الذي أوقع على العزيزة ما أوقع وفضحها.

و. هو العزيزة لا هم لها يومئذ إلا أن تراهن يوسف حتى يعذرنه ويشتغلن عنها بأنفسهن فتتخلص من لسانهن فتأمن مكرهن، وهي لا تعبأ بافتتانهن بيوسف ولا تخاف عليه منهن لأنها، على ما تزعم، مولاته وصاحبته ومالكة أمره، وهو فتاها المخصوص بها، وهي تعلم أن يوسف ليس بالذي يرغب فيهن أو يصبو إليهن وهو لا ينقاد لها فيما تريده منه بما عنده من الاستعصام والاعتزاز عن هذه الأهواء والأميال.

ز. ثم لما حضرن عند العزيزة وأخذن مقاعدهن، ووقع الأنس وجرت المحادثة والمفاوضة وأخذن في التفكه آتت كل واحد منهن سكينا وقد هيأت لهن وقدمت إليهن الفاكهة، عند ذلك أمرت يوسف أن يخرج إليهن وقد كان مستورا عنهن.

ح. فلما طلع يوسف عليهن ووقعت عليه أعينهن طارت عقولهن وطاحت أحلامهن ولم يدرين دون أن قطعن أيديهن مكان الفاكهة التي فيها لما دخل عليهن من البهت والذهول، وهذه خاصة الوله والفزع فإن نفس الإنسان إذا انجذبت إلى شيء مما تفرط في حبه أو تخافه وتهوله اضطربت وبهتت ففاجأها الموت أو سلبت الشعور اللازم في تدبير القوى والأعضاء وتنظيم الأمر، فربما أقدم مسرعا إلى الخطر الذي أدهشه لقاؤه وربما نسي الفرار فبقي كالجماد الذي لا حراك به، وربما يفعل غير ما هو قاصده وفاعله اختباطا، ونظائرها في جانب الحب كثيرة وحكايات المغرمين والمتولهين من العشاق مشهورة.

ط. وكان هذا هو الفرق بين العزيزة وبينهن فإن استغراقها في حب يوسف إنما حصل لها تدريجا، وأما نساء المدينة فإنهن فوجئن به دفعة فغشيت قلوبهن غاشية الجمال، وغادرهن الحب ففضحهن وأطار عقلهن وأضل رأيهن فنسين الفاكهة وقطعن أيديهن وتركن كل تجلد واصطبار، وأبدين ما في أنفسهن من وله الحب، وقلن: ﴿حاشَ للهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾

ي. هذا وهن في بيت العزيز وهو بيت يجب فيه التحفظ على كل أدب ووقار، وكان يجب أن يتقينها ويحتشمن موقعها وهن شريفات ذوات جمال وذوات بعولة وذوات خدر وستر وهذه كلها جهات مانعة عن الخلاعة والتهتك، وهن لم ينسين ما كن بالأمس يتحدثن به ويلمن ويذممن امرأة العزيز في حبها ليوسف وهما في بيت واحد منذ سنين.

ك. فكان من الواجب على كل منهن أن تتقي صواحبها فلا تتهتك وهن يعلمن ما انجر إليه أمر امرأة العزيز من سوء الذكر وفضاحة الشهرة هذا كله ويوسف واقف أمامهن يسمع قولهن ويشاهد صنعهن.

ل. لكن الذي شاهدنه على المفاجأة من حسن يوسف نسخ ما قدرنه من قبل في أنفسهن وبدل مجلس الأدب والاحتشام حفلة عيش لا يكتم محتفلوها من أنفسهم ضميرا، ولا يبالي حضارها ما قيل أو يقال فيهم ولم يلبثن دون أن قلن ﴿حاشَ للهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وقد قلن غير بعيد:

﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾

م. وكلامهن هذا بعد قولهن ذاك إعذار منهن فمفاده أن الذي كنا نقوله قبل إنما هو حق لو كان هذا بشرا وليس به وإنما يذم الإنسان ويعاب لو ابتلي بهوى بشر ومراودته وكان في وسعه أن يكتفي عنه بما يكافئه ويغني عنه، وأما الجمال الذي لا يعادله جمال، ويسلب كل حزم واختيار، فلا لوم على هواه، ولا ذم في غرامة.

ن. ولهذا انقلب المجلس دفعة، وانقطعت قيود الاحتشام فانبسطن وتظاهرن بالقول في حسن يوسف وكل تتكلم بما في ضميرها منه، وقالت امرأة العزيز: ﴿فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ فأبدت سرا ما كانت تعترف به قبل ثم هددت يوسف تجلدا وحفظا لمقامها عندهن وطمعا في مطاوعته وانقياده: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾

س. وأما يوسف فلم يأخذه شيء من تلك الوجوه الحسان بألحاظها الفتانة ولا التفت إلى شيء من لطيف كلامهن ونعيم مراودتهن أو هائل تهديدها فقد كان وجهة نفسه جمال فوق كل جمال، وجلال يذل عنده كل عزة وجلال فلم يكلمهن بشيء ولم يلتفت إلى ما كانت امرأة العزيز تسمعه من القول، وإنما رجع إلى ربه فقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾

ع. وكلامه هذا إذا قيس إلى ما قاله لامرأة العزيز وحدها في مجلس المراودة: ﴿مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ دل بسياقه على أن هذا المقام كان أشق وأمر على يوسف عليه السلام إذ كان بالأمس يقاوم هم امرأة العزيز ويعالج كيدها وحدها، وقد توجهت إليه اليوم هممهن ومكايدهن جميعا، وكان ما بالأمس واقعة في خلوة على تستر منها، وهي وهن اليوم متجاهرات في حبه متظاهرات في إغوائه ملجآت على مراودته، وجميع الأسباب والمقتضيات اليوم قاضية لهن عليه أشد مما كانت عليه بالأمس.

ف. ولذا تضرع إلى ربه سبحانه في دفع كيدهن هاهنا، واكتفى بالاستعاذة إليه سبحانه هناك فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم.

٢. ﴿وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها﴾:

أ. النسوة اسم جمع للمرأة وتقييد بقوله: ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ تفيد أنهن كن من جهة العدد أو الشأن بحال تؤثر قولهن في شيوع الفضيحة، وامرأة العزيز هي التي كان يوسف في بيتها وقد راودته عن نفسه والعزيز معناه معروف، وقد كان يلقب به السيد الذي اشترى يوسف من السيارة وكان يلقب به الرؤساء بمصر كما لقب به يوسف بعد ما جعل على خزائن الأرض.

ب. وفي قوله: ﴿تُراوِدُ﴾ دلالة على الاستمرار وهو أفحش المراودة، والفتى الغلام الشاب والمرأة فتاة، وقد شاع تسمية العبد فتى وكأنه بهذه العناية أضيف إلى ضميرها فقيل: ﴿فَتاها﴾

ج. وفي المفردات: (﴿شَغَفَها حُبًّا﴾ أي أصاب شغاف قلبها أي باطنه، عن الحسن، وقيل: وسطه، عن أبي علي، وهما يتقاربان)، وشغاف القلب غلافه المحيط به.

د. والمعنى: وقال عدة من نساء المدينة لا يخلو قولهن من أثر فيها وفي حقها: امرأة تستمر في مراودة عبدها عن نفسه ولا يحري بها ذلك لأنها مرأة ومن القحة أن تراود المرأة الرجل بل ذاك، إن كان، من طبع الرجال وأنها امرأة العزيز فهي عزيزة مصر فمن الواجب الذي لا معدل عنه أن تراعي شرف بيتها وعزة زوجها ومكانة نفسها، وإن الذي علقت به عبدها من الشنيع أن يتوله مثلها وهي عزيزة مصر بعبد عبراني من جملة عبيده، وأنها أحبته وتعدت ذلك إلى مراودته فامتنع من إجابتها فلم تنته حتى ألحت واستمرت على مراودته وذلك أقبح وأشنع وأمعن في الضلال، ولذلك عقبن قولهن: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ﴾ بقولهن: ﴿إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾

٣. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً﴾:

أ. قال في المجمع: (المكر هو الفتل بالحيلة على ما يراد من الطلبة)، وتسمية هذا القول منهن مكرا بامرأة العزيز لما فيه من فضاحتها وهتك سترها من ناحية رقيباتها حسدا وبغيا، وإنما أرسلت إليهن لتريهن يوسف وتبتليهن بما ابتليت به نفسها فيكففن عن لومها ويعذرنها في حبه، وعلى هذا إنما سمي قولهن مكرا ونسب السمع إليه لأنه صدر منهن حسدا وبغيا لغاية فضاحتها بين الناس، وقيل: إنما كان قولهن مكرا لأنهن جعلنه ذريعة إلى لقاء يوسف لما سمعن من حسنه البديع فإنما قلن هذا القول لتسمعه امرأة العزيز فترسل إليهن ليحضرن عندها فتريهن إياه ليعذرنها فيما عزلنها له فيتخذن ذلك سبيلا إلى أن يراودنه عن نفسه هذا، والوجه الأول أقرب إلى سياق الآيات.

ب. ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ معناه معلوم وهو كناية عن الدعوة إلى الحضور عندها.

٤. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً﴾:

أ. الاعتاد الإعداد والتهيئة أي أعدت وهيأت، والمتكأ بضم الميم وتشديد التاء اسم المفعول من الاتكاء، والمراد به ما يتكأ عليه من نمرق أو كرسي كما كان معمولا في بيوت العظماء، وفسر المتكأ بالأترج وهو نوع من الفاكهة كما قرئ في الشواذ ﴿مُتْكَأً﴾ بالضم فالسكون وهو الأترج وقرئ ﴿مُتَّكَاً﴾ بضم الميم وتشديد التاء من غير همز.

ب. ﴿وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً﴾ أي لقطع ما يرون أكله من الفاكهة كالأترج أو ما يشابهه من الفواكه المأكولة بالقطع وقوله: ﴿وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي أمرت يوسف أن يخرج عليهن وهن خاليات الأذهان فارغات القلوب مشتغلات بأخذ الفاكهة وقطعها، وفي اللفظ دلالة على أنه عليه السلام كان غائبا عنهن وكان في مخدع هناك أو بيت آخر في داخل بيت المأدبة الذي كن فيه فإنها قالت: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ ولو كان في خارج من البيت لقالت: (ادخل عليهن)

ج. وفي السياق دلالة على أن هذا التدبير كان مكرا منها تجاه مكرهن ليفتضحن به فيعذرنها فيما عذلنها وقد أصابت في رأيها حيث نظمت برنامج الملاقاة فاعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا، وأخفت يوسف عن أعينهن ثم فاجأتهن بإظهاره دفعة لهن ليغبن عن عقولهن، ويندهشن بذاك الجمال البديع ويأتين بما لا يأتي به ذو شعور البتة وهو تقطيع الأيدي مكان الفواكه لا من الواحدة والثنتين منهن بل من الجميع.

٥. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ الإكبار الإعظام وهو كناية عن اندهاشهن وغيبتهن عن شعورهن وإرادتهن بمفاجأة مشاهدة ذاك الحسن الرائع طبقا للناموس الكوني العام وهو خضوع الصغير للكبير وقهر العظيم للحقير فإذا ظهر العظيم الكبير بعظمته وكبريائه لشعور الإنسان قهر سائر ما في ذهنه من المقاصد والأفكار فأنساها وصار يتخبط في أعماله، ولذلك لما رأينه قهرت رؤيته شعورهن فقطعن أيديهن تقطيعا مكان الفاكهة التي كن يردن قطعها، وفي صيغة التفعيل دلالة على الكثرة يقال: قتل القوم تقتيلا وموتهم الجدب تمويتا.

٦. ﴿وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه لله سبحانه في أمر يوسف وهذا كقوله تعالى: ﴿ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ

بهذا ﴿سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] وهو من أدب الكلام عند المليين إذا جرى القول في أمر فيه نوع تنزيه وتبرئة لأحد يبدأ فينزه الله سبحانه ثم يشتغل بتنزيه من أريد تنزيهه فهن لما أردن تنزيهه عليه السلام بقولهن ﴿ما هذا بَشَراً﴾، بدأن بتنزيهه تعالى، ثم أخذن ينزهنه.

٧. ﴿ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾:

أ. نفي أن يكون يوسف عليه السلام بشرا وإثبات أنه ملك كريم، وهذا بناء على ما يعتقده المليون ومنهم الوثنيون أن الملائكة موجودات شريفة هم مبادئ كل خير وسعادة في العالم منهم يترشح كل حياة وعلم وحسن وبهاء وسرور وسائر ما يتمنى ويؤمل من الأمور ففيهم كل جمال صوري ومعنوي، وإذا مثلوا تخيلوا في حسن لا يقدر بقدر، ويتصوره أصحاب الأصنام في صور إنسانية حسنة بهية.

ب. ولعل هذا هو السبب في قولهن: ﴿إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ حيث لم يصفنه بما يدل على حسن الوجه وجمال المنظر مع أن الذي فعل بهن ما فعل هو حسن وجهه واعتدال صورته بل سمينة ملكا كريما لتكون فيه إشارة إلى حسن صورته وسيرته معا، وجمال خلقه وخلقه وظاهره وباطنه جميعا، والله أعلم.

ج. وتقدم قولهن هذا على قول امرأة العزيز: ﴿فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ يدل على أنهن لم يفهمن بهذا الكلام إعذار لامرأة العزيز في حبها له وتيمها وغرامها به، وإنما كان ذلك اضطرارا منهن على الثناء عليه وإظهارا قهريا لانجذاب نفوسهن وتوله قلوبهن إليه فقد كان فيه فضاحتهن، ولم تقل امرأة العزيز: ﴿فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ إلا بعد ما فضحتهن فعلا وقولا بتقطيع الأيدي وتنزيه الحسن فلم يبق لهن إلا أن يصدقنها فيما تقول ويعذرنها فيما تفعل.

٨. ﴿قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الكلام في موضع دفع الدخل كان قائلا يقول: فما ذا قالت امرأة العزيز لهن؟فقيل: ﴿قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾

ب. وقد فرعت كلامها على ما تقدمه من قولهن وفعلهن وأشارت إلى شخص الذي لمنها فيه ووصفته بأنه الذي لمنها فيه ليكون هو بعينه جوابا لما رمينها به من ترك شرف بيتها وعزة زوجها وعفة نفسها في حبه، وعذرا قبال لومهن إياها في مراودته، وأقوى البيان أن يحال السامع إلى العيان، ومن هذا الباب قوله تعالى ﴿أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وقوله: ﴿رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا﴾ [الأعراف:

٩. ثم اعترفت بالمراودة وذكرت لهن أنها راودته لكنه أخذ بالعفة وطلب العصمة، وإنما استرسلت وأظهرت لهن ما لم تزل تخفيه لما رأت موافقة القلوب على التوله فيه فبثت الشكوى لهن ونبهت يوسف أنها غير تاركته فليوطن نفسه على طاعتها فيما تأمر به، وهذا معنى قولها: ﴿وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾

١٠. ثم ذكرت لهن ما عزمت عليه من إجباره على الموافقة وسياسته لو خالفت فقالت: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ وقد أكدت الكلام بوجوه من التأكيد كالقسم والنون واللام ونحوها ليدل على أنها عزمت على ذلك عزيمة جازمة، وعندها ما يجبره على ما أرادته ولو استنكف فليوطن نفسه على السجن بعد الراحة، والصغار والهوان بعد الإكرام والاحترام، وفي الكلام تجلد ونوع تعزز وتمنع بالنسبة إليهن ونوع تنبيه وتهديد بالنسبة إلى يوسف عليه السلام.

١١. وهذا التهديد الذي يتضمنه قولها: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أشد وأهول مما سألته زوجها يوم المراودة بقولها: ﴿ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾:

أ. أما أولا: فلأنها رددت الجزاء هناك بين السجن والعذاب الأليم وجمع هاهنا بين الجزاءين وهو السجن والكون من الصاغرين.

ب. وأما ثانيا: فلأنها هاهنا قامت بالتهديد بنفسها لا بأن تسأل زوجها، وكلامها كلام من لا يتردد فيما عزم عليه ولا يرجع عما جزم به، وقد حققت أنها تملك قلب زوجها وتقدر أن تصرفه مما يريده إلى ما تريده، وتقوى على التصرف في أمره كيفما شاءت؟

١٣. يوسف يختار السجن على معصية الله واستجابة الله له:

المقطع [١٣] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٣-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١٥٢»:

١. ﴿قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ

الْجَاهِلِينَ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (صبا فلان يصبو صبوا وصبوة إذا نزع واشتاق وفعل فعل الصبيان، قال تعالى: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾) وفي المجمع: (الصبوة لطافة الهوى)

ب. تفاوضت امرأة العزيز والنسوة فقالت وقلن واسترسلن في بت ما في ضمائرهن ويوسف عليه السلام واقف أمامهن يدعونه ويراودنه عن نفسه لكن يوسف عليه السلام لم يلتفت إليهن ولا كلمهن ولا بكلمة بل رجع إلى ربه الذي ملك قلبه بقلب لا مكان فيه إلا له ولا شغل له إلا به و﴿قالَ: رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾

ج. وقوله هذا ليس بدعاء على نفسه بالسجن وأن يصرف الله عنه ما يدعونه إليه بإلقائه في السجن، وإنما هو بيان حال لربه وأنه عن تربية إلهية يرجح عذاب السجن في جنب الله على لذة المعصية والبعد منه، فهذا الكلام منه نظير ما قاله لامرأة العزيز حين خلت به وراودته عن نفسه: ﴿مَعاذَ الله إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ففي الكلامين معا تمنع وتعزز بالله، وإنما الفرق أنه يخاطب بأحدهما امرأة العزيز وبالآخر ربه القوي العزيز وليس شيء من الكلامين دعاء البتة.

د. وفي قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ نوع توطئة لقوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَ﴾، الذي هو دعاء في صورة بيان الحال.

هـ. فمعنى الآية: رب إني لو خيرت بين السجن وبين ما يدعونني إليه لاخترت السجن على غيره وأسألك أن تصرف عني كيدهن فإنك إن لا تصرف عني كيدهن أنتزع وأمل إليهن وأكن من الجاهلين فإني إنما أتوقى شرهن بعلمك الذي علمتنيه وتصرف به عني كيدهن فإن أمسكت عن إفاضته علي صرت جاهلا ووقعت في مهلكة الصبوة والهوى.

٢. وقد ظهر من الآية بمعونة السياق:

أ. أولا: أن قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾، ليس دعاء من يوسف عليه السلام على نفسه بالسجن بل بيان حال منه لربه بالإعراض عنهن والرجوع إليه، ومعنى ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أني أختاره على ما يدعونني إليه لو خيرت، وليس فيه دلالة على كون ما يدعونه إليه محبوبا عنده بوجه إلا بمقدار ما تدعو إليه داعية الطبع الإنساني والنفس الأمارة، وإن قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ إشارة إلى استجابة ما يشتمل عليه

قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾، من معنى الدعاء، ويؤيده تعقيبه بقوله: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾، وليس استجابة لدعائه بالسجن على نفسه كما توهمه بعضهم، ومن الدليل عليه قوله بعد في قصة دخوله السجن: ﴿ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ ولو كان دعاء بالسجن واستجابة الله سبحانه وقدر له السجن لم يكن التعبير بثم وفصل المعنى عما تقدمه بأنسب فافهم.

ب. وثانيا: أن النسوة دعونه وراودنه كما دعته امرأة العزيز إلى نفسها وراودته عن نفسه:

• وأما أنهن دعونه إلى أنفسهن أو إلى امرأة العزيز أو أتين بالأمرين فدعينه بحضرة من امرأة العزيز إليها ثم أسرت كل واحدة منهن داعية إياه إلى نفسها فالآية ساكتة عن ذلك سوى ما يستفاد من قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ إذ لولا دعوة منهن إلى أنفسهن لم يكن معنى ظاهر للصبوة إليهن.

• والذي يشعر به قوله تعالى حكاية عن قوله في السجن لرسول الملك: ﴿ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ إلى أن قال: ﴿قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ﴾ [الآيات: ٥٠] من السورة، أنهن دعينه إلى امرأة العزيز وقد أشركهن في القصة ثم قال: ﴿لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ ولم يقل: لم أخن بالغيب ولا قال: لم أخنه وغيره فتدبر فيه.

• ومع ذلك فمن المحال عادة أن يرين منه ما يغيبهن عن شعورهن ويدهش عقولهن ويقطعن أيديهن ثم ينسللن انسلالا ولا يتعرض له أصلا ويذهبن لوجوههن بل العادة قاضية أنهن ما فارقن المجلس إلا وهن متيمات فيه والهات لا يصبحن ولا يمسين إلا وهو همهن وفيه هواهن يفدينه بالنفس ويطمعنه بأي زينة في مقدرتهن ويعرضن له أنفسهن ويتوصلن إلى ما يردنه منه بكل ما يستطعن.

• وهو ظاهر مما حكاه الله من يوسف في قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ فإنه لم يعرض عن تكليمهن إلى مناجاة ربه الخبير بحاله السميع لمقاله إلا لشدة الأمر عليه وإحاطة المحنة والمصيبة من ناحيتهن به.

ج. وثالثا: أن تلك القوة القدسية التي استعصم بها يوسف عليه السلام كانت كأمر تدريجي يفيض عليه آنا بعد آن من جانب الله سبحانه، وليست الأمر الدفعي المفروغ عنه وإلا لانقطعت الحاجة إليه تعالى،

ولذا عبر عنه بقوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي﴾ ولم يقل: وإن لم تصرف عني وإن كانت الجملة الشرطية منسلخة الزمان لكن في الهيئة إشارات، ولذلك أيضا قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فنسب دفع الشر عنه إلى استجابة وصرف جديد.

د. ورابعا: أن هذه القوة القدسية من قبيل العلوم والمعارف ولذا قال عليه السلام: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ولم يقل: وأكن من الظالمين، كما قال لامرأة العزيز: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أو أكن من الخائنين كما قال للملك: ﴿وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ وقد فرق في نحو الخطاب بينهما وبين ربه فخاطبهما بظاهر الأمر رعاية لمنزلتهما في الفهم فقال: إنه ظلم والظالم لا يفلح، وإنه خيانة والله لا يهدي كيد الخائن، وخاطب ربه بحقيقة الأمر وهو أن الصبوة إليهن من الجهل.

٣. وستوافيك حقيقة الحال في هذين الأمرين ‹أي الأمر الثالث والرابع› في أبحاث ملحقة بالبيان إن شاء الله تعالى.

٤. وضع هنا مبحثا حول [التقوى الديني ودرجاته]، خلاصته:

أ. القانون لا يسعد إلا بإيمان تحفظه الأخلاق الكريمة، والأخلاق الكريمة لا تتم إلا بالتوحيد، فالتوحيد هو الأصل الذي عليه تنمو شجرة السعادة الإنسانية وتتفرع بالأخلاق الكريمة، وهذه الفروع تثمر ثمراتها الطيبة في المجتمع.

ب. السنن والقوانين لا تثبت مؤثرة إلا بسنن جزائية تهدد المتخلفين، وتشوق إلى الخيرات، وتحتاج إلى قوة حاكمة عالمة قوية، والتاريخ مملوء بقصص الجبابرة، فالقوانين وحدها لا تكفي إلا بأخلاق فاضلة إنسانية تقطع دابر الظلم والفساد.

ج. الأخلاق لا تفي بإسعاد المجتمع إلا إذا اعتمدت على التوحيد، وهو الإيمان بإله واحد سرمدي يعلم كل شيء ويجازي المحسن والمسيء، فإذا اعتمدت الأخلاق على هذه العقيدة، كان التقوى رادعاً داخلياً للإنسان عن ارتكاب الجرم.

د. تحصل التقوى الديني بأحد طرق ثلاثة: الخوف (عبادة العبيد)، والرجاء (عبادة التجار)، والحب (عبادة الكرام)، والطريقتان الأوليان لا تخلوان من شرك، أما الحب فإنه يطهر القلب من التعلق بغير الله، ويحقق الإخلاص المحض.

هـ. محبة الله تطهر القلب، وتقصر التعلق به تعالى، فالإنسان يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه، ويصبح هذا النور الذي يضيء له طريق العمل، فلا يقع منه إلا الجميل، وهو من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

و. المقربون هم الذين يخلصهم الله لنفسه، وهم الأنبياء والأئمة، وآتاهم من العلم ما هو ملكة تعصمهم عن المعاصي، وهذه العصمة لا تنافي الاختيار، بل هي علم قطعي يوجب قوة الإرادة، وليس إجباراً ولا اضطراراً.

٥. ﴿فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي استجاب الله مسألته في صرف كيدهن عنه حين قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَ﴾ إنه هو السميع بأقوال عباده العليم بأحوالهم.

٦. ﴿ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾:

أ. البداء هو ظهور رأي بعد ما لم يكن يقال؟ بدا لي في أمر كذا أي ظهر لي فيه رأي جديد، والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ إلى العزيز وامرأته ومن يتلوهما من أهل الاختصاص وأعوان الملك والعزة، والمراد بالآيات الشواهد والأدلة الدالة على براءة يوسف عليه السلام وطهارة ذيله مما اتهموه به كشهادة الصبي وقد القميص من خلفه واستباقهما الباب معا، ولعل منها تقطيع النسوة أيديهن برؤيته واستعصامه عن مراودتهن إياه عن نفسه واعتراف امرأة العزيز لهن أنها راودته عن نفسه فاستعصم.

ب. ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ اللام فيه للقسم أي أقسموا وعزموا ليسجننه البتة، وهو تفسير للرأي الذي بدا لهم، ويتعلق به قوله: ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ ولا يخلو من معنى الانتظار بالنظر إلى قطع حين عن الإضافة والمعنى على هذا ليسجننه حتى ينقطع حديث المراودة الشائع في المدينة وينساه الناس.

ج. ومعنى الآية: ثم ظهر للعزيز ومن يتلوه من امرأته وسائر مشاوريه رأي جديد في يوسف من بعد ما رأوا هذه الآيات الدالة على براءته وعصمته وهو أن يسجنوه حينا من الزمان حتى ينسى حديث المراودة الذي يجلب لهم العار والشين وأقسموا على ذلك.

د. ويظهر بذلك أنهم إنما عزموا على ذلك لمصلحة بيت العزيز وصونا لأسرته عن هوان التهمة والعار، ولعل من غرضهم أن يتحفظوا على أمن المدينة العام ولا يخلوا الناس وخاصة النساء أن يفتتنوا به

فإن هذا الحسن الذي أوله امرأة العزيز والسيدات من شرفاء المدينة وفعل بهم ما فعل من طبعه أن لا يلبث دون أن يقيم في المدينة بلوى.

هـ. لكن الذي يظهر من قوله في السجن لرسول الملك: ﴿ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَ﴾ إلى آخر ما قال، ثم قول الملك لهن: ﴿ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾، وقولهن: ﴿حاشَ للهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ ثم قول امرأة العزيز: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، كل ذلك يدل على أن المرأة ألبست الأمر بعد على زوجها وأرابته في براءة يوسف عليه السلام فاعتقد خلاف ما دلت عليه الآيات أو شك في ذلك، ولم يكن ذلك إلا عن سلطة تامة منها عليه وتمكن كامل من قلبه ورأيه.

و. وعلى هذا فقد كان سجنه بتوسل أو بأمر منها لتدفع بذلك تهمة الناس عن نفسها وتؤدب يوسف لعله ينقاد لها ويرجع إلى طاعتها فيما كانت تأمره به كما هددته به بمحضر من النسوة بقولها: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾

١٤. فتيان السجن مع يوسف ورؤياهما:

المقطع [١٤] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١٦٩»:

١. ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ﴾ إلى آخر الآية الفتى العبد وسياق الآيات يدل على أنهما كانا عبدين من عبيد الملك، وقد وردت به الروايات كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

٢. ﴿قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَراني أَعْصِرُ خَمْراً﴾ فصل قوله: ﴿قالَ أَحَدُهُما﴾ للدلالة على الفصل بين حكاية الرؤيا وبين الدخول كما يشعر به ما في السياق من قوله: ﴿أَراني﴾ وخطابه له بصاحب السجن، ﴿أَراني﴾ لحكاية الحال الماضية كما قيل، وقوله: ﴿أَعْصِرُ خَمْراً﴾ أي أعصر عنبا كما يعصر ليتخذ خمرا فقد سمي العنب خمرا باعتبار ما يؤول إليه، والمعنى أصبح أحدهما وقال ليوسف عليه السلام إني رأيت فيما يرى النائم إني أعصر عنبا للخمر.

٣. ﴿وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَراني أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾:

أ. أي تنهشه وهي رؤيا أخرى ذكرها صاحبه، وقوله: ﴿نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي قالا نبئنا بتأويله فاكتفى عن ذكر الفعل بقوله: (قال) (وقال) وهذا من لطائف تفنن القرآن، والضمير في قوله: ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ راجع إلى ما يراه المدلول عليه بالسياق، وفي قوله: ﴿إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لسؤالهما التأويل و﴿نَراكَ﴾ أي نعتقدك من المحسنين لما نشاهد فيك من سيماهم، وإنما أقبلا عليه في تأويل رؤياهما لإحسانه، لما يعتقد عامة الناس أن المحسنين الأبرار ذوو قلوب طاهرة ونفوس زاكية فهم ينتقلون إلى روابط الأمور وجريان الحوادث انتقالا أحسن وأقرب إلى الرشد من انتقال غيرهم.

ب. والمعنى: قال أحدهما ليوسف: إني رأيت فيما يرى النائم كذا وقال الآخر: إني رأيت كذا، وقالا له: أخبرنا بتأويل ما رآه كل منا لأنا نعتقد من المحسنين، ولا يخفى لهم أمثال هذه الأمور الخفية لزكاء نفوسهم وصفاء قلوبهم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ فالآيات شهادة الصبي والقميص المخرق من دبر، واستباقهما الباب حتى سمع مجاذبتها إياه على الباب، فلما عصاها لم تزل مولعة بزوجها حتى حبسه، ودخل معه السجن فتيان يقول: عبدان للملك، أحدهما خباز والآخر صاحب الشراب، والذي كذب ولم ير المنام هو الخباز.

ب. وذكر الحديث علي بن إبراهيم القمي قال: ووكل الملك بيوسف رجلين يحفظانه، فلما دخل السجن قالوا له: ما صناعتك؟ قال: أعبر الرؤيا، فرأى أحد الموكلين في منامه، كما قال يعصر خمرا، قال يوسف: تخرج وتصير على شراب الملك وترتفع منزلتك عنده، وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه، ولم يكن رأى ذلك فقال له يوسف: أنت يقتلك الملك ويصلبك وتأكل الطير من رأسك، فضحك الرجل وقال: إني لم أر ذلك، فقال يوسف كما حكى الله: ﴿يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ﴾، فقال أبو عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: كان يقوم على المريض، ويلتمس للمحتاج، ويوسع على المحبوس، فلما أراد من يرى في نومه يعصر خمرا الخروج من الحبس، قال له يوسف: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فكان كما قال الله: ﴿فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾

• أقول: وفي الرواية اضطراب لفظي، وظاهرها أن صاحبيه في السجن لم يكونا مسجونين وإنما كانا موكلين عليه من قبل الملك، ولا يلائم ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا﴾ وقوله: ﴿قالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما﴾

١٥. يوسف يدعو السجناء إلى التوحيد ويخبرهم بفضل الله:

المقطع [١٥] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧-٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١٧١»:

١. ﴿قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما﴾:

أ. لما أقبل صاحبا السجن على يوسف عليه السلام في سؤاله عن تأويل رؤيا رأياها عن حسن ظن به من جهة ما كانا يشاهدان منه سيماء المحسنين اغتنم عليه السلام الفرصة في بث ما عنده من أسرار التوحيد والدعوة إلى ربه سبحانه الذي علمه ذلك فأخبرهما أنه عليم بذلك بتعليم من ربه خبير بتأويل الأحاديث وتوسل بذلك إلى الكشف عن سر التوحيد ونفي الشركاء ثم أول رؤياهما.

ب. فقال أولا: ﴿لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ﴾، وأنتما في السجن، ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ﴾، أي بتأويل ذاكما الطعام وحقيقته وما يؤول إليه أمره، فأنا خبير بذلك فليكن آية لصدقي فيما أدعوكما إليه من دين التوحيد:

• هذا على تقدير عود الضمير في قوله: ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ إلى الطعام، ويكون عليه إظهارا منه عليه السلام لآية نبوته نظير قول المسيح عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]، ويؤيد هذا المعنى بعض الروايات الواردة من طرق أهل البيت عليه السلام كما سيأتي في بحث روائي إن شاء الله تعالى.

• وأما على تقدير عود ضمير ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ إلى ما رأياه من الرؤيا فقوله: ﴿لا يَأْتِيكُما طَعامٌ﴾ إلخ، وعد منه لهما تأويل رؤياهما ووعد بتسريعه غير أن هذا المعنى لا يخلو من بعد بالنظر إلى السياق.

٢. ﴿ذٰلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ﴾:

أ. بين عليه السلام أن العلم والتنبؤ بتأويل الأحاديث ليس من العلم العادي الاكتسابي في شيء بل هو مما علمه إياه ربه ثم علل ذلك بتركه ملة المشركين واتباعه ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب أي رفضه دين الشرك وأخذه بدين التوحيد.

ب. والمشركون من أهل الأوثان يعتقدون بالله سبحانه ويثبتون يوم الجزاء بالقول بالتناسخ كما تقدم في الجزء السابق من الكتاب لكن دين التوحيد يحكم أن الذي يقدر له شركاء في التأثير أو في استحقاق العبادة ليس هو الله وكذا عود النفوس بعد الموت بأبدان أخرى تتنعم فيها أو تعذب ليس من المعاد في شيء، ولذلك نفى عليه السلام عنهم الإيمان بالله وبالآخرة، وأكد كفرهم بالآخرة بتكرار الضمير حيث قال: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ﴾ وذلك لأن من لا يؤمن بالله فأحرى به أن لا يؤمن برجوع العباد إليه.

ج. وهذا الذي يقصه الله سبحانه من قول يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ هو أول ما أنبأ في مصر نسبه وأنه من أهل بيت إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليه السلام.

٣. ﴿ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾:

أ. أي لم يجعل الله سبحانه لنا أهل البيت سبيلا إلى أن نشرك به شيئا ومنعنا من ذلك، ذلك المنع من فضل الله ونعمته علينا أهل البيت وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون فضله تعالى بل يكفرون به:

ب. وأما أنه تعالى جعلهم بحيث لا سبيل لهم إلى أن يشركوا به فليس جعل إجبار وإلجاء بل جعل تأييد وتسديد حيث أنعم عليهم بالنبوة والرسالة والله أعلم حيث يجعل الرسالة فاعتصموا بالله عن الشرك ودانوا بالتوحيد.

ج. وأما أن ذلك من فضل الله عليهم وعلى الناس فلأنهم أيدوا بالحق وهو أفضل الفضل والناس في وسعهم أن يرجعوا إليهم فيفوزوا باتباعهم ويهتدوا بهداهم.

د. وأما أن أكثر الناس لا يشكرون فلأنهم يكفرون بهذه النعمة وهي النبوة والرسالة فلا يعبئون

بها ولا يتبعون أهلها أو لأنهم يكفرون بنعمة التوحيد ويتخذون لله سبحانه شركاء من الملائكة والجن والإنس يعبدونهم من دون الله.

٤. هذا ما ذكره أكثر المفسرين في معنى الآية، ويبقى عليه شيء:

أ. وهو أن التوحيد ونفي الشركاء ليس مما يرجع فيه إلى بيان النبوة فإنه مما يستقل به العقل وتقضي به الفطرة فلا معنى لعده فضلا على الناس من جهة الاتباع بل هم والأنبياء في أمر التوحيد على مستوى واحد وشرع سواء ولو كفروا بالتوحيد فإنما كفروا لعدم إجابتهم لنداء الفطرة لا لعدم اتباع الأنبياء.

ب. لكن يجب أن يعلم أنه كما أن من الواجب في عناية الله سبحانه أن يجهز نوع الإنسان مضافا إلى الهامة من طريق العقل الخير والشر والتقوى والفجور بما يدرك به أحكام دينه وقوانين شرعه وهو سبيل النبوة والوحي، وقد تكرر توضيحه في أبحاثنا السابقة كذلك من الواجب في عنايته أن يجهز أفرادا منه بنفوس طاهرة وقلوب سليمة مستقيمة على فطرتها الأصلية لازمة لتوحيده ممتنعة عن الشرك به يستبقي به أصل التوحيد عصرا بعد عصر ويحيي به روح السعادة جيلا بعد جيل، والبرهان عليه هو البرهان على النبوة والوحي فإن الواحد من الإنسان العادي لا يمتنع عليه الشرك ونسيان التوحيد، والجائز على الواحد جائز على الجميع وفي تلبس الجميع بالشرك فساد النوع في غايته وبطلان الغرض الإلهي في خلقته.

ج. فمن الواجب أن يكون في النوع رجال متلبسون بإخلاص التوحيد يقومون بأمره ويدافعون عنه وينبهون الناس عن رقدة الغفلة والجهالة بإلقاء حججه وبث شواهده وآياته وبينهم وبين الناس رابطة التعليم والتعلم دون السوق والاتباع.

د. وهذه النفوس إن كانت فهي نفوس الأنبياء والأئمة عليهم‌السلام، وفي خلقهم وبعثهم فضل من الله سبحانه عليهم بتعليم توحيده لهم، وعلى الناس بنصب من يذكرهم الحق الذي تقضي به فطرتهم ويدافع عن الحق تجاه غفلتهم وضلالتهم فإن اشتغال الناس بالأعمال المادية ومزاولتهم للأمور الحسية تجذبهم إلى اللذات الدنيوية وتحرضهم على الإخلاد إلى الأرض فتبعدهم عن المعنويات وتنسيهم ما في فطرهم من المعارف الإلهية، ولو لا رجال متألهون متولهون في الله الذين أخلصهم بخالصة ذكرى الدار في كل برهة من الزمان لأحيطت الأرض بالعماء، وانقطع السبب الموصول بين الأرض والسماء، وبطلت غاية الخلقة، وساخت الأرض بأهلها.

هـ. ومن هنا يظهر أن الحق أن تنزل الآية على هذه الحقيقة فيكون معنى الآية: لم يجعل لنا بتأييد من الله سبيل إلى أن نشرك بالله شيئا، ذلك أي كوننا في أمن من الشرك من فضل الله علينا لأنه الهدى الذي هو سعادة الإنسان وفوزه العظيم، وعلى الناس لأن في ذلك تذكيرهم إذا نسوا وتنبيههم إذا غفلوا، وتعليمهم إذا جهلوا، وتقويمهم إذا عوجوا ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله بل يكفرون بهذا الفضل فلا يعبئون به ولا يقبلون عليه بل يعرضون عنه، هذا.

٥. وذكر بعضهم في معنى الآية: أن المشار إليه بقوله: ﴿ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنا﴾، هو العلم بتأويل الأحاديث، وهو كما ترى بعيد من سياق الآية.

١٦. يوسف يحذّر السجناء من الشرك:

المقطع [١٦] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩ـ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١٧٤»:

١. ﴿يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ لفظة الخير بحسب الوزن صفة من قولهم: خار يخار خيرة إذا انتخب واختار أحد شيئين يتردد بينهما من حيث الفعل أو من حيث الأخذ بوجه فالخير منهما هو الذي يفضل على الآخر في صفة المطلوبية فيتعين الأخذ به فخير الفعلين هو المطلوب منهما الذي يتعين القيام به وخير الشيئين هو المطلوب منهما من جهة الأخذ به كخير المالين من جهة التمتع به وخير الدارين من جهة سكناها وخير الإنسانين من جهة مصاحبته، وخير الرأيين من جهة الأخذ به، وخير الإلهين من جهة عبادته، ومن هنا ذكر أهل الأدب أن الخير في الأصل (أخير) أفعل تفضيل، والحقيقة أنه صفة مشبهة تفيد بحسب المادة ما يفيده أفعل التفضيل من الفضل في القياس.

٢. وبما مر يتبين أن قوله عليه السلام: ﴿أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾:

أ. مسوق لبيان الحجة على تعينه تعالى للعبادة إذا فرض تردد الأمر بينه وبين سائر الأرباب التي تدعى من دون الله لا لبيان أنه تعالى هو الحق الموجود دون غيره من الأرباب أو أنه تعالى هو الإله الذي تنتهي إليه الأشياء بدءا وعودا دونها أو غير ذلك فإن الشيء إنما يسمى خيرا من جهة طلبه وتعيينه بالأخذ

به بنحو فقوله عليه السلام: أهو خير أم سائر الأرباب يريد به السؤال عن تعين أحد الطرفين من جهة الأخذ به والأخذ بالرب هو عبادته.

ب. ثم إنه عليه السلام سمى آلهتهم أربابا متفرقين لأنهم كانوا يعبدون الملائكة وهم عندهم صفات الله سبحانه أو تعينات ذاته المقدسة التي تستند إليها جهات الخير والسعادة في العالم فيفرقون بين الصفات بتنظيمها طولا وعرضا ويعبدون كلا بما يخصه من الشأن فهناك إله العلم وإله القدرة وإله السماء وإله الأرض وإله الحسن وإله الحب وإله الأمن والخصب وغير ذلك، ويعبدون الجن وهم مبادئ الشر في العالم كالموت والفناء والفقر والقبح والألم والغم وغير ذلك، ويعبدون أفرادا كالكملين من الأولياء والجبابرة من السلاطين والملوك وغيرهم، وهم جميعا متفرقون من حيث أعيانهم ومن حيث أصنامهم والتماثيل المتخذة لهم المنصوبة للتوجه بها إليهم.

ج. وقابل الأرباب المتفرقين بذكر الله عز اسمه ووصفه بالواحد القهار حيث قال: ﴿أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فالكلمة تفيد بحسب المعنى خلاف ما يفيده قوله: ﴿أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ لضرورة التقابل بين طرفي الترديد.

د. فالله علم بالغلبة يراد به الذات المقدسة الإلهية التي هي حقيقة لا سبيل للبطلان إليه ووجود لا يتطرق العدم والفناء إليه، والوجود الذي هذا شأنه لا يمكن أن يفرض له حد محدود ولا أمد ممدود لأن كل محدود فهو معدوم وراء حده، والممدود باطل بعد أمده فهو تعالى ذات غير محدود ووجود غير متناه بحب، وإذا كان كذلك لم يمكن أن يفرض له صفة خارجة عن ذاته مباينة لنفسه كما هو الحال في صفاته لتأدية هذه المغايرة إلى كونه تعالى محدودا غير موجود في ظرف الصفة وفاقرا لا يجد الصفة في ذاته ولم يمكن أيضا فرض المغايرة والبينونة بين صفاته الذاتية كالحياة والعلم والقدرة لأن ذلك يؤدي إلى وجود حدود في داخل الذات لا يوجد ما في داخل حد في خارجه فيتغاير الذات والصفات ويتكثر جميعا ويحد، وهذا كله مما اعترفت به الوثنية على ما بأيدينا من معارفهم.

هـ. فمما لا يتطرق إليه الشك عند المثبتين لوجود الإله سبحانه لو تفطنوا أن الله سبحانه موجود في نفسه ثابت بذاته لا موجود بهذا النعت غيره، وإن ما له من صفات الكمال فهو عينه غير زائد عليه ولا بعض صفات كماله صفات زائد على بعض فهو علم وقدرة وحياة بعينه.

و. فهو تعالى أحدي الذات والصفات أي أنه واحد في وجوده بذاته ليس قباله شيء إلا موجودا به لا مستقلا بالوجود وواحد في صفاته أي ليس هناك صفة له حقيقية إلا أن تكون عين الذات فهو الذي يقهر كل شيء لا يقهره شيء.

ز. والإشارة إلى هذا كله هي التي دعته عليه السلام أن يصف الله سبحانه بالواحد القهار حيث قال: ﴿أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي أنه تعالى واحد لكن لا واحد عددي إذا أضيف إليه آخر صار اثنين بل واحد لا يمكن أن يفرض قباله ذات إلا وهي موجودة به لا بنفسها ولا أن يفرض قباله صفة له إلا وهي عينه وإلا صارت باطلة كل ذلك لأنه بحث غير محدود بحد ولا منته إلى نهاية.

ح. وقد تمت الحجة على الخصم منه عليه السلام في هذا السؤال بما وصف الأرباب بكونهم متفرقين، وإياه تعالى بالواحد القهار لأن كون ذاته المتعالية واحدا قهارا يبطل التفرقة، أي تفرقة مفروضة، بين الذات والصفات، فالذات عين الصفات والصفات بعضها عين بعض فمن عبد الذات عبد الذات والصفات ومن عبد علمه فقد عبد ذاته، وإن عبد علمه ولم يعبد ذاته فلم يعبد لا علمه ولا ذاته وعلى هذا القياس.

ط. فإذا فرض تردد العبادة بين أرباب متفرقين وبين الله الواحد القهار تعالى وتقدس تعينت عبادته دونهم إذ لا يمكن فرض أرباب متفرقين ولا تفرقة في العبادة.

ي. نعم يبقى هناك شيء وهو الذي يعتمد عليه عامة الوثنية من أن الله سبحانه أجل وأرفع ذاتا من أن تحيط به عقولنا أو يناله أفهامنا فلا يمكننا التوجه إليه بعبادته ولا يسعنا التقرب منه بعبوديته والخضوع له، والذي يسعنا هو أن نتقرب بالعبادة إلى بعض مخلوقاته الشريفة التي هي مؤثرات في تدبير النظام العالمي حتى يقربونا منه ويشفعوا لنا عنده فأشار عليه السلام في الشطر الثاني من كلامه أعني قوله: ﴿ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً﴾ إلى دفعه.

٣. ﴿ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾:

أ. بدأ عليه السلام بخطاب صاحبيه في السجن أولا ثم عمم الخطاب للجميع لأن الحكم مشترك بينهما وبين غيرهما من عبدة الأوثان، ونفي العبادة إلا عن الأسماء كناية عن أنه لا مسميات وراء هذه

الأسماء فتقع العبادة في مقابل الأسماء كلفظة إله السماء وإله الأرض وإله البحر وإله البر والأب والأم وابن الإله ونظائر ذلك.

ب. وقد أكد كون هذه الأسماء ليس وراءها مسميات بقوله: ﴿أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ﴾ فإنه في معنى الحصر أي لم يضع هذه الأسامي أحد غيركم بل أنتم وآباؤكم وضعتموها، ثم أكده ثانيا بقوله: ﴿ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾ والسلطان هو البرهان لتسلطه على العقول أي ما أنزل الله بهذه الأسماء أو بهذه التسمية من برهان يدل على أن لها مسميات وراءها، وحينئذ كان يثبت لها الألوهية أي المعبودية فصحت عبادتكم لها.

ج. ومن الجائز أن يكون ضمير ﴿بِها﴾ عائدا إلى العبادة أي ما أنزل الله حجة على عبادتها بأن يثبت لها شفاعة واستقلالا في التأثير حتى تصح عبادتها والتوجه إليها فإن الأمر إلى الله على كل حال، وإليه أشار بقوله بعده: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾

د. وهو أعني قوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ مما لا ريب فيه البتة إذ الحكم في أمر ما لا يستقيم إلا ممن يملك تمام التصرف، ولا مالك للتصرف والتدبير في أمور العالم وتربية العباد حقيقة إلا الله سبحانه فلا حكم بحقيقة المعنى إلا له.

هـ. وهو أعني قوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ مفيد فيما قبله وما بعده صالح لتعليلهما معا، أما فائدته في قوله قبل: ﴿ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾ فقد ظهرت آنفا، وأما فائدته في قوله بعد: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فلأنه متضمن لجانب إثبات الحكم كما أن قوله قبل: ﴿ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾ متضمن لجانب السلب، وحكمه تعالى نافذ في الجانبين معا فكأنه لما قيل: ﴿ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾ قيل: (فما ذا حكم به في أمر العبادة) فقيل: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ولذلك جيء بالفعل.

و. ومعنى الآية، والله أعلم، ما تعبدون من دون الله إلا أسماء خالية عن المسميات لم يضعها إلا أنتم وآباؤكم من غير أن ينزل الله سبحانه من عنده برهانا يدل على أن لها شفاعة عند الله أو شيئا من الاستقلال في التأثير حتى يصح لكم دعوى عبادتها لنيل شفاعتها، أو طمعا في خيرها أو خوفا من شرها.

٤. وأما قوله: ﴿ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. فيشير به إلى ما ذكره من توحيد الله ونفي الشريك عنه، والقيم هو القائم بالأمر القوي على تدبيره أو القائم على ساقه غير المتزلزل والمتضعضع، والمعنى أن دين التوحيد وحده هو القوي على إدارة

المجتمع وسوقه إلى منزل السعادة، والدين المحكم غير المتزلزل الذي فيه الرشد من غير غي والحقية من غير بطلان، ولكن أكثر الناس لأنسهم بالحس والمحسوس وانهماكهم في زخارف الدنيا الفانية حرموا سلامة القلب واستقامة العقل لا يعلمون ذلك، وإنما يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة معرضون.

ب. أما أن التوحيد دين فيه الرشد ومطابقة الواقع فيكفي في بيانه ما أقامه عليه السلام من البرهان، وأما أنه هو القوي على إدارة المجتمع الإنساني فلأن هذا النوع إنما يسعد في مسير حياته إذا بنى سنن حياته وأحكام معاشه على مبني حق مطابق للواقع فسار عليها لا إذا بناها على مبني باطل خرافي لا يعتمد على أصل ثابت.

٥. فقد بان من جميع ما تقدم أن الآيتين جميعا أعني قوله: ﴿يا صاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ برهان واحد على توحيد العبادة، محصله أن عبادة المعبود أن كانت لألوهيته في نفسه ووجوب وجوده بذاته فالله سبحانه في وجوده واحد قهار لا يتصور له ثان ولا مع تأثيره مؤثر آخر فلا معنى لتعدد الآلهة، وإن كانت لكون آلهة غير الله شركاء له شفعاء عنده فلا دليل على ثبوت الشفاعة لهم من قبل الله سبحانه بل الدليل على خلافه فإن الله حكم من طريق العقل وبلسان أنبيائه أن لا يعبد إلا هو.

٦. وبذلك يظهر فساد ما أورده البيضاوي في تفسيره تبعا للكشاف أن الآيتين تتضمنان دليلين على التوحيد فما في الأولى وهو قوله: ﴿أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ دليل خطابي، وما في الثانية وهو قوله: ﴿ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً﴾ برهان تام، قال البيضاوي: (وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة بين لهم أولا رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الإلهية فإن استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير وكلا القسمين منتف عنهما ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره ولا يرتضي العلم دونه)

• ولعل الذي حداه إلى ذلك ما في الآية الأولى من لفظة الخير فاستظهر منه الرجحان الخطابي، وقد فاته ما فيها من قيد ﴿الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ وقد عرفت تقرير ما تتضمنه الآيتان من البرهان، وأن الذي ذكره من معنى الآية الثانية هو مدلول مجموع الآيتين دون الثانية فحسب.

• وربما يقرر مدلول الآيتين برهانين على التوحيد بوجه آخر ملخصه (أن الله الواحد الذي يقهر

بقدرته الأسباب المتفرقة التي تفعل في الكون ويسوقها على تلائم آثارها المتفرقة المتنوعة بعضها مع بعض حتى ينتظم منها نظام واحد غير متناقض الأطراف كما هو المشهود من وحدة النظام وتوافق الأسباب خير من أرباب متفرقين تترشح منها لتفرقها ومضادتها أنظمة مختلفة وتدابير متضادة تؤدي إلى انفصام وحدة النظام الكوني وفساد التدبير الواحد العمومي، ثم الآلهة المعبودة من دون الله أسماء لا دليل على وجود مسمياتها في الخارج بتسميتكم لا من جانب العقل ولا من جانب النقل لأن العقل لا يدل إلا على التوحيد والأنبياء لم يؤمروا من جهة الوحي إلا بأن لا يعبد إلا الله وحده)

• وهذا التقرير، كما ترى، ينزل الآية الأولى على معنى قوله تعالى ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ويعمم الآية الثانية على نفي ألوهية آلهة إلا الله بذاتها ونفي ألوهيتها من جهة إذن الله في شفاعتها.

٧. ويرد عليه:

أ. أولا: أن فيه تقييدا لإطلاق قوله: ﴿الْقَهَّارُ﴾ من غير مقيد فإن الله سبحانه كما يقهر الأسباب في تأثيرها يقهر كل شيء في ذاته وصفته وآثاره فلا ثاني له في وجوده ولا ثاني له في استقلاله في نفسه وفي تأثيره فلا يتأتى مع وحدته القاهرة على الإطلاق أن يفرض شيء يستقل عنه في وجوده، ولا أمر يستقل عنه في أمره، والإله الذي يفرض دونه إما مستقل عنه في ذاته وآثار ذاته جميعا وإما مستقل عنه في آثار ذاته فحسب، وكلا الأمرين محال كما ظهر.

ب. وثانيا: أن فيه تعميما لخصوص الآية الثانية من غير معمم فإن الآية، كما عرفت، تنيط كونها آلهة بإذن الله وحكمه كما هو ظاهر قوله: ﴿ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ إلخ ومن الواضح أن هذه الألوهية المنوطة بإذنه تعالى وحكمه ألوهية شفاعة لا ألوهية ذاتية أي ألوهية بالغير لا ما هو أعم من الألوهية بالذات وبالغير جميعا.

١٧. تأويل رؤيا الفتيان:

المقطع [١٧] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١٨٠»:

١. ﴿يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ﴾ معنى الآية ظاهر، وقرينة المناسبة قاضية بأن قوله: ﴿أَمَّا أَحَدُكُما﴾ إلخ، تأويل رؤيا من قال منهما: ﴿إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾، تأويل لرؤيا الآخر.

٢. ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ﴾ لا يخلو من إشعار بأن الصاحبين أو أحدهما كذب نفسه في دعواه الرؤيا ولعله الثاني لما سمع تأويل رؤياه بالصلب وأكل الطير من رأسه، ويتأيد بهذا ما ورد من الرواية من طرق أئمة أهل البيت عليه السلام: أن الثاني من الصاحبين قال له: إني كذبت فيما قصصت عليك من الرؤيا، فقال عليه السلام: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ﴾ أي إن التأويل الذي استفتيتما فيه مقضي مقطوع لا مناص عنه.

١٨. يوسف يطلب من الناجي أن يذكره عند ربه:

المقطع [١٨] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١٨٠»:

١. ﴿وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾:

أ. الضمائر في قوله: ﴿قالَ﴾ و﴿ظَنَّ﴾ و﴿فَلَبِثَ﴾ راجعة إلى يوسف أي قال يوسف للذي ظن هو أنه سينجو منهما: اذكرني عند ربك بما يثير رحمته لعله يخرجني من السجن.

ب. وإطلاق الظن على اعتقاده مع تصريحه لهما بأنه من المقضي المقطوع به وتصريحه بأن ربه علمه تأويل الأحاديث لعله من إطلاق الظن على مطلق الاعتقاد وله نظائر في القرآن كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]

ج. وأما قول بعضهم: إن إطلاق الظن على اعتقاده يدل على أنه إنما أول ما أول عن اجتهاد منه، يفسده ما قدمنا الإشارة إليه أنه صرح لهما بعلمه في قوله: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ﴾ والله سبحانه أيد ذلك بقوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ﴾ وهذا ينافي الاجتهاد الظني.

د. وقد احتمل أن يكون ضمير ﴿ظَنَّ﴾ راجعا إلى الموصول أي قال يوسف لصاحبه الذي ظن

ذلك الصاحب أنه ناج منهما، وهذا المعنى لا بأس به إن ساعده السياق.

٢. ﴿فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾:

أ. الضميران راجعان إلى (الذي) أي فأنسى الشيطان صاحبه الناجي أن يذكره لربه أو عند ربه فلبث يوسف في السجن بضع سنين والبضع ما دون العشرة فإضافة الذكر إلى ربه من قبيل إضافة المصدر إلى معموله المعدى إليه بالحرف أو إلى المظروف بنوع من الملابسة.

ب. وأما إرجاع الضميرين إلى يوسف حتى يفيد أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله سبحانه فتعلق بذيل غيره في نجاته من السجن فعوقب على ذلك فلبث في السجن بضع سنين كما ذكره بعضهم وربما نسب إلى الرواية، فمما يخالف نص الكتاب فإن الله سبحانه نص على كونه عليه السلام من المخلصين ونص على أن المخلصين لا سبيل للشيطان إليهم مضافا إلى ما أثنى الله عليه في هذه السورة، والإخلاص لله لا يستوجب ترك التوسل بالأسباب فإن ذلك من أعظم الجهل لكونه طمعا فيما لا مطمع فيه بل إنما يوجب ترك الثقة بها والاعتماد عليها وليس في قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ما يشعر بذلك البتة.

ج. على أن قوله تعالى بعد آيتين: ﴿وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، قرينة صالحة على أن الناسي هو الساقي دون يوسف.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن سماعة: عن قول الله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ قال: هو العزيز.

ب. أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لو لم يقل يوسف الكلمة، التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله تعالى.

ج. ورواه عن ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة عنه ﷺ، ولفظه: (رحم الله يوسف لو لم يقل: اذكرني عند ربك ما لبث في السجن طول ما لبث) وروي مثله عن عكرمة والحسن وغيرهما.

د. وروى ما في معناه العياشي في تفسيره، عن طربال وعن ابن أبي يعقوب وعن يعقوب بن شعيب، عن أبي عبد الله عليه السلام، ولفظ الأخير قال: (قال الله ليوسف: ألست الذي حببتك إلى أبيك، وفضلتك

على الناس بالحسن؟ أولست الذي سقت إليك السيارة فأنقذتك وأخرجتك من الجب؟ أولست الذي صرفت عنك كيد النسوة؟ فما حملك على أن ترفع رعية أو تدعو مخلوقا هو دوني؟ فالبث لما قلت بضع سنين، وقد تقدم أن هذه وأمثالها روايات تخالف نص الكتاب.

هـ. ومثلها عن ابن مردويه عن ابن عباس قال: عثر يوسف عليه السلام ثلاث عثرات: قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وقوله لإخوته: ﴿إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾ وقوله: ﴿ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ فقال له جبرئيل: ولا حين هممت؟ فقال: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ وفي الرواية نسبة الفرية والكذب الصريح إلى الصديق عليه السلام.

• وفي بعض هذه الروايات أن عثراته الثلاث هي همه بها، وقوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾، والله سبحانه يبرئه من هذه المفتريات بنص كتابه.

١٩. رؤيا الملك:

المقطع [١٩] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٣-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١٨٥»:

١. ﴿وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ﴾ إلى آخر الآية:

أ. رؤيا للملك يخبر بها الملأ والدليل عليه قوله: ﴿يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي أَرى﴾ حكاية حال ماضية، ومن المحتمل أنها كانت رؤيا متكررة كما يحتمل مثله في قوله سابقا: ﴿إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾ ﴿إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ﴾ والسمان جمع سمينة والعجاف جمع عجفاء بمعنى المهزولة، قال في المجمع: (ولا يجمع فعلاء على فعال غير العجفاء على عجاف والقياس في جمعه العجف بضم العين وسكون الجيم كالحمراء والخضراء والبيضاء على حمر وخضر وبيض، وقال غيره: إن ذلك من قبيل الاتباع والجمع القياسي عجف، والإفتاء إفعال من الفتوى والفتيا، قال في المجمع: (الفتيا الجواب عن حكم المعنى وقد يكون الجواب عن نفس المعنى فلا يكون فتيا)

ب. ﴿تَعْبُرُونَ﴾ من العبر وهو بيان تأويل الرؤيا وقد يسمى تعبيرا، وهو على أي حال مأخوذ من

عبور النهر ونحوه كان العابر يعبر من الرؤيا إلى ما وراءها من التأويل، وهو حقيقة الأمر التي تمثلت لصاحب الرؤيا في صورة خاصة مألوفة له.

ج. قال في الكشاف، في قوله: ﴿سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ﴾ فإن قلت: هل من فرق بين إيقاع سمان صفة للمميز وهو بقرات دون المميز وهو سبع وإن يقال: سبع بقرات سمانا؟ قلت: إذا أوقعتها صفة لبقرات فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهي السمان منهن لا بجنسهن، ولو وصفت بها السبع لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن، فإن قلت: هلا قيل: سبع عجاف على الإضافة؟ قلت: التمييز موضوع لبيان الجنس والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده فإن قلت: فقد يقال: ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب قلت: الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجز في غيرها، ألا تراك لا تقول: عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ)

د. وقال أيضا: (فإن قلت: هل في الآية دليل على أن السنبلات اليابسة كانت سبعا كالخضر؟ قلت: الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر فوجب أن يتناول معنى الآخر السبع، ويكون قوله: ﴿وَأُخَرَ يابِساتٍ﴾ بمعنى وسبعا أخر، فإن قلت: هل يجوز أن يعطف قوله: ﴿وَأُخَرَ يابِساتٍ﴾ على ﴿سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ﴾ فيكون مجرور المحل؟ قلت: يؤدي إلى تدافع وهو أن عطفها على سنبلات خضر يقتضي أن يدخل في حكمها فيكون معها مميزا للسبع المذكورة، ولفظ الأخر يقتضي أن يكون غير السبع بيانه أنك تقول: عندي سبعة رجال قيام وقعود بالجر فيصح لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بقيام وقعود على أن بعضهم قيام وبعضهم قعود فلو قلت: عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود تدافع ففسانتهى، وكلامه على اشتماله على نكتة لطيفة لا ينتج أزيد من الظن بكون السنبلات اليابسات سبعا كغيرها أما وجوب الدلالة من الكلام فلا البتة.

هـ. ومعنى الآية: وقال ملك مصر لملئه إني أرى في منامي سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات مهازيل وأرى سبع سنبلات خضر وسنبلات أخر يابسات يا أيها الملأ بينوا لي ما عندكم من حكم رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون.

٢. ﴿قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ﴾:

أ. الأحلام جمع حلم بضمتين وقد يسكن وسطه هو ما يراه النائم في منامه وكان الأصل في معناه ما يتصور للإنسان من داخل نفسه من غير توصله إليه بالحس، ومنه تسمية العقل حلما لأنه استقامة التفكر، ومنه أيضا الحلم لزمان البلوغ قال تعالى، ﴿وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ [النور: ٥٩] أي زمان البلوغ، بلوغ العقل، ومنه الحلم بكسر الحاء بمعنى الأناءة ضد الطيش وهو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وعدم المعاجلة في العقوبة فإنه إنما يكون عن استقامة التفكر، وذكر الراغب: (أن الأصل في معناه الحلم بكسر الحاء، ولا يخلو من تكلف، وقال الراغب: (الضغث قبضة ريحان أو حشيش أو قضبان وجمعه أضغاث، قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً﴾ وبه شبه الأحلام المختلفة التي لا تتبين حقائقها ﴿قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ﴾ حزم أخلاط من الأحلام)

ب. وتسمية الرؤيا الواحدة بأضغاث الأحلام كأنه بعناية دعوى كونها صورا متفرقة مختلطة مجتمعة من رؤي مختلفة لكل واحد منها تأويل على حدة فإذا اجتمعت واختلطت عسر للمعبر الوقوف على تأويلها، والإنسان كثيرا ما ينتقل في نومة واحدة من رؤيا إلى أخرى ومنها إلى ثالثة وهكذا فإذا اختلطت أبعاضها كانت أضغاث أحلام وامتنع الوقوف على حقيقتها ويدل على ما ذكرنا من العناية التعبير بأضغاث أحلام بتنكير المضاف والمضاف إليه معا كما لا يخفى، على أن الآية أعني قوله: ﴿وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى﴾، غير صريحة في كونه رؤيا واحدة وفي التوراة أنه رأى البقرات السمان والعجاف في رؤيا والسنبلات الخضر واليابسات في رؤيا أخرى.

ج. ﴿وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ﴾ إن كان الألف واللام للعهد فالمعنى وما نحن بتأويل هذه المنامات التي هي أضغاث أحلام بعالمين، وإن كان لغير العهد والجمع المحلى باللام يفيد العموم فالمعنى وما نحن بتأويل جميع المنامات بعالمين وإنما نعبر غير أضغاث الأحلام منها، وعلى أي حال لا تدافع بين عدهم رؤياه أضغاث أحلام وبين نفيهم العلم بتأويل الأحلام عن أنفسهم، ولو كان المراد بالأحلام الأحلام الصحيحة فحسب كان كل من شطري كلامهم يغني عن الآخر.

د. ومعنى الآية قالوا أي قال الملأ للملك: ما رأيته أضغاث أحلام وأخلاط من منامات مختلفة وما نحن بتأويل هذا النوع من المنامات بعالمين أو وما نحن بتأويل جميع المنامات بعالمين وإنما نعلم تأويل الرؤى الصالحة.

٢٠. الفتى الناجي يتذكر يوسف ويطلب تأويل الرؤيا:

المقطع [٢٠] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٥-٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١٨٨»:

١. ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾:

أ. الأمة الجماعة التي تقصد لشأن ويغلب استعمالها في الإنسان، والمراد بها هاهنا الجماعة من السنين وهي المدة التي نسي فيها هذا القائل وهو ساقي الملك أن يذكر يوسف عند ربه وقد سأله يوسف ذلك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث يوسف في السجن بضع سنين.

ب. والمعنى: وقال الذي نجا من السجن من صاحبي يوسف فيه وادكر بعد جماعة من السنين ما سأله يوسف في السجن حين أول رؤياه: أنا أنبئكم بتأويل ما رآه الملك في منامه فأرسلوني إلى يوسف في السجن حتى أخبركم بتأويل ذلك.

ج. وخطاب الجمع في قوله: ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ تشريك لمن حضر مع الملك وهم الملأ من أركان الدولة وأعضاد المملكة الذين يلون أمور الناس، والدليل عليه قوله الآتي: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ كما سيأتي.

٢. ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ إلى آخر الآية:

أ. في الكلام حذف وتقدير إيجازا، والتقدير: فأرسلوه فجاء إلى يوسف في السجن فقال: يا يوسف أيها الصديق أفتنا في رؤيا الملك وذكر الرؤيا وذكر أن الناس في انتظار تأويله وهذا الأسلوب من لطائف أساليب القرآن الكريم.

ب. سمى يوسف صديقا وهو كثير الصدق المبالغ فيه لما كان رأى من صدقه فيما عبر به منامه ومنام صاحبه في السجن وأمور أخرى شاهدها من فعله وقوله في السجن، وقد أمضى الله سبحانه كونه

صديقا بنقله ذلك من غير رد.

ج. وقد ذكر متن الرؤيا من غير أن يصرح أنه رؤيا فقال: ﴿أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ﴾ لأن قوله: ﴿أَفْتِنا﴾ وهو سؤال الحكم الذي يؤدي إليه نظره، وكون المعهود فيما بينه وبين يوسف تأويل الرؤيا، وكذا ذيل الكلام يدل على ذلك ويكشف عنه.

٣. ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

أ. لعل الأول تعليل لقوله: ﴿أَفْتِنا﴾ ولعل الثاني تعليل لقوله: ﴿أَرْجِعُ﴾ والمراد أفتنا في أمر هذه الرؤيا ففي إفتائك رجاء أن أرجع به إلى الناس وأخبرهم بها وفي رجوعي إليهم رجاء أن يعلموا به فيخرجوا به من الحيرة والجهالة.

ب. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿أَرْجِعُ﴾ في معنى أرجع بذلك فمن المعلوم أنه لو أفتى فيه فرجع المستفتي إلى الناس كان رجوعه رجوع عالم بتأويله خبير بحكمه فرجوعه عندئذ إليهم رجوع بمصاحبة ما ألقي إليه من التأويل فافهم ذلك.

ج. وفي قوله أولا: ﴿أَفْتِنا﴾ وثانيا: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ دلالة على أنه كان يستفتيه بالرسالة عن الملك والملأ ولم يكن يسأله لنفسه حتى يعلمه ثم يخبرهم به بل ليحمله إليهم ولذلك لم يخصه يوسف بالخطاب بل عم الخطاب له ولغيره فقال: ﴿تَزْرَعُونَ﴾

د. وفي قوله: ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ إشعار أو دلالة على أن الناس كانوا في انتظار أن يرتفع بتأويله حيرتهم، وليس إلا أن الملأ كانوا هم أولياء أمور الناس وخيرتهم في الأمر خيرة الناس أو أن الناس أنفسهم كانوا على هذا الحال لتعلقهم بالملك واهتمامهم برؤياه لأن الرؤيا ناظرة غالبا إلى ما يهتم به الإنسان من شئون الحياة والملوك إنما يهتمون بشئون المملكة وأمور الرعية.

٤. ﴿قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾:

أ. قال الراغب: (الدأب إدامة السير دأب في السير دأبا قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ﴾ والدأب العادة المستمرة دائما على حاله قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي كعادتهم التي يستمرون عليها) وعليه فالمعنى تزرعون سبع سنين زراعة متوالية مستمرة، وقيل: هو من دأب بمعنى التعب أي تزرعون بجد واجتهاد، ويمكن أن يكون حالا أي تزرعون دائبين مستمرين أو مجدين مجتهدين

فيه.

ب. ذكروا أن ﴿تَزْرَعُونَ﴾ خبر في معنى الإنشاء، وكثيرا ما يؤتى بالأمر في صورة الخبر مبالغة في وجوب الامتثال كأنه واقع يخبر عنه كقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [الصف: ١١]، والدليل عليه قوله بعد: ﴿فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾، قيل: وإنما أمر بوضعه وتركه في سنبله لأن السنبل لا يقع فيه سوس ولا يهلك وإن بقي مدة من الزمان، وإذا ديس وصفي أسرع إليه الهلاك، والمعنى: ازرعوا سبع سنين متواليات فما حصدتم فذروه في سنبله لئلا يهلك واحفظوه كذلك إلا قليلا وهو ما تأكلون في هذه السنين.

٥. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ الشداد جمع شديد من الشدة بمعنى الصعوبة لما في سني الجدب والمجاعة من الصعوبة والحرج على الناس أو هو من شد عليه إذا كر، وهذا أنسب لما بعده من توصيفها بقوله: ﴿يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَ﴾، وعليه فالكلام يشتمل على تمثيل لطيف كان هذه السنين سباع ضارية تكر على الناس لافتراسهم وأكلهم فيقدمون إليها ما ادخروه عندهم من الطعام فتأكله وتنصرف عنهم، والإحصان الإحراز والادخار، والمعنى ثم يأتي من بعد ذلك أي ما ذكر من السنين الخصبة سبع سنين شداد يشددن عليكم يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحرزون وتدخرون.

٦. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾:

أ. يقال: غاثه الله وأغاثه أي نصره، ويغيثه بفتح الياء وضمها أي ينصره وهو من الغوث بمعنى النصرة وغاثهم الله يغيثهم من الغيث وهو المطر، فقوله: ﴿فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ﴾ إن كان من الغوث كان معناه: ينصرون فيه من قبل الله سبحانه بكشف الكربة ورفع الجدب والمجاعة وإنزال النعمة والبركة، وإن كان من الغيث كان معناه: يمطرون فيرتفع الجدب من بينهم، وهذا المعنى الثاني أنسب بالنظر إلى قوله بعده: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ولا يصغي إلى قول من يدعي: أن المعنى الأول هو المتبادر من سياق الآية إلا على قراءة ﴿يَعْصِرُونَ﴾ بالبناء للمجهول ومعناه يمطرون.

ب. وما أورده بعض المستشرقين على المعنى الثاني أنه لا ينطبق على مورد الآية فإن خصب مصر إنما يكون بفيضان النيل لا بالمطر فالأمطار لا تؤثر فيها أثرا، رد عليه بأن الفيضان نفسه لا يكون إلا بالمطر

الذي يمده في مجاريه من بلاد السودان، على أن من الجائز أن يكون ﴿يُغاثُ﴾ مأخوذا من الغيث بمعنى النبات، قال في لسان العرب: (والغيث الكلاء ينبت من ماء السما، وهذا أنسب من المعنيين السابقين بالنظر إلى قوله: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾

ج. ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ من العصر وهو إخراج ما في الشيء من ماء أو دهن بالضغط كإخراج ماء العنب والتمر للدبس وغيره وإخراج دهن الزيت والسمسم للائتدام والاستصباح وغيرهما، ويمكن أن يراد بالعصر الحلب أي يحلبون ضروع أنعامهم كما فسره بعضهم به.

د. والمعنى ثم يأتي من بعد ذلك أي ما ذكر من السبع الشداد عام فيه تنبت أراضيهم، أو يمطرون أو ينصرون، وفيه يتخذون الأشربة والأدهنة من الفواكه والبقول أو يحلبون ضروع أنعامهم، وفيه كناية عن توفر النعمة عليهم وعلى أنعامهم ومواشيهم.

هـ. قال البيضاوي في تفسيره: (وهذه بشارة بشرهم بها بعد أن أول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة، ولعله علم ذلك بالوحي أو بأن انتهاء الجدب بالخصب أو بأن السنة الإلهية أن يوسع على عباده بعد ما ضيق عليهوذكر غيره نحوا مما ذكره.

و. وقال صاحب المنار في تفسيره، في الآية: والمراد أن هذا العام عظيم الخصب والإقبال يكون للناس فيه كل ما يبغون من النعمة والإتراف، والإنباء بهذا زائد على تأويل الرؤيا لجواز أن يكون العام الأول بعد سني الشدة والجدب دون ذلك فهذا التخصيص والتفصيل لم يعرفه يوسف إلا بوحي من الله عز وجل لا مقابل له في رؤيا الملك ولا هو لازم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل)

ز. والذي أرى أنهم سلكوا تفسير آيات الرؤيا وتأويلها سبيل المساهلة والمسامحة وذلك أنا إذا تدبرنا في كلامه عليه السلام في التأويل أعني قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ وجدناه عليه السلام لم يبن كلامه على أساس إخبارهم بما سيستقبلهم من السنين السبع المخصبة ثم السنين السبع المجدبة، ولو أنه أراد ذلك لكان من حق الكلام أن يقول مثلا: يأتي عليكم سبع مخصبات ثم يأتي من بعدها سبع شداد يذهبن بما عندكم من الذخائر ثم إذا سئل عن دفع هذه المخمصة وطريق النجاة من هذه المهلكة

العامة، قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ إلى آخر ما قال.

ح. بل بنى كلامه على ذكر ما يجب عليهم من العمل وبين أن أمره بذلك توطئة وتقدمة للتخلص عما يهددهم من المجاعة والمخمصة وهو ظاهر، وهذا دليل على أن الذي رآه الملك من الرؤيا إنما كان مثال ما يجب عليه من اتخاذ التدبير لإلجاء الناس من مصيبة الجدب، وإشارة إلى ما هو وظيفته قبال مسئوليته في أمر رعيته وهو أن يسمن بقرات سبعا لتأكلهن بقرات مهازيل ستشد عليهم ويحفظ السنابل الخضر السبع بعد ما يبست على حالها من غير دوس وتصفية لذلك.

ط. فكأن نفس الملك شاهدت في المنام ما يجب عليه من العمل قبال ما يهدد الأرض من سنة الجدب فحكت السنين المخصبة والمجدبة أي الرزق الذي يرتزقون به فيها في صورة البقرة ثم حكت ما في السبع الأول من تكثير المحصول بزرعها دأبا في صورة السمن وما في السبع الآخر في صورة الهزال، وحكت نفاد ما ادخروه في السبع الأولى في السبع الثانية بأكل العجاف للسمان، وحكت ما يجب عليهم في حفظ ذخائر الرزق بالسنبلات اليابسة قبال السنبلات الخضر.

ي. ولم يزد يوسف عليه السلام في تأويله على ذلك شيئا إلا أمورا ثلاثة:

- أحدها ما استثناه بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ وليس جزء من التأويل وإنما هو إباحة وبيان لمقدار التصرف الجائز فيما يجب أن يذروه في سنبله.
- وثانيها: قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ وهو الذي يجب أن يدخروه للعام الذي فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ليتخذ بذرا ومددا احتياطيا، وكأنه عليه السلام أخذه من قوله في حكاية الرؤيا: ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ﴾ حيث لم يقل: أكلتهن بل عبر عن اشتغالهن بأكلهن ولما يفنيهن بأكل كلهن ولو كانت ذخائرهم تنفد في السنين السبع الشداد لرأى أنهن أكلتهن عن آخرهن.
- وثالثها: قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ والظاهر أنه عليه السلام استفاده من عدد السبع الذي تكرر في البقرات السمان والعجاف والسنبلات الخضر، وقوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ﴾ وإن كان إخبارا صورة عن المستقبل لكنه كناية عن أن هذا العام الذي سيستقبلهم بعد مضي السبع الشداد في غنى عن اجتهادهم في أمر الزرع والادخار، ولا تكليف فيه يتوجه إليهم بالنسبة إلى أرزاق الناس.

ك. ولعله لهذه الثلاثة غير السياق فقال: ﴿فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ولم يقل: فيه تغاثون وفيه تعصرون بالجري على نحو الخطاب في الآيتين السابقتين ففيه إشارة إلى أن الناس في هذا العام في غنى عن اجتهادكم في أمر معاشهم وتصديكم لإدارة أرزاقهم بل يغاثون ويعصرون لنزول النعمة والبركة في سنة مخصبة.

ل. ومن هنا يظهر اندفاع ما ذكره صاحب المنار، في كلامه المتقدم أن (هذا التخصيص لم يعرفه يوسف عليه السلام إلا بوحي من الله لا مقابل له في رؤيا الملك ولا هو لازم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل) فإن تبدل سني الجدب بسنة الخصب مما يستفاد من الرؤيا بلا ريب فيه، وأما ما ذكره من كون هذه السنة ذات مزية بالنسبة إلى سائر سني الخصب تزيد عليها في وفور الرزق فلا دليل عليها من جهة اللفظ البتة.

م. ومما ذكرنا أيضا تظهر النكتة في ترك توصيف السنبلات اليابسات في الآية بالسبع حيث قيل: ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ﴾ حيث عرفت أن الرؤيا لا تجلي نفس حادثة الخصب والجدب، وإنما تجلي ما هو التكليف العملي قبال الحادثة فيكون توصيف السنابل اليابسة بالسبع مستدركا مستغنى عنه بخلاف ما لو كان ذلك إشارة إلى نفس السنين المجدبة فافهم ذلك.

ن. ومما تقدم يظهر أيضا أن الأنسب أن يكون المراد بقوله: ﴿يُغاثُ﴾ وقوله: ﴿يَعْصِرُونَ﴾ الإمطار أو إعشاب الكلاء وحلب المواشي لأن ذلك هو المناسب لما رآه في منامه من البقرات السبع سمانا وعجافا فإن هذا هو المعهود، ومنه يظهر وجه تخصيص الغيث والعصر بالذكر في هذه الآية، والله أعلم.

٢١. يوسف والملك والنسوة والبراءة:

المقطع [٢١] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠ـ٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ١٩٤»:

١. ﴿وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾:

أ. في الكلام حذف وإضمار إيجازا، والتقدير، على ما يدل عليه السياق والاعتبار بطبيعة الأحوال، وجاء الرسول وهو الساقي فنبأهم بما ذكره يوسف من تأويل الرؤيا وقال الملك بعد ما سمعه: ائتوني به.

ب. وظاهر أن الذي أنبأهم به من جدب سبع سنين متوالية كان أمرا عظيما، والذي أشار إليه من الرأي البين الصواب أعظم منه وأغرب عند الملك المهتم بأمر أمته المعتني بشئون مملكته، وقد أفزعه ما سمع وأدهشه، ولذلك أمر بإحضاره ليكلمه ويتبصر بما يقوله مزيد تبصر، ويشهد بهذا ما حكاه الله تعالى من تكليمه إياه بقوله: ﴿فَلَمَّا جاءَهُ﴾ و﴿كَلَّمَهُ﴾

ج. ولم يكن أمره بإتيانه به إشخاصا له بل إطلاقا من السجن وإشخاصا للتكليم و، لو كان إشخاصا وإحضارا لمسجون يعود إلى السجن بعد التكليم لم يكن ليوسف عليه السلام أن يستنكف عن الحضور بل أجبر عليه إجبارا بل كان إحضارا عن عفو وإطلاق فوسعه أن يأتي الحضور ويسأله أن يقضي فيه بالحق، وكانت نتيجة هذا الإباء والسؤال أن يقول الملك ثانيا: ائتوني به أستخلصه لنفسي بعد ما قال أولا: ائتوني به.

د. وقد راعى عليه السلام أدبا بارعا في قوله للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فلم يذكر امرأة العزيز بما يسوؤه وليس يريد إلا أن يقضي بينه وبينها، وإنما أشار إلى النسوة اللاتي راودنه، ولم يذكرهن أيضا بسوء إلا بأمر يظهر بالتحقيق فيه براءته ولا براءته من مراودة امرأة العزيز بل نزاهته من أي مراودة وفحشاء تنسب إليه فقد كان بلاؤه عظيما، ولم يذكرهن بشيء من المكروه إلا ما في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وليس إلا نوعا من بث الشكوى لربه.

هـ. وما ألطف قوله في صدر الآية وذيلها حيث يقول للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ﴾ ثم يقول: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وفيه نوع من تبليغ الحق، وليكن فيه تنبه لمن يزعم أن مراده من ﴿رَبِّي﴾ فيما قال لامرأة العزيز: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾ هو زوجها، وأنه يسميه ربا لنفسه.

و. وما ألطف قوله: ﴿ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ والبال هو الأمر الذي يهتم به يقول: ما هو الأمر العظيم والشأن الخطير الذي أوقعهن فيما وقعن فيه، وليس إلا هواهن فيه وولهن في حبه حتى

أنساهن أنفسهن فقطعن الأيدي مكان الفاكهة تقطيعا فليفكر الملك في نفسه أن الابتلاء بمثل هذه العاشقات الوالهات عظيم جدا، والكف عن معاشقتهن والامتناع من إجابتهن بما يردنه وهن يفدينه بالأنفس والأموال أعظم، ولم يكن المراودة بالمرة والمرتين ولا الإلحاح والإصرار يوما أو يومين ولن تتيسر المقاومة والاستقامة تجاه ذلك إلا لمن صرف الله عنه السوء والفحشاء ببرهان من عنده.

٢. ﴿قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ الآية:

أ. قال الراغب: (الخطب الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب قال تعالى: ﴿فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ﴾ ﴿فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾) وقال أيضا: (حصحص الحق أي وضح وذلك بانكشاف ما يظهره، وحص وحصحص نحو كف وكفكف وكب وكبكب، وحصة قطع منه إما بالمباشرة وإما بالحكم، إلى أن قال، والحصة القطعة من الجملة، ويستعمل استعمال النصيب)

ب. ﴿قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؟﴾ جواب عن سؤال مقدر على ما في الكلام من حذف وإضمار إيجازا، كل ذلك يدل عليه السياق، والتقدير: كان سائلا يسأل فيقول: فما الذي كان بعد ذلك؟ وما فعل الملك؟ فقيل: رجع الرسول إلى الملك وبلغه ما قاله يوسف وسأله من القضاء فأحضر النسوة وسألهن عما يهم من شأنهن في مراودتهن ليوسف: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿قُلْنَ: حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ فنزهنه عن كل سوء، وشهدن أنهن لم يظهر لهن منه ما يسوء فيما راودنه عن نفسه.

ج. وذكرهن كلمة التنزيه: ﴿حاشَ لِلَّهِ﴾ نظير تنزيههن حينما رأينه لأول مرة: ﴿حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً﴾ يدل على بلوغه عليه السلام النهاية في النزاهة والعفة فيما علمنه كما أنه كان بالغا في الحسن.

د. والكلام في فصل قوله: ﴿قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ نظير الكلام في قوله: ﴿قالَ ما خَطْبُكُنَ﴾ وقوله: ﴿قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ﴾ فعند ذلك تكلمت امرأة العزيز وهي الأصل في هذه الفتنة واعترفت بذنبها وصدقت يوسف عليه السلام فيما كان يدعيه من البراءة قالت: الآن حصحص ووضح الحق وهو أنه: أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين فنسبت المراودة إلى نفسها وكذبت نفسها في اتهامه بالمراودة، ولم تقنع بذلك بل برأته تبرئة كاملة أنه لم يراود ولا أجابها في مراودتها بالطاعة.

هـ. واتضحت بذلك براءته عليه السلام من كل وجه، وفي قول النسوة وقول امرأة العزيز جهات

من التأكيد بالغة في ذلك كنفي السوء عنه بالنكرة في سياق النفي مع زيادة من: ﴿ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ مع كلمة التنزيه: ﴿حاشَ لِلَّهِ﴾ في قولهن، واعترافها بالذنب في سياق الحصر: ﴿أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وشهادتها بصدقه مؤكدة بأن واللام والجملة الاسمية: ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وغير ذلك في قولها، وهذا ينفي عنه عليه السلام كل سوء أعم من الفحشاء والمراودة لها وأي ميل ونزعة إليها وكذب وافتراء، بنزاهه من حسن اختياره.

٣. ﴿ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ﴾:

أ. من كلام يوسف عليه السلام على ما يدل عليه السياق، وكأنه قاله عن شهادة النسوة على براءة ساحته من كل سوء واعتراف امرأة العزيز بالذنب وشهادتها بصدقه وقضاء الملك ببراءته، وحكاية القول كثير النظير في القرآن كقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] أي قالوا لا نفرق، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٦]

ب. وعلى هذا فالإشارة بقوله: ﴿ذلِكَ﴾ إلى إرجاع الرسول إلى الملك وسؤاله القضاء، والضمير في ﴿لِيَعْلَمَ﴾ و﴿لَمْ أَخُنْهُ﴾ عائد إلى العزيز والمعنى إنما أرجعت الرسول إلى الملك وسألته أن يحقق الأمر ويقضي بالحق ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب بمراودة امرأته وليعلم أن الله لا يهدي كيد الخائنين.

ج. يذكر عليه السلام لما فعله من الإرجاع والسؤال غايتين:

• أحدهما: أن يعلم العزيز أنه لم يخنه وتطيب نفسه منه ويزول عنها وعن أمره أي شبهة وريبة.

• والثاني: أن يعلم أن الخائن مطلقا لا ينال بخيانته غايته وأنه سيفتضح لا محالة سنة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا فإن الخيانة من الباطل، والباطل لا يدوم وسيظهر الحق عليه ظهورا، ولو اهتدى الخائن إلى بغيته لم تفتضح النسوة اللاتي قطعن أيديهن وأخذن بالمراودة ولا امرأة العزيز فيما فعلت وأصرت عليه فالله لا يهدي كيد الخائنين.

د. وكان الغرض من الغاية الثانية: ﴿وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ﴾ وتذكيره وتعليمه للملك، الحصول على لازم فائدة الخبر وهو أن يعلم الملك أنه عليه السلام عالم بذلك مذعن بحقيقته فإذا كان لم يخنه في عرضه بالغيب ولا يخون في شيء البتة كان جديرا بأن يؤتمن على كل شيء نفسا كان أو عرضا أو

مالا.

هـ. وبهذا الامتياز البين يتهيأ ليوسف ما كان بباله أن يسأل الملك إياه وهو قوله بعد أن أشخص عند الملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

و. والآية ظاهرة في أن هذا الملك هو غير عزيز مصر زوج المرأة الذي أشير إليه بقوله: ﴿وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ﴾ وقوله: ﴿وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ﴾

ز. وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية والتي بعدها تتمة قول امرأة العزيز: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وسيأتي الكلام عليه.

٤. ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. تتمة كلام يوسف عليه السلام وذلك أن قوله: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ كان لا يخلو من شائبة دعوى الحول والقوة وهو عليه السلام من المخلصين المتوغلين في التوحيد الذين لا يرون لغيره تعالى حولا ولا قوة فبادر عليه السلام إلى نفي الحول والقوة عن نفسه ونسبة ما ظهر منه من عمل صالح أو صفة جميلة إلى رحمة ربه، وتسوية نفسه بسائر النفوس التي هي بحسب الطبع مائلة إلى الأهواء أمارة بالسوء فقال: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي﴾ فقوله هذا كقول شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ﴾ [هود: ٨٨]

ب. فقوله: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ إشارة إلى قوله: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ وأنه لم يقل هذا القول بداعي تنزيه نفسه وتزكيتها بل بداعي حكاية رحمة من ربه، وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي إن النفس بطبعها تدعو إلى مشتهياتها من السيئات على كثرتها ووفورها فمن الجهل أن تبرأ من الميل إلى السوء، وإنما تكف عن أمرها بالسوء ودعوتها إلى الشر برحمة من الله سبحانه تصرفها عن السوء وتوفقها لصالح العمل.

ج. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي﴾ يفيد فائدتين:

• إحداهما: تقييد إطلاق قوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ فيفيد أن اقتراف الحسنات الذي هو برحمة من الله سبحانه من أمر النفس وليس يقع عن إلجاء وإجبار من جانبه تعالى.

• وثانيتهما: الإشارة إلى أن تجنبه الخيانة كان برحمة من ربه.

٥. وقد علل الحكم بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. فأضاف مغفرته تعالى إلى رحمته لأن المغفرة تستر النقيصة اللازمة للطبع والرحمة يظهر بها الأمر الجميل، ومغفرته تعالى كما تمحو الذنوب وآثارها كذلك تستر النقائض وتبعاتها وتتعلق بسائر النقائص كما تتعلق بالذنوب، قال تعالى، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] وقد تقدم الكلام فيها في آخر الجزء السادس من الكتاب.

ب. ومن لطائف ما في كلامه من الإشارة تعبيره عليه السلام عن الله عز اسمه بلفظ ﴿رَبِّي﴾ فقد كرره ثلاثا حيث قال: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ﴿إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي﴾ ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لأن هذه الجمل تتضمن نوع إنعام من ربه بالنسبة إليه فأثنى على الرب تعالى بإضافته إلى نفسه لتبليغ مذهبه وهو التوحيد باتخاذ الله سبحانه ربا لنفسه معبودا خلافا للوثنيين، وأما قوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ﴾ فهو خال عن هذه النسبة ولذلك عبر بلفظ الجلالة.

٦. وقد ذكر جمع من المفسرين أن الآيتين أعني قوله: ﴿ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ من تمام كلام امرأة العزيز، والمعنى على هذا أن امرأة العزيز لما اعترفت بذنبها وشهدت بصدقه قالت: ﴿ذلِكَ﴾ أي اعترافي بأني راودته عن نفسه وشهادتي بأنه من الصادقين ﴿لِيَعْلَمَ﴾ إذا بلغه عني هذا الكلام ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بل اعترفت بأن المراودة كانت من قبلي أنا وأنه كان صادقا ﴿وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ﴾ كما أنه لم يهد كيدي أنا إذ كدته بأنواع المراودة وبالسجن بضع سنين حتى أظهر صدقه في قوله وطهارة ذيله وبراءة نفسه وفضحني أمام الملك والملأ ولم يهد كيد سائر النسوة في مراودتهن ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ من السوء مطلقا فإني كدت له بالسجن ليلجأ به إلى أن يفعل ما آمره ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وهذا وجه رديء جدا:

أ. أما أولا: فلأن قوله: ﴿ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ لو كان من كلام امرأة العزيز لكان من حق الكلام أن يقال: وليعلم أني أخنه بالغيب، بصيغة الأمر، فإن قوله: ﴿ذلِكَ﴾ على هذا الوجه إشارة إلى اعترافها بالذنب وشهادتها بصدقه فقوله: ﴿لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ إن كان عنوانا لاعترافها وشهادتها مشارا به إلى ذلك خلى الكلام عن الفائدة فإن محصل معناه حينئذ: إنما اعترفت وشهدت ليعلم أني اعترفت وشهدت له بالغيب، مضافا إلى أن ذلك يبطل معنى الاعتراف والشهادة لدلالته على أنها إنما اعترفت وشهدت

ليسمع يوسف ذلك ويعلم به، لا لإظهار الحق وبيان حقيقة الأمر، وإن كان عنوانا لأعمالها طول غيبة إذ لبث بضع سنين في السجن أي إنما اعترفت وشهدت له ليعلم أني لم أخنه طول غيبته، فقد خانته إذ كادت به فسجن ولبث في السجن بضع سنين مضافا إلى أن اعترافها وشهادتها لا يدل على عدم خيانتها له بوجه من الوجوه وهو ظاهر.

ب. وأما ثانيا: فلأنه لا معنى حينئذ لتعليمها يوسف إن الله لا يهدي كيد الخائنين، وقد ذكرها يوسف به أول حين إذ راودته عن نفسه فقال: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

ج. وأما ثالثا: فلأن قولها: (وما أبرئ نفسي فقد خنته بالكيد له بالسجن) يناقض قولها: ﴿لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ كما لا يخفى مضافا إلى أن قوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ على ما فيه من المعارف الجليلة التوحيدية ليس بالحري أن يصدر من امرأة أحاطت بها الأهواء وهي تعبد الأصنام.

٧. وذكر بعضهم وجها آخر في معنى الآيتين بإرجاع ضمير ﴿لِيَعْلَمَ﴾ و﴿لَمْ أَخُنْهُ﴾ إلى العزيز وهو زوجها فهي كأنها تقول: ذاك الذي حصل أقررت به ليعلم زوجي أني لم أخنه بالفعل فيما كان من خلواتي بيوسف في غيبته عنا، وأن كل ما وقع أني راودته عن نفسه فاستعصم وامتنع فبقي عرض زوجي مصونا وشرفه محفوظا، ولئن برئت يوسف من الإثم فما أبرئ منه نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي:

أ. وفيه: أن الكلام لو كان من كلامها وهي تريد أن تطيب به نفس زوجها وتزيل أي ريبة عن قلبه أنتج خلاف المطلوب فإن قولها، ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إنما يفيد العلم بأنها راودته عن نفسه، وأما شهادتها أنه امتنع ولم يطعها فيما أمرته به فهي شهادة لنفسها لا عليها، وكان من الممكن أنها إنما شهدت له لتطيب نفس زوجها وتزيل ما عنده من الشك والريب فاعترافها وشهادتها لا توجب في نفسها علم العزيز أنها لم تخنه بالغيب.

ب. مضافا إلى أن قوله: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ يكون حينئذ تكرارا لمعنى قولها: ﴿أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وظاهر السياق خلافه، على أن بعض الاعتراضات الواردة على الوجه السابق وارد عليه.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: ثم إن الملك رأى رؤيا، فقال لوزرائه إني رأيت في نومي سبع بقرات سمان،

يأكلهن سبع عجاف أي مهازيل، ورأيت سبع سنبلات خضر وأخر يابسات، وقال أبو عبد الله عليه السلام: سبع سنابل، ثم قال: يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون، فلم يعرفوا تأويل ذلك، فذكر الذي كان على رأس الملك رؤياه التي رآها، وذكر يوسف بعد سبع سنين، وهو قوله: ﴿وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد حين ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ فجاء إلى يوسف فقال: ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ، يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ، وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ﴾، قال يوسف: تزرعون سبع سنين دأبا، فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون، أي لا تدوسوه فإنه يفسد في طول سبع سنين، وإذا كان في سنبله لا يفسد ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد، يأكلن ما قدمتم لهن في السبع سنين الماضية، قال الصادق عليه السلام: إنما نزل ما قربتم لهن، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس، وفيه يعصرون أي يمطرون، وقال أبو عبد الله عليه السلام، قرأ رجل على أمير المؤمنين عليه السلام ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، على البناء للفاعل، فقال ويحك أي شيء يعصرون يعصرون الخمر؟ قال الرجل: يا أمير المؤمنين كيف أقرؤها؟ فقال: إنما نزلت: وفيه يعصرون أي يمطرون بعد سني المجاعة، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً﴾، فرجع الرجل إلى الملك فأخبره بما قال يوسف، فقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال: ارجع إلى ربك يعني إلى الملك، فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؟ إن ربي بكيدهن عليم، فجمع الملك النسوة فقال: ما خطبكن، إذ راودتن يوسف عن نفسه؟ قلن: حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، أي لا أكذب عليه الآن كما كذبت عليه من قبل، ثم قالت: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي﴾، فقال الملك: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾، فلما نظر إلى يوسف قال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، فاسأل حاجتك قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ يعني الكناديج والأنابير فجعله عليها، وهو قوله: ﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ، يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ﴾

• أقول: قوله: وقرأ الصادق عليه السلام: (سبع سنابل) في رواية العياشي عن ابن أبي يعفور عنه عليه السلام أنه قرأ: ﴿سَبْعَ سُنْبُلاتٍ﴾ وقوله عليه السلام: إنما نزل ما قربتم لهن أي إن التقديم بحسب التنزيل بمعنى التقريب، وقوله عليه السلام: إنما نزلت: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ مأي يمطرون، أي بالبناء

للمفعول ومنه يعلم أنه عليه السلام يأخذ قوله: يغاث من الغيث دون الغوث وروى هذا المعنى أيضا العياشي في تفسيره عن علي بن معمر عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام.

• وقوله: (أي لا أكذب عليه الآن كما كذبت عليه من قبل) ظاهر في أخذ قوله: ﴿ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ إلى آخر الآيتين من كلام امرأة العزيز وقد عرفت الكلام عليه في البيان المتقدم.

ب. أخرج الفاريابي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه، والله يغفر له حيث أرسل إليه ليستفتي في الرؤيا، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج،، وعجبت من صبره وكرمه والله يغفر له، أتي ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ولو كنت أنا لبادرت الباب، ولكنه أحب أن يكون له العذر.

• أقول: وقد روي هذا المعنى بطرق أخرى ومن طرق أهل البيت عليه السلام ما في تفسير العياشي عن أبان عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهماالسلام قال: إن رسول الله ﷺ قال: لو كنت بمنزلة يوسف، حين أرسل إليه الملك يسأله عنه رؤياه ما حدثته، حتى أشترط عليه أن يخرجني من السجن، وعجبت لصبره عن شأن امرأة الملك حتى أظهر الله عذره.

• أقول: وهذا النبوي لا يخلو من شيء فإن فيه أحد المحذورين إما الطعن في حسن تدبير يوسف عليه السلام وتوصله إلى الخروج من السجن وقد أحسن التدبير في ذلك فلم يكن يريد مجرد الخروج منه ولا هم لامرأة العزيز ونسوة مصر إلا في مراودته عن نفسه وإلجائه إلى موافقة هواهن وهو القائل: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، وإنما كان يريد الخروج في جو يظهر فيه براءته وتيأس منه امرأة العزيز والنسوة، ويوضع في موضع يليق به من المكانة والمنزلة، ولذا أنبأ وهو في السجن أولا: بما هو وظيفة الملك الواجبة إثر رؤياه من جمع الأرزاق العامة وادخارها فتوصل به إلى قول الملك ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ ثم لما أمر بإخراجه أبى إلا أن يحكم بينه وبين النسوة حكما بالقسط فتوصل به إلى قوله: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ وهذا أحسن تدبير يتصور لما كان يبتغيه من العزة في مصر وبسط العدل والإحسان في الأرض، مضافا إلى ما ظهر للملك وملئه في خلال هذه الأحوال من عظيم صبره وعزمه في الأمور وتحمله الأذى في جنب الحق وعلمه الغزير وحكمه القويم.

• وإما الطعن في النبي ﷺ وحاشاه أن يقول: إنه لو كان مكان يوسف طاش ولم يصبر مع الاعتراف

بأن الحق كان معه في صبره، وهو اعتراف بأن من شأنه أن لا يصبر فيما يجب الصبر فيه، وحاشاه ﷺ أن يأمر الناس بشيء وينسى نفسه، وقد صبر وتحمل الأذى في جنب الله قبل الهجرة وبعدها من الناس حتى أثنى الله عليه بمثل قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

ج. أخرج الحاكم في تاريخه وابن مردويه والديلمي عن أنس قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ذلِكَ لِيَعْلَمَ، أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال: لما قالها يوسف قال له جبريل: يا يوسف اذكر همك، قال: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾

• أقول: وهذا المعنى مروي في عدة روايات بألفاظ متقاربة ففي رواية ابن عباس: لما قالها يوسف (فغمزه جبريل فقال: ولا حين هممت بها؟) وفي رواية عن حكيم بن جابر: (فقال له جبريل: ولا حين حللت السراويل؟) ونحو من ذلك في روايات أخر عن مجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك وابن زيد والسدي والحسن وابن جريج وأبي صالح وغيرهم.

• وقد تقدم في البيان السابق أن هذه وأمثالها من موضوعات الأخبار مخالفة لنص الكتاب، وحاشا مقام يوسف الصديق عليه السلام أن يكذب بقوله: ﴿لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ ثم يصلح ما أفسده بغمز من جبريل، قال في الكشاف: (ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة فزعموا أن يوسف حين قال: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال له جبريل: ولا حين هممت بها؟ وقالت له امرأة العزيز: ولا حين حللت تكة سراويلك يا يوسف؟ وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسوله)

د. وفي تفسير العياشي، عن سماعة قال: سألته عن قول الله: ﴿ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ﴾ الآية يعني العزيز.

٢٢. يوسف يتولى خزائن الأرض ويمكّن له الملك:

المقطع [٢٢] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٤-٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٠٠»:

١. ﴿وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾:

أ. يقال: استخلصه أي جعله خالصا، والمكين صاحب المكانة والمنزلة، وفي قوله: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾

حذف للإيجاز والتقدير: فلما أتي به إليه وكلمه قال إنك اليوم وفي تقييد الحكم باليوم إشارة إلى التعليل، والمعنى أنك اليوم وقد ظهر من مكارم أخلاقك في التجنب عن السوء والفحشاء والخيانة والظلم، والصبر على كل مكروه وصغار في سبيل طهارة نفسك، واختصاصك بتأييد من ربك غيبي وعلم بالأحاديث والرأي والحزم والحكمة والعقل لدينا ذو مكانة وأمانة، وقد أطلق قوله: ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فأفاد بذلك عموم الحكم.

ب. والمعنى: وقال الملك ائتوني بيوسف أجعله خالصا لنفسي وخاصة لي فلما أتي به إليه وكلمه قال له إنك اليوم وقد ظهر من كمالك ما ظهر لدينا ذو مكانة مطلقة وأمانة مطلقة يمكنك من كل ما تريد ويأتمنك على جميع شئون الملك وفي ذلك حكم صدارته.

٢. ﴿قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾:

أ. لما عهد الملك ليوسف أنك اليوم لدينا مكين أمين وأطلق القول سأله يوسف عليه السلام أن ينصبه على خزائن الأرض ويفوض إليه أمرها، والمراد بالأرض أرض مصر، ولم يسأله ما سأل إلا ليتقلد بنفسه إدارة أمر الميرة وأرزاق الناس فيجمعها ويدخرها للسنين السبع الشداد التي سيستقبل الناس وتنزل عليهم جدبها ومجاعتها ويقوم بنفسه لقسمة الأرزاق بين الناس وإعطاء كل منهم ما يستحقه من الميرة من غيره حيف.

ب. وقد علل سؤاله ذلك بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فإن هاتين الصفتين هما اللازم وجودهما فيمن يتصدى مقاما هو سائله ولا غنى عنهما له، وقد أجيب إلى ما سأل واشتغل بما كان يريده كل ذلك معلوم من سياق الآيات وما يتلوها.

٣. ﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾:

أ. التمكين هو الإقدار والتبوء أخذ المكان، والإشارة بقوله: ﴿كَذلِكَ﴾ إلى ما ساقه من القصة بما انتهى إلى نيله عليه السلام عزة مصر، وهو حديث السجن وقد كانت امرأة العزيز هددته بالصغار بالسجن فجعله الله سببا للعزة، وعلى هذا النمط كان يجري أمره عليه السلام أكرمه أبوه فحسده إخوته فكادوا به بإلقائه في غيابة الجب وبيعه من السيارة ليذلوه فأكرم الله مثواه في بيت العزيز، وكادت به امرأة العزيز

ونسوة مصر ليوردنه مورد الفجور فأبان الله عصمته ثم كادت به بالسجن لصغاره فتسبب الله بذلك لعزته.

ب. وللإشارة إلى أمر السجن وحبسه وسلبه حرية الاختلاط والعشرة، قال تعالى: ﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ﴾ أي رفعنا عنه حرج السجن الذي سلب منه إطلاق الإرادة فصار مطلق المشية له أن يتبوأ في أي بقعة يشاء فهذا الكلام بوجه يحاذي قوله تعالى السابق فيه حين دخل بيت العزيز ووصاه امرأته: ﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَاللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ﴾

ج. وبهذه المقايسة يظهر أن قوله هاهنا: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ﴾ في معنى قوله هناك: ﴿وَاللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ﴾ وإن المراد أن الله سبحانه إذا شاء أن يصيب برحمته أحدا لم يغلب في مشيته ولا يسع لأي مانع مفروض أن يمنع من إصابته، ولو وسع لسبب أن يبطل مشية الله في أحد لوسع في يوسف الذي تعاضدت الأسباب القاطعة وتظاهرت لخفضه فرفعه الله ولإذلاله فأعزه الله، إن الحكم إلا لله.

٤. ﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى أن هذا التمكين أجر أوتيه يوسف عليه السلام، ووعد جميل للمحسنين جميعا أن الله لا يضيع أجرهم.

٥. ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾:

أ. أي لأولياء الله من عباده فهو وعد جميل أخروي لأوليائه تعالى خاصة وكان يوسف عليه السلام منهم.

ب. والدليل على أنه لا يعم عامة المؤمنين الجملة الحالية: ﴿وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ الدالة على أن هذا الإيمان وهو حقيقة الإيمان لا محالة كان منهم مسبوقا بتقوى مستمر حقيقي وهذا التقوى لا يتحقق من غير إيمان فهو إيمان بعد إيمان وتقوى وهو المساوق لولاية الله سبحانه قال تعالى ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن الطبرسي في كتاب النبوة بالإسناد عن أحمد بن محمد بن عيسى عن الحسن بن علي بن إلياس قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: وأقبل يوسف على جمع الطعام، في السبع السنين المخصبة فكبسه في الخزائن، فلما مضت تلك السنون وأقبلت السنون المجدبة، أقبل يوسف على بيع الطعام،

فباعهم في السنة الأولى بالدراهم والدنانير، حتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم، إلا صار في ملك يوسف، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر، حتى لم يبق بمصر وما حولها حلي ولا جواهر، إلا صار في ملكه، وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي، حتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية، إلا صار في ملكه، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا أمة، إلا صار في ملكه وباعهم في السنة الخامسة بالدور والفناء، حتى لم يبق في مصر وما حولها دار ولا فناء، إلا صار في ملكه، وباعهم في السنة السادسة بالمزارع والأنهار، حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة، إلا صار في ملكه، وباعهم في السنة السابعة برقابهم، حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حر، إلا صار عبدا ليوسف، فملك أحرارهم وعبيدهم وأموالهم، وقال الناس: ما رأينا ولا سمعنا بملك أعطاه من الملك، ما أعطى هذا الملك حكما وعلما وتدبيرا، ثم قال يوسف للملك: ما ترى فيما خولني ربي، من ملك مصر وما حولها؟ أشر علينا برأيك فإني لم أصلحهم لأفسدهم، ولم أنجهم من البلاء ليكون بلاء عليهم، ولكن الله أنجاهم بيدي قال الملك: الرأي رأيك، قال يوسف: إني أشهد الله وأشهدك أيها الملك، إني قد أعتقت أهل مصر كلهم، ورددت عليهم أموالهم وعبيدهم، ورددت عليك الملك وخاتمك وسريرك وتاجك، على أن لا تسير إلا بسيرتي ولا تحكم إلا بحكمي، قال له الملك: إن ذلك توبتي وفخري، أن لا أسير إلا بسيرتك ولا أحكم إلا بحكمك، ولولاك ما توليت عليك ولا اهتديت له، وقد جعلت سلطاني عزيزا ما يرام، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك رسوله فأقم على ما وليتك، فإنك لدينا مكين أمين.

• أقول: والروايات في هذا المقام كثيرة أغلبها غير مرتبطة بغرض تفسير الآيات ولذلك تركنا نقلها.

ب. وفي تفسير العياشي، قال سليمان: قال سفيان: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما يجوز أن يزكي الرجل نفسه؟ قال نعم إذا اضطر إليه أما سمعت قول يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وقول العبد الصالح: إني لكم ناصح أمين.

• أقول: الظاهر أن المراد بالعبد الصالح هو هود إذ يقول لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]

ج. وفي العيون، بإسناده عن العياشي قال حدثنا محمد بن نصر عن الحسن بن موسى قال: روى

أصحابنا عن الرضا عليه السلام أنه قال له رجل: أصلحك الله كيف صرت إلى ما صرت إليه من المأمون؟ فكأنه أنكر ذلك عليه، فقال له أبو الحسن الرضا عليه السلام: أيها أفضل النبي أو الوصي: فقال: لا بل النبي، قال: فأيها أفضل مسلم أو مشرك؟ قال: لا بل مسلم، قال: فإن عزيز مصر كان مشركا وكان يوسف نبيا، وإن المأمون مسلم وأنا وصي، ويوسف سأل العزيز أن يوليه حتى قال: استعملني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم، والمأمون أجبرني على ما أنا فيه، قال: وقال في قوله: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ قال: حافظ على ما في يدي عالم بكل لسان:

• أقول: وقوله: استعملني على خزائن الأرض نقل الآية بالمعنى، ورواه العياشي في تفسيره، وروي آخر الحديث في المعاني، أيضا عن فضل بن أبي قرة عن الصادق عليه السلام.

٢٣. إخوة يوسف يأتونه فيكرمهم ويطلب منهم إحضار أخيهم:

المقطع [٢٣] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٥٨-٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٠٨»:

١. ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾:

أ. في الكلام حذف كثير وإنما ترك الاقتصاص له لعدم تعلق غرض هام به، وإنما الغرض بيان لحوق أخي يوسف من أمه به وإشراكه معه في النعمة والمن الإلهي ثم معرفتهم بيوسف ولحوق بيت يعقوب به فهو شطر مختار من قصته وما جرى عليه بعد عزة مصر.

ب. والذي جاء إليه من إخوته هم العصبة ما خلا أخيه من أمه فإن يعقوب عليه السلام كان يأنس به ولا يخلي بينه وبينهم بعد ما كان، من أمر يوسف ما كان والدليل على ذلك كله ما سيأتي من الآيات.

ج. وكان بين دخولهم هذا على أخيهم يوسف وبين انتصابه على خزائن الأرض وتقلده عزة مصر بعد الخروج من السجن أكثر من سبع سنين فإنهم إنما جاءوا إليه في بعض السنين المجدبة وقد خلت السبع السنون المخصبة، ولم يروه منذ سلموه إلى السيارة يوم أخرج من الجب وهو صبي وقد مر عليه سنون في

بيت العزيز ولبث بضع سنين في السجن وتولى أمر الخزائن منذ أكثر من سبع سنين، وهو اليوم في زي عزيز مصر لا يظن به أنه رجل عبري من غير القبط، وهذا كله صرفهم عن أن يظنوا به أنه أخوهم ويعرفوه لكنه عرفهم بكياسته أو بفراسة النبوة كما قال تعالى: ﴿وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾

٢. ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (الجهاز ما يعد من متاع وغيره، والتجهيز حمل ذلك أو بعثه)، فالمعنى ولما حملهم ما أعد لهم من الجهاز والطعام الذي باعه منهم أمرهم بأن يأتوا إليه بأخ لهم من أبيهم وقال ﴿ائْتُونِي﴾

ب. ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أي لا أبخس فيه ولا أظلمكم بالاتكاء على قدرتي وعزتي، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ أكرم النازلين بي وأحسن مثواهم، وهذا تحريض لهم أن يعودوا إليه ثانيا ويأتوا إليه بأخيهم من أبيهم كما أن قوله في الآية التالية: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ تهديد لهم لئلا يعصوا أمره، وكما أن قولهم في الآية الآتية: ﴿سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ﴾ تقبل منهم لذلك في الجملة وتطييب لنفس يوسف عليه السلام.

ج. ثم من المعلوم أن قوله عليه السلام أوان خروجهم: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ مع ما فيه من التأكيد والتحريض والتهديد ليس من شأنه أن يورد كلاما ابتدائيا من غير مقدمة وتوطئة تعمي عليهم وتصرفهم أن يتفطنوا أنه يوسف أو يتوهموا فيه ما يريبهم في أمره، وهو ظاهر، وقد أورد المفسرون في القصة من مفاوضته لهم وتكليمه إياهم أمورا كثيرة لا دليل على شيء منها من كلامه تعالى في سياق القصة ولا أثر يطمأن إليه في أمثال المقام.

د. وكلامه تعالى خال عن التعرض لذلك، وإنما الذي يستفاد منه أنه سألهم عن خطبهم فأخبروه وهم عشرة أنهم إخوة وأن لهم أخا آخر بقي عند أبيهم لا يفارقه أبوه ولا يرضى أن يفارقه لسفر أو غيره فأحب العزيز أن يأتوا به إليه فيراه.

٣. ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ الكيل بمعنى المكيل وهو الطعام، ولا

تقربون أي لا تقربوني بدخول أرضي والحضور عندي للامتيار واشتراء الطعام، ومعنى الآية ظاهر، وهو تهديد منه لهم لو خالفوا عن أمره كما تقدم.

٤. ﴿قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ﴾:

أ. المراودة كما تقدم هي الرجوع في أمر مرة بعد مرة بالإلحاح أو الاستخدام، ففي قولهم ليوسف عليه السلام ﴿سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ﴾ دليل على أنهم قصوا عليه قصته أن أباهم يضن به ولا يرضى بمفارقته له ويأبى أن يبتعد منه لسفر أو أي غيبة، وفي قولهم: ﴿أَباهُ﴾ ولم يقولوا: أبانا تأييد لذلك.

ب. وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَفاعِلُونَ﴾ أي فاعلون للإتيان به أو للمراودة لحملة معهم والإتيان به إليه، ومعنى الآية ظاهر، وفيه تقبل منهم لذلك في الجملة وتطييب لنفس يوسف عليه السلام كما تقدم.

٥. ﴿وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾:

أ. الفتيان جمع الفتى وهو الغلام، وقال الراغب: (البضاعة قطعة وافرة من المال يقتنى للتجارة يقال: أبضع بضاعة وابتضعها، قال تعالى: ﴿هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا﴾ وقال تعالى: ﴿بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ﴾ والأصل في هذه الكلمة البضع، بفتح الباء، وهو جملة من اللحم يبضع أي يقطع، قال، وفلان بضعة مني أي جار مجرى بعض جسدي لقربه مني، قال، والبضع بالكسر المنقطع من العشرة، ويقال ذلك لما بين الثلاث إلى العشرة وقيل: بل هو فوق الخمس ودون العشرة)، والرحال جمع رحل وهو الوعاء والأثاث، والانقلاب الرجوع.

ب. ومعنى الآية: وقال يوسف عليه السلام لغلمانه: اجعلوا مالهم وبضاعتهم التي قدموها ثمنا لما اشتروه من الطعام في أوعيتهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا ورجعوا إلى أهلهم، وفتحوا الأوعية، لعلهم يرجعون إلينا ويأتوا بأخيهم فإن ذلك يقع في قلوبهم ويطمعهم إلى الرجوع والتمتع من الإكرام والإحسان.

٢٤. إخوة يوسف يرجعون إلى أبيهم ويطلبون إرسال أخيهم:

المقطع [٢٤] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ

قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٣-٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢١٣»:

١. ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾:

أ. الاكتيال أخذ الطعام كيلا إن كان مما يكال، قال الراغب: (الكيل كيل الطعام يقال: كلت له الطعام إذا توليت له ذلك، وكلته الطعام إذا أعطيته كيلا، واكتلت عليه إذا أخذت منه كيلا، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ، يَسْتَوْفُونَ، وَإِذا كالُوهُمْ﴾

ب. ﴿قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أي لو لم نذهب بأخينا ولم يذهب معنا إلى مصر، بدليل قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا﴾ فهو إجمال ما جرى بينهم وبين عزيز مصر من أمره بمنعهم من الكيل أن لم يأتوا إليه بأخ لهم من أبيهم، يقصونه لأبيهم ويسألونه أن يرسله معهم ليكتالوا ولا يحرموا.

ج. وقولهم: ﴿أَخانا﴾ إظهار رأفة وإشفاق لتطييب نفس أبيهم من أنفسهم كقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ بما فيه من التأكيد البالغ.

٢. ﴿قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ قال في المجمع: (الأمن اطمئنان القلب إلى سلامة الأمر يقال: أمنه يأمنه أمنا) فقوله: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾، أي هل اطمأن إليكم في ابني هذا إلا مثل ما اطمأننت إليكم في أخيه يوسف من قبل هذا فكان ما كان، ومحصله أنكم تتوقعون مني أن أثق فيه بكم وتطمئن نفسي إليكم كما وثقت بكم واطمأننت إليكم في أخيه من قبل وتعدونني بقولكم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ أن تحفظوه كما وعدتم في يوسف بقولكم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ وقد أمنتكم بمثل هذا الأمن على يوسف فلم تغنوا عني شيئا وجئتم بقميصه الملطخ بالدم أن الذئب أكله وأمني لكم على هذا الأخ مثل أمني على أخيه من قبل أمن لمن لا يغني أمنه والاطمئنان إليه شيئا ولا بيده حفظ ما سلم إليه واؤتمن له.

٣. ﴿فَاللهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾:

أ. تفريع على سابق كلامه: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾، وتفيد الاستنتاج أي إذا كان الاطمئنان إليكم في أمره لغا لا أثر له ولا يغني شيئا فخير الاطمئنان والاتكال ما كان اطمئنانا إلى الله سبحانه من حيث حفظه،

وإذا تردد الأمر بين التوكل عليه والتفويض إليه وبين الاطمئنان إلى غيره كان الوثوق به تعالى هو المختار المتعين.

ب. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ في موضع التعليل لقوله: ﴿فَاللهُ خَيْرٌ حافِظاً﴾ أي إن غيره تعالى ربما أمن في أمر واؤتمن عليه في أمانة سلم له فلم يرحم المؤتمن وضيع الأمانة لكنه سبحانه أرحم الراحمين لا يترك الرحمة في محل الرحمة ويترحم العاجز الضعيف الذي فوض إليه أمرا وتوكل عليه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

٤. ومن هنا يظهر:

أ. أن مراده عليه السلام ليس بيان لزوم اختياره تعالى في الاعتماد عليه من جهة أنه سبب مستقل في سببيته غير مغلوب البتة بخلاف سائر الأسباب وإن كان الأمر كذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣] كيف والاطمئنان إلى غيره تعالى بهذا المعنى من الشرك الذي يتنزه عنه ساحة الأنبياء، وقد نص تعالى على أن يعقوب عليه السلام من المخلصين أهل الاجتباء وأنه من الأئمة الهداة المهديين، وهو عليه السلام يعترف في قوله: ﴿إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أنه أمنهم على يوسف ولو كان من الشرك لم يقدم عليه البتة، على أنه أمنهم على أخي يوسف أيضا بعد ما أعطوه موثقا من الله تعالى كما تدل عليه الآيات التالية.

ب. بل يريد بيان لزوم اختياره تعالى في الاطمئنان إليه دون غيره من جهة أنه تعالى متصف بصفات كريمة يؤمن معها أن يستغش عباده المتوكلين عليه المسلمين له أمورهم فإنه رءوف بعباده رحيم غفور ودود كريم حكيم عليم ويجمع الجميع أنه أرحم الراحمين على أنه لا يغلب في أمره لا يقهر في مشيته، وأما الناس إذا أمنوا على أمر واطمأن إليهم في شيء فإنهم أسراء الأهواء وملاعب الهوسات النفسانية ربما أخذتهم كرامة النفس وشيمة الوفاء وصفة الرحمة فحفظوا ما في اختيارهم أن يحفظوه ولا يخونوه وربما خانوا ولم يحفظوا، على أنهم لا استقلال لهم في قدرة ولا استغناء لهم في قوة وإرادة.

ج. وبالجملة مراده عليه السلام أن الاطمئنان إلى حفظ الله سبحانه خير من الاطمئنان إلى حفظ غيره لأنه تعالى أرحم الراحمين لا يخون عبده فيما أمنه عليه واطمأن فيه إليه بخلاف الناس فإنهم ربما لم يفوا لعهد الأمانة ولم يرحموا المؤتمن المتوسل بهم فخانوه، ولذلك لما كلف بنيه ثانيا أن يؤتوه موثقا من الله قال:

إن ﴿تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ﴾ فاستثنى ما ليس في اختيارهم من الحفظ وهو حفظه إذا أحيط بهم فإنه فوق استطاعتهم ومقدرتهم وليسوا بمسئولين عنه، وإنما سألهم الموثق في إتيانه فيما لا يخرج من اختيارهم كالقتل والنفي ونحو ذلك فافهم ذلك.

د. ومما تقدم يظهر أن في قوله عليه السلام: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ نوع تعريض لهم وتلويح إلى أنهم لم يستوفوا الرحم، أو لم يرحموه أصلا، في أمر يوسف حين أمنهم عليه، والآية على أي حال في معنى الرد لما سألوه.

٥. ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى آخر الآية، البغي هو الطلب ويستعمل كثيرا في الشر ومنه البغي بمعنى الظلم والبغي بمعنى الزنا، وقال في المجمع: (الميرة الأطعمة التي تحمل من بلد إلى بلد ويقال: مرتهم أميرهم ميرا: إذا أتيتهم بالميرة، ومثله: امترتهم امتيارا)

٦. ﴿يا أَبانا ما نَبْغِي﴾:

أ. استفهام أي لما فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم ردت إليهم وكان ذلك دليلا على إكرام العزيز لهم وأنه غير قاصد بهم سوءا وقد سلم إليهم الطعام ورد إليهم الثمن فكان ذهابهم إلى مصر للامتيار خير سفر نفعا ودرا راجعوا أباهم وقالوا: يا أبانا ما الذي نطلب من سفرنا إلى مصر وراء هذا؟ فقد أوفى لنا الكيل ورد إلينا ما بذلناه من البضاعة ثمنا.

ب. فقولهم: ﴿يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا﴾ أرادوا به تطييب نفس أبيهم ليرضى بذهاب أخيهم معهم لأنه في أمن من العزيز وهم يحفظونه كما وعدوه و(لذلك عقبوه بقولهم: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي سهل.

ج. وربما قيل: إن (ما) في قوله: ﴿ما نَبْغِي﴾ للنفي أي ما نطلب بما أخبرناك من العزيز وإكرامه لنا الكذب فهذه بضاعتنا ردت إلينا، وكذا قيل: إن اليسير بمعنى القليل أي إن الذي جئنا به إليك من الكيل قليل لا يقنعنا فنحتاج إلى أن نضيف إليه كيل بعير أخينا.

٢٥. يعقوب يأخذ موثقاً من أبنائه قبل إرسال أخيهم:

المقطع [٢٥] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]،

وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢١٦»:

١. ﴿قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ﴾:

أ. الموثق بكسر الثاء ما يوثق به ويعتمد عليه، والموثق من الله هو أمر يوثق به ويرتبط مع ذلك بالله وإيتاء موثق إلهي وإعطاؤه هو أن يسلط الإنسان على أمر إلهي يوثق به كالعهد واليمين بمنزلة الرهينة، والمعاهد والمقسم بقوله عاهدت الله أن أفعل كذا أو بالله لأفعلن كذا يراهن كرامة الله وحرمته فيضعها رهينة عند من يعاهده أو يقسم له، ولو لم يف بما قال خسر في رهينته وهو مسئول عند الله لا محالة.

ب. والإحاطة من حاط بمعنى حفظ ومنه الحائط للجدار الذي يدور حول المكان ليحفظه والله سبحانه محيط بكل شيء أي مسلط عليه حافظ له من كل جهة لا يخرج ولا شيء من أجزائه من قدرته، وأحاط به البلاء والمصيبة أي نزل به على نحو انسدت عليه جميع طرق النجاة فلا مناص له منه، ومنه قولهم: أحيط به أي هلك أو فسد أو انسدت عليه طرق النجاة والخلاص قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها﴾ [الكهف: ٤٢]، وقال: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢] ومنه قوله في الآية: ﴿إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ﴾ أي أن ينزل بكم من النازلة ما يسلب منكم كل استطاعة وقدرة فلا يسعكم الإتيان به إلي.

ج. والوكالة نوع تسلط على أمر يعود إلى الغير ليقوم به، وتوكيل الإنسان غيره في أمر تسليطه عليه ليقوم في إصلاحه مقامه، والتوكل عليه اعتماده والاطمئنان إليه في أمر، وتوكيله تعالى والتوكل عليه في الأمور ليس بعناية أنه خالق كل شيء ومالكه ومدبره بل بعناية أنه أذن في نسبة الأمور إلى مصادرها والأفعال إلى فواعلها وملكها إياها بنحو من التمليك وهي فاقدة للإصالة والاستقلال في التأثير والله سبحانه هو السبب المستقل القاهر لكل سبب الغالب عليه فمن الرشد إذا أراد الإنسان أمرا وتوصل إليه بالأسباب العادية التي بين يديه أن يرى الله سبحانه هو السبب الوحيد المستقل بتدبير الأمر وينفي الاستقلال والأصالة عن نفسه وعن الأسباب التي استعملها في طريق الوصول إليه فيتوكل عليه سبحانه، فليس التوكل هو قطع الإنسان أو نفيه نسبة الأمور إلى نفسه أو إلى الأسباب بل هو نفيه دعوى الاستقلال عن نفسه وعن الأسباب وإرجاع الاستقلال والأصالة إليه تعالى مع إبقاء أصل النسبة غير المستقلة التي

إلى نفسه وإلى الأسباب، ولذلك نرى أن يعقوب عليه السلام فيما تحكيه الآيات من توكله على الله لم يلغ الأسباب ولم يهملها بل تمسك بالأسباب العادية فكلم أولا بنيه في أخيهم ثم أخذ منهم موثقا من الله ثم توكل على الله وكذا فيما وصاهم في الآية الآتية بدخولهم من أبواب متفرقة ثم توكله على ربه تعالى، فالله سبحانه على كل شيء وكيل من جهة الأمور التي لها نسبة إليها كما أنه ولي لها من جهة استقلاله بالقيام على الأمور المنسوبة إليها وهي عاجزة عن القيام بها بحول وقوة، وأنه رب كل شيء من جهة أنه المالك المدبر لها.

٢. ومعنى الآية: ﴿قالَ﴾ يعقوب لبنيه: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ﴾ أي أخاكم من أم يوسف ﴿مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ﴾ وتعطوني ﴿مَوْثِقاً مِنَ اللهِ﴾ أثق به وأعتمد عليه من عهد أو يمين ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ واللام للقسم ولما كان إيتاؤهم موثقا من الله إنما كان يمضي ويفيد فيما كان راجعا إلى استطاعتهم وقدرتهم استثنى فقال ﴿إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ﴾ وتسلبوا الاستطاعة والقدرة ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ من الله ﴿قالَ﴾ يعقوب ﴿اللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي إنا قاولنا جميعا فقلت وقلتم وتوسلنا بذلك إلى هذه الأسباب العادية للوصول إلى غرض نبتغيه فليكن الله سبحانه وكيلا على هذه الأقاويل يجريها على رسلها فمن التزم بشيء فليأت به كما التزم وإن تخلف فليجازه الله وينتصف منه.

٢٦. يعقوب يأمرهم بدخول من أبواب متفرقة ويتوكل على الله:

المقطع [٢٦] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٧ـ٦٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢١٧»:

١. ﴿وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ إلى آخر الآية، هذه كلمة ألقاها يعقوب عليه السلام إلى بنيه حين آتوه موثقا من الله وتجهزوا واستعدوا للرحيل، ومن المعلوم من سياق القصة أنه خاف على بنيه وهم أحد عشر عصبة، لا من أن يراهم عزيز مصر مجتمعين صفا واحدا لأنه كان من المعلوم أنه سيشخصهم إليه فيصطفون عنده صفا واحدا وهم أحد عشر إخوة لأب واحد،

بل إنما كان يخاف عليهم أن يراهم الناس فيصيبهم عين على ما قيل أو يحسدون أو يخاف منهم فينالهم ما يتفرق به جمعهم من قتل أو أي نازلة أخرى.

٢. وقوله بعده: ﴿وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ لا يخلو من دلالة أو إشعار بأنه كان يخاف ذلك جدا فكأنه عليه السلام، والله أعلم، أحس حينما تجهزوا للسفر واصطفوا أمامه للوداع إحساس إلهام أن جمعهم وهم على هذه الهيئة الحسنة سيفرق وينقص من عددهم فأمرهم أن لا يتظاهروا بالإجماع كذلك وحذرهم عن الدخول من باب واحد وعزم عليهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة رجاء أن يندفع بذلك عنهم بلاء التفرقة بينهم والنقص في عددهم.

٣. ثم رجع إلى إطلاق كلامه الظاهر في كون هذا السبب الذي ركن إليه في دفع ما خطر بباله من المصيبة سببا أصيلا مستقلا، ولا مؤثر في الوجود بالحقيقة إلا الله سبحانه، فقيد كلامه بما يصلحه فقال مخاطبا لهم: ﴿وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ثم علله بقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ أي لست أرفع حاجتكم إلى الله سبحانه بما أمرتكم به من السبب الذي تتقون به نزول النازلة وتتوسلون به إلى السلامة والعافية ولا أحكم بأن تحفظوا بهذه الحيلة فإن هذه الأسباب لا تغني من الله شيئا ولا لها حكم دون الله سبحانه فليس الحكم مطلقا إلا لله بل هذه أسباب ظاهرية إنما تؤثر إذا أراد الله لها أن تؤثر.

٤. ولذلك عقب كلامه هذا بقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي إن هذا سبب أمرتكم باتخاذه لدفع ما أخافه عليكم من البلاء وتوكلت مع ذلك على الله في أخذ هذا السبب وفي سائر الأسباب التي أخذتها في أموري، وعلى هذا المسير يجب أن يسير كل رشيد غير غوي يرى أنه لا يقوى باستقلاله لإدارة أموره ولا أن الأسباب العادية باستقلالها تقوى على إيصاله إلى ما يبتغيه من المقاصد بل عليه أن يلتجئ في أموره إلى وكيل يصلح شأنه ويدبر أمره أحسن تدبير فذلك الوكيل هو الله سبحانه القاهر الذي لا يقهره شيء الغالب الذي لا يغلبه شيء يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

٥. وقد تبين بالآية:

أ. أولا: معنى التوكل وأنه تسليط الغير على أمر له نسبة إلى المتوكل والموكل.

ب. وثانيا: أن هذه الأسباب العادية لما لم تكن مستقلة في تأثيرها ولا غنية في ذاتها غير مفتقرة إلى ما وراءها كان من الواجب على من يتوسل إليها في مقاصده الحيوية أن يتوكل مع التوسل إليها على سبب

وراءها ليتم لها التأثير ويكون ذلك منه جريا في سبيل الرشد والصواب لا أن يهمل الأسباب التي بنى الله نظام الكون عليها فيطلب غاية من غير طريق فإنه من الغي والجهل.

ج. وثالثا: أن ذاك السبب الذي يجب التوكل عليه في الأمور هو الله سبحانه وحده لا شريك له فإنه الله لا إله إلا هو رب كل شيء وهذا هو المستفاد من الحصر الذي يدل عليه قوله: (وعلى الله فليتوكل المتوكلون)

٦. ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها﴾ إلى آخر الآية:

أ. الذي يعطيه سياق الآيات السابقة واللاحقة والتدبر فيها، والله أعلم، أن يكون المراد بدخولهم من حيث أمرهم أبوهم أنهم دخلوا مصر أو دار العزيز فيها من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم حينما ودعوه للرحيل، وإنما اتخذ يعقوب عليه السلام هذا الأمر وسيلة لدفع ما تفرسه من نزول مصيبة بهم تفرق جمعهم وتنقص من عددهم كما أشير إليه في الآية السابقة لكن اتخاذ هذه الوسيلة وهي الدخول من حيث أمرهم أبوهم لم يكن ليدفع عنهم البلاء وكان قضاء الله سبحانه ماضيا فيهم وأخذ العزيز أخاهم من أبيهم لحديث سرقة الصواع وانفصل منهم كبيرهم فبقي في مصر وأدى ذلك إلى تفرق جمعهم ونقص عددهم فلم يغن يعقوب أو الدخول من حيث أمرهم من الله من شيء، لكن الله سبحانه قضى بذلك حاجة في نفس يعقوب عليه السلام فإنه جعل هذا السبب الذي تخلف عن أمره وأدى إلى تفرق جمعهم ونقص عددهم بعينه سببا لوصول يعقوب إلى يوسف عليه السلام فإن يوسف أخذ أخاه إليه ورجع سائر الإخوة إلا كبيرهم إلى أبيهم ثم عادوا إلى يوسف يسترحمونه ويتذللون لعزته فعرفهم نفسه وأشخص أباه وأهله إلى مصر فاتصلوا به.

ب. فقوله: ﴿ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لم يكن من شأن يعقوب أو هذا الأمر الذي اتخذه وسيلة لتخلصهم من هذه المصيبة النازلة أن يغني عنهم من الله شيئا البتة ويدفع عنهم ما قضى الله أن يفارق اثنان منهم جمعهم بل أخذ منهم واحد وفارقهم ولزم أرض مصر آخر وهو كبيرهم.

ج. ﴿إِلَّا حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها﴾ قيل: إن ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن أي لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها الله فرد إليه ولده الذي فقده وهو يوسف.

د. ولا يبعد أن يكون ﴿إِلَّا﴾ استثنائية فإن قوله: ﴿ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ في معنى قولنا: لم ينفع هذا السبب يعقوب شيئا أو لم ينفعهم جميعا شيئا ولم يقض الله لهم جميعا به حاجة إلا حاجة في نفس يعقوب، وقوله: ﴿قَضاها﴾ استئناف وجواب سؤال كان سائلا يسأل فيقول: ما ذا فعل بها؟ فأجيب بقوله: ﴿قَضاها﴾

٧. ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ﴾:

أ. الضمير ليعقوب أي إن يعقوب لذو علم بسبب ما علمناه من العلم أو بسبب تعليمنا إياه وظاهر نسبة التعليم إليه تعالى أنه علم موهبي غير اكتسابي وقد تقدم أن إخلاص التوحيد يؤدي إلى مثل هذه العناية الإلهية، ويؤيد ذلك أيضا قوله تعالى بعده: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ إذ لو كان من العلم الاكتسابي الذي يحكم بالأسباب الظاهرية ويتوصل إليه من الطرق العادية المألوفة لعلمه الناس واهتدوا إليه.

ب. والجملة: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ﴾، ثناء على يعقوب عليه السلام، والعلم الموهبي لا يضل في هدايته ولا يخطئ في إصابته والكلام كما يفيده السياق يشير إلى ما تفرس له يعقوب عليه السلام من البلاء وتوسل به من الوسيلة وحاجته في يوسف في نفسه لا ينساها ولا يزال يذكرها، فمن هذه الجهات يعلم أن في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ﴾، تصديقا ليعقوب عليه السلام فيما قاله لبنيه وتصويبا لما اتخذه من الوسيلة لحاجته بأمرهم بما أمر وتوكله على الله فقضى الله له حاجة في نفسه.

٨. هذا ما يعطيه التدبر في سياق الآيات وللمفسرين أقوال عجيبة في معنى الآية:

أ. كقول بعضهم: إن المراد بقوله: ﴿ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿قَضاها﴾ إنه لم يكن دخولهم كما أمرهم أبوهم يغني عنهم أو يدفع عنهم شيئا أراد الله إيقاعه بهم من حسد أو أصابه عين وكان يعقوب عليه السلام عالما بأن الحذر لا يدفع القدر ولكن كان ما قاله لبنيه حاجة في نفسه فقضى يعقوب تلك الحاجة أي أزال به اضطراب قلبه وأذهب به القلق عن نفسه.

ب. وقول بعضهم: إن المعنى أن الله لو قدر أن تصيبهم العين لإصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم مجتمعين.

ج. وقول بعضهم: إن معنى قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ﴾ إنه لذو يقين ومعرفة بالله لأجل

تعليمنا إياه ولكن أكثر الناس لا يعلمون مرتبته.

د. وقول بعضهم: إن اللام في ﴿لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ للتقوية والمعنى أنه يعلم ما علمناه فيعمل به لأن من علم شيئا وهو لا يعمل به كان كمن لا يعلم، إلى غير ذلك من أقاويلهم.

٢٧. يوسف يضم أخاه إليه ويعرفه بنفسه:

المقطع [٢٧] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٢١»:

١. ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. الإيواء إليه ضمه وتقريبه منه في مجلسه ونحوه، والابتئاس اجتلاب البؤس والاغتمام والحزن، وضمير الجمع للإخوة.

ب. ومعنى الآية: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ بعد دخولهم مصر ﴿آوى﴾ وقرب ﴿إِلَيْهِ أَخاهُ﴾ الذي أمرهم أن يأتوا به إليه وكان أخا له من أبيه وأمه ﴿قالَ﴾ له ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ أي يوسف الذي فقدته منذ سنين، والجملة خبر بعد خبر أو جواب سؤال مقدر ﴿فَلا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تغتم ﴿بِما كانُوا﴾ أي الإخوة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من أنواع الأذى والمظالم التي حملهم عليها حسدهم لي ولك ونحن أخوان من أم أو لا تبتئس بما كان غلماني يعملون فإنه كيد لحبسك عندي.

٢. وظاهر السياق أنه عرفه نفسه بإسرار القول إليه وسلاه على ما عمله الإخوة وطيب نفسه فلا يعبأ بقول بعضهم إن معنى قوله: إني أنا أخوك: أنا أخوك مكان أخيك الهالك، وقد كان أخبره أنه كان له أخ من أمه هلك من قبل فبقي وحده لا أخ له من أمه، ولم يعترف يوسف له بالنسب ولكنه أراد أن يطيب نفسه.

٣. وذلك أنه ينافيه ما في قوله: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ من وجوه التأكيد وذلك إنما يناسب تعريفه نفسه بالنسب ليستيقن أنه هو يوسف، على أنه ينافي أيضا ما سيأتي من قوله لإخوته عند تعريفهم نفسه: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا﴾ فإنه إنما يناسب ما إذا علم أخوه أنه أخوه فاعتز بعزته كما لا يخفى.

٢٨. يوسف يجعل السقاية في رحل أخيه ويتهمهم بالسرقة:

المقطع [٢٨] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٠ـ٧٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٢٢»:

١. ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾:

أ. السقاية الظرف الذي يشرب فيه، والرحل ما يوضع على البعير للركوب، والعير القوم الذين معهم أحمال الميرة وذلك اسم للرجال والجمال الحاملة للميرة وإن كان قد يستعمل في كل واحد من دون الآخر، ذكر ذلك الراغب في مفرداته.

ب. ومعنى الآية ظاهر وهذه حيلة احتالها يوسف عليه السلام ليأخذ بها أخاه إليه كما قصة وفصله الله تعالى وجعل ذلك مقدمة لتعريفهم نفسه في حال التحق به أخوه وهما منعمان بنعمة الله مكرمان بكرامته.

٢. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾:

أ. الخطاب لإخوة يوسف وفيهم أخوه لأمه، ومن الجائز توجيه الخطاب إلى الجماعة في أمر يعود إلى بعضهم إذا كان لا يمتاز عن الآخرين، وفي القرآن منه شيء كثير، وهذا الأمر الذي سمي سرقة وهو وجود السقاية في رحل البعير كان قائما بواحد منهم وهو أخو يوسف لأمه لكن عدم تعينه بعد من بينهم كان مجوزا لخطابهم جميعا بأنكم سارقون فإن معنى هذا الخطاب في مثل هذا المقام أن السقاية مفقودة وهي عند بعضكم ممن لا يتعين إلا بعد الفحص والتفتيش.

ب. ومن المعلوم من السياق أن أخا يوسف لأمه كان عالما بهذا الكيد مستحضرا منه ولذلك لم يتكلم من أول الأمر إلى آخره ولا بكلمة ولا نفى عن نفسه السرقة ولا اضطرب كيف؟ وقد عرفه يوسف أنه أخاه وسلاه وطيب نفسه فليس إلا أن يوسف عليه السلام كان عرفه ما هو غرضه من هذا الصنع، وأنه إنما يريد بتسميته سارقا وإخراج السقاية من رحله أن يقبض عليه ويأخذه إليه فتسميته سارقا إنما كان

اتهاما في نظر الإخوة وأما بالنسبة إليه وفي نظره فلم يكن تسمية جدية وتهمة حقيقة بل توصيفا صوريا فحسب لمصلحة لازمة جازمة، فنسبه السرقة إليهم، بالنظر إلى هذه الجهات، لم تكن من الافتراء المذموم عقلا المحرم شرعا، على أن القائل هو المؤذن الذي أذن بذلك:

ج. وذكر بعض المفسرين: أن القائل: ﴿إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾، بعض من فقد الصاع من قوم يوسف من غيره أمره ولم يعلم أن يوسف أمر بجعل الصاع في رحالهم.

د. وقال بعضهم: إن يوسف عليه السلام أمر المنادي أن ينادي به ولم يرد به سرقة الصاع، وإنما عنى به أنكم سرقتم يوسف من أبيه وألقيتموه في الجب، ونسب ذلك إلى أبي مسلم المفسر.

هـ. وقال بعضهم: إن الجملة استفهامية، والتقدير: أإنكم لسارقون؟ بحذف همزة الاستفهام.

• ولا يخفى ما في هذه الوجوه من البعد.

٣. ﴿قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ﴾ الفقد، كما قيل، غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه، والضمير في قوله: ﴿قالُوا﴾ للإخوة وهم العير، وقوله: ﴿ما ذا تَفْقِدُونَ﴾ مقول القول والضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ليوسف وفتيانه كما يدل عليه السياق، والمعنى قال إخوة يوسف المقبلين ليوسف وفتيانه: ما ذا تفقدون؟ وفي السياق دلالة على أن المنادي إنما ناداهم من ورائهم وقد أخذوا في السير.

٤. ﴿قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾:

أ. الصواع بالضم السقاية وقيل: إن الصواع هو الصاع الذي يكال به، وكان صواع الملك إناء يشرب فيه ويكال به ولذلك سمي تارة سقاية وأخرى صواعا، ويجوز فيه التذكير والتأنيث، ولذلك قال: ﴿وَلِمَنْ جاءَ بِهِ﴾ وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَها﴾

ب. والحمل ما يحمله الحامل من الأثقال، وقد ذكر الراغب أن الأثقال المحمولة في الظاهر كالشيء المحمول على الظهر تختص باسم الحمل بكسر الحاء، والأثقال المحمولة في الباطن كالولد في البطن والماء في السحاب والثمرة في الشجرة تختص باسم الحمل بفتح الحاء، وقال في المجمع: (الزعيم والكفيل والضمين نظائر والزعيم أيضا القائم بأمر القوم وهو الرئيس، ولعل القائل: ﴿نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ﴾ هو فتيان يوسف والقائل: ﴿وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ يوسف عليه السلام نفسه لأنه هو الرئيس الذي يقوم بأمر الإعطاء والمنع والضمانة والكفالة والحكم، ويعود معنى الكلام على هذا إلى نحو من قولنا:

أجاب عنهم يوسف وفتيانه أما فتيانه فقالوا: ﴿نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ﴾، وأما يوسف فقال: ﴿وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، وهذه جعالة.

ج. وظاهر بعض المفسرين: أن قوله: ﴿وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ تتمة قول المؤذن: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾ وعلى هذا فقوله: ﴿قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿صُواعَ الْمَلِكِ﴾ معترض.

٥. ﴿قالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ﴾:

أ. المراد بالأرض أرض مصر وهي التي جاءوها ومعنى الآية ظاهر.

ب. وفي قولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ دلالة على أنهم فتشوا وحقق في أمرهم أول ما دخلوا مصر للميرة بأمر يوسف عليه السلام بدعوى الخوف من أن يكونوا جواسيس وعيونا أو نازلين بها لأغراض فاسدة أخرى فسألوا عن شأنهم ومحلهم ونسبهم وأمثال ذلك، وبه يتأيد ما ورد في بعض الروايات أن يوسف أظهر لهم أنه في ريب من أمرهم فسألهم عن شأنهم ومكانهم وأهلهم وعند ذلك ذكروا أن لهم أبا شائخا وأخا من أبيهم فأمر بإتيانهم به، وسيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

ج. وقولهم: ﴿وَما كُنَّا سارِقِينَ﴾ نفي أن يكونوا متصفين بهذه الصفة الرذيلة من قبل أو يعهد منهم أهل البيت ذلك.

٦. ﴿قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ﴾:

أ. أي قال فتيان يوسف أو هو وفتيانه سائلين منهم عن الجزاء: ما جزاء السرق أو ما جزاء الذي سرق منكم إن كنتم كاذبين في إنكاركم.

ب. والكلام في قولهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ﴾ في نسبة الكذب إليهم يقرب من الكلام في قولهم: ﴿إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾ وقد تقدم.

٧. ﴿قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ مرادهم أن جزاء السرق نفس السارق أو جزاء السارق نفسه بمعنى أن من سرق مالا يصير عبدا لمن سرق ماله وهكذا كان حكمه في سنة يعقوب عليه السلام كما يدل عليه قولهم: ﴿كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي هؤلاء الظالمين وهم السراق لكنهم عدلوا عنه إلى قولهم: ﴿جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ﴾ للدلالة على أن السرقة إنما يجازى بها

نفس السارق لا رفقته وصحبه وهم أحد عشر نسمة لا ينبغي أن يؤاخذ منهم لو تحققت السرقة إلا السارق بعينه من غير أن يتعدى إلى نفوس الآخرين ورحالهم ثم للمسروق منه أن يملك السارق نفسه يفعل به ما يشاء.

٨. ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ﴾ فيه تفريع على ما تقدم أي أخذ بالتفتيش والفحص بالبناء على ما ذكروه من الجزاء فبدأ بأوعيتهم وظروفهم قبل وعاء أخيه للتعمية عليهم حذرا من أن يتنبهوا ويتفطنوا أنه هو الذي وضعها في رحل أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه وعند ذلك استقر الجزاء عليه لكونها في رحله.

٩. ﴿كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ إلى آخر الآية، الإشارة إلى ما جرى من الأمر في طريق أخذ يوسف عليه السلام أخاه لأمه من عصبة إخوته، وقد كان كيدا لأنه يوصل إلى ما يطلبه منهم من غير أن يعلموا ويتفطنوا به ولو علموا لما رضوا به ولا مكنوه منه، وهذا هو الكيد غير أنه كان بإلهام من الله سبحانه أو وحي منه إليه علمه به طريق التوصل إلى أخذ أخيه، ولذلك نسب الله سبحانه ذلك إلى نفسه مع توصيفه بالكيد فقال: ﴿كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ﴾، وليس كل كيد بمنفي عنه تعالى وإنما تتنزه ساحة قدسه عن الكيد الذي هو ظلم ونظيره المكر والإضلال والاستدراج وغيرها.

١٠. ﴿ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾:

أ. بيان للسبب الداعي إلى الكيد، وهو أنه كان يريد أن يأخذ أخاه إليه، ولم يكن في دين الملك أي سنته الجارية في أرض مصر طريق يؤدي إلى أخذه، ولا أن السرقة حكمها استعباد السارق ولذلك كادهم يوسف، بأمر من الله، بجعل السقاية في رحله ثم إعلام أنهم سارقون حتى ينكروه فيسألهم عن جزائه إن كانوا كاذبين فيخبروا أن جزاء السرق عندهم أخذ السارق واستعباده فيأخذهم بما رضوا به لأنفسهم، وعلى هذا فلم يكن له أن يأخذ أخاه في دين الملك إلا في حال يشاء الله ذلك وهو هذا الحال الذي رضوا فيه أن يجازوا بما رضوا به لأنفسهم.

ب. ومن هنا يظهر أن الاستثناء يفيد أنه كان من دين الملك أن يؤخذ المجرم بما يرضاه لنفسه من الجزاء وهو أشق، وكان ذلك متداولا في كثير من السنن القومية وسياسات الملوك.

١١. ﴿نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾:

أ. امتنان على يوسف عليه السلام بما رفعه الله على إخوته، وبيان لقوله: ﴿كَذٰلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ﴾ وكان امتنانا عليه.

ب. وفي قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ بيان أن العلم من الأمور التي لا يقف على حد ينتهي إليه بل كل ذي علم يمكن أن يفرض من هو أعلم منه.

ج. وينبغي أن يعلم أن ظاهر قوله: ﴿ذِي عِلْمٍ﴾ هو العلم الطارئ على العالم الزائد على ذاته لما في لفظة ﴿ذِي﴾ من الدلالة على المصاحبة والمقارنة فالله سبحانه وعلمه الذي هو صفة ذاته عين ذاته، وهو تعالى علم غير محدود كما أن وجوده أحدي غير محدود، خارج بذاته عن إطلاق الكلام.

د. على أن الجملة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ إنما تصدق فيما أمكن هناك فرض ﴿فَوْقَ﴾ والله سبحانه لا فوق له ولا تحت له ولا وراء لوجوده ولا حد لذاته ولا نهاية.

هـ. ولا يبعد أن يكون قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى كونه تعالى فوق كل ذي علم بأن يكون المراد بعليم هو الله سبحانه أورد في هيئة النكرة صونا للسان عن تعريفه للتعظيم.

١٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام، وفي نسخة عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قيل له وأنا عنده إن سالم بن حفصة روى عنك أنك تكلم على سبعين وجها، لك منها المخرج، قال: ما يريد سالم مني؟ أيريد أن أجيء بالملائكة فوالله ما جاء بهم النبيون، ولقد قال إبراهيم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وو الله ما كان سقيما وما كذب، ولقد قال إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ وما فعله كبيرهم وما كذب، ولقد قال يوسف: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾، والله ما كانوا سرقوا وما كذب.

ب. وفيه، عن رجل من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألت عن قول الله في يوسف: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾، قال: إنهم سرقوا يوسف من أبيه ألا ترى أنه قال لهم، حين قالوا وأقبلوا عليهم ما ذا تفقدون؟ قالوا: نفقد صواع الملك ولم يقولوا: سرقتم صواع الملك، إنما عنى أنكم سرقتم يوسف من أبيه.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن الحسن الصيقل قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنا قد روينا عن أبي جعفر عليه السلام في قول يوسف ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾ فقال: والله ما سرقوا وما كذب، وقال

إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ فقال: والله ما فعل وما كذب، قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما عندكم فيها يا صيقل؟ قلت: ما عندنا فيها إلا التسليم، قال: فقال: إن الله أحب اثنين وأبغض اثنين، أحب الخطو فيما بين الصفين وأحب الكذب في الإصلاح، وأبغض الخطو في الطرقات وأبغض الكذب في غير الإصلاح، إن إبراهيم إنما قال: بل فعله كبيرهم إرادة الإصلاح، ودلالة على أنهم لا يفعلون، وقال يوسف إرادة الإصلاح.

• أقول: قوله عليه السلام إنه أراد الإصلاح لا ينافي ما في الرواية السابقة أنه أراد به سرقهم يوسف من أبيه فكون ظاهر الكلام مما لا يطابق الواقع غير كون المتكلم مريدا به معنى صحيحا في نفسه غير مفهوم منه في ظرف التخاطب، والدليل على ذلك قوله عليه السلام إنه أراد الإصلاح ودل على أنهم لا يفعلون حيث جمع بين المعنيين وللفظ بحسب أحدهما، وهو الثاني، مطابق دون الآخر فافهمه وارجع إلى ما قدمناه في البيان.

• وفي معنى الأحاديث الثلاثة الأخيرة أخبار أخر مروية في الكافي، والمعاني، وتفسيري العياشي، والقمي.

٢٩. إخوة يوسف يتهمونه بالسرقة:

المقطع [٢٩] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٢٦»:

١. ﴿قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. القائلون هم إخوة يوسف عليه السلام لأبيه، ولذلك نسبوا يوسف إلى أخيهم المتهم بالسرقة لأنهما كانا من أم واحدة، والمعنى أنهم قالوا: إن يسرق هذا صواع الملك فليس ببعيد منه لأنه كان له أخ وقد تحققت السرقة منه من قبل فهما يتوارثان ذلك من ناحية أمهما ونحن مفارقوهما في الأم.

ب. وفي هذا نوع تبرئة لأنفسهم من السرقة لكنه لا يخلو من تكذيب لما قالوه آنفا: ﴿وَما كُنَّا سارِقِينَ﴾ لأنهم كانوا ينفون به السرقة عن أبناء يعقوب جميعا وإلا لم يكن ينفعهم البتة قولهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يناقضه وهو ظاهر، على أنهم أظهروا بهذه الكلمة ما في نفوسهم من الحسد ليوسف وأخيه،

ولعلهم لم يشعروا به، وهذا يكشف عن أمور مؤسفة كثيرة فيما بينهم.

ج. وبهذا يتضح بعض الاتضاح معنى قول يوسف: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾ كما أن الظاهر أن قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾ إلى آخر الآية كالبيان لقوله: ﴿فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ﴾ وكما أن قوله: ﴿وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ﴾ عطف تفسير لقوله: ﴿فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾

د. والمعنى، والله أعلم، ﴿فَأَسَرَّها﴾ أي أخفى هذه الكلمة التي قالوها أي لم يتعرض لما نسبوا إليه من السرقة ولم ينفه ولم يبين حقيقة الحال بل ﴿فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ﴾ وكان هناك قائلا يقول: كيف أسرها في نفسه فأجيب أنه ﴿قالَ: أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾ وأسوأ حالا لما في أقوالكم من التناقض وفي نفوسكم من غريزة الحسد الظاهرة واجترائكم على الكذب في حضرة العزيز بعد هذا الإكرام والإحسان كله ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ﴾ إنه قد سرق أخ له من قبل فلم يكذبهم في وصفهم ولم ينفه.

٢. وذكر بعض المفسرين:

أ. أن معنى قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾: أنكم أسوأ حالا منه لأنكم سرقتم أخاكم من أبيكم والله أعلم أسرق أخ له من قبل أم لا.

• وفيه: أن من الجائز أن يكون هذا المعنى بعض ما قصده يوسف بقوله: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾ لكن الكلام فيما تلقاه إخوته من قوله هذا والظرف هذا الظرف هم ينكرون يوسف عليه السلام وهو لا يريد أن يعرفهم نفسه، ولا ينطبق قوله في مثل هذا الظرف إلا بما تقدم.

ب. وربما ذكر بعضهم أن التي أسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم هي كلمته: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾ فلم يخاطبهم بها ثم جهر بقوله: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ﴾ وهذا بعيد غير مستفاد من السياق.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن إسماعيل بن همام قال: قال الرضا عليه السلام: في قول الله تعالى: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ﴾ قال: كان لإسحاق النبي منطقة يتوارثها الأنبياء والأكابر، وكانت عند عمة يوسف، وكان يوسف عندها، وكانت تحبه فبعث إليه أبوه أن ابعثه إلي وأرده إليك، فبعثت إليه أن دعه عندي الليلة لأشمه، ثم أرسله إليك غدوة فلما أصبحت أخذت المنطقة، فربطها في حقوه وألبسته قميصا فبعثت به إليه، وقالت: سرقت المنطقة فوجدت عليه، وكان إذا

سرق أحد في ذلك الزمان دفع إلى صاحب السرقة، فأخذته فكان عندها.

ب. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: في قوله: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ قال: سرق يوسف عليه السلام صنما لجده أبي أمه من ذهب وفضة، فكسره وألقاه في الطريق فعيره بذلك إخوته.

• أقول: والرواية السابقة أقرب إلى الاعتماد، وقد رويت بطرق أخرى عن الأئمة أهل البيت عليه السلام، ويؤيدها ما روي بغير واحد من طرق أهل البيت وطرق غيرهم: أن السجان قال ليوسف: إني لأحبك فقال: لا تحبني فإن عمتي أحبتني فنسبت إلي السرقة، وأبي أحبني فحسدني إخوتي وألقوني في الجب، وامرأة العزيز أحبتني فألقوني في السجن.

٣٠. إخوة يوسف يتوسلون إليه أن يأخذ أحدهم مكانه:

المقطع [٣٠] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٨-٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٢٧»:

١. ﴿قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ سياق الآيات يدل على أنهم إنما قالوا هذا القول لما شاهدوا أنه استحق الأخذ والاستعباد، وذكروا أنهم أعطوا أباهم موثقا من الله أن يرجعوه إليه فلم يكن في مقدرتهم أن يرجعوا إلى أبيهم ولا يكون معهم، فعند ذلك عزموا أن يفدوه بواحد منهم إن قبل العزيز، وكلموا العزيز في ذلك أن يأخذ أي من شاء منهم، ويخلي عن سبيل أخيهم المتهم ليرجعوه إلى أبيه، ومعنى الآية ظاهر، وفي اللفظ ترقيق واسترحام وإثارة لصفة الفتوة والإحسان من العزيز.

٢. ﴿قالَ مَعاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ﴾ رد منه عليه السلام لسؤالهم أن يأخذ أحدهم مكانه ومعنى الآية ظاهر.

٣١. إخوة يوسف يستيئسون من إرجاع أخيهم:

المقطع [٣١] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ

الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٠ـ٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٢٨»:

١. ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال في المجمع: (اليأس قطع الطمع من الأمر يقال يئس ييأس وأيس يأيس لغة، واستفعل مثل استيأس واستأيس، قال: ويئس واستيأس بمعنى مثل سخر واستسخر وعجب واستعجب، والنجي القوم يتناجون الواحد والجمع فيه سواء قال سبحانه: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ وإنما جاز ذلك لأنه مصدر وصف به، والمناجاة المسارة وأصله من النجوة هو المرتفع من الأرض فإنه رفع السر من كل واحد إلى صاحبه في خفية، والنجوى يكون اسما ومصدرا قال سبحانه: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ أي يتناجون، وقال في المصدر: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ وجمع النجي أنجية قال: وبرح الرجل براحا إذا تنحى عن موضعه)

ب. والضمير في قوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ ليوسف ويمكن أن يكون لأخيه والمعنى ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا﴾ أي إخوة يوسف ﴿مِنْهُ﴾ أي من يوسف أن يخلي عن سبيل أخيه ولو بأخذ أحدهم بدلا منه ﴿خَلَصُوا﴾ وخرجوا من بين الناس إلى فراغ ﴿نَجِيًّا﴾ يتناجون في أمرهم أيرجعون إلى أبيهم وقد أخذ منهم موثقا من الله أن يعيدوا أخاهم إليه أم يقيمون هناك ولا فائدة في إقامتهم؟ ما ذا يصنعون؟

٢. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ مخاطبا لسائرهم ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ﴾ ألا ترجعوا من سفركم هذا إليه إلا بأخيكم، ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ هذه الواقعة ﴿ما فَرَّطْتُمْ﴾ أي تفريطكم وتقصيركم ﴿فِي﴾ أمر ﴿يُوسُفَ﴾ عهدتم أباكم أن تحفظوه وتردوه إليه سالما فألقيتموه في الجب ثم بعتموه من السيارة ثم أخبرتم أباكم أنه أكله الذئب.

٣. ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي فإذا كان الشأن هذا الشأن لن أتنحى ولن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ برفعه اليد عن الموثق الذي واثقته به ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فيجعل لي طريقا إلى النجاة من هذه المضيقة التي سدت لي كل باب وذلك إما بخلاص أخي من يد العزيز من طريق لا أحتسبه أو بموتي أو بغير ذلك من سبيل!!، أما أنا فاختار البقاء هاهنا وأما أنتم فارجعوا إلى أبيكم إلى آخر ما ذكر في الآيتين التاليتين.

٤. ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾ قيل المراد بقوله: ﴿وَما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا﴾ إنا لم نشهد في شهادتنا هذه: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ إلا بما علمنا من سرقته، وقيل المراد ما شهدنا عند العزيز أن السارق يؤخذ بسرقته ويسترق إلا بما علمنا من حكم المسألة، قيل وإنما قالوا ذلك حين قال لهم يعقوب: ما يدري الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته ويسترق؟ وإنما علم ذلك بقولكم، وأقرب المعنيين إلى السياق أولهما.

٥. ﴿وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾ قيل أي لم نكن نعلم أن ابنك سيسرق فيؤخذ ويسترق وإنما كنا نعتمد على ظاهر الحال ولو كنا نعلم ذلك لما بادرنا إلى تسفيره معنا ولا أقدمنا على الميثاق، والحق أن المراد بالغيب كونه سارقا مع جهلهم بها ومعنى الآية إن ابنك سرق وما شهدنا في جزاء السرقة إلا بما علمنا وما كنا نعلم أنه سرق السقاية وأنه سيؤخذ بها حتى نكف عن تلك الشهادة فما كنا نظن به ذلك.

٦. ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ أي وأسأل جميع من صاحبنا في هذه السفرة أو شاهد جريان حالنا عند العزيز حتى لا يبقى لك أدنى ريب في أنا لم نفرط في أمره بل أنه سرق فاسترق، فالمراد بالقرية التي كانوا فيها بلدة مصر، على الظاهر، وبالعير التي أقبلوا فيها القافلة التي كانوا فيها وكان رجالها يصاحبونهم في الخروج إلى مصر والرجوع منها ثم أقبلوا مصاحبين لهم، ولذلك عقبوا عرض السؤال بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ أي فيما نخبرك من سرقته واسترقاقه لذلك، ونكلفك السؤال لإزالة الريب من نفسك.

٣٢. يعقوب يتوجع لفقد يوسف وثقته في إرجاع الله لهم:

المقطع [٣٢] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٣-٨٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٣١»:

١. ﴿قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ

الْحَكِيمُ﴾ في المقام حذف كثير يدل عليه قوله: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا﴾ إلى آخر الآيتين والتقدير ولما رجعوا إلى أبيهم وقالوا ما وصاهم به كبيرهم قال أبوهم بل سولت لكم أنفسكم أمرا.

٢. ﴿قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾:

أ. حكاية ما أجابهم به يعقوب عليه السلام ولم يقل عليه السلام هذا القول تكذيبا لهم فيما أخبروه به وحاشاه أن يكذب خبرا يحتف بقرائن الصدق وتصاحبه شواهد يمكن اختباره بها، ولا رماهم بقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ رميا بالمظنة بل ليس إلا أنه وجد بفراسة إلهية أن هذه الواقعة ترتبط وتتفرع على تسويل نفساني منهم إجمالا وكذلك كان الأمر فإن الواقعة من أذناب واقعة يوسف وكانت واقعته من تسويل نفساني منهم.

ب. ومن هنا يظهر أنه عليه السلام لم ينسب إلى تسويل أنفسهم عدم رجوع أخي يوسف فحسب بل عدم رجوعه وعدم رجوع كبيرهم الذي توقف بمصر ولم يرجع إليه، ويشهد لذلك قوله: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ فجمع في ذلك بين يوسف وأخيه وكبير الإخوة فلم يذكر أخا يوسف وحده ولا يوسف وأخاه معا، فظاهر السياق أن ترجيه رجوع بنيه الثلاثة مبني على صبره الجميل قبال ما سولت لهم أنفسهم أمرا.

ج. فالمعنى، والله أعلم، أن هذه الواقعة مما سولت لكم أنفسكم كما قلت ذلك في واقعة يوسف فصبر جميل قبال تسويل أنفسكم عسى الله أن يأتيني بأبنائي الثلاثة جميعا، ومن هنا يظهر أن قولهم: إن المعنى: ما عندي أن الأمر على ما تصفونه بل سولت لكم أنفسكم أمرا فيما أظن، ليس في محله.

٣. ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. ترج مجرد لرجوعهم جميعا مع ما فيه من الإشارة إلى أن يوسف حي لم يمت، على ما يراه، وليس مشربا معنى الدعاء، ولو كان في معنى الدعاء لم يختمه بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ بل بمثل قولنا: إنه هو السميع العليم أو الرءوف الرحيم أو ما يناظرهما كما هو المعهود في الأدعية المنقولة في القرآن الكريم، بل هو رجاء لثمرة الصبر فهو يقول: إن واقعة يوسف السابقة وهذه الواقعة التي أخذت مني ابنين آخرين إنما هما لأمر ما سولته لكم أنفسكم فسأصبر صبرا وأرجو به أن يأتيني الله بأبنائي جميعا ويتم نعمته على آل يعقوب كما وعدنيه أنه هو العليم بمورد الاجتباء وإتمام النعمة حكيم في فعله يقدر الأمور على ما تقتضيه

الحكمة البالغة فلا ينبغي للإنسان أن يضطرب عند البلايا والمحن بالطيش والجزع ولا أن ييأس من روحه ورحمته.

ب. والاسمان: العليم الحكيم هما اللذان ذكرهما يعقوب ليوسف عليه السلام لأول مرة أول رؤياه فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ثم ذكرهما يوسف ليعقوب عليه السلام ثانيا حيث رفع أبويه على العرش وخروا له سجدا فقال: ﴿يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ﴾ إلى أن قال: ﴿هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

٤. ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قال الراغب في المفردات: (الأسف الحزن والغضب معا، وقد يقال لكل واحد منهما على الانفراد وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا، إلى أن قال، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ﴾ أي أغضبونا قال أبو عبد الله الرضا: إن الله لا يأسف كأسفنا ولكن له أولياء يأسفون ويرضون، فجعل رضاهم رضاه وغضبهم غضبه، قال: وعلى ذلك قال: من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة) وقال: الكظم مخرج النفس يقال: أخذ بكظمه، والكظوم احتباس النفس ويعبر به عن السكوت كقولهم: فلان لا يتنفس إذا وصف بالمبالغة في السكوت، وكظم فلان حبس نفسه قال تعالى: ﴿إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ وكظم الغيظ حبسه قال تعالى: ﴿وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، ومنه كظم البعير إذا ترك الاجترار وكظم السقاء شدة بعد ملئه مانعا لنفسه)

٥. ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ ابيضاض العين أي سوادها هو العمى وبطلان الإبصار وربما يجامع قليل إبصار لكن قوله الآتي: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ [الآية: ٩٣] من السورة يشهد بأنه كناية عن ذهاب البصر.

٦. ومعنى الآية: (ثم تولى) وأعرض يعقوب عليه السلام ﴿عَنْهُمْ﴾ أي عن أبنائه بعد ما خاطبهم بقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ ﴿وَقالَ: يا أَسَفى﴾ ويا حزني ﴿عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ﴾ وذهب بصره ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ على يوسف ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ حابس غيظه متجرع حزنه لا يتعرض لبنيه بشيء.

٧. ﴿قالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ﴾ الحرض والحارض المشرف على الهلاك وقيل: هو الذي لا ميت فينسى ولا حي فيرجي، والمعنى الأول أنسب بالنظر إلى مقابلته الهلاك، والحرض لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر، والمعنى: نقسم بالله لا تزال تذكر يوسف وتديم ذكره منذ

سنين لا تكف عنه حتى تشرف على الهلاك أو تهلك، وظاهر قولهم هذا أنهم إنما قالوه رقة بحاله ورأفة به، ولعلهم إنما تفوهوا به تبرما ببكائه وسأمة من طول نياحه ليوسف، وخاصة من جهة أنه كان يكذبهم في ما كانوا يدعونه من أمر يوسف، وكان ظاهر بكائه وتأسفه أنه يشكوهم كما ربما يؤيده قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا﴾ إلخ.

٨. ﴿قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (البث الهم الذي لا يقدر صاحبه على كتمانه فيبثه أي يفرقه، وكل شيء فرقته فقد بثثته ومنه قوله: ﴿وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾) انتهى فهو من المصدر بمعنى المفعول أي المبثوث.

ب. والحصر الذي في قوله: ﴿إِنَّما أَشْكُوا﴾، من قصر القلب فيكون مفاده أني لست أشكو بثي وحزني إليكم معاشر ولدي وأهلي، ولو كنت أشكوه إليكم لانقطع في أقل زمان كما يجري عليه دأب الناس في بثهم وحزنهم عند المصائب، وإنما أشكو بثي وحزني إلى الله سبحانه، ولا يأخذه ملل ولا سأمة فيما يسأله عنه عباده ويبرمه أرباب الحوائج ويلحون عليه وأعلم من الله ما لا تعلمون فلست أيأس من روحه ولا أقنط من رحمته.

ج. وفي قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إجمالية إلى علمه بالله لا يستفاد منه إلا ما يساعد على فهمه المقام كما أشرنا إليه.

٩. ﴿يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (التحسس، بالحاء، طلب الشيء بالحاسة والتجسس، بالجيم - نظيره وفي الحديث: لا تحسسوا ولا تجسسوا، وقيل إن معناهما واحد ونسق أحدهما على الآخر لاختلاف اللفظين كقول الشاعر (متى ادن منه ينأى عنه ويبعد)، وقيل: التجسس بالجيم البحث عن عورات الناس، وبالحاء الاستماع لحديث قوم وسئل ابن عباس عن الفرق بينهما؟ قال: لا يبعد أحدهما عن الآخر: التحسس في الخير والتجسس في الشر)

ب. ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾ الروح بالفتح فالسكون النفس أو النفس الطيب ويكنى به عن الحالة التي هي ضد التعب وهي الراحة وذلك أن الشدة التي فيها انقطاع الأسباب وانسداد طرق النجاة

تتصور اختناقا وكظما للإنسان وبالمقابلة الخروج إلى فسحة الفرج والظفر بالعافية تنفسا وروحا لقولهم يفرج الهم وينفس الكرب فالروح المنسوب إليه تعالى هو الفرج بعد الشدة بإذن الله ومشيته، وعلى من يؤمن بالله أن يعتقد أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا قاهر لمشيته ولا معقب لحكمه، وليس له أن ييأس من روح الله ويقنط من رحمته فإنه تحديد لقدرته وفي معنى الكفر بإحاطته وسعة رحمته كما قال تعالى حاكيا عن لسان يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾ وقال حاكيا عن لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، وقد عد اليأس من روح الله في الأخبار المأثورة من الكبائر الموبقة.

ج. ومعنى الآية، ثم قال يعقوب لبنيه آمرا لهم، ﴿يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾ ﴿مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ الذي أخذ بمصر وابحثوا عنهما لعلكم تظفرون بهما ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ الله﴾ والفرج الذي يرزقه الله بعد الشدة ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾ الذين لا يؤمنون بأن الله يقدر أن يكشف كل غمة وينفس عن كل كربة.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. وفي تفسير البرهان، عن الحسين بن سعيد في كتاب التمحيص عن جابر قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما الصبر الجميل؟ قال: ذلك صبر ليس فيه شكوى إلى أحد من الناس، إن إبراهيم بعث يعقوب إلى راهب من الرهبان، عابد من العباد في حاجة، فلما رآه الراهب حسبه إبراهيم، فوثب إليه فاعتنقه ثم قال: مرحبا بخليل الرحمن، فقال له يعقوب: لست بخليل الرحمن، ولكن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال له الراهب: فما الذي بلغ بك ما أرى من الكبر؟ قال: الهم والحزن والسقم، قال: فما جاز عتبة الباب حتى أوحى الله إليه: يا يعقوب شكوتني إلى العباد فخر ساجدا عند عتبة الباب يقول: رب لا أعود فأوحى الله إليه أني قد غفرت لك، فلا تعد إلى مثلها فما شكى شيئا مما أصابه من نوائب الدنيا، إلا أنه قال يوما: ﴿إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى الله، وَأَعْلَمُ مِنَ الله ما لا تَعْلَمُونَ﴾

ب. أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن مسلم بن يسار يرفعه إلى النبي ﷺ قال: من بث لم يصبر ثم قرأ ﴿إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى الله﴾

• أقول: ورواه أيضا عن ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر عنه ﷺ

ج. وفي الكافي، بإسناده عن حنان بن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن قول يعقوب لبنيه: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ إنه كان يعلم أنه حي وقد فارقهم منذ عشرين سنة؟ قال: نعم، قلت: كيف علم؟ قال: إنه دعا في السحر، وقد سأل الله أن يهبط عليه ملك الموت فهبط عليه تربال، وهو ملك الموت فقال له تربال: ما حاجتك يا يعقوب؟ قال: أخبرني عن الأرواح، تقبضها مجتمعة أو متفرقة؟ فقال: بل أقبضها متفرقة روحا روحا، قال: فمر بك روح يوسف؟ قال: لا، فعند ذلك علم أنه حي فعند ذلك قال لولده: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾

• أقول: ورواه في المعاني، بإسناده عن حنان بن سدير عن أبيه عنه عليه السلام وفيه: قال يعني يعقوب لملك الموت: أخبرني عن الأرواح تقبضها جملة أو تفاريق؟ قال: يقبضها أعواني متفرقة وتعرض علي مجتمعة، قال: فأسألك بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، هل عرض عليك في الأرواح روح يوسف؟ قال: لا، فعند ذلك علم أنه حي.

د. أخرج إسحاق بن راهويه في تفسيره وابن أبي الدنيا في كتاب الفرج بعد الشدة وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس عن النبي ﷺ وفيه: أتى جبريل فقال: يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أبشر وليفرح قلبك فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك، فاصنع طعاما للمساكين، فإن أحب عبادي إلي الأنبياء والمساكين، وتدري لم أذهبت بصرك، وقوست ظهرك وصنع إخوة يوسف به ما صنعوا؟ إنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين وهو صائم فلم تطعموه منه شيئا، فكان يعقوب عليه السلام إذا أراد الغداء أمر مناديا ينادي، ألا من أراد الغداء من المساكين فليتغد مع يعقوب، وإذا كان صائما أمر مناديا فنادى، ألا من كان صائما من المساكين، فليفطر مع يعقوب.

٣٣. إخوة يوسف يعودون إليه ويستعطفونه لشدة الضر:

المقطع [٣٣] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٣٥»:

١. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ﴾:

أ. البضاعة المزجاة المتاع القليل، وفي الكلام حذف والتقدير فساروا بني يعقوب إلى مصر ولما دخلوا على يوسف قالوا..

ب. كانت لهم، على ما يدل عليه السياق، حاجتان إلى العزيز ولا مطمع لهم بحسب ظاهر الأسباب إلى قضائهما واستجابته عليهم فيهما:

• إحداهما: أن يبيع منهم الطعام ولا ثمن عندهم يفي بما يريدونه من الطعام على أنهم عرفوا بالكذب وسجل عليهم السرقة من قبل وهان أمرهم على العزيز لا يرجى منه أن يكرمهم بما كان يكرمهم به في الجيئة الأولى.

• وثانيتهما: أن يخلي عن سبيل أخيهم المأخوذ بالسرقة، وقد استيأسوا منه بعد ما كانوا ألحوا عليه فأبى العزيز حتى عن تخلية سبيله بأخذ أحدهم مكانه.

ج. ولذلك لما حضروا عند يوسف العزيز وكلموه وهم يريدون أخذ الطعام وإعتاق أخيهم أوقفوا أنفسهم موقف التذلل والخضوع وبالغوا في رقة الكلام استرحاما واستعطافا فذكروا أولا ما مسهم وأهلهم من الضر وسوء الحال ثم ذكروا قلة ما أتوا به من البضاعة ثم سألوه إيفاء الكيل، وأما حديث أخيهم المأخوذ فلم يصرحوا بسؤال تخلية سبيله بل سألوه أن يتصدق عليهم وإنما يتصدق بالمال والطعام مال وأخوهم المسترق مال العزيز ظاهرا ثم حرضوه بقولهم: ﴿إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ وهو في معنى الدعاء.

د. فمعنى الآية: ﴿يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ وأحاط بنا جميعا المضيقة وسوء الحال ﴿وَجِئْنا﴾ إليك ﴿بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ﴾ ومتاع قليل لا يعدل ما نسألك من الطعام غير أنه نهاية ما في وسعنا ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا﴾ وكأنهم يريدون به أخاهم أو إياه والطعام ﴿إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ خيرا.

٢. وقد بدءوا القول بخطاب ﴿يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ وختموه بما في معنى الدعاء وأتوا خلاله بذكر سوء حالهم والاعتراف بقلة بضاعتهم وسؤاله أن يتصدق عليهم وهو من أمر السؤال والموقف موقف الاسترحام ممن لا يستحق ذلك لسوء سابقته، وهم عصبة قد اصطفوا أمام عزيز مصر.

٣. وعند ذلك تمت الكلمة الإلهية أنه سيرفع يوسف وأخاه ويضع عنده سائر بني يعقوب

لظلمهم، ولذلك لم يلبث يوسف عليه السلام دون أن أجابهم بقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وعرفهم نفسه، وقد كان يمكنه عليه السلام أن يخبر أباه وإخوته مكانه وأنه بمصر طول هذه المدة غير القصيرة لكن الله سبحانه شاء أن يوقف إخوته أمامه ومعه أخوه المحسود موقف المذلة والمسكنة وهو متك على أريكة العزة.

٣٤. يوسف يكشف عن نفسه لأخوته ويعفو عنهم:

المقطع [٣٤] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٨٩-٩٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٣٦»:

١. ﴿قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ﴾:

أ. إنما يخاطب المخطئ المجرم بمثل هل علمت وأ تدري وأ رأيت ونحوها وهو عالم بما فعل لتذكيره جزاء عمله ووبال ذنبه لكنه عليه السلام أعقب استفهامه بقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ﴾ وفيه تلقين عذر.

ب. فقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ مجرد تذكير لعملهم بهما من غير توبيخ ومؤاخذة ليعرفهم من الله عليه وعلى أخيه وهذا من عجيب فتوة يوسف عليه السلام، ويا لها من فتوة.

٢. ﴿قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا﴾ إلى آخر الآية:

أ. تأكيد الجملة المستفهم عنها للدلالة على أن الشواهد القطعية قامت على تحقق مضمونها وإنما يستفهم لمجرد الاعتراف فحسب.

ب. وقد قامت الشواهد عندهم على كون العزيز هو أخاهم يوسف ولذلك سألوه بقولهم: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ مؤكدا بإن واللام وضمير الفصل فأجابهم بقوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي﴾ وإنما ألحق أخاه بنفسه ولم يسألوا عنه وما كانوا يجهلونه ليخبر عن من الله عليهما، وهما معا المحسودان ولذا قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا﴾

٣. ثم أخبر عن سبب المن الإلهي بحسب ظاهر الأسباب فقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا

يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وفيه دعوتهم إلى الإحسان وبيان أنه يتحقق بالتقوى والصبر.

٤. ﴿قالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ﴾ الإيثار هو الاختيار والتفضيل، والخطأ ضد الصواب والخاطئ والمخطئ من خطأ خطأ وأخطأ إخطاء بمعنى واحد، ومعنى الآية ظاهر وفيها اعترافهم بالخطإ وتفضيل الله يوسف عليهم.

٥. ﴿قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ التثريب التوبيخ والمبالغة في اللوم وتعديد الذنوب، وإنما قيد نفي التثريب باليوم ليدل على مكانة صفحة وإغماضه عن الانتقام منهم والظرف هذا الظرف هو عزيز مصر أوتي النبوة والحكم وعلم الأحاديث ومعه أخوه وهم أذلاء بين يديه معترفون بالخطيئة وإن الله آثره عليهم بالرغم من قولهم أول يوم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾

٦. ثم دعا لهم واستغفر بقوله: ﴿يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وهذا دعاء واستغفار منه لإخوته الذين ظلموه جميعا وإن كان الحاضرون عنده اليوم بعضهم لا جميعهم كما يستفاد من قوله تعالى الآتي: ﴿قالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ وسيجيء إن شاء الله تعالى.

٧. ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

أ. تتمة كلام يوسف عليه السلام يأمر فيه إخوته أن يذهبوا بقميصه إلى أبيه فيلقوه على وجهه ليشفي الله به عينيه ويأتي بصيرا بعد ما صار من كثرة الحزن والبكاء ضريرا لا يبصر.

ب. وهذا آخر العنايات البديعة التي أظهرها الله سبحانه في حق يوسف عليه السلام على ما يقصه في هذه السورة مما غلب الله الأسباب فحولها إلى خلاف الجهة التي كانت تجري إليها:

• حسده إخوته فاستذلوه وغربوه عن مستقره بإلقائه في الجب وبيعه من السيارة بثمن بخس فجعل الله سبحانه هذا السبب بعينه سببا لقراره في بيت عزيز مصر في أكرم مثوى ثم أقره في أريكة عزة تضرع إليه أمامها إخوته بقولهم ﴿يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾

• ثم أحبته امرأة العزيز ونسوة مصر فراودنه عن نفسه ليوردنه في مهلكة الفجور فحفظه الله وجعل ذلك سببا لظهور براءة ساحته وكمال عفته، ثم استذلوه فسجنوه فجعله الله سببا لعزته وملكه.

• وجاء إخوته إلى أبيه يوم ألقوه في غيابة الجب بقميصه الملطخ بالدم فأخبروه بموته كذبا فكان القميص سببا لحزن أبيه وبكائه في فراق ابنه حتى ابيضت عيناه وذهب بصره فرد الله سبحانه به بصره إليه وبالجملة اجتمعت الأسباب على خفضه وأراد الله سبحانه رفعه فكان ما أراده الله دون الذي توجهت إليه الأسباب والله غالب على أمره.

٨. ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أمر منه بانتقال بيت يعقوب من يعقوب وأهله وبنيه وذراريه جميعا من البدو إلى مصر ونزولهم بها.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يحدث: قال: لما فقد يعقوب يوسف عليه السلام، اشتد حزنه عليه وبكاؤه حتى ابيضت عيناه من الحزن، واحتاج حاجة شديدة وتغيرت حالته، وكان يمتار القمح من مصر لعياله في السنة مرتين: للشتاء والصيف، وإنه بعث عدة من ولده ببضاعة يسيرة إلى مصر، فرفع لهم رفقة خرجت، فلما دخلوا على يوسف، وذلك بعد ما ولاه العزيز مصر فعرفهم يوسف، ولم يعرفه إخوته لهيبة الملك وعزته فقال لهم: هلموا بضاعتكم قبل الرفاق، وقال لفتيانه عجلوا لهؤلاء الكيل وأوفهم، فإذا فرغتم فاجعلوا بضاعتهم هذه في رحالهم، ولا تعلموهم بذلك ففعلوا ثم قال لهم يوسف: قد بلغني أنه قد كان لكم أخوان من أبيكم فما فعلا؟ قالوا: أما الكبير منهما فإن الذئب أكله، وأما الصغير فخلفناه عند أبيه وهو به ضنين وعليه شفيق، قال: فإني أحب أن تأتوني به معكم إذا جئتم لتمتاروا، فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون، قالوا: سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون، فلما رجعوا إلى أبيهم وفتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم في رحالهم، قالوا: يا أبانا ما نبغي؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا، وكيل لنا كيل قد زاد حمل بعير، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون، قال: هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل، فلما احتاجوا بعد ستة أشهر بعثهم يعقوب وبعث معهم بضاعة يسيرة، وبعث معهم ابن يامين وأخذ عنهم بذلك موثقا من الله، لتأتنني به إلا أن يحاط بكم أجمعين، فانطلقوا مع الرفاق حتى دخلوا على يوسف، فقال: هل معكم ابن يامين؟ قالوا: نعم هو في الرحل، قال لهم: فأتوني به وهو في دار الملك قد خلا وحده، فأدخلوه عليه فضمه إليه وبكى وقال له: أنا أخوك يوسف فلا تبتئس بما تراني أعمل، واكتم ما أخبرتك به ولا تحزن ولا تخف، ثم أخرجه إليهم وأمر فتيانه أن يأخذوا بضاعتهم،

ويعجلوا لهم الكيل فإذا فرغوا جعلوا المكيال في رحل ابن يامين، ففعلوا به ذلك وارتحل القوم مع الرفقة فمضوا، فلحقهم يوسف وفتيته فنادوا فيهم قال: أيتها العير إنكم لسارقون، قالوا وأقبلوا عليهم: ما ذا تفقدون؟ قالوا: نفقد صواع الملك، ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم قالوا: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين، قالوا: فما جزاؤه إن كنتم كاذبين؟ قالوا: جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه، قال: فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه، قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فقال لهم يوسف: ارتحلوا عن بلادنا، قالوا: يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا، وقد أخذ علينا موثقا من الله لنرد به إليه فخذ أحدنا مكانه، إنا نراك من المحسنين إن فعلت، قال: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، فقال كبيرهم: إني لست أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي، أو يحكم الله لي، ومضى إخوة يوسف حتى دخلوا على يعقوب فقال لهم: فأين ابن يامين؟ قالوا: ابن يامين سرق مكيال الملك، فأخذه الملك بسرقته فحبس عنده، فاسأل أهل القرية والعير حتى يخبروك بذلك، فاسترجع واستعبر واشتد حزنه حتى تقوس ظهره.

ب. وفيه، عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: صواع الملك الطاس الذي يشرب فيه.

• أقول: وفي بعض الروايات أنه كان قدحا من ذهب وكان يكتال به يوسف عليه السلام.

ج. في تفسير العياشي، عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل قال: قال يوسف لإخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا﴾ الذي بلته دموع عيني ﴿فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ لو قد نشر ريحي ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وردهم إلى يعقوب في ذلك اليوم، وجهزهم بجميع ما يحتاجون إليه فلما فصلت عيرهم من مصر، وجد يعقوب ريح يوسف فقال لمن بحضرته من ولده، إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون، قال: وأقبل ولده يحثون السير بالقميص فرحا وسرورا، بما رأوا من حال يوسف والملك الذي آتاه الله، والعز الذي صاروا إليه في سلطان يوسف، وكان مسيرهم من مصر إلى بلد يعقوب تسعة أيام، فلما أن جاء البشير ألقى القميص على وجهه فارتد بصيرا، وقال لهم: ما فعل ابن يامين؟ قالوا: خلفناه عند أخيه صالحا، قال: فحمد الله يعقوب عند ذلك، وسجد لربه سجدة الشكر، ورجع إليه بصره وتقوم له ظهره، وقال لولده: تحملوا إلى يوسف في يومكم هذا

بأجمعكم، فساروا إلى يوسف ومعهم يعقوب وخالة يوسف (ياميل) فأحثوا السير فرحا وسرورا، فساروا تسعة أيام إلى مصر.

• أقول: كون امرأة يعقوب التي سارت معه إلى مصر وهي أم بنيامين خالة يوسف لا أمه الحقيقية وقعت في عدة الروايات وظاهر الكتاب وبعض الروايات أنها كانت أم يوسف وأنه وبنيامين كانا أخوين لأم وإن لم يكن ظهورا يدفع به تلك الروايات.

٣٥. عودة البصر ليعقوب واعتذار الأبناء:

المقطع [٣٥] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٤ـ٩٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٤٤»:

١. ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لولا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ الفصل القطع والانقطاع والتفنيد تفعيل من الفند بفتحتين وهو ضعف الرأي، والمعنى لما خرجت العير الحاملة لقميص يوسف من مصر وانقطعت عنها قال أبوهم يعقوب لمن عنده من بنيه: إني لأجد ريح يوسف لولا أن ترموني بضعف الرأي أي إني لأحس بريحه وأرى أن اللقاء قريب ومن حقه أن تذعنوا بها أجده لولا أن تخطئوني لكن من المحتمل أن تفندوني فلا تذعنوا بقولي.

٢. ﴿قالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾:

أ. القديم مقابل الجديد والمراد به المتقدم وجودا، وهذا ما واجهه به بعض بنيه الحاضرين عنده، وهو من سيء حظهم في هذه القصة تفوهوا بمثله في بدء القصة إذ قالوا: ﴿إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ وفي ختمها وهو قولهم هذا: ﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾

ب. والظاهر أن مرادهم بالضلال هاهنا هو مرادهم بالضلال هناك وهو المبالغة في حب يوسف وذلك أنهم كانوا يرون أنهم أحق بالحب من يوسف وهم عصبة إليهم تدبير بيته والدفاع عنه لكن أباهم قد ضل عن مستوى طريق الحكمة وقدم عليهم في الحب طفلين صغيرين لا يغنيان عنه شيئا فأقبل بكله

إليهما ونسيهم، ثم لما فقد يوسف جزع له ولم يزل يجزع ويبكي حتى ذهبت عيناه وتقوس ظهره.

ج. فهذا هو مرادهم من كونه في ضلاله القديم ليسوا يعنون به الضلال في الدين حتى يصيروا بذلك كافرين:

• أما أولا: فلأن ما ذكر من فصول كلامهم في خلال القصة يشهد على أنهم كانوا موحدين على دين آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليه السلام.

• وأما ثانيا: فلأن المقام هاهنا وكذا في بدء القصة حين قالوا: ﴿إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ لا مساس له بالضلال في الدين حتى يحتمل رميهم أباهم فيه، وإنما يمس أمرا عمليا حيويا وهو حب أب لبعض أولاده وتقديمه في الكرامة على آخرين فهو المعنى بالضلال.

٣. ﴿فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ البشير حامل البشارة وكان حامل القميص وقوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ﴾ يشير عليه السلام إلى قوله لهم حين لاموه على ذكر يوسف: ﴿إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾، ومعنى الآية ظاهر.

٤. ﴿قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ﴾ القائلون بنو يعقوب بدليل قولهم: ﴿يا أَبانَا﴾ ويريدون بالذنوب ما فعلوه به في أمر يوسف وأخيه، وأما يوسف فقد كان استغفر لهم قبل.

٥. ﴿قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أخر عليه السلام الاستغفار لهم كما هو مدلول قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ ولعله إنما أخره ليتم له النعمة بلقاء يوسف وتطيب نفسه به كل الطيب بنسيان جميع آثار الفراق ثم يستغفر لهم وفي بعض الأخبار: أنه أخره إلى وقت يستجاب فيه الدعاء وسيجيء إن شاء الله.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ، إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لولا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال: وجد يعقوب ريح يوسف حين فصلت من مصر، وهو بفلسطين من مسيرة عشرة ليال.

• أقول: وقد ورد في عدة روايات من طرق العامة والخاصة أن القميص الذي أرسله يوسف إلى

يعقوب عليه السلام كان نازلا من الجنة، وأنه كان قميص إبراهيم أنزله إليه جبريل حين ألقي في النار فألبسه إياه فكانت عليه بردا وسلاما ثم أورثه إسحاق ثم ورثه يعقوب ثم جعله يعقوب تميمة وعلقه على يوسف حين ولد فكان على عنقه حتى أخرجه يوسف من التميمة ففاحت ريح الجنة فوجدها يعقوب، وهذه أخبار لا سبيل لنا إلى تصحيحها مضافا إلى ما فيها من ضعف الأسناد.

• ومثلها روايات أخرى من الفريقين تتضمن كتابا كتبه يعقوب إلى يوسف وهو يحسبه عزيز آل فرعون لاستخلاص بنيامين يذكر فيها أنه ابن إسحاق ذبيح الله الذي أمر الله جده إبراهيم بذبحه ثم فداه بذبح عظيم، وقد تقدم في الجزء السابق من الكتاب أن الذبيح هو إسماعيل دون إسحاق.

ب. وفي تفسير العياشي، عن نشيط بن ناصح البجلي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أكان إخوة يوسف أنبياء؟ قال: لا ولا بررة أتقياء وكيف؟ وهم يقولون لأبيهم: ﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾

• أقول: وفي الروايات من طرق أهل السنة وفي بعض الضعاف من روايات الشيعة أنهم كانوا أنبياء، وهذه الروايات مدفوعة بما ثبت من طريق الكتاب والسنة والعقل من عصمة الأنبياء عليهم السلام، وما ورد في الكتاب مما ظاهره كون الأسباط أنبياء كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ﴾ [النساء: ١٦٣] غير صريح في كون المراد بالأسباط هم إخوة يوسف، والأسباط تطلق على جميع الشعوب من بني إسرائيل الذين ينتهي نسبهم إلى يعقوب عليه السلام قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً﴾ [الأعراف: ١٦٠]

ج. وفي الفقيه، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول يعقوب لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قال: أخرهم إلى السحر من ليلة الجمعة.

• أقول: وفي هذا المعنى بعض روايات أخر، وفي الدر المنثور، عن ابن جرير وأبي الشيخ عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: قول أخي يعقوب لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يقول: حتى يأتي ليلة الجمعة.

د. وفي الكافي، بإسناده عن الفضل بن أبي قرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: خير وقت دعوتم الله فيه الأسحار، وتلا هذه الآية في قول يعقوب ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ أخرهم إلى السحر.

• أقول: وروي نظيره في الدر المنثور، عن أبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس: أن النبي ﷺ سئل لم أخر يعقوب بنيه في الاستغفار؟ قال: أخرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب.

• وقد تقدم في بيان الآيات كلام في وجه التأخير ولقد أقبل يوسف عليه السلام على إخوته حين عرفوه بالفتوة والكرامة من غير أن يجبههم بأدنى ما يسوؤهم ولازم ذلك أن يعفو عنهم ويستغفر لهم بلا مهل ولم يكن موقف يعقوب معهم حين ارتد إليه بصره بإلقاء القميص عليه ذاك الموقف.

٣٦. يوسف يكرّم والديه ويدخلون مصر آمنين:

المقطع [٣٦] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٩٩-١٠٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٤٥»:

١. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾:

أ. في الكلام حذف والتقدير فخرج يعقوب وآله من أرضهم وساروا إلى مصر ولما دخلوا.

ب. ﴿آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ فسروه بضمهما إليه، وقوله: ﴿وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، ظاهر في أن يوسف خرج من مصر لاستقبالهما وضمهما إليه هناك ثم عرض لهما دخول مصر إكراما وتأدبا وقد أبدع عليه السلام في قوله: ﴿إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ حيث أعطاهم الأمن وأصدر لهم حكمه على سنة الملوك وقيد ذلك بمشية الله سبحانه للدلالة على أن المشية الإنسانية لا تؤثر أثرها كسائر الأسباب إلا إذا وافقت المشية الإلهية على ما هو مقتضى التوحيد الخالص، وظاهر هذا السياق أنه لم يكن لهم الدخول والاستقرار في مصر إلا بجواز من ناحية الملك، ولذا أعطاهم الأمن في مبتدإ الأمر.

ج. وقد ذكر سبحانه ﴿أَبَوَيْهِ﴾ والمفسرون مختلفون في أنهما كانا والديه أباه وأمه حقيقة أو أنهما يعقوب وزوجه خالة يوسف بالبناء على أن أمه ماتت وهو صغير، ولا يوجد في كلامه تعالى ما يؤيد أحد المحتملين غير أن الظاهر من الأبوين هما الحقيقيان.

د. ومعنى الآية ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا﴾ أي أبواه وإخوته وأهلهم ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ وذلك في خارج مصر

﴿آوى﴾ وضم ﴿إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ﴾ لهم مؤمنا لهم ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾

٢. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. العرش هو السرير العالي ويكثر استعماله فيما يجلس عليه الملك ويختص به، والخرور السقوط على الأرض والبدو البادية فإن يعقوب كان يسكن البادية.

ب. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي رفع يوسف أبويه على عرش الملك الذي كان يجلس عليه ومقتضى الاعتبار وظاهر السياق أنهما رفعا على العرش بأمر من يوسف تصداه خدمه لا هو بنفسه كما يشعر به قوله: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ فإن الظاهر أن السجدة إنما وقعت لأول ما طلع عليهم يوسف فكأنهم دخلوا البيت واطمأن بهم المجلس ثم دخل عليهم يوسف فغشيهم النور الإلهي المتلألئ من جماله البديع فلم يملكوا أنفسهم دون أن خروا له سجدا.

٣. ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾:

أ. الضمير ليوسف كما يعطيه السياق فهو المسجود له، وقول بعضهم: إن الضمير لله سبحانه نظرا إلى عدم جواز السجود لغير الله لا دليل عليه من جهة اللفظ، وقد وقع نظيره في القرآن الكريم في قصة آدم والملائكة قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [طه: ١١٦]

ب. والدليل على أنها لم تكن منهم سجدة عبادة ليوسف أن بين هؤلاء الساجدين يعقوب عليه السلام وهو ممن نص القرآن الكريم على كونه مخلصا، بالفتح، لله لا يشرك به شيئا، ويوسف عليه السلام، وهو المسجود له، منهم بنص القرآن وهو القائل لصاحبيه في السجن: ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ولم يردعهم.

ج. فليس إلا أنهم إنما أخذوا يوسف آية لله فاتخذوه قبلة في سجدتهم وعبدوا الله بها لا غير كالكعبة التي تؤخذ قبلة فيصلي إليها فيعبد بها الله دون الكعبة، ومن المعلوم أن الآية من حيث إنها آية لا نفسية لها أصلا فليس المعبود عندها إلا الله سبحانه وتعالى، وقد تكرر الكلام في هذا المعنى فيما تقدم من أجزاء الكتاب.

د. ومن هنا يظهر أن ما ذكروه في توجيه الآية كقول بعضهم: إن تحية الناس يومئذ كانت هي السجدة كما أنها في الإسلام السلام، وقول بعضهم: إن سنة العظيم كانت إذ ذاك السجدة ولم ينه عنها لغير

الله بعد كما في الإسلام، وقول بعضهم: كان سجودهم كهيئة الركوع كما يفعله الأعاجم كل ذلك غير وجيه.

٤. ﴿قالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا﴾ إلى آخر الآية لما شاهد عليه السلام سجدة أبويه وإخوته الأحد عشر ذكر الرؤيا التي رأى فيها أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين وأخبر بها أباه وهو صغير فأولها له، فأشار إلى سجودهم له وقال: ﴿يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها﴾، أي الرؤيا، ﴿رَبِّي حَقًّا﴾

٥. ثم أثنى على ربه شاكرا له فقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾:

أ. فذكر إحسان ربه به في إخراجه من السجن وهو ضراء وبلاء دفعه الله عنه بتبديله سراء ونعمة من حيث لا يحتسب حيث جعله وسيلة لنيله العزة والملك.

ب. ولم يذكر إخراجه من الجب قبل ذلك لحضور إخوته عنده وكان لا يريد أن يذكر ما يسوؤهم ذكره كرما وفتوة بل أشار إلى ذلك بأحسن لفظ يمكن أن يشار به إليه من غير أن يتضمن طعنا فيهم وشنآنا فقال: ﴿وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ والنزغ هو الدخول في أمر لإفساده، والمراد: وقد أحسن بي من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي فكان من الأمر ما كان فأدى ذلك إلى فراق بيني وبينكم فساقني ربي إلى مصر فأقرني في أرغد عيش وأرفع عزة وملك ثم قرب بيننا بنقلكم من البادية إلي في دار المدنية والحضارة.

ج. يعني أنه كانت نوائب نزلت بي إثر إفساد الشيطان بيني وبين إخوتي ومما أخصه بالذكر من بينها فراق بيني وبينكم ثم رزية السجن فأحسن بي ربي ودفعها عني واحدة بعد أخرى ولم يكن من المحن والحوادث العادية بل رزايا صماء وعقودا لا تنحل لكن ربي نفذ فيها بلطفه ونفوذ قدرته فبدلها أسباب حياة ونعمة بعد ما كانت أسباب هلاك وشقاء ولهذه الثلاثة الأخيرة عقب قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ إلخ بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ﴾

٦. فقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ﴾:

أ. تعليل لإخراجه من السجن ومجيئهم من البدو، ويشير به إلى ما خصه الله به من العناية والمنة وإن البلايا التي أحاطت به لم تكن لتنحل عقدتها أو لتنحرف عن مجراها لكن الله لطيف لما يشاء نفذ فيها

فجعل عوامل الشدة عوامل رخاء وراحة وأسباب الذلة والرقية وسائل عزة وملك.

ب. واللطيف من أسمائه تعالى يدل على حضوره وإحاطته تعالى بما لا سبيل إلى الحضور فيه والإحاطة به من باطن الأشياء وهو من فروع إحاطته تعالى بنفوذ القدرة والعلم قال تعالى: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] والأصل في معناه الصغر والدقة والنفوذ يقال: لطف الشيء بالضم يلطف لطافة إذا صغر ودق حتى نفذ في المجاري والثقب الصغار، ويكنى به عن الإرفاق والملاءمة والاسم اللطف.

٧. ﴿هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ تعليل لجميع ما تقدم من قوله: ﴿يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا﴾، وقد علل عليه السلام الكلام وختمه بهذين الاسمين محاذاة لأبيه حيث تكلم في رؤياه وقال: ﴿وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وليس يبعد أن يفيد اللام في قوله: ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ معنى العهد فيفيد تصديقه لقول أبيه عليه السلام والمعنى: وهو ذاك العليم الحكيم الذي وصفته لي يوم أولت رؤياي.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، حدثني محمد بن عيسى: أن يحيى بن أكثم سأل موسى بن محمد بن علي بن موسى مسائل، فعرضها على أبي الحسن، وكان أحدها: أخبرني عن قول الله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ أسجد يعقوب وولده ليوسف وهم أنبياء؟، فأجاب أبو الحسن عليه السلام: أما سجود يعقوب وولده ليوسف فإنه لم يكن ليوسف، وإنما كان ذلك من يعقوب وولده طاعة لله وتحية ليوسف، كما كان السجود من الملائكة لآدم ولم يكن لآدم، وإنما كان ذلك منهم طاعة لله وتحية لآدم، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكرا لله تعالى لاجتماع شملهم، ألم تر أنه يقول في شكره ذلك الوقت: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، الحديث.

• أقول: وقد تقدم بعض الكلام في سجدتهم ليوسف في بيان الآيات، وظاهر الحديث أن يوسف أيضا سجد معهم كما سجدوا وقد استدل عليه بقول يوسف في شكره: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ وفي دلالته على ذلك إبهام.

ب. وقد روى الحديث العياشي في تفسيره، عن محمد بن سعيد الأزدي صاحب موسى بن محمد بن الرضا عليه السلام: قال لأخيه: إن يحيى بن أكثم كتب إليه يسأله عن مسائل، فأخبرني عن قول الله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ أسجد يعقوب وولده ليوسف؟، قال: فسألت أخي عن ذلك فقال: أما سجود يعقوب وولده ليوسف فشكرا لله تعالى لاجتماع شملهم، ألا ترى أنه يقول في شكر ذلك الوقت: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ الآية.

• وما رواه العياشي أوفق بلفظ الآية وأسلم من الإشكال مما رواه القمي.

ج. وفي تفسير العياشي، عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال: العرش السرير، وفي قوله: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ قال: كان سجودهم ذلك عبادة لله.

د. وفيه، عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال: فسار تسعة أيام إلى مصر فلما دخلوا على يوسف في دار الملك، اعتنق أباه فقبله وبكى، ورفع خالته على سرير الملك، ثم دخل منزله فادهن واكتحل ولبس ثياب العز والملك، ثم رجع إليهم، وفي نسخة ثم خرج إليهم، فلما رأوه، سجدوا جميعا إعظاما وشكرا لله فعند ذلك قال: ﴿يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ﴾ إلى قوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، قال: ولم يكن يوسف في تلك العشرين السنة يدهن ولا يكتحل ولا يتطيب ولا يضحك ولا يمس النساء حتى جمع الله ليعقوب شمله، وجمع بينه وبين يعقوب وإخوته)

هـ. وفي الكافي، بإسناده عن العباس بن هلال الشامي مولى أبي الحسن عليه السلام عنه قال: قلت له: جعلت فداك ما أعجب إلى الناس من يأكل الجشب، ويلبس الخشن ويخشع، فقال: أما علمت أن يوسف نبي ابن نبي، كان يلبس أقبية الديباج مزرورة بالذهب، فكان يجلس في مجالس آل فرعون يحكم، فلم يحتج الناس إلى لباسه وإنما احتاجوا إلى قسطه، وإنما يحتاج من الإمام في أن إذا قال صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا حكم عدل، لأن الله لا يحرم طعاما ولا شرابا من حلال، وحرم الحرام قل أو كثر وقد قال الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾

و. وفي تفسير العياشي، عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر، بعد ما جمع الله ليعقوب شمله، وأراه تأويل رؤيا يوسف الصادقة؟ قال: عاش حولين،

قلت: فمن كان يومئذ الحجة لله في الأرض؟ يعقوب أم يوسف؟ قال: كان يعقوب الحجة وكان الملك ليوسف، فلما مات يعقوب، حمل يوسف عظام يعقوب في تابوت إلى أرض الشام، فدفنه في بيت المقدس ثم كان يوسف ابن يعقوب الحجة.

• أقول: والروايات في قصته عليه السلام كثيرة اقتصرنا منها بما فيها مساس بالآيات الكريمة على أن أكثرها لا يخلو من تشوش في المتن وضعف في السند.

• ومما ورد في بعضها أن الله سبحانه جعل النبوة من آل يعقوب في صلب لاوي وهو الذي منع إخوته عن قتل يوسف حيث قال: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِ﴾ الآية وهو القائل لإخوته حين أخذ يوسف أخاه باتهام السرقة: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾ فشكر الله له ذلك.

• ومما ورد في عدة منها أن يوسف عليه السلام تزوج بامرأة العزيز وهي التي راودته عن نفسه، وذلك بعد ما مات العزيز في خلال تلك السنين المجدبة، ولا يبعد أن يكون ذلك شكرا منه تعالى لها حين صدقت يوسف بقولها: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لو صح الحديث.

٩. وضع هنا مبحثا حول [قصة يوسف عليه السلام]، خلاصته:

أ. يوسف النبي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، كان أحد أبناء يعقوب الاثني عشر وأصغرهم غير أخيه بنيامين، أراد الله أن يتم عليه نعمته بالعلم والحكم والعزة والملك، فبشره برؤيا رآها وهو صغير: أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدة له.

ب. حسد إخوته يوسف لحب أبيه له، فألقوه في الجب، والتقطته سيارة وباعته إلى عزيز مصر، فأكرمه العزيز وأدخله بيته، وعاش في كرامة حتى كبر وبلغ أشده، واجتباه الله وأخلصه لنفسه.

ج. راودته امرأة العزيز عن نفسه، فامتنع واعتصم بالله، وشهد صبي في المهد ببراءته، ثم دخل السجن بتهمة، وهناك فسر رؤيا صاحبيه، ثم رؤيا الملك، فخرج وعين على خزائن مصر، ودبر أمر السنين المجدبة.

د. جاء إخوته لشراء الطعام، فعرفهم وتنكر لهم، ثم احتال لحبس أخيه بنيامين، ثم كشف لهم عن نفسه، وعفا عنهم، وجاء بأبيه وأهله إلى مصر، ورفع أبويه على العرش، وتحقق تأويل رؤياه.

هـ. أثنى الله عليه بأنه من المخلصين، والصديقين، والمحسنين، وآتاه حكماً وعلماً، واجتباه وأتم نعمته عليه وألحقه بالصالحين.

و. التوراة تذكر قصة يوسف بشكل عام، لكنها تختلف في بعض التفاصيل، وتذكر أنه كان ابن سبع عشرة سنة، وأن إخوته باعوه بعشرين من الفضة، وتذكر تفاصيل إضافية عن حياة يعقوب في مصر.

١٠. وضع هنا مبحثا حول [الرؤيا في القرآن]، خلاصته:

أ. الرؤيا والمنامات كانت محط عناية البشر منذ العهود القديمة، ولها قوانين وتعبيرات مختلفة عند كل قوم، وقد اعتنى بها القرآن في قصص إبراهيم ويوسف وموسى والنبي ﷺ.

ب. للرؤيا حقيقة، ولا يمكن حمل المنامات الصحيحة التي تنبئ عن حوادث مستقبلة أو أمور خفية على مجرد الاتفاق والصدفة.

ج. الرؤيا أمر إدراكي، وللخيال فيها عمل، وتتأثر بالأسباب الخارجية (كالحر والبرد) والداخلية (كالأمراض والامتلاء) وبالأخلاق والسجايا الإنسانية، وأغلب الرؤى من التخيلات النفسانية التي تحكي أثر تلك الأسباب.

د. هناك ثلاثة عوالم: عالم الطبيعة (المادي)، وعالم المثال (فوق الطبيعة)، وعالم العقل (فوق المثال)، النفس الإنسانية لتجردها لها مسانخة مع عالمي المثال والعقل، فإذا نام الإنسان انقطعت عن الطبيعة ورجعت إلى عالمها المسانخ، فشاهدت الحقائق بحسب استعدادها.

هـ. المنامات الحقة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: صريحة (لا تحتاج إلى تعبير)، وأضغاث أحلام (لا تعبير لها لتعذر ردها إلى أصلها)، ومنامات تحتاج إلى التعبير (تصرفت فيها النفس بالحكاية والتمثيل)

و. القرآن يؤيد هذه الأقسام، فذكر رؤيا إبراهيم وأم موسى وبعض رؤي النبي من القسم الصريح، وذكر أضغاث الأحلام في قوله: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾، وذكر رؤيا يوسف وصاحبيه والملك من القسم الثالث الذي يحتاج إلى التعبير.

٣٧. دعاء يوسف ربه بأن يتوفاه مسلماً ويلحقه بالصالحين:

المقطع [٣٧] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي

بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٤٨»:

١. ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ إلى آخر الآية لما أثنى عليه السلام على ربه وعد ما دفع عنه من الشدائد والنوائب أراد أن يذكر ما خصه به من النعم المثبتة وقد هاجت به المحبة الإلهية وانقطع بها عن غيره تعالى فترك خطاب أبيه وانصرف عنه وعن غيره ملتفتا إلى ربه وخاطب ربه عز اسمه فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾

٢. ﴿فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾:

أ. إضراب وترق في الثناء، ورجوع منه عليه السلام إلى ذكر أصل الولاية الإلهية بعد ما ذكر بعض مظاهرها الجلية كإخراجه من السجن والمجيء بأهله من البدو وإيتائه من الملك وتعليمه من تأويل الأحاديث فإن الله سبحانه رب فيما دق وجل معا، ولي في الدنيا والآخرة جميعا.

ب. وولايته تعالى أعني كونه قائما كل شيء في ذاته وصفاته وأفعاله منشأها إيجاده تعالى إياها جميعا وإظهاره لها من كتم العدم فهو فاطر السماوات والأرض ولذا يتوجه إليه تعالى قلوب أوليائه والمخلصين من عباده من طريق هذا الاسم الذي يفيد وجوده تعالى لذاته وإيجاده لغيره قال تعالى: ﴿قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]

ج. ولذا بدأ به يوسف عليه السلام، وهو من المخلصين، في ذكر ولايته فقال: ﴿فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾ أي إني تحت ولايتك التامة من غير أن يكون لي صنع في نفسي واستقلال في ذاتي وصفاتي وأفعالي أو أملك لنفسي شيئا من نفع أو ضر أو موت أو حياة أو نشور.

٣. ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾:

أ. لما استغرق عليه السلام في مقام الذلة قبال رب العزة وشهد بولايته له في الدنيا والآخرة سأله سؤال المملوك المولى عليه أن يجعله كما يستدعيه ولايته عليه في الدنيا والآخرة وهو الإسلام ما دام حيا في الدنيا والدخول في زمرة الصالحين في الآخرة فإن كمال العبد المملوك أن يسلم لربه ما يريده منه ما دام حيا ولا يظهر منه ما يكرهه ولا يرتضيه فيما يرجع إليه من الأعمال الاختيارية وأن يكون صالحا لقرب مولاه لائقا لمواهبه السامية فيما لا يرجع إلى العبد واختياره، وهو سؤاله عليه السلام الإسلام في الدنيا والدخول في زمرة الصالحين في الآخرة وهو الذي منحه الله سبحانه لجده إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي

الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وهذا الإسلام الذي سأله عليه السلام أقصى درجات الإسلام وأعلى مراتبه، وهو التسليم المحض لله سبحانه، وهو أن لا يرى العبد لنفسه ولا لآثار نفسه شيئا من الاستقلال حتى لا يشغله شيء من نفسه ولا صفاتها ولا أعمالها من ربه، وإذا نسب إليه تعالى كان إخلاصه عبده لنفسه.

ب. ومما تقدم يظهر أن قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾ سؤال منه لبقاء الإخلاص واستمرار الإسلام ما دام حيا وبعبارة أخرى أن يعيش مسلما حتى يتوفاه الله فهو كناية عن أن يثبته الله على الإسلام حتى يموت، وليس يراد به أن يموت في حال الإسلام ولو لم يكن قبل ذلك مسلما، ولا سؤالا للموت وهو مسلم حتى يكون المعنى أني مسلم فتوفني.

ج. ويتبين بذلك فساد ما روي عن عدة من قدماء المفسرين أن قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾ دعاء منه يسأل به الموت من الله سبحانه حتى قال بعضهم: لم يسأل أحد من الأنبياء الموت من الله ولا تمناه إلا يوسف عليه السلام.

٣٨. قصص الغيب وحي إلهي:

المقطع [٣٨] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٢-١٠٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٥٠»:

١. ﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾:

أ. الإشارة إلى نبإ يوسف عليه السلام، والخطاب للنبي ﷺ، وضمير الجمع لإخوة يوسف والإجماع العزم والإرادة.

ب. ﴿وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ حال من ضمير الخطاب من ﴿إِلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ﴾ إلى آخر الآية بيان لقوله: ﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ﴾ والمعنى أن نبأ يوسف من أنباء الغيب فإنا نوحيه إليك والحال أنك ما كنت عند إخوة يوسف إذ عزموا على أمرهم وهم يمكرون في أمر يوسف.

٢. ﴿وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليس من شأن أكثر الناس لانكبابهم على الدنيا وانجذاب نفوسهم إلى زينتها وسهوهم عما أودع في فطرهم من العلم بالله وآياته أن يؤمنوا به، ولو حرصت

وأحببت إيمانهم، والدليل على هذا المعنى الآيات التالية.

٣. ﴿وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ الواو حالية أي ما هم بمؤمنين والحال أنك ما تسألهم على إيمانهم أو على هذا القرآن الذي ننزله عليك وتتلوه عليهم من أجر حتى يصدهم الغرامة المالية وإنفاق ما يحبونه من المال عن قبول دعوته والإيمان به.

٤. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ بيان لشأن القرآن الواقعي وهو أنه ممحض في أنه ذكر للعالمين يذكرون به ما أودع الله في قلوب جماعات البشر من العلم به وبآياته فما هو إلا ذكر يذكرون به ما أنستهم الغفلة والإعراض وليس من الأمتعة التي يكتسب بها الأموال أو ينال بها عزة أو جاه أو غير ذلك.

٣٩. الآيات والإعراض والشرك:

المقطع [٣٩] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥-١٠٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٥٣»:

١. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾:

أ. الواو حالية ويحتمل الاستئناف والمرور على الشيء هو موافاته ثم تركه بموافاة ما وراءه فالمرور على الآيات السماوية والأرضية مشاهدتها واحدة بعد أخرى، والمعنى أن هناك آيات كثيرة سماوية وأرضية تدل بوجودها والنظام البديع الجاري فيها على توحيد ربهم وهم يشاهدونها واحدة بعد أخرى فتتكرر عليهم والحال أنهم معرضون عنها لا يتنبهون.

ب. ولو حمل قوله: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْها﴾ على التصريح دون الكناية كان من الدليل على ما يبتني عليه الهيأة الحديثة من حركة الأرض وضعا وانتقالا فإنا نحن المارون على الأجرام السماوية بحركة الأرض الانتقالية والوضعية لا بالعكس على ما يخيل إلينا في ظاهر الحس.

٢. ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾:

أ. الضمير في ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ راجع إلى الناس باعتبار إيمانهم أي أكثر الناس ليسوا بمؤمنين وإن لم تسألهم عليه أجرا وإن كانوا يمرون على الآيات السماوية والأرضية على كثرتها والذين آمنوا منهم، وهم

الأقلون، ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم متلبسون بالشرك.

ب. وتلبس الإنسان بالإيمان والشرك معا مع كونهما معنيين متقابلين لا يجتمعان في محل واحد نظير تلبسه بسائر الاعتقادات المتناقضة والأخلاق المتضادة إنما يكون من جهة كونها من المعاني التي تقبل في نفسها القوة والضعف فتختلف بالنسبة والإضافة كالقرب والبعد فإن القرب والبعد المطلقين لا يجتمعان إلا أنهما إذا كانا نسبيين لا يمتنعان الاجتماع والتصادق كمكة فإنها قريبة بالنسبة إلى المدينة بعيدة بالنسبة إلى الشام، وكذا هي بعيدة من الشام إذا قيست إلى المدينة قريبة منه إذا قيست إلى بغداد.

ج. والإيمان بالله والشرك به وحقيقتهما تعلق القلب بالله بالخضوع للحقيقة الواجبية وتعلق القلب بغيره تعالى مما لا يملك شيئا إلا بإذنه تعالى يختلفان بحسب النسبة والإضافة فإن من الجائز أن يتعلق الإنسان مثلا بالحياة الدنيا الفانية وزينتها الباطلة وينسى مع ذلك كل حق وحقيقة، ومن الجائز أن ينقطع عن كل ما يصد النفس ويشغلها عن الله سبحانه ويتوجه بكله إليه ويذكره ولا يغفل عنه فلا يركن في ذاته وصفاته إلا إليه ولا يريد إلا ما يريده كالمخلصين من أوليائه تعالى.

د. وبين المنزلتين مراتب مختلفة بالقرب من أحد الجانبين والبعد منه وهي التي يجتمع فيها الطرفان بنحو من الاجتماع، ومن الدليل على ذلك الأخلاق والصفات المتمكنة في النفوس التي تخالف مقتضى ما تعتقده من حق أو باطل، والأعمال الصادرة منها كذلك ترى من يدعي الإيمان بالله يخاف وترتعد فرائصه من أي نائبة أو مصيبة تهدده وهو يذكر أن لا قوة إلا بالله، ويلتمس العزة والجاه من غيره وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ ويقرع كل باب يبتغي الرزق وقد ضمنه الله، ويعصي الله ولا يستحيي وهو يرى أن ربه عليم بما في نفسه سميع لما يقول بصير بما يعمل ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وعلى هذا القياس.

هـ. والمراد بالشرك في الآية بعض مراتبه الذي يجامع بعض مراتب الإيمان وهو المسمى باصطلاح فن الأخلاق بالشرك الخفي.

و. فما قيل: إن المراد بالمشركين في الآية مشركو مكة في غير محله، وكذا ما قيل: إنهم المنافقون، وهو تقييد لإطلاق الآية من غير مقيد.

٣. ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾:

أ. الغاشية صفة سادة مسد الموصوف المحذوف لدلالة كلمة العذاب عليه، والتقدير عقوبة غاشية تغشاهم وتحيط بهم.

ب. والبغتة الفجأة، وقوله: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ حال من ضمير الجمع أي تفاجئهم الساعة في إتيانها والحال أنهم لا يشعرون بإتيانها لعدم مسبوقيتها بعلامات تعين وقتها وتشخص قيامها والاستفهام للتعجيب، والمعنى أن أمرهم في إعراضهم عن آيات السماء والأرض وعدم إخلاصهم الإيمان لله وتماديهم في الغفلة عجيب أفأمنوا عذابا من الله يغشاهم أو ساعة تفاجئهم وتبهتهم؟

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده عن الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله تعالى: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال شرك طاعة وليس شرك عبادة، والمعاصي التي يرتكبون فهي شرك طاعة، أطاعوا فيها الشيطان فأشركوا بالله الطاعة لغيره، وليس بإشراك عبادة أن يعبدوا غير الله.

ب. وفي تفسير العياشي، عن محمد بن الفضيل عن الرضا عليه السلام قال: شرك لا يبلغ به الكفر.

ج. وفيه، عن مالك بن عطية عن أبي عبد الله عليه السلام: في الآية قال: هو الرجل يقول: لولا فلان لهلكت، ولو لا فلان لأصبت كذا وكذا ولضاع عيالي، ألا ترى أنه جعل لله شريكا في ملكه يرزقه ويدفع عنه؟ قال: قلت: فيقول: لولا أن من الله علي بفلان لهلكت، قال: نعم لا بأس بهذا.

د. وفيه، عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ، إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال: من ذلك قول الرجل: لا وحياتك.

• أقول: يعني القسم بغير الله لما فيه من تعظيمه بما لا يستحقه بذاته والأخبار في هذه المعاني كثيرة.

٤٠. سبيل الله والدعوة على بصيرة:

المقطع [٤٠] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهَّ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهَّ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٧٧»:

١. ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾:

أ. لما ذكر سبحانه أن محض الإيمان به والإخلاص التوحيد له عزيز المنال وهو الحق الصريح الذي

تدل عليه آيات السماوات والأرض أمر نبيه ﷺ أن يبين لهم أن سبيله هو الدعاء إلى هذا التوحيد على بصيرة.

ب. فقوله: ﴿هذِهِ سَبِيلِي﴾ إعلان لسبيله، وقوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ﴾ بيان للسبيل، وقوله: ﴿وَسُبْحانَ اللهِ﴾ اعتراض للتنزيه، وقوله: ﴿وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيد لمعنى الدعوة إلى الله وبيان أن هذه الدعوة ليست دعوة إليه تعالى كيف كان بل دعوة على أساس التوحيد الخالص لا معدل عنه إلى شرك أصلا.

ج. وأما قوله: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ فتوسعة وتعميم لحمل الدعوة وأن السبيل وإن كانت سبيل النبي ﷺ مختصة به لكن حمل الدعوة والقيام به لا يختص به بل من اتبعه ﷺ يقوم بها لنفسه.

د. لكن السياق يدل على أن الإشراك ليس بذاك العموم الذي يتراءى من لفظ ﴿مَنِ اتَّبَعَنِي﴾ فإن السبيل التي تعرفها الآية هي الدعوة عن بصيرة ويقين إلى إيمان محض وتوحيد خالص وإنما يشاركه ﷺ فيها من كان مخلصا لله في دينه عالما بمقام ربه ذا بصيرة ويقين وليس كل من صدق عليه أنه اتبعه على هذا النعت، ولا أن الاستواء على هذا المستوي مبذول لكل مؤمن حتى الذين عدهم الله سبحانه في الآية السابقة من المشركين وذمهم بأنهم غافلون عن ربهم آمنون من مكره معرضون عن آياته، وكيف يدعو إلى الله من كان غافلا عنه آمنا من مكره معرضا عن آياته وذكره؟ وقد وصف الله في آيات كثيرة أصحاب هذه النعوت بالضلال والعمى والخسران ولا تجتمع هذه الخصال بالهداية والإرشاد البتة.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ قال: ذاك رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين، والأوصياء من بعدهما.

ب. وفيه، بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام: في الآية قال: يعني على أول من اتبعه على الإيمان والتصديق له، وبما جاء به من عند الله عز وجل من الأمة التي بعث فيها ومنها، وإليها قبل الخلق ممن لم يشرك بالله قط، ولم يلبس إيمانه بظلم وهو الشرك.

• أقول: والروايتان تؤيدان ما قدمناه في بيان الآية وفي معناهما روايات، ولعل ذكر المصداق من باب التطبيق.

ج. وفيه، بإسناده عن هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله ﴿سُبْحانَ

اللهِ﴾ ما يعني به؟ قال: أنفة لله.

د. وفيه، بإسناده عن هشام الجواليقي قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل: ﴿سُبْحانَ اللهِ﴾ قال: تنزيه.

٤١. إرسال الأنبياء إلى القرى والسير في الأرض لمعرفة العاقبة:

المقطع [٤١] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٧٨»:

١. ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾ إلى آخر الآية، لما ذكر سبحانه حال الناس في الإيمان به ثم حال النبي ﷺ في دعوته إياهم عن رسالة إلهية من غير أن يسألهم فيها أجرا أو يجر لنفسه نفعا بين أن ذلك ليس ببدع من الأمر بل مما جرت عليه السنة الإلهية في الدعوة الدينية فلم يكن الرسل الماضون ملائكة وإنما بعثوا من بين هؤلاء الناس وكانوا رجالا من أهل القرى يخالطون الناس ويعرفون عندهم أوحى الله إليهم وأرسلهم نحوهم يدعونهم إليه كما أن النبي كذلك، ومن الممكن أن يسير هؤلاء المدعوون في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم فبلادهم الخربة ومساكنهم الخالية تفصح عما آل إليه أمرهم، وتنبئ عن عاقبة كفرهم وجحودهم وتكذيبهم لآيات الله، فالنبي ﷺ لا يدعوهم إلا كما كان يدعوهم الأنبياء من قبله، وليس يدعوهم إلا إلى ما فيه خيرهم وصلاح حالهم وهو أن يتقوا الله فيفلحوا ويفوزوا بسعادة خالدة ونعيم مقيم في دار باقية ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون.

٢. فقوله: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾ تطبيق لدعوة النبي ﷺ على دعوة من قبله من الرسل، ولعل توصيفهم بأنهم كانوا من أهل القرى للدلالة على أنهم كانوا من أنفسهم يعيشون بينهم ومعروفين عندهم بالمعاشرة والمخالطة ولم يكونوا ملائكة ولا من غير أنفسهم، ويؤيد ذلك توصيفهم بأنهم كانوا رجالا فإن الرجال كانوا أقرب إلى المعرفة من النساء ذوات الخدر.

٣. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إنذار لأمة النبي ﷺ بمثل ما أنذر به الأمم الخالية فلم يسمعوا فذاقوا وبال أمرهم.

٤. ﴿وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ بيان النصح وأن ما يدعون إليه وهو التقوى ليس وراءه إلا ما فيه كل خيرهم وجماع سعادتهم.

٥. أحاديث وآثار: في المعاني، بإسناده عن السيار عن الحسن بن علي عن آبائه عن الصادق عليه السلام في حديث قال فيه مخاطبا: أولست تعلم أن الله تعالى لم يخل الدنيا قط، من نبي أو إمام من البشر؟ أوليس الله تعالى يقول: ﴿وما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني إلى الخلق ﴿إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾ فأخبر أنه لم يبعث الملائكة إلى الأرض فيكونوا أئمة وحكاما وإنما أرسلوا إلى الأنبياء.

٤٢. استيئاس الرسل ونصر الله:

المقطع [٤٢] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٧٩»:

١. ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا﴾ إلى آخر الآية:

أ. ذكروا أن يأس واستيئس بمعنى، ولا يبعد أن يقال: إن الاستيئاس هو الاقتراب من اليأس بظهور آثاره لمكان هيئة الاستفعال وهو مما يعد يأسا عرفا وليس باليأس القاطع حقيقة.

ب. ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ﴾ متعلق الغاية بما يتحصل من الآية السابقة والمعنى تلك الرسل الذين كانوا رجالا أمثالك من أهل القرى وتلك قراهم البائدة دعوهم فلم يستجيبوا وأنذروهم بعذاب الله فلم ينتهوا حتى إذا استيئس الرسل من إيمان أولئك الناس، وظن الناس أن الرسل قد كذبوا أي أخبروا بالعذاب كذبا جاء نصرنا فنجيء بذلك من نشاء وهم المؤمنون ولا يرد بأسنا أي شدتنا عن القوم المجرمين.

ج. أما استيئس الرسل من إيمان قومهم فكما أخبر في قصة نوح: ﴿وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] ﴿وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٧] ويوجد نظيره في قصص هود وصالح وشعيب وموسى وعيسى عليه السلام.

د. وأما ظن أممهم أنهم قد كذبوا فكما أخبر عنه في قصة نوح من قولهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ﴾

[هود: ٢٧]، وكذا في قصة هود وصالح وقوله: ﴿فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً﴾ [الإسراء: ١٠١]

٢. وأما تنجية المؤمنين بالنصر فكقوله تعالى: ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقد أخبر به في هلاك بعض الأمم أيضا كقوله: ﴿نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: ٥٨] ﴿نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: ٦٦] ﴿نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: ٤]، إلى غير ذلك.

٣. وأما إن بأس الله لا يرد عن المجرمين فمذكور في آيات كثيرة عموما وخصوصا كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]، وقوله: ﴿وَإِذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ﴾ [الرعد: ١١] إلى غير ذلك من الآيات.

٤. هذا أحسن ما أوردوه في الآية من المعاني، والدليل عليه كون الآية بمضمونها غاية لما تتضمنه سابقتها كما قدمناه، وقد أوردوا لها معاني أخرى لا يخلو شيء منها من السقم والإضراب عنها أوجه.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في العيون، بإسناده عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى عليه السلام فقال له المأمون: يا ابن رسول الله أليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، وذكر الحديث إلى أن قال فيه، قال المأمون لأبي الحسن: فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا﴾ قال الرضا: يقول الله: حتى إذا استيئس الرسل من قومهم، فظن قومهم أن الرسل قد كذبوا جاء الرسل نصرنا.

• أقول: وهو يؤيد ما قدمناه في بيان الآية، وما في بعض الروايات أن الرسل ظنوا أن الشيطان تمثل لهم في صورة الملائكة لا يعتمد عليه.

ب. وفي تفسير العياشي، عن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف لم يخف رسول الله فيما يأتيه من قبل الله، أن يكون ذلك مما ينزغ به الشيطان؟ قال: فقال: إن الله إذا اتخذ عبدا رسولا، أنزل عليه السكينة والوقار، وكان الذي يأتيه من الله مثل الذي يراه بعينه.

ج. أخرج ابن جرير وابن المنذر عن إبراهيم عن أبي حمزة الجزري قال: صنعت طعاما فدعوت ناسا من أصحابنا، منهم سعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم، فسأل فتى من قريش سعيد بن جبير فقال:

يا أبا عبد الله كيف تقرأ هذا الحرف؟ فإني إذا أتيت عليه تمنيت أني لا أقرأ هذه السورة: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ قال: نعم حتى إذا استيئس الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا فقال الضحاك: لو رحلت في هذه إلى اليمن لكان قليلا.

٤٣. في قصص الأنبياء عبرة لأولي الألباب:

المقطع [٤٣] من سورة يوسف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١١/ ٢٨٠»:

١. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال الراغب أصل العبر تجاوز من حال إلى حال فأما العبور فيختص بتجاوز الماء، إلى أن قال، والاعتبار والعبرة بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾)

ب. والضمير في قصصهم للأنبياء ومنهم يوسف صاحب القصة في السورة، واحتمل رجوعه إلى يوسف وإخوته والمعنى أقسم لقد كان في قصص الأنبياء أو يوسف وإخوته عبرة لأصحاب العقول، ما كان القصص المذكور في السورة حديثا يفتري ولكن تصديق الذي بين يدي القرآن، وهو التوراة المذكور فيها القصة يعني توراة موسى عليه السلام.

٢. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي بيانا وتمييزا لكل شيء مما يحتاج إليه الناس في دينهم الذي عليه بناء سعادتهم في الدنيا والآخرة، وهدى إلى السعادة والفلاح ورحمة خاصة من الله سبحانه لقوم يؤمنون به فإنه رحمة من الله لهم يهتدون بهدايته إلى صراط مستقيم.